

باسيليو بابون مالدونادو
عمارة المساجد في الأندلس
مدخل عام

ترجمة: د. علي إبراهيم منوفي



نبذة عن المؤلف:

أستاذ جامعي، باحث في علم الآثار الإسلامية في كل من شبه جزيرة إيبيريا والشمال الأفريقي، وقد أصبح اليوم حجة في هذا التخصص، وهو عضو باحث في المجلس الأعلى للأبحاث العلمية في إسبانيا.. شارك في العديد من المؤتمرات الدولية في هذا الحقل، وكان أحد أعضاء فريق التحرير في مجلة «القنطرة» الإسبانية التي خلفت «مجلة الأندلس»، التي كانت تعنى بالدراسات العربية والإسلامية في الأندلس على مر العصور.

تتلمذ على أيدي كل من تورس بالباس وجومث موزينو، وبالتالي فهو من أبرز الباحثين في الحلقة - الجيل - التي تربط بين هذا الجيل العملاق من الرعيل الأول في مجال علم الآثار الإسلامي في إسبانيا - إن صح القول - وبين الجيل الجديد من شباب الباحثين الإسبان.

يعنى هذا الباحث بالعمل على إبراز الموروث المحلي في الموروث الحضاري العربي الإسلامي الذي كان حلقة الوصل بين أوروبا والمشرق.

من مؤلفاته: الزخرفة الأندلسية، الزخرفة الهندسية، والزخرفة النباتية، الفن الطليطلي، الإسلامي والمدجن، عمارة المياه في الأندلس، عمارة المدن في الأندلس، عمارة القصور في الأندلس، عمارة المساجد في الأندلس، إضافة إلى الكثير من المقالات والأبحاث.

نبذة عن المترجم:

أستاذ جامعي، درس الإسبانية بكلية اللغات والترجمة، جامعة الأزهر، وحصل على درجة الدكتوراه من كلية فقه اللغة، جامعة سلمنقة، إسبانيا، في مجال الشعر الإسباني المعاصر. قام بالتدريس في كل من جامعة الأزهر - ولا يزال - وجامعة طنطا، وجامعة الملك سعود، ومدينة العلوم والفنون بمصر.

وهو أيضاً مترجم فوري وتحريري وباحث، نشر عدداً من الأبحاث العلمية باللغتين العربية والإسبانية، إضافة إلى ما يزيد على ثلاثين عنواناً من الأعمال المترجمة عن الإسبانية التي تتناول الإبداع الأدبي في إسبانيا وأمريكا اللاتينية، غير أن أغلب جهده الترجمي تركز في مجال الفن والعمارة في الأندلس.

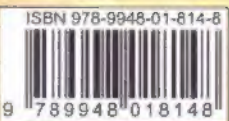
وفي مجال الترجمة أيضاً تعاون مع مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف.

مدخل عام لعمارة المساجد في الأندلس

يعد هذا الكتاب الذي بين أيدينا مدخلاً مهماً لعمارة المساجد في الأندلس، وفيه يسلط المؤلف الضوء على المرحلة الانتقالية وعلى بداية الحلقة العربية الإسلامية في تاريخ العمارة في الأندلس، وهنا علينا أن نشير إلى أن هناك قواسم مشتركة بين مدارس الثقافة العربية الإسلامية في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، إضافة إلى بُعد آخر، ألا وهو الإسهام المحلي الذي يعطي هذه الثقافة مذاقاً خاصاً.

يتناول الكتاب الكثير من الموضوعات المشتركة بين المساجد جميعها فيما يتعلق بالتخطيط العمراني والموقع والمآذن والمنابر والقبلة ومفهوم حرم المساجد والأسقف والإضاءة والصرف الصحي ومخططات المساجد وتنوعها والمواد الخام المستخدمة... إلخ.

والكتاب يأتي ضمن سلسلة مختارة من مكتبة جامع الشيخ زايد الكبير.



عمارة المساجد في الأندلس

مدخل عام

©حقوق الطبع محفوظة
هيئة أبوظبي للثقافة والتراث (كلمة)
الطبعة الأولى 1432 هـ 2011 م

عمارة المساجد في الأندلس: مدخل عام
باسيليو بابون مالدونادو

NA385.P38612 2011
Basilio Pavon Maldonado

عمارة المساجد في الأندلس: مدخل عام/ تأليف: باسيليو بابون مالدونادو؛
ترجمة: علي إبراهيم منوفي - ط1 - أبوظبي: هيئة أبوظبي للثقافة والتراث، كلمة، 2011.
318 ص: 27x21 سم.

ترجمة كتاب: Tratado de Arquitectura Hispanomusulmana
تدعم: 978-9948-01-814-8
1 - العمارة الإسلامية - إسبانيا - الأندلس. أ - منوفي، علي إبراهيم. ب - العنوان.

ينضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإسباني:

Basilio Pavon Maldonado

Tratado de Arquitectura Hispanomusulmana

Copyright © by Basilio Pavon Maldonado

TRATADO DE ARQUITECTURA HISPANO

MUSULMANA-VOLUMEN IV-DERECHOS CEDIDOS POR
EL CONSEJO SUPERIOR DE INVESTIGACIONES CIENTIFICAS



info@kalima.ae كلمة
www.kalima.ae KALIMA

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 971 2 6314 468، فاكس: 971 2 6314 462.



أبوظبي للثقافة والتراث
www.adach.ae ABU DHABI CULTURE & HERITAGE

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة هاتف: 971 2 6215 300، فاكس: 971 2 6336 059.

«إن هيئة أبوظبي للثقافة والتراث «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وتعتبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة».

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ «كلمة»

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيه حفظ المعلومات واسترجاعها دون إذن خطي من الناشر.



عمارة المساجد في الأندلس مدخل عام

تأليف:
باسيليو بابون مالدونادو

ترجمة: د. علي إبراهيم منوفي

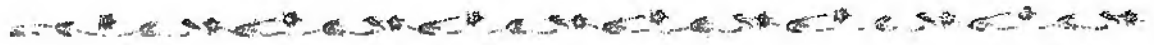
المحتويات

7

مدخل

الفصل الأول دور العبادة المسيحية عند وصول العرب

18	الكنائس القوطية، ما هو مستعرب Mozarabes
45	- العقد الحدوي
49	المساجد
57	1- الصحن
63	2- صحن الدير، المدجن كوريت لصحن المسجد
65	3- الصومعة أو المنار
90	تطور المنارات من خلال الأبراج المدججة في الكنائس
95	4- حرم المسجد (الجزء المستوف)
97	5- حائط القبلة أو (حائط المحراب)
108	6- أبواب المساجد وواجهاتها
126	1-6: الزخرفة
133	7- تحليل كمي للمساجد
146	8- الترابط، الأربطة، الزوايا
153	9- المنستير، Monasterium
155	10- إطلاق أسماء «سانتا ماريا وسان سلبادور» على مساجد وتكريسها للعبادة المسيحية
160	11- مكان المسجد والكنيسة في مخططات المدن الإسبانية الإسلامية
187	12- توسعة المساجد
205	المصليات
206	الخطبة
210	13- الميضاة
212	14- مسجد الباب المردوم بطليلة
213	15- الوظيفة الحربية لبعض المساجد
215	16- مساجد الحصون والقصور
218	17- المسجد والأسوار والحصن والمدينة
220	1-17 موضوع المسجد الجنائزي
221	18- مساحة المساجد الجامعة
225	19- ارتفاعات المنارات ومقاساتها

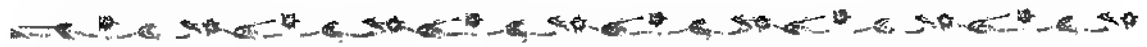


- 20- لوحة خاصة بدور العبادة المسيحية خلال القرون الوسطى أو المدجّنة مقارنة
بمسطحات المساجد الإسبانية الإسلامية التي جرت دراستها. 226
- 21- المسطحات الأفقية للمدن الإسبانية الإسلامية ذات المساجد الحقيقية أو المساجد المفترضة. 227
- 22- الإضاءة في المساجد. 228
- 23- الأعمدة والأبدان والقواعد والنتيجان والحدائثر في المساجد. 233
- المسجد الجامع في قرطبة. 243
- المسجد الجامع في تطيلة. 247
- 24- الأرضيات. 249
- 25- مشكلة الأسقف الخشبية في المساجد وما يوازيها في المساجد المدجّنة. 249
- 26- المدرسة. 254
- 27- قائمة بمخططات المساجد الرئيسية في المشرق وشمال أفريقيا وإسبانيا التي جرت
دراستها في هذا الفصل. 256
- 28- ملحق: الأسر الحاكمة في البلاد العربية. 258
- مسترد لأهم المصطلحات المعمارية 314

مدخل

يتولّى هذا الكتاب دراسة عمارة المساجد الإسبانية الإسلامية وتطورها وارتباطها، في حدود الممكن، بالمساجد الرئيسية في شمال أفريقيا والمشرق الإسلامي، وهي دراسة تعنى بعرض ما عليه أمر هذه الآثار وما جد من جديد في ميدان دراستها، سواء من حيث الرؤى أو الطرح، خلال العقود الأخيرة، في المناطق الجغرافية لشبه الجزيرة الإيبيرية والدول المجاورة وهي المغرب والجزائر وتونس. وسوف نسلط الضوء على الاستخدام المزدوج للمبنى الواحد كدار للعبادة المسيحية أو الإسلامية، وخصوصاً في العصور الأولى للإسلام في الأندلس، وكذلك المسجد الكنيسة من المنظور المسيحي ابتداء من عام 1085م، أي أننا سوف نتناول قضية انتقال مبنى يمينه من يد المسيحيين إلى المسلمين والعكس؛ ومن هذا المنطلق، سوف نتناول بالدراسة قضية تلك الحدود الفاصلة بين دار العبادة القوطية ودار العبادة المستعمرية في المرحلة الأولى وما يفصلهما من المسجد وهي قضية لم تُحل بشكل جذري حتى الآن؛ وبالتسوية لحالة المسجد الكنيسة، فإننا سنسلط الضوء على دار العبادة المدجّنة كعامل رسالة الفن نيابة عن المسجد، على الموروث الإسلامي في الإطار المسيحي ابتداء من طليطلة، وهذا ما يتمثل في الكنائس المشيدة من الآجر ومدى استمراريتها، ومدى ما حدث لها من مواءمة للسماط العربية الموروثة، فلو قمنا بالفعل بإلحاق ما هو مدجّن في الإطار العربي واعتبرناه فناً يعذو حدو الفن العربي الإسباني، فمن المؤسف أن تؤدي بنا هذه الرؤية إلى النظر إلى الثقافة الإسبانية الإسلامية على أنها وصلت إلينا دون أن تكون لها عصور أو فترات لاحقة بها وثابة، وبالتالي تبدو غير كاملة الأركان. لتست أدري فيما إذا كان من الممكن أو من الجائز أكاديمياً - بشكل كامل - أن نعرف عن ما هو إسلامي، ابتداء مما هو مدجّن، أي عملية التحول التدريجي للمساجد التي ورثناها عن العرب وأصبحت في الأراضي المسيحية، وهل يمكن استعادة المسجد الجامع بإشبيلية ابتداء من الكنائس والأبراج المشيدة من الآجر في المدينة ابتداء من عام 1248م؟ هل يمكن أن نرى في الأبراج المدجّنة بطليطلة صورة المآذن المحلية التي زالت من الوجود؟ لازالت هناك دور للعبادة، المدجّنة، مليئة بالكثير من الملامح الإسلامية التي لازالت تستمضي على الدخول في إطار الأعمال المسيحية التي قام بها المسلمون الذين يعيشون تحت المظلة المسيحية، أو العبرانيون؛ إنها عملية النفاذ بعمق لدراسة تلك العقود التي أزيلت عنها زخارفها، وهي عقود المساجد القائمة أو التي زالت من الوجود؛ غير أن مقصدي لا يتمثل في الوقوف كثيراً بالقارئ عند هذه النقطة الخاصة بالعمارة المدجّنة، ولكن أن أشير بوضوح إلى فن تعايش، وفيه جرعة ما هو عربي، وامتد هذا حتى وصلنا إلى اعتبار عصر النهضة، ومن هنا فإن عناوين مثل «الفن الإسباني الإسلامي والفن المدجّن»: أي التوازي في الفن المدجّن والمغربي كمرحلة أسلوبية فنية، تثبت أساساً من أصول الفن الأندلسي، والفيصل في هذا كله البحث الأثاري أو المعماري من حيث المنظور أو طرح النظريات حول دار العبادة والقصر والمسطح الحضري (الرقعة العمرانية)، مع الأخذ في الحسبان أن ستكون هناك استثناءات تتعلق بالمباني السابقة على العصر العربي وأفاد منها المسلمون في المساجد؛ وفي السياق نفسه نجد أوليات دور العبادة المدجّنة، وخاصة في طليطلة؛ هذه الدراسة سوف تكون دراسة تصويرية في المقام الأول ينتظم في عقدها ما هو بنيوي وما هو زخرفي يتعلق بالآثار المنتشرة في أقاليم شبه جزيرة إيبيريا كافة؛ وهنا أرى أنه كانت تقصنا رؤية شاملة للمساجد الإسبانية الإسلامية تقوم فيها بالولوج خطوة أخرى بالواقع المعماري الديني الخاص بنا إلى مركز الثقافة المرئية للإسلام؛ أي المزيد من القدسية أو الإعلاء من شأن المسجد الجامع بقرطبة الذي يعتبر المعرك أو المهد الخاص بكافة جوانب الفن الإسباني الإسلامي والمغربي، أكثر مما عليه مدينة الزهراء.

نعرف أيضاً أن المصادر الكتابية، أو ما يرد من معلومات من خلال الحوليات، يتسم بندرقه وأن الكثير منها غير محدد، فمن الجانب العربي نجد أن كتاب الحوليات زودونا بأبناء متفرقة ومقتضبة باستثناء تلك المتعلقة بالمسجد



الجامع في كل من قرطبة وإشبيلية القرن الثاني عشر الميلادي؛ تتوفر لدينا أيضاً معلومات جيدة عن المسجد الجامع في القيروان في شمال أفريقيا، وهو نموذج لا يمكن تجاوزه عندما نتحدث عن الفن الأموي في شبه جزيرة إيبيريا؛ أما بالنسبة لدور العبادة المدجّنة فهي لازالت قائمة بكثرة، ومع هذا خيم الصمت على المصادر التاريخية بشأنها دون ذكر تواريخ محددة أو مؤسسين أو أسماء العُرفاء؛ ومع هذا فإن تاريخ العمارة الإسلامية والمدجّنة قد خطا اليوم خطوات عملاقة ومحمودة في هذا الطريق، إذ نرى أن آخر موجة من هذه الدراسات تطالعنا بإحصائيات وبيانات دقيقة عنها تتسم باقترابها من درجة الاكتمال وربما تتفوق في ذلك على الفترة الإسلامية السابقة عليها، وعلى أي حال فإن المنطلق والركيزة في مثل هذه الدراسات (الإسلامية والمدجّنة) هو الدراسات التي قام بها جومث مورينو وليو بولندو تورس بالباس، و ف. إيرنانديث، و ج. مارسيه، وهنري ترأس؛ هذان الأخيران، هـ. باست H. Basset و ج. كاليه J. Caille ركزا جُلَّ جهدهما على العمارة المغربية، وهنا نلاحظ أن المخططات التي وضعها للمساجد دخلت عليها تجديدات جزئية في السنوات الأخيرة على يد كل من ك. إيورت Ch. Ewert و ج. ب. وشاك J.P. Wisshak. أما العمارة في كل من المشرق الإسلامي ومصر فقد اعتمدت في البداية على كروزويل؛ وبالنسبة لإفريقية (تونس) نجد الدراسات تبدأ أساساً مع ج. مارسيه و ل. جولفن و أ. ليزن، ناهيك عن القول بأنه هُتت علينا وراء هؤلاء المتخصصين، الذين أصبحت نظرياتهم ملموسة في شكل تصويري رائع ذي مقاييس رسم دقيقة، الكثير من الدراسات المتخصصة والموسعة لكثير من موضوعات الفن الإسلامي بمائة، حيث وردت فيها معالجة مناسبة لموضوع المساجد من منظور تعليمي أو تأويلي أو تأملي، وقد بدأها سوفاجيه (المسجد الأموي La mosquée omeyyade de Medine) - وإذا ما أردنا ذكر بعض الأعمال التي ظهرت في السنوات الأخيرة نشير إلى جون د. هوج J.D. Hoag في دراسته المعنونة «العمارة الإسلامية»، و ل. جولفن في كتابه Essai sur l'architecture religieuse musulmane «حول العمارة الدينية الإسلامية»، في أربعة أجزاء، و أ. فوج كوكنيل U. Vogt Coknil «التيارات الكبرى في العمارة الإسلامية. المساجد»، وأوليج جرابار O. Grabar في «نشوء الفن الإسلامي»، وريكارد إيتنجوسن R. Ettinghausen ومع أوليج جرابار في «الفن والعمارة في الإسلام: 650 - 1250م»، و أ. بابادوبولو A. Papadopoulos في «الإسلام والفن الإسلامي» ومحمد حمزة الحداد في «دراسات وأبحاث في العمارة الإسلامية - الجزء 11-1».

عندما تتوفر أماننا اليوم - أكثر من الأمس - مجموعة كبيرة من الدارسين أو الباحثين في ميدان تاريخ الفن، والعمارة والدراسات الأثرية - الآثار في العصور الوسطى أو الآثار الإسبانية الإسلامية - علينا أن ندلي بدلونا من خلال بعض الملاحظات التي يتعلّق جميعها بالمنهجية التي يجب اتباعها؛ فها نحن نجد أماننا أن المهندسين المعماريين أخذوا يرسمون، أكثر من أي وقت مضى، العديد من المساحات الأفقية والرأسية والقطاعية للآثار الإسلامية من خلال مقاييس غاية في الدقة، كما وضع رجال الآثار في خدمة الآثار الإسلامية المنهج المتبع في «الدراسات الأثرية للعالم القديم»، ومن المنطقي أن يسهم مؤرخ الفن بمنهج القديم والسليم في الفهرسة والدراسة التاريخية - الجمالية ابتداء من الرؤية المباشرة للأثر، ودائماً ما تعتمد مقاييس الأثر نفسه في الرسم سواء كان هناك مقياس أم لا. وخلاصة هذه التوجهات الثلاثة نراها عند ليوبولدو تورس بالباس هي مادة التاريخ العربي والمسيحي وعبر عنها بوضوح في أبحاثه من خلال الهوامش في نهاية الصفحات. كان هو الذي بدأ الطريق، ثم حذا حذوه ل. جولفن، حيث سلط الضوء على ذلك من خلال دراساته للمسجد الجامع في قرطبة، «الفن الإسباني الإسلامي حتى سقوط الخلافة الأموية في قرطبة». والجزء الخامس من كتاب «تاريخ إسبانيا، لرامون مننديث بيدال 1957م» وقد أورد في هوامشه إشارات من النصوص العربية المهمة، وكان ذلك من خلال العون الفعّال الذي جاء من «مدرسة الدراسات العربية القديمة بمadrid، والتي كان يرأسها إميليو جارتيا جومث، فمن خلال مجلة هذه المدرسة، «مجلة الأندلس»، نشر تورس بالباس

الكثير من المقالات في مجال العمارة الإسلامية بعمامة؛ ثم جاءت إسهامات المتخصص في قراءة الخطوط العربية، مانويل أوكانيا خيمينث، لتتوج كل هذه الجهود في مجال الفن الإسباني الإسلامي، والشئ نفسه نجده في أعمال العلامة الفرنسي ليفي بروهنسال. ومن الطبيعي أن المخططات الدقيقة هي أمر محمود على الدوام ومرغوب فيه، رغم أن هناك خطورة مع مرور الأيام تتمثل في مزيد من السرعة في رفع مقاسات مبنى في غضون زمن قصير دون الحاجة لمراجعة دقيقة وعميقة للمبنى والوسط العمراني الذي يوجد فيه، ويتم ذلك من خلال التقنيات الحديثة والصور الجوية؛ وخلال الأزمنة الخوالي كان هناك من المؤلفين من يجمع بين دراسة التاريخ والعمارة والآثار، حيث اجتمعت ثلاثتها في تورس بالباس و ج. مارسيه وهنري ترأس، ومع هذا فالأمر بالنسبة لهادين الأخيرين هو أنهما يُنظر إليهما كثيراً من خلال ميدان تاريخ الفن، وهو علم عندما طُبق على ما هو إسلامي من منظور العصر الخاص بنا وضع أنه يتعلّق بشيء من الطموح، غير أنه لا يوجد أمامنا طريق آخر جامع لكل مظاهر الفن اللانهائية في العالم الإسلامي؛ وقد هملت شيئاً شبيهاً بذلك من خلال دراسات لي بعنوان «تاريخ العمارة الإسبانية الإسلامية»، ولست أدري فيما إذا كنت قد نجحت في ذلك وجاء الأمر على هوى كافة المتخصصين في هذا الحقل أم لا؛ وهناك، مؤخراً، ما يطلق عليه «الدراسات الأثرية الخاصة بالمصور الوسطى» وهي دراسات تأتي من خلال أعمال تنقيب بطيئة الخطوات أو متعجلة وثمرتها هي الاكتشاف أو التمييز لبعض الجوانب في الفن والعمارة. وقد كتبت في الجزء الثاني من هذه السلسلة قائلاً «إن الفن والعمارة والدراسات الأثرية في الحقل الإسلامي إنما تشكل ثلوثاً أو ثلاثة أعمدة مهمة وسليمة لجسم أو مبنى مشترك ألا وهو البحث التاريخي»، ويلاحظ أن المتخصص في الدراسات العربية، في أيامنا هذه، يلج من خلال تخصصه في قراءة الخطوط والنصوص العربية على إعطاء هذا البعد الأولوية في الموروث الفني أو المعماري؛ وحقيقة الأمر هي أن المسجد هو جماع التاريخ والفن والعمارة والآثار عندما تكون هناك حفائر، وهنا نلاحظ أن النقوش الكتابية، القليلة، والحواليات العربية تأتي كمنطلق للعمل؛ وعلى هذا فإن الثقافة المرئية للإسلام تتمثل في الوثائق بين عدة معارف يجب على المرء أن يملك ناصيتها من خلال مراجع منتقاة.

وفي ما يتعلق بالمساجد الشهيرة في المحيط الإسباني، وخصوصاً تلك التي لازالت قائمة، نجد هناك كما كلفاً من الدراسات التراكمية ولكل مؤلف رؤيته الخاصة أو مؤملاته في خدمة هذه الآثار. وقد أريقَت أحبار كثيرة تتعلق بالمسجد الجامع بقرطبة والمسجد الجامع بالقيروان، وكان ما كُتب رفيع الشأن من الناحية العلمية، ثم جاءت مجامع بعض العلماء اليوم، لهدف أو آخر، لتضفي عليها قدسية مبالغاً فيها، فربما رأى هؤلاء أنها لم يأتها الباطل من بين يديها أو من خلفها، وليس هناك في الإمكان أبدع مما كان (على سبيل المثال نجد أن مسجد قرطبة حظي بدراسة لكل من جومث مورينو أو تورس بالباس، وكذا مسجد القيروان على يد كروزويل، وسباج Sebag و ج. مارسيه وجولفن وأ. ليزن...). لا يوجد هناك أي من المؤلفين الرواد يملك ناصية الحقيقة كاملة، على المستوى المتوسط والعميق، بشأن أثر بعينه، ومع هذا فإن طرائقهم في العمل لازالت تثير معالم أفاق جديدة للعمل فيها.

هناك نموذج آخر للمسجد الجامع، غير أنه لا يصل إلى تلك المساجد السابقة الذكر وهما المسجدان القرطبي والقيرواني؛ إنني أشير إلى المسجد الجامع بمدينة الزهراء، فهو مسجد يكتسب قيمة من خلال وجوده في الرقعة العمرانية لهذه المدينة الملكية وخاصة إذا ما كان راعيه هو عبد الرحمن الناصر؛ فابتداء من أعمال التنقيب فيه، التي لم تؤت بالثمار المرجوة في البداية، نجد أن الدراسة النقدية، المكتوبة أو الشفهية، التي وقعت على عاتقي، والتي نُشرتها «الإدارة العامة للفنون الجميلة» قد حملت في طياتها بعض الآراء غير المؤتقة، بناء على بدهية توالي خطوات وأعمال الحفائر على مدى عامين، منذ البداية حتى النشر خلال عام 1966.



وهناك بعض الباحثين الذي فتدوها لم يكونوا من شهود الميان الذين كابدوا أعمال الحفائر الشاقة، وجاء التقنيون من لندن كلوز بريش K. Brisch (تقنيون للمذكرات الحفائر التي جرت بمدينة الزهراء على يد باسيليو بابون، وقد نشر Kunset des Orients الجزء الأول 1968م ص 230)، وشارك آخرون أيضاً من المدرسة الألمانية مثل ك. إيورت Ch. Ewert لكن كانت مشاركة صامتة بالكامل عند الحديث عن المسجد الملكي من خلال عدة مقالات تتعلق بالعمارة الدينية الإسلامية في إسبانيا وشمال أفريقيا. ثم جاء رفايل كاستيغون الشاهد المباشر، الذي كاد يكون يتواجد يومياً، على أعمال الحفائر في المسجد وأدلى بنقده «للمذكرات» (1966) وواقع أعمال الحفائر ونتائجها، حيث وورد ذكرها في كتابات لبعض الباحثين من بينهم هنري تراس ول. جولفن، الباحث الذي شهد المسجد ونحن على وشك الانتهاء من الحفائر.

ما هي الأهمية التي يتوفر عليها مسجد جرت فيه الحفائر وتكفل الزمن بتدميره لدرجة أنه لم يصل إلينا منه بالكاد إلا مخطوطه وأساساته؟ وعلينا أن نضع في الاعتبار كذلك أن الأعمال الزخرفية كانت مهمة رغم ضآلتها، وقد أوردت في الجزء الثالث من سلسلة «العمارة الإسلامية في الأندلس» موجزاً عن المسجد أوردته في الفصل الثاني من هذا الجزء، وما نعلم اليوم أن هذا المسجد له أهمية أخرى تكمن في أنه كان صورة طبق الأصل من المسجد الجامع في تطيلة (ناباراً) والتي جرت فيها الحفائر خلال السنوات الأخيرة؛ غير أن أهميته الرئيسية هي أنه شيد قبل أعوام قليلة من توسعة صحن المسجد الجامع بقرطبة ومن توسعة حرم المسجد نفسه (الجزء المسقوف)، على يد كل من عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني. وكانت مدينة الزهراء دائماً، خصوصاً في هذه السنوات الأخيرة، تمثل قيمة أثرية من الطراز الأول وأنها من أكثر النماذج المعمارية شهرة من حيث الفن والعمارة والدراسات الأثرية في المغرب الإسلامي، ولا زالت كذلك، حيث كانت محط أنظار علماء الآثار ومؤرخي الفن والمعماريين، والغاية هي الاستزادة والتعمق في معرفة العمارة الإسلامية في المغرب خلال العصر الأموي في قرطبة.

إضافة إلى ما سبق، فإنني عندما أتناول حالة المساجد في بلادنا، وهي بحالة يرثى لها، سوف أتحدث عنها على مدار هذا الكتاب، لكن ليس قبل تسليط الضوء على المسجد الموحدي الجامع في إشبيلية، الذي لم ينج منه إلا نصفه بالكاد من عمليات الإحلال والإضافات المسيحية وخصوصاً في جزء كبير من صحنه، وكذلك الخيراندا التي لازالت قائمة، وحتى يزداد تسليط الضوء حولها فإنني سوف أقترح لدراسة المساجد المعاصرة لها في الشمال الأفريقي حيث أتيحت لي الفرصة للإطلاع عليها بشكل مباشر، حيث تقسب جميعها للقرن الثاني عشر وكانت ثمرة جهود العرفاء أو المعماريين أنفسهم من المغاربة والأندلسيين الذين قاموا بمهمة شنية مشتركة بفضل رعاية الخلفاء المرابطين والموحدين، وقد جرت دراسة مساجدنا الكبرى والمتوسطة على يد كل من جومث مورينو وتورس بالباس وإ. لامبرت وفيلكس إيرنانديث وكروزويل وإ. كاميس وكافورلا وباسيليو بابون مالدونادو وأ. خيمينث ول. جولفن وك. إيورت وك. بريش وب. كريزر P. Cressier وموتولا صلاو. د. أجيلار و. أثوارويث وأ. خيل ألبارثين و. بارثلو وإنيكروود وبنيتوب. مارفيل رويث، ول. ناباس كامرا وب. مارتش أراناث وب. كابانيرو سويثا و. لاسا جراثا وإ. بوخاني مارتش.

بقي أن نشير إلى أن العمارة الدينية الإسلامية، مثلها مثل عمارة القصور، تحظى بدرجة عالية من الزخارف من كل صنف التي وضعت على مساحات كبيرة وكان المحراب خير نموذج على ذلك، ومعه العقد وقواعد الأعمدة وتيجانها والواجهات والأسقف، فمن خلال كل هذه العناصر نكتشف مهد الأسلوب الإسلامي أو الأساليب الإسلامية: أي أن الأصول هي اليونانية الرومانية، ثم الهلنستية والفن البيزنطي؛ وفي الأندلس نجد الفن القوطي الذي يتبدى لنا في المحيط الجغرافي، مثله مثل الفن اليوناني الروماني والفن الساساني في المشرق الإسلامي، ثم يأتي فن التزيين (الزخرفة النباتية) منفرداً أو متحالفاً مع الخطوط الهندسية (أي التشبيكات Laceria) التي تنقل الضوء إلى الأرابيسك، وهذه سمة مشتركة



في الفن الإسلامي في المشرق والمغرب، ومتجلية بكثرة في العمارة الأموية في قرطبة وظلت باقية بمضمونها على أنها «المعجزة الإسبانية»، وهي توجهت في بدأ فجره في باب سان استبان S. Esteban في المسجد الجامع، ثم جاءت بعد ذلك لتظهر في القرن العاشر في مدينة الزهراء، وليكن واضحاً لنا أن مفهوم الأرابيسك يختلف من باحث إلى آخر، غير أنه سوف يكون دائماً ذا طابع زخارف نباتية مشتقة، مما هو كلاسيكي أو هلنستي، أو ما يسمى بالفن الزخرفي النباتي والهندي المتداخلين وأحياناً ما ترافقهما النقوش الكتابية؛ وفي هذا المقام نجد أن المشرق والمغرب سارا كقرسي رهان، ورغم هذا فإن الفن الزخرفي الهندي نراه أكثر قوة في الفن الإسباني الإسلامي ابتداء من قرطبة الأموية حتى نهايات العصر الناصري والمدجج، ومن خلال فن الزخرفة نعرف شيئاً عن العلاقة بين الفن عندنا وفي المشرق والفن البيزنطي مع التداخل الذي حدث، في منتصف الطريق، من خلال المسجد الجامع في القيروان. تأخي المشرق والمغرب أيضاً من خلال النقوش الكتابية الأثرية سواء الكوفية أو ذات الخط المائل وقد حملت آيات من القرآن الكريم، وكانت البداية في مسجد قبة الصخرة بالقدس، وهو الأثر الأقدم في العالم الإسلامي؛ وعندما ننظر إلى الأندلس نجد أن النقوش الكتابية الأقدم على المستوى الآثاري تبدأ من باب سان استبان، كما نجد نقوشاً كتابية رائعة ومزهرة في مسجد مدينة الزهراء والمسجد الجامع بقرطبة خلال عصر الحكم الثاني، وعندما تجتمع الزخارف النباتية والتشبيكات والنقوش الكتابية يصبح الفن الإسلامي ذا وحدة طاغية ومسيطرّة تتجاوز الإقليمية التي نراها مستمرة أحياناً في المساقط الرأسية للخطوط المعمارية الخالصة، والتي ترتبط بأسلوب الشعوب التي دانت للإسلام؛ وخلال العصور الأولى كانت المساجد دائماً صاحبة دور البطولة «رغم اختلافها عن بعضها البعض في العالم الذي دان بالإسلام، غير أنها تجمعها حساسية جماعية» (جومث مورينو)، وهذا ينعكس بشكل جيد في المخطط الأقي بما يضم من صحن ومثناة وجزء مسقوف ذي أعمدة وحائط القبلة والمحراب المتجه إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي (نحو الكعبة) وعندما يتأمل تورس بالباس المسجد الجامع بقرطبة يقول «لاشك أنه فن إسلامي ذو أصول مشرقية لكن له شخصيته المستقلة».

يروق لبعض الباحثين في العمارة الإسلامية في الأندلس الحديث عن مدارس واتجاهات، ومن أمثلة ذلك المدرسة القرطبية أو المدرسة الطليطلية أو المدرسة الإشبيلية، رغم أن المساجد التي تضمها لم تتممخض خطوطها بعد عن سمات مشتركة فيما بينها، في هذه الرقعة العمرانية أو الإقليمية، التي تشكل جماع ما هو إسباني، وهنا أرى أن التصنيف الأكثر بساطة وإيضاحاً اللجوء إلى منهجية المراحل أو الأسر الحاكمة وأن الأسرة الأموية هي صاحبة الباع الكبير ابتداء من القرن الثامن حتى نهاية القرن العاشر، وتجلي السلطان الأموي في المساجد التي عُمِّرت في هذه الفترة في الثغر الأدنى والأوسط والأعلى، ففي عهد كل من عبد الرحمن الناصر والحكم الثاني نجد وحدة الإسلام وقد انعكست في دور العبادة ذات النموذج المعماري المشترك ذي التأثيرات الفربية أكثر من المشرقية، ثم يمتد هذا التأثير إلى مساجد ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين، خلال عصر ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين، ويلاحظ أن عصر هؤلاء (المرابطين والموحدين) كان يتسم بأنهم هم الرعاة لمساجد مليئة برسائل السلطان والتوجهات الدينية الجديدة تكن دون أن يزول عنها القالب المعماري أو تأثير المحراب القرطبي الذي شهد في عصر الحكم الثاني، وظل الأمر كذلك حتى انتهاء الحكم العربي في الأندلس (1492م) حيث نجد أن أي مسجد في شبه الجزيرة الإيبيرية أو في الشمال الأفريقي يحمل واحدة من علامات المسجد الجامع بقرطبة. ومع هذا من الممكن أن تدخل مساجدنا الأولى، خلال القرن الثامن الميلادي وحتى مجيء المرابطين، في الإطار العام المسمى «الفن الإسلامي الأولي»، أما الفترات الباقية فتدخل تحت عنوان «الفن الإسلامي الكلاسيكي»، وهي فترة تحمل سمة أساسية تتمثل في مشاهد لعقود جديدة وأكتاف Pilar تحمل محل الأعمدة، وظهور زخرفة المقرنصات.

الفصل الأول

الكنائس والمساجد

دور العبادة المسيحية عند وصول العرب،

رغم أن المصادر العربية شعبية المعلومات أو غامضة فيما يتعلق بالحديث عن التوازي في المسار الذي عليه المساجد في المشرق والمغرب، فإن الدراسات الحديثة للعمارة الإسلامية تُصوّر هذا الخط أو ذاك بصورة تكاد تكون متماثلة؛ وفيما يتعلق بدور العبادة المسيحية القديمة - سواء كان ما يتعلق بها يدخل في باب الأسطورة أم لا - فإنها في أغلبها كانت متهاكة عندما جرى تأجيرها للعرب لإقامة شعائرهم فيها، وأحياناً ما يكون لها حائط قبلة مرتجل أو مؤقت وغير موجه بطريقة سليمة إلى القبلة، وظل الأمر كذلك حتى بدأت عملية التحوّل الدقيق إليها؛ وهذا ما حدث في المشرق والمغرب، أي الإفادة من الكنائس القديمة؛ واستناداً إلى المصادر العربية فإن هذا ينطبق على المسجد الأموي في دمشق، الذي بدأ في كنيسة القديس خوان الإنجيلي التي ترجع إلى القرن الرابع الميلادي، حيث تحولت أبراجها في البداية إلى مآذن، وسرعان ما تجد الأمر مطبقاً أيضاً في المسجد الجامع بقرطبة في عصر عبد الرحمن الداخل بالنسبة لكنيسة القديس بيثنتي التي كانت النواة الأولى له، وفي الجزيرة الخضراء القديمة، والمسجد الجامع بطليطلة؛ إننا لا نعرف على وجه اليقين من هذه الأمثلة، وأمثلة أخرى، إلا الإسبانية. وعندما ننظر إلى الشمال الأفريقي، في المغرب الأقصى أو أفريقية، ربما نمثّر على حالة مشابهة وهي كنيسة كانت في الموضع الذي أقيم فيه المسجد الجامع في القيروان وربما ترتبط بالقديس ثيبريانو Cipriano، أسقف

قرطاج، خلال القرن الثالث الميلادي، وهي المدينة التي كانت أطلالها تضم كنيسة بازيلكية من هذا الصنف حيث نجد مثيلاً لها في دار عبادة في قرطبة.

في المغرب الغربي وبالتحديد في ليكسوس (الاسم القديم الفينيقي لمدينة العرائش الأثرية) Lixus جرى استئجار مخطط لكنيسة ذات اتجاه من الغرب إلى الشرق لتكون مسجداً (Ponsich)؛ ويحدث الشيء نفسه في Djezib بني مزغنة طبقاً لما أورده البكري، في معرض حديثه، عن سبته والإشارة إلى أن هذه المدينة كانت تضم أطلالاً لمباني وكنائس وحمامات ودار عبادة مسيحية جرى شغلها لتكون مسجداً.

وعودة إلى أفريقية لنجد أن الروايات غير الموثقة تشير إلى أن مسجد الزيتونة ربما كان قد أقيم مكان كنيسة قديمة مكرّسة للقديس أوليغو Olivo، أو حالة مسجد القصر بالمدينة نفسها؛ نجد في سوسة رباطها الذي يضم مسجداً ذات مخطط جديد، وهناك اعتقاد أنه أقيم مكان بازيلكا مسيحية وربما مكان دار للعبادة الوثنية؛ هناك أيضاً مسجد توزور الذي يرجع إلى نهاية القرن الثاني عشر، حيث أقيم مكان كنيسة بيزنطية قديمة لازلتنا نرى أطلالها اليوم إلى جوار الجزء المستوف من المسجد، وفي وقت لاحق نرى في شالا بالرباط (ق 14)، تلك المنطقة التي تعتبر مدينة جنائزية حقيقية (مقابر) مسجدتين، وهي منطقة أقيمت فوق «كولونيا صالا» Colonia Sala أي تلك المدينة الرومانية التي أصبحت طلالاً خلال القرن العاشر الميلادي. ومع



شرق الأندلس، في نظر إي. يوبريجات E. Llobregat فيما يتعلق بالمباني العربية الأولى واتخذ مثلاً على ذلك تمثل في أليكانتي والش Elche حيث حلّت محل المدن القديمة وهي Lucentum و Ilici الواقعتين على بعد كيلو مترات قليلة منهما، وهناك رفع حضريّة أخرى في مناطق مختلفة في الأندلس، من بينها، على سبيل المثال، ريكوبولس Recopolis (راكوبال عند العرب) ومدينة Zorita de los Canes في محافظة وادي الحجارّة؛ وفي المغرب نجد طنجة وزيلس Zilis - أصيلة (ابن حوقل) أو Volubilis (وليلي) - هاس. وبالنسبة للمدن القديمة نجد أن الكثير منها كانت مقر إقامة للعرب ولم تهمل، حيث وجد من دخلها من العرب مكاناً مناسباً ومأوى.

ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما أطلق عليه مسمّى «الكنيسة المسجد» وهذا ما يمكن تطبيقه على المدن الصغرى سواء كانت رومانية أو قوطية في شبه الجزيرة الإيبيرية وخصوصاً في المراحل الأولى للغزو؛ هناك ريكوبوليس (وادي الحجارّة) وهناك bolonia أو Boelo (قادش) أو طرّكونة Tarragona. وفي محافظات شرق الأندلس نجد Lucentum - أليكانتي، و Ilici - إقليش وأوريوله Orhuela لورقة أو Yyi(h) المدينة التي أمر عبد الرحمن الثاني بهدمها حيث أقام بالقرب منها مدينة مرسية عام 831م وربما كانت تقع في Algezares (طبقاً لبوكلينجتون) ثم هُجرت خلال القرن الحادي عشر طبقاً لرواية المذري حيث هناك بعض الأطلال المهمة للكنيسة البازليكية مع مكان لأداء الطقوس (جومث مورينو)، اللهم إلا أنها ليست Ello (إلدا)، في رأي إي يوبريجات، المدينة التي خلت من سكانها خلال المصريين الروماني والقوطي، ثم جرى بعد ذلك تحديد المكان العربي. هناك مُنستير Monastil (Monasterium) التي ربما كانت مقراً أسقفياً؛ وأخيراً نذكر بلدة إيجي Iyih حيث نجد وثائق كتابية ترجع إلى القرن السادس الميلادي ويقال إنها هي Hellin

الغزو العربي لجزيرة صقلية (828م) على يد الأغالبة في تونس نجد أيضاً أن المساجد الكبرى فيها أقيمت فوق كنائس مسيحية قائمة، ثم تحولت هذه الأماكن إلى كنائس من جديد مع وصول النورمانديين إلى الجزيرة (1183-1185م). وكانت عملية إضفاء الطابع الإسلامي تتخذ، على مدار مسارها الطويل والبطيء، عدة طرائق في الأداء بادئة من القاعدة التي تقول بأن المسلم يمكن أن يؤدي صلاته في أي مكان؛ فالمسجد إذن هو مكان لعبادة الله وبالتالي فإنه والكنيسة ودار العبادة اليهودية صنوان (خواكين بابيي J. Vallve)، إذن نجد أن المدن الجديدة أو القديمة تشهد ميلاد أسماء مزدوجة هي الكنيسة المسجد؛ وحتى ندرك طبيعة هذه الفترة الغامضة المتعلقة بالثقافات المتلاحقة والمتراصة بدار العبادة علينا أن نرجع إلى العصر البيزنطي حيث نجد أن المدينة القديمة عندما تحولت إلى مدينة جديدة جرى فيها تغير بدهي تمثل في التحول من ديانة إلى أخرى، ولم يحدث هذا بين يوم وليلة، فهناك القوانين التي أصدرها تيودور الأول والثاني (القرنان السادس والخامس الميلاديين) التي يمنع بمقتضاها الطقوس الوثنية كافة، لكن هذه القوانين لم تسفر عن الإفلاق الفوري لكافة دور العبادة السابقة على العصر البيزنطي، إذ تمت الإفادة من بعضها أو جرى هجرها دون تدميرها، وكان الوثنيون هم أنفسهم الذين حولوا تلك الأماكن إلى كنائس مثلما حدث في روما وأثينا (Cyril Mango).

وعودة إلى الحالة العربية نجد أن المبنى الرئيسي أو الكاتدرائيات الكائنة في المدن الكبرى تصلح بشكل جيد لإقامة شعائر صلاة الجمعة، أي في المسجد الجامع سواء في المشرق أو المغرب؛ وهذا ما يتناقض مع المقولة التي تشير إلى أن العرب كانوا يناون عن الحضائر القديمة التي قاموا بفزوها ليقيموا في مدن أقاموها لأنفسهم في المناطق الخالية أو إلى جوار جبل ذي موقع استراتيجي، غير أن هذه المقولة تنطبق بشكل جيد على

16

وعندما تنتقل إلى أزمنة أخرى، أي إلى عصر المرابطين والموحدين طوال القرن الثاني عشر - نجد أن الحكام الجدد يفخرون بأنهم يتركون دور العبادة المسيحية مطلقاً بعد عين ومعهما اليهودية في كافة الأراضي التابعة للخليفة الموحدي المؤمن والمنصور. ومع هذا فإن الأندلس خلال ذلك الزمان كانت تضم كنيسة رئيسية في طليطلة وقلة تراب القديمة التي كانت تمارس فيها الشعائر الإسلامية (طبقاً لـ الحويثي). نجد أيضاً أن المرابطي يوسف بن تاشفين أمر عام 1099م بهدم الكنيسة الوحيدة التي كانت تمارس فيها الشعائر في غرناطة وهي التي كانت تقع في الرّبط خارج باب البيرة (هناك لوحة قوطية في الحمراء تتحدث عن تكريس كل من كنيسة - سان بيثنتي - وسان خوان وسان استبان ق 7-6 طبقاً لجومث مورينو)، وخلال فترة الانتقال العربية المسيحية التي بدأت في طليطلة عام 1085م نجد الأمر مختلفاً تماماً حيث نشهد فقط سياسات محافظة بالنسبة لدور العبادة الإسلامية التي تجمعها تحت ما يسمى بالمرحلة الأولى «التحضر بالحضارة الأخرى» (الامتزاج الحضاري) aculturación.

إذن نجد أن المساجد المكرّسة لإقامة الشعائر المسيحية تحظى بالحفاظ عليها في سياقها المعماري بعد غزو طليطلة مباشرة ولم يتغير، أحياناً، إلا الاتجاه إلى الجنوب، أو الجنوب الغربي، إلى الاتجاه الشرقي الذي اتخذته الشعائر المسيحية؛ ثم تأتي المرحلة الثانية وهي المسجد الجامع بالمدينة حيث جرى إحلال الكاتدرائية محله بشكل راديكالي، الأمر الذي وضع أمامنا في السياق الأثاري مخططين متراكبين على شكل صليب، أولهما شبه مربع apaisada يبدأ عند المحور الرأسي للمخطط الثاني؛ وعلى هذا فهنا، في هذا المكان، نجد مفهومين متعامدين للبازيليك في مبنى

واحد، وقد عجزت أعمال الحفر التي جرت في الآونة الأخيرة عن تقديم بيانات آثارية دقيقة للمسجد الذي حلت محله الكاتدرائية، وهذه الخطوات لها نماذج تنطبق بذلك بوضوح، تتمثل في طليطلة وتطيلة، فقد أقيمت الكاتدرائية مكان المسجد القديم، حيث نجد في الحالة الأولى أن المبنى الإسلامي الذي أقيم على الأرض التي كانت عليها البازليكا القوطية بالمدينة، مثلما شهدنا عملية التكريس لسانتا ماريا، قد انتقل إلى الآخر عندما تم التكريس عام 1086م، وانتقل إلى الكنيسة الكاتدرائية اللاحقة عام 1227م؛ ولابد أن هذه الآلية التي بدأت بالهدم المقام خارج المبنى الإسلامي قد فرضت نفسها في كثير من حالات المساجد الكنسية الأخرى، وهذه الممارسة جاءت عن عمد وكأنها تحاكي ما عاشته قرطبة العربية في الأزمنة الأولى، أي أن الكنيسة القوطية سان بيثنتي التي استأجرها العرب أخذت تتحول تدريجياً على يد عبد الرحمن الأول، إذ جرى هدمها ليقام مكانها المسجد الجامع عام 786-785م الذي ظل قائماً حتى اليوم؛ والشيء نفسه يمكن تطبيقه على مدن أخرى (بلنسية ولاردة وسرقسطة وعدد من المدن الأخرى)، وخلال القرن الثالث عشر، في بايذا Baeza، وبمد عام 1212م أمر الملك ألفونسو الثامن بهدم المسجد الجامع (الحويثي) مكانه اليوم كنيسة أو كاتدرائية سانتا ماريا؛ نجد إذن أن المصور الأولي للإسلام في إسبانيا شهدت الكنيسة وقد تحولت إلى مسجد في أغلب الحالات وكانت بمثابة قرار آلي يتخذه العاهل الذي يتولّى المنصب، وتركوا لنا فراغاً كبيراً أو صمتاً يتعلق بدار العبادة القوطية أو المستعربة حيث سيتولّى علم الآثار بالكشف عن مغاليق أسرار ذلك البعد سواء كان ذلك في المستقبل المنظور أو البعيد؛ كما أن التسامح، الذي يجري الحديث عنه، من قبل الملوك المسيحيين والأساقفة في العصر المدجّن قد خلف لنا بعض المعالم المتعلقة بالمساجد التي جرى إحلال كنائس محلها، فعندما تقوم ببعض الحفائر نطل علينا بنيتها وبعض الزخارف المتبقية؛ وهنا يمكن القول إن

يسمحون بممارسة حرية إقامة الشعائر في الأراضي الجديدة التي سيطروا عليها، في شمال أفريقيا وهي الأندلس، وقد شهدنا مثلاً على ذلك في الحالة الأخيرة حيث يشير أحد شروط معاهدة تودمير أن «تودمير تتفق مع العربي عبد العزيز أنه لن يتعرض المسيحيون للأذى في ممارسة طقوسهم وألا تحرق كنائسهم وألا تسلب منهم أدوات إقامة الشعائر القائمة»، ومع مرور الزمن نجد أن الأمر يتغير، اللهم إلا استثناءات قليلة، حيث لا يسمح في المدن بإقامة كنائس جديدة، وهي سياسة زادت مدتها في عهد الأمير محمد الأول.

هذا النموذج البارز المتمثل في تحويل كنيسة سان بيثني بقرطبة إلى مسجد، نراه في الجزيرة الخضراء القديمة، واندراج الأمر على الأحياء الجديدة والأرياض، حيث تشير المصادر العربية التي تتحدث عن قرطبة، أن الأمير عبد الرحمن الداخل أمر ببناء العديد من المساجد الصغيرة، ولأنك أنه أفاد من دور قوطية للعبادة وكنائس مثل سان أنيسكلو وسان ثوبلو أو سان ثيبريا تورغبة في اقتصاد النفقات والوقت؛ شهد هذا الزمان الكثير، مثلما هو الحال في زمن البيزنطيين، فهناك مسلمون لا يعارضون أن يقام المسجد مكان دار لعبادة الأوثان وآخرون يرفضون الأمر بشكل قاطع، وهنا علينا أن نسلط الضوء على أن العرب عندما كانوا يشيّدون مساجدهم الأولى في الأندلس لم يكن أمامهم نموذجاً معمارياً إلا دور العبادة القائمة في شبه جزيرة إيبيريا وكذلك البازليكيات الرومانية والبيزنطية البعيدة في المكان والزمان؛ كان العرب يتأملون مباني القدماء وقد تحولت إلى أطلال ولم يحصلوا منها إلا على الكتل الحجرية وتقنية البناء والأعمدة والمقد الحديوي، وفي بعض الحالات النادرة يتوصلون إلى تطبيق المخططات الخاصة بهذه الأماكن، وهذا ما نجده في الجسور وقناطر المياه والمنازل والواجهات الخاصة بالمخططات الجديدة.

الكنيسة التي ترجع إلى القرن الثاني عشر في باليرمو شهدت في المكان الذي كان فيه المسجد الذي تأسس خلال القرن التاسع على أنقاض دار قديمة للعبادة ترجع إلى القرن الخامس تسمى «بازليكا سانتا ماريا Santae Mariae Basilica».

الكنائس القوطية. ما هو مستعرب

فلت هذه الكنائس المستعربة التي أقامها أحفاد القوط وأحفاد الإسبان الرومان (المسيحيون الخاضعون للحكم الإسلامي والمسيحيون المستعربون) قائمة في الأراضي الخاضعة للمسلمين وجاء بناؤها على يد تلك الأقلية خلال الفترة من القرن الثامن وحتى العاشر؛ ونحن نجهل، وضعيتها المعمارية في المشهد الحضري، وهي اليوم لا تفصح إلا عن القليل ولا يتوفر منها إلا مثال واحد قائم في الأجوار المحيطة ببلدة بويشتر (ملقة) (ق 10-9)، ومصطلح Mozarabe ذو أصول عربية هي «لفظة المستعرب» وقد ورد ذكر هذه الكلمة للمرة الأولى في نصوص مسيحية ترجع إلى القرن الحادي عشر في قرطبة وفي المنطقة الشمالية لشبه جزيرة إيبيريا، وظلت هذه الكنائس قائمة وكانت لها مسميات مثل Canissis، Canessia، alquinicia، quince، Alcaniz، Alcaniset وalcuneza وalconeza (طبقاً لخوليو سامسو). وهي ألفاظ تدل على أسماء منتشرة في شبه الجزيرة الإيبيرية لكنها خالية من أي معنى معماري أو آثاري وربما كانت هي كثير من الأحيان تشير، في القرون الأولى للحكم العربي، إلى دور للعبادة سابقة على الفتح سواء كانت مهيضة الجناح أو مغلقة ثم جرى تجديدها بأسلوب يجمع بين القوطية والفن الإسلامي وأصبحت غير واضحة التوجه، وعموماً فالفن فيها تقليدي خلال الفترة من القرن الثامن إلى القرن الحادي عشر. إنها الكنائس المصرح لها بالإبقاء على أبوابها مفتوحة، فكما سبق أن أشرت كان العرب الأوائل

بمدينة الزهراء التي تتسم بالفموض أو الخداع عندما نلقي عليها أول نظرة؛ يلاحظ أن قصر ماجنورا Magnaura في القسطنطينية كان يضم صالة استقبالات من النوع البازليكي مكونة من ثلاثة أروقة مصحوب بمذبح أو بواجهة مخصصة للعرش مثلما هو الحال في الكنائس البيزنطية، أي أننا أمام الوظيفة المزدوجة للمخطط، بين ما هو مقدس وما هو ملكي، وهذا بُدأ أشار إليه سيريل مانجو، إنها عملية ميلاد جاءت من رحم الفن الروماني؛ وكان المؤلف المذكور يشك كثيراً في مبنى خارج الرصافة يتألف من تسعة فراغات ومكان للمذبح أو الصليب (قابل للمقارنة بمسجد الباب المردوم بطليطلة) الذي نجده أولاً في الكنيسة، ثم أصبح عبارة عن صالة استقبالات ملكية للحاكم العربي المنذر (ق 6)، يمكن ببساطة ربط مخطط «الصالون الكبير» Salon Rico بمدينة الزهراء بصالة البازليكا البيزنطية سان خوان دي استوديو في القسطنطينية وهذا ما عرضت له في الجزء الثالث من هذه السلسلة (العمارة الإسلامية في الأندلس)؛ وحقيقة الأمر هي أن هذا الخطاب يقودنا إلى المقابلة بين المسجد والقصر وجاء ذلك بشكل تفصيلي في كتاب «مسجد المدينة، لسوقاجيه؛ ومن جانبنا نرى أن كل هذه الأسباب - نختار منها القليل في إطار الاستخدام المزدوج - تنقلنا إلى القول بأن القصر والمسجد عند المسلمين لهما قاسم جمالي مشترك، وتنطبق هذه المقولة على الكنيسة والمسجد؛ وقد اتخذت في هذه الدراسة مسمى الكنيسة والمسجد متداخلين ذلك أن استمرارية دور العبادة القديمة، مع ضمانات للسكنى فيها لمدة طويلة، هي دليل موضوعي على واقع عميق أكدته الدراسات التاريخية الجديدة، ولكن في ظل تسميات إدارية جديدة مثل الأبرشية الأسقفية التي يجب أن تكون فيها كنيسة، وكذلك الكورة أو المدينة التي يجب أن يكون فيها المسجد الجامع؛ فبمنا بدأ الغزو العربي ظلت إسبانيا الإسلامية - الأندلس - موزعة بين ست مناطق

وعودة إلى العمارة الدينية نجد أن كلاً من المسجد الجامع في قرطبة والمسجد الجامع في القيروان، أي المسجدين الأكثر شهرة ورفعة هنية في المغرب الإسلامي، يحملان بصمات من كافة الأساليب، تمثل في قواعد الأعمدة وأبدانها والتهيجان وكذلك الحليات المعمارية المتوجة Cimacio؛ وبالنسبة للبعد البنوي نجد القباب الخاصة بقرطاج القديمة التي شهدها البكري، وقد حذا حذوها نموذج، أو قلدت، في القبة المجاورة للرواق الرئيسي للمسجد الجامع في تونس (ق 10) (طبقاً لـ أ. ليزن)، وهناك نموذج بسيط يتمثل في قنطرة رومانية للمياه جرى دمجها في المسجد الجامع بقرطبة، أو هناك مخطط الصهاريج القديمة التي ربما تحولت إلى مساجد صغيرة، وربما كان دليلاً على ذلك مسجد الباب المردوم بطليطلة Cristo de la luz؛ عندما تنتقل إلى واجهات المساجد، التي سأحدث عنها بالتفصيل لاحقاً، هناك أقواس النصر في العصر القديم التي تعربت بشكل جيد، وكانت بمثابة المدخل، حيث نجد ذلك في المسجد الجامع بقرطبة ومسجد المهدي وما به من تأثيرات فاطمية قاهرية عميقة؛ وهنا نجد أن الحالة الأولى تضم عقوداً زخرفية فوق عقد المدخل، وهو عقد حدوي، كما نراها في آثار غير دينية ودينية في إفريقية: مسجد سوسة في سيدي علي العمار (ق 10م) وواجهة قبة البهو في المسجد الجامع في تونس (ق 10م)، وعندما نتحدث عن المساجد الصغرى وهي مساجد الأحياء أو الأرباض ذوات الأروقة الثلاثة والتي أحياناً ما تقتصر إلى الصحن والمئذنة والبميدة عن الرسميات، نقسمها: ألهست تحمل أصداء دور العبادة القوطية أو المستعمرية أو البازليكات القديمة؟ من أين أتت المخططات البازليكية التي تتوجها بآنية أو دهليز ثلاثي نراه في القصور الخلافة في مدينة الزهراء؟ ألهست هذه صدى للكنائس البيزنطية المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط؟

لنتوقف عند أصول هذه البنية البازليكية الخاصة



كنسية (أبرشيات) كما هو العهد في الفترة القوطية، كما نجد في عصر الخلافة ثلاث محافظات مصرية، كانت في البداية مفعمة بطوائف المستعربين الذين ظلوا في إطار دائرتهم الأسقفية، فهناك طليطلة التي يتبعها عدة أساقفة من الأطراف الشمالية وشرق الأندلس، وهناك بنسبة المرتبطة بدانية المعاصرة، Denia، وإذا لم تكن فهي تابعة لدانية العربية، وهناك شاطبة وإقليش؛ أما أساقفة البرتغال فقد كانت مرجعيتهم في ماردة وباطقة لكن المدينة هي إشبيلية التي تحتضن أساقفة إيطاليا Italica ومدينة شذونة ولبله واستجة وقرطبة وكابرا والبيرا ومارتوس وملقة؛ نعرف أيضاً أن بويشتر كانت تضم أسقفية؛ ويضم «تقويم قرطبة للعام 961م دي Recemundo» الكثير من الأنباء الجيدة المتعلقة بطوائف المستعربين والكنائس والأديرة خلال القرن العاشر.

وخلال القرنين التاسع والعاشر اللذين كانت فيهما قوة المسلمين واضحة في مواجهة العالم المسيحي الرجمي والمتخلف، نجد أن بعض المدن مثل قرطبة وطلطلة تعيشان واقعاً يشير إلى أن المستعربين والعرب يعيشان في خطين متوازيين، وكانت المباني الدينية متشابهة في كثير من الجوانب، فهناك المذبح أو كوة المحراب يسيران جنباً إلى جنب، وفي كثير من الحالات نجد العقد هنا أو هناك مصحوباً بالأعمدة، كما أنه قائم أيضاً في بعض الكنائس المستعربة في الشمال؛ هناك الأبراج وقد تمازجت في فضاء المكان من خلال النداء للصلاة سواء بالأجراس أو الأذان، وكدليل آخر على التمايش أو التسامح الذي لا مرأى فيه نجد العقد الحنوي كموروث مشترك، مرجعه دار العبادة القوطية؛ وهنا يجب أن نضيف وجود دار العبادة بشكلها الدائم المتمثل في الأروقة ذات العمود المستعرضة على حائط صدر المبنى الكنسي الذي تمتد جذوره في أعماق تاريخنا لدرجة أننا لا ندري على وجه اليقين في ما إذا ما كان المخطط الأولي للمسجد الأموي في قرطبة منبثقاً من قالب

فرضه عليه المبنى الأولي للمسجد الأقصى بالقدس (ق 7) أو أن مرجعه كنائسنا في الغرب ذات الأروقة الثلاثة التي إذا ما أضيف إليها رواق آخر أو اثنين أو أربعة أمكنها أن تنتقل إلى شكل المسجد الجامع في مدن صغيرة أو متوسطة الحجم، ولا شك أن الشعائر الكاملة في المسجد، والتي تجري حسب التقاليع الأفقي للمئذنة ثم الصحن ثم المنطقة المسقوفة ثم حائط القبلة بما فيه من كوة في وسطه إنما هو ابتكار مشرقى، غير أننا لو أقمنا هذا المخطط، فإن المسقط الرأسى في المغرب الإسلامي، ابتداء من قرطبة، يتضمن كل سمات الفن أكثر من الموروث المحلي أو مجرد الانتساب للبحر المتوسط الغربي أكثر من الحوض الشرقي. لقد وطأ المسلمون هذه الجغرافيات وتأقلموا فيها وأصبحت متكافئة في الجوانب المعمارية بفضل الموروث الهلنستي والروماني والبيزنطي والمسيحي الجديد، وهذا يعني أننا عندما نتحدث عن المساجد في المشرق وفي أفريقيا وفي قرطبة نجد أننا نلمس نسيج الأصول المشتركة والتوازيات والتشابهات والتأثيرات فيما بينها وبالتالي أصبح إسهام ما هو قوطي مستعرب مهمشاً، ولا نقول منسياً، بصفته المتحدث عن ماهية الصوت الإسباني - مهمة هي نظرية توريس بالباس بالنسبة لمخططات المساجد الأكثر قدماً التي ليست، حسب قوله، إلا نوعاً من التطوير والتأقلم على الاحتياجات الدينية الإسلامية لتلك المخططات ترجع إلى المباني البازليكية ذات الأصول الهلنستية والمستفيدة في البازليكيات المدنية ومباني الاستقبال في القصور... إلخ، وهي التي انبثقت منها أيضاً الكثير من المعابد المسيحية والكنائس اليهودية - ومن الأمثلة الدالة على أصول تلك المخططات ما نراه في بازيلكا سان ثيبريانو بقرطاج (طبقاً لـ) (لوحة مجمعة 82: 10) حيث نجد مصلى مستوفاً له سبعة أروقة أوسطها أعرضها أما الجانبية فهي أصغر من الأخريات بشكل ملحوظ، وكلها متعامدة على حائط المذبح وفي المقدمة نجد صحناً ذا ثلاث بوائك به صهريج في الوسط. وهنا

الرحمن الثاني ومحمد الأول، أي عندما بلغ التوتر في صفوف المستعربين أشده وأصبح رمز ذلك «استشهاد القرطبيين» الذي حدثنا عن القديس إيولوخيو S.Eulogio، نجد أن القرن العاشر كان شاهداً على أن مسيحيي المدينة القرطبية كانوا يرتادون دور العبادة الخاصة بهم لكن لم يكن مسموحاً لهم إقامة منشآت دينية جديدة؛ فقط كان مسموحاً بها في الأرياف وهذا أمر شبيه بما حدث في طليطلة (ليفي بروفتسمال)، وواقع الأمر أيضاً أن دار العبادة، المسيحية، خلال القرن العاشر، الكاتبة في المناطق الحدودية في شبه الجزيرة الإيبيرية تعرضت لويلات الحروب التي كان يقوم بها الخلفاء، غير أن حظ تلك الكنائس في قرطبة أو طليطلة كان قريباً إذا كانت معرضة لأن تستخدم في زيادة مساحة المسجد. وعند الحديث عن التوسعة التي قام بها الحكم الثاني جرت الأقوال أنه خلال هذه السنوات الأخيرة جرى استخدام ثلاثة أقبية مذابح كنائس لإقامة العقود الحدودية المركزية الثلاثة لحائط القبلة؛ وحتى نتمكن من تفسير ذلك تجدر الإشارة إلى الحالة المدجّنة التي أشرنا إليها في السطور السابقة، أي أنه خلال حكم ألفونسو العاشر ظلت سائدة تلك القوانين التي تضيق الخناق على إقامة المساجد في القرى والبلدات التي تضم أغلبية مسيحية، فالمسلمون لم يكن باستطاعتهم أن يبنوا مسجداً أو أن يقيموا شعائر دينهم على الملأ، رغم أن من حقهم الإبقاء على مساجدهم القديمة التي كان الملك يسرف عليها ويعين فيها الفقهاء الذين يرضى عنهم». أما في المدن الكبرى فتجد أن كل الشواهد تؤكد، كما سبق أن أشرت قبل ذلك، على أن الكنائس القديمة ودور العبادة المدجّنة خلال الفترات الأولى للوجود العربي تضم العديد من الظواهر الفنية التي ترجع إلى العصر الروماني المتأخر والعصر القوطي (التيجان وأبدان الأعمدة وقواعدها وكذلك الحليات المعمارية المتموجة Cimacio) وجرت

نصاعل ألا يعتبر هذا المخطط مرآة أو صورة لما هي عليه المساجد الجامعة في البلدات المتوسطة والصغيرة في الأندلس وشمال أفريقيا؟ وعودة إلى الاستعراب نقول إن الخطاب المتعلق بالخطوات المتعلقة بهذه الظاهرة قام بعرضه كل من إيسيدرو وتوريس بالباس على النحو التالي: كانت كثيرة في البداية ثم أصبحت أقلية بعد ذلك (من ق 8 حتى ق 11م)؛ نجد أيضاً التصريح بممارسة الشعائر (الكنائس مفتوحة)، وهناك طرد ما هو مستعرب أو تحوله إلى الإسلام (ق 13) حيث نجد بقايا من المستعربين في الأرياف، أضف إلى ذلك الرغبة في الوحدة الدينية والسياسية؛ ويرى هذان المؤلفان أن هذه المراحل التاريخية كانت شديدة التوازي مع ما عليه المدجنون خلال فترات لاحقة وهذا ما سوف نتحدث عنه في حينه. ويرى الباحث المستعرب كروث إيرنانديث أن حياة المستعربين ومساكنهم تتمثل في «أن المسيحيين الذين عاشوا في كنف الحكم الإسلامي كان بإمكانهم الحفاظ على كنائسهم وأديرتهم لكن لم يكن مصرحاً لهم بإقامة كنائس جديدة، وحدث عكس هذا في حالات استثنائية بحجة إعادة بناء تلك المتهدمة أو المهجورة، وعادة ما نجد أن عدد الكنائس والأديرة أخذ في التناقص رويداً رويداً حتى منتصف القرن الحادي عشر، ثم زالت من الوجود مع نهاية ذلك القرن، ومنعت في منتصف القرن الثاني عشر على يد المرابطين، ولم يتشارك العرب والمستعربون في أي دار للعبادة على الإطلاق، مع أنهم ظلوا طوال نصف قرن من الزمان جيراناً للعرب في أراضي كنيسة سان بيثنتي.

لا بد أن دور العبادة القوطية كانت موجودة بكثرة في قرطبة، وهي التي اتخذها مجتمع المستعربين وكذلك دور العبادة الأخرى الجديدة التي أقامها هؤلاء، غير أن السياسة المتأهضة لذلك والتي اتخذها بعض الحكام المسلمين في فترات مختلفة خلال القرن التاسع، ساعدت على أن يوارىها النسيان وتسهم في زوال الكنائس من الرقعة العمرانية. ومن خلال البيانات



ومعه مبنى آخر في بويشتر بأنها بدون أعمدة فضلة. هذا الترحال لمواد البناء من الصنف الرفيع الشأن والمنقول عن حضارة سابقة، نشهده في مدن أخرى وبلدات من ذوات الرقعة العمرانية المتوسطة أو الصغيرة، واستناداً إلى الحوليات العربية فإن المساجد الجامعة في كل من جيان (الحميري) وخودار Jodar وقرمونة واستجة (الحميري) وبلدة بير الصغيرة (المرية) (العذري) هي التي كانت تغخر بها من أعمدة من الرخام المجزء التي ترجع إلى الأزمنة القديمة؛ وحقيقة الأمر أن هذه الأعمدة تضع معالم لطريق جديد في إطار توسعة المسجد الجامع بقرطبة في عصر عبد الرحمن الثاني حيث نجد اثني عشر تاجاً جديدة جرى نحتها (جومث مورينو) وذلك كإعلان عن أن هذا المبنى وبالتحديد العمارة القرطبية سوف يستوعب عملية الاستمرار حسب تقنيات وجماليات البناء السابقة وهي القوطية من خلال الطريق البيزنطي الذي أصبح اليوم ذا ملامح معروفة بشكل ضئيل. ويستخلص من كل هذا أن العمود كان موروث ثقافة التشييد الكنسي في العصر السابق على العربي والإسلامي، وحتى يتم تحميل السقف الخاص بمساجدهم كان من الضروري وجود الأعمدة القديمة بفض النظر عن مصدرها، وضمن كل هذا جرى تتويج العقد البيزنطي والقوطي، وخاصة هذا الأخير الذي يتسم بأنه حدوي الشكل.

يتسم المستعمرون في طليطلة بأنهم حالة خاصة ومثالية، وهنا يشير تورس بالباس أنه كان يوجد بالمدينة قبل أن يقوم ألفونسو السادس بنزولها عام 1085م تسع كنائس مستعمرة، منها مازال من الوجود وهي سان توركواتو S. Torcuato وسان ماركوس وسانتا ماريا دي الحزام وأمنيوم سانكتوروم Omnium Sanctorum وسان كوسمي إي داميان؛ أما سان سباستيان وسانتا خوستا إي روفينا فقد استخدمتا كمسجدين، إضافة إلى سانتا إيولاليا وسان لوكاس حيث بقيت هذه الأربع وعند تأمل هذه الكنائس الأربع الأخيرة نجد أن الاثنتين الأوليين

الإفادة منها في بناء المساجد الجديدة، فهل كان ذلك في بعض الحالات السبب في استئصال أو تشويه كنائس للإفادة من أعمدها في المساجد التي كان يلج المسلمون على ضرورة الإسراع في بنائها؟ هل يمكن التفكير في مسجد دون أعمدة؟ لقد اجتمع كل ذلك في نموذج المسجد الجامع بقرطبة حتى عصر عبد الرحمن الثالث وكان لذلك انعكاساته على مدن هي عاصمة الكوراث من فئة مدينة طليطلة، العاصمة القديمة للمملكة القوطية، حيث نرى أن جمع هذه الأعمدة القديمة التي جرت عليها عوامل الزمن أخذ في الازدياد عاماً بعد عام، فقد غادر الكثير من القطع أماكن القديمة في دور العبادة القوطية أو المستعمرية وأخذت تنقل على مدار المصور الوسطى من دار عبادة إلى أخرى سواء كانت مسجداً أو كنيسة مدجّنة.

إذن كان المسار على النحو التالي: الانتقال من مبنى قوطي إلى مسجد، ومن هذا تنتقل من جديد إلى كنيسة أو قصر مدجّن، الأمر الذي يسهم في تسارع الثلاثة الكلاسيكية التي تتحدث عن تراكب الثقافات، ففي مكان واحد نجد تكريس مبنى قوطي باسم القديسة ماريا يتحول إلى مسجد جامع وإلى كاتدرائية ذات مخطط جديد. وبفض النظر عن طليطلة المدينة نلاحظ أن هذا هو المسار الذي أخذته قطع الرخام القوطية ومعها قطع قديمة أخرى يمكن العثور عليها في الإقليم وكذا في بلدة كانتورياس الحدودية Canturias (طبقاً لخيمينث دي جريجوريو)، وهي سان بابلو دي لومس مونتس (طبقاً لري باستور)، وطلبيرة وإيروستس والموناسيد (باسيليون بابون). هذه النماذج كلها تمثل أدلة على وجود أديرة قديمة أو يازلكيات على أطراف طليطلة القوطية، مدينة المجامع الأسقفية؛ غير أنه عندما نتحدث عن مباني مرئية وباقية حتى الآن نجد أنه لم يصل إلينا إلا كنيسة سانتا ماريا دي ملكي S.M. Melque وهي دار عبادة ملكها القوط (جومث مورينو) وهي اليوم قوطية (كاباييرو ثوريدا). يتسم هذا المبنى

modillon على شكل مثلثات عادة ما تراها في الكنائس المستعربة التي لازالت قائمة في منطقة Submeseta Alta (شمال الهضبة الوسطى) كما أنها مختلفة عما نراه منها في مسجد نابارًا، حيث تضم تجاعيد مقعرة وكأنها حلقة معمارية مقعرة nacela، وكلها شديدة الارتباط بما جاء في مسعدي عيد الرحمن الثالث بقرطبة، هذه (الكواويل) التطيلية المثلثة التي نفترض أنها مستعربة ربما كانت تنسب إلى كنيسة تسمى سانتا ماريا مجاورة للمسجد، وكلا هذين النمطين من Modillones (الكواويل) الزخرفية يحملان أسلوب عصر الخلافة الذي تدفق من قرطبة، ومعنى هذا أن المباني العربية والمستعربة في كل من تطيلة وسرقسطة لهما سمات فنية مشتركة خلال القرنين التاسع والعاشر، يمكن اعتبارها مماثلة لما هو قائم في مدينة الزهراء ذات المسجد والصالونات الملكية التي تتسم مخططاتها بأنها ذات ثلاثة وخمسة أروقة من الصنف البازليكي في الكنائس، وانضمت هذه السمة إلى العقد الحديوي واستمرت حتى وجدناهما في دور العبادة المستعربة القرطبية خلال قرون سابقة؛ وعلى هذا يمكن الحديث عن أن الأندلس شهد وحدة أو اتحاداً فنياً، فدار العبادة البازليكية ذات الأروقة الثلاثة قد جاءتنا من خلال الفن القديم في حصن بويشتر الكائن في جبال رُندة (لوحة مجمعة 1) الذي أسسه عمر بن حفصون (889-917م) عندما اعتنق المسيحية، لكنه مع غزو عبد الرحمن الثالث (928) للمكان تحول إلى مسجد؛ أما باقي الكنائس المنتشرة في أرجاء ضواحي بويشتر فقد كان الهدم مصيرها على يد الخليفة، وهذا سلوك معتاد عنده كما سبق أن أشرنا إلى ذلك؛ هذا التحويل لدار العبادة لتكون مقراً لإقامة الشعائر الإسلامية هو أمر له دلالة القوية، إذ يعود بنا إلى السنوات الأولى للإسلام في الغرب عندما ارتجل العرب مساجد في فضاءات وعمارة البازليكيات القديمة؛ نرى في بويشتر عقوداً حدوية تبلغ الأحجام التي شهدناها خلال عصرِ الإمارة

منها تتسم بأن مبانيتها وزخارفها عربية، أما الآخرين فالسمة الواضحة عليهما هي الفن المدجّن (ق13)، وهنا علينا أن نسأل عن السمات والمواصفات المعمارية التي على أساسها يمكن تصنيف مبنى معين على أنه مستعرب في طليطلة قبل عام 1085م؛ لدينا في هذه النقطة خياران، أحدهما أن دار العبادة القديمة القوطية أو المستعربة، قد تعرضت في زمن ما لعملية توسيع أو تعديل ليتم تحويلها إلى مسجد من مساجد الحي، مثلما تعرضت له المساجد بعد ذلك؛ أما الثاني فهو أمر مفيد بالنسبة للكنائس ذات السمات المدجّنة، إذ كانت قبل ذلك داراً قديمة للعبادة، لكنها تعرضت لحادثة ما أو لأي نوع آخر، (ق9م) فإلزام إعادة بنائها، وربما جاءت هذه العملية مع ما حل على المدينة من موجات من المستعربين الآتين من إقليم الأندلس جزاء المطاردات المرابطية والموحّدية طوال القرن الثاني عشر، غير أن هذين الخيارين كانا صالحين بشكل مطلق ليكونا طريقنا للاقتراب من تحديد الملامح الشكلية أو السمات الحاسمة للأسلوب المستعرب، والسبب هو أن الحجر الصلد لدور العبادة القوطية وللمساجد التي أقيمت خلال الأزمنة الأولى، جرى إحلال الأجر محله وهذا ما نشهده بوضوح بعد إنشاء مسجد الباب المردوم في طليطلة عام 999م، حيث نلاحظ الرشاقة والتناغم بين الأسلوبين اللذين جاءا من قرطبة العربية. وأيضاً من التوجّهات المستعربة المحلية كخطوة تعتبر إيداناً بظهور الكنائس المدجّنة في العمارة المسيحية في الشمال، وهي دور العبادة المستعربة التي درسها جومث مورينو. كل هذا يفتح أمامنا فصلاً من الفصول الغامضة التي تضم دور عبادة من الحجارة وأخرى من الأجر وخصوصاً في طليطلة.

وعندما نتناول حالة تطيلة كمثال، نجد أنه يجري النظر إلى العناصر الزخرفية التي عليها التوسعة الخاصة بالمسجد الجامع فيها، ترجع هذه التوسعة في نظري إلى القرن العاشر ومن بينها تيجان أعمدة ذات أطواق Collarino مضافة، وكذلك الكواويل تحت الطنف

والخلافة، وهناك مخطط المذبح المركزي الذي يعتبر الوريث الأساسي لدور العبادة القوطية ويقع في منطقة وسط بين الأروقة والمذابح؛ وخلاصة القول إننا أمام دار عبادة مسيحية ذات شكل قوطي أو مستعرب الأمر الذي كشف اللثام عن جدل يدور حول أصوله الحقيقية، وما إذا كانت أصول المخطط قوطية أو أنها نموذج كامل لدار العبادة المستعربة، وهي المشكلة والمعضلة نفسها التي رأيناها بشأن كنيسة ملكي Melque أو كنيسة عذراء ترامبال في القويصكار Alcuescar (قصرش) (طبقاً لكاباييرو ثوريدا).

ثم ننزل عدة درجات على سلم العمارة القوطية أو المستعربة لنجد رمزاً آخر يتمثل في نوافذ المباني والعقود التوائم الحدودية أو المزدوجة bifora أو الثلاثية trifora يحيط بها طنّف مشترك، ثم شاعت هذه ابتداء من عصر العمارة الرومانية المتأخر وفي دور العبادة القوطية في الفن السائد في إقليم استورياس (إسبانيا) أي في الكنائس المستعربة الكائنة في الشمال (لوحة مجمعة 2)، إضافة إلى قائمة طويلة في المنشآت الإسلامية في شبه الجزيرة الإيبيرية، ومن المعتقد أن هذه الأنماط من العقود أخذت تنتقل من دور العبادة المستعربة القرطبية إلى العمارة الإسبانية الإسلامية وخاصة المآذن، فهناك مآذن مسجد سان خوان وسانتياجو بقرطبة ومدينة الزهراء؛ ونعثر عليها كذلك في تطيلة. وخلال القرن الثاني عشر نجد الخيراندا ومئذنة مسجد الكتبية بمراكش ومئذنة مسجد Cuatrohabitas (السكان الأربعة) بإشبيلية وريباد تيط (المغرب)، ناهيك عن الأبراج القديمة في طليطلة حيث كنيسة سانتياجو دل أرابال وسان بارتولوميه ذوات الفن الذي يشبه كثيراً ما عليه مسجد الباب المردوم ومسجد تورنرياس Tomerías حيث نجد عقوده المصنّفة Geminados من الداخل، في هذا الأثر الأخير، وقد ظهرت على هيئة واجهات المسجد الجامع القرطبي خلال النصف الثاني من القرن العاشر.

إلى أين يحملنا هذا الخيط الخاص بما هو مستعرب بحيث يضع أمام أعيننا ما يظهر على أطلال مدينة الزهراء؟ في نظري، أقول إن هذه المدينة الملكية تحمل الكثير من التوجهات الفنية المتداخلة البيزنطية والقوطية على المستويات الزخرفية، وهذا ما كانت مجالس هذه المدينة أو صالاتها الملكية البازليكية حيث إنها ليست صورة طبق الأصل من القصر Palatium الروماني أو القوطي في شبه جزيرة إيبيريا، وعلى أي حال فإننا نجد خلال القرن العاشر، أي خلال عصر عبد الرحمن الثالث وابنه الحكم الثاني، فناً من فنون «عصر النهضة» - سواء في العمارة الدينية أو المدنية - لما هو روماني وبيزنطي وقوطي، أي عصرنة هذه الأساليب المطبقة بطريقة فريدة وبمفهوم جديد وشامل تحت هيمنة الدولة التي ترى نفسها وريثاً لإمبراطوريات قديمة سواء كانت وثنية أو عربية؛ ومعنى هذا أن مدينة الزهراء تشهد تشابك وتجمع التأثيرات القادمة من العالم القديم وما هو أموي وعباسي في المشرق مع التأثير المتأخر، وأخذت تخلف وراءها حالة التلثم في تطبيق ما هو قوطي أو مستعرب في المساجد الأموية الأولى على أرضنا. وخلال القرن العاشر أخذت تظهر للوجود تيجان أعمدة ذات أسلوب جديد وبالتالي وارى النسيان والفناء تلك القطع التي أعيد استخدامها والتي ترجع إلى فترات سابقة، وبذلك يتضح أن العمارة في عصر الخلافة القرطبية أصبحت أكثر عروبة عن ذي قبل بفضل تلك التأثيرات والتيارات المتأخرة القادمة من المشرق والمصعوبة بنقف منبثقة من العمارة والفن في مسجد القيروان؛ إن الفارق الزمني بين العمارة السورية التي كان مسرحها مسجد دمشق وقبة الصخرة بالقدس، والعمارة القرطبية التي تتوجها مدينة الزهراء، هو فارق يتسم بأنه طويل، ومع هذا فإننا إذا ما سلطنا أنصارنا على ما هو جمالي وزخرفي وعلى فلسفة الأرابيسك وما تحمله من معانٍ نجد أنها - أي هذه العمارة - هي نفسها مع الفارق بأن ما هو أندلسي أكثر تعبيراً، إن جاز القول، من الناحية الزخرفية أو البصرية وأنه أوضح في ملامحه

الشخصية مقارنة بما هو أموي مشرقى، فربما كان الفن الأندلسي قد تلقى من الفن العباسي الكثير من العناصر ذات التأثيرات البيزنطية. أمام هذا الازدهار العظيم نجد كنائس قرطبة القليلة والقديمة تبدو منذ ذلك الحين وكأنها موروث من الماضي وقد خبا نورها أمام عظمة المسجد الجامع بقرطبة كرمز لفخار الإسلام.

قراءة اللوحات المجمع 2، 3، 4: اللوحة المجمع 2؛ 1، 2 عبارة عن لوحات قديمة توجد في المتحف الإقليمي في براجانزا Braganza (البرتغال)؛ 3. نافذة لمبنى في «الزهاد المستعربين» Beatos M. 4: كتلة حجرية قوطية استخدمت في حصن بالبرتغال، 5: كتلة من العصر المسيحي القديم أو القوطي في قرطبة، 6: من العصر الروماني المتأخر في بالانسيا Palencia، 6-1: قطعة قوطية من سان خنيس بطليطلة، 7: كتلة حجرية قوطية في ماردة، 8، 9: سان سلبادور دي بال دي ديبوس S.S. de Valdedios، 1-7: قوطي من سان فروكتوسو دي مونتيلوش (البرتغال) S. Fructuoso، 10: أسلوب أستوري، 10-1: لوحة عربية من رُنْدَة، 11: المسجد الجامع بقرطبة (عصر المنصور)، 11: مئذنة سان خوان بقرطبة، 12: قطعة مستعربة من سان ميغل دي إسكالادا.

لوحة مجمعة 3، 1: مئذنة عبد الرحمن الثالث بالمسجد الجامع بقرطبة، 2: منمنمة «زاهدتاهان» (الأرشيف الوطني للتاريخ)، 3: من مسجد تطيلة، 4: مسجد الباب المردوم؛ 5: أبراج مآذن في سان يارتولوميه وسانتياجو دل أرابال (طليطلة)، 6: مئذنة القرويين بفاس، 7: عقود في المسجد نفسه، 8: مئذنة مسجد الكتبية بهراش، 9: من الخيرالدا، 10: برج الذهب (إشبيلية)، 11: مئذنة مسجد cuatrohabitas (إشبيلية)، 12: لوحة عربية من رُنْدَة، 13: برج مئذنة ماجدالينا (جيان).

لوحة مجمعة 4، 1: نافذة عند باب التبيذ بالحمراء،

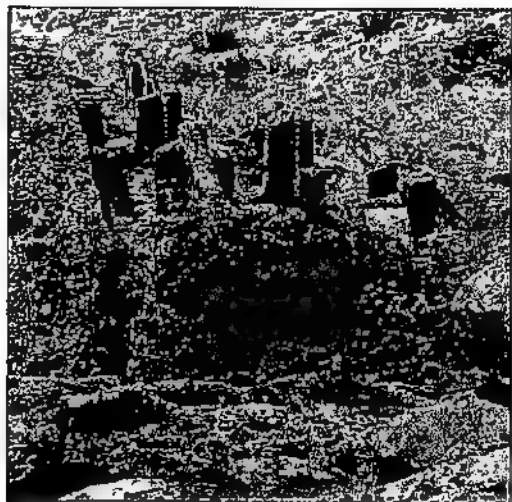
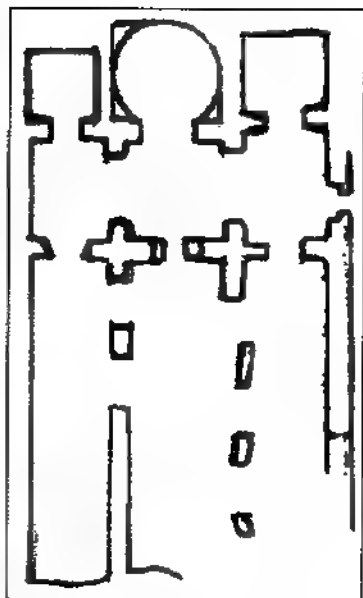
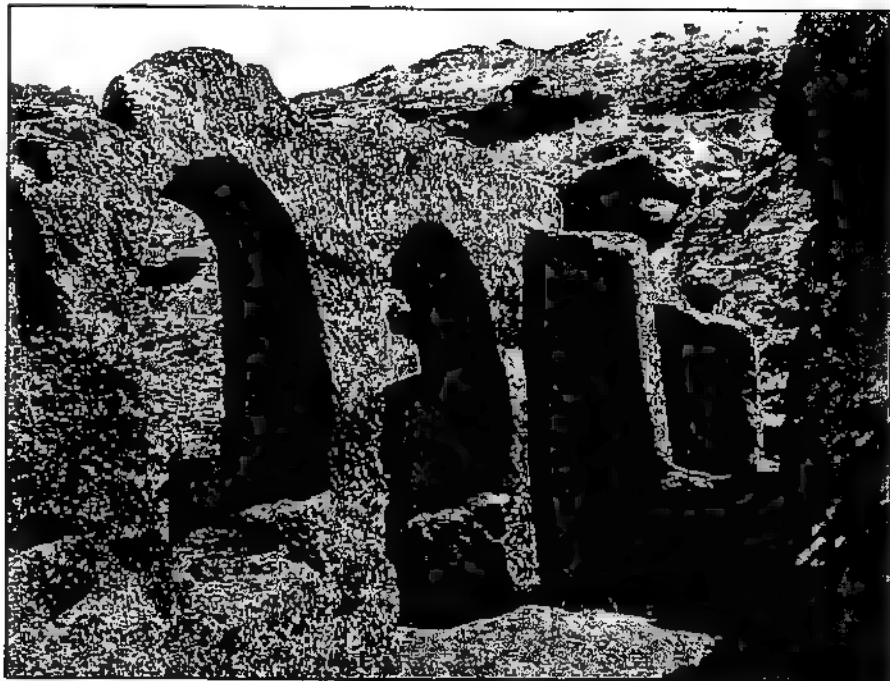
2: باب العدل (الحمراء)، 3: مدجّن، بقصر آل قرطبة (أستجة)، 4: برج الكاربيو (قرطبة)، 5: برج كنيسة سانتا ماريا دي غرناطة (لبلة)، 6: مدجّن، متكرر في القطاع الطليطلي، 7: نمط طليطلي لأبراج مدجّنة؛ 8: حصن أريناس في سان بدرو (أبيلا Avila)، 9: من دليل مدينة قصرش، 10: مدجّن، برج سانتو دومنجو في دروكة Daroca، وإذا ما كان هذا النوع من النوافذ المزودة يظهر كثيراً في المآذن وكذلك في أبراج الكنائس المدجّنة، فلماذا لا ننسبها إلى دور عبادة قوطية أو مستعربة زالت من الوجود في قرطبة أو ماردة أو طليطلة؟

نعود إلى طليطلة، ونعرف من خلال الجزء الثاني من المقتبس لابن حيّان أنه كانت توجد إلى جوار المسجد الجامع الذي يرجع إلى القرن التاسع دار قديمة للعبادة المسيحية ابتلعها المسجد، وربما كانت هذه الدار ذات أصول قوطية، وهذا ما تكرر في أستجة (الحميري) والجزيرة الخضراء وبيتشينا، وشهدنا الأمر كذلك في تطيلة. ويشير بعض الحوليات أن مدينة نهر انتاج (طليطلة) كان بها كنيسة الملك، وهي كنيسة شيدت أثناء حكم القيصر دقلديانوس، وربما كانت تلك التي أشارت إليها «الحولية شبه الأسيديورية»، وكانت مكرّسة للقديسة ليوكاديا في زمن ذلك الإمبراطور الروماني وأضافها ثورس بالباس إلى تلك الكنائس التسع التي تحمل صفة الكنائس المستعربة والتي يفترض الإشارة إليها على يد خيمث دي رادا؛ في طليطلة أيضاً - طبقاً لمخطوطة تمود لعام 1067م - حيث ورد ذكر كنيسة سانتا ماريا دي لا بيرخن، وهي كنيسة مختلفة عن تلك التي كانت في الكاتدرائية التي تقع في منطقة الحزام، وهو الحي العربي المجاور للقصر، وهي طبقاً لخوليو بورتس مارتين - كليتو، سيراً على ما قال به مؤلفون آخرون، المقر الأسقفي حتى عام 1086م حيث جرى الاستيلاء على المسجد الجامع، وأخذت معنى جديداً هو سانتا ماريا الذي فقد مع الفتح العربي.

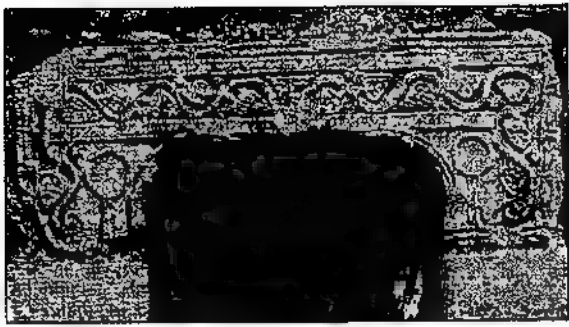


ويشير ابن حيان - الجزء الخامس- أنه بعد استيلاء عبد الرحمن الثالث على طليطلة عام 932م أتى زمن ساد فيه السلام حيث فتحت المحلات والأسواق أبوابها وأخذ الناس يتجولون في الشوارع ويدخلون المساجد والكنائس؛ إن هذه الإشارة تعكس الأهمية التي عليها المنشآت الإسلامية والمسيحية في الرقعة الحضرية؛ وظلت الطائفة المستعربة الطليطلية الخاضعة للحكم الإسلامي قوية وتدعمت بفضل زيارة سان إيلويخيو بقرطبة لها وظلت على هذه الحال بعد الغزو المسيحي لطيطة عام 1085م حيث اكتسبت الدعم كذلك من جراء موجات المستعربين الذين هربوا من بطش ومطاردة المرابطين والموحدين (ق12)، بمن في ذلك أساقفة منهم، وكان الموروث المستعرب يضرب بجذوره في المدينة، والدليل على هذا، في نظر خوليو بورس، الصدمات التي وقعت بين الأسقف د. برناردو (المتوفي عام 1128م) وبين الألكيروس المستعرب، نظراً لأنه كان أجنبياً عدواً للطوقوس القديمة الإسبانية التي كان عليها سان إيسيدورو وسان ألفونسو، وقد لاحظ الأسقف المذكور أن كافة دور العبادة بالمدينة كانت تمارس الطوقوس المستعربة القديمة الأمر الذي أدى إلى الاستيلاء على الجامع على عكس ما كان متفقاً عليه في وثيقة استسلام المدينة عام 1085م، وقد أخذت طليطلة تفخر دائماً بمستعرييها وتوجهاتها والتي من أبرز سماتها تلك الكميات الضخمة من الرخام القوطي المزخرف والمنتشر في أرجاء المدينة، وهناك مثال شبيه بذلك في ماردة Emerida Augusta كما صممة للبرتغال (انظر ماريا كروث بيلون) وهناك رخام برتغالي (متحف سينس Sines)، وعودة إلى الأراضي الطليطلية المترامية الأطراف نقول إنه ابتداء من نهر وادي يانا Guadiana حتى أقصى الحدود الشمالية لوادي نهر التاج نجد أن الفارات المرابطية والموحدية قد اتسمت بممارسة المطاردة والسلب في المناطق المفتوحة، وهدمت كل ما كان يقابلها من دور عبادة

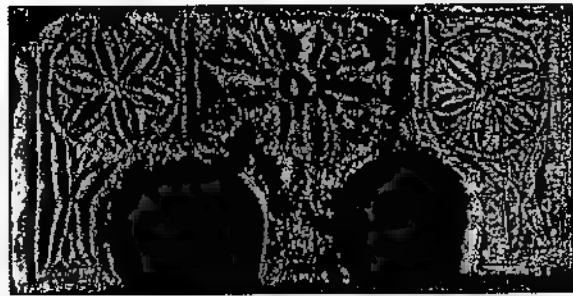
مسيحية، ولاشك أن دار العبادة القديمة، «الأطفال المقدسة خوستو وباستور» (أي شهداء عمليات المطاردة الرومانية) تعرضت هي الأخرى للهدم والتدمير، وكانت في مكان به أقلية مستعربة تقيم في الوادي في بلدة Compluta القديمة التي أسسها الرومان، وكذلك في ألكالا القديمة أو الحصن العربي في جبل عبد السلام (انظر خ. بايبي)، وربما كان هذا المعبد الاستشهادي في ألكالا هو «الكنيسة» القريبة من بلدة ألكالا التي دخلها الموحّدون أثناء إحدى غاراتهم (انظر خوليو جونيثايت)، وقد سبق أن أشرت في صفحات سابقة أنه أثناء إحدى تلك الرّزايا قام المرابطي علي بن يوسف (1110م) بالاستيلاء على مدينة طليطلة وحول المسجد إلى سابق عهده بعد أن تحول إلى كنيسة (1085م) (وهنا لا يجري الحديث عن هدم دار العبادة) وهذا نموذج شبيه بما عليه قلعة تراب القديمة Calatrava وهي الحصن الذي تأسس في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (855م) وكانت دار العبادة به مسجداً تحول إلى كنيسة ثم إلى مسجد أثناء حكم الموحّدي أبي يعقوب (1195م) ثم استقر بعد ذلك استخدام المبنى لإقامة الشعائر المسيحية، وبذلك تصبح المقولة التي تشير إلى أن يعقوب المنصور الماهل الذي انتصر في موقعة ألاكوش Alarcos كان يفخر بأنه لم يترك أمامه كنيسة أو معبداً يهودياً قائماً محل شك. في طليطلة، نجد أن كل ما هو مسيحي سابق على العصر العربي أو كان موجوداً أثناءه، قد وصلنا في حالة متهاكة ونسنا ندرى من أي صنف كانت تيجان الأعمدة أو أبدانها أو الحليات المعمارية المتموجة Cimacio سواء كانت تلك التي ترجع إلى العصر الروماني المتأخر أو القوطي، وهي قطع أعيد استخدامها في مساجد وكنائس مدجّنة، وعن المساجد نعرف فقط، وبشكل جزئي، عن مسجد سلبادور ذي المخطط البازيليكي والمقود الحدودية بمقياس 1/2، وعن مسجد الباب المردوم (999م) حيث نجد مخططة عبارة عن شكل صليب يوناني يسير على الأسلوب البيزنطي،



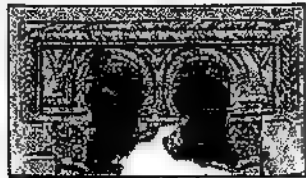
لوحة مجمعة ١:
كنيسة بويشتر (ملاقة)



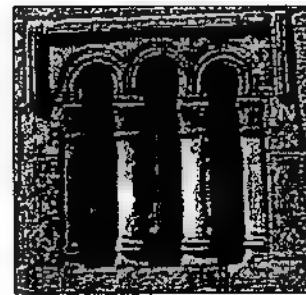
4



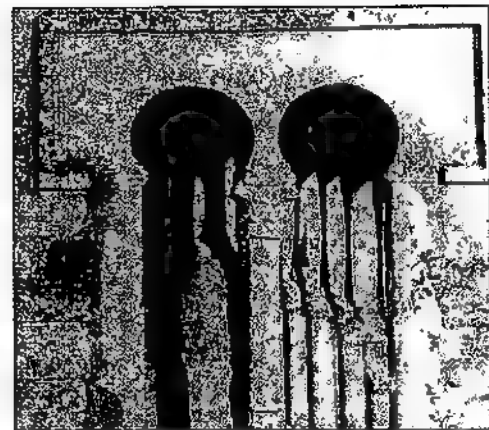
5



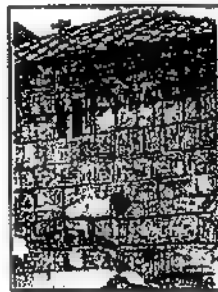
8



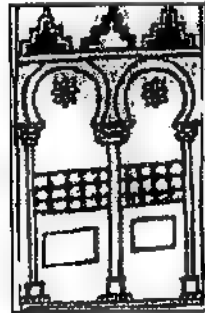
9



12



7-1



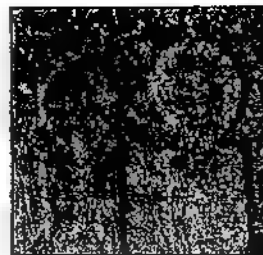
3



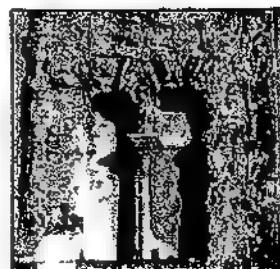
6-1



7



10-1



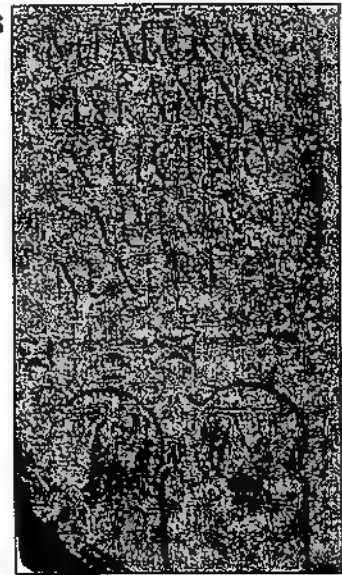
11-1



2



1



6



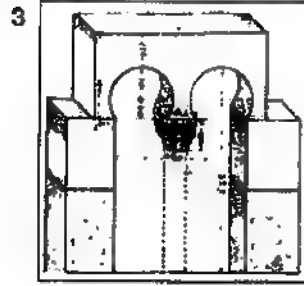
10



11

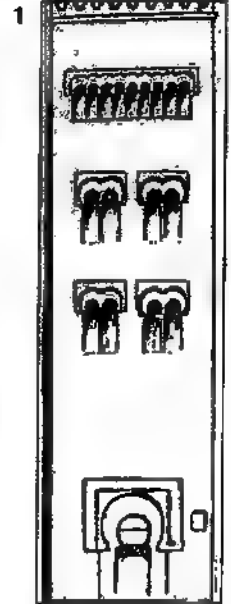
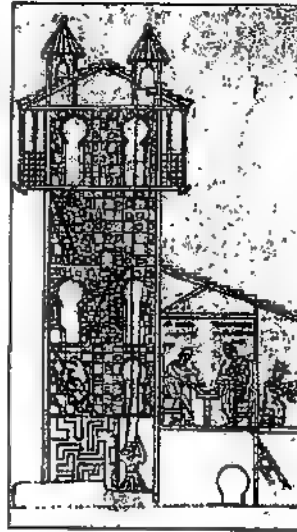


6

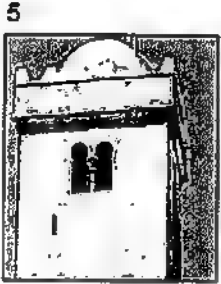


3

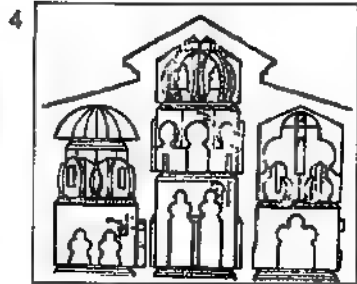
2



1



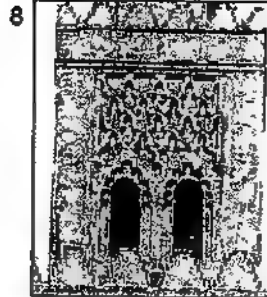
5



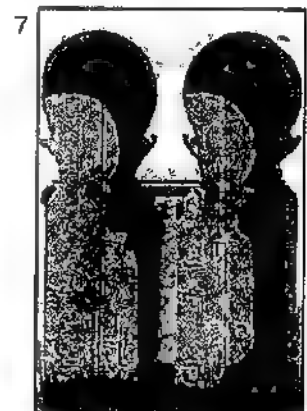
4



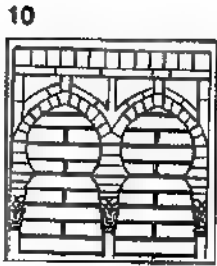
9



8



7



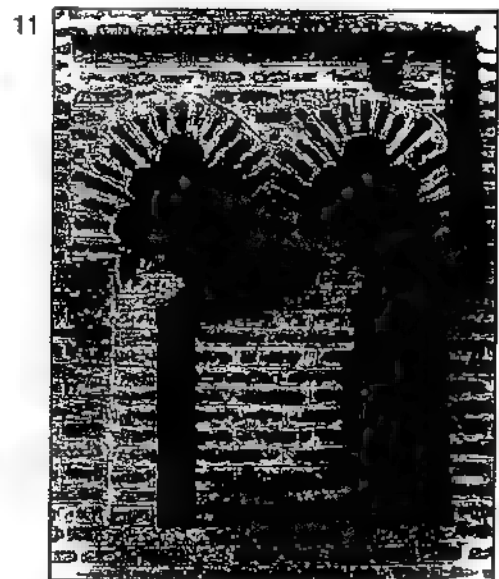
10



13



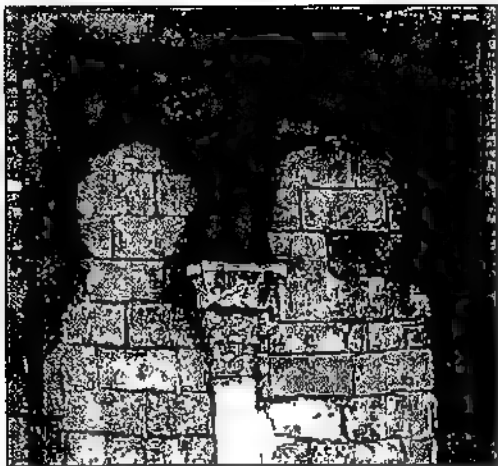
12



11

لوحة مجمعة 3:
نافذة مزدوجة: التطور

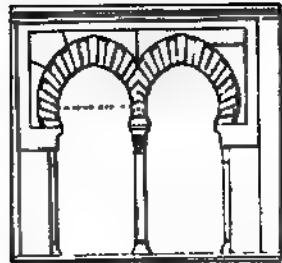
4



3



1



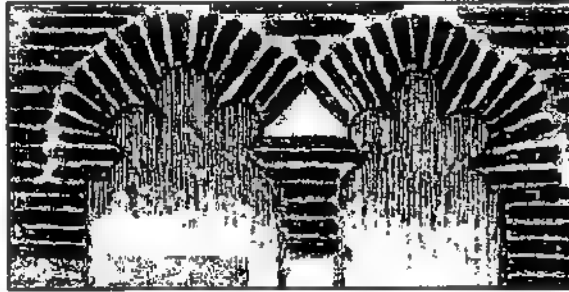
2



7



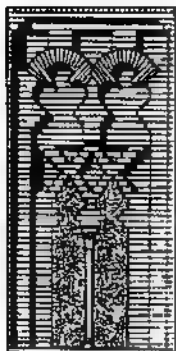
6



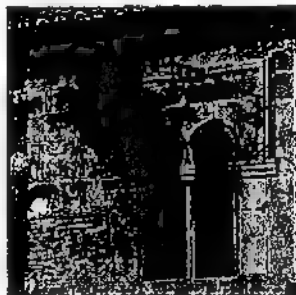
5



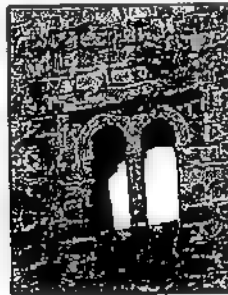
10



9



8



لوحة مجمعة 4:
نافذة مزدوجة: التطور



طليلة بعد عام 1085م (انظر خ. بايبي)، ونضم تلك الوثائق أخباراً مهمة عن دور العبادة وتسهم في تحديد مسيرتها التاريخية وهي المباني الحالية التي جرى توثيقها خلال القرن الثالث عشر، ذات السمات المدجّنة مع إشارة إلى قرن سابق، ومن أمثلة ذلك كنيسة سان رومان وكنيسة سانتياجو دل أربال التي ترجع إلى عام 1125م وربما كانت دور العبادة الماصرة لها تظفي وراءها دوراً أخرى ذات سمات مستعربة أصيلة (من الحجر أو الأجر) اللهم إلا إذا كانت مساجد.

نمود إلى قرطبة حاضرة الأمراء والخلفاء الأمويين وما بها من دور عبادة مستعربة ذات مخططات جديدة أو قديمة، حيث تعرضت للزوال ولم يعد لها وجود في المشهد الحضري بما في ذلك تكريسها القديم، وهي تلك المباني التي كان من الممكن أن تستمر حتى اقتراب موعد الغزو المسيحي للمدينة 1236م، ويذكر سان إبولوخيو عدة كنائس خلال القرن التاسع، على رأسها كنيسة سان أيسكلو Acisclo التي أشار ابن بشكوال إلى وجودها عام 711م وكانت إلى جوار باب إشبيلية من الجهة الخارجية في القطاع الجنوبي الشرقي للمدينة، وهي التي أطلق عليها العرب مسمى كنيسة المحروقين Quemados (انظر مانويل أوكانيا وصمويل دي لوس سانتوس وبابون مالدونادو ومارفيل رويث وأرخونا كاسترو). هناك دار أخرى للعبادة للقديس أيسكلو ربما كانت بازليكا تحمل اسم القديس الاستشهادي، وتقع في الشمال الشرقي لسور المدينة (يجب ألا ننسى أنه كان في طليطة ثلاث كنائس تحمل اسم سانتا ليوكاديا؛ وبالنسبة للقرن التاسع جرت الإشارة إلى السياسة المناهضة للمستعربين على يد الحكم الأول وعبد الرحمن الثاني ومحمد الأول الرجل الذي تولى أمر هدم الكنائس المنشأة حديثاً وإيقاف إقامة الشعائر في تلك القديمة التي ربما يرجع بناء بعضها إلى القرن السادس أو السابع إضافة إلى بعض الأديرة التي ربما كانت ترجع في تأسيسها إلى المستعربين؛ كان بيريت

وما إذا كان ذلك مصدره المشرق أو أنه صورة طبق الأصل من الأجياب أو الصهاريج المسيحية القديمة أو لدور عبادة قوطية في المدينة. ومن المسجد الذي نشك كثيراً في فرضية وجوده، والمسمى «القديستان خوستا وروفيينا»، لم نثر فقط، إلا على واجهته ذات المقد الحديوي الحجري العربي؛ ولا توجد دور عبادة مستعربة من الحجر في مدينة طليطة، هناك فقط دور عبادة مشيدة من الأجر مدجّنة ولاحقة على 1085م ويطلق عليها «مستعربة»؛ ولما كانت طليطة محجراً للجرانيت فمن المعتد أن الكنائس والمساجد كانت من هذه المادة الخام حتى عام 1085م مقابل أخرى من الأجر المادة التي أصبحت رسمية باستخدامها في بناء مسجد الباب المردوم وإذا ما كانت أبدان الأعمدة وتيجانها وحلياتها المعمارية المتموجة Cimacio، تلك التي ترجع إلى العصر الروماني المتأخر والعصر القوطي، من الحجر أو الرخام، انطلاقاً من منطقية البناء آنذاك فإنها ترتبط أيضاً بعقود من الحجر؛ غير أن مسجد سلبادور (ق 10-9م) بقند كل هذا، حيث نجد هنا أن الدعامات تحل محل أبدان الأعمدة لتعمل الأقواس، وهي كلها من الأجر؛ وربما كان توجه المبنى نحو الجنوب الشرقي، توافقاً مع المساجد القرطبية خلال القرن العاشر، يشير إلى تشييده خلال ذلك القرن رغم أنه أسبق كثيراً من تاريخ بناء مسجد الباب المردوم، وبالنسبة للاستعراب من المهم أن نعرف ما إذا كان استخدام الأجر قد عمم استخدامه في طليطة ابتداء من المسجد الجامع في هذه المدينة - وهذا ما يعتقده تورس بالباس - أي ابتداء من القرنين الثامن والتاسع؛ ومن المصادر المهمة في هذا السياق كتاب جونثالث بالنسيا المعنون «مستعربو طليطة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر»، حيث يضم بعض الوثائق الصادرة آنذاك بالعربية في زمن لم تكن في هذه المنطقة واحدة من اللغات الحية، كما أن طائفة المستعربين كانت تستخدمها لتمييز نفسها عن المسيحيين الذين جاءوا إلى

أطلال طبقاً لمارفيل رويث)؛ هناك كنيسة سان ثيريانو،
وسان كوسمي أي داميان ويازليكان ثويل التي توجد -
طبقاً لرأي مارفيل رويث - في أحد المباني التي ترجع
إلى العصر المسيحي الأول هي «ثيركاديا» Cercadilla،
في مجمع القصور الذي يرجع إلى العصر الروماني
وربما كان مركزاً للمقر الأسقفي بقرطبة، حيث نجد
لوحة جنازية للأسقف Lampadius ترجع إلى عام
549م (مارفيل رويث)، نجد أيضاً بازليكا سانتا إيولاليا
ذات الأصل القوطي والتي ربما كانت توجد في قصر أو
دير يسمى «لامرثيد» خارج باب أوساريو (المعظمة) أو
باب اليهود (أمدور دي لوس ريوس، وأ. ماركوس يونز)،
أضف إلى ما سبق أن هناك تسعة أديرة توجد خارج
المدينة - طبقاً للروايات المسيحية - أو في مكان ما من
المنطقة الجبلية المجاورة، ومن بينها ما نجد في الربر
أوربما القرية البعيدة عن المدينة حيث دير الشهيد سان
خنيس، مع إشارة إلى بازليكا تحمل الاسم نفسه (انظر
سيمونيت)، ومن المؤكد أن كنيسة سانتا كاتالينا ترجع
إلى بداية العصر المسيحي والعصر البيزنطي، ومكانها
اليوم هو دير سانتا كلارا، داخل الرقعة العمرانية،
وقد قام مارفيل رويث بإجراء بعض الحفائر بها خلال
الفترة الأخيرة، وكانت الخلاصة أن الطابع البيزنطي
هو الملمح الرئيسي، غير أنها زالت وحل محلها مسجد
يرجع إلى عصر الخلافة لازالت بعض جدرانه وبعض
الأبواب والمئذنة قائمة ودار العبادة تلك السابقة على
العصر الإسلامي ذات مخطط مكون من تسعة فراغات
تذكر جزئياً ومن بعيد، بمسجد الباب المردوم بطليطلة.

ومن خلال «عُرف» Fuero قرطبة الذي أقره فرناندو الثالث (1241م) نعرف أنه بعد غزو المدينة (1236م) أمر الملك بأن تقسم إلى 14 حياً مركزها الكتيمية، منها سبعة في الرقعة الحضرية القديمة وأخرى في «الشرقية» إضافة إلى عمليات تكريس لا تتوافق في حقيقة الأمر مع عمليات التكريس التي نجدها في الكنائس القوطية أو المستعربة المذكورة، وختاماً لهذا الذي استعرضناه

هناك بازليكا المقدسين الثلاثة وهم قاوستو وخيناريو ومارثيال في «in Vico turris»، وهذا ينظر إليه على أنه كان الرضى المسمى البرج Bury في «الشرقية»، حيث يرى بعض الباحثين أنها كانت هي القدم الكاتدرائية المسيحية عندما استولى العرب على المدينة ومعهما بازليكا سان بيثنتي التي تحولت إلى مسجد جامع في عهد عبد الرحمن الداخل، وربما كان مكان الكاتدرائية الموضع الحالي الذي توجد فيه كنيسة سان بدرو (توجد

في الوقت الحاضر، على شاكلة تلك التي كانت عليها بوائك مسجد مدينة الزهراء، وربما كان ذلك استلهاماً للمساجد الإسلامية في المشرق وخاصة فيما يتعلق بعدد الأروقة الذي يرتبط بالنمو السكاني؛ ما ينقصنا هو أن نعرف شيئاً عن الفن الذي كانت عليه الكاتدرائيات القوطية في المناطق الحضرية وما عليه من تفاصيل نبيلة، سواء من الخارج أو الداخل، وذلك كتمسير للشكل الخارجي للمسجد الجامع بقرطبة، حيث نجد واجهات متتابة وأصداء متكررة للمخطوط المعمارية الموروثة من العصر القديم، وهنا علينا أن نسلط الضوء على واجهات المباني التي تظهر خطوطها من خلال المخطوطات المستعمية التي ترجع إلى القرنين العاشر والحادي عشر، وهي شديدة الشبه بما عليه باب سان استبان في المسجد الجامع بقرطبة، وما إذا كانت تلك المخطوطات مستوحاة من هذه الأخيرة أو أن الأمر على العكس تماماً.

وعندما نتأمل في طليطلة تتابع الخطوط الفنية وانتقالها من المساجد إلى الكنائس بعد عام 1085م نرى أنه كان من المعتاد حدوث مثل تلك الخطوات بين دار عبادة وأخرى. هناك واجهات من الطراز الأموي جرى تقليدها في واجهات من الأجر في الكنائس الجديدة التي ظهرت خلال القرن الثالث عشر (سان أندرس وسانتياجو دل أربال وسانتا أورسولا) وكذلك سانتا ماريا دي لافوينتي في مدينة وادي الحجارة. وهنا نتساءل: ألا يحدث الشيء نفسه عند عملية الانتقال من الكنيسة إلى المسجد في المسرح الأموي القرطبي؟ الأمر الذي يبدو بدهياً هو أن المسجد الأموي بقرطبة لا يمكن فهمه تماماً من منظور مشرقى اللهم إلا تلك العناصر التقليدية المتعلقة بإقامة الشمائر والمورثة، وهي مخطوط المنارة والصحن والجزء المسقوف وحائط القبلة وكوة المحراب، أي أن الفن الذي عليه المسجد الجامع بقرطبة يحتم علينا البحث عن علل منطقية تفسر سر اختلافه عن مساجد أخرى جامعة في الشمال الأفريقي وفي

بشأن دور العبادة القرطبية التي وجدها العرب نجد مارفيل رويث يحدثنا عن نقل المقر الأسقي الواقع في «شيركاديا» شمال الرقعة العمرانية المسورة، إلى بازلিকা سان بيثنتي الواقعة في الجنوب، حيث قام بعد ذلك عبد الرحمن الداخل بإنشاء المسجد الجامع، وإلى جوار قصر روماني قوطي جرت إقامة قصر الأمراء والخلفاء، وإذا ما أراد القارئ المزيد من هذا الموضوع المتعلق بالكنائس القرطبية التي زالت من الوجود نعيه إلى المخطوطات 1، 2 في اللوحة المجمة رقم 28. وهي في الوقت الحالي لم يعد لها وجود حتى في المخطوط سواء ما تعلق بالكنائس القوطية أو المستعمية القرطبية إضافة إلى تلك التي جرت بها الحفائر والمسماة سانتا كاتالينا، وكل هذا يجعلنا نفكر في أن العرب عندما دخلوا شبه جزيرة إيبيريا وجدوا فيها كنائس ذوات مخطوطات بازليكية كلاسيكية وكنائس على شكل صليب من النوع البيزنطي؛ وما علينا إلا أن نقبل بالعناصر الزخرفية المتبقية من هذه المباني سواء في قرطبة والمدن الواقعة في الجنوب، وهي عناصر تحدثنا عن حاضر مزدهر في فترة ما قبل دخول المسلمين على شبه الجزيرة.

عندما نتأمل الموروث الفني الخاص بالمسجد الجامع في قرطبة الذي يزيده رفعة وشأناً يمكن القول إنه التقى فيه كل من الموروث المحلي والموروث المشرقي ذو الملامح الجديدة وعلى فترات متتابة ومختلفة، وعندما نتأمل فترة عصر الإمارة نجد أن المسجد الذي تأسس في عصر عبد الرحمن الداخل على شاكلة ما تم من توسعات في مصر كل من عهد الرحمن الثاني ومحمد الأول؛ فأمر المقود المتراكبة في داخل المسجد الذي لا يمكن أن يكون جزءاً من مكونات ذلك الجزء من المسجد الذي تأسس في البداية - يمكن أن يكون تعبيراً بليفاً عن أن المرحلة الثانية من التوسعة كانت عبارة عن توسعة مزدوجة سواء في المسطح الأفقي أو الرأسي. وإذا ما قبلنا بذلك نقول إن مسجد عبد الرحمن الداخل كان يتوافر على بوائك بسيطة، ليست كذلك التي نراها

المشرق، كما أن فخامته المعمارية مقارنة بدور العبادة الوثنية الأخرى المحيطة به تحول دون إيجاد رابط منطقي بين هذا الطرف وذاك الآخر، وهنا يمكن القول إن مبنى مثل هذا فيه كل هذه الفخامة يمكن أن يكون تمييزاً عن انتصار الإسلام على أعدائه، أو أنه عبارة عن مجرد استخدام الحجر في وضع تاج السلطان للدولة الجديدة التي بلغت سن الرشد وأصبحت لها قدرة المنافسة جنباً إلى جنب مع الحضارات الأخرى، وربما من هذا المنظور تُرك الباب مفتوحاً على الفن الإسلامي في المشرق وخاصة ابتداء من القرن التاسع، فمن المبالغة القول إن كل هذا الزخرف الفني والمعماري كان لصيقاً بالمسجد منذ تأسيسه في عصر عبد الرحمن الأول وهشام الأول، وهنا أرى أن البناء الذي شيده هذان الأمهرا قد قضى عليه تماماً بناء على رغبة عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول. وإذا ما كان الأمر على هذا النحو نتساءل: هل كان المخطط السابق يضم نقطة ارتكاز أو حلقة وصل بين الفن المحلي والفن الإسلامي الجديد؟ لا داعي أن نزيد من الإلحاح على المقولة التي تشير إلى أن مسجداً بهذه العظمة لا يميل بسهولة إلى التقليد سواء لمباني في قرطبة نفسها أو خارجها، وفي هذا المقام نجد أمثلة أخرى مشابهة، ولكن ليست على الدرجة نفسها، مثل المسجد الجامع في طليطلة أو إشبيلية أو سرقسطة؛ كما أن مسجد تطيلة على الحالة التي هو عليها إما أن يكون دعابة للمسجد الأموي الأندلسي قابلة للانتقال إلى مدن أخرى صغيرة أو متوسطة.

لنترك جانباً مدناً على درجة من الأهمية الكبيرة مثل قرطبة وإشبيلية، وهي المدن التي نجد فيها الملامح الأسلوبية الفنية والمعمارية وقد وصلت إلينا من خلال الكتل الحجرية المودعة ضمن ثروات المتاحف، ونمود لنسلط الضوء على ما قبل العصر الإسلامي في مختلف أرجاء شبه جزيرة إيبيريا، هناك أطلال قديمة لمحصن فيه أطلال توجد في أرجاء مدينة قادش مثل كنيسة سان بيتر (الحميري) وكنيسة أخرى في ويلبه Hueiva؛

وربما كان المقر الأسقفي القديم في مدينة شذونة هو المكان الذي يتجلى اليوم في كنيسة سانتا ماريا، التي حلت محل المسجد الجامع الذي شيده محمد الأول، غير أن ألفونسو العاشر (1260م) عندما قام بإعادة تأسيس مدينة قادش، جعل المقر الأسقفي فيها الكاتدرائية القديمة، أي كاتدرائية سانتا كروت، أي فوق أطلال مسجد لم تعثر له الدراسات الأثرية على أي شيء، اللهم إلا الكنيسة الحالية المتجهة إلى الجنوب الشرقي؛ وبالنسبة لبازلিকা مدينة شذونة غير الموجودة تقول إنها ربما كانت كانت من تلك الأربعة التي ترجع إلى القرن السابع والتي أسسها الأسقف بيمينيو Pimenio (انظر: خ. بيبس، بويرتاس تريكاس) وهي: ألكالا دي الغزولين Gazules، طبقاً للوحة تأسيس ترجع إلى عام 622م (خ. بيبس)، والكنيسة التي زالت من الوجود (والتي ربما كانت قائمة في المكان الذي توجد فيه كنيسة سانتا ماريا الحالية إلى جوار الحصن والمتجهة إلى الجنوب) وببغير Vejer دي لافرونثيرا، وسولبنسا Solpensa، هناك كنائس أخرى متأخرة زمنياً ورد ذكرها، في إشبيلية في طوبينا (ابن القوطية) وفي كورة كينتوس (انظر تورس بالباس)، هناك «كنيسة» تقع خارج أسوار سرقسطة وفي أثيرا Alcira ريف «الكنيسة»، وهي اليوم - على ما يبدو - كنيسة سان أغسطس (انظر خوليان ريبيرا)، وأخرى في أليكانتي إلى جوار بني قنتيل Banacantil، غير بعيدة عن المسجد الجامع الذي ورد ذكره عند الإدريسي وهي اليوم كنيسة سانتا ماريا (روسيد ليمينانا)، وفي دائرة فمارش القديمة (ملقة) نجد كنيسة أخرى (ديوريو)؛ ومن الأمور التقليدية كان وجود كنيسة بازيلكية مسمّاة سان بيثنتي وأخرى اسمها «القدس» أو سانتا ماريا دي جيروزاليم، تقوم، سواء كانت هذه أو تلك، بدور الكاتدرائية، لكننا نجهل مواضعهما، إضافة إلى أن المصادر العربية أحياناً ما تشير إلى «مسجد روفينا» ومرة أخرى إلى «كنيسة سانتا روفينا»، وربما كانت داراً للعبادة المسيحية والعربية في

أن، مع وجود جدار فاصل بين رواد المكان (انظر خواكين بابيبي) مثلما هو الحال في قرطبة وطليلة.

ويذكر تورس بالباس بازيكا مكرسة باسم سان كوسمي وسان داميان في حي كولوبرس Colubres في بتشينا حيث كان يرى في أحد أبوابها تمثال للعداء مريم أشار إليه ليفي بروقتسال على أنه برهان على وجود طائفة من المستعربين في المكان. وفي سفح جبل كونثيون، الذي يفترض أنه بلدة عربية هي قرطاجنة التي تغلو من أية آثار خلال القرون الثلاثة الأولى للفتح العربي) نجد أطلال كنيسة قديمة هي سانتا ماريا المجوز، أو كنيسة لأسونثيون، وربما كانت داراً للعبادة ترجع إلى العصر البيزنطي وقد عثر بداخلها على فسيفساء مسماة opus signinum تشبه أخرى هي Lucentum (أليكانتي)، وهناك تم إعادة إقرار مكان الأبرشية (1250م)، وجرى تعيين أسقف عليها هو هراي بدرو جايجو. وعلى بعد ستة عشر كيلو متراً من قرطاجنة، كانت هناك خلال العصر العربي دار للعبادة تسمى سان خنيس دي لاخارا وهي مبنى شهير يضم رفات إحدى الشهيديات المسيحيات، أشار إليها التراث الشفوي المسيحي على أنها (أي المبنى) كنيسة سان خنيس دي أريس، حيث كان يحج إليها المسيحيون من مختلف الأرجاء ابتداء من عام 1244م وكذا مسلمون غرناطيون ومدجنون يعيشون في الممالك المسيحية للتبرك بضريح لولي من أسرة الرسول محمد (انظر تورس فونتس وخواكين بابيبي).

كان مصلى سان فيلكس دي شاطبة الذي أشرنا إليه سابقاً يتسم بالشهرة، وكان مفتوحاً للعبادة على ما يبدو خلال العصر الإسلامي، ويشير التراث الشفوي أن هذا المبنى هو الكاتدرائية القوطية التي ترجع إلى القرن السابع، على أيام الأسقف أناسناسيو، استناداً إلى أطلال لبازليكا عثر عليها في هذا المكان طبقاً لبيورناس تريكاس. وحول بلدة وادي آش يقدم لنا الباحث المذكور

وصفاً يرجع إلى عام 652م، يتحدث عن تكريس كنيسة تحت رعاية الأسقف خوستو، ومكرسة باسم «الصليب المقدس»؛ وفي الوقت الحاضر هناك دار للعبادة تحمل الاسم نفسه، ولا بد أنها كانت موجودة أثناء الحكم الإسلامي. ومن خلال H.Peres نعرف أن هذه المدينة كانت تضم كنيستين تؤدي فيهما الشعائر، ترجمان إلى القرن الحادي عشر احترامهما الفزاة المسيحيون في حرب الاسترداد وأعادوا بناءهما. وفي المناطق المجاورة للقة عاشت طوائف من المسيحيين المستعربين مثل تلك التي كان يرأسها الراهب أمانسويندو Amanasuindo (توفي عام 982م) كما نعرف بوجود نقوش كتابية جنائزية مستعربة (958م و 1010م) تتعلق بأسقف وقس، وفي ملقة، المحافظة، نجد بازيكا دي لايجادل ماريه سان بدرو دي القنطرة؛ ولا بد أن بلدة سيجوينا Siguenza كانت تضم كنيسة، ذات برج هذه المرة، من أصول قوطية، وظلت أطلالها قائمة حتى تمكن ألفونسو السادس من احتلال المكان؛ كانت تسمى كنيسة سانتا ماريا المجوز، وكانت قد هجرت مع بناء الكاتدرائية التي تحمل الاسم نفسه، ومن المؤكد أن المدينة كان لها أسقف منذ القرن السادس الميلادي، وبعد السيطرة العربية أصبح المنصب في يد شخص برناردو دي أخين B.Agen (مجيلا وخوليو جونثالث). ويذكر الإدريسي اسم مكان masadjis، في بلدة سالودا - الآن Sanlucar - ربما كانت ترجمتها مساجد، اللهم إلا إذا كانت دور عبادة مسيحية (انظر، بابيبي) وفي مرتولة (البرتغال) نجد أطلال مسجد قديم أصبح اليوم كنيسة سانتا ماريا أو «السيدة دي لا أسونثيون» أو «Entreambasaguas»، وربما كان هناك، أو بالجوار مقعد روماني أو كنيسة أو بازليكا؛ ولا نعلم في تلك البلدة بعض الكتل الحجرية القديمة المزخرفة لافتراض وجود الأثر.

كانت الدائرة الأسقفية لبليسية تقع بالقرب من مركز المدينة الروماني، إلى جوار الكاتدرائية ابتداء من القرن الخامس حيث نجد مصليين على شكل



صليب يراهما خ. باسكوال. و.ر. موريانو أنهما مكرسان لسان باليرو وسان بيثنتي، وهما شهيدان من بلنسية لهما مقابرهما في المقابر المسيحية، وخلال العصر القوطي هناك بازليكتان (ق 6-7)؛ ويلاحظ وجود نقش كتابي (ق 6) ورد فيه اسم خوستينيانو، أسقف المدينة، ويلاحظ أن البازليكا التي أقيمت في المدن القديمة التي استقر بها العرب ابتداء من القرن الثامن إنما تعد مثالا واضحا في أغلب الحالات على الاستمرارية في تطور المدن الإسبانية، حيث كان هناك مقر أسقفي يستقر به الحكام العرب الأوائل، أي أن معنى هذا - طبقا لكلمات خواكين بابيي - العثور على السبب الكامن وراء وجود المدن حيث ارتبط ذلك بوجود مقر أسقفي قديم.

جرت إعادة بناء ماردة على عهد عبد الرحمن الثاني وابنه محمد الأول، حيث يرجع بناء القصبية إلى الأول، وظلت المدينة القديمة وكذلك القوطية، قائمتين داخل أسوارهما، وجرى استخدامهما كمعبر على يد العرب لإقامة الحصن المذكور وبعض المباني الأخرى التي لا نعرفها بشكل جيد. وتشير المصادر المسيحية القديمة إلى أن هذه المدينة كانت تضم سبع كنائس ترجع إلى العصر القوطي وهي كنيسة سانتا ماريا - ربما كانت المقر الأسقفي - حيث جرى بناء المسجد الجامع، وهذه حالة أخرى من حالات التعاقب بين الكنيسة والمسجد (مسجد وكنيسة بعد حرب الاسترداد Reconquista)؛ هناك كنيسة سانتا إيولاليا، خارج أسوار المدينة، حيث تمت إقامة دار العبادة المسيحية الحالية ذات المخطط البازليكي، وتحمل الاسم المكرس نفسه، وهناك أماكن تحديد مكان المستشفى الذي كان يؤمه الحجاج القوط، ويرى ب. ماتيو P. Mateo أن المستعربين قد أخذوا منه عناصر زخرفية قوطية ووضعوها في جب القصبية العربية؛ وبناء على نتائج عدة حفائر جرت مؤخرا، كان يوجد بهذا المكان منزل روماني مهم، ثم أصبح مجموعة من المقابر والأضرحة، وكذلك بازليكا سانتا إيولاليا التي تنسب على ما يبدو إلى الأديرة؛ ومن ناحية أخرى نجد

المصادر العربية تشير إلى أن الكثير من الأضرحة في ماردة قد جرى نقلها إلى قرطبة لإعادة استخدامها في الإنشاءات الإسلامية، ولاشك أن بعض هذه الأضرحة قد استقرت مكوناته في المسجد الجامع، وربما كانت ماردة (دون أن نباعد إيطاليا عن هذا الخط) كانت تقوم بالدور نفسه الذي كانت تقوم به مدينة قرطاج بالنسبة للقيروان وخاصة ما يتعلق بالأعمدة القديمة؛ وعلينا في هذا المقام أن نسلط الضوء على الكثير من الكتل الحجرية ذات الزخارف القوطية المنحوتة في ماردة والتي نشرت عنها دراسة مازيا كروث ببالون؛ ويقول جومث موريانو «إن كل لوسيتانيا كانت ترتبط بماردة بعباد باجة ويفور evoral وبطليوس... وكانت تعج بالوحدات المعمارية المزخرفة».

وهي إقليم اكستريمادورا نجد شواهد على تلك البازليكا المشار إليها - سانتا ماريا - في إيبيا إيرناندو (قصرش) عام 635م، وأخرى في شريش دي لوس كاباييروس (بطليوس) (انظر م.ر. مارتش) حيث عاشت المنطقة مرحلة من مراحل الوثنية؛ نجد قرمونة، المدينة الرومانية ذات الأسوار الممتدة والباب المعتمد المسمى باب إشبيلية خلال ذلك العصر، وكان لها مسجدها الجامع القريب من مركز المدينة ولاشك أنه كنيسة سانتا ماريا، حيث ورد وصف المسجد بأنه ذو سبعة أروقة وأعمدة (من الرخام ودعائم من الكتل الحجرية) من تلك التي أعيد استخدامها (الحميري)؛ ويقول تورس بالباس إنها هدمت عام 1424م (9)؛ وفي المنطقة نفسها عثر على أطلال قوطية وعلى التقويم الخاص بالطقوس الدينية الذي عثر عليه في صحن شجر البرتقال وقد نقش على أحد أيدان الأعمدة؛ «الحادي عشر ميقات فبرابر/ سان بيثنتي / الساب Nonas Maias سان فليثني دياكو/ - سان Treptetis /.. سان كرسبو»، وفي أستجة نجد أيضا أن الكنيسة والمسجد قريبان جدا (الحميري) وربما كانت الكنيسة هي سانتا باربارا، أما المسجد فمكانه في الوقت الحاضر كنيسة سانتا ماريا وربما كنيسة

Iliberis في نطاق قصبة غرناطة، وهي مقر أسقفي للقوط، كما أن لبله Niebla الرومانية والمسماة في عصر القوط Ilipla، أي لبله العربية، كانت شهيرة بمقر أسقفي لباطنة Betica، وما يدل على ذلك وجود آثار قوطية عثر عليها في الكنيسة الحالية سانتا ماريا التي شيدت فوق أطلال رازليكا وأطلال مسجد جامع خلال القرن الثاني عشر، وهذا مثال آخر على التراكم أو التعاقب بين المراحل الأسلوبية الثلاثة.

في مارتوس (جيان) نجد توس Tus أي Tucci الرومانية والقوطية، وأطلق عليها العرب مارتوس، التي حافظت على المقر الأسقي التابع لإسباليس Hispalis. ويرى جومث مورينو أنه عثر في المكان على أطلال رومانية وأخرى ترجع إلى العصر المسيحي الأول، وهي عبارة عن تابوت به نقوش غائرة ونقوش كتابية ترجع إلى القرن السادس أمر الأسقف ثيرينانو ببناء (هذا المكان)؛ ونزولاً إلى جبل طارق نعثر على أطلال رومانية وقوطية وبيزنطية في أطلال Carteia (انظر د. برنال ولوردس لورنثو مارتث) كما عثر على قطع من الخزف العربي حيث يبدو - طبقاً للحميري - أنه قد شهد هناك مسجد هو أقدم مساجد الأندلس وقام بالتأسيس أحد صحابة الرسول محمد (انظر خواكين بابيي)؛ ويشير ذلك المؤرخ العربي إلى وجود مسجد في الجزيرة الخضراء مكون من خمسة أروقة وصحن شديد على أيام عبد الرحمن الأول، وقام بالمعملة عبد الله بن خالد، وكان المكان هو الذي كانت به كنيسة (فتح الأندلس) فصعد بعد ذلك إلى النثر الأوسط حيث نجد أوريتو = أوريت Oria - أي Oretum الرومانية - التي توجد بها آثار نقوش كتابية ويطلق عليها العرب أوريت (المنية الملكية)، وبها مقر أسقي يرجع إلى أيام القوط وكان أساقفتها يشاركون في مجامع الكرادلة في طليطلة (انظر تورس بالباس).

سان خوان (طبقاً لتورس بالباس)؛ وعند ابن حيان كان المسجد مشيداً من الحجارة وجرى ترميمه على يد محمد الأول، وهي أstantة أيضاً أمكن العثور على تابوت يرجع إلى العصر المسيحي الأول وعليه شكل «الراعي الإلهي» بالنقش الفائر على الضلع الرئيسي، ويمثل تلك القطعة الفريدة التي عثر عليها في Alcaudique مع نقش إنجيلي ينسب إلى طائفة مسيحيي «بيرخي» أي الممرّ العربي في ألمرية (انظر سوتو مابور أي مورو)؛ ويؤنه الإدريسي إلى حصن سانتا فيلا بالقرب من لورقة (ملقة)، حيث أمكن العثور على كنيسة تحولت إلى مصلى (كنيسة صغيرة) أطلق عليها «مصلى عذراء سبتيفيلا Setefilla حامية لورقة» ويانسبة لبلدة Castalum أي قسطلون العربية الواقعة بالقرب من لينارس، أي المكان الذي ورد ذكره على زمن عيد الرحمن الداخل، كان لها عام 309م أسقف يسمى سيجوندنو، ولاشك أنها أصبحت بعد ذلك أسقفية للقوط وكان الأسقف يدعى ماركوس.

نجد أيضاً في مانتيسا مقراً أسقفياً خلال العصر القوطي يسمى «لا جوارديا» وهي تقع على بعد ثمانية كيلو مترات من جيان ولها أساقفتها الذين حضروا اجتماعات مهمة للكرادلة في طليطلة، وربما كانت عاصمة كورة حتى انتقلت لتكون تابعة لجيان (انظر خواكين بابيي) ويطلق عليها كل من الرازي وياقوت مسمى المدينة القديمة، حيث عثر هناك على نماذج مهمة من تجليات الفن الروماني والقوطي، كما نجد أن قورية - أي Caurium القديمة - كانت مقر أسقفية لوسيتانيا، وبها لوحات بها نقوش كتابية لاتينية ترجع إلى العصر الإمبراطوري المتأخر وبدايات العصر المسيحي، مع وجود شريط شبه دائري يحيط بالنقش، ولا شك أن العرب قد أخذوا منها في إعادة بناء أسوار المدينة. في أبهرة (غرناطة) نثر على أطلال رومانية وقوطية (طبقاً لجومث مورينو) وربما جرت مصادرتها واستخدامها في بناء المسجد الذي أسسه الأمير محمد الأول (طبقاً لابن حيان وابن الخطيب). تقع بلدة



سيباستيان، الرجل الذي طُرد من الأندلس، وأقام في مقر أورنسي (انظر جومث مورينو)؛ نجد باليريا Valeria وأساقفتها خلال القرن السادس، وهي مقار تولى أمرها مدينة قونقة بعد أن استولى عليها العرب عام 1177م، نجد سيجو برجا (قونقة) وبها بازليكا كابيتا دي جريجيو C. de Griego ذات مذبح على شكل حَدَوِيّ وتاج أو كرسي للأسقف به زخارف حجرية قوطية (انظر مارتين ألامارو). في منطقة وادي الحجارة، وبالقرب من ثوريتا دي لوس كانس، نجد ريكوبولس التي أسسها ليوبيجيلدو Leovigildo تكريماً لابنه ريكاريدو، ولها مخطط بازليكي ذو مذبح شبه مستدير (انظر كاتالينا جارتيا، وخ. كابريرا) وتوجد بها أطلال ترجع إلى العصر المسيحي الأول والقوطي، وتيجان وقاعة أعمدة ترجع إلى العصر الروماني المتأخر، حيث جرت الإفادة منها بشكل جزئي في مباني بلدة «ثوريتا» العربية (طبقاً للرازي). وفي محافظة طليطلة، بالقرب من مانيكا التاج، نجد المكان المسمى «تاموخاس Tamujas» حيث به مبنى صغير ربما كان كنيسة قوطية ذات كتل حجرية مزخرفة (انظر أ. بالمونكي). وقد عثر ري باستور في سان بابلو دي لوس مونتس على كتل حجرية قوطية، وعلى قطع أخرى في الموناسيد (باسيليو بابون).

نتقل إلى الثغر الأعلى لتجد في طرّونة الكنيسة القوطية المسماة «سان فروكتوسو» (ق 16)، وقد جرت بها حفائر خلال السنوات الأخيرة في المسرح الروماني، خارج أسوار الرقعة الحضرية الرومانية (خايبير أكيوي X. Aquilue، خايبير دويري، وخايمي ماسو، وخ. رويث دي أربولو) ولهذه الكنيسة ثلاثة أروقة أوسعها له مذبح في نهايته على شكل حدوي، وظلت مستخدمة حتى الفتح العربي (711م)، وربما ابتداء من تلك اللحظة تحول روادها إلى إقامة الشعائر في مكان أقيم على أنقاضها على الطراز المرومي يرجع إلى القرن الثاني عشر (انظر بالول)، وفي المدينة نفسها ورد ذكر كنيسة سانتا جيروزاليم (انظر بالول)، وربما

حل محلها مسجد جامع ثم أعقب ذلك كاتدرائية، اللهم إلا إذا كانت «سانتا تكللا» التي يراها تورس بالباس على أنها كنيسة مستعربة. وبعد أن انتهى العصر الذهبي للمدينة الرومانية القديمة «أمبورياس» خلال العصر الروماني المتأخر نجد في «نيابوليس» آثاراً لمقابر ترجع إلى القرن السادس وعلى رأسها بازليكا صغيرة ذات رواق واحد ومذبح شبه مستدير؛ وبعد ذلك تقلصت المدينة في الرقعة العمرانية المسماة سان مارتين دي أمبورياس، حيث من المفترض أن البازليكا كانت مقامة هناك وكانت مقر الأسقفية في أمبورياس ابتداء من القرن السادس؛ وفي المنطقة المجاورة للمدينة الرومانية، أمكن العثور على ثلاث كنائس صغيرة يبدو أنها ترجع إلى القرن التاسع أو القرن العاشر، وهي كنائس ذات رواق واحد ومذبح شبه أسطواني، إلا أن هيكل كنيسة سانتا ماجدالينا مربع الشكل (خايبير أكيوي وآخرون). بالانتقال إلى وشقة تجد ما يدل على وجود ما هو مستعرب في حيّ كوميس Qumis المجاور للكنيسة المسماة «سان كريستين» التي ربما كانت دار عبادة مستعربة (انظر تورس بالباس). ثم نعود إلى شرق الأندلس وبالتحديد في محافظة مرسية حيث نعثر على بازليكا في بلدة Cehegin وهي كنيسة ورد ذكرها في لوحة عليها نقش كتابي يقول Bigas episcopus «Hodoacrus Minus» وهو المكان الذي ورد فيه وجود مسجد، طبقاً للمتواتر الشفهي؛ فنثر أيضاً على بازليكا بيزنطية في إلس Illici في بلدة الكوديا Alcludia، وهي ذات رواق واحد وترجع إلى القرن السابع (انظر رفائيل راموس هرنانديث) ويلاحظ أن كلتا البلدتين تدخلان ضمن البلدات السبع التي جرى النص عليها في «اتفاق تودمير» (ق 7) وهي التي توردها المصادر العربية، حيث نرى البلدة الثانية وبها بازليكا جرت فيها حفائر، وهي بازليكا ذات رواق واحد ترجع إلى القرن السابع اللهم إلا إذا كانت قبل ذلك بوقت قصير (انظر رفائيل راموس هرنانديث)، وكانت هذه مقر أساقفة إلس.

الأخيرتان قوطيتان اللهم إلا إذا كانتا مستعمرتين كما سبق القول (انظر كاباييرو ثوريد).

في الشمال الأفريقي نجد البكري يطلق مصطلح «الكنائس» على ثلاثة حصون متهدمة، ويذكر كذلك لفظة باب الكنيسة في حي الأندلسيين بقاس بالي - وطبقاً للتراث الشفهي المسيحي فإن المسجد الجامع القديم في تونس أقيم على أنقاض كنيسة - القديس أوليبو، ومن هنا تأتي الترجمة العربية «الزيتونة» التي يعرف بها المسجد الذي جرى تجديده خلال حكم الأغالية (ق 9) وتحديثا المصادر العربية ومن بينها اليعقوبي وأبو العرب وابن الأثير (انظر جورج مارسيه وتورس بالباس) عن كنائس في قلعة بني حماد (الجزائر) والقيروان والمهدية: ففي الأولى نجد كنيسة العذراء مريم التي كانت قائمة حتى 1114م، والكنائس القيروانية التي كان لها كهنتها حتى القرن الحادي عشر، وهناك شواهد قبور تؤكد هذا؛ وفي المهدية كانت هناك عدة كنائس حيث جرى الاستيلاء على أعمدة رائعة (طبقاً للمقرّي) أعيد استخدامها في المنشآت الملكية بمدينة الزهراء. ويشير البكري إلى بلدة أغادير، التي كانت رياضاً من أرباض تلمسان وأسسها إدريس الأول عام 790م، ويؤكد على وجود طائفة مسيحية ظلت - حتى أيامه - ترتاد كنيسة؛ وتشير التوقييات الأثرية الأولية التي جرت في الفترة الأخير إلى أن المسجد في ذلك المكان كانت جدرانها من الحجارة المنقوشة، حيث كان بعضها يستخدم للمرة الثانية وبها نقوش كتابية لاتينية (انظر عبد الرحمن خليفة)، وفيما يتعلق ببنية دور العبادة المسيحية هذه في الشمال الأفريقي ربما كان من المناسب أن نأخذ نموذج كنيسة ترجع إلى القرن الخامس الميلادي محفوظ في الباردو دي تونس، وهي دار عبادة بازيلكية لها أعمدة وبائكة أو بوابة ذات أقواس ثلاثة أوسطها أكبرها، حيث نقرأ عبارة «in pace ecclesia mater uilutia»، وهذا نمط كان له ما يماثله في إسبانيا في دور العبادة التي شيدت في «لوس بيأتوس» وهي دور عبادة مستعربة (ق

هناك مدينة أخرى تقع ضمن بنود هذا الاتفاق هي القناة Laqant (أليكانتي)، التي يرى إنريكي أ. يوبريجات أنها هي المدينة الرومانية لوثتوم Lucentum التي تقع في حي Benalua في البوفيرا، المدينة الرومانية التي عاشت طويلاً، حتى القرن السابع على الأقل، وما يؤكد وجودها، العثور على أطلال زخرفية قوطية وخزف أستمبا سابق على ذلك التاريخ، ومن خلال الحفائر التي جرت في السنوات الأخيرة نجد روزر ليمينايا يثر على بقايا آثار رومانية عند سفح جبل بني قنتيل Benacantil في منطقة تعتبر من ضواحي أليكانتي حيث جرت إقامة بلدة القناة الإسلامية، «Laqant» وربما دل العثور على مجموعة من المقابر العربية المهمة في «لوثتوم» على أول وجود عربي في هذه المنطقة في «أبوفيرا» وربما كان ذلك قبل بلدة بني قنتيل Bencantil، ولسنا ندري حتى الآن أين تقع بلدة لاكانت الوارد ذكرها في اتفاق تودمير، غير أنها تقع في إطار Benalua - بني قنتيل (انظر م. إنش، ألوثينا و. بيريث خيمينث)، وفي المناطق المجاورة لبلدة بياخويسا (أليكانتي) لا نجد أطلالاً عربية مثل الخزف والجص المزخرف الروماني (خ. بلدا دومنيجيث) إلا أنه عثر مؤخراً على بقايا مسجد من الطراز الموحدي (انظر خ. جارتيا جاندنيا) وفي حلين Hellin (البيسط) ورد ذكر البازليكا ذات الأروقة الثلاثة إضافة إلى المذبح المستدير الشكل في تولوي دي ميناتيدا T.Minateda (انظر أبادكاسان، وجوتيرث يوريت، وجاموب.). وبعد هذا التجوال الطويل بالجغرافيا الإسبانية تجدر الإشارة إلى دور العبادة القوطية التي لازالت قائمة ولم يهدمها المسلمون، بدءاً بسان خوان دي بانيو، وكينتليانا دي لاس بنياس، وسانتا كومبا دي باندي، وكرييتا كاتدرائية بالتمسيا، وسان بدرو دي لاتابي، وسانتا إيولاليا دي بوييدا، وسان فروكتوسو دي مونتيوس في القويسكر Alcuescal (قصرش)، وسانتا ماريا دل ترامبال، وفي دائرة مليلطة نجد سانتا ماريا دي ميكلي، وهاتان



10، 11)؛ وقد سبق أن أشرت في صفحات سابقة إلى أطلال كنيسة تقع إلى جوار مسجد يرجع إلى القرن الثاني عشر في توزور (تونس) الأمر الذي يبرهن على وجود المسيحية في تلك البلاد عند مجيء العرب إليها خلال القرن السابع.

أراها جيدة تلك النتائج التي خلص إليها جومث مورينو من خلال دراسته لكنائس سابقة على العصر القوطي والعصر القوطي نفسه (بواكير الفن المسيحي الإسباني) فقد ساق الجديد والعديد من نماذج دور العبادة ورد ذكر بعضها فيما سبق - في هذا الكتاب - ويقول مورينو «حطم الفتح العربي (خلال القرن السابع) ذلك التوازن القائم في شبه جزيرة إيبيريا الذي اتسم بالازدهار والذي نجم عن جهود كل من ليوبينيلدو وريكاريدو سيرا على موروث يتسم بالتخلف الثقافي والفقر والعقم في مجال الفن، وظل الأمر كذلك حتى كان هناك رد الفعل المسيحي في اتجاهين، أحدهما انطلاقاً من أستورياس التي نفت انتباهها كل ما هو أوروبي وخاصة العلاقة التي ربطت ألفونسو العفيف بشارلمان، إذ تمخض عن ذلك مولد توجه معماري بازيلكي مكون من عقود نصف أسطوانية وقياب في المصليات واستخدام الذهب في البناء، ولا شيء مما اصطلح عليه بأنه فن قوطي أصيل. ونشهد في عصر راميرو الأول (ق9) ثورة حقيقة ذات طابع شخصي تجلب معها خلاصة الفن الروماني (نارانكو، سان ميجل دي لينيو، سانتا كريستينا دي لينيا، سان سلبادور دي بويرس، سانتا ماريا دي لارا). أما الاتجاه الثاني الرئيسي الذي اتخذته المسيحيون الإسبان الذين لم يتعرضوا للغزو فقد ازداد في آن معاً باتصاله بالثقافة العربية التي حقز عليها عبد الرحمن الثاني (822م) وظهر العنصر المستعرب بفتونه الإسبانية الأصلية كوريثة للثقافة الطليطلية التي ازدهرت في شمال شبه الجزيرة واستعادت من جديد العقد الحدي الذي دخل عليه التطور.

عندما نستعرض قائمة دور العبادة التي أطلقت عليها المصادر العربية مصطلح كنيسة يجب أن نضع في الحسبان أن هذه المصادر تطلق أحياناً هذه التسمية على أطلال قديمة غير إسلامية، وحدث الشيء نفسه بالنسبة لمصطلح مدينة الذي كان يطلق على مدائن رومانية قديمة سواء كانت ذات أسوار أم لا (البكري)، ولا بد أنه كان من الأمور العادية استمرار طوائف مسيحية قليلة العدد ولها كنيسة ومقابر لدفن موتاهم، وهذا على السواء في أفريقيا، حيث نجد حالة أغادير التي تحدث عنها، أو Valubilis وليكسوس. ومن الشواهد التي نلاحظها، في هذا المقام، في الأندلس في عصوره المتقدمة، نذكر منطقة وبدة Ubeda (حيث ورد ذكر اسم أسقف خلال القرن التاسع) في عصر النصراني (بنو نصر) محمد الخامس الرجل الذي قام بهدم أسوار المدينة وكنائسها خلال تلك السنوات السابقة على قيامه ببناء قصر الحمراء؛ ومن خلال خريطة مصورة لشبه جزيرة إيبيريا خلال القرن السابع الميلادي يطل علينا بويرتاس تريكاس بعدد، مقبول للغاية، من الكنائس الإسبانية، واستند في هذا إلى المصادر الأدبية وهي 37 كنيسة موزعة على النحو التالي: تسع في طليطلة، وأكثر من اثنتي عشرة في ماردة وفي قرطبة - إضافة إلى كنيسة سان أليسكو، هنا ستة عشر بازيكا وديراً ترجع إلى العصر المتأخر، وإليها تضاف اثنتا عشرة أخرى ترجع إلى القرون الرابع والخامس والسادس. وبالنسبة للتكريس نجد مسميات متكررة مثل «سان كوسمي إي داميان»، سان خنيس، سانتا أيولاليا، سان بيتشتي، سانتا كروث، العذراء مريم، القديسة ماريا، سان فيلكس، القديسان خوستو وباستور، سان ثييريانو، سانتا ليوكاديا - ثلاث في طليطلة - سانتا خوسيا إي روفينا. وتشير المصادر نفسها إلى كنائس بدون اسم في أماكن مختلفة؛ وعندما زالت كل هذه الكنائس فإننا لا ندري على وجه اليقين أي من هذه الكنائس كان لها أبراج، ويذكر بويرتاس تريكاس مصطلح برج Turris

في قرطاجنة حيث كانت هناك دار عبادة تسمى سانتا أبولاليا، ذات أبراج، وأثناء عتقوان المطاردة للمسيحيين في قرطبة نجد كتاب الحوليات يشيرون إلى أنه خلال القرن التاسع هدمت أبراج كنائسهم (مطبوعاً للقدس إبولوخيو)، وفي طليطلة لازال هناك برج صغير ذو قاعدة مربعة ثم أصبح مسجد سلبادور الذي نعثر في داخله على كتل حجرية قوطية مزخرفة تتسم بأهميتها بما ذلك أفاريز مركبة في القطاعات العلوية لذلك البرج، ويوحى شكل تلك الكتل الحجرية (هناك كتل حجرية رومانية تحمل نقوشاً كتابية) بأنها إذا لم تكن جزءاً من دار عبادة قوطية فإن استخدامها أعيد في بناء مثذنة المسجد، وفي ما يتعلق بالفن القوطي وإمكانية ارتباطه بالكنائس المستعربة ذوات المخطط الجديد وبالمساجد الأموية في قرطبة فإننا نلح على أن كنيسة سانتا ماريا دي ملكي، التي وصفت بأنها مستعربة في دراسات قام بها جومث مورينو، هي قوطية في نظر كاباييرو ثوريديا، وهو الشيء نفسه بالنسبة لكنيسة «عذراء ترامبال» في قصرش؛ وفيهما نلح بوضوح العقد الحدودي الذي يتكرر أيضاً في الكنيسة المسجد في بويشتر؛ أما مذابجهما فهي على شاكلة ما كان قائماً خلال العصر المسيحي الأول والعصر القوطي، أي أن المخطط يكاد يكون مستديراً، وهو ما يتكرر في دور العبادة المستعربة في شمال شبه جزيرة إيبيريا (سان ميغل دي اسكالادا) وهو النمط نفسه الذي جرى تطبيقه في محاريب المساجد، وهذا ما نراه في المساجد الصغيرة في جواردامار (أليكانتي) (ق 10)، وسوف نتناول لاحقاً دراسة الواجهات الخاصة بدور العبادة المسيحية في محاولة جديدة للتوصل إلى فهم لهذا الحل الهجين بين الثقافتين المسيحية والإسلامية.

من خلال هذه المعالجة السريعة المتعلقة بجدد دور العبادة السابقة على الإسلام ودور العبادة المستعربة كنت أقصد تبين المناخ الديني من خلال المنشآت التي كانت سائدة في شبه الجزيرة الإيبيرية عند وصول

العرب إليها، وكذا معرفة المقدمات الإنشائية للمساجد الأولى الإسبانية الإسلامية، ومع هذا نجد أنه إذا ما كانت هذه قد وصلتنا ولها نموذج أساسي هو المسجد الجامع في قرطبة وكذا مسجد سانتا كلارا بالمدينة نفسها. ومسجد الحي «فونتانا» ومحراب يقع في الجزء الشمالي الغربي للمدينة المسورة والذي يفترض أنه محراب لمسجد موتا Muta (ق 9) فإن هذه النماذج تقف عقبة قوية أمام رؤية نماذج مسيحية مباشرة، ولا نستبعد هنا الرأي القائل بأن الكثير من المساجد قد استقرت، في البداية، في دور عبادة مسيحية ظلت باقية وتم تأهيلها لأداء الشعائر الإسلامية مثلما حدث في الشمال الأفريقي، وهذا ما حدث بالفعل كما شهدنا في المسجد الجامع القرطبي، الذي بدأ بإقامة الشعائر في بازيليك سان بيتتي، التي يروق للمصادر العربية ربطها بكنيسة سان خوان في دمشق؛ ويمكن لهذا التوجه أن يكتسب قوة إذا ما استندنا إلى صالة المساجد خلال عصر الاسترداد، حيث كان يتم استئجارها لإقامة الشعائر المسيحية بعد الاستيلاء على طليطلة (1085م) ولا يدخلون عليها تعديلات إلا إلغاء حائط القبلة الذي يتجه نحو الجنوب، ليكون الاتجاه الآخر نحو الشرق بالنسبة لأداء الشعائر المسيحية. وبالنسبة للمسميات المعمارية لمسجد من المساجد المكتملة الأركان خلال القرن التاسع نجد أنه نادراً ما يحدث عليها تعديل باستخدام مصطلحات مسيحية مصدرها الكنائس القوطية والتي كانت صاحبة الفضل في بعد آخر تمثل - بداية بالمسجد الجامع - في مجموعات العناصر الزخرفية والأعمدة والتشبيكات الخاصة بالفتحات والنافذة ذات العمود في الوسط وكذلك الواجهة الزخرفية ذات القطاعات الثلاثة؛ وسوف نتناول بعد ذلك فيما إذا كانت المقود المتراكبة في المسجد الجامع بقرطبة متبقة من الجسور الرومانية، بشكل مباشر، في ماردة (انظر توينو) أو أنها رأت ذلك في دور عبادة مسيحية مثل تلك التي توجد في Tizir أو تبسة (Tebesa) في الجزائر.



وهذا يرتبط بشكل واضح بعدم تطبيق حرية ممارسة الشعائر التي كانت سائدة خلال الزمن الأول؛ كما أن المضمون العام للمسجد من حيث الضخامة التي كان عليها خلال القرن التاسع وما يتجلى من علاقة ذلك بالمخطط والمساقط الرأسية والقطاعية له علامة على وحدة فكرة معمارية واحدة. ومن جهة أخرى لماذا لم يتم إدخال أي إصلاحات على ذلك الجزء الذي شيده عبد الرحمن الأول حتى بعد مرور ما يزيد على خمسين عاماً على بنائه، أو حتى استئصاله، خلال القرن التاسع؟ سوف أعود للحديث عن كل هذا عند تناولنا المسجد الجامع القرطبي بالدراسة خلال الفصل الثاني.

أصر المتخصصون في العمارة الإسلامية على قسمة دار العبادة في المغرب الإسلامي، وهي المساجد الكبرى في المدن، انطلاقاً من المبنى الذي يعتبر النموذج للعديد من الأروقة الممتدة من الشمال إلى الجنوب أو المستعرضة، مثل تلك التي عليها المسجد الأقصى، الذي هو صورة منقولة عن دار عبادة بيزنطية، ثم تكرر النموذج نفسه في المسجدين الكبيرين في المغرب الإسلامي وهما مسجد القيروان ومسجد قرطبة، والشئ نفسه - طبقاً لبعض الباحثين المعاصرين يحدث بالنسبة للمساجد الصغيرة التي لا تتسم بالضخامة مثل مسجد بوفاتة في سوسة ومسجد الباب المردوم بطليطلة، فكلاهما له مخطط على شكل علامة + اليونانية، وكلاهما مرتبط بشكل ما بمخطط «مسجد Tarik de Balh» بأفغانستان ومباني أخرى في مصر؛ لكن نتساءل بالنسبة لهذه الحالات الخاصة: لماذا لا نبحث عن نموذج بيزنطي شائع في أنحاء البحر الأبيض المتوسط يستخدم لإقامة مباني مكرسة للعبادة أو لغيرها حتى ولو كان مخصصاً لإقامة جب أو صهريج؟ هذه الصورة النمطية التي عليها المساجد الكبرى الجامعة وذات العديد من الأروقة قد همّشت تلك المساجد المتواضعة في الأحياء والأرباض والمكونة من ثلاثة إلى سبعة أروقة كحد أقصى، حيث يمكن

وإذا ما كان صحيحاً وجود ذلك النموذج الأميري بما فيه من ضخامة ودقة فنية فإننا نجد أنفسنا أمام عملية معمارية فريدة غير مرتبطة بالمرّة بالعمارة التقليدية القوطية أو في حدود معرفتنا بها على الأقل، وهنا نتساءل عن الوضعية المعمارية التي كانت عليها دور العبادة التي زالت من الوجود والتي كانت تقوم بدور الكاتدرائية القوطية في طليطلة أو قرطبة أو ماردة؛ إذا ما تخيلناها بعقودها المتراكبة التي تتسم بالتتابع المرن، انطلاقاً من قناطر المياه *acueductos* الرومانية، فإن ذلك نوع من عدم الاتساق، ومع هذا، من أين جاءت لهؤلاء المماريين الذين شيّدوا مسجد قرطبة هذه الألبية التقنية التي تتجلى فيما قاموا به ونفذوه من عقود متراكبة؟ تجيب المصادر العربية عن هذا السؤال وهي أن المصدر هو الملاحظة الدقيقة لهذه الآثار القديمة المتمثلة في بوائك الجسور وجسور المياه الرومانية، ثم تأتي مرحلة تقليدها في العصر الإسلامي ولكن في مخطط جديد. وإضافة إلى العقود المتراكبة في المسجد الجامع بقرطبة يلاحظ أن الواجهة الشمالية للجزء المستوف من المسجد المائل على الصنع يبدو وكأنه إحياء للصورة التقليدية لجسر قديم؛ وقد أشارت كتابات - ربما كانت متعجلة - أن عبد الرحمن الداخل جلب معه من المشرق مجموعة من الفنيين المهرة واستخدمهم في بناء المسجد الجامع بقرطبة، ولكن هل نعرف ما إذا كان المسجد قد شهد خلال القرن الثامن الميلادي وجود مثل هذه العقود المتجاوزة الرأسية والتي شيّدت في غضون عام، طبقاً للمصادر العربية، ترجع إلى ذلك الأمير؟ ألم يكن ذلك هو المبنى الذي شيّده محمد الأول وشمل ذلك الفراغ الذي أقامه الأمير عبد الرحمن الداخل ليكون تكملة للتوسعة الكبرى التي جاءت على يد ولده عبد الرحمن الثاني؟ سبق أن رأينا أن محمداً الأول تميز باتباع سياسة بناء ضخمة تتركز في الأساس على عملية إعادة البناء، ومركزة على المساجد في شبه جزيرة إيبيريا



الحديث عنها وعن وجود تأثيرات لدار العبادة المسيحية القديمة في شبه جزيرة إيبيريا. هناك قضية أخرى، ألا وهي المتعلقة بمن أقام دور العبادة الإسلامية هذه، وهو غالباً ما يكون غير مذكور وكان من الأمور المعتادة في الأندلس.

ما هي أسماء العرفاء أو المهندسين ومن أين أتوا وإلى أي سلالة عرقية ينتمون، وهم جميعاً من الذين يندرجون تحت مسمى «ناظر البنيان»، «عرفاء البنائين»، عرفاء المهندسين وعرفاء السنة، طبقاً لما أورده أوكانيا خيمينث؟. يذكر ذلك الباحث مقولة عن ابن بشكوال وردت في المقرئ تتحدث عن أن هؤلاء كانوا الأسرى القشتاليين، ومن بلاد أخرى، فهم الذين استخدمهم المنصور بن أبي عامر في توسعة المسجد الجامع بقرطبة بدلاً من العمال المسلمين، وذلك كتعويض عن الإغلاء من شأن الإسلام والحمل من شأنهم؛ ثم يورد أوكانيا خيمينث بعد ذلك قائمة تضم العلامات التي تركها العمال أو الحجارون، استخرجها من المسجد الجامع بقرطبة وعثر عليها في العقود وقواعد الأعمدة وتيجانها وأبدان الأعمدة والحلقات المعمارية المتموجة (الحدائر) Cimacio؛ هذه العلامات هي عبارة عن هلب أو مركب أو دوائر متلامسة أو صليب يوناني مسبوق بالثا Thau أو نجمة من خمسة أطراف مصحوبة بتوقيعات، أو خطاف أو حبوب الخردل وغيرها. هناك بعض الباحثين الذين أشاروا إلى أن المسجد جامع حسان بالرباط - الموحدي - والذي شيده المنصور، كان يعمل به عبيد مسيحيون تم أسرهم في معركة Alarcos؛ في هذا المبنى نجد العقود تتكئ على دعائم أسطوانية مشيدة من الحجارة حيث تلمح فيها علامات تحمل حروفاً عربية، وأخرى غربية ربما كانت مسيحية؛ وبالنسبة لقرطبة فإن هذا الأمر يضعنا أمام مسألة بناء مسجد قرطبة وفيما إذا كانت هناك أكثر من لغة يتحدث بها العاملون في البناء أو أن هناك الكثير من الأتنيات؛ عندما نتناول هذا الموضوع في إطار منشآت مدينة الزهراء نجد أن أسماء

الحجارين المنقوشة على تيجان أعمدة الصالون الكبير لعبد الرحمن الثالث، هي عربية ومن الممكن أن تكون لمستعربين تعرّبت أسماؤهم؛ هناك شيء من الغموض يتعلق باسم من يدير، أو مهندس البناء، سواء في المدينة الملكية أو المسجد الجامع بقرطبة، أي أن هذه التحف المعمارية تبقى بلا اسم مؤلف، ولا يكفينا في هذا المقام ما ورد من اسم «ملاية بن عبد الله» كمستول عن إقامة مدينة الزهراء والذي أورده بعض الحوليات العربية (ليفي بروفسال) هل كان معمارياً عربياً أو مسيحياً مستعرباً؟ هل هو مستعرب؟ ربما ينتظرنا الكثير من المفاجآت لو توصلنا إلى إجابة عن هذه القضية، وإذا ما كان هناك نوع من الصمت الذي لاذت به أطلال مدينة الزهراء بالنسبة لوجود مهندس مسيحي وراء بنائها فإن الكرم والسخاء تجلّى في كثرة الأيقونات الزخرفية القديمة من رومانية وهلنستية وبيزنطية وقوطية، وقلة من الإسهامات العربية الشرقية، ومن الطبيعي أن يكون كل شيء قد جرت إعادة صياغته أو اكتسابه المزيد من التقيد. ولماذا نقول الهد العاملة أو العاملين؟ إننا من خلال هذا الطريق يمكن أن نصل إلى القول الفصل في أن الفن الأموي في قرطبة لم يكن إلا نوعاً من تعريب الثقافة المراثية للعصور الفاتية وخاصة المسيحية أو الغربية، وهو واقع يشترك فيه من هو مستعرب، ذلك أن المسيحي الأول كان يقوم بنشاط معماري في المناخ أو المظلة الإسلامية وهو أمر غير مستغرب فهناك الكثير من القامات الثقافية، وكذلك من صفوف الأساقفة، ارتقت مناصب مهمة في الإدارة الحكومية العربية. وعندما نطل على المسجد الجامع بالقيروان، من خلال كل باحث يقوم اليوم بدراسته، نجد أنه يمثل خلاصة الحلول البنيوية والزخرفية المحلية والقادمة من المشرق، وهذه الأولى هي التي سلبت الضوء عليها ج. مارسيه، أما الثانية - القادمة من المشرق - فقد عني بها أ. ليزن. فالأول لا يشك في وجود أيد عاملة محلية ذات أصول بيزنطية، أما الثاني فرغم أنه معني بدراسة التأثيرات



وسيلة ناجحة لحسم هذا الموضوع الشائك، وهذا ما سوف نتحدث عنه في فصول لاحقة من هذا الكتاب، حيث سيكون المشيدون لكل هذه المنشآت هم من العرب (التراث العربي) الذين كانوا شديدي الانتشار في المدن كافة، وتنسب إلى الرعية أو الملوك؛ ففي مدن مثل مدنتنا التي تتسم بتعدد السلالات لا يمكن إلا أن نتظر ظهور مستند عربي أو مسيحي يفصح لنا - في طليطة - عن مفاجأة تتحدث عن عريف عربي شارك في مباني تم تشييدها للمسيحيين، أو وجود عريف مسيحي وراء منشآت أضفى عليها الطابع الإسلامي.

بقى أن نوضح فيما إذا كانت هذه الأصالة المبكرة التي كانت عليها المنشآت الإسبانية العربية خلال القرنين الثامن والتاسع هي وريثة، في قليل أو كثير، لعناصر الثقافة الإسلامية الشرقية، بحيث تتوسط المنطقة الجغرافية أفريقية هذين الطرفين وعلى رأس مبانيها مسجد القيروان، وبحيث نميز فيه بين ما هو مسجد وما هو قصر، وفي هذا المقام نجد أن الخطوط المعمارية الخالصة، بعيداً عن الزخرف، تملن بوضوح التأثير الشرقي المطلق فيما يتعلق بفراغات المسجد، دون الدخول في تفاصيل الاختلافات أو الخصائص البارزة في كل واحدة من المناطق الجغرافية في المغرب الإسلامي؛ ولاشك أن النماذج المعمارية الدينية الإسلامية في كل من المدينة ودمشق والقدس تتسم بأنها المسيطرة، فمفهوم المسجد واحد وغير قابل للانتقال إلى ديانة أخرى غير الإسلامية؛ ومع هذا فإننا عندما نتحدث عن العمارة الملكية (مدينة الزهراء) نجد أن التأثيرات الشرقية لا تظهر إلا قليلاً، بغض النظر عن تأثيرات بدهية من الفن الأموي والعباسي في باب الزخرفة التي ترتبط بتأثيرات رومانية وبيزنطية وقوطية وهي تلك التي أشرت إليها في السطور السابقة؛ وفيما يتعلق بالعلاقة بين المشرق والمغرب في باب العمارة لابد أن نأخذ في الاعتبار أن منطقتنا تضم بعداً آخر يتعلق بما هو إسلامي، وهو أنه سردي أو قصصي، بمعنى أن قدسية

المشرقية ينتهي به الأمر إلى احترام رأي سابقه وخاصة عندما يستند إلى بنوية القباب - وأحدثها قباب الزيتونة - حيث انتقلت على مدخل الرواق الرئيسي، وهي في نظر ذلك الباحث انعكاس للقباب القائمة في قرطاج تلك التي رآها ووصفها البكري.

وفي كلمات موجزة يمكن الحديث عن أصول ومنشأ الشكل البازيليكي للمسجد بصفة عامة، فهو في رأي بعض الباحثين إبداع أصيل، بينما يرى آخرون أنه خلاصة جماع عناصر كثيرة قديمة (انظر Thiersch)، أما بالنسبة للمرقية أو العرقيات المسؤولة عن تشييد المنشآت العربية، نجد من السهل المجازفة بالقول إن وراءها أسماء معماريين مسيحيين محليين، وهذا في الفترات الأولى للفتح على الأقل؛ ومع هذا يمكن العثور على تأثيرات عربية بدهية من جراء تأثيرات مشرقية - تنسب إلى اليد العاملة العربية؛ هذا الأمر عبارة عن مجموعة من المتاهات، فنحن حقاً نعرف أسماء اثنين منهم، فهل هما معماريان؟ أم من المكلفين بإدارة الأنشطة المتعلقة بتوسعة المسجد الجامع في قرطبة في عصر عبد الرحمن الثاني؟؛ الإسمان هما مسرور وناصر يساعدهما مفتش الأعمال وهو القاضي وإمام المصلين في قرطبة محمد بن زياد (نقلًا عن ابن حيان)، ولا نجد شيئاً آخر في التوسعة التي تمت في عهد الحكم الثاني والمنصور بن أبي عامر، بحيث نرى في التوسعة الأولى أسماء عرفاء يتولون أعمال الزخرفة في الأساس، نحن إذن نعيش المشكلة نفسها في الفترة التي انتقل فيها المسجد من وظيفته هذه ليصبح كنيسة اعتباراً من عام 1085م عند الاستيلاء على طليطة؛ كما نجد أن الظاهرة المدججة والفن المسيحي المستعرب بقوة التراث يضع أمامنا المشكلة التي تتعلق بمن قام بتشديد كل هذا الكم من أبراج الأجراس من الأجر وما إذا كان المرءاء هم من المسلمين المدجنين أو من المستعربين الذين كانوا يقطنون هذه الأماكن أو من هؤلاء المسيحيين الذين تلقوا تدريباتهم على يد هؤلاء وأولئك؛ هناك

البسيطة الموجودة في الريف أو الكوربات بعيداً عن المدن الكبرى، حيث قامت الحضارة المسيحية بالقضاء على ما هو أساسي من العمارة المخصصة لإقامة الشعائر الإسلامية، وبالتالي فإن الدراسات الأثرية أو عمليات الحسّ الأثري الجيوتقنية المستخدمة في أيامنا هذه، ربما لازالت تخبئ السر الذي تخفيه والمتعلق بأساسات دور العبادة المسيحية العديدة والمكرسة للعدراء مريم، ومن الأمثلة الدالة على ذلك كاتدرائية طليطلة وتطيلة وأليكانتي، وألمرية بشكل جزئي، ولسنا ندري فيما إذا كان الأمر يشمل ملقة أيضاً. وليس أمامنا ونحن في مرحلة الانتظار هذه إلا ذكر عبارة المسجد الكنيسة أو الكنيسة المسجد في إطار الرقعة العمرانية بالمدينة، وكلا هذان الأمران يرجعان إلى المصادر العربية وإلى أسماء الأعلام الجغرافية وكذا الأبحاث الأثرية للمعصر العربي وما قبله.

العقد الحدودي:

إن الأمر الأكثر وضوحاً في هذا السياق هو إسبانية الحدودي، أي العقد العربي الشديد الحدودية الذي نراه في الكنائس القوطية التي لازالت قائمة؛ وفيما يتعلق بتاريخ هذا العقد نجد أن هناك معتقداً يقول بأن الشكل الحدودي الحاد عربي، ويرى بدرو مادراثو (1886م) في تحليلاته أنه ذو أصول مشرقية، وهي النظرية التي أيدها بيلانكيث يوسكو (1894م) الذي أكد أن العرب لم يكونوا يعرفونه حتى بعد غزو إسبانيا. وأزال جومث مورينو أي شك في هذا المقام في دراسته «نزهة من خلال العقد الحدودي» (1906م) وأقر بالنظرية الفائلة بأصوله القوطية وتعمق في وصف درجة الاختلاف بين العقد القوطي والعقد العربي، وأكد على وجود البصمة القوطية بالنسبة للعقد الأول وأساس ذلك هو العقود الحدودية الزخرفية التي توجد على الكتل الحجرية (اللوحات الجنازية) السبع، الإسبانية

المساجد الأولى في المغرب الإسلامي ترجع إلى نسل الرسول مباشرة أو بعض بطون الأسرة؛ وليطلع القارئ مثلاً على أمر، يصدقه أو لا يصدقه، يقول بوجود كنيسة القديس يوحنا المعمدان (التي يعين) مكان مسجد دمشق وهو أمر ناقشه كروزويل في حالة مسجد قرطبة - وهي كنيسة - سان بيتتي والمسجد الجامع، حيث كانت الأولى قليلة الشهرة طبقاً لما يرى أوكانيا خيمنت؛ وطبقاً للمصادر العربية ورد ذكر اسم Hanas حناش بن عبد الله، وأبي عبد الرحمن الحلبي اللذين حدّدا اتجاه القبلة في المسجد الجامع بقرطبة. وحناش Hanas هو أحد التابيين مباشرة لصحابة الرسول محمد، وهو الذي أسس مسجد أبييرة وأسس المسجد الجامع في سرقسطة غير أن هذه الرواية كانت موضع شك من خلال دراسة حديثة لسوتو لاسالا Souto L. الذي يرى أن هذه الشخصية لا يوجد بشأنها أي دليل على أنها دخلت الأراضي الإسبانية؛ ثم يأتي بعد ذلك مباشرة تعليق من الحميري الذي أخذ عن العذري والمتعلق بوجود مسجد في كارتيا Carteia أسسه أحد صحابة الرسول، كان، كما يقال، أول مسجد أسسه المسلمون في الأندلس (خ. باييي)، وبأخذنا هذا الموضوع إلى التراث الإسلامي في الشمال الأفريقي، حيث ينسب إلى عقبة بن نافع تأسيس أو مسجد في المغرب الإسلامي بمدينة القيروان عام 670م (خ. باييي). ومن جانب آخر نجد أن عرب إسبانيا اعتبروا أنفسهم ورثة إسبانيا القوطية، وهذا ما توضحه المصادر العربية (خ. باييي)؛ وإذا ما استئثرت الرؤية التي نقدمها لهذا الموضوع أي قارئ حول ما كتبه عن العمارة الرومانية والقوطية والمستعربة يمكن له أن يدلي برأيه فيما إذا كان ما نقول ينطبق على المباني أم لا. ولاشك أنه لا يمكن كتابة تاريخ العمارة الدينية الإسبانية الإسلامية بالكامل حيث لم يتبق لنا إلا مساجد محددة ومهمة هي المساجد الكبرى في كل من قرطبة وإشبيلية، وما بقي يكتنزه الفموض والتساؤل، أو الصمت المطبق أحياناً، اللهم إلا بعض المساجد



فرض نفسه - طبقاً لهما - خلال القرن الثالث عشر، غير أن هذه الرؤية رفضها كل من هـ. تراس وتودس بالباس حيث يريان رأياً مخالفاً تماماً؛ كما لم يقبل ل. جولفن برأي أ. ليزن. وفي نظري فإنه طالما أن ليست هناك أدلة أثرية تؤكد الأمر نقول إن العقد القيرواني (عقد المكتبة) قد لا يكون جزءاً من مسجد يزيد الذي زال من الوجود، وهو يرجع إلى ترميمات للمسجد خلال السنوات الأولى من القرن الحادي عشر أدخلها المعز. وربما جرى بناء هذا العقد في تلك الفترة (عقد المكتبة) إحياءاً لذكرى المحراب الذي تهدم، ولما كان لهذا العقد عمودان يتكئ عليهما، وهو أمر معهود في محاريب متعددة في المشرق وفي المساجد الرئيسية في المغرب كافة، ولو كان ذلك في المساجد الجامعة كعند أدنى، أصبح له طابع مقدس لا جدال فيه؛ ويمكن في آن مما أن نربط بالعقد الحدوي القرطبي عقد إحدى بوابات المسجد الجامع في سوسة الذي أضيق إليه في نهاية القرن العاشر، وهو عقد له منكب وحنك؛ كذلك الأمر بالنسبة لعقود بائكة مدخل مسجد المهدي الفاطمي (ق 10) (لوحة مجمعة 2-4، 7). وليكن معلوماً فيما يتعلق بهذا الموضوع أن واجهة مكتبة القيروان لها الشكل نفسه الذي عليه واجهة محراب المسجد القرطبي الجامع، في التوسعة التي جرت خلال عهد الحكم الثاني، وهو ما قال به بيلانكيت بوسكو، ونرى صورة طبق الأصل له في البوابات الخارجية؛ وبعد عمليات التنقيب الأثري للمسجد الجامع بمدينة الزهراء عرفنا أن هذا الصنف من الواجهات موجود بها بما في ذلك القطاع العلوي الخاص بالشرافات. وسوف أعود لتناول الموضوع في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

يتسم العقد القوطي بالاستدارة في نصف الدائرة، وأقفي في العقد النصف الأسطواني المرتفع بعض الشيء الذي له سنجة واحدة وهو ما يطلق عليه مصطلح Peraltado، ومردّ هذا هو العقد الروماني النصف الأسطواني في بعض الأبواب؛ أما العقد

الرومانية، في ليون وترجع إلى القرنين الثاني والثالث الميلاديين، وحقيقة الأمر هي أن ذلك العقد الزخرفي كان شائعاً في الآثار الإسبانية الرومانية بغض النظر عن تأثير ذلك في المباني المشرقية السابقة على مسجد دمشق (كروزويل)؛ ففي هذا المسجد الدمشقي نجد العقود هذه في سيفساء بيزنطية وهي عقود حادة التقويس وفوقها إفريز من الشرافات المستننة الحادة، وهو النمط الزخرفي نفسه الذي نجده في الأخيضر، وقام كروزويل بدراسته، ويقدم لنا ذلك الباحث في كتابه Early Muslim الكثير من المراجع المتعلقة بالعقود الحدودية السابقة على العصر الإسلامي، فهناك المسجد الجامع بالقيروان الذي ضم منذ أصوله الأولى ذلك النمط من العقود، وهنا يرى جومث مورينو أن أصوله أندلسية، هذا إذا ما قبلنا بمراحل تأريخ بناء المسجد الجامع بقرطبة آنذاك (785-786)، ومن البدهي أن يكون أسبق من القيروانية التي ظهرت في تلك الفترة (836م)، وافترضاً منا أن هذا المبنى قد حل محله مبنى آخر، ولم يكن مجرد تعديل أو ترميم (ق 9) أي (848-833)، نجد أنفسنا عملياً وقد اتضحت أمامنا أسبقية النمط الأندلسي؛ وفي هذا المقام نجد أ. ليزن يناقش هذا الموضوع مؤخراً ويقول لنا إن العقد الحدوي الأقدم في أفريقية وفي المغرب الإسلامي على الإطلاق هو عقد المحراب في المسجد القيرواني (772م) - مسجد يزيد - (أي عقد المكتبة) (لوحة مجمعة 1-4، 9) والسبب هو أن العقود القرطبية ترجع إلى عام 785م أما هذا العقد التونسي فالتقوس فيه حاد، وهو أمر غير مأثوف في تونس، وعكس هذا نجد في قرطبة تأصيلاً للعقد مقاس 2/1 الذي يرى فيه ج. مارسيه أنه غير معروف في أفريقية (لوحة مجمعة 1-4؛ 10 من مدينة الزهراء) ويخلص ذلك الباحث إلى أنه يمكن الحديث عن تأثير إسباني في أفريقية، وبالنسبة لعقد المكتبة المذكور يلاحظ أن هذا الرأي الأخير هو رأي كروزويل وجومث مورينو، حيث يلاحظ التأثير الإسباني الذي

باستثناء عقد المكتبة - ومسجد دمشق نجد أن العقد أكثر انفتاحاً مقارنة بالعقد القرطبي، ففي الحالة الأولى نجد أ. ليزن يقول بترميم مفترض لعقد يوجد عند مستوى باب القبة - البهو، الذي ينسب إلى إبراهيم الأول (868م) (البكري) عند بداية الرواق المركزي للجزء المسقوف (لوحة مجمعة 2-4، C)؛ أما العقود الأخرى التي نجدها في اللوحة المجمعة فهي من المسجد الجامع في قرطبة.

وسوف نمود لمناقشة بعض الجوانب المتعلقة بالعقد الحدودي وخاصة الإسباني الإسلامي خلال الفصل الثاني من هذا الكتاب (انظر من هذا الفصل اللوحات المجمعة 22، 23، 1-23، 23-24، 25)، لكن علينا أن نشير إلى تلك الملاحظات التي تحدث عنها ل. كاباييرو ثوريدا عن العقد الحدودي في كنيسة سانتا ماريا دي ملكي بطليطة وكذا عقد كنيسة ترامبل Trampel في قصرش، وهاتان كانتا مصنفتين مبدئياً على أنهما قوطيتان؛ ونقطة انطلاق هذا الباحث هي التي اعتمدها بونسيك Ponsich والتي تقول بأن منبت الشكل الحدودي القوطي هو العمود حيث يتكئ على إحدى الحدائر imposts أو الحلية المعمارية المتموجة Cimacio، ومعنى هذا أن أصوله هي العقود الرومانية، وبالتالي فهو منفصل أيضاً عن العقود الإسلامية؛ هي عقود إنشائية وخاصة تلك التي تتسم بكبر أبعادها، بينما هناك أخرى زخرفية ذات أبعاد فيها ارتفاع في درجة الانحناء، الأمر الذي يسهم في إيجاد سلسلة من العقود الحدودية داخل المبنى نفسه أبعادها متنوعة: $1/3$ ، $3/8$ ، $1/2$ ، $2/3$ ، وحتى يتطور ويشيد العقد السابق على العصر الإسلامي نجد أن منبته هو المتكأ السائد الذي يفصل عن الحائط، كما أن المتكأ عبارة عن عمود أو كتف، إضافة إلى حلية معمارية متموجة وكلها تساعد على أن يفصل المنبت عن خط الجدار، أي أن أقصى عرض للعقد، عند مركزه، يمكن أن يتلامس مع خط الحائط (بونسيك). وإذا ما نظرنا للوحة المجمعة 1-4 نقوم

المربي فهو أسطواناني حتى ما يطلق عليه بالأطراف أو الكليتين ثم يواصل استمراره إلى أسفل حتى يصل إلى منبت السنجات الأفقية أو أن الكتل لا تتلاقى في مركز واحد بل في عدة مراكز. وعودة إلى العقد القوطي نجد أن المنكب الخاص بالعقد المرتفعة درجة انحنائه Peraltado ينزل بدرجة ميل كبيرة نحو الخارج، وعكس هذا في العقد العربي الذي يرجع إلى القرن التاسع فهو متراكز على الاستدارة التي عليها بطنه intrados. نلاحظ أن قطر العقد القوطي الأفقي هو بشكل شبه دائم أكبر مما بين الأعمدة، بينما نجده مساوياً في العقد العربي أو أصغر؛ لا يستند العقد الأفقي على الحلية الرومانية في القاعدة entablamento بل على إحدى الحدائر imposta ذات الشكل الهرمي المشطوف التقليدي (هو في البينزنطي يقع فوق الطيلية abaco) وهو مزخرف بنقش بارز. أما القباب العربي Zapatas (الدعامة المرضية) والمستعربة فليست أكثر من إحدى الحدائر القوطية التي أصبحت أكثر بساطة، واقتصرت دورها على أن تكون واحدة مقابل الأخرى؛ ويتطلب العقد الحدودي، وخاصة العربي منه، استخدام تقنية خاصة في البناء تساعد على أن تتكئ على انحنائه البارز ككرة من كمرات سقالة من الخشب، وفوقها تتم إقامة العقد الحجري، وهذا يبدو أمراً ممكناً من الناحية النظرية على الأقل (انظر ر. كورثو سانشيث)؛ وبالنظر إلى هذا الجانب الفني نلاحظ أن العقد المركزي الخاص ببوابة المهديّة المشار إليها وكذلك عقد التخفيف aliviadero في الجسر الذي يرجع إلى عصر الخلافة في وادي الحجازة يتسمان بوجود طريقة خاصة لتعيم الكرة الأفقية للسقالة؛ فمن الداخل نجد في الانحناء Peralte خشونة حجرية بارزة لهذه الغاية؛ أما العقد الحدودي القوطي فإنه يحتفظ بمقاساته $1/3$ أو $1/4$ وهو مفتوح أكثر من العقد العربي أو المستعرب الذي يبلغ مقاسه $1/2$ ، وشاع في قرطبة ابتداء من القرن التاسع؛ وبالنظر إلى مسجد القيروان الجامع -

للمعمارة العربية الأفريقية (في أفريقيا) نجد أن العقود الأولى ذات الأعمدة قائمة في أبواب خارجية أو بوائك لها، نراها في رباط سوسة وفي المنستير (ق 9، 10) (انظر اللوحة المجمع 17 - 1، 1)، وعودة إلى كنائسنا المستعربة الكائنة في الشمال يبرز العقد الحدوي ذو الأعمدة عند المدخل إلى المذبح بدءاً بكنيسة سانتا كوميلا دي باندي، وهي كنيسة قوطية أعيد بناؤها على ما يبدو خلال القرن التاسع، والشيء المثير هو أن العقد فيه شبه بما هو في المحراب الذي أنشئ في المسجد الجامع بقرطبة حتى عصر الحكم الثاني؛ وبناء على ماسبق من القول نجد أن العقد الحدوي العربي في القيروان يدخل تحت لواء الانحناء الخاص بمنكبه الذي يحمل الخطوط نفسها الخاصة بالعقد، أي أنها صنف من العقود المتراكزة، وهذا ما نجده أيضاً في العقود الشديدة التقوس في قرطبة القرن التاسع (لوحة مجمعة 2-4)، وظل الأمر كذلك حتى القرن العاشر حيث ينشأ العقد ذو المنكب اللامركزي بالنسبة لبطن العقد مع تقليل من عرض السنجات من أعلى إلى أسفل (لوحة مجمعة 1-4، 10)، وقد جرى تطبيق هذه النظرية على أغلب العقود الحدوية في الكنائس المستعربة في الشمال. وهاتان النظريتان المتعلقتان بالعقد تضمان الطنف أو الإطار، وهذا أمر غير مهمود فيما هو قوطي، لكنه دائم في قرطبة، خلال القرنين التاسع والعاشر؛ إذن نجد أن الاختلافات التي لاحظناها بين العقد القوطي والعقود العربية في قرطبة التي ترجع إلى عدة مراحل تحدونا إلى القول إن من غزوا هذه المدينة كانوا يعرفون بشكل مباشر عقود الكنائس القوطية في المدينة، والتي ربما كانت أكثر تطوراً أو قريبة من العقود العربية مقارنة لها بتلك العقود الخاصة بكنائس الأقاليم التي وصلت إلينا. إنها محاولة لتقليل المسافة الفاصلة بين ما هو قوطي روستيك ومعروف وبين ذلك العقد الأميري الذي ظهر فجأة وسار على قواعد بعينها، كما أنه ليست له سوابق مشرقية تفسر وجوده؛ حيث إن موضوع الشرشرة

بالقراءة التالية لمقودها؛ 1: لوحة تعود إلى القرن الثالث توجد في متحف ليون، 2: نمط من اللوحات السابقة على العصر الإسلامي في أرلس Arles؛ 3: عقد قوطي من كنيسة سانتا إبولاليا دي بوييدا؛ 4: من نافذة في كنيسة قوطية (انظر كاباييرو ثوريدا) هي سانتا ماريلا دي ملكي؛ 5: دراسة مقارنة عقد حدوي شديد الانفتاح، قوطي، هي سان خوان دي بانيس، وعقد ذو دعامة داخل المسجد الجامع بقرطبة، 6: عقد مخطوطات بها منمنمات مستعربة، هي «بياتو دي سان إيسيدرو» (ق 11)، 7: عقد حجري غير مكتمل، هي ماردة، قوطي طبقاً لكل من جومث مورينو وكامبس كاثورلا، حيث يقع بين القصبة وبداية الجسر الروماني؛ 8: عقد عربي (جومث مورينو)، وهو قوطي عند كامبس كاثورلا، إلى جوار بوابة إشبيلية بقرطبة.

وبالنسبة للعقد القوطي، لم يصلنا ومعه الممودان اللذان يتكئ عليهما في بوابات أو عند المدخل إلى المذبح، وهذا النموذج هو الذي حافظ عليه العرب بشأن المحراب في مساجدهم. في قرطبة نجد أن البوابات الخارجية للمسجد الجامع لا تترك الانحناء الحدوي يتكئ على الأعمدة على الإطلاق، مثلما هو الحال في المسجد الجامع بالقيروان، وهذا الرأي يستند إلى وجود عمود أو عمودين قديمين، طبقاً لكروزويل، والشيء المثير للفضول في المسجد الجامع القرطبي - بمعزل عن العقد المتكئ على أعمدة والذي يرجع لتوسعة الحكم الثاني - هو أننا نرى شبيهاً لهذا العقد في ذلك المسمى عقد السقيفة عند جومث مورينو، والذي يقع بين البلاطة الكائنة في أقصى الطرف الغربي وبائكة صحن ذلك الصلح، وعندني أن هذا هو أول عقد منفصل ذي أعمدة يرجع إلى توسعة عبد الرحمن الثالث (اللوحة المجمع 2-4 B) والذي نجده مثل ذلك في مدينة الزهراء، ويمكن ربط ذلك العقد بذلك الذي يقترحه أ. ليزن بالنسبة لجامع القيروان خلال القرن التاسع عند بداية الرواق المركزي (لوحة مجمعة 2-4، C). وبالنسبة

مثله مثل المدن، فهي ليست وحيدة أو ذات طابع واحد، أي أنها ذات سمات متعددة استناداً إلى التأثيرات التي تتلقاها من الفن السابق على الفن العربي في كل إقليم أو أرض انتشر فيها الإسلام، فالدين هو الذي يوحد بين كل هذه العناصر، إذ هناك المخطط المصحوب بالصحن، والمثدنة والجزء المستوف (حرم المسجد) لأداء الشعائر والمحراب الذي يوجد وسط حائط القبلة المتجهة صوب الجنوب أو الجنوب الشرقي، غير أن المخطط الرأسي للمبنى فيتنسّم بالتعدد تناعماً مع الموروث الثقافي الخاص بكل منطقة حيث احترام الغزاة الجدد الأمر. في الفترة الأولى لا يمكن القول إن مسجداً ذا مخطط جديد ينظر إليه على أنه عربي أصيل، وظل هذا الأمر حتى نهاية القرن الثامن وبداية القرن التاسع حيث نجد المبنى وقد اكتسب سمات خاصة لها صلة بأسلوب جديد، ومن الأمثلة الدالة ما نجده في المسجد الجامع بقرطبة والمسجد الجامع بالقيروان، إذ هما عبارة عن مرآة لعلم معماري جديد في كثير من الوجوه، اللهم إلا إذا كانت شديدة المغايرة للمساجد الموجودة في المشرق. وعندما نحاول أن نحدد السبب والزمن والأصول الأسلوبية والجمالية للمساجد من خلال أعمدتها المتعددة وقبابها وأبوابها الزخرفية والعقد الحدوي الضخم فإن تلك مهمة بحثية لا تنتهي إلى قرار، فكل عائلة حاكمة من العرب تتولى إضافة جزء أو تفصيل معمارية جديدة إلى المبنى السابق، والجديد هو دائماً أكثر عروبة عن سابقه؛ وبالنظر إلى مسجد جامع نرى أنه لا ينتهي أبداً، أي أن تحديد ملامحه من خلال أجزائه المختلفة يمثل لغزاً معمارياً في حد ذاته، مثلما هو الحال في وجود التأثيرات السابقة على العصر العربي في المشهد الإسلامي.

وبالنسبة للمساجد الجامعة فإن أكثر ما يبرز فيها هو الضخامة من حيث المساحة بالمقارنة بدور عبادة سابقة ترجع إلى الحضارة الساسانية أو القوطية أو الهلنستية أو المستعربة. كما نجد أن شعائر صلاة الجمعة هي حجر الأساس الذي يكمن وراء هذه

والطائف والتقاليد الذي عليه المنكب ببيروزه، ولا نقول السجدة ذات الزخرفة المنقوشة، كل ذلك بدأ ظهوره في مسجد مدينة الزهراء؛ ولسنا ندري إذا ما كانت صقلية العربية (ق 9 - 11) قد عرفت العقد الحدوي الذي جاء من أفريقية أو إن كانت هناك عقود مدبية أو نصف أسطوانية ذات تأثير فاطمي قادم من مصر. وفي القصور الصقلية النورماندية (ق 12) يسيطر عليها الصنف الثاني من العقود، غير أن هناك استثناء وهو وجود عقدين حدويين في الجزء العلوي الخارجي في زيزة Zisa باليرمو في الضلع الشمالي (اللوحه المجمعة 4-8).

المساجد:

تتضح وحدة المسلمين في المسجد، ذلك المكان الذي يقوم مواقف عديدة أساسها الصلاة، وطبقاً لخوليو سامسو فإن لفظة مسجد ليست من الكلمات العربية التي جرى إدخالها إلى الأندلس بل جاءت من خلال وسيط هو اليوناني البيزنطي أو الأرمني، ولا بد أن المصطلح كان مصطلحاً من المصطلحات الراقية الشأن أمام مصطلحات شعبية هي *al-mazhid*, *masyid* حيث ورد ذكرها ابتداء من ق 14، أو نجد أسماء بعض الأعلام الجغرافية مثل *Amagede*, *mayide*... في هذه الدراسة نقوم بمحاولة الربط مع مخططات المدن التي وردت في المجلد الثاني من سلسلة «العمارة الإسلامية في الأندلس» حيث تعطي الأولوية في هذا الصنف من المخططات لموقع المسجد الجامع، أو المسجد الكاتدرائية طبقاً للإدريسي، وكذلك لمساجد أصغر يطلق عليها الجغرافيون المذكور المساجد الصغيرة (وهنا يذكر الإدريسي مدناً بها مساجد جامعة ومساجد صغيرة: أليكانتي وسانتا ماريا دي الغرب وإينورا وذلك المكان الطليطلي المسمى *Alfamin*) ويعتبر المسجد الجامع أكبر حامل لرسالة الإسلام من الناحية المثرية

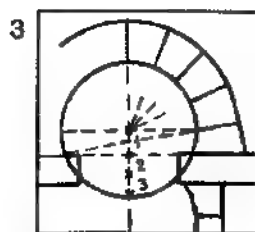
مختلفاً يتسم بأنه أقل براجماتية، إذ كانت تشيد صوب السماء، أما المسجد - باستثناء المنار - فقد كان بناؤه وظيفياً أو شبه مربع حيث يقوم المصلي بالسجود والركوع ورأسه موضوعة فوق الأرض على سجادة. أما نظراته فهي موجهة صوب المحراب البعيد والكائن في العمق؛ ويلاحظ أن الجزء الأكثر أهمية في المسجد الجامع - في إطار شعائر صلاة الجمعة - يتمثل في إلقاء الخطبة المنبرية التي يذكر فيها الخطيب اسم أو القاب العاهل الحاكم، وفي هذا المقام كان الخليفة أو الحاكم يجلس أمام المحراب في المساجد الرئيسية، وبالتالي كان ذلك المكان من تلك التي حظيت بعناية معمارية خاصة من خلال قبة فخمة تكون في نهاية الرواق الرئيسي، على محور المحراب. هذه المكونات المعمارية للمسجد يبدو أنها قادمة من القصور ومن هنا فإن صدر صالات الاستقبال في تلك القصور يشبه قتيماً ما عليه المحراب والقبة التي تسبقه، ويندرج هذا المفهوم على المساجد كافة في العالم الإسلامي؛ وقد أشار إرنست ديث إلى «أن الإسلام انتشر بعد مائة عام من ظهوره (622م) في عشرة بلاد من الشرق والغرب، فهناك إسبانيا، وهناك الشمال الأفريقي والمغرب وانجزائر وتونس ومصر، وسوريا والعراق والرافدين والأناضول وفارس وتركستان والهند، غير أن إسبانيا ضاعت منه خلال القرن الخامس عشر، لكن فاز الإسلام بتركيا». هذه المناطق كلها يوجد المسجد فيها وأصبح نموذجاً قتيماً مشتركاً، غير أن العناصر الدائمة والمسيطر عليها هي المئذنة والصحن وحرم المسجد وحائط القبلة والمحراب، حيث نراها مجتمعة في المسجد الأموي في دمشق.

فرضت العمارة العربية في المغرب الإسلامي - في أغلب الحالات - مركزية المدينة في المسجد الجامع (لوحة مجمعة 3-4، مسجد صفاقس)، وهي مركزية مرجعها الأساسي الفترة السابقة على العصر العربي، أن المسجد كانت له جاذبيته الحضريّة، والمباني الملحقة

به هي الميضأة التي تقع على بعد أمتار قليلة منه، ثم مع مرور الزمن نجد المدرسة، ولا تبعد عنه كثيراً القبصرية أو الفندق، إضافة إلى المقابر، وهذا ما نراه في المسجد المرابطي الذي شيده علي بن يوسف في المغرب والذي زال من الوجود. أما المساجد الأكثر أهمية فكانت مزودة بمكتبة ومسجد صغير مخصص لإقامة صلاة الجنازة وحمامات ارتبطت منذ فجر الإسلام بالصلاة وبالتالي كانت تشيد إلى جوار المساجد. وفي الحمام كان المسلم يتوضأ ويفتسل قبل أداء الشعائر، أي أن هذا الملحق يعتبر جزءاً مكملًا للمسجد؛ وبالنسبة لمركزية هذا المبنى أو ذاك نجد بعض المصادر العربية تشير إلى أن كلا المبنيين شيدا في آن معاً ومتجاورين. وكان من المعتاد عند الدخول إلى الحمام ذكر البسمة. في إسبانيا الإسلامية نجد أن الكثير من المدن حافظت على الحمامات القريبة من المساجد، ففي المنطقة المجاورة للمسجد الجامع بقرطبة نجد حمام القديسة ماريّا، ونجد حمام سوق السمك وحمام سان بدرو. الشيء نفسه نجده في غرناطة حيث نجد في سهل الحمراء حماماً لا زال قائماً، وهو ذلك الذي يرتبط بالمسجد الثاني، وكان الربط بين الحمام والمسجد قائماً حتى بدايات القرن السادس عشر وهذا ما نجده في منطقة Marquesado de Cenete (غرناطة)، حيث تشير المصادر التي ترجع إلى ذلك العصر أنه قد صدر أمر بمنع المورو من دخول الحمام قبل الدخول إلى القدّاس خوفاً من قيامهم بالتوضؤ كما كانوا يفعلون عندما كانوا مسلمين. في حمامات حيّ البيّازين بغرناطة اتضح أن هناك لوحة عليها النقش الكتابي الذي يقول بضرورة الحفاظ على نقاء الروح من خلال طهارة البدن وإن عدم الطهارة الخارجية يدل على عدم طهارة الروح. وسيراً على النموذج المشرقي كان هناك حمام مشترك لعدة مساجد، ففي دمشق - ق 11-12- نجد حماماً لكل ستة مساجد، وفي بغداد (ق 11) نجد حماماً لكل خمسة؛ وفي مخطط المدن الأندلسية يمكن أن نعث



4

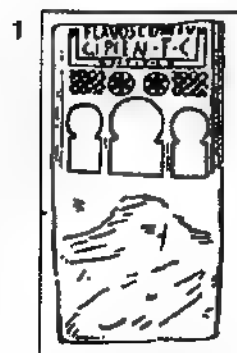


3

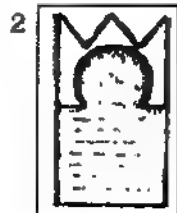


6

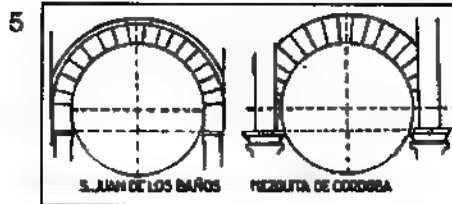
7



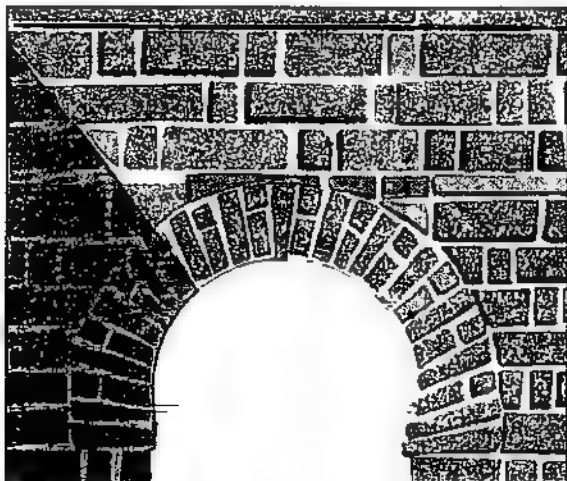
1



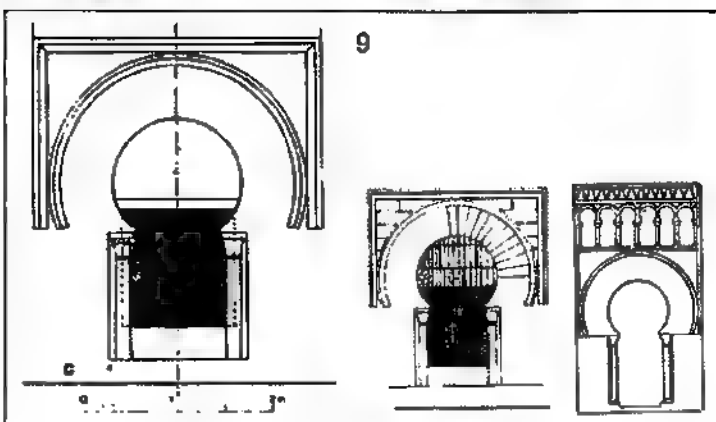
2



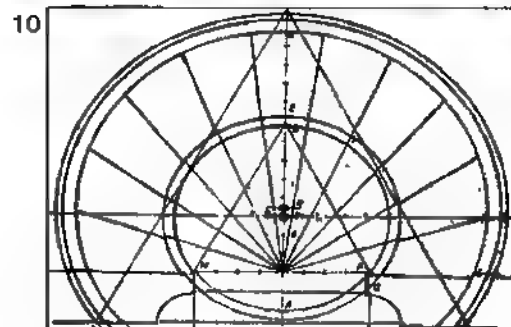
5



8



9



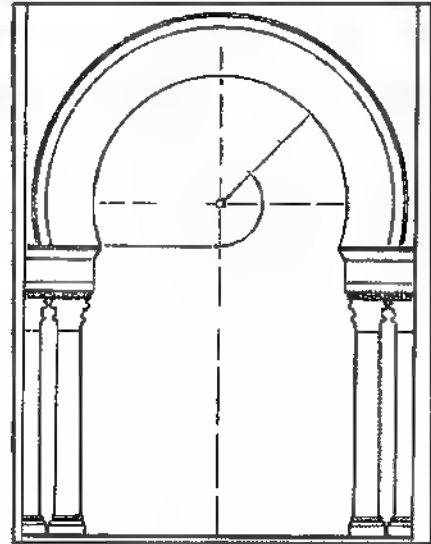
10



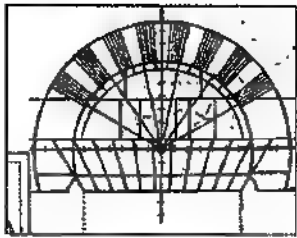
A



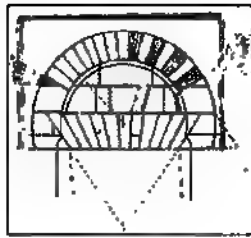
C



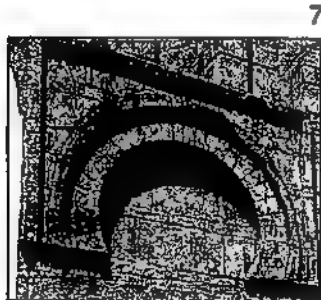
B



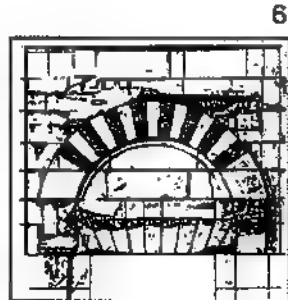
2



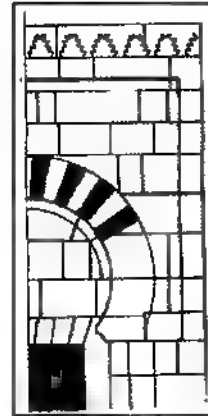
1



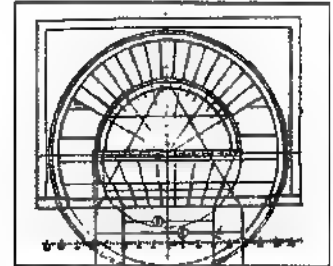
7



6



5



4



8

لوحة مجسمة 2-4:

المقد الحدي في كل من قرطبة وإفريقية

ينقل من مبنى إلى آخر من خلال دهليز أو ساباط، وكانت توسعة المساجد على مرور الزمن دليلاً على زيادة عدد السكان، وتوافق هذا مع كثرة بناء المساجد العامة أو الخاصة (الزوايا والأربطة) والمصليات في الهواء الطلق (مصلًى). ويحدث الشيء نفسه في المدينة أو الأرباض، حيث يشير الإدريسي إلى وجود المسجد الكنيسة في الریض في بلدة لايتنا دون أن يكون هناك سور، وربما نجد في هذا المثال مثل ذلك الذي يحدثنا عنه الحميري والذي كان موجوداً في ریض أستجة. كانت لفظة ریض تشير إلى خارج أسوار المدينة، وهنا علينا ألا ننسى أنه قد عثر في طليطلة على نص عربي يعترف بالریض على أنه في الجزء الخارجي المجاور مباشرة لمنطقة الحزام الخاص بالحصن الذي يقيم فيه الحاكم والذي افتتحه عبد الرحمن الثالث مع إشارة لأول مسجد، وكذلك أوليات الكنائس.

وبالنسبة لمواسم الأقاليم أو الكورات فالأمر الخاص بحجم المسجد مرتبط بتعداد مكانها، إذ كانت مساحة المسجد الجامع مكونة من سبعة إلى ستة أروقة وحتى أحد عشر رواقاً، وشهدنا ذلك في قرطبة القرن العاشر حيث بلغ عدد الأروقة تسعة عشر، وهو النموذج الذي كانت تمثله أيضاً المساجد المرابطية والموحدية، حيث نرى 21 رواقاً في مسجد حسان بالرياط و 17 في مسجد الكتبية وهي المسجد الجامع بإشبيلية، وكذا العدد نفسه في المسجد الجامع بالقيروان (836م)، وغني عن الذكر الإشارة إلى ضخامة الجزء المسقوف في كل من مسجدي سامراء (25 و 17 رواقاً مستعرضاً على التوالي) ومسجد عمرو بن العاص، الذي جرت توسعته بواحد وعشرين رواقاً. وبناء على رأي سوافاجيه وأ. ليزن فإن المسجد القديم بالمدينة المنورة لابد أنه كان يحتوي على 18 رواقاً. والأمر شبيه بالنسبة للمسجد الأقصى الذي انتقل من وجود سبعة أروقة إلى خمسة عشر خلال النصف الثاني من القرن الثامن. وبالنسبة للمساحة بعامة فإننا يمكن أن نشهد اللوحات المجمة للمساجد

على حمام بالقرب من الكنائس التي كانت مساجد قبل ذلك، مثلاً هو الحال في بلنسية وميورقة؛ نخلص إذن أن الحمام كان أحد ملحقات المساجد، وكان هذا وذاك تابعين للوقف الذي يتركه الحكام وعلية القوم والتجار لضمان الإنفاق عليها، إضافة إلى مساجد وحمامات ومدارس ومستشفيات وأسبلة؛ وكان الوقف يعرف في الأندلس والمغرب باسم «حبوس»، وهي مؤسسة إسلامية ذات غايات عامة أو دينية. إذن نجد أن كل هذه المنشآت وخاصة المسجد الجامع عبارة عن أبنية تم تصميمها لتقوم بعدة وظائف، وكأننا أمام الحضارات السابقة وقد اجتمعت من خلالها، وأصبحت ذات قيمة نفسية لم تكن معهودة بشكل طبيعي حتى ذلك الحين، أي أن المسجد عبارة عن كتاب له غلاف عبارة عن مجموعة من الطبقات هي دار العبادة والميدان agora والجامعة والحصن ذو برج الطلائع (المنارة)، ووجود المياه في الصحن، أو المبخضة وهي عبارة عن حوض أو صهريج للوضوء، وتزويد السكان المجاورين بالمياه، وأحياناً ما نجد المقابر بالجوار. كان المسجد الجامع والإطار المحيط به جوهر المدينة، فلعينا ألا ننسى أن هناك حالات جرى فيها إنشاء المسجد قبل الشروع في إنشاء المدينة، أو إقامة المسجد والسور في آن، أما المباني العنقودية التي تتحول إلى تجمع فكانت تشبه ما أطلق عليه الأتراك العثمانيون لفظة «الكلية».

لا يتوافق عموم المساجد الجامعة مع المركز الطبوغرافي للمدينة، حيث نراها في الأطراف، ذلك أن دار العبادة قد تأسست في المكان الذي كانت توجد به دار عبادة قوطية أو مستعربة، وهذا ما نجده في قرطبة (لوحة مجمعة 3-4، B) وفي جيان (وفي إشبيلية نجد مسجد عمر بن عبدس Adabbas غير معروف المكان بالنسبة للأسوار التي ترجع إلى القرن التاسع)، أو أن ذلك ربما يرجع إلى عادة قديمة تتمثل في إقامة المسجد والقصر متجاورين، أو القسبة. وكان هناك تجاذب مشترك بين القصر أو الدار وبين المسجد، فالخليفة كان

الكبرى في المشرق والمغرب وهي رقم 83، 84، 85، 86 في هذا الفصل. أما مدائن الأندلس والشمال الأفريقي المتوسطة الحجم فتجد أنه كان من المعتاد أن يتراوح عدد الأروقة فيها بين خمسة وسبعة؛ فهنا سبعة في مسجد بصرة (المغرب) وكان إلى جواره حمامان (طبقاً للبكري). وفي الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان نجد إشارة إلى الحملات الحربية في الأراضي المغربية التي كان يقوم بها غالب، القائد العام للخليفة الأموي القرطبي الحكم الثاني، وبعد الاستيلاء على بصرا، حضر هذا القائد مع القائد المهزوم الإدريسي إلى مسجد حجر النصر (974م) لأداء صلاة الجمعة، التي ورد في خطبتها الدعاء للخليفة القرطبي. كان مسجد الأندلسيين في فاس مكوناً في البداية من سبعة أروقة (طبقاً للبكري)، وكذلك في بتشينا (الإدريسي) وألمرية، خلال القرن الحادي عشر (خمسة أروقة خلال القرن العاشر) (انظر العذري وتورس بالباس). وربما كان الأمر نفسه ينطبق على مسجد تازا وعلى مسجد رندة؛ في تونس نجد المسجد الحفصي بالقصبة والمسجد المسمى مسجد الهوا، وهو مسجد كانت تؤدي فيه صلوات الجمعة في هاس الجديدة؛ وطبقاً لببشيانا Viciana كانت كنيسة «الاسيو» في شاطبة مسجداً مربع المساحة مكوناً من سبعة أروقة (انظر بوقارول). هناك مساجد من خمسة أروقة؛ في أستيجة، وهو مسجد مشيد من الحجارة، وفي ملقة وكلاهما ينسب إلى الأمير محمد الأول، وفي الجزيرة الخضراء القديمة (العذري والحيميري)، وكذا المقر الحربي العربي القديم في أرشذونة (ملقة) الذي لا زال قائماً حتى الآن؛ في سبتة (البكري) نجد مسجد المدينة المستديرة المسمى القصر الصغير، وله حمامه القريب منه (ريدمان)، والمساجد الجامعة في مدينة الزهراء وفي تطيلة خلال القرن العاشر. في طرطوشة نجد مسجد المنستير في وبلبة ومساجد جيان (المسجد الكبير زال من الوجود، ومسجد ماجدالينا)، ومسجد القصبة في بطليوس (تورس بالباس).

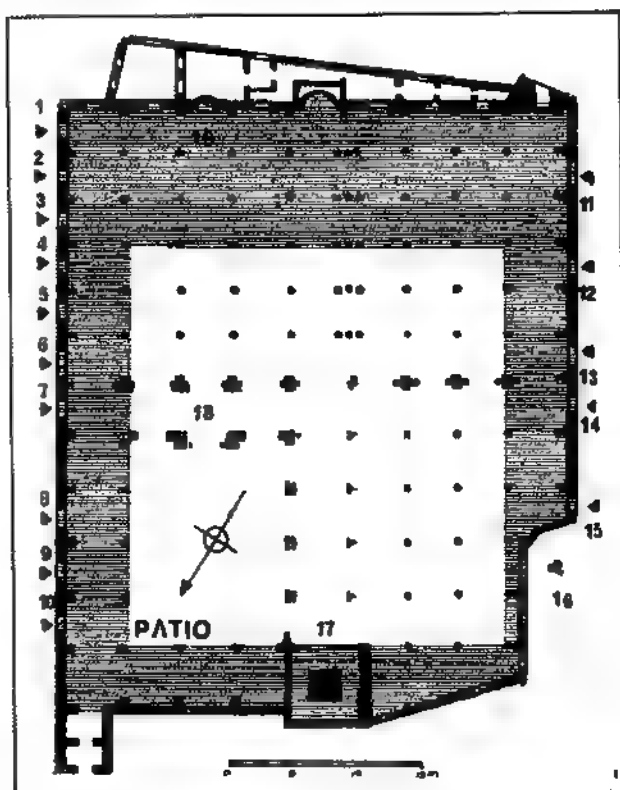
كان الرواق المركزي في المسجد يتسم بأنه الأكبر من باقي الأروقة، ففي الأندلس كانت الأروقة الموجودة في الأطراف أكثر صغراً من المجاورة لها، وظال الأمر كذلك حتى نهاية القرن الحادي عشر حيث جرى بعد ذلك توسعتها ومساواتها في المساحة بالرواق المركزي (غرناطة وألمرية)، وهذا نموذج أصبح السمة الرئيسية لمساجد الموحدة في الشمال الأفريقي، وليس الأمر كذلك بالنسبة للمسجد الجامع في إشبيلية؛ هذه الأروقة الكبيرة التي توجد في الأطراف أصبحت كأنها مساحات ملحقة وتوسعة أو زيادة، ومغزاها غير معروف حتى الآن، وربما كانت مقتصورة على فئة معينة من الناس أو على النساء، حيث كانت هذه الفراغات تحتل جزءاً من الصحن. وعودة إلى المساجد ذات الأروقة الثلاثة في البلدات الصغيرة، نجد أن ذلك أمر معتاد، ومن أمثلة ذلك مساجد كابرا (إشبيلية) وخضر Jodar (ج. جيان) (الحيميري) وربما مسجد بيررا Vera (ألمرية) (العذري). وكان الأمر كذلك، في البداية، في مسجد عمروس بتطيلة خلال القرن التاسع. هناك مساجد أخرى متأخرة ظهرت في بولونس (سبتة) (طبقاً للأنصاري) وكذلك المسجد الكبير داخل قصور الحمراء. ويرى تورس بالباس أن مسجد قناطر في بويرتو دي سانتا ماريا (قادش) كان ذا ثلاثة أروقة؛ ويبدو أن هذه المساجد كلها جرى تصميمها على نمط مسجد أموي من مساجد الأحياء، في قرطبة في مسجد سانتا ماريا لاكلارا ومسجد الحي المسمى «هونتانا» (ق 9)؛ وعلى ما يبدو كان مسجد السليبادور في طليطلة ذا ثلاثة أروقة (ق 10) طبقاً لما نراه اليوم، وتقول الحوليات المسيحية إنه كان يقوم بدور المسجد الجامع في المدينة عندما استولى ألفونسو السادس على المسجد الجامع الكبير من العرب وحوله إلى كاتدرائية، وكان هذا النموذج هو الخاص بالمساجد المتواضعة في الأرباض والقرى، إذ نراه في محافظات مثل مرسية وأليكانتي وبلنسية؛ ومن النادر - على ما يبدو - وجود مصلى

المكون من أروقة طولية على حائط القبلة، سرعان ما سوف نراه في المساجد في المغرب الإسلامي خلال النصف الثاني من القرن الثامن مثل مسجد القيروان والمسجد الجامع بقرطبة. كان مسجد الكوفة نموذجاً شديد البروز وهو واحد من أوائل المساجد، ذو صحن مربع وثلاثة بوائك وجزء مسقوف مكون من خمسة أروقة، الأمر الذي يصبح بالنسبة لنا نموذجاً للمساجد الجامعة في مدنتنا وبلداتنا من تلك المساجد من الطراز الثاني طبقاً لما سبق قوله.

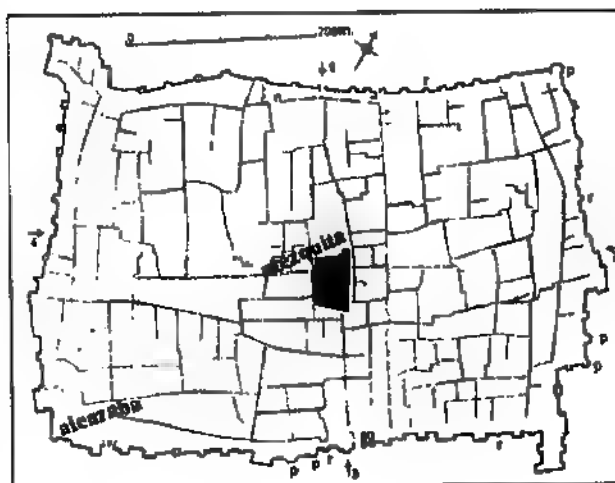
الأروقة في المساجد كلها كانت منفصلة عن بعضها بصفوف أعمدة، وكان العقد هو نصف الأسطواني الكلاسيكي، الذي هو أحد سمات الكنائس خلال العصر المسيحي الأول والعصر البيزنطي (لوحة مجمعة 4-4، 1 سان بابلو خارج أسوار روما)، وحل محل ذلك العقد، من حيث المقياس، عقد آخر أكبر وأكثر تقوساً سواء كان ذلك في المشرق أو المغرب (لوحة مجمعة 4-4، 2 مسجد دمشق، ورقم 3 الخاص بالمسجد الجامع بالقيروان). وهي كل من القيروان وقرطبة (لوحة مجمعة 4-4، 4) نجد العقد الحدودي يتوج نفسه بشكل ثابت وبذلك يعتبر القائد لتلك المساجد اللاحقة في كل من شمال أفريقيا والأندلس، كما فرض نفسه على المساجد الكبرى، وأصبحت الموضوعة السائدة إقامة صفوف أعمدة طولية أو موازية لحائط القبلة ذات عقود مختلفة عن تلك الخاصة بالأروقة المستعرضة، حيث يحل محل العقد الحدودي العقد المفصص، وقد ظهر ذلك بشكل واضح في المسجد القرطبي خلال القرن العاشر (لوحة مجمعة 4-4، 5، 7)، وأثر هذا المثال في المساجد المرابطية والموحّدية، ابتداء من المسجد الجامع في تلمسان ومسجد الجزائر (لوحة مجمعة 4-4، 8)، ففي هذه المساجد الأخيرة تم الحفاظ على العقد الحدودي في الأجزاء السابقة، وقد ظهر هذا بوضوح في مسجد القرويين بفاس (لوحة مجمعة 4-4، 9)؛ غير أن الأمر المعتاد في المساجد الموحّدية هو العقد

ذي صالة واحدة، ولاشك أن مثل هذا الصنف كان في أماكن قاصية من المحافظات، مثل ذلك الذي ظهر في البلدة المحصنة المسماة المرابطات Mirabet (هسطلون دي لابلانتا) (برّانا م. أو. روزيت)؛ هناك صنف آخر وهو الجامع الملكي الخاص، ومنها مسجد الجعفرية بسرقسطة ومساجد الحمراء ذات الفراغ الواحد أو الصالة الخالية من الأعمدة، وربما يدخل في هذا الإطار الأريطة المساجد التي زالت من الوجود، ومسجد القصبة في شريش. وإذا ما أخذنا مدينة فاس كنموذج، نقول إن كل حي من أحياء المدن يضم ما لا يقل عن مسجد واحد (البكري)؛ أما بالنسبة للمساجد الأكثر قدماً في الأندلس فإن كل العيون مصلطة على المسجد الجامع في قرطبة الذي شيده عبد الرحمن الداخل، ومع هذا فطبقاً للمصادر العربية (دون أية أدلة أثرية) هناك مساجد متناثرة طبقاً لقول الحميري ومنها المسجد الذي يوجد في شرق الجزيرة في قرطاجنة Qartayanna (كارتيا)، حيث يقال إنه أول مسجد أسسه أحد صحابة الرسول، وهناك المسجد الجامع في سرقسطة، وفي ألبيرة وهما ينسبان إلى حناش Hanas كما سبق القول، إضافة على إعادة بنائهما أو توسعتهما في عصر الأمير محمد الأول.

ونكتة بداية يمكن القول إن الإسلام ظهر دون أن تكون هناك مباني محددة له، فكانت الصلاة تقام في أي مكان، وعندما نقرأ القرآن الكريم نرى أنه لا يعدد ملامح بيئتها للمسجد، وهنا نجد الباحثين المحدثين يلفتون النظر إلى أن صلاة الجمعة هي التي كان يتحتم أن تؤدي جماعة في مكان يتسع للسكان كافة؛ وفي هذا المقام نجد أن مثل هذه المساجد سار على نموذج أو نماذج ذات ملامح محددة في الشرق الأدنى، حيث من الضروري وجود صالة الأعمدة وصحن أمامها مثل مسجد دمشق والمدينة المنورة والمسجد الأقصى بالقدس أثناء خلافة الوليد الأول خلال السنوات الأولى من القرن الثامن، ويلاحظ أن نموذج المسجد الأقصى

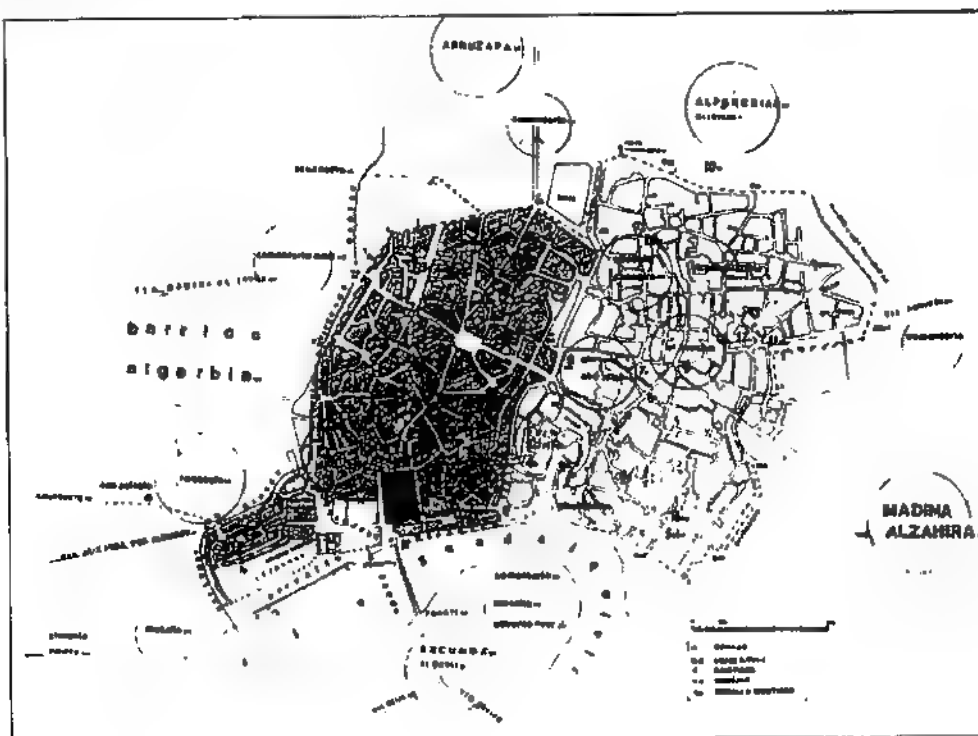


A

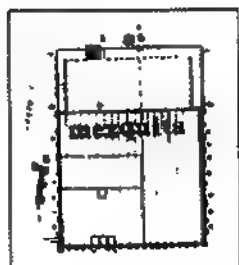


A

B



B



لوحة مجمعة 3-4:
A المسجد الجامع في صفاقس ومخططة
B المسجد الجامع في قرطبة ومخططة

1- الصحن،

كانت التوسعات التي تدخل على الجزء المسقوف تؤثر على الصحن الذي رأيناه في المغرب الإسلامي ابتداء من القرن التاسع، وهو صحن مزود بثلاث بوائك أو ممرات مسقوفة (أروقة)، لها نماذجها في كل من مسجد دمشق والكوفة ومسجد القيروان (ق 9)، بحيث تحيط بأرجاء الساحة غير المسقوفة ماعدا الجانب الجنوبي، ومع هذا كانت هناك صحنون مساجد ذات أربع بوائك مثل مسجد قلعة بني حماد (ق 11) في الجزائر، ومسجد المهدية (ق 10، 11) (أ. ليزن)، وكذلك - على ما يبدو - في صفاقس (ل. جولفن)، وفي المسجد الذي شيد بعد ذلك بكثير، وهو مسجد توزور (ق 17) في تونس، حيث أقامه عرفاء موريسكيون إسبان. ولا تعرف الأندلس هذا الصنف من الصحنون. منذ سنوات قليلة جلب لنا أ. ليزن أحد الأمثلة وهو المسجد الجامع في القيروان، خلال القرن التاسع، ودحض بذلك نظرية كروزويل في أن ذلك كان مألوفاً في إفريقية (تونس)، أي المساجد بدون بوائك؛ إذن نجد أن هذا الباحث ومعه كل من فيلكس إيرنانديث، وانضم إليهما ل. جولفن،

لا يقولون بوجود بوائك في صحن المبنى الأول لمسجد قرطبة، كما لم يوجد ذلك في التوسعة التي جرت خلال عصر عبد الرحمن الثاني؛ وقبل جومث مورينو ولا مبرت وتورس باللباس بهذا الرأي، وانضم إليهم في رأيهم. وقد وضعت أبعاد هذا الموضوع بالنسبة للمسجد الجامع بمدينة الزهراء خلال القرن العاشر، يليه مسجد تطيلة ذو البوائك الثلاثة المؤكدة، وبذلك يسبق الصحن الذي ظهر في المسجد الجامع بقرطبة في التوسعة التي تمت في عصر عبد الرحمن الثالث (952-958) ذات البوائك. وعندما تنتقل بهذا الموضوع إلى القرن التاسع، كما سوف نرى في الفصل الثاني، نجد المصادر العربية تشير إلى أن المسجد الجامع في جيان كان ذا صحن وبوائك يطلق عليها السقيفة (المذري والحميري) وربما كانت الحالة نفسها منطبقة على مسجد ابن عدبس Adabbas في إشبيلية؛ وبالنسبة لصحن مسجد الزيتونة، خلال القرن التاسع، يقول لنا جولفن أنه ربما كان يقتصر إلى البوائك الجانبية، ولا توجد إلا تلك الواقعة في الشمال والتي جرت إضافتها كجزء مستقل إلى حرم المسجد (ق 10)؛ ولابد أن الصحن الخاص بأقدم المساجد الأندلسية كانت له الأبعاد نفسها التي كان عليها الجزء المسقوف، وهذا بناء على ما نراه في المسجد الجامع الذي شيده عبد الرحمن الداخل، حيث الصحن أكثر عرضاً وأقل عمقاً، وهو عملياً مساحة مربعة مقسمة إلى جزءين متساويين.

ويرى فيلكس إيرنانديث أن هذا النموذج لابد أنه كان موجوداً في مساجد الأمراء المهمين في كل من جيان وإشبيلية والبيرة، والأمر كذلك في طليطلة وسرقسطة؛ ومع هذا وخلال نهاية القرن التاسع وبداية العاشر لوحظ أن قرطبة كان بها صحن أكثر عمقاً من حرم المسجد، وربما كان ذلك دليلاً على الأهمية التي اكتسبها المكان خلال الفترة المذكورة مثل مسجد مدينة الزهراء، ومسجد فويتانار، في أحد أحياء المدينة، وهذا النموذج قائم أيضاً في المسجد الجامع في تطيلة الذي يعتبر

الصحن، وأصبح هذا الأخير، مع مرور الزمن، جزءاً على درجة من الأهمية التي عليها الجزء المسقوف وأحياناً ما نجد له محراباً مرتجلاً في الواجهة الجنوبية (مسجد تازا - ق13) وهو نموذج نراه في مساجد ترجع إلى القرن الثالث عشر في القاهرة، مثل ضريح الأشرف خليل الذي يرجع لعام 1288م، حيث نرى به محرابين على جانبي باب المدخل إلى الجزء المسقوف اسبقوق بصحن؛ ونرى الشيء نفسه في المسجد التونسي السابق الذكر). وفي هذا المقام نسلط الضوء أيضاً على وجود محراب إضافي من الخشب في مسجد الأندلسيين بناس (1207م) وسبق أن شهدناه في مصر الفاطمية (ق10، 11)، كما نراه في مسجد ابن طولون (لوحة مجمعة 1-12، 3)، إضافة إلى مساجد أخرى في القاهرة واسطنبول (لوحة مجمعة 1-12، 4). ولاشك أن الصحن كان جزءاً أساسياً منذ عصر الرسول، وهو مساحة ضخمة مكشوفة معدة لأداء الصلاة، تزيد على المساحة المسقوفة في كل من مساجد المدينة المنورة والكوفة ودمشق والقبروان وتونس وصفافس وموسى والمهدية ومسجدي سامراء، ومسجدي عمرو بن العاص وابن طولون بالقاهرة (كروزيل)، الأمر الذي يوضح ببعاء أنه خلال الأزمنة الأولى كان الصحن مركز النشاط الديني الخاص بالمسلمين، أي أنه عبارة عن مصلى في الهواء الطلق؛ ومع هذا يجب أن نخضع الموضوع لمزيد من النقاش، وخاصة بالنسبة للمساجد الموجودة في شبه جزيرة إيبيريا. ومع مرور الزمن نجد الصحن في المغرب الإسلامي وقد أخذت مساحته تقل من جراء عمليات التوسعة في أحد جوانب الجزء المسقوف، فعلى سبيل المثال نجد المسجد الجامع في صفافس (ق9) تبلغ 1970 متراً، ثم أعيد بناؤه عام 948م (ل. جولفن) وأخذ صحنه الأول الضخم يمتلئ بالأعمدة والبوائك حتى أصبح ما بقي منه يمثل سدس الجزء المسقوف. وأدت المبالغة في زيادة أروقة المساجد في الشمال الأفريقي، خلال القرنين الثاني عشر والثالث

صورة طبق الأصل من الأول، طبقاً للحفائر التي جرت عام 1993م. هناك حالة معروفة وهي الخاصة بمسجد دمشق حيث إن صحنه أكبر بعض الشيء من الحرم، ومن الناحية العملية فإن الحرم يساوي الصحن، مثلما هو الحال في أول مبنى للمسجد الجامع بقرطبة؛ غير أن هذه العلاقة لم تستمر في المسجد القرطبي الذي جرت توسعته خلال القرنين التاسع والعاشر. وفي المسجد الكبير بالقبروان (836م) نجد الصحن يكاد يكون أكبر من حرم المسجد بثلاث مرات، وعلى الشاكلة نفسها نجد مسجد سوسة والمهدية ومساجد مشرقية أخرى (ق7-8)، وخلال القرون من الثاني عشر حتى الرابع عشر نشهد توازناً في المساحة بين الجزء المسقوف والصحن في منطقة المغرب حيث وضع اتجاه بتقليل حجم الصحن؛ وغني عن الذكر الإشارة إلى أن المرابطين والموحدين ساروا في بناء المساجد على وجود البوائك الثلاث الكلاسيكية التي كانت سائدة خلال الفترة الأموية القرطبية؛ وكان صحن المسجد الكبير يستخدم في البداية لإقامة الشعائر بشكل مؤقت أو إضافي، فمن أتوا متأخرين يصلون فيه، ومن المعروف أن البوائك لم تكن موجودة منذ البداية؛ وهناك بعض الآراء التي تقول بأن ظهور البوائك في الصحن كان علامة على زيادة عدد السكان، وبالتالي كانت موجودة - كما قلت - في المغرب الإسلامي ابتداء من منتصف القرن التاسع، في قرطبة خلال الفترة من 833 حتى 848م، وربما يسبق في هذا ما عليه المسجد الجامع بالقبروان، فربما كانت بوائكه لاحقة تاريخياً على بوائك مسجد زياد (836)، وكذلك الأمر بالنسبة لقبة باب اليهود الواقعة على أول الرواق الرئيسي، وهي تنسب إلى عصر كل من إبراهيم الأول وإبراهيم الثاني. والاحتمال كبير في أن نسبة البوائك للصحن ترتبط بدرجة كبيرة أو صغيرة بتنامي تواجد النساء في المساجد.

تكمن أهمية المسجد وكونه مسجداً رئيسياً في ضخامة مساحته التي تكاد تكون مربعة بما في ذلك

من القرن التاسع - واشبيلية وملقة وجيان وأغلب منطقة اليبازين بفرنقاطة. كما أنه أحياناً ما يكون للصحن شكل غير منتظم، ويرجع هذا إلى شبكة الطرق المحيطة، وهذا ما نجده في مسجد ليلة الجامع، والمسجد الجامع في تلمسان ومسجد الأندلسيين بفاس، غير أن هذا لا يمكن أن يحدث للجزء المسقوف من المسجد حيث يظل ذا مساحة مربعة أو مستطيلة.

عندما نتأمل المساجد الأموية الأولى في قرطبة نجد أن الصحن كان يتوافر على بوابات ثلاث حيث نجد العقود المركزية أكبر من غيرها متوافقة مع الأبواب المفتوحة في الحوائط، وهذا ما نجده بوضوح في مدينة الزهراء ومسجد مدينة تطيلة وكذا في مسجد المهديّة كما سبق القول. وهذا المسجد التونسي فيه باذخة في الجزء الذي يقع أمام الباب الكائن في الجزء الشمالي للصحن وكأننا أمام قوس النصر الروماني، فربما كان ذلك صورة من الفتحة الموجودة في الحائط الشمالي لصحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء (كلوز بريسك K. Brisch). وعودة إلى المصادر العربية لنجدها لا تكاد تذكر شيئاً عن الصحن في المساجد الكائنة في الأقاليم، ماعدا صالة المسجد الجامع القديم في الجزيرة الخضراء، ولكنها تشير فقط إلى عدد الأروقة في كل مسجد، كما أن هناك انطباعاً بأن الأندلس على الأقل (ربما خلال الفترات الأولى) شهدت وجود الصحن، وكأنه إضافة غير شائع استخدامها في إقامة الشعائر، اللهم إلا إذا كان الجزء المسقوف مليئاً بالمصلّين، وهنا نذكر في هذا المقام نصاً لابن صاحب الصلاة يتحدث فيه عن وصف المسجد الموحدي بإشبيلية وأن الخليفة أمر بتوسعة الصحن ليصلي فيه الفاس وقت الحاجة؛ وفي هذا المقام يحدثنا ذلك المؤرخ العربي عن مسجد عمر بن عبدس Adabbas بالمدينة نفسها؛ وقد سبق أن قلت إن إدراج الصحن ليكون مخصصاً لأداء الشعائر كان مرتبطاً بزيادة ارتياد النساء للمساجد وليس هناك إلا البوائك (أو السقيفة).

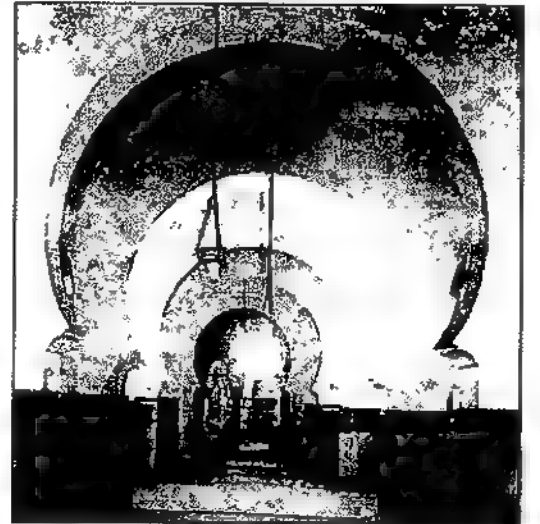
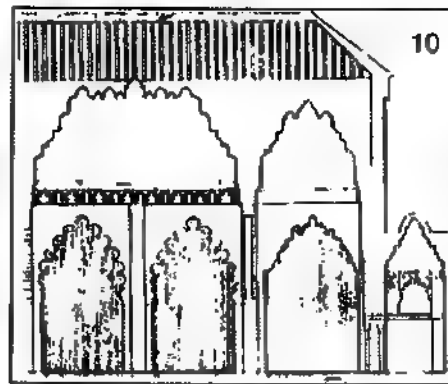
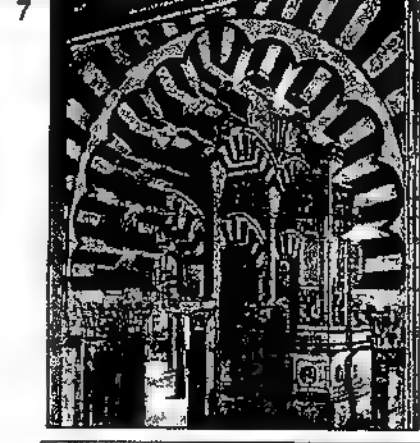
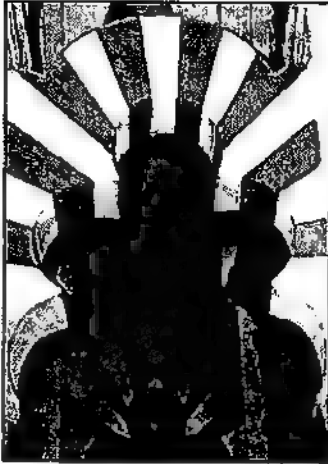
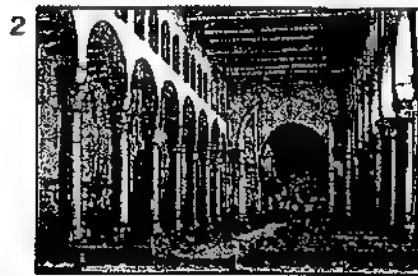
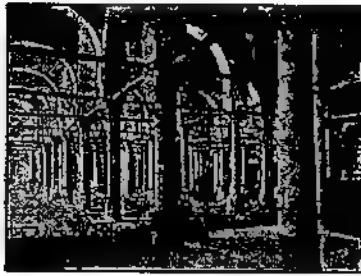
عشر، بتوسعة المساجد من الجوانب في مجموعات مكونة من رواقين أو أكثر، إلى التقليل الملحوظ من حجم الصحن، وأحياناً ما يتم البحث عن صحن صغير للتهوية يوجد بين الأروقة، ومن أمثلة ذلك مسجد حسان بالرباط ومسجد قصبة مراكش المعاصر للسابق، مع وجود خمسة أروقة متوازية بدقة وكأنها أقرب في ذلك لتكون قصراً بدلاً من المسجد؛ هذا المسجد يتّسم بدقة مقاساته في البوابات الرئيسية المركزية الثلاث على الصحن الرئيسي، إضافة إلى خصوصية أخرى وهي أن العقود المركزية لها أروقة أكبر وأكثر علواً من الأخرى وهذا أمر غير معمول حتى ذلك الحين، إذا ما استثنينا صحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء؛ كما نرى تلك العقود المتدرجة في المركز في صحن مسجد المهديّة الفاطمي، ثم جرى تقليد ذلك في مساجد قاهرية؛ وكان من نتائج التوسعة في المساجد وجود صحنين في المسجد الجامع في سبتة وفي مساجد أخرى بالمدينة (طبقاً للأندلسي)، وفي الأندلس، فإننا إذا ما استثنينا مساجد الأحياء المذكورة، وهي سانتا كلارا وفونتانا في قرطبة، لا يتوفر لدينا دليل على أن كافة المساجد المتوسطة الحجم كانت ذات صحن، وقد جاءنا مسجد فينيانا Finana بدون صحن (ألمرية) وكذلك مسجد أرشونة ومسجد منطقة ثييتو Centeno في لورقة (مرسية)، وربما يلحق بهذا الركب مسجد السكان الأربعة Cuatrohabitas الأشبيلي؛ وفي تونس نجد مسجد القصبة ومسجد الهواء Hawa. هناك صحن ذات مساحات صغيرة في أماكن مختلفة، إضافة إلى توجّه فني بسيط بها، نجدها في مسجد المنتستير في ويلة ومسجد السليادور في طليطلة. والشئ الغريب أن أحباس غرناطة تشير إلى مساجد صغيرة وكذلك أربطة ذات صحن، وأحياناً ما تكون مصحوبة بمئذنة خاصة بها؛ وتتوافق المصادر العربية والمسيحية في تسليط الضوء على بعض صحن المساجد لما زرع فيها من أشجار مثل أشجار البرتقال؛ وفي قرطبة - ابتداء

للنساء؛ وهناك ثلاثة منها مرتبطة بالتوسعة التي أجراها المنصور بن أبي عامر. ويقول لنا ابن بشكوال، من خلال المقرئ، أن الضلع الشرقي للمسجد كان به تسعة أبواب (هي الأبواب نفسها التي نراها اليوم) منها سبعة مخصصة للرجال، واثنان للنساء، وهما البابان الموجودان في منطقة الصحن، ويجب أن يؤخذ في الحسبان أن المساجد كانت، ولا زالت حتى يومنا هذا، تضم مساحات ضخمة مخصصة للرجال مقارنة بتلك المخصصة للنساء، فهذه المساحات الأخيرة نجدها منفصلة عن الأولى، ومن أسباب ذلك يقال بأن صلاة الجمعة ليست فريضة على النساء وبالتالي ليس عليهن الحضور إلى المسجد الجامع؛ وحول هذا الموضوع ربما كان من المناسب أن نلفت النظر إلى وجود فراغات، في الطابق العلوي، مخصصة للنساء في المعابد اليهودية سواء كان المعهد القرطبي أو معهد الترانستوفي في طليطلة (ق 14)، وسوف أعود مجدداً لتناول موضوع السقيفة في صحن المسجد في الفصل الثاني من هذا الكتاب.

عودة إلى الأبواب وكثرتها نجد أن المسجد الأندلسي كان يسير على تقليد يتمثل في وجود ثلاثة أبواب، متوازية في الصحن وتكرر في المساجد في الشمال الأفريقي خلال القرون من الثاني عشر حتى الرابع عشر، وتكاد تكون صحنون المساجد الأندلسية كافة وكذا المساجد القديمة في المغرب Magreb تتوافر على صهرج أو اثنين - زالا من الوجود - خلال القرن الثالث عشر (طبقاً لهنري تراس)؛ وبالفعل، كان ذلك يوجد في مسجد حسان بالرباط وفي البناء الأول لمسجد الكتبية في مراكش، دون أن نحصى ذلك الصهرج الكائن في الزاوية في صحن المسجد الجامع بقرطبة الذي أقيم عند توسعة المنصور بن أبي عامر، وبفض النظر عن الصحن ووظيفته الخاصة بأداء الشماثر فيه وقت الحاجة، فإنه قد اكتسب أهمية الجزء المسقوف رغم أنه كان يقوم فقط بدور التقاء الجماهير ويستخدم لأغراض اجتماعية، وبالتالي يقوم الصهرج أو

وجاء ذلك ابتداء من القرن الثامن الميلادي، حيث نجد بائكة واحدة أقيمت لأول مرة على يد الأمير هشام الأول في صحن المسجد الجامع بقرطبة، ويشير ابن عذاري الذي أورد هذه المعلومة أنه قد أضيف إلى الجزء اللاحق، أو الجزء الشمالي من المسجد، لكنه لم يحدد ههنا إذا كان هذا الجزء هو الحرم أو الصحن، فإذا ما كان الخيار الأول فإن تورس بالباس يشك في صحة المقولة. أما لامبرت فيقول إن الإضافة المذكورة كانت عند بداية الحرم، خارجه، وهذه قضية لم تحسم بعد بشكل مرض. وبالنسبة للتوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني نجد تورس بالباس يتولى تحليل تلك السقائف التي أوردتها الحوليات المرينية: إنها بوائك مرتفعة توجد عند الأروقة التي في الأطراف وتصل بالسقيفة التي شيدها هشام الأول من خلال أبواب. وأعتقد أنه تم تفسير موضوع وجود بائكة واحدة في الجزء الشمالي للصحن بعد أعمال الحفائر التي جرت في مسجد فونتانا بقرطبة، إذ أرى أنها شيدت خلال القرن التاسع، وربما كانت مخصصة للنساء، ويتوافق هذا مع بائكة أخرى لها الموقع نفسه، وكانت في صحن المسجد القديم بالجزيرة الخضراء، طبقاً لرواية كل من الحميري والعذري.

وقد ورد في «حوليات الأندلس المجهولة المؤلف» (ل. مولينا) أن المسجد الجامع بقرطبة يضم بائكة في القطاع الشمالي مخصصة للنساء بها ثلاثة وعشرون عموداً وثلاثة أبواب مخصصة لهن. وورد في وصف ابن غالب بقرطبة (ق 12) أن المسجد الجامع كان به سبعة عشر باباً بما في ذلك الأبواب المخصصة للنساء، والمسجد اليوم له سبعة عشر باباً بما في ذلك الأبواب الثلاثة الخاصة بالصحن والواقعة على خط واحد، وهي أبواب ترى الدراسات الأثرية أنها ترجع إلى المرحلة الأموية، إضافة إلى أبواب أخرى صغيرة يبلغ عددها أربعة توجد في الحائط الشمالي للصحن، وربما لأنها بعيدة عن قلب المبنى أصبحت مخصصة



لوحة مجمعة 4-4:
عقود أروقة حرم المسجد



يبضع سنوات، وهنا نقول إنه مع التوسعة التي جرت في عصر المتصور لم يكن للعائط الشرقي للصحن أية دعامات وبالتالي يتضح جلياً أن ذلك الحاكم أراد الحفاظ على الهمد الجمالي والانسجام الذي عليه الصحن السابق، أي الذي يرجع إلى القرن التاسع وكذا توسعة عبد الرحمن الثالث. واستعاداً إلى أن صحن المسجد القرطبي فقد بلغ اكتماله بثلاث بوائك، ودعامات من الخارج، وهذا ما نراه من الرسالة المتمثلة في المسجد الجامع بالزهراء، فلاننا نستغرب الطريقة التي تمت بها توسعة صحن مسجد قرطبة أثناء عصر ذلك الخليفة؛ وهذا ما سوف نراه في الفصل الثاني.

أصبح من الواضح أن المسجد المصحوب بالصحن الذي توجد به المئذنة يتسم بالتوازي، حيث توجد المئذنة - مبدئياً - في الطرف الشمالي لمحور المسجد، وهنا نجد نوعاً من التدرج المتصاعد للقيم؛ وعلى سبيل التقديم نلاحظ أن المئذنة والصحن بدون بوائك، الذي أصبح مع مرور الزمن مصحوباً بثلاثة منها، يصبح نوعاً من الميدان العام المضاف إلى حرم المسجد، وأصبح هذا مكان مثالي لجموع المصلين الذين يتجهون في صلاتهم نحو القبلة حيث المحراب وسط الحائط، وهو المكان الذي يراه القليل منهم، حيث إن من يشمر بالقرب منه يجعل الآخرين يتجمعون وبالتالي، فمن الناحية النظرية، يصبح الصحن شبه خال ومؤهل لأية مناسبات دينية غير عادية لتصبح بعد ذلك جزءاً من المكان المخصص لأداء الشعائر.

2- الصحن المدجن (صحن الديبر) كمواز لصحن المسجد؛

أُسجل مسبقاً في هذا المقام أن المناخ العام في كل من إهليم الأندلس وقشتالة واكستريما دورا المدجن،

الصهاريج منه بدور مكان الوضوء، وكذا تزويد المنازل القريبة بحاجاتها. وما يزيد من قيمة الصحن وجود المئذنة على حائطه الشمالي إلى جوار الباب وهو الجزء المهم في المسجد، ولهذا كان الباب يأخذ اسم باب المئذنة، وعلى هذا فإن الصحن كانت له وظائف عديدة، كمكان، في المقام الأول، المكان الذي يرتاح فيه المسلم أو المتلقي ومن هنا فليس من المستغرب أن تحدث عملية طرد الباعة منه، كما يحدث عادة على الأرصفة المجاورة المليئة بالناس والباعة وخاصة وقت صلاة الجمعة.

كان لنموذج المسجد القرطبي - ولا يزال - أبراج صغيرة، تقوم بدور دعامة الحوائط الجانبية من الخارج ومن جهة القبلة، بينما تغلو منها حوائط الصحن، وهي دعامات لدعم سمك الحائط الذي يبلغ 1.14م، وهنا نتساءل هل كان الاهتمام بحوائط حرم المسجد على أساس أن له الأولوية على الصحن؟، فالحرم المصحوب بأبراج أو مآذن صغيرة هو من سمات مسجد قرطبة الجامع، أما باقي المساجد، وهما مسجد مدينة الزهراء ومسجد تطيلة، فتجد أن الأبراج فيها تشمل المسجد بالكامل ولو أن المسافات بينها بعيدة، ثم جرى السير على منهجها في المساجد الموحّدية في كل من إشبيلية والرباط؛ أما في المشرق فتجد أن مسجد بني سامراء كان لهما دعامات تشمل حوائط الحرم والصحن. وربما كان القصد التقييم من شأن هذه المساجد دون النهاية بجزء منها على حساب آخر، كما أنه مسلّك يدل على الأهمية التي اكتسبها صحن المسجد في المشرق، ومن المحتمل أن يكون مخطط المسجد الجامع في القيروان، الذي عني به أ. ليزن، يضم هذه الدعامات، لكنها هذه المرة من الأجر، مثلما هو الحال في سامراء، وشمل ذلك جدرانها كافة. غير أن الأمر الذي يثير الاستغراب بالنسبة للمسجد الجامع في قرطبة هو أن عبد الرحمن الثالث الذي جرت في عصره توسعة المسجد شمال الصحن الأميري لم يفضل وجود تلك الدعامات في مسجد مدينة الزهراء، الذي شيد تحت رعايته قبل ذلك

فيه عقود حدوية كلاسيكية من النمط الأموي (كنيسة سان أندرس والمسجد الكنيسة المسمى سلبادور أو صحن دير سانتا كلارا لاريال)، وفي إقليم الأندلس نجد عقود الأديرة يمكن أن تكون بها عقود حدوية أو عقود مدبية وأخرى نصف أسطوانية درجة الانحناء فيها مرتفعة وخاصة في البوائك المرتفعة البناء.

نرى في بعض هذه الصحنون الأندلسية أن العقود المركزية للبوائك أكبر من الباقية، وأحياناً ما نجد ما أعلى أيضاً ويرتبط هذا بنمطية محددة وهي باثكة صحن الجص الموحد في ألكانار دي إشبيلية، وهذا من الأمور الشديدة الشيوع في البوائك الفاصلة بين الجزء المسقوف في المسجد والصحن، وأحياناً ما نراها في الصحن أيضاً في بوائكه الثلاث المعتادة؛ هذا النموذج المكون من أربعة عقود مركزية كبيرة، كمقدمة لصحن مسجد المهدية وكذلك صحنون أخرى بالقاهرة (مسجد الصالح طلائع ومسجد بيبرس، ق 12، 13 على التوالي). نراه أيضاً في المساجد الأموية الجامعة في كل من قرطبة ومدينة الزهراء وفي المسجد الجامع في تطيلة؛ أما في المسجد الجامع بالقيروان فلإننا نراه في البوائك القائمة بين حرم المسجد والصحن، وهذا يرتبط بعصر بني حفص (ق 13)؛ والشئ الغريب هو أن العقود الخاصة بالواجهات الأربع لصحن المسجد القيرواني مصحوبة بطنف فردي. ومردّ هذا في رأيي هو التأثيرات الأندلسية المتأخرة خلال القرن الثالث عشر.

وبالنسبة لكل من مسجد مدينة الزهراء ومسجد تطيلة هناك احتمال كبير في أنه كانت لها عقود حدوية ذوات طنف كل على حدة؛ وعندما ننظر إلى المسجد الجامع بقرطبة الذي تعرض لعملية إعادة تشكيل خلال القرن السادس عشر سوف نرى مجموعات من ثلاثة عقود تفصلها عن بعضها دعائم، ولكل عقد طنف، وهذا النموذج رأيناه قبل ذلك خلال القرن الرابع عشر في بعض مباني المدينة بما في ذلك عقود صحن

يقوم على صحنون من الأجر التي أضيفت بشكل عام إلى دور العبادة مصحوبة بهليز مفرد أو مزدوج في الجهات الأربع طبقاً للتراث والتقاليد المسيحية؛ وفي هذا الإطار نجد العقد الحدوي أو الحدود الحادة تفرض نفسها، وهذا الصنف أو ذلك من العقود يكون كل واحد مصحوباً بالطنف وخاصة في الطابق السفلي، وغني عن القول الإشارة إلى أن الدهليز ذا البوائك المزدوجة كان من النوع الذي لا نراه في المساجد، وبالنظر إلى الممارسة المدجّنة نجد فكرة الكنيسة وصحن الدير، وهنا نتساءل هل كان ذلك منبثقاً من المساجد الجامعة التي عادة ما نراها مصحوبة بالصحن قبل الصحنون الحجرية الخاصة بالأديرة؟ سوف نرى لاحقاً أن الأبراج المدجّنة كانت مصممة كأنها مآذن، فعقودها تحمل ملامح عقود المآذن، وبالتالي هناك تفاهم متبادل أو حوار قائم بين كلا الصنفين من الأبراج؛ ومن الأمور المؤكدة والتي تمت البرهنة عليها أن بعض بوائك صحنون المساجد كان لها عقود حدوية ذات طنف فردي، وهذا مؤكد في صحن مسجد القرويين بغاس ومسجد الأندلسيين بالمدينة المذكورة. وقد تمايشت هذه العقود مع العقود المرسومة بين الدعائم أو الكتاف Pilastrones، حيث ترتفع من على الأرض حتى تصل إلى نهاية الرفرف، وهذا توجه ذو تأثير موحد. هناك عقود ذات طنف فردي نراها في صحن مسجد لبلة Niebla وفي المسجد الصغير الخاص بقصبة شريش، وكذلك في صحن مسجد سلبادور في حي البيّازين بفنرناطة، وخلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر نجد المكان وقد احتلته الأسرة الموحدية الحاكمة وأصبح العقد السائد هو العقد الحدوي الحاد. أما بالنسبة للعقود الكائنة بين الدعائم فلا نجد ما في الصحنون المدجّنة، باستثناء باثكة صحن ماجدالينا في جيان، ولهذا أرى أن دار العبادة هذه ربما كانت إسلامية التأسيس؛ هناك حالات نموذجية نراها في بوائك صحنون صغيرة طليطلية وفي بوائك صحن دير جوادا لوبي (قصرش)، حيث نرى النموذج الأول

مسجد سانتا كلارا وبعض صحنون الحمامات المتأخرة، وبالنسبة للعقود الثلاثة، أي ما يسمى «بالثلاثي» البيزنطي، في الصحن الحالي للمسجد الجامع، نجد بعض الدارسين لهذا الأثر يرون أنها صورة طبق الأصل - مع بعض التعديل - لبوائك التي أدخلها عبد الرحمن الثالث خلال الفترة من 952 و 958م، أي أن ذلك، من الناحية النظرية، يعني قبول مجموعات العقود والطنف لكل عقد في شكل مجموعات خلال القرن العاشر، اللهم إلا إذا كان هذا الابتكار مصدره صحنون كنائس أو كاتدرائيات قوطية ترجع إلى القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ وإذا ما كانت الأمور على هذا الحال يمكن القول إن مساجد الأندلس خلال القرن العاشر كانت تحمل أصول البوائك ذات الطنف الفردي الذي عليه الصحنون المدجّنة التي أشرنا إليها؛ وقد سبق أن أشرت أن مثل هذه المجموعات بالنسبة لطليلة كانت تضم عقوداً حدودية أموية، أو ذات مركز واحد، وإذا ما وضعنا هذا في الحسبان مع ما سبق يمكن أن يقودنا إلى الاعتقاد بأن نمط الصحن المدجّن في هذه المدينة كان منبثقاً من صحنون المساجد المحلية التي زالت من الوجود، متخذين المسجد الكنيسة المسمى سلبادور، وأخذين في الحسبان أن صحن المسجد الجامع في المدينة كان لا يزال قائماً خلال القرن الرابع عشر، وظل كذلك حتى قام الأسقف بدرو تينوريو بإحلال الصحن القوطي الحالي محله؛ وإذا ما انتقلنا خارج طليلة نجد أن صحنون المساجد الكبرى ظلت مستخدمة حتى وقت متأخر، وفي هذا المقام سوف أشير إلى أن إحدى واجهات مسجد الباب المردوم (999م) تظهر لنا فيها، لأول مرة في العمارة الإسلامية، ثلاثة عقود كل له طنفه، وظلت مثل هذه العقود قائمة بأشكال مختلفة في أبراج الأجراس المدجّنة خلال القرن الرابع عشر وما بعد ذلك؛ وسوف نرى في إشبيلية - الفصل الرابع من هذا الكتاب - أنه، باستثناء صحن شجر البرتقال بالمسجد الموحدى الجامع، لم يصلنا أي شيء من هذا

المكان بالنسبة للمساجد الصغيرة، وربما كانت بائكة كنيسة سانتا ماريا دي قرمونة وكذلك بوائك - الصغير والكبير - في كنيسة سانتا كلارا دي موجير (ويلبة)، تتخذ نموذجاً لها بعض صحنون المساجد المتواضعة في إقليم الأندلس؛ نرى حتى هذه اللحظة أن التتابع بين صحن المسجد والصحن المدجّن أمر قابل للتصديق، ومع هذا يجدر أن نسلط الضوء على أن العقد ذا الطنّف الذي عالجناه بطريقة منعزلة أو بشكل مجمّع وكذلك انحناؤه المدبّب إنما يعتبر نموذجاً شائعاً في العمارة المرابطية والموحّدية، حيث نراه في نواهد ماذن كل من مسجد الكتبية ومسجد حسان بالرباط، ولاشك أنها نماذج للعقود التي نجدها في برج الأجراس المدجّنة في طليطلة.

توضح لنا اللوحات المجمعة 3-4، 4-6 ما تحدثنا عنه في السطور السابقة؛ ففي اللوحة الأولى: 1؛ الصحن الملحق بكنيسة سان أندرس بطليطلة (ق 13-14)، 2، 3؛ من دير سانتا كلارا لاريال في المدينة نفسها (ق 14-15)؛ 1-3؛ سانتا ماريا دي بيليث (ملقة) (ق 14-15)؛ 4؛ صحن دير سانتا كلارا دي بيليث (ملقة) وهو ذو تاريخ متأخر؛ 5؛ من الصحن الصغير في سانتا كلارا دي موجير (ويلبة)، 6؛ من دير الرابطة (ويلبة). 7؛ من دير جوادا لوبي (قصرش) (ق 14)، 8؛ دير أو صحن في إكستريما دورا؛ 9؛ صحن منزل أو قصر في أباديا (قصرش). وبالنسبة للوحة المجمعة 4-6، 1؛ صحن في عمارة غير دينية بمدينة الزهراء مع ملاحظة أن العقود المركزية هي الأكبر، 2؛ عملية إعادة بناء مقترضة لواحدة من البوائك في صحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء، وهي لا تختلف كثيراً عن صحن المسجد الجامع في تطيلة، 3؛ باثكة موحدية في صحن «الجص» في ألكانار دي إشبيلية، 4؛ بوائك في صحن سانتا ماريا (قرمونة)، 5؛ الصحن الكبير لدير سانتا كلارا دي موجير (طبقاً لجونثالث جومث)، 1-5؛ صحن صغير في الدير نفسه (طبقاً لجونثالث جومث)، A؛

هذا لانعدام وجود منارات تخرج عن هذا الإطار، وعادة ما نجد ما نجدها إلى جوار الجزء المستوف؛ في تونس نجد مسجد القصبة الذي أشرنا إليه ومسجد الهوا الذي يرجع إلى عصر الحفصيين، وفي محافظة وبلية ربما نجد مسجد المنستير؛ وهناك احتمال كبير أن يكون الأمر كذلك في إشبيلية في مسجد القياب الأربع؛ ويمكن أن تبقى تلك المنارات معزولة اليوم بعد زوال المساجد، مثل سان خوسيه دي غرناطة وسان سباستيان دي رنדה. نرى أيضاً مثذنة وحدها هي الخاصة بسانتياجو دل أرنابال بطليطلة، وهي دار العبادة التي ترجع إلى القرن الثاني عشر، وربما في المدينة نفسها نجد سان بارتولوميه. وبناء على ما نراه نجد أن في كل من إسبانيا وشمال أفريقيا ومصر كان من المعتاد أن تكون المثذنة إلى جوار الحائط الخارجي للمسجد، أما في آسيا فإنها معزولة عن الحائط وخارج الصحن. عند النظر إلى الخيراندا، نجد أن موقعها غريب بالنسبة للمسجد الموحد حيث تقع في الخط الفاصل بين الصحن والحرم، وربما لأن ذلك هو المكان الأمثل بالنسبة لوضع أساسات بنائها الأمر الذي يستحق منا أن نتأمله بعمق؛ وهناك ظاهرة خلال القرن الثامن تتعلق بمثذنة هشام الأول في المسجد الجامع بقرطبة وهي أنها كانت خارج المخطط، وبالتالي لم تكن تنوq أي انتقال للمصلين عبر البائكة الشمالية التي يفترض أنها كانت هناك، والشئ نفسه نجده خلال القرن التاسع الميلادي في مسجد ابن عبدس Adabbas في إشبيلية، وهذا خلافاً للقاعدة التي فرضها المسجد الجامع في القيروان ومسجد صفاقس، ثم يلي هذا المسجد القرطبي الجامع في عصر عبد الرحمن الثالث وكذلك مسجد مدينة الزهراء، ومسجد تطيلة، حيث نلاحظ في هذه الحالات الثلاث أن المثذنة بارزة من الداخل كلية في الصحن.

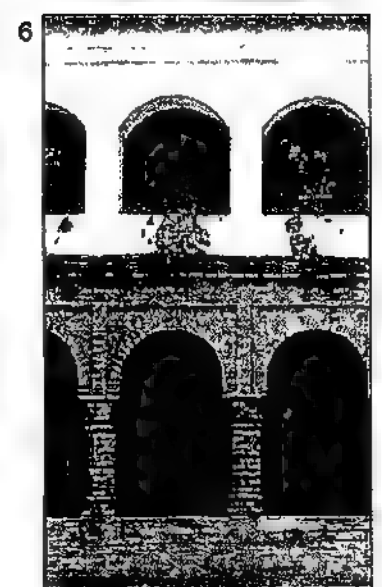
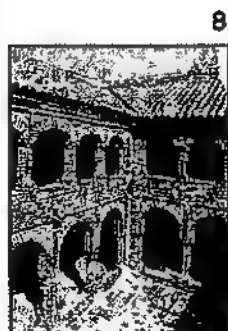
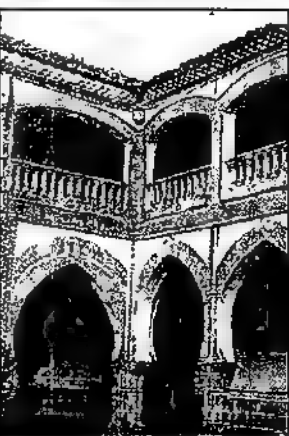
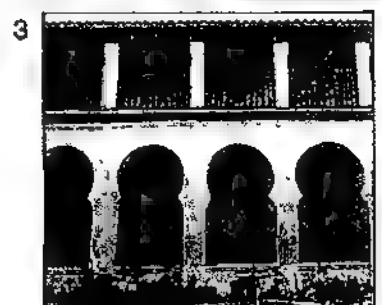
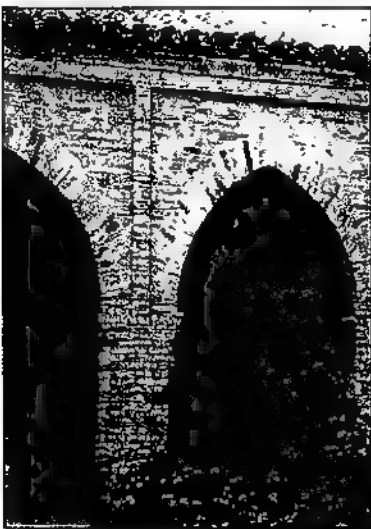
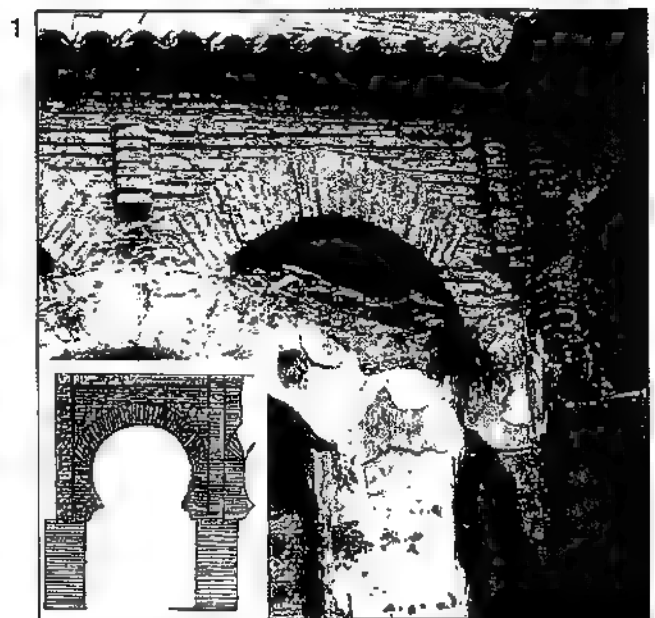
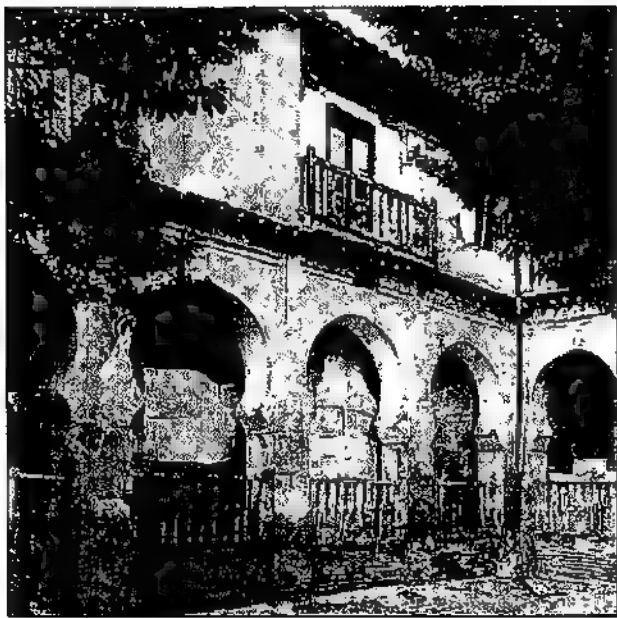
وعودة إلى وضع المثذنة في المسجد الجامع في قرطبة في عصر هشام الأول (وسط الحائط الشمالي

صحنون هي دير سانتا كلارا لاريال (طليطلة) (المقود أرقام 2، 3 من لوحة مجمعة سابقة، وهي تتعلق بالمخطط رقم 2 في الشكل B، 6: حالة فردية، عبارة عن صحن كنيسة ماجدالينا في جيان؛ وبالنسبة لعقود الصحن المذكور في سلبادور (طليطلة) نجد عقوداً ولكل طنف، انظر اللوحة المجمعة 1A-15 (الفصل الثالث).

3- الصومعة أو المثذنة،

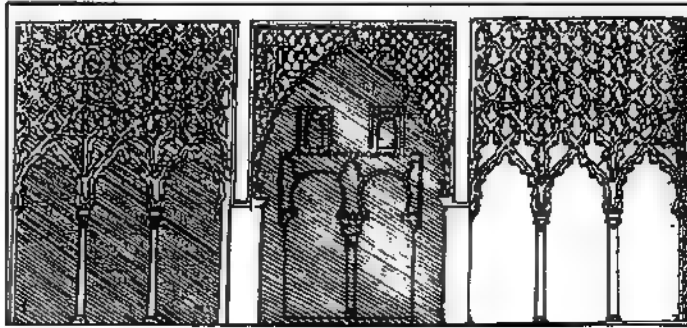
«المثذنة» هي اللفظة الأكثر شيوعاً اليوم بالنسبة لهذا المبنى الملحق بالمسجد، أما «الصومعة» فهي اللفظة التي كانت تطلق على المآذن الإسبانية الإسلامية؛ وفي معرض تعليق ديسوس لامار Dessus-Lamare على نص للإدريسي عن مثذنة المسجد الجامع بقرطبة، نجده يسلط الضوء على مصطلح «صومعة»؛ وعندما يتحدث من الارتفاع نجد المصطلح يتغير إلى «منارة»، وهذا الأخير أطلق في المشرق منذ القدم على أبراج الإشارات، وقد أمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان مسلمة ببناء صوامع، أي أبراج للأذان، وكان ذلك عام 636م (طبقاً للمقريري)، وعلى هذا فالاحتمال كبير في أن «الصومعة»، التي كانت تسمى أيضاً «بيت»، حيث كانت تشير إلى الطابق الثاني للبرج، وهو طابق به أربعة أبواب مخصصة للمؤذنين، ومن غير المستبعد أن يكون هذا الطابق مستخدماً لإقامة بعض المتصوفة (ل. جولفن).

يبدو أنه لم تكن هناك قاعدة مسبقة تتعلق بموضع المقارة، ومع هذا كانت منطقة الصحن هي الأمثل، ففي قرطبة (منذ ق 8) كان مكانها المفضل في مخطط المسجد هو الحائط الشمالي للصحن كما شهدنا، ونراها في إحدى الزوايا في المساجد الصغرى، وفي المساجد الجامعة نجدها عند منبت المحور المركزي للمبنى وإلى جوارها نجد الباب المسمى «باب الصومعة»، أي الباب الثاني والثالث للصحن، كما شهدنا، وهما بالقرب من

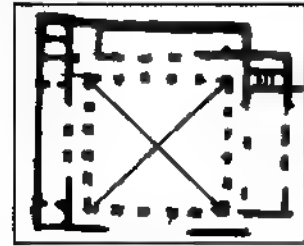


لوحة مجمعة 4-5:

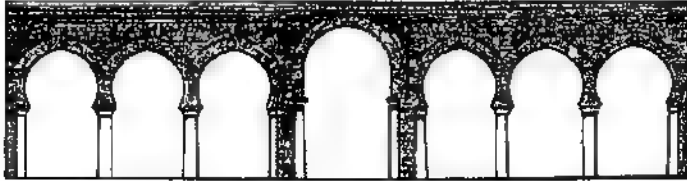
صحنون دور عبادة مسيحية، معادلة لصحنون المساجد



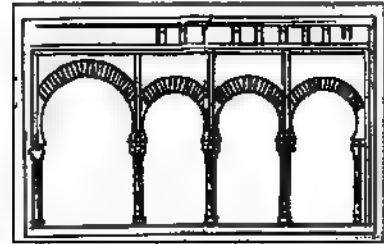
3



1

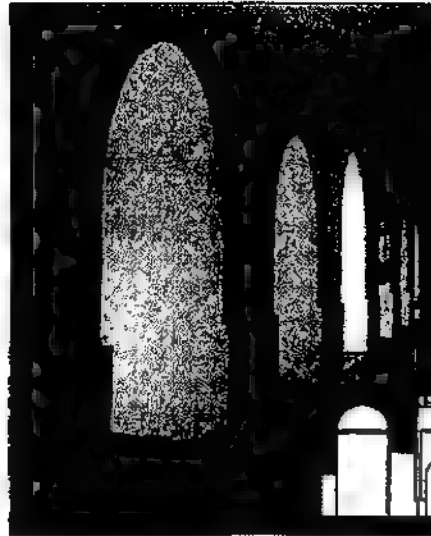
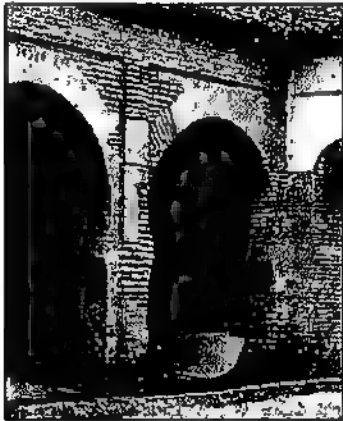


4

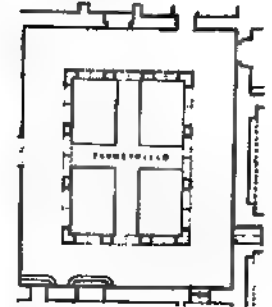


2

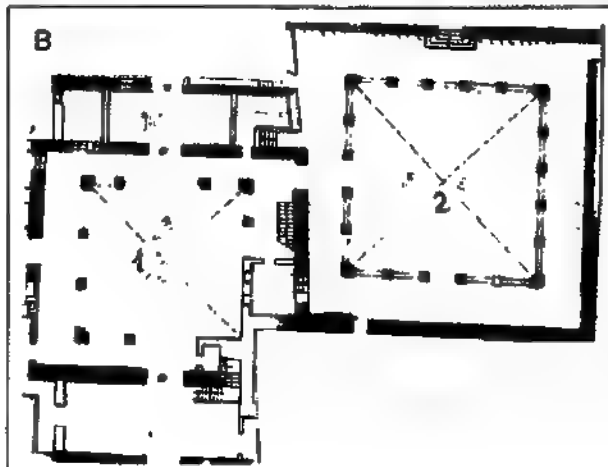
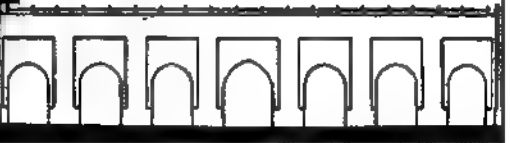
8



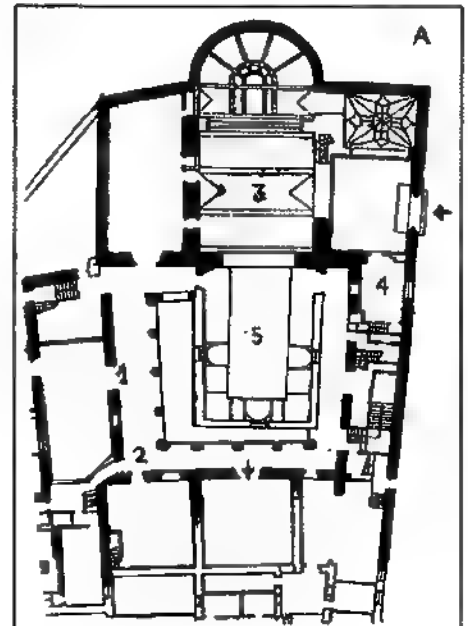
5



5-1



B



A

لوحة مجمعة 4-6 :
صحنون عربية وصحنون مسيحية



الذي يوضح أهمية المئذنة طبقاً للتفوش والتصوص التي كتبها المؤرخون العرب حيث يشيرون إلى أن هذا المسجد وهذه المنارة شيئا... (لوحة التأسيس خلال القرن العاشر عشر عليها في أركوس دي لافرونثيرا (قادش) وقرأ النص إيوخنيا جالبث). هناك لوحات تذكارية تخص المنارات وحدها، نجد واحدة منها في قرطبة عشر عليها بالقرب من كنيسة سان لورنثو في الجزء السفلي للبرج، وهو المنارة القديمة، ونرى في هذا النقش الذي قرأه ليفي بروقتسال ومانويل أوكانيا حديثاً عن بناء مئذنة وتشهيد سقيفة أو بائكة ذات زخارف جديدة بناء على أوامر مستاق Mustaq والدة المفيرة شقيق الحكم الثاني، ويرجع تاريخ اللوحة، طبقاً لأوكانيا خيمث، إلى ثلاثمائة ويضع سنين، وهذه القطعة توجد اليوم في متحف الآثار بقصبة ملقة؛ وفي إشبيلية نجد منارة المسجد الجامع لابن عبدس Adabbas، وبها لوحة تذكر بعملية ترميمها بعد الدمار الذي تعرضت له جراء زلزال، وقام بهذا المعتمد (1079م)؛ هناك المسجد الجامع بمدينة الزهراء حيث عشر على لوحة التأسيس خارج المكان، 945م (ب. بابون وأوكانيا خيمث)، نجد لوحة تأسيس أخرى لمئذنة بوركونا (جيان) ترجع لعام 1262م (كارمن بارثلي)، كما نجد لوحة أخرى في منارة المسجد الجامع في قصبة تونس (ق 13) (طبقاً لدولاتيلي).

عندما نتأمل عصر المتصور - عصر الموحدين - نجد أن المئذنة أخذت تبرز ضمن الإنشاءات الدينية، وانتشرت في أرجاء إمبراطوريته، طبقاً للمصادر العربية، المآذن والمساجد، وهذا ما جرى التعبير عنه بعد ذلك بـستوات في المسند لابن مرزوق فيما يتعلق بالمغرب (م.خ. بيجيرا)؛ وسوف نجد من الشائع أن هناك مآذن توجد بها لوحات عبارة عن ساعة شمسية محفورة ترافقها نقوش كتابية كوفية نذكر بأوقات الصلاة أثناء النهار؛ وهناك مثال على هذه الساعات يرجع إلى القرن الرابع عشر يوجد في إفريقية، حيث

وبارزة نحو الخارج) نجد أن موضعها يتوافق مع ما كانت عليه المئذنة في مسجد دمشق. وحول هذه النقطة نلفت الانتباه إلى أن المسجد الجامع بالقيروان كان ينظر إليه، حتى أعوام قليلة، على أنه يرجع إلى القرن الثامن وبالتالي فهو أسبق من مسجد هشام الأول بقرطبة؛ غير أنه في الفترة الأخيرة خرج علينا أ. ليزن يبحث يقول إن مسجد القيروان شيد عام 836م، وهذا التاريخ يرتبط بمسجد زيادة Ziyadat. وإذا ما كان الوضع هكذا فإن المئذنة القرطبية التي شيدها الأمير هشام الأول، هي الأقدم في المغرب الإسلامي، وهي الواقعة في وسط الحائط الشمالي للصحن، وربما تسبقها في هذا مئذنة مسجد دمشق. وعندما ننظر إلى مسجد القلعة التابع لبني حماد بالجزائر، وإلى مسجد حمّان، الموحدي، بالرباط، نجد أنهما يعاقلان على المحور الرئيسي للمبنى وبالتالي فإن موضع المئذنة هو وسط الحائط الشمالي للصحن مع بروز متساو نحو الداخل والخارج؛ وإذا ما شهدنا هذا الاتجاه مجسداً في مسجد الرباط، يحدث عكس ذلك بالنسبة لمئذنة مسجد القلعة الجزائري، حيث توجد المئذنة في أغلبها في الجزء الداخلي، في الصحن، وما بقي نجده في الخارج. وهذا النموذج يمكن ربطه بمئذنة المسجد الجامع بمدينة الزهراء. هناك بعض المآذن ذات وضع شاذ بالنسبة للمساجد التي فيها (المسجد الجامع في الجزائر ومسجد لبلة ومسجد الأندلسيين بفاس)، حيث من المعتاد أن تكون وجهة جزءي المبنى هي القبلة. ويلاحظ أن المئذنة كجزء أساسي في المساجد الجامعة كانت في صراع، من حيث موقعها، مع صحن المسجد نظر لسماتها الهيئية والزخرفية، فكان وجودها متفقاً عليه في المساجد الفربية ابتداء من القرن التاسع والعاشر في قرطبة، وهي مآذن ذات مساحات عبارة عن عقود صغيرة وبسيطة ذات طابع زخرفي أعلى القطاع الأول منها، تقليداً لما كان في واجهة محراب المسجد وللوابات الخارجية للجزء المسقوف من المسجد، الأمر

(ولاشك أنهما مبنيان متماثلان مع اختلاف المقياس) تمثل انتصار أهل السنة على الفرقة الشيعية المتمثلة في مساجد إفريقية التي أشرنا إليها، والتي كانت تمثل أيضاً نوعاً من التحذير للطائفة المستعربة وتبجيلها بتفوق الإسلام الذي يتعرض لقرع أجراس الكنائس والتي أخذت أصواتها تتزوي رويداً رويداً في المدينة، وكان هذا داخل السور كحد أدنى، وكان الأمر قد بدأ بإلغاء أبراج الأجراس خلال القرن التاسع الأمر الذي أثار ضيقاً وغيظاً شديدين عند المسيحيين، ومع هذا فخلال القرن الحادي عشر كان الهواء في المكان يحمل أصوات المؤذن وأصوات قرع الأجراس (هـ. بيرس)، وظل مثل هذا المشهد قائماً في مدن إسبانية إسلامية أخرى، ومن أمثلة ذلك مدينة مرسية عندما استولى عليها الملك خابمي الأول، إذ كان عليه أن يصد أذنيه ليلاً حتى لا يسمع أصوات الأجراس، التي أزيلت رغم احتجاج المسيحيين. هناك مثال آخر نجده في بلنسية في تلك الفترة الفاصلة بين السيطرة العربية المسيحية حيث نجد الكثير من المساجد مقارنة بقلة من الكنائس (ساينز أجييري)؛ ومن الواضح أن الموحدين المتشددين هم من كانوا يشعرون بضيق شديد من قرع الأجراس التي استخدمت في كثير من الحالات كمصاييح في المساجد؛ ويقول تورس بالباس أنه بعد عام 492م كان هناك الأذان وقرع أجراس الكنائس.

كان من الحتمي أن يكون مخطط المئذنة مريباً سواء في الأندلس أو شمال أفريقيا اللهم إلا أظهرت الدراسات اللاحقة عكس ذلك، وكانت مكونة من طابقين متراكبين ثانيهما أصغر من الأول، وارتفاع الطابق الأول يساوي ثلاثة أضعاف طول ضلع المربع عند القاعدة، أمام ذلك الجزء الخاص بالمؤذنين وهو الصومعة بالمعنى الحقيقي للكلمة - التي تعني في المشرق شيئاً آخر يتعلق بمكان الصوفي - ويبلغ ارتفاعه طول ضلع القاعدة، أي أن النسبة هي 1/4، وهذا ما نجده في المسجد الجامع بقرطبة وجامع القرويين بفاس (956م) (القرطاس).

الفتحة الرئيسية لتثبيتها في جسم المئذنة، إضافة إلى أخريات قرطبية، ولوحة أخرى ترجع إلى القرن الثالث عشر عثر عليها في ساجونتو (كارمن بارثلو)؛ كانت هناك ساعات شمسية أيضاً في جوار منارة المسجد الجامع في سهل غرناطة، حيث يطلع الساهرون على أمر المسجد على مواعيد الأذان (ابن الخطيب)؛ وفي عصر بني مرين - ق 14 - أضيفت إلى مئذنة مسجد القرويين في فاس، والتي ترجع إلى القرن العاشر، غرفة صغيرة لحفظ أدوات قياس الزمن والاتجاه، مثل الأسطرلاب والساعات وساعة مياه لحساب مواقيت الصلاة؛ في أترية نجد نقشاً كتابياً - 1137-1136م - يوجد الآن في معهد بلنسية دي دون خوان ودي مدريد، وهو نص تذكاري للأعمال التي جرت لزيادة ارتفاع مئذنة أحد المساجد عشرة أذرع، وهي أنشطة تمت تحت إشراف قاضي مسجد أترية أثناء حكم أبي محمد عبد الحق بن عطية الحاكم المرابطي، ويستهدف هذا العمل، طبقاً لما ورد في النص، أن يصل الأذان بشكل أفضل إلى المصلين، والتأكد من مشاهدة شروق الشمس (كارمن بارثلو)؛ غير أننا لا نجد حالة مماثلة في المآذن التي ظلت حتى أيامنا هذه؛ وعلى أساس ما ورد في النص فمما لا شك فيه أن المئذنة منذ أن أقيمت في قرطبة على يد الأمير هشام الأول كانت تمثل أفضل عناصر الدعاية والإعلان عن أن الدين الإسلامي هو دين حنيف، ويتجلى ذلك أيضاً في منطقة المحراب، حيث كان المحراب والمئذنة يقعان في المسجد كل في طرف مقابل للآخر (من الشمال إلى الجنوب)، فالمئذنة تعبر عن فرقة أهل السنة أمام فرق الشيعة الفاطمية، التي كانت ترى المئذنة على أنها رمز لا يمت للدين بصلة، فعلى سبيل المثال نجدها غائبة في مساجد إفريقية (المسجد الجامع في الزيتونة بتونس ومسجد المهدية بسوسة)؛ وكانت إقامة المئذنة الكبرى بالمسجد الجامع بقرطبة في عصر عبد الرحمن الناصر (952م)، وقبل سنوات قليلة نجدها مرسومة أو مخططة في مسجد مدينة الزهراء

مضبوطة، ونضيف إلى ما سبق جمالية النواخذ؛ وهناك نماذج من المآذن المحراب وقد أصبحت كتلة واحدة وهذا ما نراه في مسجد شمال وبورمادا في شالا Sale (هنري ترأس وباست) ومسجد سيدي رمضان بالجزائر (إي. هل ول. جولفن)، وعندما نتأمل المآذن الموحدية نجد من المهم الإشارة إلى المنارات الموحدية ومنها منارة مسجد منصورية في تلمسان الذي تأسس في عهد بني مرين فوق الباب الرئيسي للمسجد شمال الصحن مع وجود نقش أضيف عام 1308م. وقد تهدم الجزء العلوي من هذه المثدنة اللهم إلا إذا كانت منارة غير منتهية البناء. وعند الحديث عن الأندلس وعن أصول أنماط المآذن، نجد أنه من غير المستبعد تماماً أنها كانت تقليداً وهياً لأبراج دور العبادة المسيحية التي زالت من الوجود في المناطق الحضرية؛ وعلى أي حال نجد أن المثدنة (والمحراب والقبة) كانت تحمل الوظيفة والتنمطية التي نراها في المساجد المشرقية، وكان النموذج المشترك المتفق عليه بين الجميع هو فنارات العالم القديم التي تتسم بأنها ذات عمود مركزي Machon يدور حوله سلم حلزوني أو منحدر مائل، وهذا ما نراه من خلال وصف المصادر العربية، ومن أمثلة هذه الفنارات فنار الإسكندرية الأسطوري، وهو النموذج الذي قبل به بتلر و. ه. ثيرش H. Thiersch بناء على البنية التي عليها وهي البنية التدريجية، حيث ترى الطابق العلوي كأنه مقصورة للمؤذن. ومن المثير أننا نقرأ لابن الشيخ الملقب (ق 12) أن فئارة القاهرة كانت ذات طابق علوي على هيئة مسجد له أربعة أبواب وكأنه قبة، ويفيد النص أن إجمالي الارتفاع كان ضعف ضلع المربع أربع مرات وهو 30.60م، وهذه النسبة شديدة الشبه بما كانت عليه فئارة قبادش، التي جرى اتخاذها كنموذج للمآذن الأموية القرطبية؛ وإزاء الفكرة القائلة إن فنار الإسكندرية كان النموذج المتبع، نجد رأياً آخر طالعنا به أ. ليزن مؤخراً يرى فيه أن فنارات العصر القديم في الشمال الأفريقي (مثل ليبسس ماجنا وسلكتا الغير بعيدة عن مدينة

المهدية) هي النموذج القديم لمئذنة المسجد الجامع في القيروان. ما يعضد هذه النظرية هو أن المآذن الموحدية الرئيسية الثلاث المشار إليها تضم في الطابق الأول منها عموداً مركزياً (الذكر) به غرف متراكبة، وهذه البنية نجدها متكررة في قلعة بني حماد بالجزائر وفي جزء من منارة قصبة سوسة.

تتمثل البنية الداخلية للمئذنة الخاصة بالمسجد الجامع بقرطبة في وجود سلمين توأمين يفصلهما جدار عن بعضهما بحيث لا يرى الصاعدون في هذا السلم وذاك بعضهما إلا في الطابق العلوي (ابن عذاري) وقد تكررت هذه البنية في مئذنة مسجد مراكش المرابطي المسمى «علي بن يوسف» الذي هدمه الموحّدون والذي لم تصلنا منه إلا أساساته؛ وتكاد المآذن كافة تتوافق في وجود السلالم ذات السقف المقبب (نصف أسطوانتي) الصاعد دون أن تكون هناك في الزوايا تلك القباب - مثل مئذنة المسجد الجامع بالقيروان - المتعددة الأنماط، وهي عادة ما تكون قباباً مشطوفة de aristas. وفي داخل بعض المآذن في شبه الجزيرة الإيبيرية - مسجد القياب الأربع بإشبيلية ومسجد سان خوان دي لوس ريس دي غرناطة ومسجد أرشيث في ملقة - نشهد ذلك النموذج القيرواني. وبالنسبة لمار المسجد الجامع بالقيروان يرى أبرز الدارسين، في الوقت الحاضر، أنه لم يكن على الشاكلة الحالية المكونة من ثلاثة طوابق والتي تكررت في صفاقس، حيث يرى جولفن بالنسة لهذا الأخير أنه على غير يقين من وجود الطابق الثالث الحالي؛ ويبلغ ارتفاع الطابقين الأول والثاني في المسجد القيرواني 23 متراً، وهو يزيد بعض الشيء عن ضعف ضلع الطابق الأول الذي قدره كروزويل بـ 10.67م، وبالتالي فإن مقاسات النار تبتعد كثيراً عن القاعدة المتفق عليها بالنسبة لمئذنة المسجد القرطبي في عصر عبد الرحمن الناصر. وطبقاً لرسم يعود للقرنين الخامس عشر والسادس عشر لدوارتي دي أرماس، نجد أن مئذنة مسجد مرتولة (البرتغال) الموحدي كانت ذات ثلاثة طوابق، وربما

كان الأخير لوضع الأحراس عندما تحول المسجد إلى كنيسة تم تكريسها باسم عذراء أسونثيون N.S. de la Asuncion؛ وبالنسبة للمآذن ذات الطوابق الثلاثة، كل أصغر من الآخر، فلا بد أنه موروث من الفترات القديمة وهذا ما برهن عليه أ. ليزن في مقارنته الشيقة بين المنار القيرواني ومنارة سلكتا Salakta، وفي إسبانيا نجد المنار المكون من طوابق ثلاثة في فيسيفساء رومانية توجد بمتحف الآثار بطليطلة (انظر اللوحة المجمة 44 التي تضم المنارات والمآذن).

وبالنسبة للشكل الخارجي للمئذنة يلتفت انتباهنا ذلك المتعلق بالمسجد الجامع ابن عديس Adabbas (ق9) في إشبيلية وهو الذي أشار إليه كل من العذري والحميري في زمانهما (ق11، ق14) على أن له أعمدة في الزوايا الأربعة (ربما كانت تلك الخاصة بالطابق الثالث الذي تهدم من جراء زلزال وقع عام 1356م) وكانت هذه الأعمدة تصل إلى الجزء العلوي، وربما كانت تقتفي أثر الطابق الثالث في مئذنة مسجد صفاقس، الذي جرى تقليده في منارات متأخرة في أفريقية (مسجد قصر في تونس ومسجد باريرو Barbero بالقيروان)، وهنا نجد من المناسب الإشارة إلى ما أورده البكري حيث تحدث عن القصر القديم الذي يرجع للعام 800م، بالقرب من القيروان، وله مئذنة مستديرة البنية مشيدة من الآجر، لها أعمدة متراكبة في سبعة طوابق. كما يتسم المنار الإشبيلي بمخططه المربع ويدخله سلم حلزوني حول ذكر أسطوانتي، على نمط البرج القديم في رباط سوسة، ولا شك أن هذه البنية يبرز نظمتها تراها بوضوح في سان بيتال دي رافينا S.V. Ravenna (فيلكس إيرنانديث)، وتكررت في المآذن القرطبية في مسجد سان خوان وسانتياجو، ونراها، في أن، في مسجد لبلة ذي البرج المربع المخطط في الوقت الحاضر (ألفونسو خيمينث) وفي مسجد المنستير في ويلية (فيلكس إيرنانديث). هناك مئذنة مشابهة ظهرت خلال السنوات الأخيرة

في ملقة حيث تقيد دور صناعة السفن بها من رعاية مثذنة مسجد قريب (طبقاً لجيبن رويس)، وفي منطقة ألمرية نجد أن سكان بلدة صغيرة حصلوا على تصريح بإقامة مرقب حراسة حربية في الجزء العلوي للمثذنة؛ ويلاحظ أيضاً أن المصليات الصغيرة أو ذات الطابع الخاص أو ما أشبه ذلك لا تتوفر على مثذنة، ففي أفغانستان نجد مسجد Magid-I Tarih Balk ومسجد بوفتاته في سوسة. وفي البداية، نجد مسجد القيروان ذي الأبواب الثلاثة، وفي طليطلة نجد مسجد الباب المردوم، والمسجد المتأخر تاريخياً وهو مسجد تورنرياس؛ وعلى ما يبدو لم يكن لمسجد فينيانا مثذنة (ألمرية) (ق13). وعودة إلى وجود المآذن في المساجد من عدمه نجد بلوم Bloom يشير إلى أن المثذنة أفرقتها فرقة أهل السنة كطريقة إسلامية شاملة رداً على الفاطميين الذين لم يقبلوا بها؛ ويقول ل. جولفن أنه في بداية العصر الإسلامي كان الأذان يتم من على سطح أحد المنازل، وهذا ما يؤكد نموذج مسجد الرسول محمد، الأمر الذي يمكن أن يكون مؤكداً في مساجد أخرى متواضعة في الأندلس، وخاصة في المراحل الأولى للغزو؛ وإذا ما كان الكثير من الكنائس السابقة على زمن الغزو تقتصر للأبراج فإن المساجد الأولى سارت على النهج نفسه، ومن أمثلة ذلك مسجد فينيانا الذي استمر النموذج لكن مع مرور الزمن أصبح استثناء وليس قاعدة.

عندما نتحدث عن بناء المآذن، نلاحظ أن أقدمها (ق8-9) كان يشيد دائماً بالحجارة، أي بالكتل الحجرية المنتظمة الأبعاد، وقد حل الأجر محل هذه المادة ابتداء من القرن الثاني عشر باستثناء منارة مسجد الكتبية ذات الكتل الحجرية غير المنتظمة (الديش) ومثذنة حسان بالرباط المشيدة بالكتل الحجرية شبه المنتظمة الأبعاد، وعلى شاكلته جاء مسجد رباط تيط (المغرب) والمسجد الجامع بقصبة عدية بالرباط، ومع هذا فهناك بعض المآذن التي شهدت خلال ذلك القرن بالطوب

في جيان، وهي مجاورة لحائط متجه من الشرق إلى الغرب، غير بعيد عن كنيسة سان خوان (م. دل كارمن بيرث ويولندا خيمنت مورياس وخوانا كاتوا) حيث نجد هذه السمات كلها، ولو أنها يعتريها بعض الغموض. في مسجد قسطنطينية بالجزائر، غير أنها أكثر وضوحاً في بعض مآذن القاهرة مثل مسجد الحاكم بأمر الله (1027-996م) (كروزيل). وقد ظلت المثذنة ذات السلم الحلزوني قائمة في مساجد مشرقية في تركيا حتى فترة متأخرة؛ وهنا لا يجب أن ننسى ذلك النموذج الذي أشار إليه م. جومث مورينو وهو الخاص بالسرداب القديم في جابيا لاجراندي (غرناطة)، ويمكن الوصول إليه من خلال سلم حلزوني، وهذا هو النموذج الوحيد المعروف في إسبانيا، حيث يتسم بالندرة خارج هذا السياق في الزمن القديم. غير أن هناك استثناء وهو أن المسجد الجامع بمدينة الزهراء قد جرت به حفائر عام 1964م وأدت إلى ظهور مخطط المثذنة المربع من الخارج والجزء الداخلي مئمن له ذكر (عمود) مئمن أيضاً مع وجود بعض الدرجات (بابون مالدونادو).

ويفض النظر عما جرى وصفه حتى الآن نجد أن المنارة لم تكن ضرورية ضرورة مطلقة، فكما أشار تورس بالباس يمكن أن يقوم أي برج مجاور بمهمة الأذان، ومن الأمثلة الدالة على ذلك ما نجده في برج المسجد الجامع بقرطبة على أيام عبد الرحمن الداخل، حيث جرت الإفادة من أحد الأبراج الخاصة بالقصر المجاور، وظل الأمر كذلك حتى تولى ابنه هشام الأول إقامة المثذنة في الجدار الشمالي للصحن؛ أضف إلى ما سبق هناك مساجد ضخمة في الشمال الأفريقي ليس لها مثذنة وهذا ما شهدناه في مسجد المهديّة الجامع وفي سوسة، وربما يرجع السبب بالنسبة لهذه الحالة الأخيرة أن المبنى قريب جداً من الرباط المزود ببرج مثذنة للنداء للصلاة سواء للمسجد الجامع أو المسجد الصغير الذي يوجد بداخله لتؤدي فيه الحامية شعائرها الدينية؛ ويمكن تسجيل واحدة من الحالات

ماريا دولورس أجيلار جارثيا وهي: ديمالوس Daimalos وبينياكي Benaque وكورامبيلا، وأريئاس دي بيليت... إلخ. وكل ما ذكرناه حتى هذه اللحظة من مآذن كانت مشيدة من الآجر باستثناء مئذنة مسجد سان خوسيه بفرنطة والجزء السفلي في مئذنة المسجد الرندي، من الحجارة، كما أنها تقتصر للطابق الخاص بالمؤذنين الذي حل محله مكان ليرج الأجراس.

وبالنسبة لي، فيما يتعلق بهذه النقطة الأخيرة، فإن الأندلس قد شهدت مآذن مثل هذه في مساجد متواضعة وهي مآذن من طبقة واحدة حيث يقف المؤذن دون سقف فوقه للدعاء للصلاة، ومن الأمثلة الشائعة في هذا مئذنة مسجد رباط تيط ومسجد القياب Cuatrohabitاس في إشبيلية، حيث لا يتوافر الطابق الثاني لأي من هذين، وهذا ما شهدنا في هذا السياق بالنسبة للعلاقة بين المحراب والمئذنة في مسجد شمال ومسجد ساليه Sale، وهي مئذنة شبه زائلة من الوجود ومعزولة في تلمسان، إضافة إلى مسجد القرويين بفاس (ق 10) حيث تم الاستغناء عن السقف شبه المقبب؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر، نحن نعرف أن مكان المؤذن في بعض المنارات المغربية جرت إضافته في فترة لاحقة وبعد زمن طويل أحياناً من بناء الطابق الأول، ومن الأمثلة الدالة على ذلك مئذنة المسجد الجامع في قصبة عدية بالرباط، ولا زال منار زاوية شالاً قائماً بالمدينة نفسها، دون أن تشير إلى مآذن جاءت بعد ذلك في توزور (تونس) أسسها المورييسكيون الإسبان الذين هاجروا (ق 17) وهي تقتصر إلى الطابق الثاني؛ وإزاء هذه النظرية الخاصة بأبعاد المآذن نجد تلك الخاصة بالمآذن التي شهدناها في البداية في كل من الأندلس والشمال الأفريقي 1/4 (بالنسبة للطابقين)؛ وهذا ما نراه في مسجد القياب Cuatrohabitاس ورباط تيط ذوي الطابق الواحد؛ كما أننا إذا ما حللنا بدقة ما عليه المآذن الأندلسية أو الأبراج التي تتوجها طوايق حديثة لوضع الأجراس، نجد أن النسب نفسها قائمة

(اللبن) أو الطابية. وتشير الحوليات العربية (ق 12) إلى أن مراكش كان بها مسجد ذو منارة من الطوب اللبن (مسجد صومعة الطوب) (الحويشي A. Huici)؛ غير أن منارة مسجد بني مريم في تلمسان المسمى المتصورة هي من الحجر (ق 14)، كما لانعدم منارات حجرية في مسجد مشيد من الآجر سواء الصعن أو الجزء المسقوف منه وهذا ما نراه في المسجد الجامع الأميري في بلبوس، في عهد الأمير محمد الأول أو عبد الله (ق 9) (البكري)؛ وفي الخيرالدا ومنارة المسجد الجامع في أغادير (1283-1236م) (تلمسان) نجد أن البناء بالكامل من الآجر، وقد أقيم فوق وزرة صلبة من الكتل الحجرية، على شاكلة منارة المسجد الجامع بالقيروان، وهذا نموذج مطبق على الأبراج المدججة الأولى في طليطلة وأرغن وربما كان هذا ميراث من المآذن المحلية؛ وليس من السهل القول إن الأبراج المدججة المشيدة بعد الفزو المسيحي هي مثل المآذن، وهذه الرؤية - المماثلة - هي الشائعة في مدن مثل إشبيلية أو طليطلة، ذلك أن مواد البناء والعناصر الزخرفية في أغلبها كانت عربية محلية؛ ومن المنارات التي بقيت في المدينة نجد الطابق الأول والرئيسي للخيرالدا الذي بلغ 50,85م ارتفاعاً، وكذلك جزء من الطابق السفلي لمسجد ابن عبدس Adabbas (ق 9)؛ وفي طليطلة نجد أن المئذنة الوحيدة التي ظلت - مشيدة من الكتل الحجرية - هي التي في مسجد سلبادور (ق 10)؛ وفي المدينة نفسها نجد الأبراج المشيدة من الآجر والدبش في مسجد سانتياجو دل أزابال وسان بارتولوميه وسان أندرس، حيث جرت الإفادة منها لتكون أبراجاً في كنائس مدججة، وثلاثتها مشيدة من الدبش المصحوب ببعض المداميك من الآجر. ومن بين المآذن الصفري نبرز مئذنة مسجد سان سباستيان دي رنده، وفي غرناطة نجد مئذنة مسجد سان خوسيه، وسان خوان دي لوس رييس، وفي محافظة ملقة نجد كلاً من مئذنة مسجد سالارس وأرشيث، ويلي هذه مآذن أكثر بساطة لكنها مثيرة للجدل، درستها

هو نقطة البداية لاتجاه ينحو إلى زخرفة الجزء العلوي للطابق الأول بواسطة قطاع من العقود الصغيرة المتشابكة شاع استخدامها في الأبراج الطليطلية المدجّنة ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر، وفي إشبيلية نجد استثناء يتمثل في برج سان ماركوس، وبذلك تكون هاتان المدينتان مترعتين يذكرى عريية لا تنسى أحياناً ما نلاحظها حتى في الأبراج المتأخرة خلال القرن السادس عشر. وننتقل إلى أرغن لنجد الأبراج المدجّنة، أتيكا وبلموني، وقد اتسمت بأنها تضم طابقين أحدهما أكبر من الآخر، وللهذه الأولى بيدوان كأنهما مآذن وخاصة إذا ما وضعنا في الحسبان أن الطابق الأول تتوّجه تلك الأقواس الزخرفية المتشابكة والتي لا تتكرر في أبراج أخرى في المنطقة باستثناء برج سانتياجو دي دروكة.

هناك بعض السمات المعمارية التي تسترعي الانتباه في مآذن تثير الحيرة، ففي المقام الأول نرى أن الطابق الخاص بالمؤذن - استناداً إلى ما نراه في المسجد الجامع بالقيروان والمسجد الجامع بصفاقس - له شكل كأنه مكان رباط أو قبة (ضريح)، وسوف أعرض لذلك لاحقاً، وهذه السمة المعمارية عبارة عن مبنى له أربعة عقود، واحد في كل جانب؛ وهذا يدفعنا إلى التفكير فيما إذا كان صحيحاً القول إن المئذنة خلال الأعوام الأولى للعصر الإسلامي في المشرق كانت مأوى للزهاد والمتصوّفة؛ ومن الشواهد التي تشير إلى هذا ما ورد عند بعض كتّاب الحوليات والرحالة العرب، وبالتحديد ابن شيخ، من أن الجزء العلوي لفنار الإسكندرية كان به مسجد له أربعة أبواب، على شكل قبة، وهو بناء إسلامي شديد التكرار في مختلف أنحاء بلاد المشرق ويمتد حتى يصل إلى أقصى مكان في البرتغال، وهو ترحال منطقي لأن لهذا المبنى وظائف متعددة أبرزها الطابع المقدس سواء كان متعلقاً بأحد الأولياء أو صومعة للزاهد؛ وفي هذا السياق نرى منطقيّة الإلحاح الموحّدي في الإكثار من الغرف الموجودة في قلب المآذن الكبرى مثلما نرى في الكتبية ومسجد حسان بالرباط والخيرالداء، وكأنها

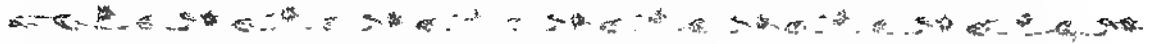
إذا لم نأخذ ذلك التجديد في الحسبان، وتدخل في إطار هذا المنظور الأبراج الطليطلية المدجّنة المتراكمة خلال المرحلة الأولى، وهي سانتياجو دل أزابال وسان يارتولوميه وسان أندرس، وثلاث مآذن تمت زيادتها بطابق خاص بالأجراس مثل برج سان نيكولاس بمديريد، وهذا البرج، بدون الطابق المخصص للجرس، يلتزم الأبعاد 1/4 نفسها. وعندما نتأمل الأبراج المدجّنة اللاحقة، آخذين في الحسبان الطابق الأول دون غيره من إضافات، نجد أن الأبعاد المذكورة هي المسيطرة على الموقف، ويدخل في هذا السياق بعض المآذن الجزائرية خلال عصر عبد الوديد، وهي مآذن درسها رشيد بورقيبه Bouraouiba، وتتراوح أبعادها بين 1/4، 1/5، وهناك مثال غريب لبرج مدجّن يرجع إلى بدايات القرن الرابع عشر وهو برج سان ماركوس، الذي كان في البداية بدون طابق مخصص للأجراس وكان شكله هو المألوف في المآذن الموحّدية، وربما كان له طابق ثان أصغر حجماً يماثل ذلك الخاص بالمؤذن وجرى تأهيله لتكون به الأجراس، ثم حل محله ذلك الطابق الحديث الذي نراه اليوم. ربما نجد نقطة البداية بالنسبة لكل هذه الملاحظات في قرطبة، وبالتحديد في البرج المئذنة الخاص بالمسجد الذي يقع في شارع Rey Heredia، وهو اليوم دهر سانتا كلارا، وقد جرت تلمية البرج خلال العصر المسيحي باستخدام الحجر ليمائل البناء الذي يرجع للقرن العاشر؛ وطبقاً لما نراه عليه اليوم فإنه يضم طابقاً علوياً أملساً يلفه من أعلى ومن أسفل شريط من الشرفات المديّية الحادة من الصنف الخلافي، ويجب أن نبرز أن البناء - على ما يبدو - لم يكن له طابق ثان سواء كان مخصصاً للأبراج أو لغرض آخر، أي أنه إجمالاً برج مكون من طابق واحد (انظر الفصل الثاني - اللوحة المجمع 79)، ويتأخي في الشكل مع مآذن كل من مسجد القباب الأربعة ورباط تيط.

كان نموذج المئذنة القرطبية (المئذنة الأميرية سان خوان والمسجد الجامع الذي يرجع إلى القرن العاشر)

من خلال الرسوم أو اللوحات المسيحية المتأخرة، مثل تلك الخاصة بالمسجد الجامع في ملقة ولوحة مسجد غرناطة، ما هي إلا صور دخل عليها الكثير من التحوير في الحالتين المذكورتين حيث توجد لها أقبية غير معتادة بعض الشيء؛ كما أن اللوحات الخاصة بالخيرالدا، ابتداء من القرن السادس عشر، لا توحى بأية أسقف مقبية، والشيء نفسه يندرج على المقبرة الكبرى في المسجد الجامع بقرطبة. ويقول منذر Munzer في معرض وصفه المسجد الجامع بقرطبة خلال القرن الخامس عشر، بأن المؤذنين كانوا يصعدون إلى أعلى المآذن في مواقيت الصلاة ويؤذنون وأحياناً يظلون يؤدون صلواتهم لمدة ساعتين.

ومن الأسقف الجديدة بأن نذكرها تلك الخاصة بالسلالم الحلزونية لبعض المآذن وقد كانت، حسب ما شهدنا، عبارة عن أسقف نصف مقبية وأخرى بيضاوية أو مشطوفة aristas في بسطة السلالم. ومن الأسقف التي تتسم بالبساطة نجد سقف سلم مسجد سان خوسيه بقرطبة (ق 10) حيث نجد الكتل الحجرية مستوية ومتدرجة كما أنها مكففة في كل من حائط البرج وفي العمود الأوسط (الذكر)، أي أنها سلالم مقلوبة مكونة من درجات قابلة للنقل، ثم نجدها وقد تكررت هذه المرة من الخشب في البرج المدجج سان نيكولاس بمدير (ق 12)؛ ويمكن أن نشهد هذا النموذج، ولكن من الحجارة، في سلم مئذنة مسجد سانتا كلارا القرطبي (ق 10). هناك سقف آخر مهم ومثير للحيرة بسبب أصوله غير المعروفة ألا وهو السقف المكوّن من أقبية فالصو ثم التوصل إليها من خلال ترتيب الداميك من الأجر المشققة في الحائط، وهذا النمط نجده في العمارة الإسبانية الإسلامية في غرفة Hypocaust في حمامات مدينة الزهراء، ولكن دون أن يصلنا مثال واحد عن استخدامه في المآذن باستثناء مئذنة مسجد قسبة الجزائر، والذي ربما يرجع إلى عصر متأخر للغاية. وبالنسبة للأبراج نجد أن معرفتنا بهذه البنية المعمارية ترجع إلى بعض

صوامع للزهاد لها باب واحد؛ وقد انتقلت هذه التجربة إلى بعض الأبراج المدجّنة في أرغن وإلى برج آخر في مدريد. ويبلغ إجمالي هذه الصالات أو الغرف ست أو سبع، وكل سقف مقبى مختلف. وما أهدف إليه الآن هو البحث عن البعد الوظيفي لهذه الحجرات، فقد كانت في فتارات المصور القديمة بمثابة مغازن للخشب المستخدم في الوقود في أعلاها ليلاً، أما في المآذن فهي صوامع للمؤذنين يتعبدون فيها وللخدم أو رجال الدين الإسلامي الذين ربما يبقون هناك انتظاراً للمآذن التالي، وفي هذا المقام تلفت الانتباه أن أعلى مئذنة مسجد الأندلسيين في فاس يضم مساحة مخصصة لعشرين مؤذناً يقومون ليلاً ونهاراً بتبادل النداء إلى الصلاة في مواقيتها؛ وهنا نذكر أن ابن عذاري أشار إلى المسجد الجامع الذي أسسه عبداً لرحمن الناصر وتحدث عن المئذنة وعن القبة التي يقف أمامها المؤذنون يوم الجمعة؛ ويرى ج. أمادور دي لوس ريوس أن مثل هذه الإشارة من ابن عذاري ربما كانت تشير إلى المئذنة الخلفية وليس إلى المقود أو قباب الجزء المسقوف في المسجد. وإذا ما كان صحيحاً وجود بعض المؤذنين من الفسقة وهم بعض هؤلاء الذين كانوا من أعلى يتجسسون على الناس وهم في الحمامات أو يطالعون على عوراتهم (يدرو شالينا) فالواقع أن هؤلاء المؤذنين كانوا من الخالصاء في تديّنهم، ومن الأمثلة الجديدة بذلك للتدليل على ما نقول برج الخالف في قسبة سوسة (ق 9)، وقد رسمه أ. ليزن و ل. جولفن؛ يضم البرج غرفة في المركز ولها كوة محراب، وتكرر هذه الحالة في برج الطلائع الضخم في جبل المينا في سبتة الذي يرجع إلى عصر المرابطين (طبقاً للأنصاري)؛ ومن الأمور الشائعة أيضاً أن هذه المنشآت، في المشرق وشمال أفريقيا، كانت لها أسقفها، وظلت تلك الأسقف ذات انحناءات قوية بدلاً من السقف الجمالوني الذي كانت عليه المآذن في الأندلس؛ وفي هذا المقام لم تصلنا أية صورة فعلية لمئذنة أندلسية كاملة، فتلك التي نعرفها



شمال شبه جزيرة إيبيريا. وكخلاصة لكل ما عرضناه حتى الآن يمكن القول بأن المئذنة الكبرى التي شيدت في المسجد الجامع بقرطبة في عصر عبد الرحمن الثالث، وكذا المئذنة التي سبقتها، وهي الخاصة بالمسجد الجامع بمدينة الزهراء تعتبر أول برج معروف لمسجد إسباني إسلامي داخلية في السياق الفني للمسجد، فمن واجهات المسجد أخذت المآذن العقود الزخرفية المذكورة التي تتوج الطابق الأول. وهنا ترى أن نموذج المئذنة القرطبية يضم واجهات زخرفية مقارنة بما تظلو منه مئذنة المسجد الجامع في القيروان.

وبعد عصر الخلافة القرطبية لا نعرف شيئاً عن المآذن إلا من خلال لوحات هيلان Heylan (ق 17) ومنها مئذنة سان خوسيه (رغم أن جومث مورينو يقول بأنها ترجع إلى القرن العاشر) والمئذنة التي زالت من الوجود وهي الخاصة بالمسجد الذي كان مقاماً في سهول غرناطة، وهي مآذن تظلو من أي زخرف (9). وهذا أمر غير موثوق به في نظري ذلك أن المئذنة الأولى تضم - في حقيقة الأمر - في أحد أضلاعها عقداً حدودياً نافذة تقع في منتصف الطابق، ومركزية المكان في الضلع الجنوبي، وهذه يمكن أن تكون بمثابة نموذج رابع في باب تصنيف المآذن. وإذا ما قبلنا اللوحة التي رسمت «معركة إيجرويل B. de Higuera» في الأسكوريال، والتي تضم مبنى زال من الوجود لمسجد جامع في غرناطة، فإن مئذنته تضم صفيين رأسيين من النوافذ البسيطة في أضلاعها الأربعة؛ وتكرر هذه في الطابق الثاني الخاص بالمؤذن، وهي مئذنة يصعب تصنيفها في الإطار الذي نعمل على تحديده ملامحه؛ وهنا نتساءل: هل كانت هناك في واقع الأمر مآذن ذات حوائط ملساء وبدون نوافذ؟ إن مئذنة جامع سليمان في طليطلة لها هذا الشكل، حيث نجد فقط نوافذ ذات عتب وأخشاب غير متقنة القطع في ضلعين من أضلاعها مثلما هو الحال في مئذنة القلعة الجزائرية، أي الفتحة الضرورية لإدخال الضوء إلى السلم، وربما

يبدو أن كل واحدة منها مكونة من تسعة عقود متواجدة في مآذن المساجد الرئيسية وكذلك في الأبراج المدجّنة الطليطلية على امتداد تاريخها. وتظل النوافذ المذكورة على المستوى نفسه في أضلاع المئذنة كافة، وهنا نلمح أن القاعدة الأساسية للمآذن الصغيرة هي وجود نوافذ ذات عقود توائم مطموسة، غير أنها مفتوحة فقط في الضلع المتجه إلى الجنوب الأمر الذي يقودنا بشكل ما إلى ذكر المئذنة الخاصة بقلعة الجزائر؛ وعندما نقارن ما عليه المئذنة الكبرى في مسجد قرطبة من زخارف ثرية بمئذنة مسجد القيروان تتضح لنا ما عليه هذه الأخيرة من بساطة زخرفها حيث نجد نوافذها غاية في البساطة لكن لا تظلو من جمالية مقبولة، وهي متراكبة على المحور المركزي للواجهة المطلة على القبلة، مثلما هو الحال في مئذنة القلعة الجزائرية، أما الأوجه أو الأضلاع الأخرى فتجد فيها مزاغل بسيطة ذات نمطية حربية. وتعتبر كل من مئذنة المسجد الجامع بقرطبة ومئذنة مسجد القيروان من العناصر المهمة في إطار الجهد الخاص بتصنيف هذا العدد الهائل من المآذن، والتي تتسم بالبساطة الشديدة في مساجد الأرباض أو الأحياء، متخذين في هذا نموذج مئذنة مسجد سان خوان بقرطبة (ق 9)، ففي القطاع الخارجي لها نجد نافذة ذات عمود في الوسط تقع في منتصف الطابق الأول وعلى مسافة قليلة من قطاع العقود الزخرفية المتراكبة التي تتوج نهاية الطابق الأول؛ وهنا لا يجب أن نفعل الإشارة إلى مئذنتين تحملان تأثيراً أندلسياً وهما مئذنة مسجد القرويين بفاس ومئذنة مسجد ابن طولون بالقاهرة حيث نجد أعلى الطابق أو في منتصفه النوافذ ذات العمود في الوسط من النمط القرطبي، ولكن دون شريط العقود الزخرفية المتراكبة؛ ومن جانبه درس فيليكس إيرنانديث واجهات المئذنة القرطبية الكبرى كمصدر إلهام لعدد هائل من الأبراج التي منها نذكر تلك المدجّنة في المنطقة التابعة للتأثير الطليطلي، وكذا أرغن والأبراج المسيحية المشيدة من الحجارة في



تكرر ذلك النمط في مئذنة مسجد سانتا كلارا بقرطبة، حيث سبقت الإشارة إلى أنه تمت تعليلتها من المنتصف على يد المسيحيين.

نتقل بعد ذلك إلى القرن الثاني عشر، أي إلى عصر المرابطين والموحدين، فنجد أنه لم يتبق في الأندلس إلا الخيرالدا ومئذنة مسجد القياب الأربع، وهاتان المئذنتان تشكلان، مع مآذن أخرى على الطرف الآخر من مضيق جبل طارق (مئذنة مسجد الكتبية ومئذنة مسجد حسان بالرباط ومسجد القصبة بمراكش)، اتجاهاً تجديدياً فريداً، مع استمرار الخط الذي عليه مئذنة مسجد تازا (1141م - 1142م) وتعال (1156م) حيث السمة الأساسية هي البساطة والتواضع. وفي المساجد الأولى كافة نجد النوافذ ذات الأعمدة في الوسط، تحتل المنطقة المركزية في الضلع مع توجه واضح في تنويع النوافذ في الأضلاع الأربعة، وهي تختلف في مكانها من الطابق بين ضلع وآخر وذلك لأغراض الإضاءة الداخلية، كما أنها متوجة بعقد زخرفي كبير من الصنف المسمى Lambrequin (ورق الأكانتوس) وتشبه هذه العناصر مجتمعة ما عليه العمارة الملكية التي نجدها في بوائك الصحن والجمالون الموحدي، حيث نجد أن العقد المركزي للبائكة يفسح المجال لعقدين أو ثلاثة لباب المجلس الكائن في العمق (بائكة صحن الجص في ألكاثار دي إشبيلية) ورغم هذا يمكن أن يكون أصل النافذة ذات العمود في الوسط هو المآذن الصقلية التي ربما جرى تقليدها خلال القرن الثاني عشر في الأبراج الصقلية النورماندية. وهذا الصنف من التجديد جدير ببرج مسجد الكتبية الذي يعتبر أول منارة موحدية ضخمة (1163م)، وبشكل جزئي نجد الشيء نفسه في مسجد حسان (1197م) وهو آخر برج، بعد الخيرالدا خلال العصر الموحدي. وفي هذين المثالين الأخيرين نجد ابتكاراً إضافياً من الموحدين، هو مجموعة العقود المقصصة التي يعلوها ما يشبه الضفيرة المفصصة

أو المتعددة الخطوط أو المعينات، وهذا نموذج نراه في مختلف تجليات العمارة الموحدية الإسبانية الإسلامية والمغربية؛ وعندما نتأمل الخيرالدا من الخارج نجد أنها تختلف عن باقي مآذن القرن الثاني عشر من حيث توفرها على ثلاثة أشرطة رأسية، وكأنها حوامل أيقونات، أو سطها تشغله النوافذ ذات العقود التي نجد بداياتها في مسجد الكتبية، ثم على الشريطين الجانبيين اللذين يضمّان المعينات، ومن المعروف سلفاً أن هذه العناصر تتعلق فقط بالنصف العلوي للطابق الأول للبرج، بينما النصف السفلي لا يضم إلا مجموعة مركزية من النوافذ من أنماط متعددة؛ هذه الثنائية رأيناها في واقع الأمر في المئذنة الكبرى التي ترجع إلى عصر الخلافة في مسجد قرطبة، أي أنها بنية تتسم بالتقشف ومقتصرة على النوافذ الضرورية للضوء وفوقها نرى مجموعات العقود في الجزء العلوي؛ أما بالنسبة للطابق الثاني، وهو الخاص بالمؤذن فلم يصلنا إلا ذلك المتعلق بمئذنة الكتبية وبمنارة مسجد قصبه مراكش، ففي هذه النماذج نجد الرسم السابق والمكون من عقدين أو ثلاثة تتوجها المعينات التي نراها في الأشرطة الجانبية في الخيرالدا، وبالنسبة للطابق الخاص بالمؤذن في هذه الأخيرة فما علينا إلا أن نعتمد على الإضافات المسيحية في هذا الجانب خلال القرن السادس عشر وأوتقها ما جاء به بيأسانا دي ميناء، ويتكرر في هذه المآذن الثلاث، التي تتسم بالفخامة، إفريز من العقود في الأجزاء العليا من الطابق الأول، وهو موروثة من المآذن الأموية في قرطبة، إضافة إلى أربعة عقود صغيرة في الكتبية وعشرة في الخيرالدا حيث تلف محيط البرج بالكامل، وهي عقود مفصصة مترابطة فيما بينها بمقدمة أسطوانية في القص المحوري، وهذا أمر غير معروف في المآذن القرطبية. أضف إلى ما سبق نجد إحد التفاصيل الجديدة وهي أن هذا القطاع الزخرفي العلوي محاط بخطوط بارزة، أعلى وأسفل، نجدها متكررة في المآذن اللاحقة كافة

على شاكلة الخيرالدا، وهنا نقول إن إسهام المغرب Magreb الشرقي في ميلاد الفن الموحدي له ملمح من خلال هذه المئذنة الجزائرية، ثم تلي ذلك المآذن ذات الطريق الصاعد بدون سلال - المحيط بالعمود المركزي، وقد شهد ذلك ل. جولفن في المنارة الخاصة بهذا الحصن، وقد قام الموحدون بفزوها وتعرضت للدمار على أيديهم ابتداء من عام 1152م. وأمكن لتونس أيضاً أن يكون لها تأثير على التوجهات الفنية الموحدية إذا ما سلطنا أبصارنا على النوافذ المطموسة المرسومة في طبلات العقود العليا لنوافذ مئذنة مسجد الكتبية ومسجد حسان، لكنها غير موجودة في الخيرالدا.

وعندما نبحث في إسبانيا عن مآذن متواضعة يمكن تصنيفها على أنها موحدية نجد أنه لم يصلنا منها إلا تلك الخاصة بمسجد Cuatrohabitats، وهي مئذنة تكاد تكون اختصاراً شديداً للنمط الذي عليه منارة مسجد الكتبية، أو الخيرالدا، وهو نمط ترتبط به مآذن أخرى متواضعة في فاس ولكن في فترة زمنية لاحقة؛ وتدخل في السياق نفسه مئذنة رباط تيط، وهي المئذنة الأكثر قدماً في عصر الموحدين، طبقاً لدراسة أجراها فيليكس إيرنانديث، كما أنها مشيدة من الكتل الحجرية غير المنتظمة مثلما هو الحال في مئذنة مسجد الرباط، ذات نافذة واحدة أو مزدوجة في الأضلاع، وتقع النوافذ الأربعة على مستوى واحد، في منتصف الطابق الأول، غير أن عقودها هي هذه المرة نصف أسطوانية، ويملو تلك العقود عقد آخر ذو ستائر مثلما هو الحال في الخيرالدا، وقد اختفى الطابق الخاص بالمؤذن، هذا إذا ما كان موجوداً في الأصل. ويسير على هدي هذا المنار مئذنة أخرى في المسجد الجامع بقصبة عدية بالرباط، وهي ذات نوافذ بها عقود ذات برور dosesles تتسم بالبساطة، وتقع النوافذ وسط الطابق الأول؛ ولمسجد قصبة فاس مئذنة ترجع إلى العصر الموحدي شديدة البساطة (هـ. تراس)، مثلها في هذا مثل مئذنة المسجد الجامع في تازا. هناك مئذنتا سالارس وأرتشيث في

سواء الإسبانية أو المغربية إضافة إلى جُل الأبراج المدججة في طليطلة؛ وفي المدججات الإشبيلية نجد ما فقط في برج سان ماركوس. ومن التأثيرات الموحدية في هذه الأبراج نجد القصر المحوري مصحوباً بعقدة ذات شكل أسطواني، ونسنا بحاجة إلى الإشارة إلى أن ذلك الشريط المكون من عقود صغيرة بأنه ربما كان موجوداً أو غير موجود في مآذن مساجد متواضعة، ومن الأمثلة الدالة على وجوده ما نراه في مئذنة أرشيث في ملقة.

كنت أتحدث في صفحات سابقة عن الأهمية الرئيسية لهذه المنارات المساء، وسندنا في هذا هو وجود لوحة تأسيس خاصة بكل مئذنة، مع مرور الزمن - خلال القرن الثاني عشر - وكذلك قوة البنية المعمارية من الداخل حيث العمود المركزي أو الغرف المتراكبة، وينضم إلى كل هذا، من الخارج، الزخارف المحيطة بالنوافذ وضخامة الأشكال المتوازية والمتراكبة، أي أننا في حقيقة الأمر أمام صواري حقيقة تعلن عن مفهوم الموحدين وإيمانهم، وكأنها - إن هذه المنارات - قد أدارت ظهرها لمفهوم هؤلاء وولت وجهها شطر ما عليه المئذنة الكبرى المشيدة في مسجد قرطبة في عصر عبد الرحمن الثالث، ولم يبق من الحرص على هذا التقشف إلا التعبير عنه سواء في حرم المسجد أو في صحته. ولزيد من الفهم لمثل هذا الأمر علينا أن نعرف الوضعية التي كانت عليها المآذن خلال الفترة السابقة أي عصر المرابطين وهي مآذن هدمها الموحدون، ولا نعرف عنها إلا القليل مثل مخطط المنارة التي جرت الحفائر فيها في مسجد مراكش المرابطي وهو مخطط منقول عن مخطط منارة المسجد القرطبي.

وخروجاً عن نطاق دراستنا الخاصة بالأندلس - وخلال القرن الحادي عشر - سوف أذكر مرة أخرى حالة مئذنة قلعة بني حماد بالجزائر؛ فهذه المئذنة يرد ذكرها كنموذج للمآذن ذات الأشرطة الثلاثة الرأسية

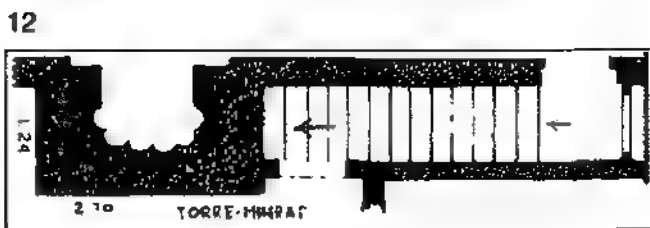
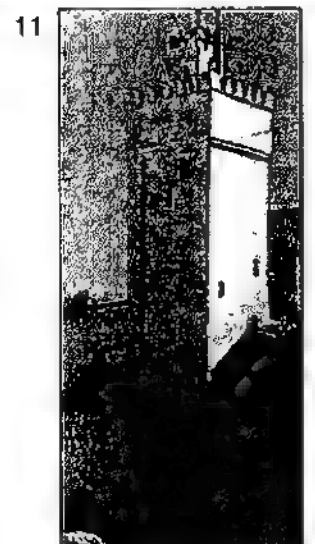
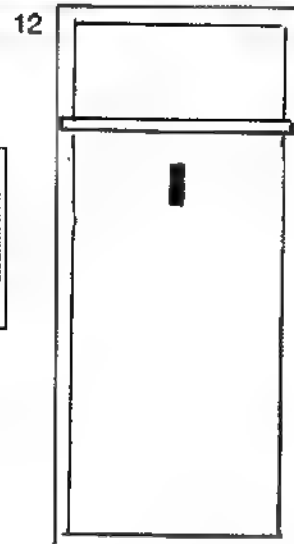
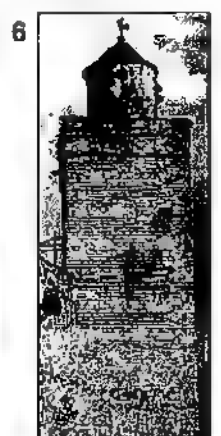
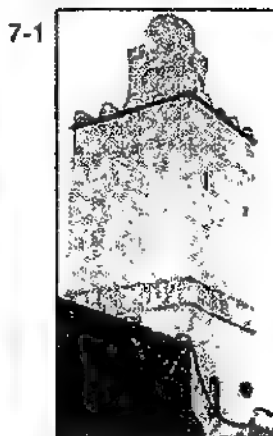
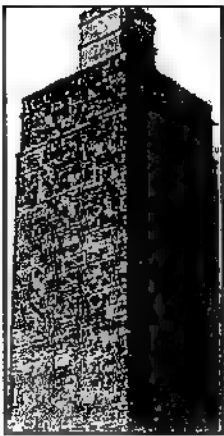
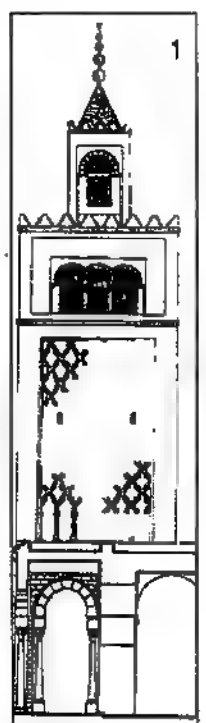
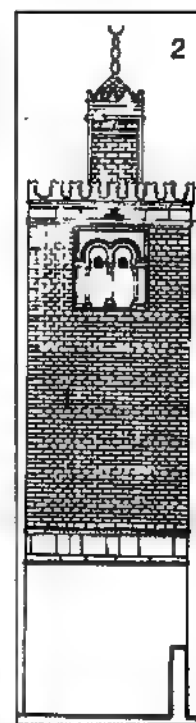
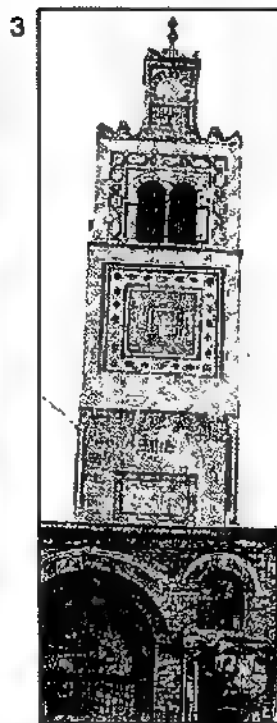
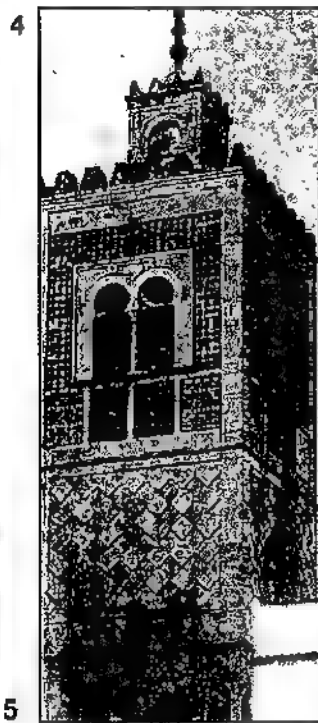
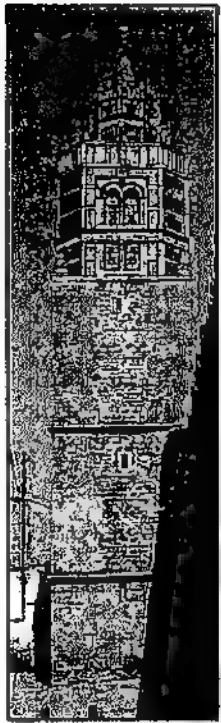


تطوان وطفجة وساون Xauen وكلها ترجع إلى عصور متأخرة جداً، وربما كانت تسير على هدي بعض المنارات هي سبتة التي كانت تثير الانتباه طبقاً لرأي الأنصاري ولو أنه لم يحدثنا عن شكلها (هـ. تراس)؛ وعلى أية حال فإن الشكل المثلث في تطوان أو طفجة ربما كان على شاكلة برج أو منارة تركية فرضت نفسها في الجزائر ابتداء من القرن الخامس عشر حتى السابع عشر، وقد شوهدت حالات عديدة لمآذن لم يتم الانتهاء من بنائها، وقد قام بتشيد بعضها البسطاء من الناس، وهذا ما نجده في مئذنة ندروما Nedroma التي شهدت خلال القرن الرابع عشر، وهذا ما يدل عليه نقش كتابي قريب من المئذنة (ر. بورقية)؛ وبالنسبة للمآذن وأشكالها ومقاساتها يمكن للقارئ أن يطلع على اللوحة المجمعة رقم 44، التي تضم عدداً من المنارات توضعها في اللوحات التالية.

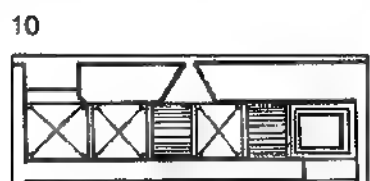
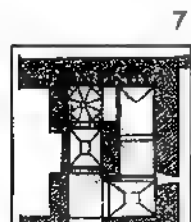
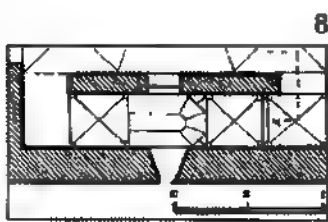
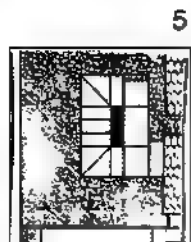
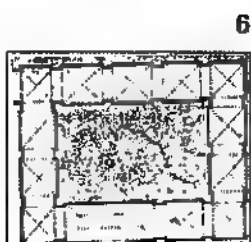
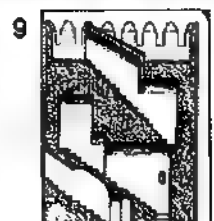
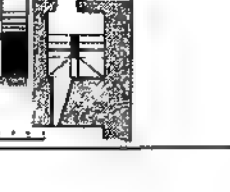
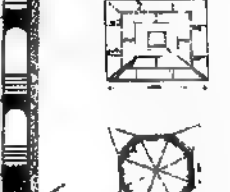
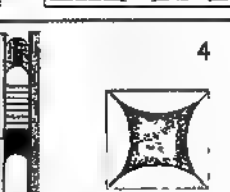
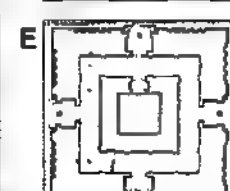
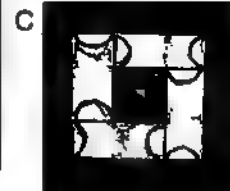
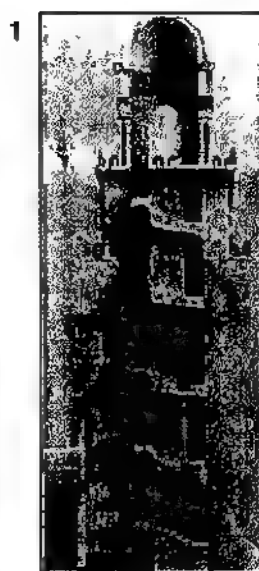
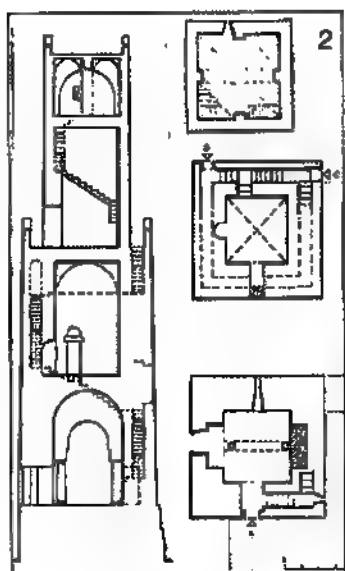
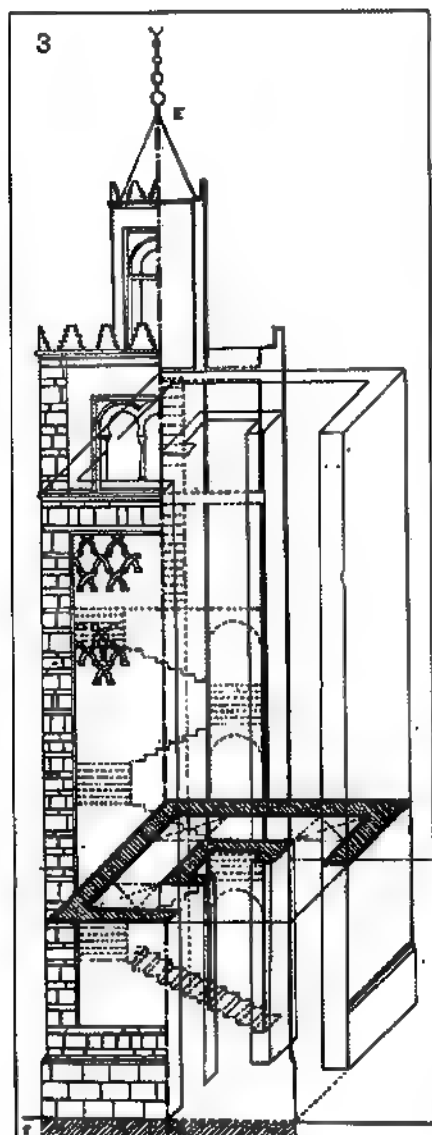
لوحة 5: نمط عام من المآذن من الطراز الثاني أو الثالث؛ 1: مئذنة قصبة تونس (ق13) (دولاطي)؛ 2: من مسجد الهوا في تلك المدينة (ق13) (دولاطي)؛ 3: مسجد القصر في المدينة نفسها؛ 4: القيروان، حيث مآذن المساجد الصغرى، 4 و 1-7؛ 5، 6، 7: منارات من الأجر في توزور - متأخرة (تونس)؛ 8: المسجد الأبيض في فاس الجديدة؛ 10: المسجد الكبير في قصبة عدي بالرباط؛ 11: منارة القصر الكبير؛ 12: منارة مسجد بورمادة في ساليه.

لوحة 6: البنية الداخلية للمآذن؛ النمط A: من منارة قرطبة خلال عصر عبد الرحمن الثالث؛ B: مئذنة المسجد الجامع بمدينة الزهراء؛ C: نمط شديد الشيوع لمئذنة إسبانية إسلامية؛ D: منارة موحّدية في المساجد الموحّدية الكبرى الثلاثة مع وجود غرفة في العمود المركزي، E: من الخيراندا (ألفونسو خيمينث و أ. ألماجرو)؛ F: من الهرج المدجن سان ماركوس في إشبيلية، وربما كانت المئذنة صدى لمآذن المدينة؛ G:

ملقة، وهما إن لم تكونا موحّديتين فإنهما ترجعان إلى العصر الناصري في غرناطة، وهناك مئذنة سان خوان دي لوس ريبس بفرنطة ومئذنة سان سباستيان في رندة حيث نجد أضلاعها تحمل العقود التي تتوجها وحدات السبكة التي نراها في المآذن الكبرى في كل من الرباط وإشبيلية؛ وخلال القرن الرابع عشر نجد نماذج تسير على هدي هذه المآذن، مثل مئذنة مسجد أغادير (1348 - 1349م) ومئذنة مسجد المنصورة في تلمسان؛ وتنقسم هذه المئذنة الأخيرة بتفرد واجهتها الرئيسية الشمالية، مع عدة ظواهر زخرفية أخرى، ففي جزء منها - الأسفل المؤدي إلى المسجد - نجد واجهة ذات عقد حدوي وطفحين بهما مستنات لطيفة، كما أنها صورة طبق الأصل للبوابات الموحّدية في الرباط؛ نجد بعد ذلك إفريز المقريصات الذي يتوج الباب، وهذا أمر غير معمول قبل ذلك في المنارات؛ وفي نهاية المطاف نجد أن النصف العلوي يبدو وكأنه على شاكلة القطاعات الثلاثة التي نراها في الخيراندا رغم أنه دخلت عليه تعديلات كثيرة، ومن العناصر المهمة مجموعة المآذن في أحياء فاس وهي مآذن ترجع إلى فترة أحدث، وقد قام بورس ماسلوب برسمها ونشرها، كما قامت، في رأينا، بدور النموذج للكثير من المآذن الأندلسية التي زالت من الوجود؛ وابتداء من عصر الموحّدين نجد المآذن وقد ضمت زخارفها زليجاً مزججاً سواء في الأضلاع أو العقود، وهي منارات الكتبية وقصبة مراكش، مع وجود تأثيرات من هذا الصنف في الأبراج التي شيدت في عصر بني مرين حيث نجد بلاطات الزليج متداخلة مع المعينات والعقود الجمالية، ولم تتج من زخارف الزليج التوافد أو العقود الخاصة بالأبراج المدجّنة وخاصة إشبيلية وأرغن. وفي هذا المقام نجد الزليج المزجج قائماً في مئذنة أرتشيث وسالارس في ملقة وهما أسبق تاريخياً، حيث يلاحظ أن المئذنة الأولى ذات زخارف مدهونة. لم تصلنا مآذن حارجية متعددة الأضلاع Poligonal، أي المثلثة وهي سمة من سمات مآذن في



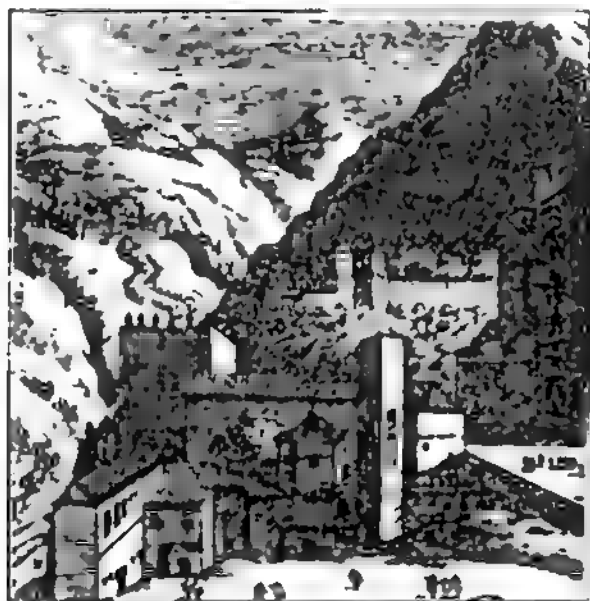
لوحة مجمعة 5:
مآذن



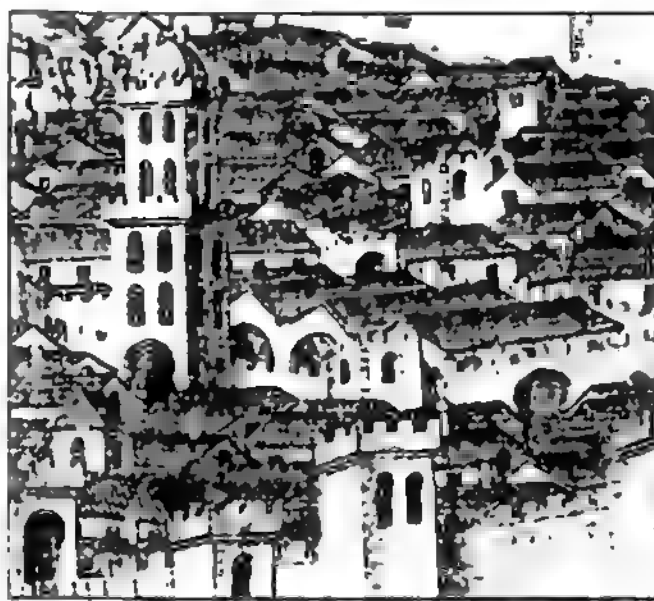
لوحة مجمعة 6:
مفارات البنية الداخلية



1

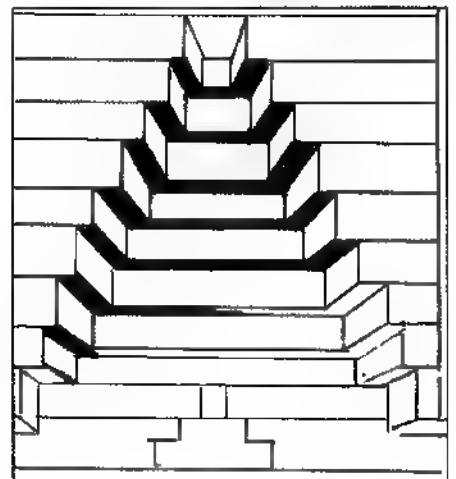
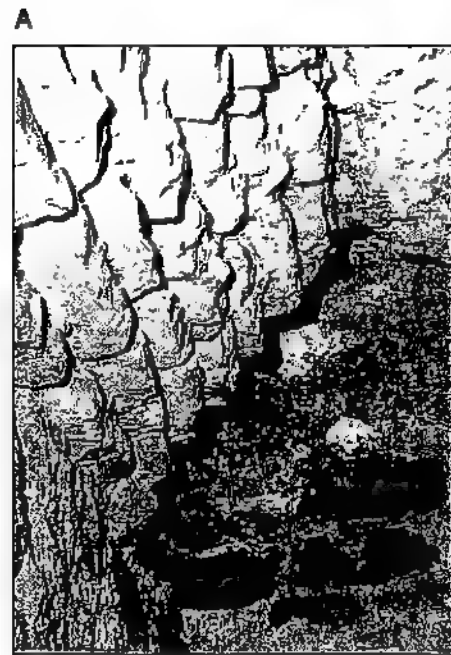
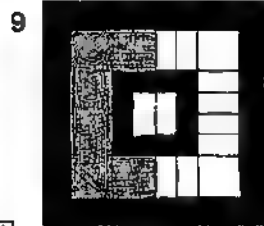
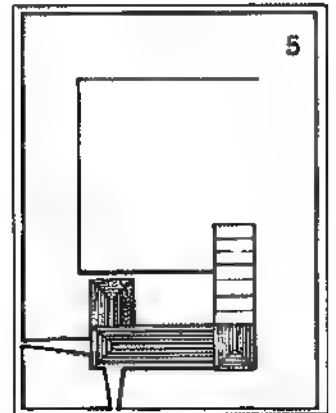
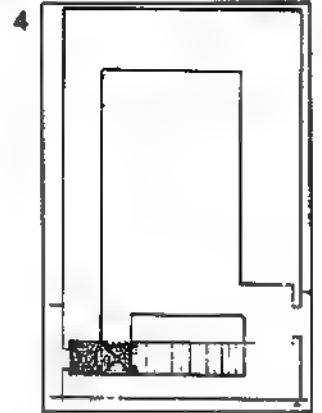
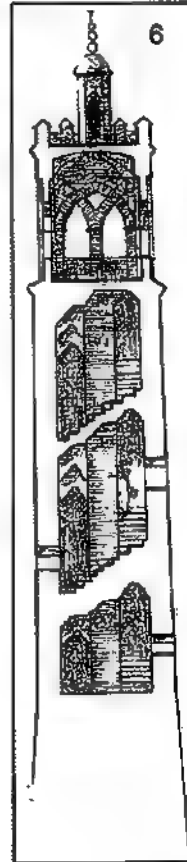
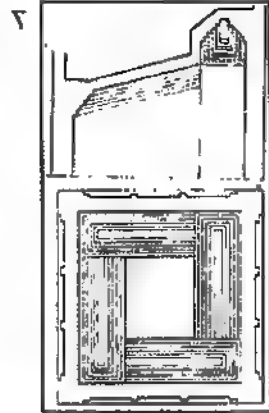
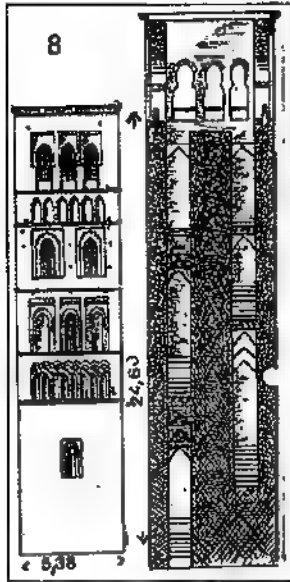
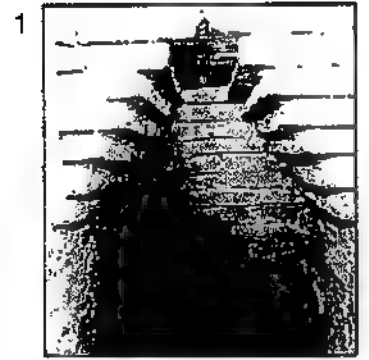
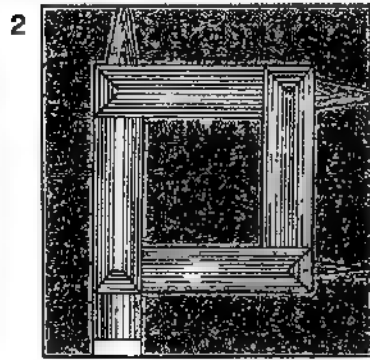
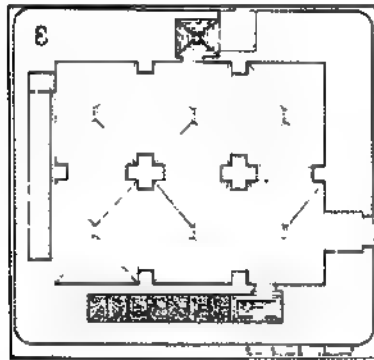


3

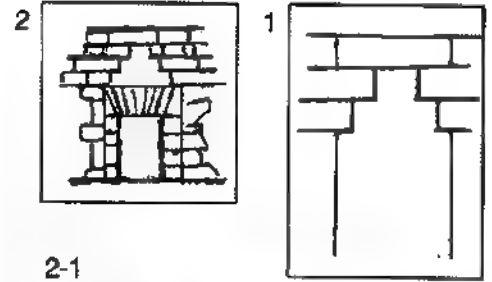
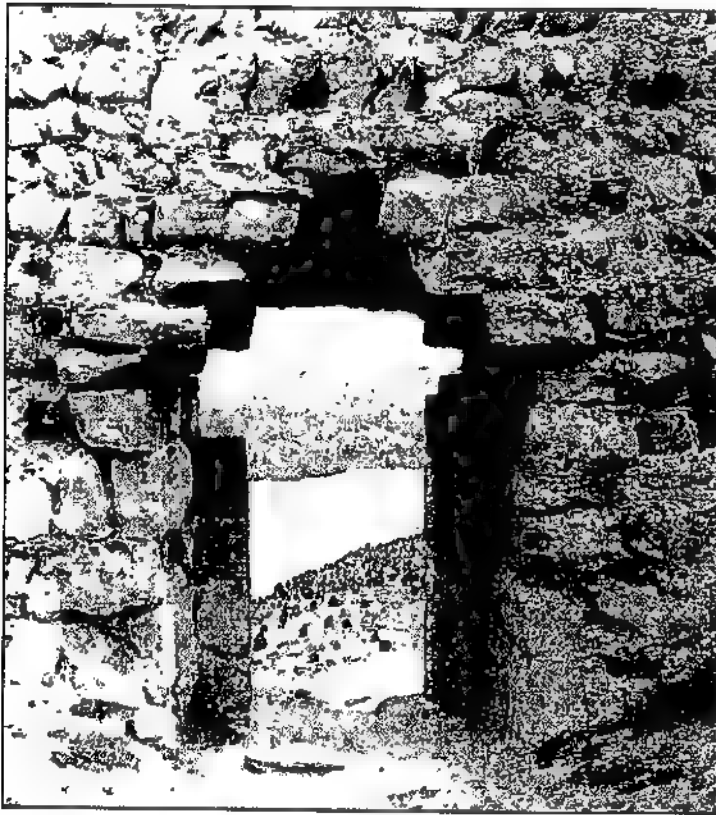


2

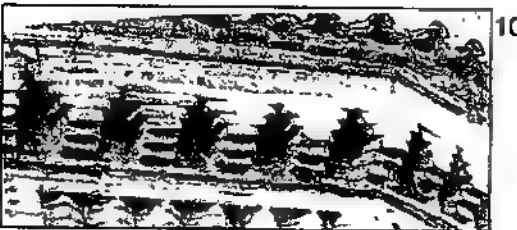
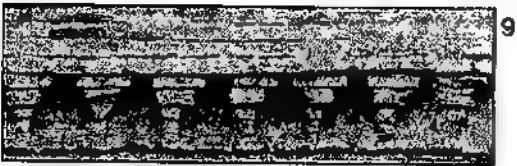
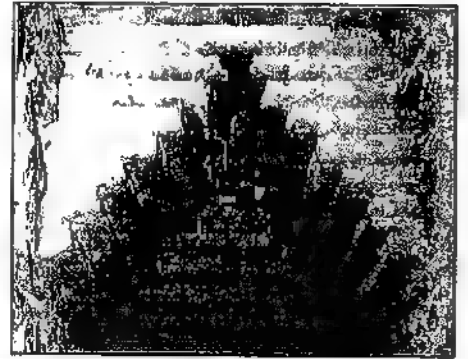
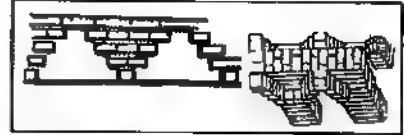
لوحة مجمعة 7:
منارات في المشهد الحضري



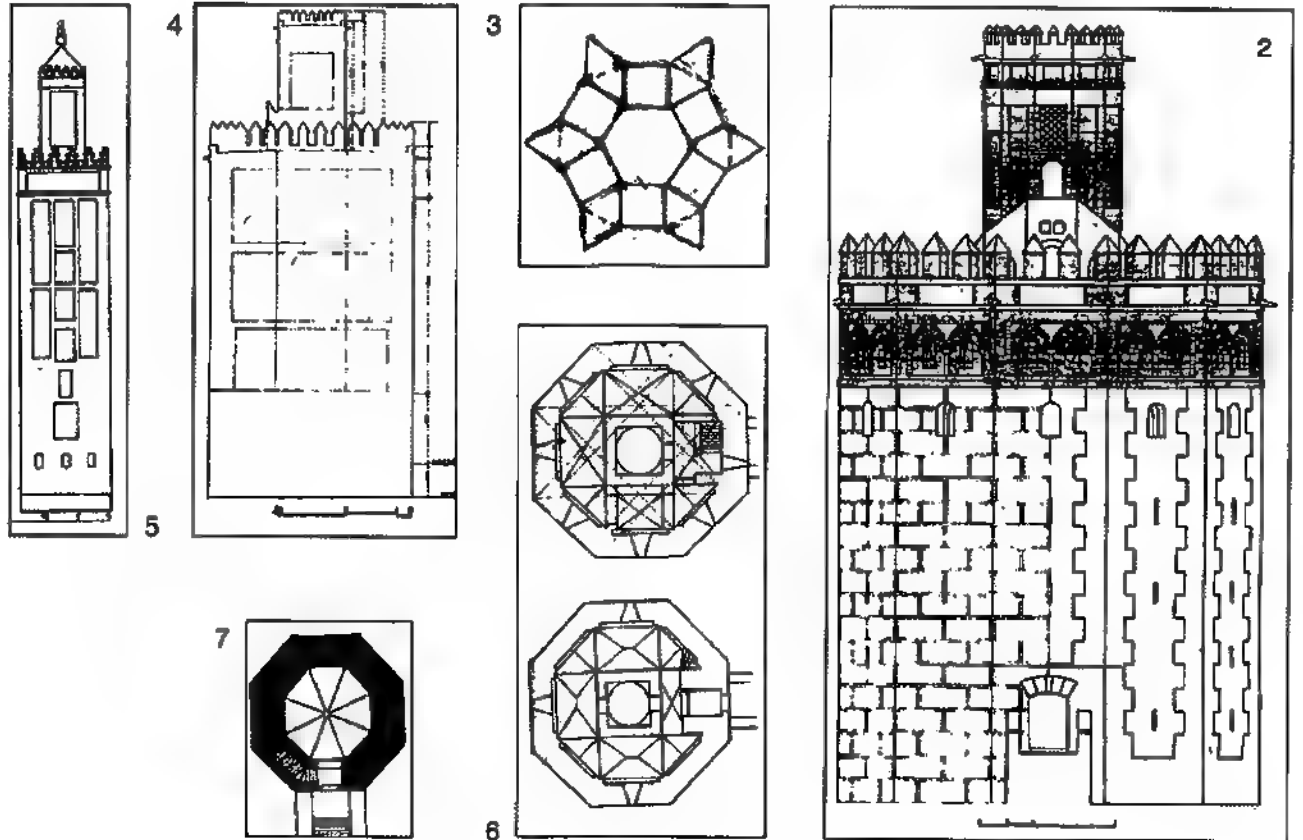
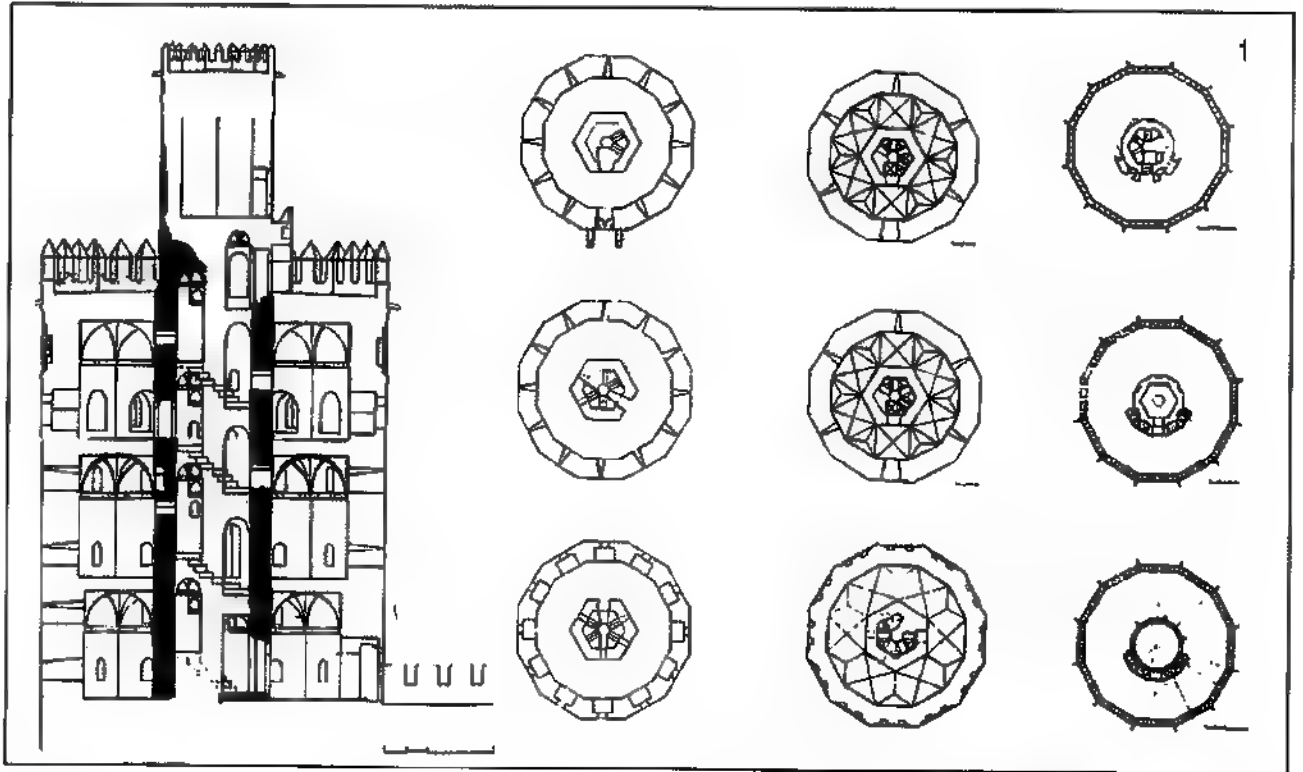
لوحة مجمعة 8:
أبراج. القبة الزائفة المشيدة من الحجر بتقريب المداميك.



2-1



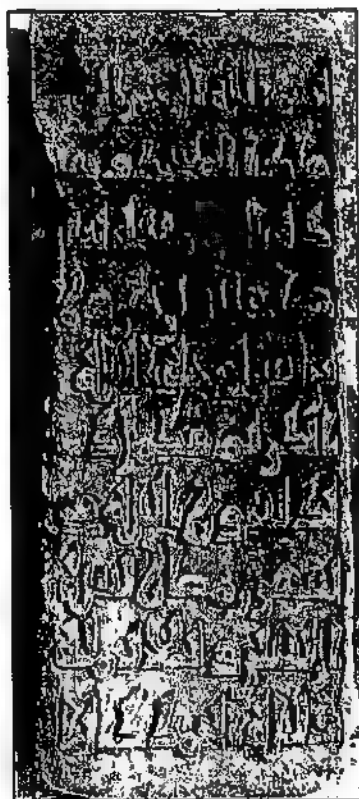
لوحة مجمعة 9:
منارات. أصول القباب الزائفة



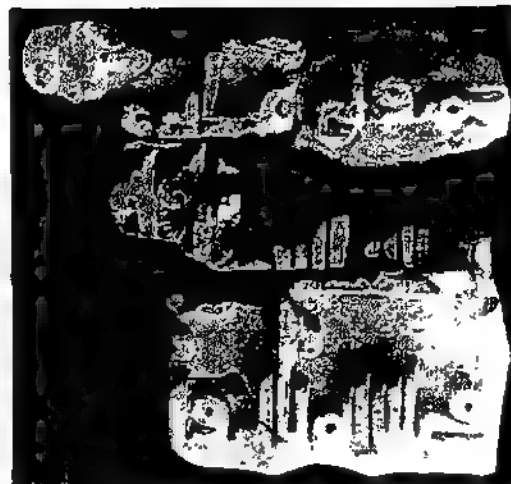
لوحة مجمعة ١١:
أشكال منارات في الأبراج الحربية



3



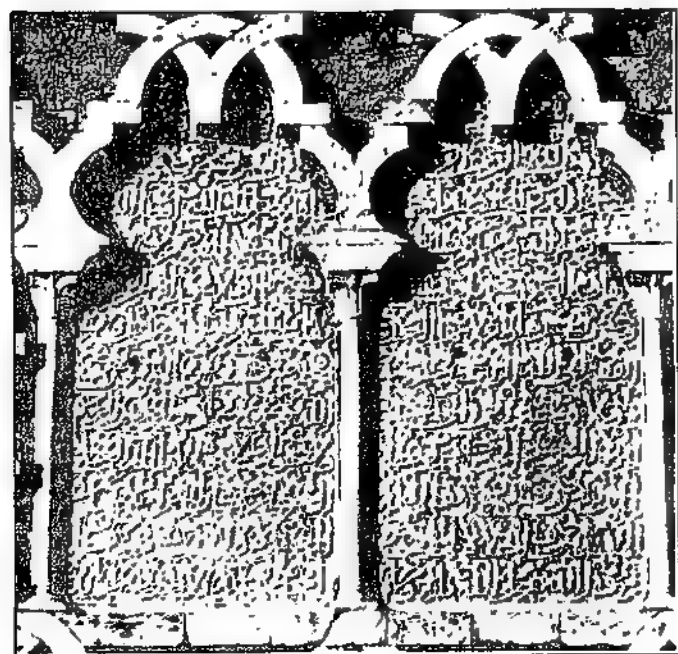
2



1



4



6



5

لوحة مجمعة 12:
منارات. اللوحات التأسيسية

7: من المنارة الحالية في قصبة الجزائر (سكينة ميسون)؛ 8: برج سانتا ماريا المدجّن في إيسكاس (مليطلة) (بابون مالدونادو)؛ 9: نمط لبرج أرغني مدجّن (إنيجث المثل)؛ A: برج الطلائع، ساليش، العربي المشيد من الحجارة (وادي الحجارة)؛ في اللوحة رقم 9 نرى أمثلة مختلفة قديمة للأقبية أو العقود، مشيدة من الحجارة، والنمط رقم 1 نجده في واجهة سان استبان في المسجد الجامع بقرطبة؛ 2، 3: حصن غروماج - عصر الخلافة - (صوريا)، ويتكرر النموذج نفسه في حصن سنّترا (البرتغال)؛ 1-2: إحدى غرف حمام عربي هي المسماة Hipocausis، ابتداء من حمامات مدينة الزهراء وأسقف الأبراج؛ 5: من بوابة إيرنان رومان بالقصبة القديمة بقرطبة، وهي المشرق نجد رقم 6: في أخيزير؛ 7: إيران، وبالنسبة لأرقام 8، 9، 10: تنسب إلى العمارة المدجّنة في أرغن حيث نجد كرائيش للمذابح والأبراج.

لوحة 10: مساقط رأسية لبعض المآذن مع وجود السلالم وانتهائها عند الطابق الثاني وهي ذات نمط مزدوج لمآذن نقطة الانتهاء تكون إما في الوسط أو في أحد جوانب الطابق الثاني؛ وتتوافق الخيراندا مع أول نمط ومعها مئذنة مسجد القباب الأربع. 1: منارة مسجد القرويين بفاس (هـ. تراس)؛ 2: المسجد الجامع في تازا (هـ. تراس)؛ 3: منارة مسجد القصبة بفاس (هـ. تراس)؛ 4: نمط مفترض لكاليه Caille وهو نمط مناسب لمئذنة مسجد الكتبية ومسجد حسان بالرباط، 5: من الخيراندا؛ 6، 7: من مئذنة مسجد المنصورة بتلمسان (ق14) وهي تباهي المنارات الموحّدية الثلاث الكبرى في كثير من المفاهيم؛ فالباب الذي يتّسم بالتجديد ويتوافق مع أبواب كل من باب الرباط وقصبة مراکش، يشبه أيضاً الواجهة - التي لازالت قائمة - الخاصة بزواوية الفسّاك في ساليه (8).

لوحة 11: تلاقٍ بنيوي جمالي بين المآذن والأبراج

نمط من برج مدجّن مليطلياً وأرغنياً مع وجود أقبية زائفة ذات مداميك من الآجر، رغم أن ذلك أمر غير معهود فإن تدرجها يرجع إلى مآذن أموية قرطبية؛ H: مئذنة سان خوسيه بقرطبة وهي ذات أسقف ذات عتب مدرّجة، I: نمط لمئذنة ذات سلم لولبي مثل المآذن الأموية في قرطبة وإشبيلية. نماذج أخرى؛ 1: ماكيت لمئذنة المسجد الجامع بالقيروان؛ 2: منارة خالف Khalef بقصبة سوسة (طبقاً لليزن)؛ 3: منارة قصبة تونس (دولاتي). ونعرض فيما يلي عدة أنماط من سلالم مآذن لمباني حربية ربما ارتبطت بتطور سلالم المآذن؛ 4: برج قمارش في الحمراء؛ 5: سلم برج الأسيرة بالحمراء؛ 6: سلم قلعة حرة «الكاريو» (قرطبة) وهو مرتبط بمئذنة عبد الرحمن الثالث بقرطبة وبالخيراندا طبقاً لدراسة أعدها فيلكس إيرنانديث؛ 7: سلم برج البرطل في الحمراء، 8، 10: برج حصن سان ماركوس بميناء سانتا ماريا؛ 9: برج جاليناس (Gallinas) بالحمراء.

لوحة 7: لوحات لندن بها مآذن: 1: سبتة (من Civilatis Orbis Terrarum - ق16)؛ 2: منظر جانبي لقرطبة، لوحة «معركة إيجيرويل» بالأسكوريال مع ظهور مئذنة المسجد الكبير بالمدينة، 3: لوحة مسماة «مناظر خلافة من إسبانيا والنبرغال» (لندن، 1715م) مع وجود المئذنة عند مدخل المصلّى عند صحن ماثشوكا بالحمراء.

لوحة 8، 9: الأقبية ذات مداميك من الآجر، مقدرجة؛ 1: نمط عام؛ 2: انعكاس ذلك على الأبراج المدجّنة مثل سان أندرس في وادي الحجارة وبرج ماجدالينا في طرثونة Tarazona؛ 3، 4، 5: استخدام السلالم في الأبراج الحربية المدجّنة، قلعة شقورة الجبل (جيان) وحصن ييبس Yepes (مليطلة) وبرج ألكالادي إينارس؛ 6: البرج المدجّن سان بدرو دي فرانكوس في قلعة أيوب Calatayud (سان ميغل)؛

الحرية. برج الذهب في إشبيلية، 1، 2، 4؛ 5: خطوط
الخيرالدا؛ 6: برج Espantaperros في قصبة بطليوس؛
7: البرج البراني في استجة (إشبيلية).
لوحة 12: لوحات تأسيس منارات؛ 1: من المسجد
الجامع بمدينة الزهراء، 2: من مسجد أركوش دي
لافرونتيرا (قادش) (إيوختيا جاليت)، 3: من منارة
سان سلبادور بإشبيلية حيث يشير النص إلى عملية
الترميم أو إعادة البناء عام 1079م؛ 4: من مئذنة
المسجد الجامع بقرطبة (عصر الخلافة) (969م)
(متحف الآثار بقصبة ملقة)؛ 5: من منارة ألمرية، ق 12
(معهد بلنسية دي دون خوان دي مدريد)؛ 6: من منارة
مسجد قصبة تونس (دولائي).
تطور المنارات من خلال الأبراج المدجّنة في
الكنائس؛
انضمت الفراغات الداخلية لدور العبادة المدجّنة
بالأسلوبين الروماني والقوطي في أغلبها، إلا أن ما حدث
مع أبراجها كان على العكس، فقد كانت نماذج الأبراج
تسير على هدي المآذن رغم أن مكونات الأضلاع المختلفة
لم تدخل بالكامل في أنماط المآذن الإسبانية التي
درسناها باستثناء طليطلة، حيث نلاحظ أن أبراجها
الأولى تتوافق مع المدجّنة في البنية الداخلية والنوافذ،
أو العقود الخارجية القائمة سيراً على نهج منار مسجد
الحي، سان خوان دي قرطبة، ومنار القرويين بفاس
ومئذنة سان خوسيه بقرطبة ومسجد ابن طولون،
نحن بالفعل شهدنا أن البرج الطليطلي في سانتياجو
دل أرأبال وسان أندرس وسان بارتولوميه، يضم كل
واحد منها الطابق المخصص للأجراس، وهو الذي
أقيم ابتداء من القرن السادس عشر، ونلاحظ أنه في
منتصف الطابق الأول توجد نافذة لها عقد أو اثنان من
الصنف الحدوي الموروث عن عصر الخلافة، وقد جاءت

والمخطط ونسب العقود؛ ففي إشبيلية نجد أن التوجه الموحد هو النموذج، وفي طليطلة نجد هذا التأثير يتداخل مع التوجهات المحلية ذات الأصول الأموية.

يكاد التوجه الفني في هذا المقام يكون مختلفاً في إقليم أرغن رغم طغيان التأثيرات الموحدية عليه، ففي هذا الإقليم نجد أن نماذج الأبراج المدجّنة لا تواكبها نماذج الأبراج المحلية، الأمر الذي قد يبدو غير متسق إذا ما اعتبرنا أن المساجد في هذه المنطقة ظلت قائمة خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، ولاشك أن السباق المحموم الذي شهدناه في أرغن خلال القرن الثالث عشر في مجال إقامة الأبراج المدجّنة، من حيث الضخامة والمناظر الزخرفية، أسهم بشكل واضح في اختفاء المآذن ذات الأبعاد الصغيرة (أقل من 5م لطول الضلع عند القاعدة 20 X 20م ارتفاع) وهذا ما نراه بوضوح في منارة المسجد الجامع في تطيلة (ق 9، 10) وفي المسجد الجامع بسرقسطة (ق 10-11) حيث جرى إحلال الأبراج الحالية الضخمة محلها، سيراً في هذا على النهج المتبع في دور العبادة ذات المخطط الجديد الذي يضاهي الأسلوب القوطي. يلاحظ أيضاً أن أبراج نهر أبرو تشكل انطلاقة جديدة حيث يلاحظ أن الخبرة الإسلامية المحلية أخذت تتجرف وراء تيار قوي ومسيطر قادم من إشبيلية الموحدية، وبالتالي يمكننا الحديث عن أن في أرغن - وطيطة - هناك توجه يمكن أن نطلق عليه «الأسلوب العربي الجديد»، رغم أن هذا التوجه لا يعمل بصمات عربية محلية في الإقليم، خلافاً لما كان عليه الحال في التوجه الطليطلي؛ وهنا نجد أن كثرة العناصر الزخرفية لواجهات الأبراج المدجّنة الأرجنية، التي تعتبر أكثر الأبراج سيراً على البازوك في التراب الوطني، لا تهيئ لنا الطريق لتخيل الخطوط المعمارية التي كانت ثمرة التأثير المحلي، وبالتالي ابتعدت عن تأثير قصر الجعفرية (ق 11). وعندما نرى كافة هذه الأبراج من خلال العقود نراها وقد توارت عنها التأثيرات العربية باستثناء أربعة أنماط ذات طابع إسلامي، حيث غاب

ما تأكدنا منه من خلال ما رأيناه في منارة مسجد الكتبية ومنارة الخيرالد. وفوق هذا الطابق نجد الثاني الخاص بالأجراس، ومن المعتاد أن يكون طابقاً ذا ثلاثة عقود، أو سطحا مفصص أما الجانبين فإنهما حديان مدبيان ولكل طنفة الخاص به، وهو في هذا يسير على قاعدة موحدية قائمة على ما نراه في مآذن مسجد تمال والكتبية وحسان بالرباط؛ وإذا ما استقينا طابق الأجراس، فلن يكون نسخة أو صورة طبق الأصل من مآذن طليطلة ترجع إلى عصر الإمارة أو الخلافة القرطبية التي زالت والتي ربما كانت قائمة حتى القرن الثالث عشر؛ فلو لم يكن الأمر كذلك، فمن أين إذن أتى هذا القطاع الزخرفي المكون من النوافذ والإفريز الملوي المكون من العقود المتراكبة، طبقاً للنمط الخاص بالمئذنة الكبرى في المسجد الجامع بقرطبة؟ ومع هذا فإن الكثير من رسوم النوافذ الطليطلية جاءت مستوحاة من الموحدية؛ ومما لا شك فيه هو وجود البصمة القرطبية التي نلمحها في البناء الخارجي لمسجد الباب المردوم من الأجر، كما لا يفتقر كذلك قبولا في المدجّجات في المدينة. إن وجود القطع الزخرفي كتتويج للطابق الأول لهو خير على الأحوال السالمة لكافة الأبراج الطليطلية والتي شارك فيها التوجه الموحدية حتى الفترة الأخيرة.

علينا ألا ننسى أن المآذن الضخمة خلال القرن الثاني عشر جرى تقليدها - مع بعض التعديلات البديهية - في مآذن المساجد خلال القرن التالي، وجرى ذلك على الأراضي الأفريقية؛ ويمكن أن ينسحب هذا المبدأ أيضاً على الأبراج المدجّنة في طليطلة وأرغن؛ ومن الحالات التي كان لها تأثير أيضاً الخيرالد في إشبيلية، التي كانت منارة للأبراج المدجّنة في المدينة حيث أضافت هذه الأبراج زيادة في عدد عقود النوافذ، وفي هذا المقام يمكننا أن ندرك أنه عندما جرت دراسة وتصنيف الأبراج المدجّنة تم اعتبار بعضها على أنها منارات ظلت تقاوم مرور الزمن، وللخروج من هذا الشك يجري الاعتماد في الحكم على ذلك من خلال مواد البناء

المقدونيم الحدودي الأموي ولا يكاد الطلغ يظهر من جديد ببروزه، ونادر تواجد المقدونيم المفضل، وأصبح وجود المقدونيم المتعدد الخطوط واضحاً وملحوظاً، وهو من أصول إشبيلية في أرغن رغم أننا رأينا في الجمورية خلال ق 11.

عندما ننظر إلى كل من برج أتيكا Ateca وبرج بلمونت، بارتفاعاتهما وطوابقهما المختلفة، والمقدونيم الزخرفية التي تتوج الطابق الأول، سيراً على النهج المتبع بالنسبة للمآذن، يمكن القول إن التوجه المدجن في أرغن يعتبر توجهاً مختلفاً، وهنا نتساءل عما إذا كانت هذه الأبراج تقليداً للمآذن، زالت من الوجود، أثناء الحكم الإسلامي؛ غير أن هناك اعتراضاً على هذا الافتراض يتمثل في شريط العقود الزخرفية التي توجد أعلى الطابق الثاني، وهذا نموذج غير موجود في المآذن، وبالتالي نراه ابتكاراً مدجناً. وفي هذا المقام نتذكر الأبراج ذات الطابقين في صقلية في مونريال وسيفالو Cefalu. هناك قضية أخرى تتعلق ببرج أتيكا وهي أن الجزء الداخلي في الطابق الأول يضم عموده الأوسط عدة غرف بعضها فوق بعض، وهذا من تأثير المآذن الموحدة الكبرى، وبذلك نراها تتقدم زمنياً على أبراج مدجنة أرغنية ذات ضخامة ملحوظة. كما نرى تأثيرات موحدة بدهية في كل من برج سانتو دومنجو، وبرج سانتياجو الذي زال من الوجود، وكلاهما في دروة؛ هنا نجد أن البرج الأول منهما يضم الشوارع الثلاثة الرأسية التي نراها في الخيرالدا؛ أما البرج الثاني فإن زخارفه بالكامل هي صورة طبق الأصل للبرج السابق؛ نرى إذن أن أرغن انساق وراء الفن الموحدي، ففي المجال الزخرفي نجد أن هذه الوفرة التي نلاحظها في الخيرالدا وفي منارة مسجد حسان بالرباط قد أحدثا تأثيرهما في كافة الأبراج. ومن الدلائل على هذا وجود العقود المتعددة الخطوط وقد توجتها المعينات إضافة إلى الطلغ المصحوب بمستطيلات مترابطة بأشكال نجمية من ثمانية أطراف إضافة إلى عناصر زخرفية أخرى من الأجر.

ومن الصعب في إشبيلية أن نحدد فيما إذا كانت بعض الأبراج المدجنة مآذن، ذلك أنها تتسم بالضخامة في الأبعاد والمقاسات كما هو الحال في أرغن وهذا من سمات العمارة المسيحية؛ وتزداد هذه الصموية عند مقارنتها بمآذن مساجد الأحياء التي تتسم بالتواضع، في مدينة فاس وهي النماذج التي سوف نتطرق في هذه المدينة من باطقة وفي طليطلة، غير أننا في هذه الأخيرة نأخذ بعض الأمثلة مثل برج سانتياجو دل أرابال وسان أندرس وسان بارتولوميه، التي تعتبر أبعادها شديدة التواضع، مقارنة بالأبراج التي ترجع إلى القرن الرابع عشر. وبالمعنى إلى إقليم الأندلس يلاحظ أن عملية إحلال الأبراج محل المآذن كانت بطيئة وغير منتظمة، ففي إشبيلية نجد عدداً من الأبراج المدجنة الذي يساوي - أو يزيد - على ما في كل من أرغن وطليطلة، وقد رأينا أن هذه الأبراج تتخذ الخيرالدا نبراساً لها من حيث نمطية الواجهة، إلا أن البنية الداخلية للخيرالدا التي تتمثل في وجود غرف متراكبة في الوسط - خلافاً لما عليه الوضع في أرغن - ظلت فريدة من نوعها في التوجه المدجن في إشبيلية؛ وهناك استثناء لهذه القاعدة نراه في برج سان ماركوس حيث إنه مربع المخطط كما يوجد به العمود المركزي وهو عمود أصم ليس به أية فراغات، وله سلام حلزونية لها أسقف مقببة، ولا شك أن هذه العناصر هي من سمات مآذن متواضعة في مساجد الأحياء التي زالت والتي جرت عليها يد التعديل مثلما حدث في منار مسجد Cuatrohabitas الذي ما زال قائماً حتى الآن. والشيء الغريب هو أن إشبيلية التي تزدهر بوجود أربع وعشرين كنيسة بها لا تقدم لنا المزيد من المصليات الإسلامية اللهم إلا المسجد الجامع ومثنته (الخيرالدا) وبرج سلبادور، ولا نجد أي أثر لمسجد أو منارة حدث فيه جمع بين مواد البناء الخاصة به ومواد البناء الخاصة بالأبراج المدجنة؛ وعندما نتأمل إشبيلية نجد أن النمط الأكثر شيوعاً من حيث الواجهات الخاصة بالأبراج

تثبت من الشارع الرئيسي الذي نراه في الخيرالدا، ونرى الأمر كذلك في مسجد الكتبية بمراكش، أي أن النوافذ بها عقود صورة طبق الأصل للخيرالدا وربما لمنازل مساجد الأحياء التي زالت من الوجود.

وبخلاصة القول إنه يمكن النظر إلى الأبراج المدججة من خلال هذه التنوع من العقود الموروثة عن العصر الإسلامي. وفي نظري إن هذه التأثيرات يمكن فهمها بشكل جيد إذا ما اقتصرنا على تأثيرات المذنة دون أن نتسحب على المساجد، وهذا القول صادق على الأقل في حالة المذنة الأفريقية وتطورها بعد القرن الثاني عشر؛ ومن خلال دراسة كافة العقود المدججة (انظر الفصل الثالث، اللوحات المصنوعة من 54 إلى 69) نستخلص أن كل برج ليس له عقد حدوي كلاسيكي يحمل بصمات قرطبية لا يمكن تصنيفه أنه كان مئذنة وهذا ما نجده على الأقل في الحالة الطليطية، وإذا ما كان العقد موجوداً مثل حالة برج سانتياجو دل أزبال وسان أندرس وسان بارتولوميه لثار جندل حول ما إذا كانت هذه الأبراج إسلامية أو مدججة ترجع إلى المراحل الأولى. ومن جانب آخر نجد ملامح التأثير الموحد في الأبراج المدججة تتمثل في العقود الآتية: العقد الحدوي الحاد المصحوب بالطنف الغائر، ثم يلي ذلك في الأهمية العقد الممتد الخطوط والعقد الحدوي الحاد الذي يحيط به عقد آخر مفصص مكون من خمسة فصوص أو سبعة أو تسعة، والحدائر في كلا العقدتين على المستوى نفسه؛ ثم نجد ملمحاً آخر وهو اجتماع عقدتين أو ثلاثة ولكل طئفه الخاص به وكذلك عقد مفصص مع وجود أطراف مديبة مدرجة.

ربما كان من المعتاد أن تكون هناك تأثيرات متبادلة بين المناطق التي تضم أكبر قدر من الأبراج وهي القشتالية أو الطليطية والمنطقة الأرغنية والمنطقة الأندلسية وعلى رأسها إشبيلية، كما نلاحظ وجود مناهضة مع مناطق

أخرى مثلما هو الحال من المنارات القائمة في شمال أفريقيا والمنطقة عن الأبراج الموحدية الرئيسية الثلاثة؛ غير أن طليطلة تخرج عن هذا السياق الموحد إذا ما استثنينا العقد الحدوي الحاد الذي يضمه عقد مفصص والحدائر على المستوى نفسه، وكذا الشكل الحدوي الحاد والعقد المفصص ذا العقد في الفصص الخاص بمفتاحه؛ وعكس هذا يحدث في الحالة الأرغنية ابتداء من النصف الثاني من القرن الثالث عشر، في نظري. ويمكن فهم هذا النوع من غيبة الحوار الفني - ظاهرياً - بين إقليم الأندلس وطليطلة من خلال الاستمرارية والطفرات القليلة التي نلاحظها على مسار العمارة الإسلامية فيهما، ففي طليطلة نجد مثلاً وهو مسجد الباب المردوم حيث يعتبر بداية لما كان يمكن أن يكون المسجد الجامع ومساجد أخرى بالمدينة، وكل هذا يتوجه العقد الحدوي الكلاسيكي أو العقد ذو الفصوص الثلاثة أو الخمسة كحد أقصى.

وعندما قام فيليكس إهرنانديث بدراسة منارة المسجد الجامع بقرطبة والتي ترجع إلى عصر عبد الرحمن الناصر؛ أشار في ممرض هذه الدراسة إلى منارة طليطية مهمة زالت من الوجود تعتبر ابنة الأولى، الأمر الذي قد يفسر كيفية توزيع الفراغات والقطاعات والنوافذ ذات العمود في الوسط في الأبراج المدججة ابتداء من نهاية القرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر، نائياً بنفسه بذلك عن الانسياق وراء الفكرة القائلة بالتجديدات التي يمكن أن تكون الأيدي العاملة قد قدمتها في هذا السياق. وعندما تنتقل إلى إقليم أرغن نجد أن هذه التأثيرات التقليدية المحلية غائبة في الإقليم مقارنة بطليطلة، ومن هنا فليس أمامنا سفسطة تقول بأن كلاً من برج أتيكا وبرج بلمونت، كل منهما مكون من طابقتين الأعلى أصغر من الأسفل، كان انعكاساً أميناً لماذن محلية زالت من الوجود في فترة مبكرة. وهنا نتساءل كيف يكون ممكناً أن تغدو سرقسطة العربية، التي خضعت للمسيحيين

النصف الثاني من القرن الثالث عشر، من أي أثر ولو كان صغيراً من عمارة الشعب المهزوم؟

لنتعمق بعض الشيء في دهاليز تاريخها؛ كان الثغر الأعلى، وعاصمته سرقسطة، خاضعاً بشكل دائم لحكام قرطبة، وكانت أرضاً للصراع العموم الذي تزعمه بنو قصي للاستقلال عن الوطن، ومع هذا ففي المجال الديني (أي العمارة الدينية) لم تتخل أبداً عن الأنماط المعمارية التي تحمل البصمات القرطبية وأهمها المسجد الجامع في قرطبة ومدينة الزهراء، وهذه البصمات كانت واضحة في المسجد الكبير في تطيلة وسرقسطة، حيث نلاحظ أن مآذنها كانت تضم مفتاح شرح الازدهار الذي نعمت به الأبراج المدجّنة؛ وعندما نتأمل الجعفرية، خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر، نجدها وقد ضمت العديد من الظواهر الفنية الرائعة ذات الأصول القرطبية التي اتخذت مسارات متعرجة وطويلة أدت بشكل ما إلى التعبير عن رغبة في التخلص من هذه التأثيرات الموروثة من عصر الخلافة لتتخذ لنفسها ملامح خاصة تقف على أعقاب الاستقلالية الفنية؛ كما يبدو أن الغزاة الجدد من المسيحيين لم يولوا اهتماماً أو احتراماً للجماليات العربية، والتي تجسدت في سرقسطة في المسجد الجامع وفي المآذن، حيث اعتبروها غير ملائمة لمصرهم، الأمر الذي أدى إلى هذا التباعد بينها (سرقسطة) وبين طليطلة واشبيلية.

سادت المكان إذن موجة من بناء الكنائس المدجّنة من الآجر، وكانت الأبراج أبرز ما فيها، ولكن دون أن نعرف على وجه اليقين هبما إذا كانت خطوطها الجمالية نتاج تأثير الازدهار الذي كان عليه قصر الجعفرية، أو أن ذلك كان نوعاً من الرد المسيحي على ذلك الأسلوب الفني القوطي المزدهر والذي يرجع إليه الكثير من عقود النوافذ، ونمطاً للعقد الذي يحمل التأثيرات

العربية؛ وخلافاً لما كان عليه الحال في كل من طليطلة واشبيلية، يمكننا في أرغن تصنيف الظواهر الفنية التي كانت تتسم بها الأبراج على أنها نوع من الحنين لما هو عربي، وليس استمراراً أو بقاءً له، رغم أن أسماء العرفاء كانت على ما يبدو كلها عربية؛ وهنا نقول إن هذا الحنين لما هو عربي ووجود العنصر القوطي أصابا السياق الفني في أرغن بالتعقيد؛ أضف إلى ذلك هو أن العرفاء حاولوا استخدام الآجر، كأداة لاستشراق آفاق أخرى زخرفية بعيداً عن السائد في كل من قشتالة أو إقليم الأندلس، حيث تعتبر هاتان الأخيرتان المركز الأساسي للموروث العربي المحلي، وفي هذا المقام، نتساءل عن إجمالي الأبراج الأرغنية قائلين: هل توهي لنا بالرغبة في استمرارية الموروث الإسلامي المحلي؟ وهنا أجرؤ على القول بأنها تشكل عملية إبداع ضخمة غير مسبقة تسير على النهج الزخرفي نفسه مع بعض الاختلاف، وكانت نقطة الانطلاق الروحي لهذا التوجه غير واضحة الملامح بما فيه الكفاية في الجعفرية، فقد أثمرت الزخارف الجصية عن مجموعة من الإبداعات الرائعة، التي لم تتكرر في الآجر المدجّن الذي يستعصي على الخطوط المنحنية وغيرها من الخطوط الزخرفية الإسلامية. وإلى هذه الروح المفترضة التي كانت عليها أسرة بني هود، بما لها من إبداعات، نجد طريقاً آخر ينضم إليها يتمثل في تقليد الخيراندا. كنت قد نوّهت في السطور السابقة إلى غيبة الحوار بين الأبراج الطليطلية والأبراج الأرغنية، وحقيقة الأمر هو أن أسقف سلالم الأبراج في هذا الإقليم - أقبية من مداميك متدرجة - قد وضعت ما وجدته في طليطلة نبزاً لها.

4- حرم المسجد (الجزء المسقوف):

هذه اللفظة - حرم - تعني المقدس، وقد أطلقت على أراضي مقدسة أو مصليات يؤدي فيها الناس صلاتهم، ففي مكة نجد «المسجد الحرام»، وانتقلت اللفظة لتطلق على ذلك الجزء المسقوف من أي مسجد تمييزاً له عن الصحن الملحق به في الناحية الشمالية؛ وعند الحديث عن حرم المسجد فمن المعتاد أن تكون أروقته متعامدة على حائط القبلة، طبقاً لنموذج بدأ ظهوره على ما يبدو في المسجد الأقصى خلال القرن الثامن؛ وتكرر ذلك في كل من مسجد سامراء والمسجد الجامع في القيروان والمسجد الجامع في قرطبة خلال القرن الثامن الميلادي، ووسط حائط القبلة نجد المحراب، وكأنه حامل أيقونات، يقع في نهاية الهلحلة المركزية، وإلى اليمين فتحة صغيرة ليوضع بها المنبر الذي يخطب من فوقه من يوم الصلاة، وعادة ما كان واحداً من الأمراء أو قادة الجيش الذين لهم السيطرة السياسية أو المالية على المنطقة أو الحصن؛ كان ذلك في المرحلة الأولى، ثم أتى العلماء من بعدهم وهم الفقهاء (انظر مارييل فيرو ومانويلا مارتين). نجد إذن أن الحرم والصحن والمئذنة تشكل في مجامعها النمطية الأساسية للمسجد الجامع في قرطبة، وهو نموذج بدأ ظهوره كما سبق القول في المشرق، وسرعان ما انتشر في المدن الكبرى والمتوسطة من الجنوب إلى شمال شبه جزيرة إيبيريا ومن الجزيرة الخضراء حتى تطيلة وسرقسطة، وهنا نقول إن هذا هو كل ما نعرفه عن المساجد الكبرى المعروفة أو التي جرت دراستها، غير أننا لا نعرف شيئاً عن المساجد الأولية، معروفة يقينية، خارج نطاق قرطبة القرن الثامن؛ وهنا يحدثنا بعض كتاب الحوليات المرية عن أن عبد الرحمن الداخل أمر بأن يقام في قرطبة العديد من المساجد الصغرى في الأحياء حتى وصل عددها إلى 490 مسجداً حسب رواية العذري (9)، ومن جانبه لا يشير الرازي، المؤرخ الجيهدي، في معرض وصفه للأندلس، إلى المساجد؛ بينما نجد العذري

والحميري يحدثنا عن الأخبار السابق الإشارة إليها وأنه كان يوجد في شرق الجزيرة مسجد أسسه أحد صحابة الرسول في الأندلس، وكان يقع في قرطاجنة (Carteia) حيث كان الناس يهرعون إليه في زمن الجفاف لصلاة الاستسقاء (خ. بابي). وإذا ما كانت هذه الرواية صحيحة لقلنا إن المسجد ربما كان مماثلاً للمسجد الجامع بالقيروان (670م) الذي هو أول مسجد في المغرب الإسلامي طبقاً للمصادر العربية، ومع هذا فإن الأخبار عن هذين المسجدين متأثرة بالجو العام - غير الدقيق - الذي كان سائداً خلال العصور الأولى للإسلام. وهنا نجد أن هذه الأمثلة تدفعنا إلى ذكر مساجد أخرى إشبانية يفترض أنها ترجع إلى القرن الثامن، ورد ذكرها سلفاً وهي مسجد حناش Hanas بسرقسطة ومسجد البيرة ومسجد آخر في قسبة ملقة، حيث جرى ترميم المسجدين الأولين أو توسعتهما خلال القرن التاسع في عصر محمد الأول، أما المسجد الملقب فقد تأسس على يد معاوية بن صبيح الحمصي طبقاً لما أورده الحميري والنبيري. وقد رأى مؤخراً كل من كاليروسكال ومارتث إينامورادو أن وجود مؤسس هذا المسجد الأخير على أرض الأندلس هو أمر موضع شك، والأمر نفسه ينسحب على مسجد حناش Hanas بسرقسطة (سوتولاسالا) حيث يرى الباحثان أنه مجرد إشارة ليس لها علاقة بالواقع؛ غير أن ما أورده كتاب الحوليات يبقى كراوية ثابتة ذلك أن كلتا المدينتين لا بد أن كان لكل منهما مسجداً جامعاً قديماً جرى البناء فوقه أو توسعته في عهد الأمراء أو كبار القادة خلال القرن التاسع، مثلما هو الحال في كل من قرطبة وتطيلة؛ غير أن الأمر الذي يثير المزيد من الشك والريبة هو القول بأن مسجد قسبة ملقة كان مسجداً جامعاً يومه المسلمون يوم الجمعة في الأزمنة القديمة، وتنطبق هذه المقولة فقط على المسجد الجامع بالمدينة الذي ورد ذكره خلال القرون من الثاني عشر حتى الرابع عشر؛ وتحدثنا المصادر المرية عن المسجد الأول - في القسبة - عن

الثامن تقريباً، كما جرت إقامة قبة عند بداية الرواق المركزي متاخمة للصحن وذلك لجذب أنظار المصلين الذين يبقون في الصحن، وهذا ما نشاهده في المسجد الجامع بالقيروان، ونراه مطبقاً أيضاً في المسجد الجامع بقرطبة - كتقليد - خلال القرن العاشر؛ وسوف أتحدث عن هذه القباب ذات المخطط المربع لاحقاً؛ وكان لحرم المسجد - سواء كان مربعاً أو مستطيلاً - عدد متغير من الأبواب في الحائطين الشرقي والغربي، وكذلك في الصحن، غير أنها كلها متوازية، وفي نهاية القرن العاشر نجد أن المسجد الجامع بقرطبة يضم ثلاثة عشر باباً وهو عدد أكبر بكثير من الأبواب في الصحن التي ربما لم تزد عن ثلاثة، إضافة إلى بعض الأبواب الصغرى؛ وطبقاً للمصادر العربية بلغ عدد الأبواب في إجمالها سبعة عشر باباً مع نهاية القرن العاشر؛ ويبدو أن هذا الرقم، أو رقماً قريباً منه، كان لبعض المساجد في المشرق والمغرب، أي مسجد سامراء ومسجد صفاقس، وكانت الفتحات مرتبطة بمنطقة بمناطق دخول أعداد كبيرة من المصلين؛ غير أن مسجد القيروان (836م) يخرج عن هذه القاعدة حيث كان عدد أبوابه ضئيلاً ومع ذلك يصعب التأكد منه، فربما كان ثمانية طبقاً لـ أ. ليزن في الحرم؛ ويقدر الباحثون أن المسجد الموخدي حسان بالرباط كان له ما لا يقل عن أربعة عشر باباً في المجل، طبقاً للمخطط الذي رسمه ج. كاليه، وربما كان الشيء نفسه بالنسبة للمسجد الجامع بإشبيلية. أما بالنسبة لعدد الأروقة في الحرم فقد سبق أن أشرت إلى الأمر.

5- حائط القبلة أو حائط المحراب،

كان المحراب يوجد في وسط حائط القبلة، أي كانت طبيعة بناء المسجد، وهو محراب غير عميق تجده في نهاية الرواق الرئيسي، أما عن مسقطه الأفقي والرأسي فقد كان متنوعاً، وهنا نجد أن الدارسين، منذ سنوات طويلة مضت، كانوا يرونه على أنه إشارة إلى الجهة

أن الموحدين أقاموا شمال مدينة تونس قسبة سرعان ما ظهر فيها مسجد كان الناس يؤمنونه يوم الجمعة، والتي كانت تقام حتى ذلك الحين في المسجد الجامع بالمدينة (دولتلي)؛ وفي غرناطة نجد حالة هي مسجد سان سلبادور في حي الببازين، أو المسجد الجامع في الحمراء، هذا إذا ما نظرنا إلى هذه المنطقة على أنها في مجموعها قسبة أو مقر حكم النصريين (بنو نصر)؛ وسوف أتحدث عن هذا لاحقاً. هذا النموذج من الحرم المكون من عدة أروقة متعامدة على حائط القبلة، ظهر له مناقص آخر عبارة عن صالة ذات أروقة مستعرضة أو موازية لحائط القبلة في المشرق أيضاً وخاصة في المساجد الكبرى التي يؤذن فيها لصلاة الجمعة سواء أموية أو عباسية، وهذا ما نجده في المسجد الجامع بدمشق، وفي مصر في مسجد عمرو بن العاص في البداية (647م) ومسجد ابن طولون (879م). استقر هذا النموذج الثاني بشكل استثنائي في المغرب الإسلامي في المسجد الجامع المرابطي في القرويين ومسجد الأندلسيين بفاس، وربما أيضاً في المسجد الصغير المسمى بمسجد البوابات الثلاث في القيروان ومسجد بوجلو في قسبة فاس (هـ. تراس) وبالنسبة للحالتين الأوليين ربما اقتصر المرابطون على نقل ذلك النموذج الخاص بالأروقة المستعرضة أو الموازية من دار العبادة القديمة التي ترجع إلى القرنين التاسع والعاشر (تورس بالباس).

يتسم حرم المسجد ببساطة البنية دون تعقيدات معمارية، وقد أشار البعض إلى أن ذلك يرتبط بأداء الشعائر وبالتالي هناك ضرورة توحّي البساطة في البنية، وعادة ما نرى حرم المسجد بناءً معناداً به أروقة متجهة نحو الجنوب دون مدلول تركيبي محدد حتى أتت فترة توسعة المبنى القديم وإضافة شكل حرف T إلى المخطط مع إضافة قبة في منطقة التقاء الرواق المركزي مع ذلك الآخر المستعرض على حائط القبلة، وقد طبق هذا لأول مرة في المسجد الأقصى في نهاية القرن

حتى لا يقع الناس في بدعة ربما تكون غير محمودة؛ غير أن هذا الخروج على المألوف والتي تؤثر على الفقهاء والعامّة جرى تعديله وتصحيحه في المسجد الجامع بمدينة الزهراء، وهي العاصمة الثانية للخلافة التي أسسها عبد الرحمن الناصر، ففي هذا المسجد نجد السهم وسط الزاوية الجنوبية الشرقية، وقد جرى نقل هذا التوجه إلى مسجد سائنا كلارا الواقع في شارع الملك إيريديا، والمسجد الكائن في حي «فونتانا» (وهذا الأخير قد أقيم - في أريي - خلال القرن التاسع) وكلاهما بمدينة قرطبة؛ وبالنسبة لهذه المدينة نجد أن فيليكس إيرنانديث قد أشار إلى أن المساجد الأولى (ق 8-9) كانت تميل لاستخدام السهم وقد اتجه إلى الجنوب منه أكثر إلى الشرق، وتكررت هذه الحالة في مسجد الباب المردوم بطليطلة رغم أن النقش الكتابي الموجود في واجهته الرئيسية يشير إلى عام 999م.

نتقل إلى سبتة لنجد مسجدها الجامع الذي تأسس خلال القرن العاشر والذي كانت وجهة القبلة فيه خاطئة ثم جرى تعديلها بعد ذلك ببعض الوقت (الحصني) (لوحة مجمعة 83: 7)؛ إذن كانت هذه التوجيهات محصلة الفتوى الدينية التي كانت ذات دور مهم خلال عصر الموحدين، وهذا ما شهدناه في مسجد الكتبية، حسبما أشار إليه ل. جولفن، أوج. ديفردون وأرجعاه إلى أسباب عاطفية أو أية أسباب أخرى ذات طبيعة مختلفة؛ وأياً كان الوضع فإن حالة قبلتي الكتبية ليست واضحة بما فيه الكفاية حيث كانت القبلة الثانية في البداية نوعاً من التوسعة للأولى، وجرى رفض هذه الأخيرة - ربما - بعد الانتهاء من بناء الثانية، وربما إذا لم يكن مباشرة ذلك الرفض فقد حدث بعد ذلك بكثير. وكان للحائط القديم للقبلة الخاصة بالبناء الأول عشرة عقود إضافة إلى عقد المحراب في الوسط، وكانت كلها ذات سواتر - جدران - طبقاً لما تراها عليه الآن وتشير إلى استخدام المبنى الأول للمسجد لفترة غير معلومة (لوحة مجمعة 1-12)؛ وربما أفاد كلا الحائطين

الجنوبية أو الجنوبية الشرقية من المصلى وهي رمزية تشمل حائط القبلة بالكامل؛ وعلى أي حال فإننا نقبل بأن الأمر كذلك منذ زمن الرسول حيث كان المصلون يؤتون وجوههم شطر القبلة عند الصلاة؛ ويرى القس فيليكس باريجا في كتابه «علم الإسلام Islamologia» أن ليس هناك قانوناً واضحاً على أرض الواقع يحدد التوجه نحو القبلة، وأن المباني التي لازالت قائمة تتجه بشكل عام إما إلى الجنوب أو الجنوب الشرقي، رغم أن ذلك ليس بديهياً بشكل دائم؛ ومن جانبه يضيف خوليو سامسو أننا لا نعرف إلا القليل عن الخطوات التي كانت تتبع لتحديد اتجاه القبلة؛ كما أن كينج يشير إلى أن السبب في هذا التوجه غير السليم يكمن في أن القبلة كان يتم تحديدها بناءً على جغرافية المكان، وغالباً ما لا يتم وضع ذلك في الحسبان بل تقرضه التقاليد الموروثة، وهنا نجد أنه عندما يتضح أن الاتجاه غير صحيح أو غير موثوق منه يتم تغيير حائط القبلة وإحلال آخر محله، الأمر الذي أدى في بعض الحالات - القليلة - إلى بناء مسجد جديد واستمرار للوضع القديم، وهذا ما نجده في مسجد الكتبية الثاني بمراكش، حيث نرى أن كلا الحائطين، الذي أزيل والجديد، كل منهما استمرار للآخر؛ كان الحائط الأول متجهاً أكثر إلى الشرق، طبقاً لمعايير المرابطين، مقارنة بالثاني الذي كان متجهاً أكثر صوب الجنوب توكباً مع الموروث الأموي في قرطبة. ومع هذا احترم الموحدون الأمر وأدوا الشعائر فيها، وفي مسجد القرويين المرابطي بفاس، تركوا الوضع على ما هو عليه لأنه كان متجهاً صوب الاتجاه بالدرجة التي يرغبونها، هذه المشكلة نراها في المسجد الجامع بقرطبة؛ ففي البداية نجد المسجد الأول الذي تأسس خلال القرن الثامن، ثم جرت التوسعة خلال القرن التاسع متجهة صوب الجنوب بدرجة كبيرة وليس صوب مكة، وهذا توجه شاذ ومع ذلك فطبقاً للمقري جرى احترام التوجه في عملية توسعة المسجد خلال عصر الحكم الثاني، وجاء ذلك بناءً على فتوى من رجال الدين

السهم الذي يشير إلى القبلة بالنسبة للمساجد الكائنة في الشمال الأفريقي يتجه صوب الجنوب الشرقي مع بعض الميل إلى الجنوب ابتداء من بناء مسجد القيروان.

ظهرت بعض الحالات التي أخطأ فيها الحائط لتجاهه صوب القبلة وبالتالي يجري الميل قليلاً بمخطط الحراب (هناك بعض المساجد في القاهرة ومسجد حصن Ambara في أليكانتي (لوحة مجمعة 49: 1، 2 الفصل الرابع).

ومن خلال الدراسات الحديثة للمساجد نجد الباحثين يقدمون لنا مقاطع أفقية لمساجد مصحوبة بالسهم أو بدونه، ومن أمثلة هؤلاء ل. جولفن حيث يضع السهم في جُل المساجد التي قام بدراستها باستثناء كل من مسجد تازا ومسجد تنمال، وهذا يرجع إلى المخططات نفسها التي نشرها هنري تران، غير أن المسجد الثاني تم وضع السهم فيه في الرسم الذي أعده إيورت. نعرف أيضاً أن كروزويل هو من كبار المدققين في رسم مخططات المساجد مصحوبة بالسهم، ومع هذا يسهو عليه في بعض الأحيان. وعودة إلى المسجد الجامع بقرطبة نجد أن المخطط الذي وضعه ث. نيس (1905م) يأخذ الاتجاه الصحيح أي إلى الجنوب الشرقي؛ أما جومث مورينو فلم يضع السهم، وفي مخطط تورس بالباس نجد الاتجاه غير السليم، أي إلى الجنوب الغربي، ثم قام بتصحيحه ل. جولفن وإيورت. كما أن المخطط الخاص بإعادة بناء المسجد الموحدي في إشبيلية ليس به السهم (عند كل من تورس بالباس ومانثانو مارتوس)؛ وعموماً نجد أن الباحثين الشديدي العناية بأمر وجهة المسجد صوب القبلة هم كروزويل وجولفن وجون د. هوج و أ. ليزن بالنسبة لأفريقية، وإيورت بالنسبة لمساجد المغرب الغربي، وألفونسو خيمينث بالنسبة للمساجد الإسبانية. وقد قام أنطونيو أمانجو بتحديد وجهة مسجد مدينة الزهراء وهو الذي وضعته أنا في «مذكراتي» عن هذه المدينة. وسوف يجد القارئ

من المئذنة الجديدة الكائنة وسط الحائط الشرقي للمصلين مستوحين بذلك ما كانت عليه الخيرالدا، التي تقع في الحائط الجنوبي للصحن وحرم المسجد. وعموماً ففي ما يتعلق بعائلة مسجد الكتبية نجد أن ما بقي هو أن الحائط القديم للقبلة جرى الحفاظ عليه حتى يومنا هذا. وهناك بعض الحالات التي نجد فيها حائط القبلة المتجه صوب الجنوب الشرقي لا يتوافق بشكل دقيق مع الحوائط الثلاثة الأخرى لحرم المسجد (مثال ذلك المسجد الجامع بتونس ومسجد منتصر في ويلة)، كما أنه من المعروف أن السقط الأفقي للمئذنة يأخذ الاتجاه الذي عليه حرم المسجد، ماعدا حالات المساجد التي أشرنا إليها في كل من لبلة وجامع الأندلسيين بفاس؛ وهنا يمكن الإشارة إلى أن القول الفصل لم يتوصل إليه أحد في موضوع وجهة القبلة في المساجد، وربما كان ذلك لغياب دراسات شاملة للموضوع برمته، ولو أن ألفونسو خيمينث قد فعل هذا مؤخراً من مؤلفه «الانحراف عن القبلة»؛ وهنا يجب أن نأخذ في الحسبان أن العرب الأول في الشمال الأفريقي والأندلسي كانت لديهم، وهم يقومون على عجل بإضفاء الطابع الإسلامي على هذه الأرض، فكرة غير صحيحة عن مفهوم وجهة القبلة. فقد جرى تسجيل بعض الحالات التي تم فيها تحويل دور العبادة القديمة والمهجورة إلى مساجد؛ ويشير ابن عذاري إلى أنه تم تحديد القبلة في هذه المعابد التي أقامها غير المسلمين، وجرى وضع معاريف في مساجد التجمعات السكنية؛ ومن روايات البكري نستشف أيضاً أن أحد حوائط تلك المعابد القديمة جرى اعتباره على أنه حائط القبلة؛ وعند الحديث عن إقامة مسجد القيروان على يد عقبة بن نافع (670م) نجد أن هذا الأخير وضع مخطط المبنى الثاني وأقام فيه الصلاة دون أن تبدأ عملية إقامة حائط القبلة وهي الفترة التي جرى فيها نقاش حول توجه القبلة نحو مكة، وجرى توصيته بالقيام ببذل كل جهوده ليكون الاتجاه إلى القبلة صحيحاً؛ وعموماً فإن

في نهاية هذا الفصل مجموعة من المساحات الأقفية للمساجد المهمة الشرقية وفي شمال أفريقيا وإسبانيا، وسلط الضوء على تلك الخاصة بالمرحلة الكلاسيكية أو خلال القرون الثلاثة الأولى. وإذا ما نظرنا إلى المساجد الإسبانية الإسلامية الصغرى وجدنا أن لها مكاناً في هذه الدراسة في الفصل الأخير.

يشكل المعراب موضوعاً مثيراً للجدل من المنظور التأويلي، وهنا نحيل القارئ إلى دراسات أ. ليزن ول. جولفن، اللذين قاما بمراجعة تاريخية دقيقة للآراء التي أطلقها مؤلفون سابقون، فيقول الأول إن الأمر المهم بالنسبة للمعرب ليس الأصول الخاصة به بل الدور الذي كان يلعبه في حرم المسجد، وتجاوز بذلك النظرية الخاصة بالمعرب الكوة التي تحدد الاتجاه لـ ج. مارسيه والتي فندما سوفاجيه حيث يرى هذا الأخير أن المعرب هو المكان الذي يقف فيه الإمام وليس وجهة الكعبة، غير أن هذا المكان هو نقطة محددة في حائط القبلة يمكن أن تكون قطعة من الحجر مثلاً هو الحال في المدينة المنورة في عصر الخليفة عمر بن الخطاب، وللقبلة، على أية حال، دور تذكاري، وبالتالي فإن شكلها متغير، وربما يرتبط بقرار العامل أو العاملين في البناء. وأخذ المعرب يتخذ الشكل شبه الأسطواني في مخطمته تتوجه طاقيّة نصف أسطوانية أو ربعها (مسجد المدينة المنورة ومسجد دمشق وإفريقية)، وشاع هذا في العالم الإسلامي، ففي إسبانيا نراه في المساجد الأكثر صغراً: مثل المسجد الصغير في حصن Ambra (أليكانتي) ومدينة باسكوس التابعة لمحافظة طليطلة (ق 10) وكورية لورقة دل ثنتينو (ق 12-13)، ولا شك أنها جميعها تقليد للمحارب التي زالت من الوجود للمسجد الجامع في قرطبة خلال القرنين الثامن والتاسع. وحول ما إذا كانت النماذج الأولى للمعرب عبارة عن نصف دائرة، نجد أن بعض الباحثين يربطونه بمذابح الكنائس، وهذه نظرية يقول بها خ. أ. برشيم J.A. Berchem وأن المعرب هو كل ما بقي من البازليكا

في المساجد، غير أن سوفاجيه يرى ذلك غير صحيح، ويربط المعرب بكوة العرش في صالة التشريفات بأحد القصور؛ وأياً كان الأمر، فالمعرب هو أحد الرموز الدينية الموثقة للمسلمين، وأهم شيء في المساجد: ومع مرور الزمن أخذ الشكل يتنوع فهو شبه أسطواني وهو متعدد الأضلاع ومربع في كل من إسبانيا والمغرب الإسلامي، ودائماً ما يتسع لقامة رجل، ومن هنا يصرّج. مارسيه على أن المعرب هو انمكاس لنصوص متأخرة تحدث عن معجزة ظهور الرسول محمد داخل المعرب، لكنه - أي الباحث - لم يلح كثيراً على أن المعرب هو قطعة معمارية موازية للكوات القديمة أو المسيحية التي تحمل داخلها تمثالاً مقدساً. وسيراً على الاتجاه الذي اتخذه سوفاجيه والقائل بأن المعرب كان النقطة الأكثر إضاءة في المسجد، يضيف ليزن مشيراً إلى الآية القرآنية: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّي يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مَبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (سورة النور الآية 35)، ومن هنا فإن ليزن يسلط الضوء على نظرية المصباح المقدس الذي كان للمعرب في مسجد سوسة والذي حلت محله كتلة حجرية في السقف، مع وجود أثر يدل على أن المصباح كان معلقاً بها؛ لكن هل كان المصباح رمزاً لله، أو أنه كان مجرد النور الذي يضيء ذلك المكان المهم من المسجد ليؤمّه المسلمون، والذي كان يجب أن يحظى بأكبر قدر من الضوء وسط الظل الكثيف الذي عليه حرم المسجد؟ عندما نتأمل الحرم الحالي الذي أسسه الحكم الثاني في المسجد الجامع بقرطبة نجد أن جدرانه مكسوة برخام أبيض مصقول ومع المضادتين حيث تضيء هذه المجموعة أكبر قدر من الوضوح وسط ظلال حرم المسجد، ويزداد هذا عندما ينمكس عليها ضوء القناديل، كما كانت الأرضية أيضاً من الرخام الأبيض ومعه

الجزء العلوي لكنها زالت من الوجود (ابن غالب).

يرى جولفن أنه من غير المعروف تحديد ذلك الأثر الذي فيه يتم تجديد المحراب في العصر الإسلامي، ويعتقد أن ذلك جرى في المشرق مع بداية القرن الثامن، ومع هذا هناك أقاويل تشير إلى أن مسجد القيروان - نقلها البكري - تقول إن أول محراب في المسجد هو لمقبة ابن نافع (670م)؛ ويشير جولفن إلى أحمد هكري Fikry ونظريته القائلة إن هذه الكوة المقدسة لم تكن إلا عبارة عن إبداع تلقائي أتى به المسلمون بدلاً من انبثاقه من مذابح الكنائس أو المعابد اليهودية، ويبرز ذلك الباحث البعد الخاص بتغير شكل المحراب تغيراً كبيراً من مسجد لآخر، حيث نراه من الخشب (متحف الآثار الإسلامية بالقاهرة) أو من الخزف (تركيا وإيران)؛ وعلى أية حال فإن أي مبنى إسلامي ليس له محراب لا يمكن اعتباره مسجداً ولو كان اتجاهه صحيحاً. ومن ناحية أخرى نتساءل: كم عدد المحارِب في المساجد الإسبانية الإسلامية التي وصلت إلينا؟ إنها ليست أكثر من اثني عشر محراباً، ويستثنى من هذا ما يمكن إضافته من عشرين محراباً في رباط كثنان جواردامار (إلى أليكانتي)، وهناك مدن مثل إشبيلية وطليطلة وسرقسطة، وبنسبة ليس لها الآن أي أثر للمحراب؛ وإذا ما استثنينا محراب المسجد الجامع بقرطبة الذي يرجع إلى عصر الحكم الثاني وكذا المحراب الآخر الذي ظهر، وهو ذو شكل مربع، يقع في «محطة الحافلات» وينسب إلى مسجد يرجع إلى القرن التاسع، فلا نجد شيئاً آخر.

وبالنسبة للشكل العام للمحراب نورد فيما يلي جرداً إحصائياً موجزاً: لوحة: 13: 1: المسجد الأقصى ودمشق والحرم، 1-1 بوفتاتة (تونس) (ق 9)، عمرو بن العاص، القاهرة (ق 9)؛ 2: مسجد ابن طولون (القاهرة) (ق 9)، وفي إفريقية نجد رباط المنستير (ق 8) ورباط سوسة (ق 8) ومسجد صفاقس والزيتونة (ق 9) والمهدية (ق 10-11)، وكثيراً ما نجد في هذه المحارِب عمودين

عند منبت عقد المدخل، كما أن السقف مقبب، وهذا هو النمط المحراب الذي ظل في المساجد التونسية خلال عصر الحفصيين (ق 13)، وكذلك الأمر في صقلية على ما يبدو؛ هناك المخطط الحدوي الشكل في أربطة كثنان جواردامار (ق 10) (أليكانتي) وربما كانت صورة طبق الأصل لمذابح بازلنيكية أو كنائس ترجع إلى العصر المسيحي الأول في سيجو بريجا (B) والكنائس القوطية وسان فروكتوسو دي موتيلوس في البرتغال، وكنائس مستعربة مثل بويشتر (C) وسان ميغل دي أسكالادا (D)، 4: قرطبة: المسجد الجامع (ق 9) (إضافة الأعمدة)، 5: محراب عميق في مسجد منتصر في ولبلة (ق 10-11)، وبالنسبة للمخطط الشديد شبه الاستدارة نجد ريفويرا Rivoira يسلط الضوء على حائط روماني في بلدة شيامات Chiamata «Sette Bassi» رقم صفر. في إسبانيا نجد محراباً مربعاً في «محطة الحافلات» بقرطبة (إيدالجو بريغو ومارفيل رويث)، وخارج الرقعة العمرانية للمدينة نجد آخر يجري ربطه بمسجد يسمى مسجد Muta (ق 9) (أرخونا كاسترو)، وربما كان من الملائم أن نربط هذا النمط الأخير بمذابح الكنائس القديمة التي ترجع إلى بداية العصر المسيحي والعصر القوطي. هناك محارِب شبه أسطوانية وعميقة نجدها في مساجد أو مصليات صغيرة خاصة بحصون إسبانية إسلامية سبق الحديث عنها ومنها مدينة باسكوس (بنيتو إيتكهردو) وحصن Ambra (أليكانتي) حيث نجد هنا القبلة منحرفة ثم جرى تصحيح الوجهة عن طريق المحراب الذي يميل إلى الجهة الجنوبية الشرقية ومسجد صيغة ثثينو (أ. بوخانتى مارتش) في المنطقة المجاورة لبلدة لورقة (مرسية). وفي إسبانيا لم يصلنا إلا المحراب المنحني البارز من الخارج، في مصلى باسكوس ومصلى حصن Ambra (أليكانتي) ومسجد منستير في ولبلة الذي ربما كان أيضاً مسجد ضيقة ثثينو. والمحراب رقم (8) هو النمط الشائع في القاهرة على مدى تاريخها ويشبهه ما في صقلية.

عندما أصبح سقفه نصف محارة مقلوبة، على طريقة الكوآت الزخرفية البيزنطية، وعقد حدوي عند المدخل تتوجّه سبعة عقود مفصصة صغيرة (لوحة مجمعة 13، 2)، اتخذ شكلاً فيه تدرج في الأهمية إضافة إلى نوع من الاستقلالية الخاصة بالنسبة للمساحة الضخمة التي عليها المسجد. وخلال القرن الثاني عشر نجد ابن غالب يصف لنا المحراب القرطبي على أنه مبنى مكون من ثمانية أضلاع من الداخل وأن أضلاعه مكسوة بشماني كتل من الرخام وسقف القبة من الرخام الأبيض على شكل محارة، أما الأرضية فهي من الرخام الأبيض إضافة إلى عتب الباب لكن هذا الأخير زال من الوجود.

غير أن هناك بعض الباحثين - لنبدأ بـ إي. لامبرت - الذين يشيرون إلى ما أورده الإدريسي، ويقولون إن المحراب القرطبي له، على كلا الجانبين، محرابين إضافيين، وبالتالي فهما جزء مرئي في جزء واحد من حائط القبة - هي في واقع الأمر ثلاثة أبواب متشابهة إذا لم تكن متماثلة - وهي الباب الخاص بمحراب الحكم الثاني ونسخ جزئية منه في الصالات المجاورة للساباط أو الدهليز الذي يربط المسجد بالعقد (1)، وبذلك يكون هناك نوع من التوافق مع تدرج العقود الثلاثة الخاصة بالصدر في الأروقة الثلاثة للمجلس الكبير بمدينة الزهراء التي أقامها عبد الرحمن الثالث قبل ذلك بمئتي سنة؛ وهذا يجعل من الممكن أن يكون مرجع هذه العقود التشريفية للقبة القرطبية هو العمارة الملكية الإسلامية وليس الكنائس المستعربة (المذبح أو المصلّى الكبير في المذبح وعلى جانبيه باب يسمى bema وآخر يسمى diaconicon)، وهنا يجب أن نلاحظ أنه بالنسبة للمسجد القرطبي نجد عقد الساباط وعقد غرفة «الكنز» ليس لهما تلك الأعمدة التي يتوفر عليها عقد المحراب، ولا نجد فيهما أيضاً ذلك القطاع العلوي المكون من عقود زخرفية؛ ويؤيد لامبرت نظرية المحاريب القرطبية الثلاثة حيث كان أمام العقود الثلاثة ملحقات ثلاثة لكل منها قبة ذات أوتار ومتدرجة (لوحة

عندما نتناول المحراب المتعدد الأضلاع نجد أنه من النماذج المألوفة في كل من إسبانيا والمغرب الإسلامي ابتداء من عام 1136م (مسجد تلمسان في عصر المرابطين) (9) وهو نموذج غير معروف في المشرق؛ إذن نجد أن كلاً من القيروان وقرطبة يطالعنا بمحاريب متعددة الأضلاع، يرجع أولها - نظرياً - إلى القرن التاسع، وهو محراب متعدد الأضلاع ومكون من اثني عشر ضلعاً، حيث يتم إزاحة الأضلاع الخمسة الأمامية طبقاً للمتطلبات المعمارية المتعلقة بمقد المدخل، وعلى جانبيه نجد العمودين (7، B). ويعود المحراب القرطبي إلى القرن العاشر وهو أكثر عمقاً ويكاد يبدو أنه على شاكله غرفة، ومن الناحية النظرية نجده مكوناً من ثمانية أضلاع نراها بوضوح في كورنيش سقفه المقبب، وجرّت إزالة الضلعين الآخرين الخارجيين لمقتضيات إقامة عقد المدخل، غير أن المحراب له هذه المرة زوجان من الأعمدة، اثنان في كل جانب (لوحة 13، 1، 4، 5، 7-A)؛ وهنا نجد أن الشكل المثلث - خلافاً لما عليه الأمثلة الأخرى - ذو زوايا غير بارزة كثيراً اللهم إلا الزاوية الخاصة بالمحور الرئيسي والتي ربما كانت لإبراز التوجه السليم للمحراب. أو أنها صورة طبق الأصل للشكل المثلث الذي نشأ عند تقاطع أوتار القبة الكائنة أمام المحراب (1)؛ وجرى تصحيح الاتجاه من خلال المحراب الذي نراه في الجعفرية بسرقسطة (8)، وهناك تنويه يشير إلى أن محراب مسجد قرطبة بأبعاده التي تصل إلى أبعاد غرفة حقيقية - إضافة إلى أنه من أبرز المحاريب أصالة في العالم الإسلامي ربما تلقى تأثيرات قادمة من مذابح كنائس قوطية أو بيزنطية تلك الحبوكة الشكل، ومن أمثلة ذلك كنيسة بويشتر المستعربة (C) وقد شهدنا هذا التماثل من المحاريب هي المساجد الصغيرة في جواردمار هي أليكانتي والتي ترجع إلى عصر الخلافة، وبالتالي فإن قدس الأقداس هي الكنائس الإسبانية ربما انتقل بشكل رسمي إلى المسجد القرطبي وكأنه مصلّى خال من أي شيء وأنه

13، 1)، وهنا أرى أن القباب الثلاث (أي المركزية ذات المخطط المختلف عن الجانبيتين) لا يبدو أن لها علاقة بتدرج العقود الحدودية أو المحاريب غير الحقيقية، وإنما أميل إلى اعتبارها على أنها جميعاً واجهة للبلاطات الثلاث الرئيسية في حرم المسجد (1)، مع وجود رغبة واضحة، عند المهندس المعماري، أن يكون حرف T المقلوب هو جوهر المخطط، وهو الذي أشرنا إليه قبل ذلك في كل من المسجد الأقصى والمسجد الجامع بانيقروان، وربما الشيء نفسه في المسجد الأول بالمدينة المنورة؛ هذا من جانب، ومن جانب آخر نجد أن الفراغات الثلاثة ذات القباب والكائنة أمام المحراب القرطبي، تدخل في إطار المفهوم الخاص بالفراغ الذي عليه المقصورة المخصصة لممثلي الدولة، الذي يتجسد في الخليفة وحاشيته، وعلى ذلك فإننا أمام عمارة واحدة ذات طبيعة ملكية ترجع جذورها كما سبق القول إلى العقود الثلاثة المتدرجة التي شهدناها في «الصالون الكبير» بمدينة الزهراء؛ وفي هذا المقام نجد أن العمارة الملكية والدينية تتوحدان أو تتراكبان في مشهد رمزي يشير إلى وضع الدولة في نظر الشعب أكثر منه البعد الديني للأمر. وإذا ما عدنا إلى القصور اللاحقة على عصر الخلافة والأكثر تطوراً يكفي أن نشير إلى صالات العرش خلال العصر النصري (بنو نصر) في غرناطة، حيث العقود الثلاثية في صدر المبنى، وهي في هذه الحالة عبارة عن غرف صغيرة حقيقية أو مصليات، ولها التفاصيل الأميرية نفسها التي عليها الزهراء وكذا صدر المسجد القرطبي، ومعنى هذا أن مفهوم النمط الثلاثي المنبثق عن النمط البازيليكي التقليدي كتعبير عن التدرج هو ذلك الجزء غير المتغير في تاريخ العمارة الإسبانية الإسلامية؛ وهنا فإننا عندما نتضمن في المسجد القرطبي، نلاحظ أن أي وجه شبه بين الفن في الكنائس المسيحية والفن في عصر الخلافة إنما يرجع في الأساس إلى الصدفة أكثر من كونه تأثيراً وتأثراً في مجال السياق المعماري؛ والبرهان على ما أقوله نجده في المصلى الخاص في الجعفرية الذي

جرى تصميمه بالكامل وكأنه المحراب القرطبي المتعدد الأضلاع وذلك ليصلي فيه الملك وليس خالصاً للمعبود، وفي هذا المبنى المشار إليه نجد أن المحراب بمعنى الحقيقي (لوحة مجمعة 13، 8) ليس إلا كوة صغيرة مثمنة بها المحارة القرطبية المقلوبة Venera، وبالنسبة للواجهة الخارجية للمدخل فإنها تكرر ما عليه واجهة محراب الحكم الثاني في مسجد قرطبة الجامع (11). وعودة إلى العقود الثلاثة المنفصلة التي رأيناها في القبلة والخاصة بالأروقة الثلاثة المركزية نجد أن تورس بالباس يراها في القبلة الخاصة بمسجد حصن سان ماركوس في «ميناء سانتا ماريا». وتضم اللوحة المجمعة 13 نمطين من المحاريب التونسية - على سبيل التقديم - وهي ذوات أعمدة قديمة جرت الإفادة منها وهي مسجد رباط سوسة (9) ومسجد رباط المستير (10).

أولى المرابطين أهمية غير مسبقة للمحراب من حيث عدد الأضلاع فهي خمسة (سبق أن شهدنا ذلك في المسجد الجامع في تلمسان) وفي مسجد توزور (تونس)، غير أنها في هذه الحالة الأخيرة بها بعض الانتفاء، وهو شكل ينضم إلى الشكل السداسي ويتكرر بشكل أكسيومتري Axiometrico - في العمارة اللاحقة في كل من المغرب الإسلامي والأندلسي، وله أمثلة واضحة حتى الآن في حرم مساجد قصر الحمراء (ق 14)؛ وقد تأثرت هذه الأخيرة بالقبلة الصغيرة الكاملة المكونة من ثمانية أضلاع والتي بدأت في مسجد تلمسان حيث نجد ستة عشر ضلعاً طبعاً للنمط الأفريقي (أفريقية - خلال القرن التاسع) وقد حل محلها، بهذا الشكل، الجديد المكون من قباب مقربصات تبدأ من منبث المحراب في كل من مسجد القرويين يقاس ومسجدي شمال والكتيبة بمراكش؛ والشيء المثير للفضول هو أن محراب المسجد الجامع بالحمراء، الذي يرجع إلى عصر محمد الثالث، ينوه بوجود مخطط سداسي قديم، وهو نظرياً مثنى الأضلاع، يتكرر في المسجد المخصص لصلاة الجمعة في فاس الجديدة (1258م-1282م)، ولابد أن ذلك

كان أيضاً في المسجد الجامع الكائن في سهول غرناطة خلال القرن الحادي عشر. وفي بعض المساجد - خلف المحراب - نجد مساحة مربعة أو مستطيلة، عادة ما تكون مخصصة لوضع القبر المتحرك، إضافة إلى مساحة أخرى مخصصة للإمام، وتعرض هذا الجزء عامة لعمليات إصلاح وتعديل وأحياناً ما يقوم بوظائف مختلفة منها - على سبيل المثال - إقامة مدرسة لتعظيم القرآن الكريم، وهذا ما يقول به ف. تراس بالنسبة لمسجد قصبة فاس؛ هناك مساحة أخرى، ربما كانت تقوم بوظيفة مماثلة، نجدها في بعض النماذج منها مسجد توزور الذي يعود إلى فترة متأخرة جداً (تونس) إضافة إلى أمثلة أخرى (في تونس، نجد مسجد قصبة بني حفص والمسجد المسمى مسجد الهواء الذي يعود للفترة نفسها، أو مسجد المنصورة في تلمسان)؛ والشئ المثير للفضول هو وجود تلك المساحة في مسجد صغير في لورقة في مزرعة ثنتينو، وهي الكائنة خلف المحراب، ومقسمة إلى ثلاثة أجزاء أو أنها صالة ذات قواصل ربما كانت على الأرجح مكاناً لتعظيم القرآن للفلاحين في الجوار.

ما بقي هو تأويل تلك الأيقونة المعمارية المكونة من عقد ذي عمودين والذي تملوه محارة تقوم بدور السقف أو شبه القبة المسطحة، وهي قطعة معمارية نراها في واجهة محاريب أغلب المساجد التي أشرنا إليها؛ إن وجود هذا الشكل الأيقوني في العالم القديم وفي بيزنطة نراه عادة ما يضم تمثالاً داخل مجموعة من العقود الزخرفية الرمزية الصغيرة خلال الفترة الساسانية في المشرق وفي الفن المسيحي، خلال عصوره الأولى، والقوطي في إسبانيا؛ وهو شكل يعود بنا إلى أصول كوة المحراب. هذه الأيقونة عندما تتكرر نراها في الأشرطة الرخامية داخل محراب المسجد الجامع في القيروان، ولها عقود حدوية حادة تقوم على أعمدة (لوحات مجمعة 14، 9 و 15، 3)؛ ويرى جومث مورينو أنها دليل واضح على تأثير قرطبة على هذا المسجد، وربما أضيفت خلال

القرن العاشر، طبقاً لذلك المؤلف. وقد ظهرت خلال هذه السنوات الأخيرة، في مدينة الزهراء، قطعة من الرخام عليها الأيقونة محل الدراسة (1-6)، وهي أيضاً ذات عقد حدوي، إضافة إلى العمودين، وترجع أصولها المباشرة إلى العقود الزخرفية القوطية التي عثر عليها في ماردة، وهي أيضاً ذات عقد حدوي في فتحة المحارة العليا Venera (8)، ومن جانب آخر نجد الأشرطة الخشبية تحمل السمات نفسها، غير أنها مسطحة هذه المرة، وهي في المسجد الأقصى (11) (مارسيه وكروزيل)؛ وما بقي هو ذكر الشكل نفسه في لوحات من القرنين ترجع إلى العصر المسيحي الأول والقوطي مع وجود نقش كتابي ورمز كريسمون Crismon وبه حرفان هما P و X في الوسط؛ هذه القطعة نجدها في متحف الآثار في إشبيلية (ك. مارتين جومث) وكانت شائعة في باطقة Betica (4)، عثر على واحدة منها في رندة، وموضوعها الرئيسي شمعدان يهودي من سبعة أذرع؛ وإضافة إلى حرفي P و X في هذه اللوحات نجد رموزاً أخرى ذات طابع ديني مثل الجزات الصغيرة وقوامات وورود ذات بتلات من خمس وثمان، وهي على ما يبدو ترمز للمسيح، وهي التي نراها في المباني والأسوار والكنائس في المخطوطات الخاصة بالمستعربين خلال القرون التاسع والعاشر والحادي عشر.

تضمننا هذه السمات والرموز المعمارية الصغيرة، كأنها قطع ثمينة، والتي تحمل في أغلب الأحوال إشارات دينية بدهية شديدة الانتشار في حوض البحر الأبيض المتوسط سواء في العصر الهلنستي أو البيزنطي، وسواء كانت من الحجر أو الخشب أو الطين المعروق، ثم انتقلت بعد ذلك لتكون جزءاً من شواهد القبور في المقابر العربية حيث نجد لها أمثلة في رندة (12) وقرطبة (لوحة مجمعة 15، 2)، وربما كانت تقليداً للمحراب، طبقاً لكل من ليفي بروهنتسال وتورس بالباس، نقول تضمننا في الفترة الزمنية المتعلقة بأوليات الكوة - المحراب في المساجد؛ ويعتبر العمودان اللذان تستند

عليهما المحارة المقلوبة أو المقد النصف أسطواني أو المقد الحديدي دليلاً حاسماً على صحة هذا الافتراض، فتلك الأعمدة هي قطع أساسية في محاريب المساجد الجامعة، وهي أعمدة أعيد استخدامها في أغلب الأحوال وهذا هو ما يتعلق بمحاريب أشهر المساجد. كانت هذه الأعمدة من العناصر الشديدة الأهمية، لا من حيث الطابع المقدس للمكان الذي توضع فيه، بل كدليل على الأبهة التي تضيفها على ذلك المكان الذي ينسب إلى ديانة بعينها؛ والنشء المثير للفضول هو أن العلاقة بين الأيقونة القديمة والمحراب نراها، في الغرب، وهي تطل علينا بإلحاح أكثر بالمقارنة بما عليه الأمر في المشرق، فخلال العصور الأولى للإسلام لم يكن هناك أي مانع أن تكون في المحراب أعمدة كانت مستخدمة في معابد وثنية أو كنائس؛ ومن أمثلة ذلك ما نجده في القيروان في المسجد الكبير، حيث هناك بعض تيجان الأعمدة وبها الصليب البيزنطي، وكذا بعض الطيور ذات الرمزية المسيحية، وفي هذا المقام لا نستغرب أن تكون الأيقونات الرخامية الصغيرة للمحراب القيرواني شديدة الارتباط بالفن البيزنطي (لوحة مجمعة 14، 9) وأن تتحول إلى نموذج لواجهات المحراب، الأمر الذي يجعلنا نفكر في وجود المحراب الثابت.

ويلاحظ أن الأيقونة التي ترجع إلى العصر المسيحي الأول والعصر القوطي، وظلت حتى أيامنا هذه، عادة ما تستخدم مرة أخرى في الحوائط ودور المباداة اللاحقة مهما كان طول الفترة الزمنية الفاصلة، مثل الكنائس الطليطلية المدجّنة وهي سانتوتومي وسان أندرس (لوحة مجمعة 14، 1-8)، وكذا الرخام المكون من ثلاثة عقود والذي عثر عليه في لبلة في مسجد سانتا ماريا دي غرناطة، إضافة إلى بعض الحالات الأخرى، الأمر الذي يضعنا أمام مشكلة المكان الذي توجد فيه هذه القطع في المبنى الأصلي؛ ربما كانت توضع، حسب حجمها، بشكل منفرد أو في سلسلة، وكانت تلك الحجرية توضع إلى جوار الأبواب، وهذا ما يتضح، على الأقل، في واجهات

المساجد التي ربما كانت صدى لواجهات سابقة على العصر الإسلامي وزالت من الوجود؛ وكدليل على هذا التقابل بين الأيقونة المسيحية، أو المُنسّحة، والمحراب، نشير إلى أن ذلك الجزء القديم من المسجد الجامع في قرطبة عثر فيه، تحت الأرض، على إحدى هذه الأيقونات في معرض حفائر قام بها فيليكس إيرنانديث وهي قطعة ذات طبيعة قوطية بما لا يدع مجالاً للشك مادتها الحجر الجيري، مكسرة ومزخرفة بالمحارة المحاطة بأشرطة، أما حجمها فهو - طبقاً لجومث مورينو - 1.32م (عرضاً). ويرى ذلك الباحث أن هذه القطعة ربما كانت بمثابة محراب للمسجد خلال القرن الثامن، والسبب الذي يسوقه لتأييد افتراضه هذا هو أن أساس حائط القبلة الذي تم الكشف عنه في الحفائر التي أجراها فيليكس إيرنانديث، لم تكن به كوة المحراب البارزة مثلما هو الحال في كل من محراب المسجد الأقصى ومسجد عمرو بن العاص بالقسطنطين، ومسجد دمشق على ما يبدو (لوحة مجمعة 13، A، 1)، ويشير أيضاً إلى أن في بغداد كانت هناك أيقونة تحمل سمات مماثلة وتوجّهاً فنياً قديماً، وهي، على ما يبدو، كانت في كنيسة سابقة في هذه المدينة ثم جرت الإفادة منها لتكون محراباً للمسجد الجامع بتلك المدينة. هذه القطعة تبلغ 2.06م × 1.18م عرضاً. وقبولاً منا لهذه الحجج واستناداً إلى أن تلك الأيقونات جرى تعريبها وأنها ليست ذات أطوال ضخمة كان يمكن نقلها بسهولة، وأرى أن انتقالها في إطار العالم الإسلامي كان ممكناً، بما في ذلك في إطار المسجد نفسه، وهذا ما نراه في حالة المحراب الخاص بالبناء الأول للمسجد الجامع حناش Hanas بسرقسطة، فعندما جرت توسعة المسجد في فترة لاحقة جرى بذل جهد كبير في نقل المحراب من مكانه الأصلي إلى مكان جديد وكان ذلك على أسطوانة خشبية، وهنا نتساءل: هل كان ما يتم نقله هو المحراب فقط أو جزء من حائط القبلة؟ وهل كان محراباً عربياً من الحجر أو الدبش؟ ألم يكن أيقونة - كوة مسيحية أعيد استخدامها؟ إننا

إذا ما تحدثنا عن الثغر الأعلى لجذبت انتباهنا كتلة رائعة من الرخام محفوظة في صحن كاتدرائية طركونة (لوحة مجمعة 15، 1) حيث نجد فيها نقشاً كتابياً عربياً بالكوفية يشير إلى أن عبد الرحمن الثالث قام بعمل ذلك المحراب تحت إشراف معتوقه جعفر عام 960م، وتبلغ مساحة المحراب 1.26×0.76 م، ومن هنا نجد أنه سهل النقل، وقد قرأ جومث مورينو النص المشار إليه، ويشير أيضاً إلى أنه ربما كان أندلسي المصدر (إقليم الأندلس)؛ ومن جانبه يعتبره تورس بالباس قطعة من مسجد الأمر الذي يهيء الموقف لقبول الرأي القائل بأنه على عهد الخلافة كانت هناك محاريب مسطحة أو أخرى ذات ذات كوة، وكان يكفي في الحالتين وجود الممودين وفوقهما عقد حدوي في حائط القبلة.

وهنا يمكن القول إنه بالنسبة لمن ملكية مثل مدينة الزهراء كانت هناك عقود مقدسة على طريقة الكَوَات المتحركة التي يسهل دمجها في ملحقات تابعة للمجالس الرفيعة الشأن سواء في الطابق السفلي أو الطابق الرئيسي، غير أن هذه الأخيرة زالت من الوجود للأسف؛ إذن نجد أن إقامة محاريب جديدة في مساجد قديمة وفي قبلة المصليات المكشوفة كانت عادة في كل زمان ومكان، فقد أمر عبد الرحمن الثالث بإقامة محراب مصلى المنصورة بقرطبة (ابن عذاري) وهذه هي الإشارة الوحيدة إلى محراب مصلى مكشوف (في الهواء الطلق)، ويشير ابن الأثير إلى أنه في عام 1101م، وبعد الاستيلاء على مدينة بلنسية بوقت قصير، أصدر قاضي المدينة عبد الله بن سعيد القاشدي أمراً ببناء محراب في المسجد الجامع بالمدينة (كارمن بارثو)، كما أننا غير بعيدين عن رواية المؤرخين العرب لقصة النقل الجزئي لمحراب المسجد الجامع بقرطبة، في عهد عبد الرحمن الثاني، إلى حائط القبلة أثناء التوسعة التي تمت خلال عصر الحكم الثاني، حيث - طبقاً لتلك الرواية - جرى نقل الأعمدة الأربعة العظيمة التي كانت في المحراب القديم وهي أعمدة ليس لها

مثل جرى إعادة وضعها في المحراب الجديد؛ ومن خلال هذه الرواية نرى بوضوح الإرادة الثابتة في الحفاظ على القيم الدينية التي تم إقرارها منذ القرن الثامن الميلادي؛ ومن جهة أخرى هناك إشارة خاصة إلى لفظة المحراب في إطار الحديث عن قصر مدينة الزهراء، وهذا حسبما ورد في «الحواليات الملكية للخليفة القرطبي الحكم الثاني» (جرثيا جومث) «حيث جلس الخليفة في المحراب لتلقي التهاني من رجال الجيش وكان محرابه الصالون الشرقي للقصر الذي يطل على السطح العلوي»؛ والشئ الملفت هو استخدام لفظة المحراب في ذلك السياق الذي يتسم بأنه علماني أو ملكي، وما يبرر ظهوره هو وجود العقد الحدوي المسطح في صدر الرواق الرئيسي للصالون أو المجلس محل الذكر، غير أنه هذه المرة بدون أعمدة، حيث يجري هناك وضع كرسي الماهل الأموي، ذلك أننا عندما نتحدث فقط عن كوة أو محراب بالمعنى المفهوم أو عقد حدوي به بعض العمق فإننا لن نرى إلا واحداً من هذا الصنف في المدينة الملكية، وبالتحديد في غرفة، يستخدمها الخليفة لأغراض شخصية، تقع بين الصالون الكبير الذي أسسه عبد الرحمن الثالث وبين الحمام الملحق به مباشرة. وختاماً لما سبق أعرض بعض نماذج الأيقونات السابقة على العصر الإسلامي في اللوحة المجمة رقم 14؛ 1: روما فيلما ماتي، روماني، نشره ريفويرا، 2: لوحة من مرتولة (متحف لشبونة للآثار)؛ 3: لوحة مدفن وثني توجد في المتحف الوطني للآثار بمدريد، 4: لوحة من الفخار توجد في متحف الآثار بإشبيلية، 5: كتلة حجرية رومانية توجد في متحف البارود في تونس، 6: كتلة حجرية قوطية محفوظة في صحن كاتدرائية لشبونة، 7: قطعة من تابوت من النمط البيزنطي في روما.

هناك قضية أخرى تتعلق بالمحراب وهي الخاصة بزخرفته بشريط في المنتصف عبارة عن عقود مطموسة وأحياناً ما يكون منبت الشريط قاعدة الكوة؛

Mesopotamia وقد درسها سيريل مانجوا؛ وقد فرضت موضحة العقود هذه نفسها على مباني نجدها متهدمة في قلعة بني حماد بالجزائر، وكذلك نجدها في الحوائط الخارجية خلال الفترة من القرن الحادي عشر حتى الثاني عشر، حيث نجد أصداء ذلك في عمارة القصور في صقلية خلال القرن الأخير؛ وهذا كله يشكل سنداً لنضم إلى النموذجين اللذين لدينا نموذجاً ثالثاً، ألا وهو الخاص بالعقود الزخرفية داخل مذابح دور العبادة المدججة الطليطلية المبكرة بدءاً بتلك الإضافة التي نراها في مسجد الباب المردوم خلال النصف الأول من القرن الثالث عشر (1-4)؛ وهناك مثال آخر نراه في مصلى حصن ألكالا دي لاسيريا (جيان) الذي شيده المدجنون الطليطيون وربما جاء ذلك خلال القرن الرابع عشر (5)، وفي نهاية التطواف هذا نشير إلى مذهب دار العبادة المسماة بالدلتشا (مدريد) (6). ويمجرد النظر إلى هذه الوحدة الزخرفية من العقود المدججة يمكن القول إنها ترجع في أصولها إلى عمارة الأجر الرومانية في الشمال، مثلما هو الحال في المذهب الرئيسي لكنيسة سانترفاس (بلد الوليد) (بالديس هرنانديث) التي ترجع إلى منتصف القرن الثاني عشر؛ وعلى أية حال فإن هذه العناصر الزخرفية التي نجدها داخل المحاريب يمكن أن تكون ترجمة للعناصر نفسها التي نجدها خارج المذهب الطليطلي وهي العناصر التي تقرض نفسها بقوة في عمارة الأجر المدججة في القشتاليتين (القديمة والجديدة)، وهنا نتساءل هل كانت العقود الزخرفية المضافة إلى مذهب مسجد الباب المردوم صدى لما كانت عليه المحاريب الطليطلية التي زالت من الوجود؟ يمكن أن نطلق التساؤل نفسه بالنسبة للواجهات الخارجية ذات النمط القرطبي والخاصة بالكنايس المدججة الطليطلية مثل سانتياجو دل أرابال، وسان أندرس، وسانتا أورسولا (لوحة مجمعة 16، 9).

وفي نهاية المطاف نتحدث عن ما هو موجود إلى يمين محاريب المساجد، وهو عبارة عن كوة في حائط القبلة،

وفي هذا السياق يمكن القول إن محراب المسجد الجامع قرطبية به عقود مطموسة شوهدت قبل ذلك في مذابح في البازيليكا البيزنطية الأولى، ثم انتقلت، إضافة إلى نماذج أخرى، إلى الكنيسة المسماة كنيسة سان جيرمني Saint Germigny - des pres، التي ترجع إلى القرن التاسع الميلادي (لوحة مجمعة 15، 4) وربما كانت السابقة الأولى للمحراب القرطبي، وهذا ما تقول به نظراً لغلبة شواهد من كنائس قوطية أو مستمربة معروفة، كما أنه ليس من المستغرب وجود العديد من الأيقونات السابقة على العصر الإسلامي التي أشرنا إليها سابقاً وليس من المستغرب وصولها إلينا فرادى وأنها أسهمت في زخرفة المذابح من الداخل أو ربما وضعت على جانبي المذهب. ثم انتقل النموذج القرطبي إلى مساجد موحدية وإلى أخرى لبنى مرين، ومن بينها يبرز محراب مسجد أمرية (6)، والشئ المثير هو أن هذا الشريط من العقود يتضاعف من حيث المقياس، ويتكرر في مساجد القاهرة وخاصة محراب مسجد مدرسة فلاوون التي ترجع إلى القرن الثالث عشر (7)، طبقاً لصورة نشرها ريفويرا).

وبالنظر إلى الشريط الزخرفي الموحد من العقود التي توجد في الجزء الأسفل من المحراب، فقد كان نموذجاً غير معروف حتى ذلك الحين في الأندلس، غير أنه يفصح عن نفسه بوضوح شديد في كل من مسجد المهدية (لوحة مجمعة 1-15، 1) وكذا في أحد المساجد التي زالت زخارفها في المنستير بتونس (2)، ونافذة على شكل كوة في حائط خارجي بمسجد صفاقس (3) تقليداً لشكل المحراب؛ وفي هذا المقام يجب أن نشير إلى العقود الحدودية التي تحيط بالمذهب الخاص بدار العبادة المستمربة سانتو توماس دي أوياس، التي درسها جومث مورينو (4) وهذا النموذج هو أحد النماذج القديمة الكائنة خارج أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية حيث نراه في كاتدرائية أرني - نهاية ق 10 - وكذا كنيسة العذراء في Nakh في طور عابدين بمنطقة ما وراء النهرين

يُؤدون الصلاة متوجهين نحو القبلة، وبالتالي فإن وجود المسجد كما كنت أقول قبل ذلك يتمثل في مجرد حائط به أحد التفاصيل المعمارية الصغيرة وهي كوة المحراب في الوسط؛ فحتى يؤدي المسلم صلاته لا فرق عنده بالنسبة للفراغ الذي يؤدي فيه الفريضة حتى ولو كان كنيسة متهدمة أو معبدًا يهوديًا؛ وهنا نجد أن اللقاء بين الله وعباده يتجاوز مجرد دار العبادة إلى فراغ في منطقة حضرية تقام فيها الشعائر الدينية والقضائية والتعليمية، وهذه كلها وظائف متعددة من أجلها تم إنشاء هذا القالب المعماري المرن الذي هو أقرب إلى مكان للاجتماعات منه إلى داراً للعبادة أو بيت الله. يجري الدخول إلى هذا المكان ذي العمود من خلال بوابات كثيرة توجد في الأضلاع وكذا تلك الأبواب المفتوحة دائماً في الحائط الفاصل بين حرم المسجد والصحن الكائنان على محور واحد حيث أحدهما استمرار للآخر، ويبدأ هذا المعبر دائماً عند المحراب، وهنا نلاحظ أن لا فرق بين الصحن والحرم عند أداء صلاة الجمعة فيتم الانتقال من هذا الحائط إلى ذلك دونما عقبات؛ كما أن كثرة عدد الأبواب، سواء كان بدلف من الخشب أم لا، كانت تساعد على كسر الحاجز المعنوي الفاصل بين حرم المسجد والصحن وتصل إلى الجوانب المحيطة بالمسجد والميضأة والحمامات؛ إنها الفراغات المخصصة لخدمة المصلين وهي عادة ما يتغير مكانها حسب التوسعات المتوالية في المسجد وهذا ما وصل إليه الحال في مسجد قرطبة الجامع حيث بلغت مساحته أكثر من هكتارين خلال القرن العاشر الميلادي؛ هذه الفكرة التي تجمع بين المكونات المختلفة للمسجد لتصل إلى أبعاد ضخمة تضع موضع جدل البنية المعمارية للمسجد مقارنة بدور العبادة ذات المساحة المربعة في العالم المسيحي والمكونة من ثلاثة أروقة أو خمسة كحد أقصى، حيث كانت وجهة المصلين فيها محددة بدقة، فإذا ما دخل أحد من أبناء الغرب مسجداً جامعاً فمن السهولة بمكان أن يفقد الوجهة التي عليها، ويسير بين الأروقة ويصاب

حيث كانت مخصصة لوضع المنبر أو قطعة الأثاث التي يستخدمها الإمام ليؤم المصلين، وعادة ما نجد هذه الكوة إلى يمين المحراب، ففي قرطبة نجد خارج القبة التي تغطي مدخل المحراب، وهنا نجد الإدريسي يشير إلى أنها كانت على يمين المحراب وإلى جوار الساباط فقد كان ذلك عادة متبعة في المشرق والمغرب؛ نرى الوضع نفسه في المسجد الجامع في ألمرية، ومسجد ميناء سانتا ماريا (توريس بالباس) ونجده في شمال أفريقيا حيث المسجد الجامع في تلمسان ومسجد تمال والكثبية ومسجد حسان بالرباط، ويحدثنا العذري عن المسجد الجامع في بتشينا Pechina، الذي ترجع أصوله إلى عصر إمارة محمد الأول، عن أن المنبر والمحراب كانا تحت القبة وكان لهما قبة أو قبو يوجد في نهاية جنوب الرواق المركزي؛ وهنا نلاحظ أنه لم يجر الحديث عن تلك الكوة الخاصة بحفظ قطعة الأثاث، فعلى ما يبدو نجد أن المنبر في المشرق كان ثابتاً ويوجد إلى جوار المحراب على اليمين (أي، ديث)، وقد قام فيلكس إيرنانديث بإجراء دراسة مسهبة لموضوع الكوة المجاورة للمنبر وقطعة الأثاث في المسجد الجامع بقرطبة خلال القرن العاشر.

ربما علينا في نهاية هذا الاستعراض أن نتساءل عن الدور الذي قامت به القبلة والمحراب في تحديد الملامح الإجمالية لمخطط الجزء المسقوف من المسجد، بغض النظر عن الدور الديني لها؛ وهنا نشير إلى نظرية مقننة ساقها Kuhnel، تقول إن المسجد كان محصلة تطور أبرز العناصر التي كانت به وهي حائط القبلة والمحراب، غير أن هذا لم يكن يحتم وجود بنية معمارية مسبقة وخاصة أو بارزة، فقد كان ذلك شديد الارتباط بعدد المصلين الذين يؤمون المسجد؛ ومن هذا المنظور يمكن الحديث عن عدم وضوح الملامح المعمارية للمسجد، فهو عبارة عن فراغ مُستج، وعندما يقام بناؤه نجد أماناً غابة من الأعمدة والعقود الحاملة لسقف مستو، وهذه هي العناصر الضرورية التي يحتاجها المصلون وهم

من طراز الواجهات الضخمة التي نجدها في أقواس النصر وفي واجهات المباني العامة التي كانت سائدة في العالم الهلنستي وفي روما الإمبراطورية وبيزنطة، وكانت البوابة، عند العرب، بאתكة مسطحة أو عبارة عن قوس نصر دون عمق، إن شئت القول، أي أنها عبارة عن استامبا أو تمشيقي في الحائط وهذا توجه كثير الشيوع في العالم القديم، ويكاد يكون واحداً في مكوناته الثلاثة الرأسية ذات الأصول الرومانية؛ ثم تصبح النماذج غير ذلك مع مرور الزمن في العالم العربي، ففي المساجد الجامعة في العالم العربي نجد هذا المفهوم وقد ساد على جزئين هما: الواجهات الخارجية وواجهة المحراب، بحيث تصبح الأولى اشتقاق من الثانية، وتظف وراءها مكونات أخرى وكأنها تنسب لمباني أخرى مثل المثانة التي كنا نربطها من حيث المخطط والارتفاع بالفنارات القديمة أو أبراج الكنائس؛ وفي المشرق نجد واجهات المساجد التي ظلت حتى الآن والتي تنسب إلى العصور الأولى قليلة، وفي المسجد الجامع بالقيروان، الذي يرجع إلى القرنين التاسع والعاشر، نشعر بالدهشة للواجهة أو الواجهات الخارجية التي درسها كروزويل والتي تتجاوز ما هو مجرد عقد، وأنها بدون أعمدة؛ غير أن هذا الوضع ينقلب رأساً على عقب داخل المبنى، حيث نجد العقود والأعمدة التي أخذت مع مرور الزمن تعزف لحناً معمارياً كله بهجة، وترتبط بالمعور المركزي الذي يبدأ عند المثانة في الصحن ويتقدم وهو يزداد ثراء حتى يتوج كل هذا في المحراب حيث نجد واجهته التي يمرها الإيمان وهي تكتسي ببذخ معماري جدير بأن يكون ضمن أفضل المنجزات السابقة على العصر الإسلامي؛ وفي هذا المقام نجد أن كلاً من المسجد التونسي والقرطبي أصبحا مع مرور الزمن يسيران في خطين متوازيين، وهنا يجب أن نعتزف أن المسجد القرطبي له واجهات خارجية تعتبر نقطة فريدة في العمارة الدينية العربية، استناداً إلى ما سبق أن شهدناه قبل ذلك من أن المشرق كان يضم في مثل ذلك الزمان مساجد لكنها وصلتنا

بالإرهاق الجسدي والذهني عندما لا يجد نقطة المركز التي يرتاح فيها، وعموماً فإن القبلة والمحراب هما من العناصر الجوهرية عند التخطيط لبناء أي مسجد، فالمساجد ذات الأروقة العادية أو الموازية لحائط القبلة تصبح ذات قيمة ثانوية مضافة، الأمر الذي يشير إلى أي مدى كان ذلك سليماً خلال القرون الأولى للإسلام في مسار المساجد من المشرق إلى المغرب حتى استقر بها المقام في قرطبة. وإذا ما كان حائط القبلة هو المحور الأساسي في تجسيد المخطط العام للمسجد فمن الممكن أن نقلل من حجم التأثيرات المشرقية على مساجدنا؛ غير أن الأمر يختلف إذا ما نظرنا إلى العالم الإسلامي عبر الزمان من خلال مساجده الجامعة فهي كلها عبارة عن قالب واحد يتكون من المثانة والصحن ذي البوائك وحرم المسجد (الجزء المسقوف)؛ وحتى يصل مسجد ما من المساجد إلى دائرة التصنيف في إطار المنشآت الكبرى في تاريخ العمارة، علينا أن ننتظر حتى يظهر في هذا المسجد رواقان متدرجان أحدهما الرواق المركزي والرواق الموازي لحائط القبلة وقد أصبحا على شكل حرف T وتكون نقطة التقاء الرواقين أمام المحراب، ففي قرطبة نجد شكل هذا الحرف T في إطار التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني وكان ذلك نتيجة استلزام متأخر من المشرق وإفريقية، وعندما يبلغ مسجد ما سن النضج نراه وقد أخذ تدريجياً يعيش عمليات توسعة كبرى ويتجه بقوة نحو الجنوب، أي حائط القبلة والمحراب، ويصبح شكل حرف T علامة على هالة القدسية التي عليها المسجد.

٦- أبواب المساجد وواجهاتها :

تعتبر واجهة مبنى ما العلامة الأساسية التي تدل على أهمية المكان سواء كان منزلاً أو قصراً أو داراً للعبادة، واستناداً للنظرة الكونية الشاملة التي عليها العالم العربي نجده وقد حاز الكثير من عناصر العمارة السابقة

في قرطبة كل الكتل الحجرية القوطية التي ترجع إلى العصر القوطي والتي عثر عليها في شبه جزيرة إيبيريا، وذلك حتى تقوم بدراسة وتحليل مسهبين للفصل بين الأساليب وتحديد السوابق المحلية أو الإقليمية لتلك الأشكال المبكرة التي ترجع إلى كل من عصر الإمارة وعصر الخلافة في قرطبة.

وعودة إلى المسجد القيرواني - ما شيد منه خلال القرن التاسع - نجد أن ما وصلنا منه، كما شهدنا، لا يضم واجهات خارجية تلت الانتباه، مصحوبة بمقود زخرفية، كما أن هذه البساطة هي التي نراها في إسبانيا باستثناء المسجد الجامع القرطبي، أي أن هذا الأخير هو الذي يلتصق كل أنظار العالم الإسلامي لأصالته الوحيدة والفريدة حيث نجد واجهاته خير تعبير عن ذلك. كما أن دراسة هذه الواجهات تحملنا إلى الاقتناع بأن أصالتها لا تتبع من المسجد الذي أسسه عبد الرحمن الداخل، فهذا لم يعد له ذكر، وإنما إلى تلك التوسعات المتوالية، ولكل سماتها التجديدية خلال القرن التاسع (عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول) والقرن العاشر (عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني)، وبمقولة أخرى أنه كلما كانت هناك توسعة في مسجد قرطبة كان المهندسون المماريون يخرجون من تلقهم وارتجالاتهم التي ترجع إلى الأزمنة الأولى، ويبدعون من أجل إضفاء المزيد من الجمال على المسجد من خلال تمثيل أشكال وبني سابقة على العصر العربي، والذي بلغ شأواً غير مسبوق في مدينة الزهراء، وفي التوسعة التي جرت في المسجد خلال عصر الحكم الثاني؛ وحتى نفهم نمطية واجهة المسجد القرطبي يصبح من الضروري الإلحاح على العقد الحدوي ذي السنجات والشرشرة في الجوانب مثلما شهدنا مفهومًا غريباً للغاية في عمارة أفريقية والعمارة الشرقية، أي العقد الحدوي ذو الانحناء، كما أنه أكثر انفلاقاً من العقد القوطي، وكانت السنجات ملساء في البداية حتى القرن العاشر حيث ظهرت السنجة في المسجد الجامع بمدينة

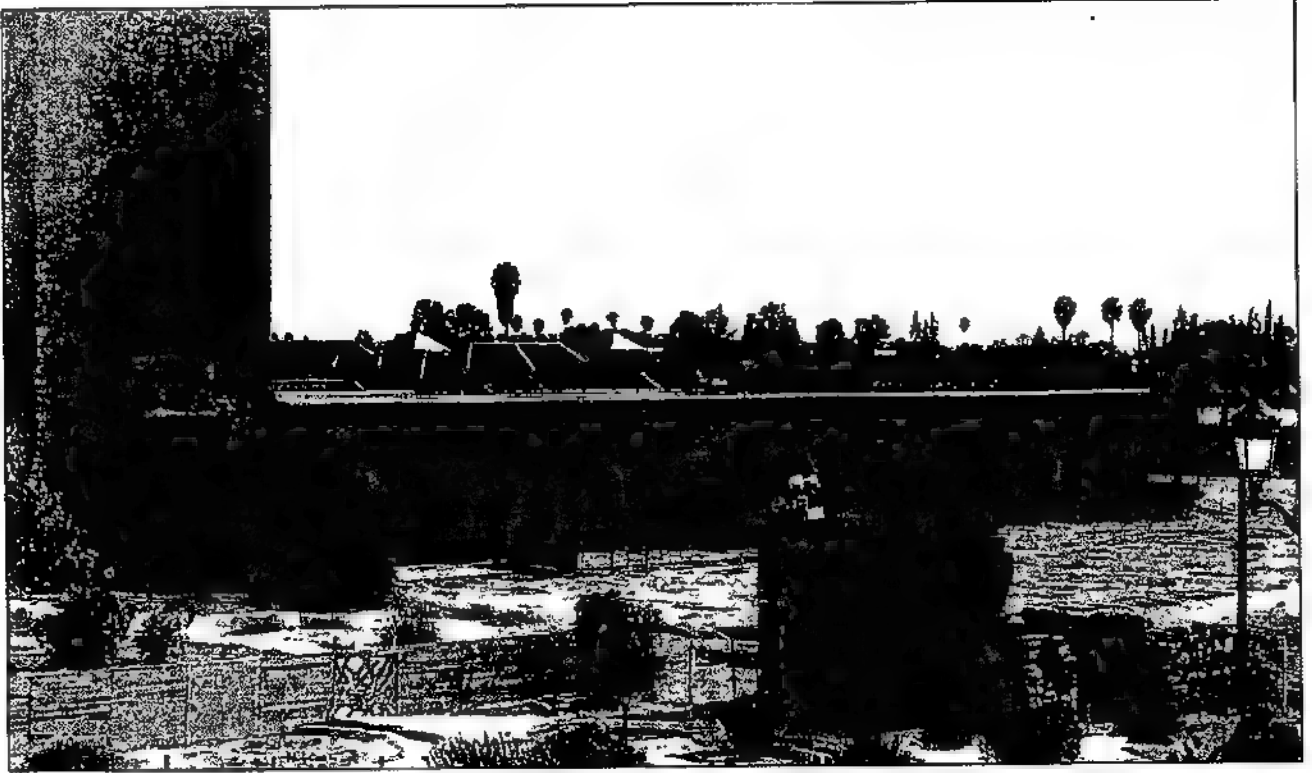
في حالة متدهورة، ومع هذا يمكن القول إن المماريين في المغرب الإسلامي كانوا أكثر إلهاماً قتيماً في إخراج الواجهة التي عليها المساجد، دون أن نعرف على وجه اليقين فيما إذا كانت واجهات الكنائس القديمة ذات تأثير عليها أم لا.

عندما نقوم بدراسة موازية لكلا هذين المسجدين الكبيرين في المغرب الإسلامي يصبح من المهم أن نقف في دائرة الالاقين الخاصة بالتأثيرات المتبادلة سواء على المستوى الشكلي أو البنيوي اللذين نلاحظهما في هذا المسجد أو ذلك؛ ويمكن أن يكون الأمر مجرد منافسة بين فريقين من المسلمين، كل على رأس تطوره وإبداعه، ودائماً ما كان المسجد القيرواني - نظرياً - أكثر قرباً من المشرق وبيزنطة بالمقارنة بمسجد قرطبة؛ هذه المدينة الأخيرة كانت تعتبر مدينة انتقالية فهي تقف في دائرة ما هوروماني أو هلنستي وما هو قوطي، وتقدم لنا مفاجآت معمارية تترك الباب مفتوحاً أمام كافة التكهّنات، فالواجهة الخارجية للمسجد الجامع بقرطبة بدون أعمدة في فراغ المدخل وكأننا أمام مكان يتقل عليه تذكر العديد من أقواس النصر القديمة والتي أفاد منها تخطيط الواجهة التي شيدت خلال عصر الإمارة عند بوابة سان استبان (855م)، حيث نجد شوارعها الثلاثة التي يضاف إليها قطاع جديد مركزي أعلى المقود الزخرفية الثلاثة المطموسة، وهي واجهة تعتبر من الواجهات النموذجية التي يرى تورس بالباس أنها مماثلة لتلك التي نجدها في القصر الإمبراطوري إسبليت Esplít في دالماتيا Dalmacia؛ من جانب آخر، فهذه المقود الزخرفية التي نجدها في قطاع فريد وقد تجسد في لاسيجويريجا Segobriga خلال الفترة المسيحية الأولى أو العصر القوطي، كما نجدها في قرطبة في عقود زخرفية في كتلة حجرية ترجع إلى العصر المسيحي الأول في متحف الآثار بالمدينة والتي درسها مارفيل رويث؛ وهي محاولة البحث من جديد عن سوابق لتلك المقود قد يكون من الضروري أن نجمع

ترجع أصوله إلى العصر البيزنطي مثلما هو الحال في العقد الذي يحمل لونين والمشيّد من الآجر والحجر. وكإطار للعقد نجد الطنف الذي بدونه نجد الشكل الحدوي وقد فقد جزءاً من درجته التي عليها. بالنسبة لتراكب العقود كوسيلة للوصول إلى ارتفاعات أعلى في حرم المسجد القرطبي فإننا نجد أن واجهاته لا تعتمد على هذا المخرج الذي استلهم قناطر المياه الرومانية في مازدة، ومع هذا فذلك المفهوم القديم أمكن له أن يحدث نوعاً من المصالحة مع الواجهات الخارجية وتمثل ذلك في فتحة العقد بالبوابة والبوائك ذات العقود الزائفة فوقها ولم يكن هذا النمط مجهولاً في العمارة الأموية في المشرق (صحن المسجد الأموي بدمشق).

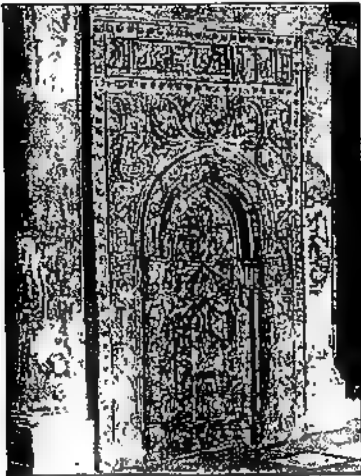
مثير للجدل ذلك الموضوع الخاص بواجهات المساجد وقد أشرت إلى ذلك في فقرات سابقة، وكان ذلك منذ أن قام أ. ليزن بدراسة الواجهة، الخاصة بنافاذة مكتبة المسجد الجامع بالقيروان التي كانت لا تزال قائمة، (لوحة مجمعة 13، 3)، حيث كانت واجهة محراب مسجد Yaziz خلال القرن الثامن الميلادي، غير أنها مع عمليات التمديل الجوهريّة، التي جرت على مبنى المسجد خلال القرن التاسع، أصبحت على يمين المحراب؛ وإذا ما كانت نظرية أ. ليزن قابلة للتصديق من حيث المخطط (انظر اللوحة المجمعة 82، 9، 1-9) آخذين في الحسبان المسقط الرأسي للواجهة الصغيرة فإننا سوف نقابل بكثير من الاعتراضات، ذلك أن الشكل العام لها لا يذكرنا أبداً بالواجهة القرطبية المسماة سان استيان التي ترجع إلى القرن التاسع، وإذا ما كان الفرق بين واحدة وأخرى واضحاً فإننا نستند إلى واجهة المحراب القرطبي التي شيدت في عصر الحكم الثاني (انظر اللوحة المجمعة 13، 2)؛ إضافة إلى ذلك هناك حجة أكثر إقناعاً تتمثل في الواجهة الخارجية للمسجد الجامع بمدينة الزهراء (انظر اللوحة المجمعة 34، 13 من الفصل الثاني)، وبناء على ما سبق فإن المقاربة

بين المسجد القرطبي والمسجد القيرواني فيما يتعلق بالواجهات تجعلنا نرى أن الواجهات القرطبية تسبق الواجهة الخاصة بالمكتبة القيروانية، وهذا أمر يبدو لي أكثر بداهة يوماً بعد يوم؛ فالواجهة المشار إليها والتي أعيد بناؤها وهي الخاصة بمسجد مدينة الزهراء ولها صورة تشبهها في محراب المسجد القرطبي، الذي شيد على عصر الحكم الثاني، تتوافق مع البوابة التونسية في عقد المدخل الحدوي الشكل مع تربيعة الطنف والشريط العلوي للعقد الحدوية الزخرفية، وكتنويج لذلك هناك شرافات ذات مسننات حادة. وإذا ما قبلنا وجهة نظر ليزن فإن بوابة المكتبة تصبح ذات تأثير على البوابات القرطبية التي ترجع إلى القرن العاشر، غير أن العقد الحدوي للأولى أكثر انغلاقاً مثل العقود القرطبية خلال القرن العاشر، إضافة إلى أن السنجات كاملة، مثلما هو الحال على الطراز القرطبي وهذا من السمات التي كانت سائدة خلال ذلك القرن، ولا توجد أمثلة لها في إفريقية، والأمر نفسه بالنسبة للشريط العلوي للعقد الحدوية والشرافات، حيث تفقد هذه الأخيرة أي مبرر لوجودها حتى القرن الثالث عشر في الآثار التونسية، باستثناء كتلة حجرية نجدها في رباط المنستير، كما أن هناك دليلاً أكثر وضوحاً وهو؛ لماذا لا يتوافق المحراب القيرواني الحالي الذي يرجع إلى القرن التاسع (لوحة مجمعة 35، 1 الفصل الثاني)، ولو في الحد الأدنى، مع الرسم الذي عليه واجهة المكتبة مع العلم بأن موضوع المحراب كان أمراً مقدساً كان يجب الحفاظ عليه مهما كلف الأمر في قرطبة، كما شهدنا، نجد أن الكوة التي تأسست خلال عصر عبد الرحمن الثاني قد زالت أثناء التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني، غير أن المحراب في هذا التعديد الأخير لم يفقد الأعمدة الأربعة للمحراب الذي زال من الوجود، ولا شك أنه نقل عن الأول مخطط الواجهة التي، إذا ما استثنينا الشرافات، سوف نجد أنها مماثلة لما عليه واجهة المكتبة التونسية؛ أو هل هناك فرق بين المحراب



1

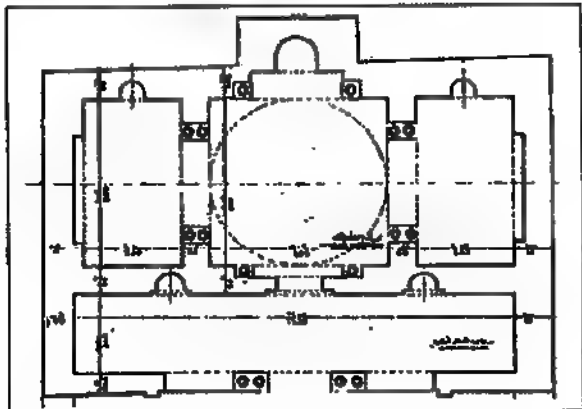
2



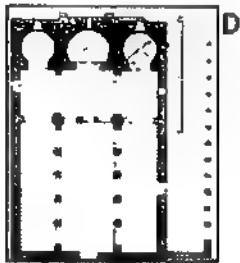
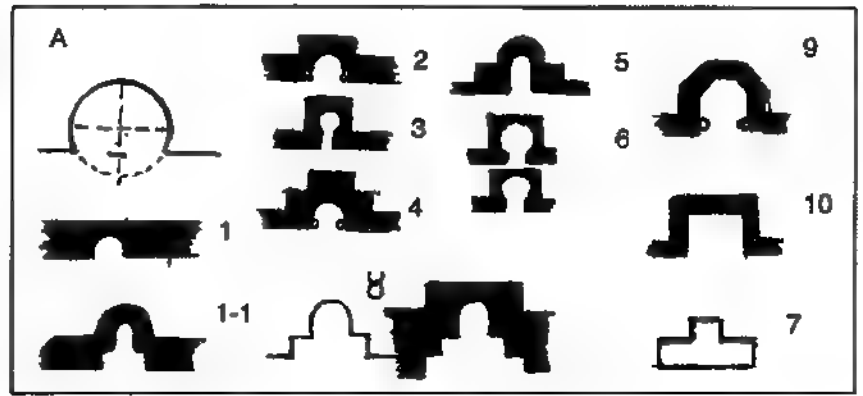
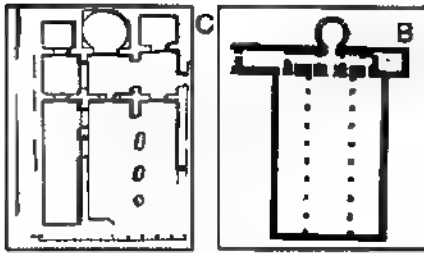
3



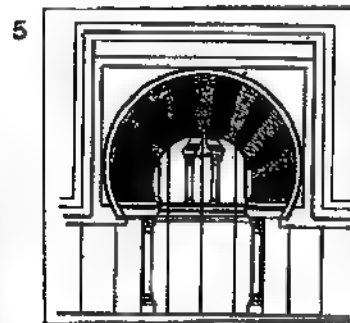
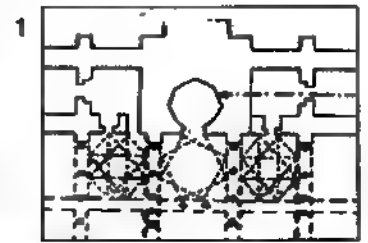
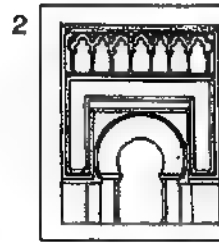
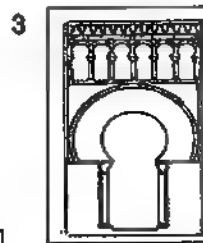
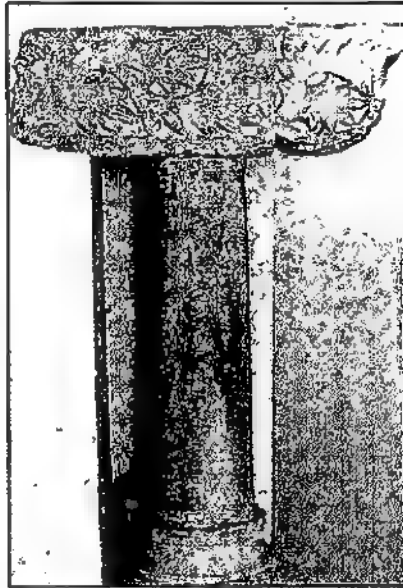
4



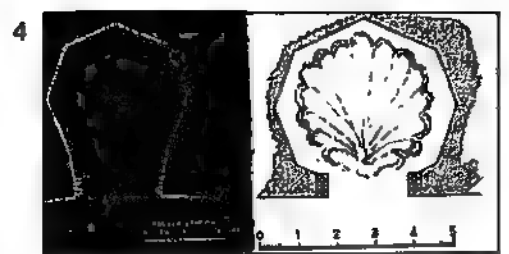
لوحة مجمعة 1-12:
حائط القبلة. حالة مسجد الكتبية، 3: المحراب الإضافي
(ق11)، مسجد ابن طولون، 4: مسجد في القاهرة فيه ثلاثة
مخاريب (محمد حمزة إسماعيل الحداد).



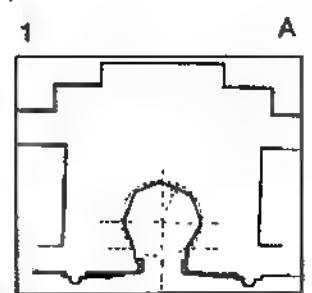
10



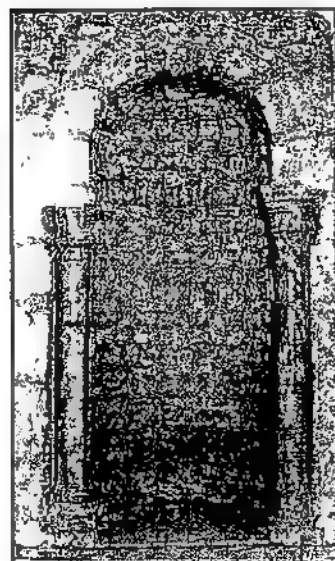
9



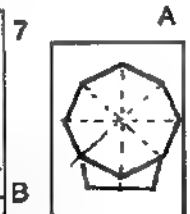
7, B



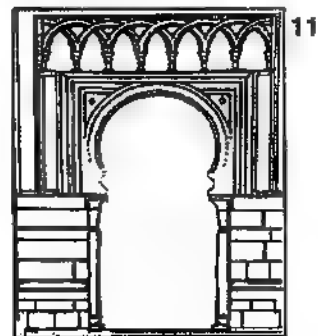
A



8

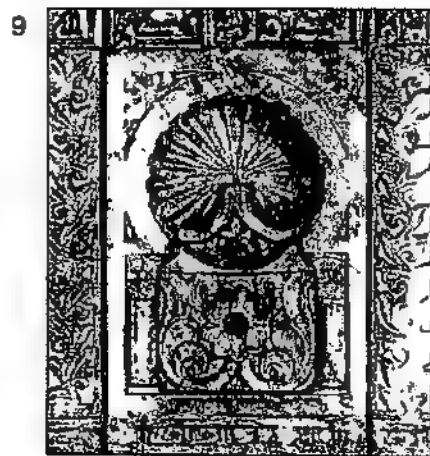
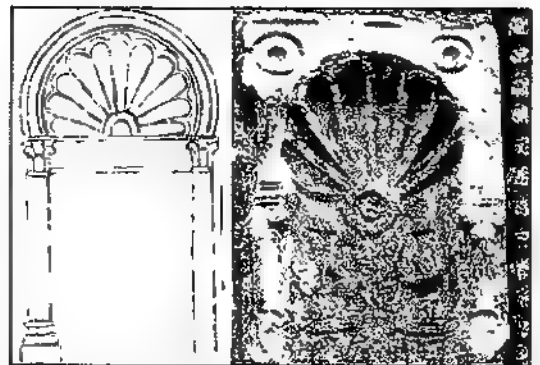
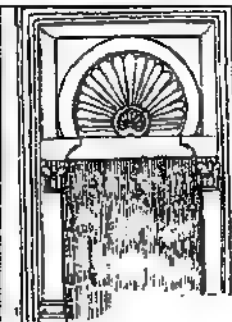
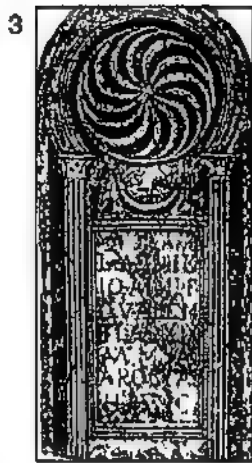
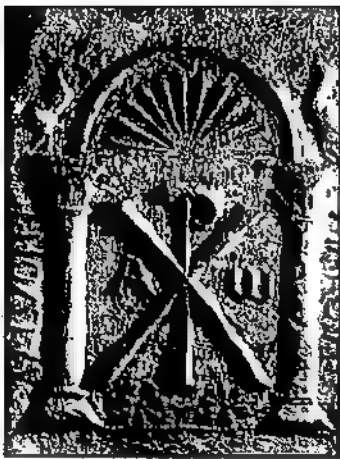


A

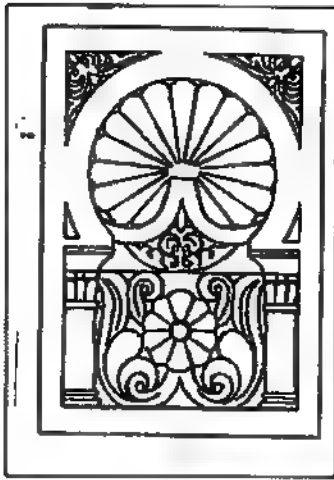


11

لوحة مجمعة 13:
المحراب. الأصول والتطور



لوحة مجمعة 14:
المحراب. الأصول والتطوير



3

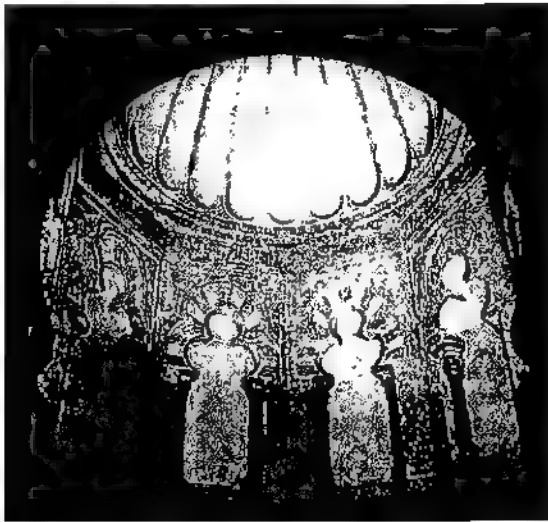


2

1



5



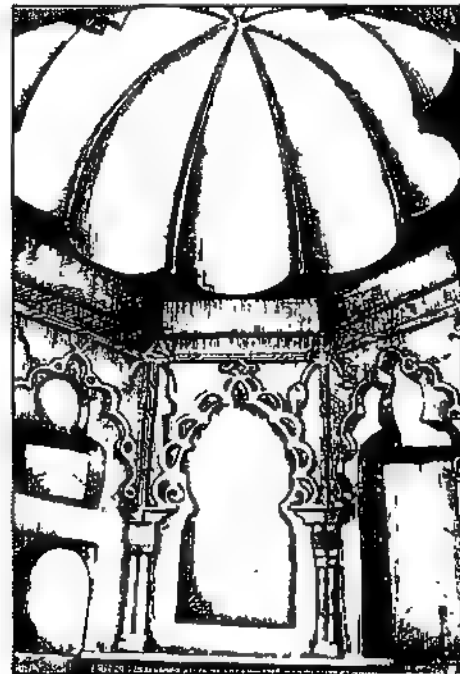
4



7



6



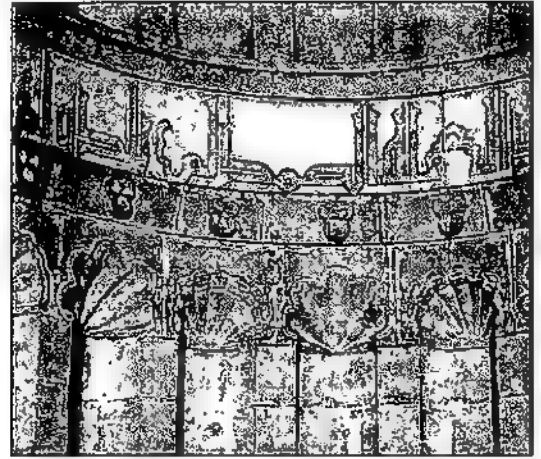
لوحة مجمعة 15:
عقود زخرفية، من الداخل



3



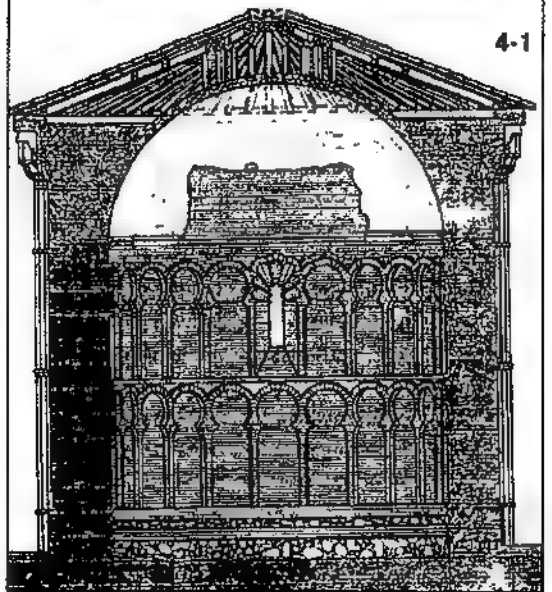
2



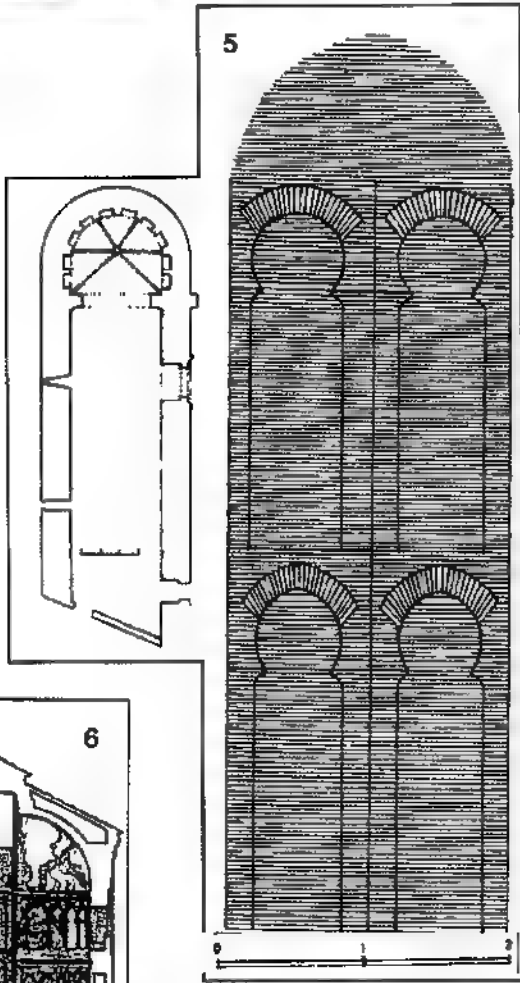
1



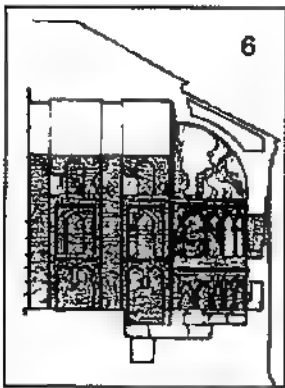
4



4-1

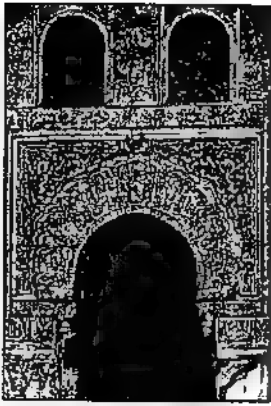


5



6

لوحة مجمعة 1-15:
عقود زخرفية، من الداخل

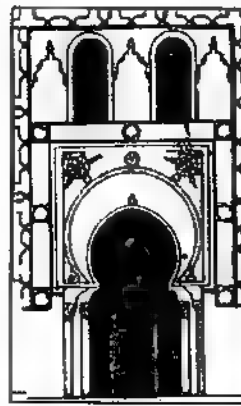


4

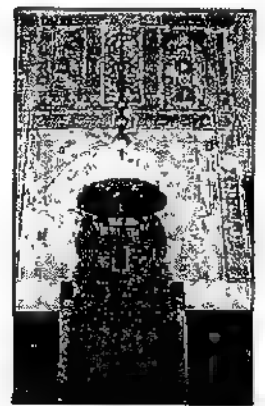
3



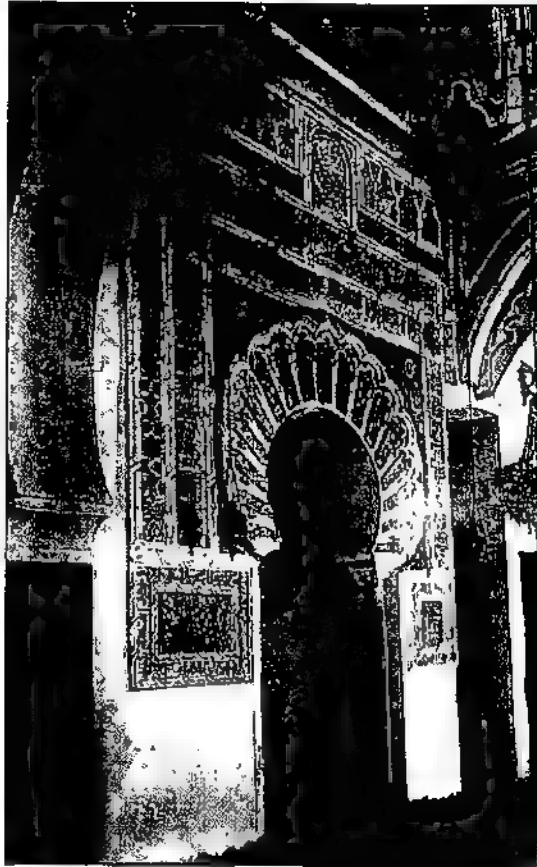
2



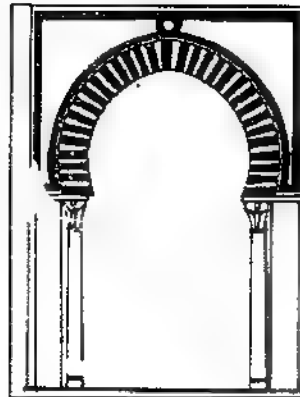
1



7



6



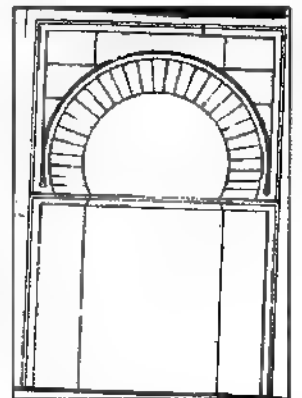
5



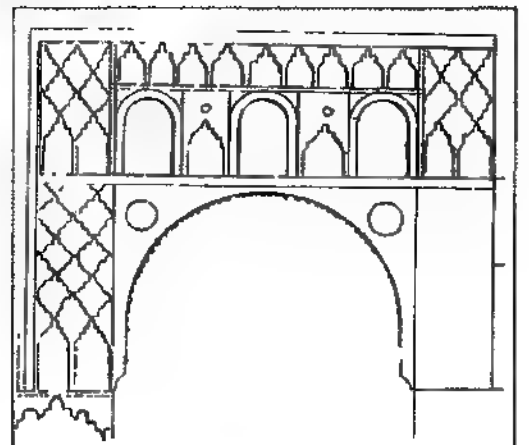
9



8



10



11



لوحة مجمعة 16:
المحراب. الواجهات

عليها مسجد تازا، وهكذا الأمر في المصليات المتأخرة والأكثر تواضعاً في الأندلس مثل مسجد فينيانا في ألمرية (3) ومصليات خاصة في الحمراء (4)، وكان ذلك غير بعيد عن محاريب المساجد المتواضعة في أفريقيا حيث اختفى منها قطاع البوائك العليا مثل مسجد شالا بالرباط (5)، (6)، (8) والمساجد التونسية التي ترجع إلى القرنين الثالث عشر والرابع عشر (دولالي)، (6)، (8) هذان الشكلان لهما أهمية خاصة حيث الواجهات المدجّنة في منزل أوليا (إشبيلية) (10) وقد ارتسمت سيراً على الواجهات الخاصة بمحاريب مسجد شمال والكتيبة (انظر الفضل الرابع، لوحة مجمعة 7) ولا شك أن واجهة المنزل الإشبيلي هي نقل حرية لمحراب المسجد الجامع الموحدي في إشبيلية. لكن، في طليطلة، لم يصلنا أي أثر للمحراب باستثناء واجهة الكوة التي زالت من الوجود والتي كانت في مسجد الباب المردوم حيث كان القطاع العلوي مكوناً من عقود زخرفية. وبالنسبة للعمارة المدجّنة في تلك المدينة نجد أن بعض الكنائس تضم في الواجهات الخارجية نمط العقد الذي تتوجّه انعقود الزخرفية (9)، وربما كان ذلك صدى لواجهات محاريب أو واجهات خارجية لمساجد معلية زالت من الوجود. هناك أمر مهم وغريب يتمثل في الواجهة - حامل الأيقونات في محراب المسجد الجامع في توزور - (تونس) (11). وهو مبنى مشيد خلال القرن السابع عشر، بما في ذلك المثانة، على يد الموريسكيين الإسبان، هم طليطليون في نظري، وذلك استناداً إلى طريقة بناء المثانة وشكل حامل الأيقونات الذي يعمل البصمة الخاصة بعصر النهضة حيث نجد الواجهة وكأنها بارزة عن الواجهات وحامل الأيقونات الطليطلية التي صممها الرسام ألجريكو وابنه خورخي مانويل.

وفي المغرب الإسلامي، خلال القرنين التاسع والعاشر. كانت هناك مصليات لها واجهات في الخارج وذات سمات رائمة سواء لناحية المخطط أو العناصر الزخرفية، وهذا ما يبرهن عليه مسجد البوابات الثلاث

في القيروان (866م) طبقاً للنقش الكتابي الذي وضعه ابن خيران المافري الأندلسي، وهو من الحجر المنحوت ولكن بمهارة رهيبة الشأن وكذا مسجد الباب المردوم بطليطلة - من الأجر - (999م). وقد التزم البنيان، كل على حريته، بالنمطية الثلاثية التي تشير إلى عقود بوابات المسجد القرطبي، مع وجود أشرطة متراكبة بها نقوش كتابية أو زخارف هندسية؛ ويقال إن هذه كانت مصليات خاصة أقيمت بناء على رغبة أناس من عليّة القوم، حيث المسجد الطليطلي منعزل أو مستثنى، وكلا المسجدان بدون صحن أو مثانة، وكان ذلك تأكيداً لوضعيتهما الخاصة. وفيما يتعلق بأمر وجود البوابات الثلاث في الواجهة الواحدة فهذا أمر لا يساعد على ربط هذين المصليين الصغيرين برابط مشترك أو متبادل يقوم على أساس التأثيرات، ذلك أن العقد الثلاثي له منبت مشترك هو مجموعة كثيرة من المباني التي ترجع إلى العصور القديمة والعصر البيزنطي، ويحدث الشيء نفسه في الواجهة البائكة بمسجد المهديّة في مرحلتها التي ترجع إلى العصر الفاطمي (لوحة مجمعة 17، 11)، وهي هذه المرة متوائمة مع الحائط الشمالي للمدخل إلى الصحن؛ ويرى أ. ليزن أنه بالنسبة لهذه الواجهة ذات البوابة أو ذات المخطط البارز، قدمت لنا شواهد واضحة تدل على أنها صورة تكاد تكون طبق الأصل لعقود النصر الرومانية في الإقليم، ومع هذا يعترف بوجود بصمة تعريب فيها، فالعقد الحدودي الكبير في المركز وهناك عقدان آخران مطموسان على الجانبين، أقل حجماً، تتوجّهما عدة عقود أخرى؛ وبغض النظر عن النقوش الشديد ذي الطبيعة العربية فإنه يستلهم قوس النصر ذي الورقات الأربع Cuadrifolia. دون أية إضافات في الجزء العلوي، حيث نجد السطح العلوي، طبقاً لرأي المؤلف، كان مكاناً مخصصاً للتدأ للصلاة، فلما كان المسجد فاطمياً فإنه يفتقر إلى مثانة؛ والشيء نفسه يحدث في مسجد سيدي علي المعمار في سوسة (لوحة مجمعة 17، 14) حيث سبق أن رأينا واجهته تعود

وفي هذا المقام تجدر الإشارة إلى القصر الزيدي في أشهر (الجزائر) (ق 10) (أ. ليزن) وإلى الوجهتين المتوازيتين في قصر مونتى أجودو (مرسية) وهما ترجمان في نظري إلى عصر المرابطين.

وعودة إلى الواجهة على شاكلة نمط المحراب وصداء في الواجهات الخارجية للمبنى، نجد في مدخل مصلى الجعفرية (لوحة مجمعة 13، 11)، واجهة تكاد تكون انتحالاً كاملاً من الواجهات القرطبية مع ما يصحب ذلك من السمات الخاصة بهذا الأثر السرقسطي خلال القرن الحادي عشر الذي يتسم بتجاوز القوانين الخلافية القرطبية في هذا الصدد، وخلاصة القول تجدر الإشارة إلى توجهات بعض الباحثين الذين يرون أن واجهة المسجد القيرواني دي البوابات الثلاث، المشار إليه سابقاً عام 866م، هي البوابة الأقدم في العالم الإسلامي التي وصلت إلينا؛ ومن الواضح أن هؤلاء الباحثين نسوا بوابة سان استبان التي جرت إقامتها أو زخرفتها قبل ذلك بعشرة أعوام (855م).

رأينا إذن أن العمارة الموحدية، التي تتسم بالروعة في تشييد مآذنها ثم يلي ذلك البوابات الكثيفة في أسوار الرباط والقصبة، قصبة عدية، قللت من أهمية الواجهات الخارجية للمساجد من حيث العناصر الرخفية إلى أدنى حد؛ هناك مسجد تمال ومسجد الكتبية والمسجد الجامع بإشبيلية، وهناك، كحد أقصى، العقد الحدوي الحاد وأحياناً ما تكون هذه العقود محاطة بعقود أخرى متعددة الفصوص، غير أننا في هذا المقام في حاجة إلى أن نعرف كيف كانت تتم زخرفة البوابات الخاصة بمسجد حسان الجامع بالرباط، الذي تولى كاليه، في عملية إعادة وضعه إلى ما كان عليه، رسم عقد حدوي حاد مزدوج. ومع هذا فبناء على العقد الداخلي الضخم الذي لازال قائماً عند البوابة الرئيسية في الشمال من صحن المسجد الإشبيلي من الجهة الخارجية والتي حل محلها باب الفجران ذي الطراز

بنا، من مجرد تأمل بسيط لها، إلى نمط الواجهة التي قمنا بتحليلها في قرطبة، حيث النمطية الثلاثية، غير أن الجزء البنيوي هو عقد الباب المركزي، وكذا النوافذ المستقلة فوق الثلاثة عقود السفلى؛ ومن الواضح أن واجهة مسجد سوسة أمكن أن تكون صدى لواجهات دور عبادة مسيحية محلية وهذا أمر يجب أن ندرسه بعناية؛ وفي نظري، فإن مدينة سوسة تحمل تأثيرات قرطبية تتمثل في باين في مسجدها الجامع، ربما أضيفاً خلال القرنين العاشر والحادي عشر (ل. جولفن)، وبالتحديد العقد الحدوي الذي يتوج منكب طنف للتريغ، وتعتبر الواجهة محل تعليقنا - في مسجد المهديّة - مهمة نظراً لبروزها إلى الخارج على شاكلة الأبراج التي تكسر استقامة الحوائط الخارجية، وهذا نوع من التجديد سوف يجد صداه في المساجد الفاطمية في القاهرة مثل مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الأقمر كأبرز النماذج في هذا السياق؛ غير أننا يجب أن نعرف بما إذا كان هذا الصنف من المداخل ذات الواجهات يرجع في أصوله إلى البوابة الشمالية الكائنة في مسجد مدينة الزهراء (كلاوز بريش K. Brisch) كما سيقف الإشارة إلى ذلك من خلال بعض الدارسين المحدثين، وهذا ما نراه حاضراً في المباني المهمة مثل قصر خربة المقجر الأموي في قصر «قائم Qa'im» الفاطمي في مدينة المهديّة؛ ومن القريب، أن هذا الصنف من الواجهات، الذي هو على شاكلة الأيوان الشرقي، يعود للظهور من جديد في البوابات الخارجية للمساجد الموحدية (مسجد تمال ومسجد الكتبية بمراكش)، كما ينوه عن نفسه أيضاً في مسجد حسان بالرباط، وربما كانت البوابات صورة طبق الأصل لتلك البوابة التي أشرنا إليها في صحن مسجد مدينة الزهراء؛ هناك أيضاً واجهات متوازية وبارزة نحو الخارج نراها في صحن المسجد الأموي «فونتانار» بقرطبة، وفي هذه المدينة أيضاً نجد باباً آخر للمسجد بشارع/ الملك إيريديا، أو مسجد سائتا كلارا (ق 10) الذي تبرز واجهته نحو الخارج بعض الشيء؛

القرطبية نفسه التي توجد في دور العبادة المدجّنة مثل سان أندرس (لوحة مجمعة 1-17، 2) وسانتياجو دل أزابال وسانتا أورسولا، وفي وادي الحجارة نجد واجهات الكنيسة المتأخرة المسماة سانتا ماريا دي لافوينتي، وكلها ذات عقد حدوي أو أن هذا الأخير محاط بعقد متعدد القصوص، وتقوّج المدخل أشرطة من العقود المقصصة أو الحدودية الزخرفية المترابطة ببعضها، ويوجد في واجهة كل من كنيسة سانتا أورسولا وسان أندرس نافذة وهمية مضافة في الأجناب وخارج إطار الواجهة وكأنها تنوّه بالنظام الثلاثي الأجزاء الأموي الطابع ذي الوضع الرأسي، ولا يمكن أن نجد شيئاً مشابهاً لذلك في الكنائس المدجّنة في كل من أرغن وإقليم الأندلس.

ليس من العدل الانتهاء من هذا الموضوع الخاص بالواجهات دون الإشارة إلى واجهات دور العبادة المسيحية التي نراها في المنمنمات المستعربة التي ترجع إلى القرون من العاشر حتى الثاني عشر، حيث نلاحظ فيها وجود صلات بدهية بواجهات المساجد الكبيرة التي سبقت الإشارة إليها؛ وربما سيكون نوعاً من الخداع القول إن مكونات واجهة مسجد المهديّة (لوحة مجمعة 17، 11) تشبه، على سبيل المثال، ما عليه كنيسة أو مبنى القدس وما عليه واجهة سوسة التي نراها في «كتاب دانييل» وهي مخطوطات أخرى مسيحية (لوحة مجمعة 17، 1-13: 16)، حيث نجد نمط واجهة مكونة من عقد حدوي في الوسط تتوجه من أعلى نافذة بها عمود في الوسط لها العقد نفسه وعلى الجانبين، وكأننا أمام بوابة ذات عتب، نجد تراكيباً لعقود أخرى توائم شديدة القوس، أي أننا، في نهاية المطاف، أمام التكوين نفسه الذي نراه في بوابات المسجد الجامع بقرطبة؛ وفي «مخطوطة بيخيلانو» لسان مارتين دي أنبلدا (تأبازاً)، نجد أشكال كل من دار العبادة المسماة سانتا ماريا، وسان بدرو، إضافة إلى سور طليطلة، ونلاحظ أن داري العبادة ذواتا خطوط بسيطة في الواجهة، حيث نجدها مكونة من باب ذي عقد حدوي وقطاع من العقود

الخاص بعصر النهضة، فلا بد أنها برزت من حيث الحجم والفخامة بالمقارنة بالبوابات الأخرى، وربما كان ذلك من خلال إضافة سلسلة من العقود في الأعلى على الطراز القرطبي؛ وربما لن يكون الأمر كذلك في الشمال الأفريقي خلال عصر بني مرين. نقول ذلك بناء على بوابة مسجد az-Azhar بقاس الجديدة المشيد من الحجارة، حيث نجد أن عقده الحدوي الحاد يضمه عقد آخر سيراً في هذا على شاكلة البوابات التي تشيد بهذه المادة والموجودة في أسوار الرباط، وهي بوابة متكررة مع بعض الإضافات الزخرفية في البوابة الرئيسية الخاصة بمئذنة مسجد المنصورة في تلمسان، وبشكل جزئي، في البوابة الرئيسية لشلال بالرباط، حيث يلاحظ أن كليهما أقل بكثير من مستوى بوابة زاوية التّسّاك في ساليه (ق 14) وهذه الأخيرة جديرة بأن تكون ضمن أبرز وأهم الواجهات المغربية (لوحة مجمعة 6، 7، 8)، وبالنسبة لأفريقية فإنه بعد تجاوز المرحلة الفاطمية والزيدية بُعثت من جديد واجهة المحراب القرطبية ذات العقود الزخرفية في القطاعات العلوية، طبقاً لما جرت إضافته، خلال العصر الحفصي، إلى المسجد الجامع بالقيروان. أي باب لا لا ريعانة وأبواب أخرى من الآجر، وهناك لها خصوصية هي أن عقد المدخل يقوم على كلا العمودين وتيجان قديمة جرت الإفادة منها، وكانت مثل هذه الدعامات، حتى ذلك الحين، مرئية في عقد المدخل في رباط سوسة وفي رباط المنستير (لوحة مجمعة 17-1، 1)، وربما كان ذلك وسيلة لإضفاء القدسية على هذين المينين اللذين يقومان بدور الحصن ودور ديني آخر (وهي هذا المقام علينا أن نتذكر نموذج المحراب الأغلب في المسجد الجامع بالقيروان وواجهة المكتبة، إضافة إلى محاريب المساجد في الرباطين محل الذكر).

وبغض النظر عن واجهات مسجد الباب المردوم فإننا لا نعرف أكثر من ذلك بالنسبة لواجهات المصليات في طليطلة، فقد زالت كلها من الوجود كما سبق القول وربما كان بها، على سبيل التخمين، نفس نمط الواجهات

المدينة، وأن واجهات الكنائس المستعربة المشيدة من الحجر تقتصر إلى القيمة الفنية القائمة شمال شبه الجزيرة باستثناء كنيسة سان سلبادور (لوحة مجمعة 17، نمط 19)، هو أمر يصلح لأن تفسره بقراءتين إحداهما هو أن هذه الكنائس القوطية أو المستعربة في قرطبة أو إقليم الأندلس ربما كانت بالنسبة لأمر الواجهات مختلفة من الناحية الجمالية عن تلك الأخرى التي نجدها في هضبة قشتالة؛ أما القراءة الثانية فهي أن قرطبة أو طليطلة اللتان استحوذتا، ومعهما ماردة، على أغلب الموروث القوطي الرسمي والمستعرب في شبه الجزيرة كان من الممكن أن تكون بها كنائس - سواء كانت كاتدرائية أم لا - ذات واجهات على نمط أقواس النصر الموروثة عن العالم القديم. وهنا نقول إن المشرق كان يضم القصور الأموية والعباسية التي اتسمت بواجهاتها الضخمة ذات النظام الثلاثي، وأحياناً ما نجدها مصحوبة ببوائك زخرفية في الجزء العلوي تأثراً بالعمارة في العصر البيزنطي المتأخر أو الفن الساساني، غير أن هذا كله لا يشكل أساساً قوياً للتفكير بأن أشكال المباني المرسومة في المنمنمات في المخطوطات لدينا قد تأثرت بالمشرق من خلال الإسلام؛ إن واجهات المباني التي في المنمنمات المستعربة لها نموذج عام من الواجهات المعنادة في حوض البحر الأبيض المتوسط وأن الإضافات البسيطة ذات الطابع التاريخي أو الديني سرعان ما تميل بنموذج ما إلى هذا الجانب أو ذاك خلال العصر العربي أو بعده، وهذا يعني أن نماذج الواجهات التي نراها في المخطوطات ربما كانت قائمة في شبه جزيرة إيبيريا من خلال روما وبيزنطة أو القوط، ثم ورث ذلك المسجد الجامع في قرطبة وأصبح حالة جيدة ومتميزة، ذلك أن البوابات الوحيدة التي وصلتنا من مساجد أخرى في المدينة - مثل واجهة سانتا كلارا - تستعصي على هذا الإطار ونراها وهي تضم فتحة عقد حدوي بسيطة. ثم زالت الكنائس القوطية أو المستعربة من مدتنا ولم يصلنا منها

الصغيرة في الأعلى، أو أن كلا العقدين في الأعلى على جانبي الباب (لوحة مجمعة 24، 6)، كما نجد مدينة بايبلونيا ممثلة في Beato de Liebana (ق 11) (لوحة مجمعة 17، 16) أو كنيسة في كتاب Valcabado حيث هناك عقدان حدويان تؤمان إضافة إلى عقد آخر في الجزء العلوي، وكلها ذات ستائر. وبعض هذه اللوحات نجدها في كتاب بويرتاس تريكاس «الكنائس الإسبانية» (من القرن الرابع حتى القرن الثامن)، حيث نلاحظ وجود العديد من الشواهد الأدبية التي تشير إلى دور العبادة تلك، غير أن المؤلف يتجنب الإشارة إلى الأصول والتاريخ الخاص بالمباني التي توجد لها رسوم. ومن جانب آخر أشرت في صفحات سابقة إلى وجود القليل من الشواهد المتعلقة بالسماوات الخاصة بالكنائس القوطية أو المستعربة التي زالت من إقليم الأندلس وخاصة القرطبية منها، وألمحت بوضوح أيضاً إلى بعض الكواويل Madillon المثلثة والمصحوبة بزخارف خلافية، كان من الممكن أن تكون أجزاء من الكنيسة المستعربة سانتا ماريا، التي كانت قائمة إلى جوار المسجد الجامع في تطيلة، الذي يرجع إلى القرن العاشر؛ أشرت أيضاً إلى العقود الحدوية والنوافذ ذات العقود التوائم ذات درجة القوس نفسها بالمقارنة بالفترة القوطية وأنها قد انتقلت إلى المآذن وكذلك الكنيسة المستعربة القديمة هي بويشتر (ملقة) حيث نلاحظ العقود الحدوية لبلاطاتها إضافة إلى المذبح المركزي ذي المخطط شبه المستدير الذي هو من سمات الكنائس التي ترجع إلى العصر المسيحي الأول والعصر القوطي.

من المنطقي أن نطرح فيما إذا كانت دور العبادة التي نرى صورها في المخطوطات المستعربة هي في واقع الأمر نسخة طبق الأصل من الكنائس القوطية والمستعربة أم أنها مجرد نقل حر لواجهات المسجد الجامع في قرطبة، وبمقولة أخرى: هل نحن أمام نماذج من الواجهات الإسلامية مثل واجهة سان استبان في المسجد الجامع بقرطبة؟ إن مجرد رصد هذه الواجهات فقط في هذه

«الناسك هي الأسكوريال» Beato del Escorial (ق 10)، وهذه كلها مخططات قابلة للتطبيق على مبان غير دينية (واجهات المدن) ودينية، وبالنسبة لهذه الأخيرة نجد أنه إضافة إلى المقد الحدي هناك الرموز المسيحية القديمة التي نراها في لوحات قوطية في باطقة وغيرها مثل الجرار وبعض النجوم والورود التي تساعدنا على تحديد هوية المباني وما إذا كانت واجهات كنائس بازيلكية أم لا من ثلاث بلاطات ومصحوبة بدعامات للفصل بين الأروقة الثلاثة. ويلاحظ أن الأروقة الجانبية تضم سقفاً مائلاً على شاكلة كتيبة سان سلبادور دي بالدي ديوس. أما المباني المدنية أو العسكرية فقد كان بها برجان بهما عقود حدوية متراكبة وهي الجزء العلوي قطاع من الفتحات، وأحياناً ما نجده مصحوباً بمجاريين وهم يقذفون سهامهم. وتكاد الرموز المسيحية تختفي من هذه المباني. هذا التواجد للواجهة ذات الشوارع الثلاثة في الكنائس وبوابات المدن يرتبط، في واقع الأمر، بقوس النصر الموروث في العالم القديم، وهو الذي نراه في البوابات الخاصة بالقصور وليس في مداخل المدينة الرومانية؛ وإذا ما قبلنا نمط الواجهة الكنسية في المنتمات المستعربة، وذات الشوارع والأسقف المائلة، مثلما هو الحال بالنسبة للمباني ذات الأروقة الثلاثة، أبرزها أوسطها، يمكن الخروج بخلاصة تقول إن بوابة سان استبان بالمسجد الجامع في قرطبة (لوحة مجمعة 17: 15) لم تكن إلا عملية مواءمة أو اتخاذ للشكل الذي عليه الواجهة ذات الشوارع الثلاثة الكائنة في دار العبادة القوطية والمستعربة بالمدينة. غير أن هذا الطرح لا يقلل ولا يبعد من إمكانية وجود علاقة لذلك بنظام أقواس النصر القديمة حيث إن واجهات الكنائس المستعربة والمسجد قد التقيا على هذا المصدر المشترك.

في خضم الظلمة التي تحجب وجود الكنائس التي ترجع إلى العصر المسيحي الأول أو القوطي أو المستعرب في كل من قرطبة وطليطلة، نجد أن مجرد وجود

الإقامة من الأسماء المكرسة لها، ومن هنا فإن واجهات المساجد الجامعة في كل من قرطبة ومدينة الزهراء لا يمكن فهمها من خلال التأثيرات الشرقية الإسلامية كتفسير وحيد بناء على قراءات بعض المتخصصين.

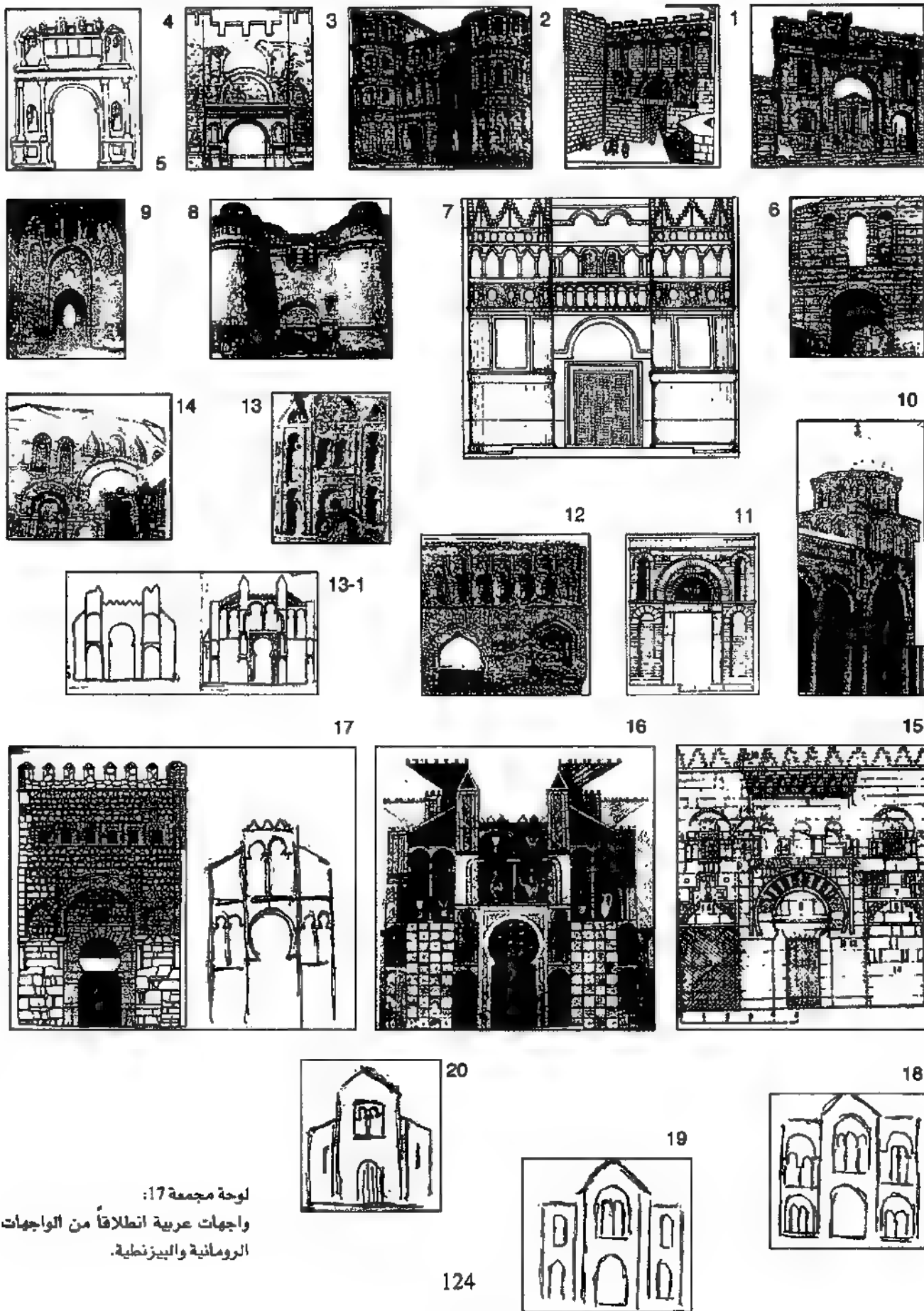
وختاماً نتساءل: هل الكنائس والمباني الأخرى التي نراها في المخطوطات ذات صلة مباشرة بالموروث القوطي؟ أم هل كانت متأثرة بشدة بالموروث العربي القرطبي الفريد والفني بالموارد الفنية حسبما نراه في الكثير من الظواهر داخل الكنائس المستعربة شمال شبه الجزيرة؟ ونتساءل أيضاً إلى أي درجة كان المقد الحدي بسمته البارزة ضالماً في ذلك الأمر الخاص بالفصل بين ما هو قوطي وما هو عربي؟ ابتداء من المرحلة القوطية وحتى ما بعد عصر المدجنين كان المقد الشديد التقوس هو بطل الحلبة، وهذا أمر غريب في العمارة العربية التي نراها في أصقاع أخرى بعيدة عنا؛ هذا المسار الطويل الذي عليه هذا المقد يرجع - خاصة في طليطلة - إلى أن الشعب المسيحي يملوكه وأمرائه حافظ على الثقافة الفنية للشعب المهزوم وذلك كموروث وحيد لا يمكن التنازل عنه وترك للمرفاء استعراض مواهبهم في العمارة المورثة، ويمكن تطبيق هذا المنظور على المرحلة الانتقالية القوطية العربية التي بدأت في قرطبة وطليطلة حيث إن المقد الحدي - باستثناء بعض التفاصيل الفنية القليلة - ظل من خلال الكنائس المستعربة وسرعان ما سنرى تأثيراته في مساجد الأحياء والمسجد الجامع الذي شيده عبد الرحمن الأول.

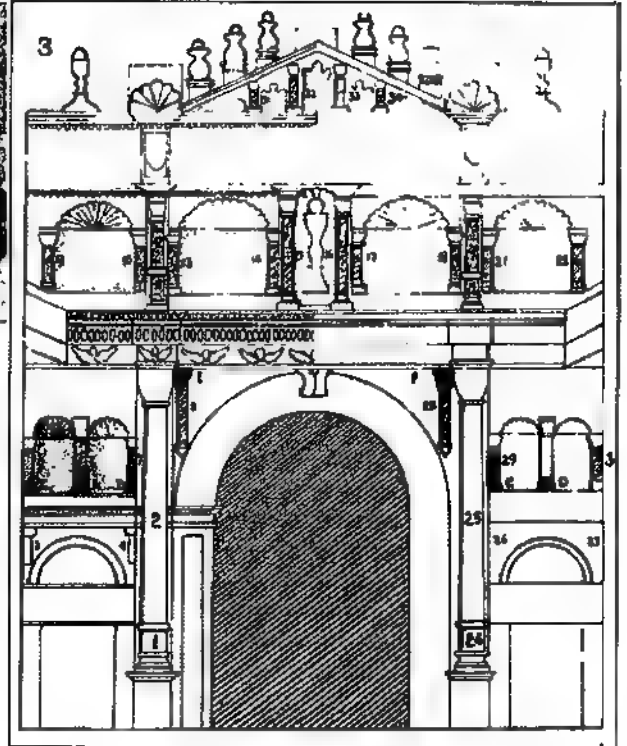
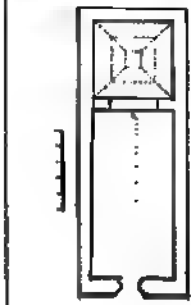
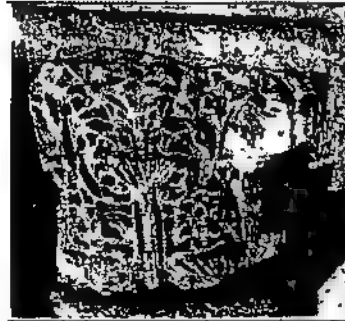
ترتبط أشكال المباني في المخطوطات المستعربة بحلبة العاج التي ينظر إليها البعض على أنها قوطية وهي قطعة من مجموعة Pitcarin، متحف بنسلفانيا (لوحة مجمعة 17، 13) حيث نجد بها ثلاثة شوارع أوسطها أوسعها وعقود حدوية والنافذة القوطية ذات العمود في الجزء العلوي وكذلك ثلاثة أشربة في كتاب Beata de Liebana (لوحة مجمعة 17، 16، ومخطوطة

المباني ربما يفزع كل هؤلاء الذين رأوا في الآثار تأثيرات مشرقية أخذت تهول نحونا، وكست، في نظر هؤلاء، كل ما يتعلق بالثقافة المشرقية في المغرب الإسلامي، ومع هذا فإن كثرة قطع الرخام التي أتت من الفن القوطي في مدننا تطلب منا مقاربات مثل التي تولينا أمرها وذلك كوسيلة لرأب الصدع الناجم عن العزلة التي عليها المسجد الجامع في قرطبة خلال عصر الإمارة، ورغم أنه أتى بعدها المسجد الجامع في مدينة الزهراء في عصر الخلافة لا يساعد على هذه الموجة من الزخارف القوطية والبيزنطية التي عليها القصور في هذه المدينة الملكية، ففيها لا نعرف شيئاً، على وجه اليقين، يتعلق بالارتفاعات التي كانت عليها واجهات القصور اللهم إلا العقد الثلاثي، الذي هو Tribelon البيزنطي، أو واجهة التشرقيات للعمود المتشابهة ذات الأصول الرومانية والتي أصبحت نمطية في كل من ماردة و Volubilis، هذا إذا ما استثنينا عملية إعادة تصور بعض البوابات في مسجد تلك المدينة، هناك شيء وثقون منه وهو أن بعض واجهات الكنائس البيزنطية، مثل واجهة كنيسة سان لوكاس دي هوثيدا (Hosios Lukas) (ق 11-10) (لوحة مجمعة 17 أشكال 18، 19)، توجد بها النمطية نفسها التي شهدناها في المخطوطات المستعربة، وتبرز في هذا المقام، مرة أخرى، واجهة مسجد سيدي علي العمار في سوسة (ق 10) (لوحة مجمعة 17: 14) حيث نجدها شديدة الشبه بما هو في المخطوطات المستعربة وكذا بوابة سان استبان بمسجد قرطبة الجامع، وقد قلت قبل ذلك إن واجهة مسجد سوسة ربما كانت صدى لكنيسة محلية في المكان سابقة على العصر العربي.

ولزيد من الإيضاح لكل ما سبق عرضه من واجهات نسوق عجالة تتمثل في اللوحة المجمعة رقم 17، حيث تضم واجهات مساجد وقصور من أماكن مختلفة وتضم أيضاً بشكل استثنائي بعض الواجهات الخاصة بالفن الروماني القديم: 1: قوس القصر الروماني

في خيراسا وقد ساقه تورس بالباس عن صمد لهذا الغرض، 2: واجهة قصر سبلت في دلفيا (نشره تورس بالباس)؛ 3: الباب الأسود Treveris؛ 4: واجهة رومانية بيزنطية في نيس Nicea في إسطنبول؛ 5: قوس النصر الروماني في Dejemila، الجزائر؛ 6: من الأمفيتياتر الروماني في بورديو (نشره تورس بالباس)؛ 7: أموي من المشرق بقصر الحير (طبقاً لرسم مأخوذ من صورة للويث ريش و أ. فرنانديث بويرتاس)؛ 8: أموي من المشرق بقصر الحير الغربي (كروزيل)؛ 9: داخل واجهة قصر أخيشير (كروزيل)؛ 10: واجهة قبة البهو في المسجد الجامع بتونس؛ 11: واجهة صحن في مسجد المهديّة الجامع؛ 12: واجهة من الأجر في الرقة، العصر العباسي (كروزيل)؛ 13: صندوق ترى الأراء أنه قوطي، في مجموعة Pitqirm (متحف بنسلفانيا، فيلادلفيا)؛ 1-13: منمنمات كتاب ليانا وكتاب دانييل؛ 14: مسجد سيدي علي العمار بسوسة؛ 15: واجهة سان استبان بالمسجد الجامع بقرطبة؛ 16: كتاب ليانا (ق 11)؛ 17: باب بيساجرا القديمة بطليطلة؛ وفي اللوحة المجمعة 1-17 رقم 3 نجد نموذجاً قريباً لواجهة مسيحية إسبانية ترجع إلى بداية القرن السادس عشر من كوليفياتا دي توريجوس (طليطلة)، وهي كلها من الحجارة وجرت الإفادة من الأعمدة الصغيرة والتيجان الأموية القرطبية التي ترجع إلى القرن العاشر في 30 (3)؛ وفي اللوحة نفسها أدخل بعض التيجان الأخرى الخلافة التي أعيد استخدامها وتوجد في مدخل مصلى سانتياجو في دير لاس أوليفاس دي برغش (ق 13) (4)، وعموماً فإن مخطط الواجهة في كوليفياتا دي توريجوس يبدو وكأنه يحوي نمط واجهة المسجد الجامع بقرطبة. وقد شيدت دار العبادة تلك بناء على أوامر أصدرها جوتيهير دي كارديناس وهو شخصية شديدة الارتباط بالملوك الكاثوليك، كما أنه شارك في حروب ضد المورو في مملكة غرناطة؛ وحول هوايات هذه الشخصية التي تميل لما هو عربي نذكر أنه أمر





لوحة مجمعة 1-17:

واجهات

- (1) من إفريقيا (2) كنيسة سان أندرس في طليطلة.
- (3) مسيحية من كوليفياتا دي توريسوس (طليطلة) (4)
- من مصلى سانتياجو. لاس أوليفاس في برغش.

بأن يكون أحد أسقف قصره في أوكانيا (طليطلة) به أحد العبارات العربية وهي الشهادتين «لا إله إلا الله محمد رسول الله»؛ وبعد ذلك نجد في اللوحة المجمعة نفسها رقم 1 الذي هو الواجهة الرئيسية لرباط المنستير (تونس)؛ 2: واجهة كنيسة مدجّنة هي سان أندرس بطليطلة (ق 12-13).

1-6: الزخرفة:

عندما نباعد الواجهات جانباً ونتمق في العناصر الزخرفية في المغرب الإسلامي، والتي نراها على الكتل الحجرية والجص والخشب، يمكن التأكيد، في هذا المجال، مثلما هو الحال في المشرق، أن هناك تشابكاً بين الزخارف النباتية والهندسية والنقوش الكتابية، وقد وضع هذا بقوة في المساجد الجامعة بقرطبة ومدينة الزهراء، ففي هذه نجد الفن الإسلامي، مقارنة بأي من دور العبادة الأخرى، وقد بلغ شأواً غير مسبوق في الشكل، بإضافة عقود ذات أشكال مختلفة ثم تلا ذلك في وقت لاحق (ق 12) إضافة المقرصات، وتجاوزت هذه العناصر الزخرفية أي سياق زخرفي للعضادات السابقة؛ وأثناء فترة الميلاد لهذا العالم الزخرفي الخاص نجد المشرق والمغرب يسيران في خطين متوازيين للغاية وخاصة خلال القرون الثامن والتاسع والعاشر، غير أننا عندما نتجاوز هذه المسارات المتوازية يمكن القول، وبقوة، إن الفن في قرطبة الأموية شهد خلال القرن العاشر ولادة ما أطلق عليها، عن حق، «العمارة الزخرفية»، وهي عمارة ذات طبيعة عملية وزخرفية في آن، وقد اختلط كلا الاتجاهين في المخطط الرأسي للحوائط والعقود والأقنية، وهذا أمر غير مسبوق، عملياً، في المشرق حتى يومنا هذا حسب ما نعرف.

من المعتاد أن نعثر في ملخصات تاريخ الفن العربي عندنا على عبارات مثل «الزخرفة المعمارية» أو «العمارة

الزخرفية» عندما يجري الحديث عن قرطبة، وهناك أيضاً مصطلح «التوريقات» و«الأرابيسك»، والتشبيكات» (الزخرفة الهندسية) والكوفي المزهر أو النقوش الكتابية المائلة أو النصرية، ودائماً ما ترتبط هذه العبارات بالعمارة؛ وبالنسبة للعقود في الأندلس هناك العقد الحدودي - تدريجي - ذا المركز الواحد أو المركزين والعقد المفصص والعقد المتعدد الخطوط والعقد ذو الستارة أو المسمى Lambrequin، أما الأقنية فهناك البيضاوية والمشطوفة aristas وذات الأوتار أو العقود المتشابكة مع وجود المفتاح، وقد تشكل فيه شكل متعدد الأضلاع، والقباب المضلعة وقباب المقرصات؛ هناك إذن محيط متلاطم الأمواج من الأشكال الزخرفية الشديدة الارتباط بالعمارة والتي تجعلها أكثر اكتمالاً وبهاءً في مواجهة أشكال مماثلة نجدها في المساجد المصرية والمشرقية، وبالنسبة للأرابيسك الإسباني نلاحظ أنه أخذ يكبر تدريجياً ابتداءً من واجهة بوابة سان أمثيان في المسجد القرطبي الجامع، وهو أول مسجد في المغرب الإسلامي مزخرف بكامله مقارنة - كما شهدنا - بواجهة مسجد الأبواب الثلاثة في القيروان حيث تأخذ الزخرفة طريق «الطبيعية» الجديدة التي تبنت ملامحها في مدينة الزهراء والمسجد الجامع بقرطبة خلال النصف الثاني من القرن العاشر، وفي هذه المباني نجد أن الأكانتوس الكلاسيكي قد اتخذ دوراً مهماً، سواء كان في التيجان أو على المسطحات العادية من الحوائط، ومنه انتبقت السعفة المدببة ذات الحلقات، وهذا أمر غير معروف في كل من المشرق وإفريقية، وامتد عمر هذه الجزئية الزخرفية على مدار حياة الفن الإسباني الإسلامي والفن المدجّن حتى نهاية القرن الخامس عشر؛ ثمة أيضاً تطور اللقائف والميل إلى الجمع بين الأرابيسك والنقوش الهندسية وخاصة الأشكال النجمية أو المفصصة حيث أسهمت جميعها في تحديد الملامح المستقبلية للزخرفة الإسبانية الإسلامية. وعند الحديث عن موضوع الزخرفة الهندسية أو التشبيكات

بمعزل عن التوريقات، نجد أنه يتنامى كفن ابتداء من الطبق النجمي من ستة أطراف - الذي نجده في مدينة الزهراء - وذلك كخلاصة للأسلوب العباسي الذي نجده في مسجد ابن طولون بالقاهرة؛ ثم يأتي الشكل المكون من ثمانية أطراف والخاص بالتشبيكات في المسجد الجامع بقرطبة، ومع مرور الزمن يشهد تطوراً هائلاً من كل جانب وتمثل ذلك في التشبيكات في الفن النصري والفن المدجّن، وربما كان ذلك بتأثير من الفن القاهري خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر؛ وكل ما يتلقاه الفن الأموي الأندلسي من المشرق أو من الموروث الهلنستي والبيزنطي يتحول ويتخذ أشكالاً أخرى ويقدم لنا نتائج جديدة ورموزاً زخرفية شديدة العملية والتطبيق في الفن في عصر ملوك الطوائف والعصر المرابطي ثم النصري بعد ذلك والفن المدجّن. هذه التوجهات الزخرفية غير المنصوح بها في المساجد خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر جعلت من هذه الأخيرة حاملة لرسالة التقشف التي كان يدعو إليها الموحّدون.

هناك أمر مهم آخر ألا وهو النقوش الكتابية، التي حظيت بالقبول لأسباب دينية، حيث نجد فيها صدى الآيات القرآنية والأحكام الرحيمة من كل صنف؛ تعلن هذه النصوص حقيقة الإيمان، ودور رسول الإسلام، ومن الطبيعي أن يكون المعراب الوسيلة الأساسية التي تفيد من هذه النصوص، نجدها في كوة المعراب أو واجهته الخارجية، ابتداء من المسجد الجامع في قرطبة ومروراً بمحاريب المساجد في عصر المرابطين والموحّدين في المغرب بما في ذلك مسجد توزور بتونس (1193م) والمساجد الأخرى المعاصرة لها طوال القرن الثالث عشر مبرزين منها مسجد تازا (1294م) أي أنه قبل مسجد فينيانا في ألمرية بوقت قصير، وانتهاء بالقرن الرابع عشر حيث نجد مصليات الحمراء والمسجد الجامع في رندة. غير أن المساجد التي شهدت في عهد الموحّدين تميل إلى القليل من النقوش الكتابية في كوة

المعراب، وأزالت من الواجهة أية نقوش كتابية تماماً ومع هذا يمكن أن نجد شيئاً منها في قاعدة القبة ذات المقربصات السابقة على المعراب في مسجد تمال، ويقول لنا العمري - القرن الرابع عشر - إن محراب المسجد الجامع الكائن في سهول غرناطة كان مزخرفاً وربما كانت به نقوش كتابية. ويلاحظ أن النقوش الكتابية في المعراب تقفّر إلى الواجهات الخارجية في المسجد الجامع بقرطبة خلال القرنين التاسع والعاشر وتنقل كذلك إلى الصحن والمئذنة. وعند الحديث عن مئذنة عبد الرحمن الثالث نجد أن بعض الدارسين المحدثين يصفون ما بها من أشرطة من النقوش الكتابية؛ ولا زالت المئذنة الخاصة بمسجد صفاقس (ق 11) تحملها حتى اليوم حيث نجد الشهادتين بالكوفية؛ وفي العصر الفاطمي في مصر نجد الأمر نفسه في منارة مسجد الحاكم بأمر الله (975 - 1021م)، وبالنظر إلى صحن المساجد نجد النقوش الكتابية فوق عقود البوائك بالمسجد الجامع بسوسة ثم نجدها وقد تكررت في صحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء، ودليلنا في هذا العثور على العديد من الجرازات الزخرفية في هذه المنطقة من الصحن وهي تحمل نقوشاً كتابية، كما أنها كانت موجودة في دهاليز صحن عبد الرحمن الثالث بالمسجد الجامع بقرطبة. هناك قطاعات أخرى في المساجد بها نقوش كتابية هي القباب أو الأقبية الكائنة أمام المعراب، وهذا ما نراه في المسجد الجامع في قرطبة (ق 10) ومسجد القرويين (ق 12) وكذلك في مسجد تمال حيث إنه الحالة الأكثر تمييزاً عما نقول؛ هذه النقوش هي غير النقوش الخاصة باللوحات التأسيسية التي نراها في الصحن والمقارنات وهي في أغلب الأحوال منقوشة على لوحة حجرية مستطيلة؛ فهي في المسجد الجامع بقرطبة قائمة على شكل شريط فوق طيلة عقد المدخل، ثم نرى صورة طبق الأصل لها (ق 10) في بوابات المسجد كافة؛ وقد ظهرت أمثلة من النقوش الكتابية في واجهات مساجد أخرى ثانوية

الجامع بقرطبة (ق10)، وكان الممتد في ذلك الزمان أن نرى نقوشاً كتابية في أي مكان دون تقطيع أو تركيب، وهي أنماط مقتصرة على الزخرفة الكتابية المرابطة والموحدة؛ وقد درس م. أوكانيا خيمنث المتخصص في علم الخط العربي النقوش الكوفية المرابطة والموحدة وأنها قد تطورت بشكل ملحوظ في مسجد القيروين بفاس (1146م) حيث نلاحظ ضفيرة مكونة بين الحروف الممتدة إلى أعلى وبذلك تتداخل مع التشبيكات أو الزخارف الهندسية التي نراها في مباني قلعة بني حماد خلال القرن الحادي عشر، وفي مقبرة القيروان خلال الفترة نفسها (ج. مارسيه)، كما يجري التنويه بها في نقش كتابي في الجعفرية بسرقسطة، وابتداء من قرطبة نجد أن الخط الكوفي يقتصر ظهوره على الآيات القرآنية الطويلة والتي تصل إلينا على أنها أيقونات مجردة تتحدث عن الدين، ويعبر الزمان نجدها في المساجد وفي القصور أيضاً، وعلى هذا فالديانة الإسلامية من خلال النقوش الكتابية الدينية أضفت طابعها المقدس على كافة المباني؛ وتحولت القصور من خلال تكرار لفظ الجلالة وغيره إلى مساحات مقدسة؛ وهناك انطباع يقول إن أية تجليات معمارية من الله ولله، وابتداء من المساجد الموحدة نجد العبارات الأكثر شيوعاً وهي «الله واحد» و «الحمد لله» والشهادتين «لا إله إلا الله محمد رسول الله». وعن النقوش الكتابية يعمامة أقدم من خلال اللوحات المجمعة 17-2، 3-17، 4-17 مجموعة من الأنماط المميزة، وفي اللوحة الأولى نجد لفظ الجلالة يمر بمراحل أسلوبية مختلفة؛ في اللوحة 3-17 نجد الشهادتين (1: مؤذنة المسجد الجامع بصفاقس؛ 1-1: مؤذنة ابن طولون بالقاهرة (1096م)، 2: محراب مسجد تمال، 3: مؤذنة سيدنا الحسين بالقاهرة (ق13)، 4: القبة الكائنة أمام المحراب في مسجد تازا، 4-1: داخل محراب مسجد توزور (تونس) 1193م) المؤسسة علي بن فنية مؤسسه والحمد لله، وفي اللوحة المجمعة 4-17 نجد رقم 1 يقدم لنا نصاً تأسيسياً

من بينها مسجد البوابات الثلاث في القيروان وهي نقوش ذات طبيعة تأسيسية، نجدها في واجهة مسجد بوفتاتة بسوسة 838 - 841، وفي الواجهة الرئيسية لمسجد الباب المردوم بطليلة (999م). هناك وفرة غير عادية من النقوش الكتابية في مصلى الجعفرية، وكذا أشرطة ذات نقوش كتابية تحيط بواجهة حرم مسجد الزيتونة بتونس. سبق القول أيضاً إن الموحدين، استناداً إلى مفاهيمهم الدينية، قللوا قدر الإمكان من النقوش الكتابية واقتصرت في وجودها على داخل تجويف المحراب حيث نقرأ «الله واحد» و «الحمد لله» أو الشهادتين؛ ومن غير المتصور أن نرى نقوشاً كتابية في المآذن الثلاث الكبرى التي ترجع إلى تلك الفترة خلال القرن الثاني عشر باستثناء بعض الرموز القليلة والمرسومة على منارة مسجد الكتبية بمراكش، وهي نقوش كتابية مأخوذة عن المرابطة؛ كما لا نجدها أيضاً في ذلك الزمان في واجهات المحاريب كما سبق القول. وعكس هذا نجد أن أشرطة كثيرة من النقوش الكتابية احتفظ بها الموحدين للبوابات الضخمة التي نجدها على الأسوار المقامة في كل من الرباط ومراكش وذلك كنوع من الدعاية لهم؛ وعند الحديث عن النقوش التأسيسية نجد أن الموحدين قد أزالوها سواء من المباني الدينية أو المدنية وبالتالي فهي مباني مجهولة المؤلف ولا يظهر أي اسم أو تاريخ للفرقاء أو الملوك الذين تمهدوا برعاية المبنى، فقد كان هذا ما تمليه المفاهيم الجديدة التي أسسها ابن تومرت، كما أن النصوص القائمة كافة لا تحمل إلا آيات قرآنية؛ أما آخر النقوش الكتابية التي تحمل تأريفاً من القرن الثاني عشر أو أسماء الرعاة فتجدها في محراب مسجد توزور التونسي (1193م).

إذا نظرنا إلى الخط الكوفي الأموي، ابتداء من مسجد مدينة الزهراء، نجد أنه يعنى بقالب الحروف الهيراطيقية، مع وجود الألف واللام مزهرتين. ولهذا الصنف من النقوش سوابق لا تدحض نجدها في المساجد المشرقية وكذلك أنماط متكررة في المسجد

العمارة الإسلامية الإسلامية. في الوقت ذاته نجد في ذلك الزمان أن العقد المفصص يفسح المجال للعقد ذي الستائر أو ما يسمى عقد lambrequin وإلى العقد المتعدد الخطوط؛ هذه النقطة الجمالية من القرن العاشر إلى القرن الثاني عشر، من خلال العقود والقباب، أخذت تستقر تدريجياً في المساجد المرابطية (المسجد الجامع في كل من الجزائر وتلمسان) وفي المساجد الموحّدية (تلمسان ومسجد الكتبية الثانية ومسجد قصبة مراكش) وفيها نجد العقد الحدوي مع عودة إلى العقد القوطي الأمر الذي يؤدي إلى ظهور العقد الشديد التقوس أو العقد ذي المركزين في إجمالي أروقة الحرم ودهاليز الصحن سواء كان بسيطاً أم مزدوجاً. ولم يكن ليخطر على بال أحد أن الموحّدين سوف يمتنون بهذه التجديدات الزخرفية التي ظلت حتى ذلك الحين حبيسة المسجد القرطبي الجامع في عصر الحكم الثاني وفي الجعفرية بسرقسطة، فالاتجاه العام، في واقع الأمر، الخاص بالمساجد الأفريقية خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان هو التقشف شبه الكامل، والشيء المثير للدهشة هو أن هذه الغيبة لما هو زخرفي تتوافق مع العقود المزهرة التي نتحدث عنها، وهي التي تحدد التوجه الجمالي الذي عليه عصر الموحّدين طبقاً لما يقول به هـ. تراس؛ هذا التوجه المعماري الحيوي المكون من العقود يتبدى بقوة وبهاء في قباب المقربصات الوريثة للموحّدين لكن بدون مبالغة. وبغض النظر عن ذلك نجد أن مآذن الموحّدين تخالف الرؤية السابقة فتزدهو واجهاتها بكل صنف من صنوف الزخرفة سواء كانت من الحجارة أو الأجر غير المغطى إضافة إلى مجموعة من العناصر الزخرفية المبالغ فيها وكذلك الحال بالنسبة لارتفاع المئذنة، وبالتالي نجد المئذنة الكبرى للمسجد الجامع في قرطبة تصبح صغيرة أمام هذه الضخامة، ولن يقول أحد إنه على المدى المتوسط أو الطويل كانت المآذن الثلاث (الكتبية والرباط واشبيلية) ستكون محور التطور الذي ستشهده الأبراج المدجّنة

في صحن المسجد الجامع بقرطبة، بينما ظهرت النقوش الكتابية الأخرى في مناطق من صحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء. وهنا يمكن للقارئ أن يطلع - بشأن هذه اللوحات المجددة الثلاث - المجلد الثالث من «العمارة في الأندلس - عمارة القصور». وهناك ملاحظة هامشية وهي أن النقوش الكتابية كانت تثقل من مكان لآخر بسهولة عجيبة؛ ولا نعرف حتى الآن في الأندلس وجود سنجات على أطرافها نقوش كتابية عربية، وأقول حتى الآن، بناء على جزائرات من سنجات تم العثور عليها في القصر المرابطي الكائن في دير سانتا كلارا بمرسية (ناباراً وبلاطون)، وربما كانت هذه السنجات في عقد أحد المصليات الخاصة في هذا العقد.

أشرت في صفحات سابقة إلى العقد الحدوي كسمة أساسية للمساجد الأندلسية، ففي مسجد قرطبة الجامع يكاد يتجاوز الـ 1/2، وأثناء عصر الحكم الثاني، في المسجد نفسه، نرى هجأة ظهور العقد المفصص ذي الأصول المشرقية، وهو عقد يعطي بعناية خاصة وذلك لارتباطه بالقباب أو الأقبية التي تضيف المزيد من المهابة على الرواق المركزي أو على البوائك التي يراود لها أن تبرز بقوة مثل الرواق الموازي للمحراب أو تلك البلاطة الفاصلة بين الجزء من المسجد الأميري والمسجد الخلافي الذي افتتح في عهد الحكم الثاني، وعلى هذا فإن العقد الحدوي المشترك يتنازل عن دور البطولة للعقد الجديد المفصص والقادم من الخارج، وفي الوقت ذاته نجد القباب وقد تزينت بعقود أو أوتار متقاطعة. هذه المحاولة الخاصة في الجمع بين قباب غير معتادة وعقود على الشاكلة نفسها في الأماكن المقدسة والأكثر أهمية في دور العبادة - أي أنها طريقة لرسم مخطط حرف الـ T - إنما تدخل في إطار أبهى التجديدات التي تستمر في المساجد الكبرى الموحّدية والمرابطية المعروفة في شمال أفريقيا، حيث نجد قباب الصدر تقير من نمطية ما هو موروث عن قرطبة، من خلال قباب مقربصات، وهذا ابتكار أجنبي آخر مشرفي أصبح له تأثير في

في إشبيلية وطلبيلة وأرغن؛ وختاماً لذلك نلاحظ أن الإسهام الموحد في كل هذا هو الطريقة الأكثر بساطة أو الخلاصة التي يتم من خلالها تنفيذ عملية نقل كل العناصر الزخرفية الموروثة عن الأسر الحاكمة السابقة؛ وعلى هذا، فإن الموحدين، هي الأساس، يرون أن العناصر الزخرفية التي يرونها هي المكونات المعمارية الحية مثل العقد والأقنية موزعة كلها بشكل متواز بالنسبة للمصلين الذين يجدون فيها تنويعاً بالاتجاه أو أهمية هذا الفراغ أو ذلك؛ وكان كل هذا قد شهد تطوراً على مدار الأعوام من 1130-1145 حتى 1199م أثناء حكم المؤمن أبي يعقوب يوسف وأبي يوسف يعقوب المنصور الذي انتصر في معركة أركوش Alarcos.

تعبير الأشكال المجتمعة التالية عما سبق الحديث عنه: لوحة مجمعة 5-17: 1: مسجد قرطبة الجامع بعد توسعة الحكم الثاني (رقم 5 يشير إلى قبة تقاطع و 3 إلى عقود مفصصة في هذا المثال والأمثلة التالية)؛ 2: مسجد شمال الموحدي حيث يتوفر على ما يقرب من ستة أنماط من العقود المختلفة التي نراها في المخطط تحت أرقام 3، 4، 6، 7، 8، 9 وأبرزها رؤية تلك الأعمدة الموجودة في رواق القبلة حيث رقم 3 عبارة عن ورق الأكانتوس ورقم 4 فصوص إلى trebol أو فصوص صغيرة قطرية و 6 متعدد الفصوص (طبقاً لتأويل أولي لهنري تراس)؛ وفي المسجد الذي يحمل رقم 4، مسجد الكتبية بمراكش، نلاحظ أن رواق القبلة به فيه تكرار لمجموعة قبة المقربصات والعقود Lambrequin (عقد في الصورة رقم 3)، وهذا ما نراه في فترة متأخرة في صالة العدل بقصر بهو السباع بالحمراء، مخطط 5 (ق 14) حيث نرى في هذا النموذج أو ذاك قبة المقربصات المشار إليها برقم 5، رغم ما يبدو في المشهد كله من تناقض. أما فيما يتعلق بالعمود في حد ذاتها فإننا تقدم بعضاً منها في المساجد المشار إليها، ففي اللوحة المجمعة 5-17 نجد رقم 6، وهو عقد مفصص نجده في المسجد الجامع في تلمسان (1136م) وهو مستخدم

ضمن العقود المستمضة في الأروقة المركزية، مثلما نراه أيضاً في المسجد المرابطي أيضاً بالجزائر؛ غير أن هناك استثناء يخرج عن السياق الديني وهو رقم 7، حيث نلاحظ العقود المتعددة المتراكبة في الباب الموحد بقصبة مراكش، تضم اللوحة المجمعة 6-17 مجموعة من العقود من مسجد شمال نراها في المخطط رقم 2 في اللوحة المجمعة السابقة؛ وبالنسبة لقباب المقربصات في المساجد المغربية التي ترجع إلى القرن الثاني عشر، فإن اللوحة المجمعة 7-17 تضم عدة أنماط تكاد تكون كلها زخرفية: 1، 3: من مسجد القرويين بفاس، 2: من القطاع الرئيسي للمبشاة الخاصة بالمسجد المرابطي القديم بمراكش - زالت من الوجود - لعلي بن يوسف، وهي المعروفة بقبة الباروديين، 4، 5: من مسجد الكتبية. وفي نهاية المطاف نجد تاج عمود من هذا المسجد الأخير (طبقاً لـ ش. إيورت) حيث أصبح نموذجاً لتيجان الأعمدة الموحدية سواء في شمال أفريقيا أو إسبانيا، ويمكن النظر إليه على أنه خلاصة ما ورثناه عن التاج المركب ذي الشكل الكلاسيكي الذي يرجع إلى عصر الخلافة في قرطبة؛ بقي أن نبرز المخطط الخاص الذي عليه مسجد قصبة مراكش (لوحة مجمعة 85، 5) إضافة إلى المسجد الكبير في الرباط الذي يعتبر آخر ما شيد في عصر المنصور، وهنا يبدو أنه يسير، من حيث الترتيب، على نهج الأربطة في أفريقية مثل المسجد الجديد بهذا الاسم وهو مسجد العسكر أو مسجد الحصن، إذ يلاحظ أن الجزء المسقوف منه شديد التربع، وهو في هذا يشبه ما عليه مساجد رباط سوسة والمنستير؛ أما الصحن فهو مقسم إلى أربعة فراغات إضافة إلى الفراغ المركزي المحاط ببوائك رشيقة التي نرى فيها - أي الخاصة بالصحن الرئيس - التوزيع التدريجي والمتوازي للعقود المركزية في صحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء؛ وهذا الصنف من التوازي الذي أشرنا إليه بين هذا وبين الأربطة التونسية يبرهن عليه وضع المئذنة ذات المخطط المربع والواقعة

في إحدى الزوايا كما أن جسمها بارز نحو الخارج بالكامل؛ ويمكس هذا المشهد الخاص بهذا الصحن، الذي يبدو أنه قرين بقصر أكثر من اقترانه بمسجد، الرغبة في التجديد عند الموحدين (تورس بالباس)؛ ومن جانبه يرى إيورت أن الصحن المذكور فيه أصداء من قصر الأخيضر في المشرق.

كان التنشيف الموحدي في زخرفة المساجد - ماعدا جمالية العقود والقباب والمنارات - قد زال وعفا عليه الزمن خلال الفترة اللاحقة عليهم، ومن أبرز الأمثلة على ذلك مسجد تازا الموحدي (1294م)، حيث يلاحظ أن المنطقة المحيطة بمحرابه الجديد الذي أقامه بنو مرين يعتمد عن بساطة المحراب الموحدي، وهنا تظهر العناصر الزخرفية الثرية التي كانت ترى خلال عصر المرابطين والتي انتهت مع مسجد توزور التونسي الذي يرجع إلى عام 1193م، مقارنة بالموحدية (لوحة مجمعة 8-17)؛ ويلاحظ أن الجزء المسقوف في مسجد تازا قد حظي بمحراب غني بالزخارف إضافة إلى قبة الأوتار الخاصة به، وبذلك يتم الربط بينهما وبين المساجد في كل من الجزائر والحمام خلال القرن الرابع عشر إضافة إلى المسجد الرئيسي في رندة.

وبشكل موجز يمكن لنا أن نتحدث عن العناصر الزخرفية اللاحقة والمعاصرة في العمارة الدينية في الأندلس آخذين - كنموذج - مدينة الزهراء والمسجد الجامع بقرطبة؛ أما بالنسبة للمشرق فإن العمارة الأموية، مع بروز التأثيرات البيزنطية والهلنستية في الحجر والجص، إضافة إلى الفسيفساء ذات التقنيات والتأثيرات البيزنطية في مسجد دمشق وقبة الصخرة بالقدس وفي المسجد الأقصى بالمدينة نفسها - القدس - تبرز فيها كوات العقود الحدودية والأعمدة والعناصر الزخرفية النباتية أو شجرة الحياة في الوسط (لوحة مجمعة 14: 11). وخلال العصر العباسي - العاصمة بغداد - نجد أنه إضافة إلى مسجد Tarih de Balh في

أفغانستان (ق 9) ومسجد ناين في فارس (ق 10) هناك المسجد الكبير، لابن طولون بالقاهرة، (ق 9)، وهذه المساجد الثلاثة تضم الكثير من العناصر الزخرفية من الحصن والتي تعمل تأثيرات من الرافدين التي ولدت في قصور سامراء مع بصمات واضحة من الفن الساساني، والأساس في كل هذا هو الزخارف النباتية من زهور ذات شكل طبيعي تضمها وحدات متعددة الأضلاع، ثم يلي ذلك أسلوب أكثر تنشيفاً وتكاملاً سواء كان هندسياً أو خطياً وهو أسلوب يتسم بالمبالغة في التنشيف والتكامل، وبشكل أو بآخر يرتبط التوجه الأموي خلال القرن العاشر بهذه الطرائق الأسلوبية (مدينة الزهراء والمسجد الجامع بقرطبة خلال عصر الحكم الثاني)؛ وبالنسبة للأسلوب الخطي العباسي المتكامل القائم في عقود مسجد ابن طولون بالقاهرة، ربما كان مقدمة للعقود الموحدية - من منظور داخلي لها - في كل من إسبانيا وشمال أفريقيا؛ وفي أفريقية جرت الإشارة إلى تأثيرات الأيدي العاملة الأفريقية في الحفاظ على التقنيات التقليدية للفن المحلي المسيحي (ج. مارسية) دون استبعاد للتأثيرات المشرقية الأموية ثم العباسية وخاصة في القيروان - المسجد الجامع بها - حيث نجد الزليج من الرافدين في واجهات المعاريب؛ وكذا الأمر في مسجد البوابات الثلاث، ويتسم الإقليم نفسه، مع بداية العصر الفاطمي، بالتنشيف الزخرفي الذي نراه واضعاً في مسجد المهديّة حيث انتقلت تأثيرات عقوده أو كواته الزخرفية الخاصة بالواجهات إلى المساجد الفاطمية بالقاهرة، وفي هذه المدينة نجد أن المسجد الفاطمي الأهم والأكثر تمثيلاً هو الجامع الأزهر، يليه مسجد الحاكم بأمر الله (1021-975) المزخرفة بآرائه الخارجية وكذا الأجزاء السفلى لمئذنته مع زخارف هندسية ونباتية في آن، ويرى جومث مورينو أن ذلك ذو تأثير قرطبي؛ وبعد ذلك سوف نرى أن المباني في القاهرة سوف تحمل عناصر زخرفية وافدة من الرافدين وعناصر أخرى ذات أصول أموية متطورة غير أن النسب

وتورس بالباس ومؤلف هذه السطور.

وعلى وتيرة واحدة نجد أن مساجدنا الأولى، ابتداء من المسجد الجامع بقرطبة ومسجد مدينة الزهراء، وإليهما نضم كلاً من مسجد سرقسطة ومسجد تطيلة، يمكن التعرف عليها من خلال الشراطات ذات المسننات الحادة، ومن خلال الكواويل Modillones تحت الطنف ذات اللوائف أو التجاعيد على شكل حلقة معمارية مقعرة nacela، ويمكن أن نشاهد، هذه العناصر الزخرفية أيضاً في العمارة الموحّدية الدينية رغم أن هذه الأخيرة قد شهدت حلول الأجر محل الكتل الحجرية خلال العصر الأموي، ومن المؤكد أيضاً ندرة هذا الصنف من الشراطات بعيداً عن المساجد الأموية في قرطبة والثغر الأعلى، ومع هذا هناك بعض قطع من شراطات ظهرت في مسجد «فونتانا» ومثدنة سان خوان دلي لوس كابائيرس، ومسجد آخر قام أرخونا بنشر دراسة عنه. هناك قطعة أخرى من الحجر عثر عليها في مسجد سانتا ماريا دي لاجرانادا في لبلة، كما أن من المؤكد أن كافة المآذن الإسبانية والمغربية كانت تتوج بالشراطات التي استمر وجودها في بعض الأبراج المسيحية أو المدجّنة في إقليم الأندلس، والاحتمال كبير في ألا تكون هذه الزخرفة جزءاً من مساجد القرى الصغيرة، ومع هذا لا نعدّها في الأريطة والقباب إضافة إلى كتل حجرية عبارة عن لوحات جنازية، أغلبها في المغرب وإقليم الأندلس الغربي وجنوب البرتغال. لكن لم يكن الأمر كذلك في مساجد إفريقية، فالمسجد الجامع بالقيروان بدون شراطات مسننة وظل الأمر كذلك حتى العصر الزيري، (باب المكتبة)، والعصر الحفصي (ق 13) حيث باب لالا ريعانة، ولا شك أن الحالتين تعبران عن تأثيرات قرطبية. أما في مصر فابتداء من القرن الثاني عشر نجد أن الكثير من دور العبادة متوجة بالشراطات المسننة الملساء أو المزخرفة وكان هذا جراء تأثيرات أموية وعباسية، ومع هذا فإن بعضها، وخاصة تلك التي تحمل التأثيرات العباسية، بها شبه كبير مع

من هذا وذلك متفاوتة، فأحياناً ما نرى زخارف جصية بها تأثيرات نقوش كتابية أندلسية (ق 12، 13)، وبعد أن ترك الفاطميون إفريقية، أخذت تظهر هناك، خلال حكم الزيديين (1152-922م)، موضوعات زخرفية تلفت الانتباه بجمالها وعبقريتها (ج. مارسيه). وقد ظهرت بوضوح في أسقف المسجد الجامع بالقهروان حيث تجتمع العناصر الزخرفية القادمة من المشرق ومن قرطبة عصر الخلافة.

وسوف يميّش الأندلس بعد انتهاء عصر الخلافة على تلك السمات الجمالية التي خلفتها هذه المدينة كما سوف يسلم الضوء على تطوير الزخارف النباتية والهندسية، وتجسد كل هذا في عصر ملوك الطوائف ثم عصر المرابطين. غير أن عصر الموحّدين، كما سبق القول، شهد سيطرة مبدأ التنشيف الفني، ومع هذا لا نرى في هذا الاتجاه أو ذاك أية تأثيرات خارجية تستحق الذكر باستثناء زخرفة المقربصات؛ ويحدث الشيء نفسه خلال عصر بني مرين وعصر بني نصر في كل من شمال أفريقيا وجنوب إقليم الأندلس، حيث نجد في المنطقة الأولى من المدارس، وقصر الحمراء في الثانية، وهي فترة أوهترات جرى فيها تبادل العناصر الزخرفية الأمر الذي خلق ما يمكن أن نطلق عليه وحدة الأسلوب على شاطئ مضيق جبل طارق (ق 14-13) (هـ. تراس)، ومع هذا فكل هذه الآثار كانت تحمل شيئاً من البصمة الموحّدية بما في ذلك المدجّن الطليطلي خلال القرن الثالث عشر. هناك دراسات مهمة للغاية في باب العناصر الزخرفية المتعلقة بالشرق ومصر وهي الخاصة بكل من هرزفيلد، وهاملتون، وكروزويل، و ل. هوكور، و ج. ويت، و أ. جرابارو. هناك دراسات أخرى مهمة لكل من ج. مارسيه، و ل. جولفن، و ب. سيباج، و أ. ليزن، و م. فان برشم خاصة بكل من إفريقية والجزائر، كما يلاحظ أن المغرب الغربي قد حاز اهتمام ج. مارسيه، و هـ. تراس، و د. رشيد بورييه Bourouiba. وبالنسبة للزخارف الأندلسية بعامة نجد أبحاث جومث مورينو،

7- تحليل كمّي للمساجد

تحدث المؤرخون العرب كثيراً عن عدد المساجد في قرطبة، فطليقاً لجارثيا جومث، يشير بعض هذه المصادر إلى 490 مسجداً (المعذري) في عصر عبد الرحمن الداخل ثم أصبح العدد 3837 مسجداً، وبعد ذلك تشير مصادر أخرى إلى أن العدد كان على أيام المنصور بن أبي عامر 1660 مسجداً؛ بينما تشير «حولية الأندلس مجهولة المؤلف» (لويس مولينا) إلى أن كل ربض في المدينة كان له مسجده وأن إجمالي المساجد في المدينة بلغ 13870 مسجداً، وثمانمائة في ربض سيجوندا الواقع على الشاطئ الآخر من نهر الوادي الكبير؛ ومن المعروف عن هذه المدينة أن الأرباض كانت تقام حول المساجد ولهذا السبب يطلق عليها اسم المسجد (جارثيا جومث)، (الشيء نفسه نجده في صقلية)، مثل ربض مسجد الشفا (اسم زوجة عبد الرحمن الثالث) وربض مسجد متعة (اسم محظية الأمير الحكم الأول) وربض مسجد الكهف وربض مسجد السرور، وربض مسجد أم سلامة، وأخرى غيرها وكلها - سواء كانت مساجد أو أرباض - مجهولة المكان. وهناك مسجد يسمى مسجد الأمير هشام وتحدد مكانه في المكان الذي فيه كنيسة سانتياجو (أوكانيا خيمنث) في «الشرقية»، ويرى فيلكس إيرنانديث أنه يرجع لعبد الرحمن الثاني؛ هناك مسجد أبي هارون الذي يقع في السوق الكبير الكائن بين القصر وبوابة إشبيلية وتهدم المسجد بسبب حريق شب فيه (936م) ثم أعيد بناؤه في عصر عبد الرحمن الثالث (ابن حيان)؛ هناك مسجداً آخران صغيران توأمان أمام القصر، يرجعان لعصر هشام الأول وقد أقيما باستخدام مواد البناء التي جرى جلبها من غنائم حرب نربونة Narbona (أوكانيا خيمنث)؛ هناك مسجد عجيب الذي يرجع إلى زمن الحكم الأول، ومسجد أبي عثمان، وهو مسجد غير بعيد عن القصر ويقال إنه - مع مساجد أخرى - قام بوظيفة المسجد الجامع بشكل مؤقت عندما كانت تجرى أعمال التوسعة التي تمت؛ وفي هذا السياق

سبق أن أشرت قبل ذلك إلى زخرفة المقربصات التي عرفت، منذ ميلادها في المشرق، طريقها إلى أماكن كثيرة مثل مصر وقلمة بني حماد (ل. جولفن) والمساجد المرابطية في تلمسان، والقرويين بفاس، وقبة الباروديين بمراكش، ثم دور العبادة الموحّدية. وقد استقر المقام بالمقربصات في هذه المنشأة التي نراها في إفريقيا في أقبية أو قباب حرم المسجد طوال القرن الثاني عشر؛ وخلال العصر الموحّدي نجد «الكتيبة» تشهد لأول مرة ظهور العقد المقربص، ولما كانت معظم القصور التي ترجع إلى تلك الفترة قد زالت من الوجود أصبح المقربص لصيقاً - ولو بشكل مؤقت - بالمنشآت الدينية؛ ومع هذا فخلال السنوات القليلة الماضية عثر على جزازات من المقربصات (هي في حقيقة الأمر قوالب طوب خاصة، adaraja، غير واضحة الوظيفة)، وعليها دهانات، في القصر المرابطي الذي أصبح الآن دير سانتا كلار دي مرسية (نابارو بلاثون) وهو قصر لم أنرجه، خطأ مني، في المجلد الخاص بعمارة القصور في الأندلس. هذه الجزازات هي أول شاهد، في الأندلس على هذا الصنف من الزخرفة الذي يرتبط بدرجة ما بالمقربصات المشار إليها، في المساجد المغربية خلال النصف الأول من القرن الثاني عشر؛ وعلينا ألا نقس أن النصف الثاني من القرن المذكور كان هناك عرفاء أندلسيون يتولون زخرفة مقر إقامة جيزمو الثاني في باليرمو، حيث نرى بعض المياني بها تضمن مقربصات من الجص أو الحجر أو الخشب بدءاً بالسقف الشهير الخاص «بالمصلّى الملكي» الذي بدأ العمل فيه ابتداء من عام 1140م، وخلال الفترة نفسها نجد قصر زيزة وكوبا.

نجد أن بعض زوجات أو محظيات عبد الرحمن الثاني - حجر وطروب - أسستا مسجدَين مهمين في الأرياض (خ. بابي). وخلال العصر الموحدى ورد ذكر 29 مسجداً قرطبياً دون تحديد أماكنها (خيسوس سانشون).

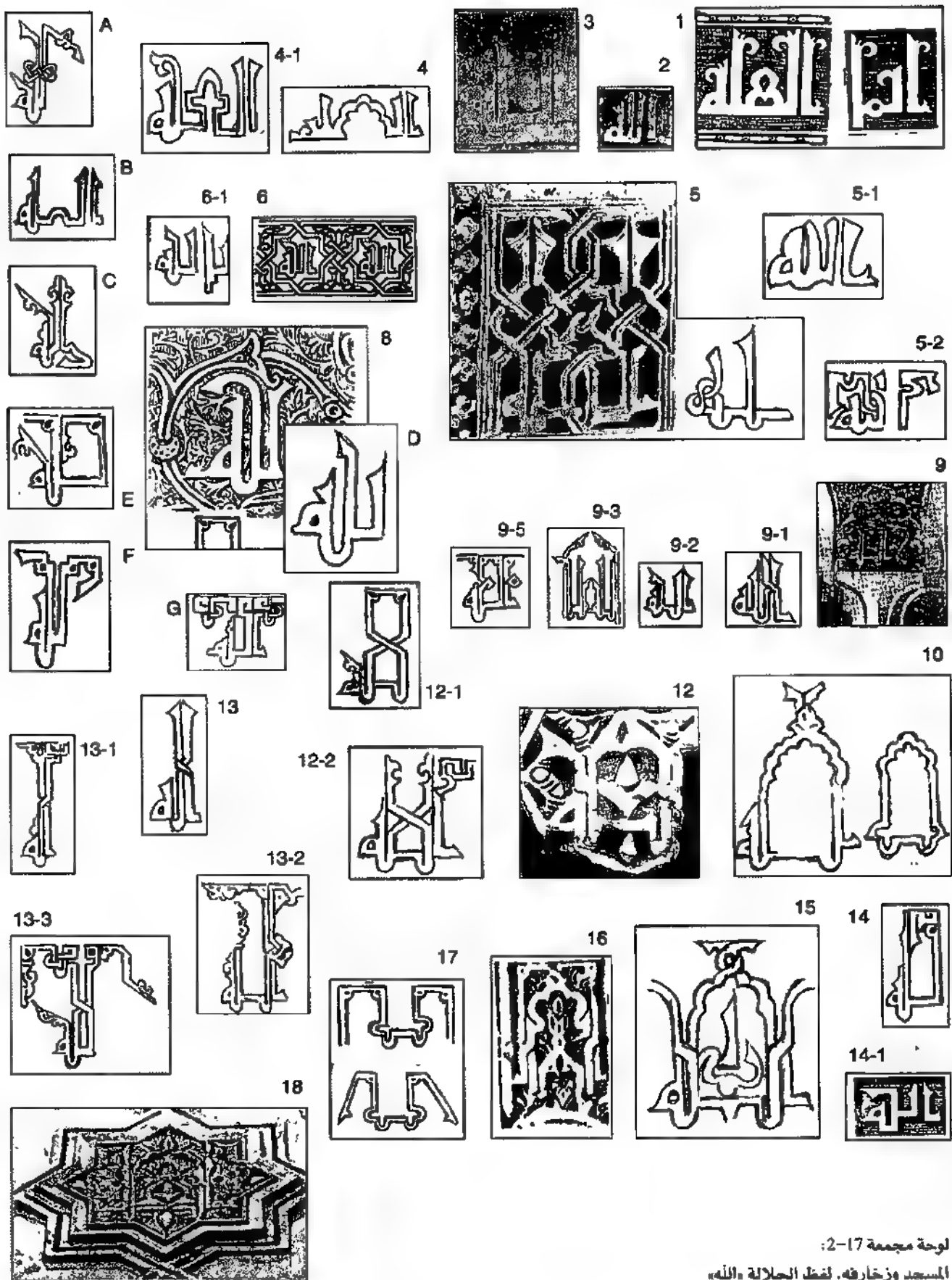
وهي مدينة مهمة مثل بالنسية نجد العدد كبيراً أيضاً، فخلال عام 1124م أمر الملك خايمي الأول باستمرار المساجد كافة في أداء وظائفها وكذا الجبانات العامة الخاصة بالمشاركة (فرنانديث جونتاليث) وقد شهدنا أنه أثناء تلك الفترة كانت مساجد المدينة أكثر من الكنائس (سايثت أجيّري)، ففي عام 1266م وخلال حكم ذلك الماهل كان يوجد في مرسية عشرة مساجد تعمل في الرقعة العمرانية بها من بين 26 كانت قائمة - في رأي خورخي دي أرغونيسيس - ومن المعروف أن المسجد الجامع بها قد تم تحويله عام 1286م إلى كنيسة تحمل اسم القديسة ماريا؛ ومن بين المساجد العشرة المذكورة نجد مسجد القصبة ومسجد الرحمة ومسجد عيس (تورس فرونتس) ومسجد سوق خلق أوميف Goch Alc Umiff ومسجد ريبض أوجي Rexaca، وفي الأرياض نجد المسجد الجامع «بني بازيرا»، ومسجدي «بني موجي» و «بني ذات»، وكان المسجد الأول يؤمه الكثير حيث يهرع إليه المورو من الأماكن القريبة منه (تورس فونتي)، وطبقاً لليعقوبي، كان في لورقة مسجداً جامعاً خلال القرن التاسع، وكان هناك آخر في مدينة عسكر (محافظة أليكانتي) (م. خ. روييرا إي إسبالتا). وفي نهاية القرن الخامس عشر نجد أن ميورقة كان بها كنائس سانتا كاتالينا وسانتا كروث، وسان خايمي، وسان نيكولاس، وسان ميجل، إضافة إلى الكاتدرائية التي أقيمت في «المدينة» على أنقاض المسجد الجامع، ويقال إن المدينة كان بها ما يقرب من عشرين مسجداً، ففي منطقة Repartimiento نجد مسجد حي سان ميجل ومسجد عبد المالك - الذي هو كنيسة سانتا إيولاليا الحالية، ومسجد زقة في شارع سان خايمي ومسجد البرية والمسجد الكبير في «المدينة» ومسجد «بورتوبي»

بالقرب من دير سان فرانشيسكو، ومسجد الحناوي، ومسجد Axaquez و Alhaiequillo (ماريا ماجدالينا ريبيرا فراو). أما رندة فكانت عام 1487م - طبقاً لـ Asiento - تضم 22 مسجداً بما في ذلك المساجد الصغيرة، وكانت أهم مساجدها ما تحول إلى كنائس بعد ذلك وهي سانتا ماريا، والروح القدس، وسانتياجو، وسان خوان إيبانخيلو، وسان خوان، وسان سباستيان. أما المسجد الكبير فأصبح يعمل مسجد سانتا ماريا دي لا إنكار تاشون؛ وإلى جوار الحمامات، في الريبض القديم، كان هناك مسجد، إضافة إلى آخر بالقرب من بوابة الطاحونة. وبالنسبة لشريش نجد نصيبها 17 مسجداً موزعة على الأسماء التالية سان سلهادور، وسان ماتيو، وسان لوكاس، وسان خوان، وسان ديونيسيو، إضافة إلى مسجد القصبة الذي ما زال قائماً حتى الآن. هناك تقديرات أخرى تتعلق بالثغر الأعلى يقدمها لنا العذري تتعلق بمدينة وشقة فيها - طبقاً له - 60 مسجداً، ولا نعرف على وجه اليقين فيما إذا كانت جميعها في الرقعة العمرانية للمدينة أو موزعة في كافة المناطق التابعة لوشقة، وهذا الرأي الأخير هو ما أخذت به ماريا خيسوس بيجيرا؛ وفي الفترة التي وقع فيها الغزو المسيحي كان عددها ثلاثة عشر مسجداً، إضافة إلى مساجد أخرى يصعب تحديد أماكنها (دوران جوديل)، وكان تورس بالباس يقول إنه لأول مرة يجري التفكير في إحلال الكاتدرائية محل هذا المسجد في وشقة في زمن الغزو وأن الوثائق التي ترجع إلى تلك الفترة كانت تقول بالحفاظ على المكان والحالة التي كان عليها المبنى في زمن المورو؛ وقد جرى إحلال مبنى آخر محل هذا المسجد عام 1273م وهو المبنى الجديد للكاتدرائية. نعرف أن لاردة مدينة أعاد محمد الأول بنائها، وكان بها - طبقاً للحميري - مسجد كبير عام 901م، وعندما غزاها رامون بيرنجر السادس، سلم للأسقف جيّري دي لاردة الكنائس التي كانت بالمدينة والمسماة مساجد عند المشاركة، أي مساجد كرسها لأداء الطقوس المسيحية

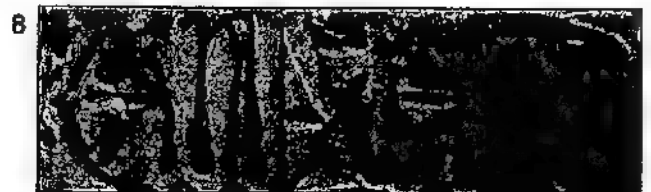
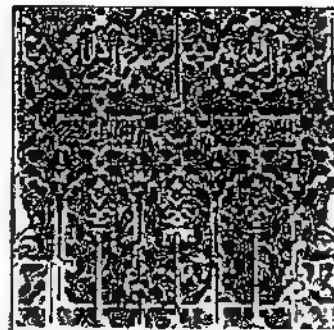
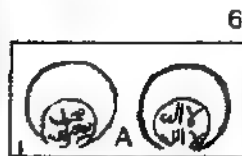
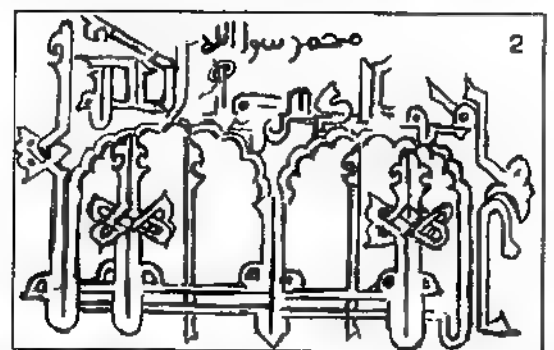
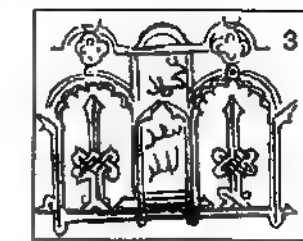
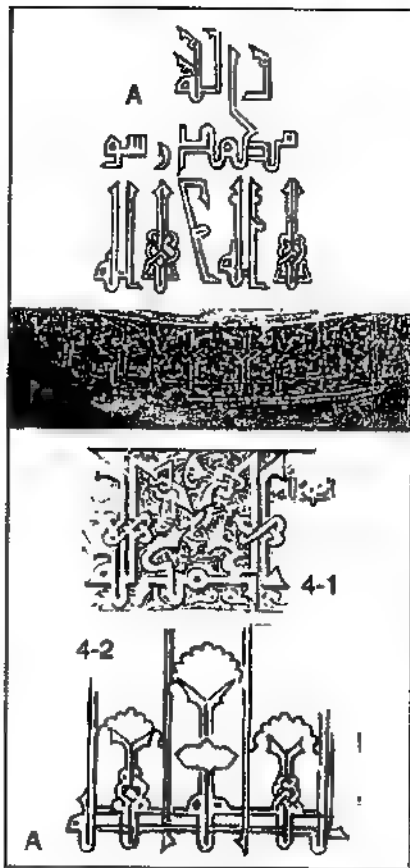
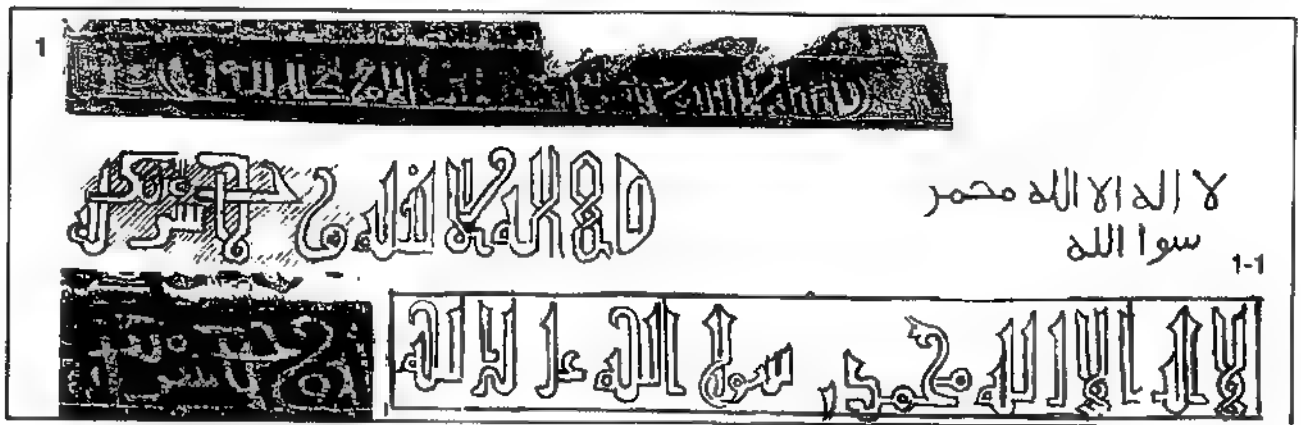
(خ. يادونوسا)؛ وهناك المسجد الجامع على قمة «السدة Zuda، وفوق المسجد أقيمت كاتدرائية سانتا ماريا. وعند الانتقال إلى طرطوشة نجد أن رامون بيرنجر السادس يهدي أسقف طرطوشة متعلقات المسجد الجامع في المدينة (1148 - 1151م) وكذا مساجد المشاركة كافة (أ. بير خيلي). ومن المعروف أن رامون بيرنجر قد غزا طرطوشة عام 1118م، وربما كانت الكاتدرائية الأولى فيها هي كنيسة مستعربة، كنيسة سانتا تكللا، أو المسجد الجامع نفسه (توريس بالباس). وبالنظر إلى الكاتدرائية الحالية نجد أن البناء بدأ مع نهاية القرن الثاني عشر واستمر حتى بداية الثالث عشر. ثم تنتقل إلى طليطلة لنجد فيها. إضافة إلى المسجد الجامع، مساجد الأحياء، ظهر اسم اثنين منها في الوثائق المسيحية (لاكازا)، وكان المسجد الرئيسي وسط المدينة. وقد جرت مؤخراً في النقطة حفائر (ل. لاسا/ بيجونيا مارتث/ كارميلو لاسا)، حيث تم العثور في تلك الفترة التي كان يعمل فيها جومث مورينو على بقايا قطع زخرفية رائعة من الحجارة ولا شك أنها جزء من ذلك المسجد (جومث مورينو وباسيليو بايون). وكان لسرقسطة مسجدها الجامع (ق 8) جرت توسعته مرتين (ق 9 و 11)، وذلك طبقاً للأقوال التي ورثناها عند غزوها (1115-1118م) من لدن الأسقف ليهيرادا؛ وهرى لاكازا أن المسجد ظل حتى عام 1133م وفوقه أقيمت كاتدرائية لاسيو وأطلق عليها سان سلبادور، غير أنه لا تتواءم لدينا أخبار موثوق بها عن وجود مساجد أخرى صغيرة في هذه المدينة، ومع هذا يمكن القول إن بعض الكنائس المدجّنة - مثلما هو الحال في طليطلة وإشبيلية - كانت قد أقيمت على أنقاض مساجد الأحياء خلال السنوات الأولى لعملية الغزو. ومن المفترض وجود مساجد جامعة يطلق عليها سانتا ماريا في كل من بويشتر و Albarraciu.

وعشية غزو إشبيلية على يد فرناندو الثالث عام 1248م يرى خوليو جونتاليث أنه كان بها ما يقرب من 64 مسجداً موزعة على الأحياء (الحومات) أو المناطق

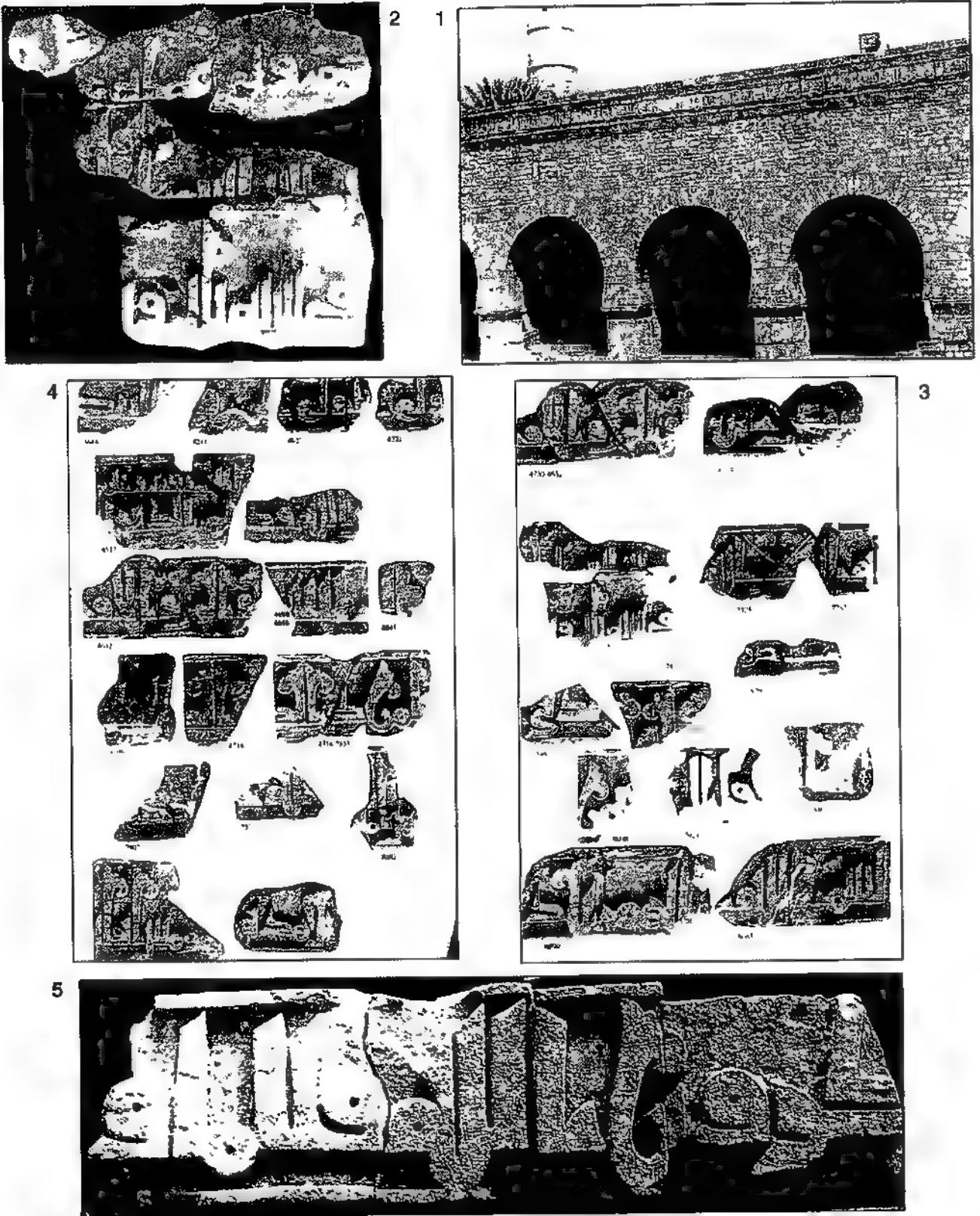
المجاورة، وهذا رقم ضئيل إذا ما قارناه بما أورده المؤرخون العرب بالنسبة لمدن أصغر بكثير من إشبيلية ومنها سبتة على سبيل المثال إذ نراهم يقولون بوجود ألف مسجد (طبقاً للأنصاري) (ق 15) دون حساب الزوايا ومساجد الأربطة التي يبلغ عددها 47. وطبقاً للمصدر نفسه فإن بلدة بيلونس التابعة لسبتة كانت تضم تسعة عشر مسجداً. ولا يمكن الحديث عن عدد المساجد في طليطلة، والمساجد المؤكدة يبلغ عددها ما لا يقل عن 12 مسجداً، بما في ذلك المسجد الجامع الذي يقع وسط المدينة، وهو المسجد الذي أصبح كاتدرائية سانتا ماريا وسان بدرو وذلك بعد تسعة أشهر من غزو المدينة (1085م)، ثم نجد أيضاً مسجد الباب المردوم ومسجد سلبادور. ويلاحظ أن الفارق الزمني - تسعة أشهر - بين الغزو وتكريس المكان باسم الكاتدرائية إنما يرجع للعمليات التي جرت لتحويل المبنى طبقاً لرأي ريبيرا رثيو، كما يرجع أيضاً لخلو المنصب حتى جاء السيد برناردو. وسوف أسهب في القول عن هذه المساجد عند الحديث عن مخطط المدينة؛ وبالنسبة لمدينة طليطلة فإن الوثائق التي لها شيء من المصداقية في تعريفنا بها تكمن في «وثائق المستعربين» خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر والتي نشرها جونتاليث بالنسبة حيث يستخدم فيها المصطلح المسيحي Collacion قليلاً، وتحل محله مصطلحات عربية هي الحومات، الكنيسة - والكنيسة الجامعة، مثلما كان عليه الحال أثناء الحكم الإسلامي؛ وعلى أساس هذه الوثائق لا نستغرب أن أكثر الكنائس التي ترجع إلى القرنين المذكورين كانت مساجد قبل ذلك، ومن الحالات الواضحة كنيسة سان رومان التي جرى إقامتها أو تكريسها عام 1221م، على يد الأسقف خيمنت دي رادا، غير أن خوليو بوزس يذكرنا بأن تلك الوثائق تذكر دار العبادة التي تحمل هذا الاسم عام 1125م، وهذا يشبه ما عليه كنيسة سان أندرس، وكنيسة سانتيا جودل أرابال وكنائس أخرى غيرها كثيرة كما سنرى لاحقاً؛ هناك مصدر آخر مهم لإحصاء دور



لوحة مجمعة 17-2:
المسجد وزخارفه. لفظ الجلالة «الله»

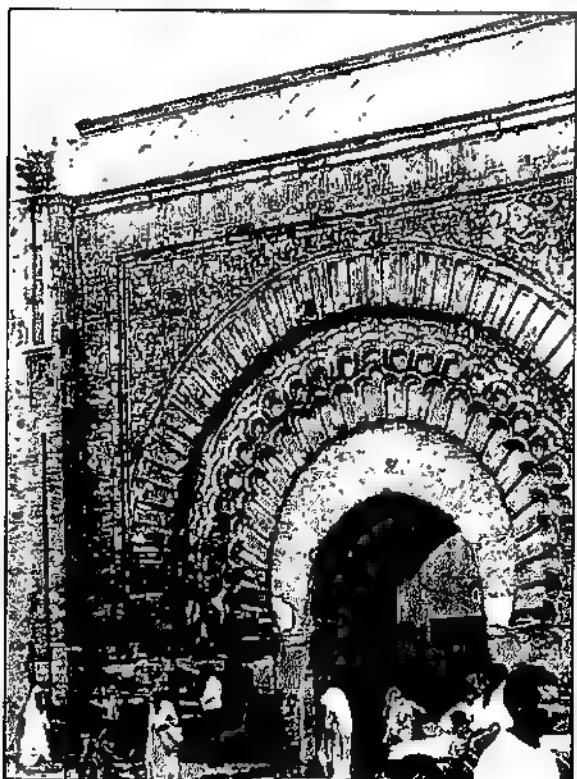
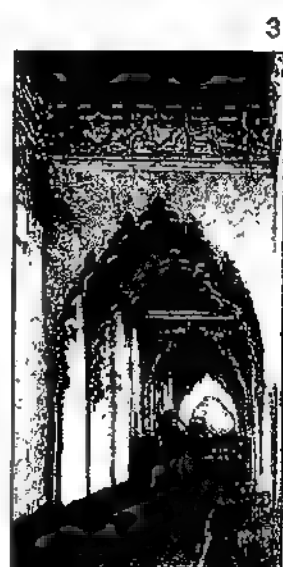
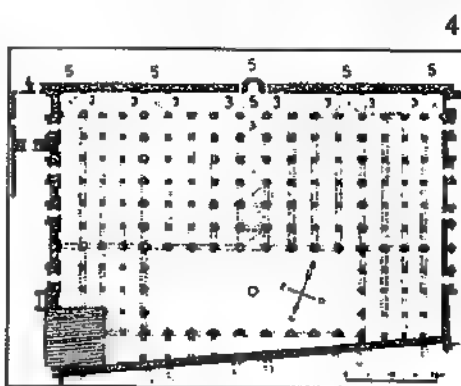
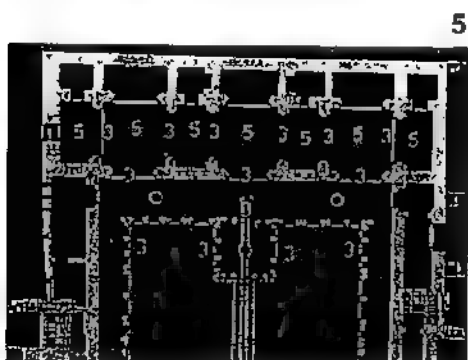
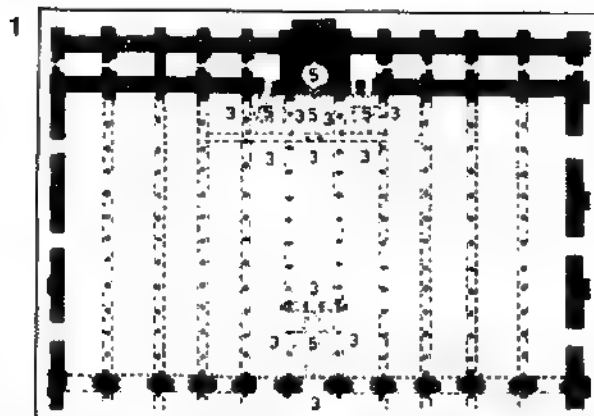
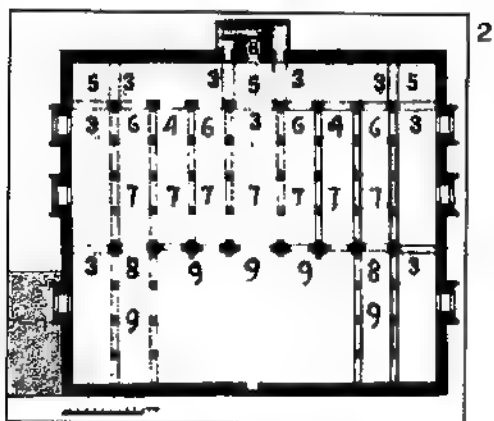


لوحة مجمعة 3-17:
المسجد ونقوشه الكتابية. الشهادتان 1، 1-1، 2، 3، 4، من
مساجد مختلفة

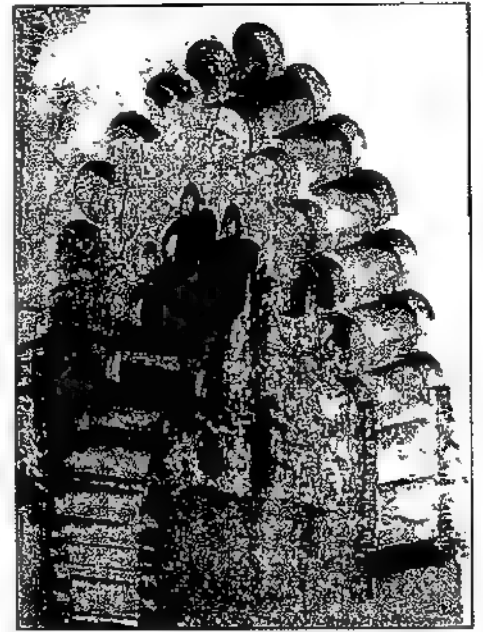
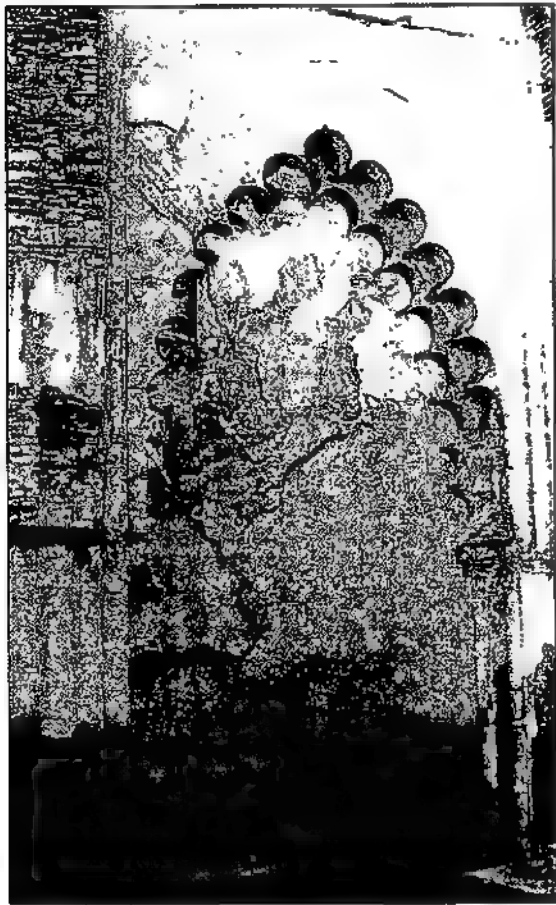
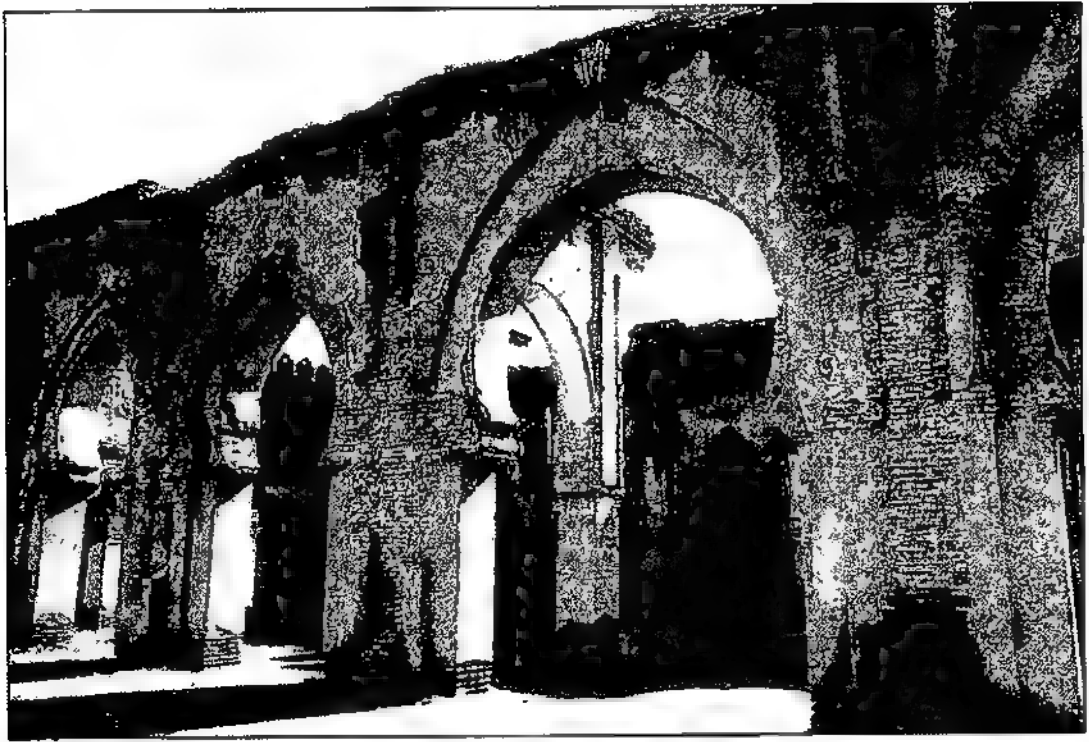


لوحة مجمعة 17-4.

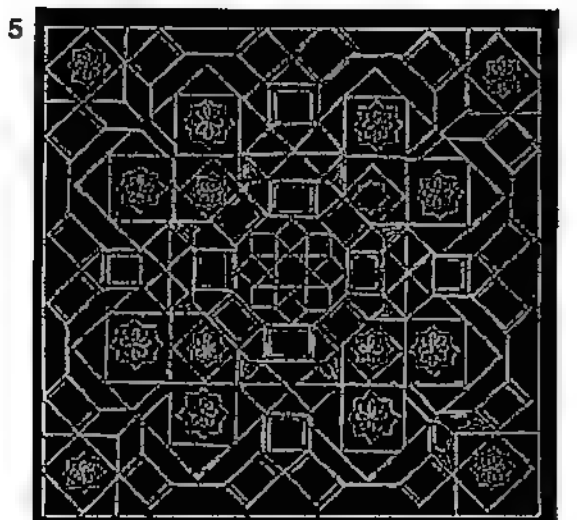
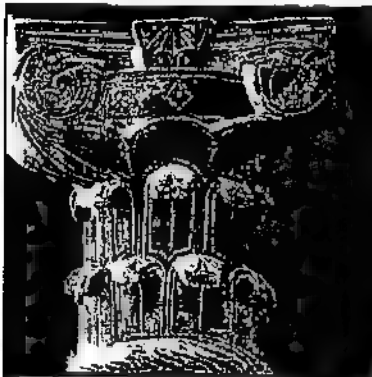
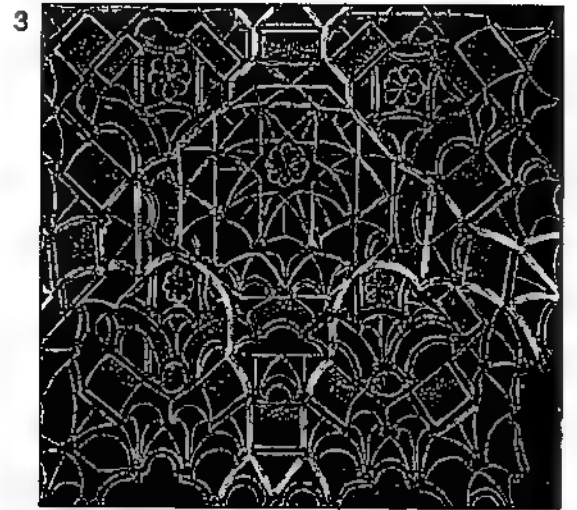
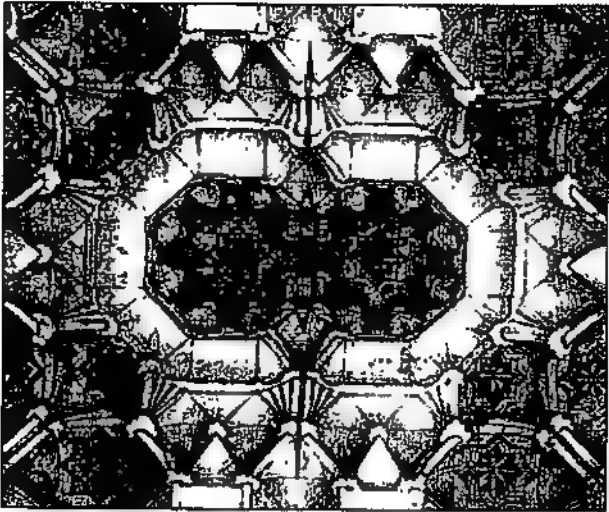
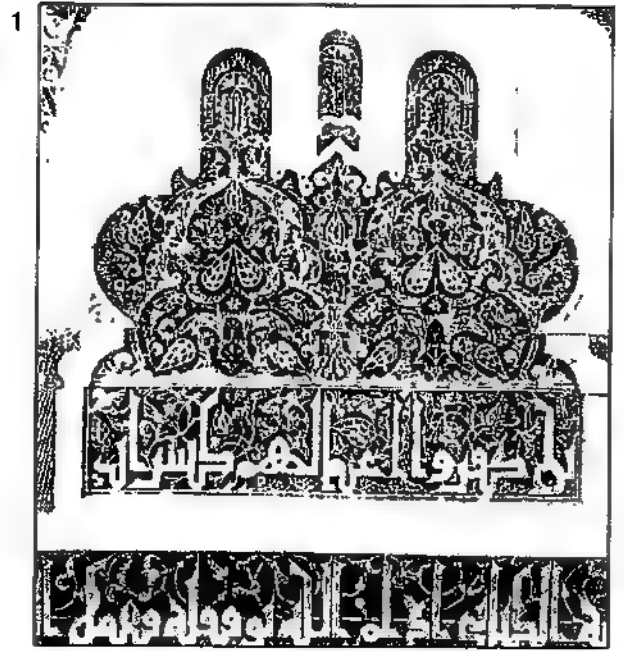
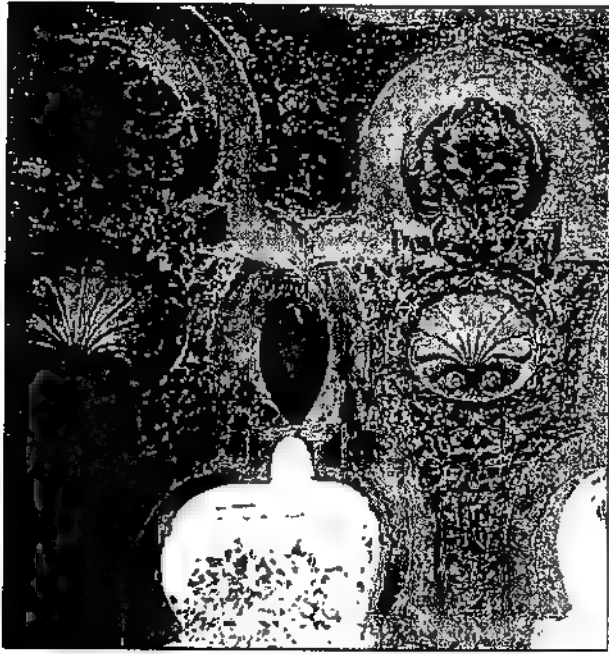
المساجد ونقوشها الكتابية في الصحون: (1) المسجد الجامع في سوسة، من 2 إلى 5 من مسجد مدينة الزمراء.



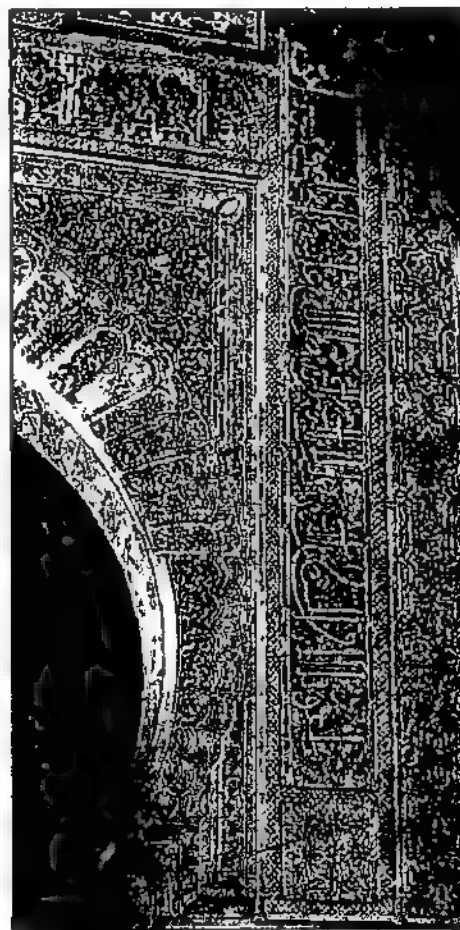
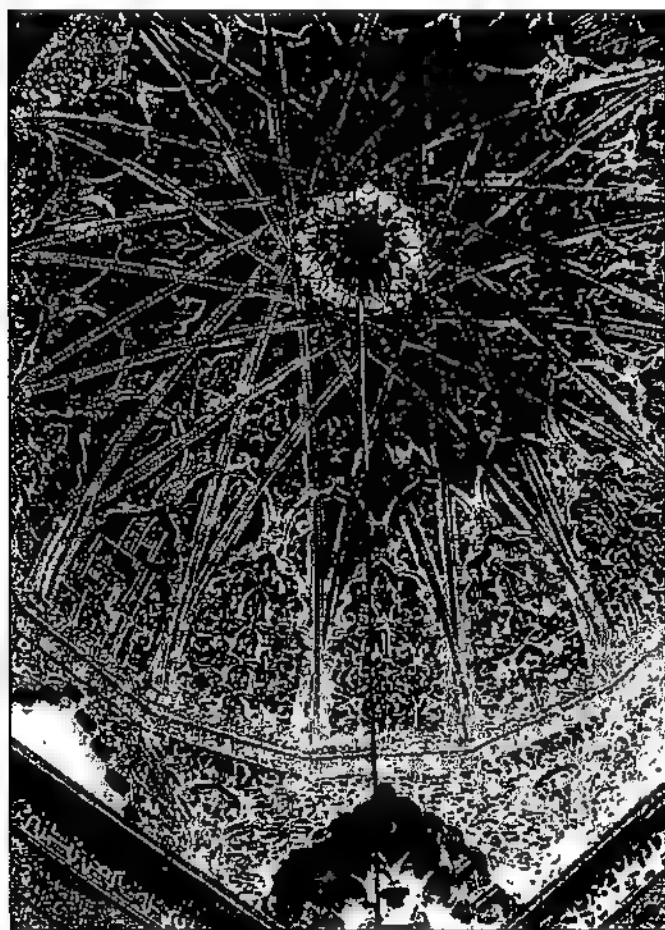
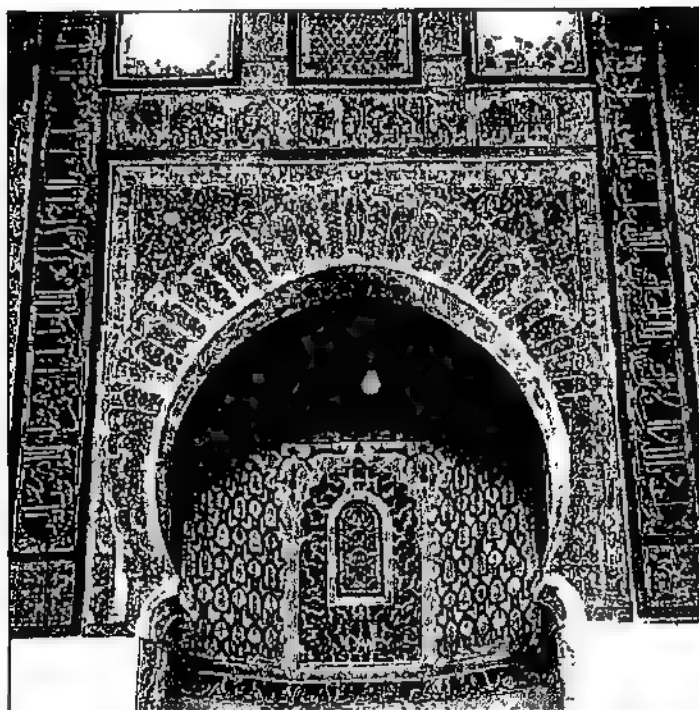
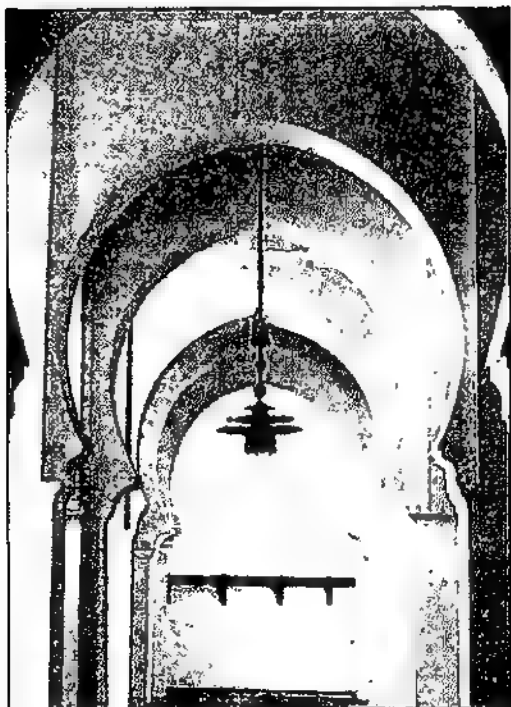
لوحة مجمعة 5-17:
المسجد وزخارف المقود. 7: باب أغناو بمراكش



لوحة مجمعة 17-6:
المسجد وزخارف العقود. مسجد شمال



لوحة مجمعة 7-17:
المسجد وقباب المقربصات: 6 تاج عمود موحد



لوحة مجمعة 17-8:
المسجد وزخارفه. مسجد تازا

العبادة الإسلامية في منطقة طليطلة هو تحويل المساجد إلى كنائس بناء على تبرعات ملكية لكنيسة سانتا ماريا التي كانت آنذاك المسجد الجامع لكافة المساجد الكبرى في مملكة طليطلة وذلك حتى يتوفر لدى الأسقف الطليطلي، السيد برناردو، العدد الذي يريد من الكنائس وبالتحديد في طليطلة وماكيدا وعالين Alamin ومديري وتلامنكا ووادي الحجارة (خوليو جونثاليث)، وتتكرر الحالة نفسها أثناء حكم هرناندو الثالث، فطبقاً لبولا دي أونور الثالث (127م) جرى منح أسقف طليطلة العدد الكافي من الكنائس في تلك المساحات الشاسعة الواقعة بين كل من فيلش Vilchez والكروز Alcaraz وتورخيو، وكذا الأمر، خلال الفترة نفسها في كاثولرا (جيان) التي كانت تتبع أساقفة طليطلة.

وطبقاً للمسند لابن مرزوق أن من بيني مسجداً ولو كان كمفحص قطاة بنى الله له بيتاً في الجنة؛ من هنا كانت هناك وفرة في المساجد في المغرب الإسلامي وخاصة في مدن معينها لدرجة يصعب إحصاؤها، وهذا ما نجده في صالة ثينالو (صقلية) (ابن الخطيب؛ أعمال الإسلام، رفاثيلا كاستيريو). ويحدثنا ابن حوقل من جانبه عن أن باليرمو كان بها ثلاثمائة مسجد ولا بد أن هذا العدد يضم المساجد الخاصة. وهنا لم نذكر ما حدث من بناء مساجد متزامنة مع بناء الأربطة (ق 12) والزوايا في الحضر. وكذا الأمر في المناطق الريفية حيث تجلت كثرة المساجد؛ وإذا ما أخذنا سبته كمثال لقلنا إن كل منزل كان له مسجده الخاص وحمامه، وهذا ليس بمستغرب إذا ما أخذنا في الاعتبار أن قرطبة في عصرها الذهبي كانت بها وفرة من المساجد الخاصة (ليفي بروفتسال). ويمكن تفسير كثرة المساجد في المدن متوسطة الحجم في مملكة غرناطة، مثل ملقة (ق 14)، فهي، في نظر المؤرخين المحدثين، كانت تقوم بتطبيق اللوائح التي وضعها النصري (بنو نصر) يوسف الأول، والتي تنظم إنشاء مسجد لكل اثنتي عشرة أسرة؛ وبناء على أبحاث قامت بها ماريا دولورس أجيلار

جارتيا فإن الوثائق المسيحية تشير إلى أكثر من 25 مسجداً داخل المدينة وخارجها، وربما كان بعضها يدخل ضمن الأحد عشر مسجداً التي أوردتها المصادر العربية، غير أن هذه المساجد كافة غير معددة المكان باستثناء المسجد الجامع الذي ينسب إلى الأمير محمد الأول، ومكانه الكاتدرائية الحالية، إضافة إلى مسجد آخر من المساجد الجامعة، أسسه معاوية بن صالح الحمصي خلال القرن الثالث عشر بقصبة المدينة، وكانت بعض هذه المساجد تستخدم أساساً لأداء صلوات الجنائز عندما يتم دفن كبار الشخصيات، وأحياناً ما يطلق على هذه المساجد مسمى مسجد الرباط؛ وفي هذا السياق ورد ذكر ستة مساجد في ملقة بما في ذلك الرباط أو مسجد القلعة المسماة «جبل الفار» Gibralfaro (كاليرو إسكال ومارتنث إينامورادو). كما نجد بعض المساجد في بعض الأصقاع المفتوحة التي تسيطر عليها إحدى القلاع أو «الحزام» مثل حالة بلنقي (ألمرية) وهو مبنى يرجع تأسيسه إلى إحدى الشخصيات المهمة من المؤمنين الذين أورد المقرئ نبذة عن حياتهم، وقد أسهمت هذه الشخصية أيضاً في زيادة عدد المساجد في هذه المنطقة حتى زاد على عشرين مسجداً (سوليديد خيسير). أما في بلنسية فتجد أنه بعد الغزو احتفظت حارات المسلمين (المورو) في المدن الرئيسية بعدد كبير من المساجد الذي يتجاوز عدد الكنائس، ولم يكن الأمر كذلك في الأوساط الريفية وهذا ما تبرهن عليه الحالة التي عليها بلدة Gandia التي كان يؤم مسجدها، ابتداء من عام 1361م، سكان القرى المجاورة لأداء صلاة الجمعة، إذ لم يكن هناك عدد كاف من دور العبادة للصلاة خلال تلك الفترة، وبذلك ظل الإسهام في الحفاظ على ذلك المسجد وعلى سداد أجر الفقيه (ث. بارتلو)؛ والشئ الذي يتكرر في هذه الأراضي هو الحالة التي أصبحت عليها بلدة Chelva حيث مُنح سكان الأرياض من المورو أو المشاركة حق الدخول إلى مساجدهم لأداء الشعائر؛ وكان من الشائع وجود دور للعبادة لها أهمية

كانت مسجداً حتى عام 1689م. تنتقل إلى سرقسطة حيث نجد مبنى كان مسجداً في Villafeliche في الدائرة الإدارية لدروقة (طبقاً لمادوث)، وفي المولدا نجد «المسجد» وكذا «المسجد» في دائرة أجيلار دي نهر إبرو، وفي محافظات إقليم إكستريمادورا لازالت هناك حارة في «بلنسية القنطرة» لزال اسمها يحمل اسم «المسجد»؛ وفي قصرش نجد أن الموروث الشفهي يقول إن كنيسة سان ماتيو المجاورة «لنزل بيليتاس» (القنطرة القديمة) كانت مسجداً، وفي قورية - طبقاً لحوليات ألفونسو السابع إمبراطور سان دويال فقد وضعت الرايات الملكية فوق مسجد المورو (1142م)، وهو اليوم كاتدرائية مكرسة باسم سانتا ماريا؛ وغير بعيد عن ترخالة Trujillo نجد فناء «إيبا إيرناندو» به مكان يسمى «المسجد» حيث تم العثور - كما سبق القول - على أطلال وعلى لوحات رومانية (مليدا)، إضافة إلى نقوش كتابية ترجع لعام 549م، حيث تم ترسيم بازيلكا مكرسة باسم العذراء مريم خاضعة لأسقفية أورنسيو (بويرتاس تريكاس). ورد ذكر مسجدين في مولينا دي أرغن (لاكازا)، إضافة إلى مسجد آخر في حي المورو (ق 15)، حيث كان يؤمه المصلون من الجوار في أيام محددة (مرثيدس - جارثيا أرينال)، وهذه النمطية نجدها منتشرة قبل ذلك وأحياناً ما نجد أن أربع عشرة ضيعة تتفق فيما بينها على بناء مساجد جامع (لاجارديري): وفي برخا Berja (المرية) نجد اسمين لمسجدين، وهما المسجد القديم ومسجد الحصن، وبناء على الأحباس نجد أن المدينة نفسها تضم مسجداً في ثيلين Celin وفي أومبروث Ambroz، وهي المنطقة الأولى لبلدة دالياس المعاصرة، وكان لها مسجد جامع بأحد الأحياء فيها (أ. مالبیکا و ث. تريو)؛ ورد ذكر مسجد آخر أصبح كنيسة في ضيعة أوليا؛ وكان من المنطقي أن يكون الأندلس بها وفرة من المساجد فقد كانت علامة على انتشار الإسلام، غير أنه كانت هناك حاجة لجمعها كلها بشكل تقريبي مثل الحالة التي نعملها.

باراخاس دي ميلو، ومساجد في بارشين دل أيو، وأزويو المسجد، وعدة مسميات تحت «باجو المسجد»، وبالنسبة لغرناطة فسوف نفرّد لها في حينه مساحة للحديث عن العديد من المساجد في هذه المحافظة وعن محافظة ألمرية. وطبقاً لمادوث نجد في جيان مسجد كنيسة سانتا ماريا دي أندوجار، إضافة إلى مسجد آخر في سانتا ماريا دي جيان. في مارتوس نجد مسميات مثل: ألتو، وكاسيريو، والمنزل الحديقة، والجدول والطريق ومعها المضاف إليه وهو «مسجد»، في ليون هناك مسجد في «ضيعة دي تيجيروس» والمنزل المسجد في سلمية الملكية، و «عزبة المسجد» في ثوفري Zúfir، ومسجد ضيعة باريوس دي لونا؛ وفي لاردة، في أونيا إيرومينيا مسجد، نجد المسجد في ضيعة أرنس دي سيجري، وكذا «تابادا دي المسجد» في ضيعة سوسس. في ملقة نجد المساجد في «الحواريين Alhaurin ذي البرج»، ومسجد في كامبيوس ومساجد في خلاء إستان (مادوث). وفي مرسية نجد جبل المسجد في الحامة، ورملة المسجد في ريكوتي؛ وفي أورنسي نجد «المسجد» وهي عبارة عن بلدة تقع غرب بيانادي بويو؛ وفي إشبيلية نجد «المسجد»، في دائرة ألكوليا دل ريو، و «أريودي المسجد» في وادي الكثار Guadalcanar، و «مساجد» في بويلا دي لوس إنفانتس، و «أريو المسجد» في ليريخا، و «المسجد الصغير» في سان ثيغو؛ وفي سوريا نجد «سندا المسجد الصغير» في پراهوتة؛ وفي تروال، في الدائرة الخاصة بـ ألكانيث (الكنيس) نجد «المسجد» و «جارجابو المسجد الصغير»، والمسجد في «ضيعة الطواحين» و «المسجد الصغير» الخاص ببلدة صغيرة. في طليطلة نجد «نبح المسجد» في كاسالو جرادو، ولاس كاستيا «حيث يقال إنها كانت مسجداً للمورو أو اليهود» وفي دائرة بيلادا (إحصائيات أو تقارير فيليب الثاني). بلنسية: في بلدة تايرناس يالدينا نجد «كاسا المسجد» و «برادو المساجد» في «بيار الأسقف»، و «المنزل المسجد» في موجيه، والكنيسة في Jarafuel حيث

وختاماً فإنني سوف أعنى في هذا الكتاب بالمساجد أو الأطلال التي وصلت إلينا بدءاً بالمسجد الجامع بقرطبة كنقطة ضوء ومكان انطلاق لباهي المساجد، كما سنعتنى بالمساجد في كل من المغرب Magreb وتونس حيث يرتبط هذان الإقليمان بالمساجد الإسبانية، وفي هذا المقام نجد أن كاتب الحوليات، ابن سعيد، قد أشار خلال القرن الثالث عشر، أن الأمراء الموحدين استقدموا المهندسين المعماريين من الأندلس ليشرفوا على المآثر التي أقيمت في المغرب والرباط وفاس والمهدية، وبالتالي فإن كل المآثر في تونس ترجع إلى الأندلسيين؛ وكان الأمر على هذا النحو عندما تمكن المرابطي علي بن يوسف من الحصول على تعاون أفضل المرءاء في شبه جزيرة إيبيريا (تورس بالباس) ومن الأمثلة الدالة على ذلك عملية توسعة مسجد القرويين بفاس حيث تعرض أول بناء له، خلال القرن التاسع، لعملية توسعة خلال القرن التالي وكان ذلك على حساب عبد الرحمن الثالث (956م) وإلى هذه الفترة ترجع المئذنة الكائنة في الصحن؛ كما شهد المسجد توسعة جديدة خلال عصر المرابطين وخلال الأزمنة اللاحقة؛ والشئ نفسه يمكن أن نطبقه على المسجد الجامع في قلعة سبتة (ق 10)، وهو الذي وصفه البركي، ولا بد أن هذا المسجد كان يشبه كثيراً، في مخططة، مسجد مدينة الزهراء، وقد جرت توسعته عدة مرات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر. وعموماً فإننا سندرس في هذا الكتاب أربعين مسجداً إسبانياً ونشير إلى أحد عشر مسجداً من المساجد الكبرى في الشمال الأفريقي إضافة إلى الأريطة حيث أعمل على تقديم خلاصة تتعلق بملامحها.

8- الرباط، الأريطة، الزوايا

أطلق مصطلح «الرباط» على مصلًى منفصل عادة ما نراه مربع المخطط، وله كوة أو محراب رمزي وكذا قبة، وهو في واقع الأمر عبارة عن مسجد خاص إضافة

إلى كونه مقراً لأحد الأولياء الصالحين (مرابط)، يكون جزءاً من المسجد بمثابة ضريح له، ومن هذا المنطلق كان المكان يتحول إلى كعبة لأهل المنطقة، غير أنه، حسب المهود، لم يكن لهذا المسجد كوة محراب، وقد ازدهرت هذه الأريطة خلال عصر المرابطين، وكان الذين يشغلون هذه الأماكن يطلق عليهم «المرابطون»، ومن هنا كان أصل تسمية «المرابطين» (خوان بيرنيت): لكننا لا نعرف أمثلة مؤكدة للأريطة ذات المخطط الأسطواني، وعادة ما يتوافق مصطلح rabita مع مصطلح آخر هو ribat وكلاهما مجتمعان من حيث الوظيفة الدينية، ومع هذا فإن المصطلح الثاني يشير إلى وحدة ذات طابع مشترك أي حربي وديني ويعني حصناً معقد البناء يكاد يتساوى مع القصبية أو القصر، فأحياناً ما يتم بناؤه - على شاكلة هذه اللوحات - في مناطق غير حضرية أو أطراف البلدة أو المدينة التي يعمل اسمها؛ وكدليل على ما نقول يكفي أن نتذكر رباط ومدينة المنستير بتونس (ج. مارسيه و. إ. ليزن) وأصيلة (Zilis) (البكري). وقد ازدهر الرباط، مع وصول الموحدين إلى الحكم، تحت اسم «رباط الفتح»، حيث إنها عبارة عن مساحة ضخمة يتجمع فيها المحاربون الذين يتهبأون للجهاد في الأندلس. وقد ولدت مدينة تازا خلال عصر الموحدين بصفتها رباط، والشئ نفسه في الجزيرة الخضراء الجديدة (بنية Binya) في عصر بني مرين؛ ويمكن أن يدخل في هذا الإطار رباط كاسكالي الواقع في دلتا نهر إبرة والذي ذكره الإدريسي وكان هذا الرباط يرجع إلى القرن الحادي عشر وهو اليوم «سان كارلوس دي لارابطة» (هيلكس إيرنانديث). وبالنسبة للشمال الأفريقي يحدثنا خايمي أوليفر عن مدينة تسمى «الرباط» وعن بلدة أخرى تسمى «Rabate» في محافظة بلنسية؛ وعندما نريد تحديد ماهية الرباط Rabita معمارياً نجد أن كتب الأحباس المتعلقة بإقليم الأندلس، وبالتحديد إلى غرناطة وألمرية أو المملكة الغرناطية الأخيرة، عادة ما يكون هناك تداخل بين مصطلح

وأبروثينا Abrucena (ألمرية) (م. اسبينار مورينووخ. أيبان بيريث)، وأكد ذلك كله ابن خلدون في معرض وصفه لحصن أوريابط «الشيخ أبو مدين» الواقع بالقرب من تلمسان، حيث كانت له مقبرة ومسجد وزاوية؛ ولا يختلف الأمر بالنسبة لشالا الواقعة عبر بوابات الرباط، فعندما زارها الفرناطي، ابن الخطيب، أطلق عليها الرباط، وبالفعل فإن المصطلح يطلق على مقر واسع له أسوار كبيرة ذات أبراج وأبواب ضخمة وفيه نرى مسجدَيْن لكل مئذنة إضافة إلى أربعة أضرحة مختلفة فيما بينها، أبرزها يخص العاهل المريني «أبو الحسن»، وكذا توجد زاوية مهمة تشغل ثلث المساحة المسيجة للحصن، حيث تصل إلى 1392م؛ وتلك الزاوية صحن له بوائك ويقع الصحن في الوسط وهو ذو مخطط مستطيل وله بركة في الوسط وصومعات تحيط بالبوائك ذات الأعمدة، وعقود مركزية لهذه البوائك ذات حجم أكبر من قريناتها، أما المسجد الصغير فيقع في الجنوب الشرقي وله ثلاثة أروقة ومحراب؛ أما في الطرف المقابل، عند حدود الصحن، نجد مئذنة رشيقة يبلغ طولها 15 م. ولها طابقان أعلاهما جرت إضافته حديثاً؛ وفي اللوحة المجمعة 1-19 نجد موجزاً لمختلف مباني شالا Chella سيراً في هذا على مخطط نشره إي. باست ولفي بروفسال. وفي المخطط المذكور نلاحظ وجود جزءين مختلفين، فعلى الجانب الأيمن نجد قطاع المقابر حيث المقابر والأضرحة (C) ويتوج هذا القطاع مسجد تكون من أروقة ثلاثة له مئذنته المشيدة من الحجر (A)، (E) وبعد ذلك نجد الزاوية في الجنوب الشرقي للمسجد (B) مسبوقة بصحن مستطيل له صومعته المنتشرة حول البوائك ذات العقود التي تتكئ على أعمدة، المركزية فيها هي الأكبر؛ هناك حوض في الوسط (D) إلى جوار الصحن، في إحدى الزوايا، نجد المئذنة (E)، أما الصور فهي: C: لواجهة ضريح أبي الحسن، 3: للمئذنة، 4: عقد باب الدخول إلى الزاوية؛ ومن الناحية الشمالية نجد أن

ermita (مصلّى) ورباطة (مسجد) و gima وزاوية، وعندما نستنتج هذا المصطلح الأخير نجد أن الأخرى تتلاقى معمارياً في أنها عبارة عن بناء بدون بنية سبق أن أشرنا إليه، فأحياناً ما يضم برجاً أو مئذنة في الواجهة، وصحناً أو فضاء وبعض الغرف ذات القيمة الثانوية؛ كما كانت تنتشر في القرى والدوائر في المحافظات والأحياء والأرياض في البلدات الكبرى، وفي شرق الأندلس ورد ذكر الكثير من الأربطة دون عناية بتحديد بنيتها، ومن المعروف أن هذه البنية، كما شهدنا، يمكن أن تقوم بدور المقبرة أو الضريح، وعادة ما تكون لها أبواب مفتوحة دائماً، ويطلق عليها في المشرق «طرّبة».

وعند الحديث عن الزاوية نجد أنها، على ما يبدو، ترجع إلى أصول مغربية - أي في المغرب وأحياناً الأندلس، وكانت عبارة عن مبنى له بعض البنية المحددة يقوم بدور إيواء المسافرين وتقديم الطعام لأبناء السبيل (المسند ابن مرزوق)، أي أن الزاوية عبارة عن مضيفة يقضي بها التجار وغيرهم ليلتهم في سبتة (الأنصاري)، والشيء المثير هو أن الزاوية في هذه المدينة كانت تضم، إضافة إلى الصحن والغرف، منارة، وهذا يعني التنوع في بنية مثل هذا الصنف من المباني الذي كان يعني دائماً مكان مقبرة ومسجد صغير؛ ومثل هذا المبنى في المشرق كان يطلق عليه خانقاه حيث كان مقراً لإقامة بعض المتصوفة؛ وفي المغرب نجد أنه أحياناً ما يكون هناك خلط بين الزاوية والرباط، حيث يطلقان على مباني تحيط بضريح لأحد الأولياء وله مصلّى ومحراب. ومن جانبه يحدثنا ابن بطوطة عن غرناطة ذاكراً زاوية Lityam في أعالي نجد Nagd، خارج المدينة وإلى جوار السبيكة (أي قصر الحمراء)؛ وورد ذكر أخرى في وادي آش طبقاً للمصادر المسيحية. وهنا، من المهم ما أشار إليه الأنصاري من تمييز بين الرباط والزاوية عندما أشار إلى أن سبتة كانت تضم مباني تحمل هذين الاسمين يبلغ عددها سبعة وأربعون؛ والشيء نفسه نجد في الأحباس، في بلدة أبلّا Ablla

أنها رباط ذو قبة، وفي الحمراء؛ حيث هناك أماكن كثيرة دون إجراء حفائر، نجد أن المكان الملائم لمثل هذا الصنف من الزوايا يتعلق بالصحن الأول المؤدي إلى البيت التصري الملكي، وهو عبارة عن صحن مربع له غرف تحيط به إضافة إلى مصلى صغير مربع المخطط توجد مئذنته، وإلى جوار كل هذا نجد حوضاً من الرخام للوضوء. وقد أشار خيسوس برمودس باريزا إلى أن ذلك المبني ربما قام بوظيفة المدرسة. أما جارتها مورينو فكان يرى أن تأسيس الزوايا في غرناطة كان أمراً معروفاً وخاصة في زمن ابن الخطيب الرجل الذي كان يقدر بأنه شارك في تأسيسها مثل السلطان المريني أبا الحسن في الشمال الأفريقي الرجل الذي لم يَمَلْ من بناء المساجد والمدارس والزوايا. وكانت الزاوية في المغرب الإسلامي تقوم بدور ما يسمى Caravasar وهذا المبني هو عبارة عن مستقر للقوافل، عبارة عن مبنى ضخم محاط بهاليز، كما أنه مؤسسة خيرية يتفق عليها الحكام وتكون بمثابة مأوى للرحالة والحجاج ليضمة أيام.

نعود مرة أخرى إلى أبسط بنية للرباط التي تتسم بأنها تضم ملامح مسجد صغير ومقبرة، وتتخذ أحياناً شكل البرج ونراها في مدينة غرناطة بالعشرات سواء في الأحياء أو الدوائر دون أن يكون هناك اهتمام خاص بها، غير أنها، أي الأربطة، عندما تكون في الفضاءات المفتوحة أو القرى والبلدات الصغيرة، تصبح المركز الرئيسي لأداء الطقوس وكذا ممارسة الأنشطة الأخرى شبه الحضرية، سواء كان ذلك في الداخل أو في مناطق الشواطئ، والرباط على الشاطئ يقوم بدور دفاعي بعامة ويرتبط ببرج منارة؛ وقد أشار الإدريسي إلى رباط يقع بين ألمرية وموخابر Mojacar، ولم يكن الرباط، حسب قوله، حصناً أو قرية بل كان ممسكراً يقيم فيه الحراس الذين يؤمنون الطريق وربما كان هذا هو التمرير والتحديد الأكثر تعقيداً بالنسبة للرباط؛ وفي هذا المقام نجد د. بايبي يستقي من المصادر العربية وجود الرباط

هذا المخطط يختلط بمخططات المدارس الكائنة في المناطق الحضرية في شمال أفريقيا، وهذه معلومة أخرى إضافية حول التعقيدات أو القموض الوظيفي لهذا النمط من المنشآت الذي نتحدث عنه وهو موضوع عني به باحثون آخرون (ر. Brunschwig) (بالنسبة للمدارس انظر اللوحة المجمة 3-80). هناك نموذج آخر مهم وهو زاوية النُساك (1356م) في ساليه، وقد تعرضت هذه الزاوية للدمار بسبب حريق شب فيها، وقد درسها ج. ميونييه؛ وكان لهذه الزاوية بعض الملحقات بصحن مربع له بركة في الوسط وأربعة بوائك مثلما هو الحال في شالا، وكذا صحنون في المدارس الرئيسية حيث المقود المركزية هي الأكبر من الأخرى؛ وفي أحد الأطراف كان هناك المصلى وبه المحراب؛ وقد بقي من هذه الزاوية فقط الواجهة الجميلة والجديرة بأن تكون على نفس مستوى الواجهات الخاصة بالمدارس الأخرى أو منارة المنصورة في تلمسان (لوحة 10؛ 8، 7) وعند الحديث عن ملقة يذكر ابن الخطيب رباط السدون Sudun الذي يقع خارج أسوار المدينة وكان رباطاً يؤمه الكثير من الناس؛ ومعنى هذا كله كما نرى هو وجود فرق بين الرباط والزاوية رغم أنه يتم الخلط بينهما في الأوساط الريفية؛ كما يحدثنا ابن الخطيب عن غرناطة خلال حكم محمد الخامس، ويشير إلى وجود فكرة أو مشروع بناء مدرسة وزاوية ومقبرة أو ضريحاً، لكن لا نعرف ما إذا كانت ستكون مجتمعة، تخليداً لهذا العاهل (داريو كايا نيلاس)، ولا نعرف ما إذا كانت هذه المباني قد شيدت وبالتالي من المستحيل الحديث عن مكانها سواء في غرناطة أو داخل قصور الحمراء. ويشير جومث مورينو إلى وجود مدرسة، زالت من الوجود، كانت بالقرب من المسجد الجامع في الحمراء، وبالنسبة للمقبرة المعروفة فهي القبة الجنائزية في الروضة بهذه المدينة الملكية، وتتسم في معمارها وزخارفها بالسمات نفسها التي كانت سائدة في عصر يوسف الأول ومحمد الخامس (تورس بالباس)؛ ويمكن تحديد ماهيتها على

بروفيسال وكارمن بارتلو)، وطبقاً لرأي آخر من تولى الأمر بالبحث (أثوار)، فإن المبنى كله كان يقوم بوظيفة الدفاع عن الشاطئ، أو أنه الحدود الساحلية لمواجهة أخطار الهجمات الفاطمية، كما كان مأوى للرحالة والحجاج. صمت عن هذه المباني الصغيرة في أليكانتي كل من المذري والإدرسي، ربما لأنها كانت مهجورة خلال القرن الحادي عشر (أثوار)، وهنا يجب أن نعرف فيما إذا كان مصطلح *ribat* سابق تاريخياً على الآخر *rabita* الذي نراه في نقوش كتابية على الحوائط دون أن نعرف على وجه اليقين فيما إذا كانت هذه النقوش ترجع إلى القرن العاشر أو القرون اللاحقة.

وعلى أي حال فإن من المؤكد أن هذه المباني ذات المخطط غير المنتظم، غير المربعة، كانت مساجد صغيرة؛ وسوف أتحدث من هذا المكان الكائن في أليكانتي في الفصل الأخير من هذا الكتاب. والشئ نفسه نجده في الداخل - بعيداً عن الشواطئ - حيث تتكاثر تلك المباني في الضياع أو الحصون عند الحدود مثل ميدلين وترجالة وقصر و غافق (قرطبة) وبطليوس نفسها وسيلفش؛ وفي محافظة طليطلة نجد ماكيذا وطلبيرة والفتحامين Alfamin مع وجود فرسان محاربين يقومون بشكل دائم بناراتهم على الأراضي المسيحية. وفي منطقة طرطوشة هناك منطقة حدودية مهمة (نقر) ورد فيها اسم رباط سان كارلوس، إضافة إلى أربطة أخرى في ضيعة أسكو Asco التي كان لها مسجد وسط المدينة (إسبالثا) أو المكان المسمى Rapita في محافظة لاردة حيث كان يتوفر على برج سميك ذي كتل حجرية ذات طابع روماني في الجزء السفلي، ولا شك أنها أطلال رباط / حصن على الحدود. هناك شخصية معينة جعلت طلبيرة مقراً لها وكان هذا الشخص يمارس حياة الزهد خارج مدينة مرسية (987م) من خلال الرباط. وفي هذه المنطقة الطليطلية على الحدود الواقعة بين نهر التاج و بلدة البسيط، بالقرب من إسكالونا وماكيذا جرى الحديث خلال القرن العاشر عن «فيض المساجد»

الشعب، أي رباط الطريق، في قرطاجنة. يطل على البحر وله نفس موقع رباط Alidr (الزهرى) وربما كان سان روكي، طبقاً لخواكين باييي. كان في دانية رباط (خوليان ريبيرا) أو دير محصن، يقد إليه، خلال القرن الحادي عشر، أحد الأولياء الصالحين للرباط؛ وعلى هذا فإن مصطلح الرباط، مثله مثل المسجد، أخذ ينتشر في أسماء الأعلام الجغرافية الإسبانية بالنسبة الأماكن النائية في المحافظات حيث كان من المعتاد وجوده فيها، وهذا طبقاً لما رأيناه في الأحياس حيث نرى ارتباطاً بين المسجد والرباط والزاوية.

وقد حسم ج. مارسيه الثانية *ribat - rabita* بقوله بأن لفظة *ribat* كانت قد فقدت معناها الأولي (حصن حيث يربط الناس)، وهنا حلت محلها لفظة مشتقة منها *rabita* وعُمت، وهي عموماً ما تشير إلى شيء مختلف بعض الشيء، وأصبح هذا المصطلح شديد الاستخدام في إسبانيا مثلما تدل على ذلك أسماء الأعلام الجغرافية، كما أنه كان معروفاً في Berberia؛ وإذا ما أردنا التحديد نقول إن هذا الباحث يرى أن لفظة *rabita* عبارة عن مبنى متعمد يرى على أنه أحد الأولياء وكان يعيش محاطاً بتلاميذه ومريديه، وفي هذا المقام نشير إلى أن حياة الزهد والتقشف التي انتشرت في العالم الإسلامي أسهمت في ظهور عدد من المباني المتناثرة في الأماكن المختلفة وبالقرب من المدن الكبرى وجباناتها؛ كان إسكولانو معجباً بأن في بلنسية، بالقرب من المقابر، كان هناك الكثير من المساجد الصغيرة والتي رأها تورس بالبأس على أنها أربطة تحولت فيما بعد إلى دور للعبادة؛ وحتى يتم إدخال نوع من التمهيص على التعريف الذي قدمه مارسيه يجب أن نضع في الحسبان الرباط الكائن في كتابان جواردامار (أليكانتي)، وقد استخدم المصطلح بصيغة الجمع حيث هناك عدد من المباني أو المعابر على خط قوي هو حائط القبة، وعلى أحد هذه الحوائط ظهرت لوحة تشير إلى عام 944م (كوديرا، وليفي

الحصين، ثم تحول إلى رباط مهم طبقاً للإدريسي وله مسجد جامع وآخر صغير ومباني رائعة وأسواق جيدة، فعلى ما يبدو كانت له أسوار يقول مادوث أنه رآها. ولا يختلف شكله كثيراً عن رباط تيمك على سبيل المثال (المغرب) وهو رباط درسه هـ. تراس، ويعتبر حصناً حقيقياً مسوراً لحماية السكان، وله مسجدان و المنارة، وعدة قباب أو أضرحة. وهناك إشارة مهمة للإدريسي في مدينة رباط روتا-Rota، حيث كان يلم هذا المكان العديد من المسلمين؛ وهذا يمكن أن يدهشنا إلى التفكير في أنه خلال القرن الثاني عشر، أي العصر الذي عاش فيه الإدريسي، كان المصطلح الشائع هو *ribata*، بينما كان معروفاً قبل ذلك باسم *ribat*، ومع وجود المسجد الشهير يمكن القول إن روتا Rota كانت في حقيقة الأمر تحصيناً يكاد يصل إلى حصن، فليس من المناسب القول «مسجد الرباط *Rabita*، بينما كان المصطلح الثاني لا يعني مصلى، وهذه الحالة يمكن أن تقودنا إلى مكان حصين في «ألكالا لاريال»، جيان، لكنه أكثر شهرة باسم قلعة الصاعدة *Assaida*، حيث يرى أبو الفدا، ذلك المؤرخ العربي (ق 14)، أنها كانت تقوم بدور الرباط *rabita* أو الحصن الواقع على الحدود لأغراض الجهاد (سيمونية)، وهو حصن تبلغ مساحته أربعة هكتارات تقريباً، أما الكنيسة الحالية فقد حلت محل مسجد قديم، ويمكن القول إنها ترجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر استناداً إلى بوابة عربية ذات عقد حدوي لازالت قائمة هناك. ومن هنا فإن ابن بطوطة كان يرى أن حصن فوينخيرولا *Fuengirola* كان رباطاً؛ هناك أيضاً حصن سان رومالدو في جزيرة سان فرناندو (قádiz)، حيث يبدو مظهره أنه حصن ذو أبراج وصوامع مصطفة على طول الحواشي الجانبية، وهذا ما شهدناه في زاوية شالا بالرباط وكأننا نشهد مركز اجتماعات دينية أو رباطاً على الطريقة التونسية. ويقول تورس بالباس إن «سان رومالدو كان له في البداية مصلى»، غير أن ذلك المهندس المعماري لم

حيث ترجم خ. بايبي المصطلح إلى «وادي المساجد»، وربما يتكرر هنا نموذج منطقة جواردامار في أليكانتي أو شيء من هذا القبيل؛ ولزيد من تحديد معنى هذه المناطق الحدودية المحصنة التي هي دائماً على أهبة الاستعداد للجهاد يجب أن نذكر مصطلح *Monastir* (أي الدير)، الذي ورد ذكره قبل ذلك في تونس، مثل الرباط خلال الأيام الأولى، وهو مصطلح فيه الكثير من المعاني الحربية والدينية، فلا يتصور وجود منستير دون مصلى أو مسجد صغير، غير أن هذا المصطلح في إسبانيا ليست له - مؤقتاً - ترجمة أو تجسداً معمارياً يشير إلى نوعيته البنيوية؛ وعن القرن العاشر لدينا إشارة وردت في المقتبس (الجزء الخامس) لابن حيان، تتحدث عن أن القائد نجد *Nagda* مَرَّ بـ حصن المنستير المجاور لبلدة بمبلونة، حيث عسكر فيه الخلفاء الأمويون مع العرب ضد بني قصي. وربما كان عبارة عن دير مسيحي تحول إلى رباط/ حصن؛ وسوف أعود لتناول هذا الموضوع لاحقاً.

نجد إذن أن هناك دمجاً في المسميات بين مصطلحين عربيين في زمانين مختلفين، ويرى ميكل إسبالتا أن ذلك يتحقق في رباط المنستير بتونس؛ فحتى القرن الحادي عشر كان يطلق مصطلح المنستير على المكان، ثم الرباط أو *rabita* ابتداء من ذلك. وقد أشرت في السطور السابقة إلى المكان الطليطي المسمى الفخامين *Alfamin* الواقع ضمن دائرة منتريدا وكانت له أهمية خاصة طبقاً لرواية ابن بشكوال؛ فهو معلّم جاء خلال القرن العاشر ليعيش حياة الرباط في رباط الفخامين وهو مكان يؤمه الكثيرون من أبرز أهل طليطة؛ ومرة أخرى نجد تجاوراً بين المصطلحين، وعلى أساس ذلك جرّو تورس بالباس على القول إن *ribat-s* كانت تلتزم ابتداء من *rabita* مع وجود مرابط كرئيس، ومع مرور الزمن نجد رباط الفخامين وهو يخضع لبني الرباط التأسيسي الذي أطلق عليه القزويني (ق 13)، في مؤلفه الذي عني فيه بوصف العالم، اسم الحصن

التي أسست المصلى، وهو ما كان شديد الشبوع في ملقة. ربما كانت هذه الأماكن ذات الوظيفة تتمبر أربطة، وليس ذلك في حالة تجاوز المصلى الأبعاد المتواضعة للرباط المعتاد ومثلما حدث في شمال، طبقاً «للقراطس» حيث طلب ابن تومرت أن يظن في المسجد الكائن في المكان، فهل كان ذلك في المسجد نفسه أو في مبنى مجاور له؟ ومن المعتاد، عندما يتم استخدام هذه الوحدة المعمارية كمقبرة أو ضريح، فإنها تضم كوة أو شيئاً من هذا القبيل يبدأ من الأرض ويكون متوجاً بعقد، وعادة ما يكون مفتوحاً من جهات ثلاث، أما الجهة الجنوبية فهي تضم كوة المحراب، وهذه نمطية شديدة الشبوع في المشرق، ومن هنا ربما نجد رابطة تربطه بضريح شالا بالرباط، وهو ضريح أبي الحسن؛ ومن هنا وجب الفصل في الدراسة بين الأربطة المغلقة (ذات فتحة باب المدخل وهذه حالة رباط سان سباستيان دي غرناطة وأخرى غيرها في شبه جزيرة إيبيريا والشمال الأفريقي) والأربطة المفتوحة من الأضلاع الأربعة من خلال عقود كبيرة يسهل القول عنها إنها تخص مقابر أو أضرحة، وهذا ما نراه في جبانة فاس خلال عصر بني مرين في شالا بالرباط، وفي ليبي Lepe (أولبة)، حيث مصلى القديس كريستوبل، وفي البرتغال، ومن بينها، في هذا المكان رباط ساو فاوستو في «كونسيجو دي القصر دوسال» وفي قبة مونزاراش Monsaraz، وطبقاً لما يقوله. ترأس فهوقبة ترجع إلى عصر الموحدين، وفي المناطق المسماة Aljarafe في إشبيلية والبرتغال، كان معتاداً هذا الصنف من المباني المفتوحة التي قام المسيحيون بعد ذلك بتحويلها إلى مصليات أو مقصورة للكهنة وأحياناً ما يحولونه إلى بائكة تصبح جزءاً من بنية كنيسة حيث يضاف إلى رواق أو أكثر؛ والشيء الغريب هو أن هذه المباني كانت في كل من البرتغال ولبلة والأراضي المجاورة لها يظهر بها منكب القبة كما هو الحال في كل من شمال أفريقيا وصقلية، ويمكن العثور على مثل هذا النموذج أيضاً في قبة ليبي Lepe.

يحسم الأمر بنسبة هذا المبنى إلى العصر العربي، فربما كان رباطاً مسيحياً يسير على النهج الإسلامي مثله مثل الحصن ذي الأبراج والمخطط المستطيل في شيرة Chera (بنسية). هناك رباط عربي آخر جرت إعادة تأجيره علي يد ألفونسو العاشر، وربما كان مسجد القناطر في بويرتو دي سانتا ماريا، وهو اليوم حصن سان ماركوس وكان له مسجد وربما مثذنة في الداخل (تدرس بالباس). وختاماً نجد أنه بعد هذه المجالة حول هذه المسألة المعقدة لم نستطع - بالنسبة للأندلس - أن نحدد بوضوح الملامح الأساسية لكل من الرباط والمستير اللذين ورد ذكرهما في طول شبه جزيرة إيبيريا وعرضها، وهنا نقول كان من الممكن ممارسة عادة الرباط في أي مكان بالمدينة أو القصبية أو الحصن أو البرج الكبير (أي البرج البراني) أو الدير المحصن أو المسجد؛ هذا هو الاحتمال الأصوب، وبعض النماذج التي عرضناها يمكن أن تكون دليلاً على ما نقول.

نمود إلى مصطلح Rabita، فقد شهدنا تعريفاً له متجسداً في مبنى مربع أو مستطيل المخطط وأحياناً ما يكون له صحن ومثذنة، لكن هل كان له دوماً محراب حتى يمكن التعرف عليه على أنه مسجد؟ في حال الرد بالإيجاب بالنسبة للرباط أو الرابطة المسماة جواردامار (ألكانتا) حيث نجد المحراب (عبارة عن كوة تكاد تكون غرفة)، فإن ذلك يعني أن هذا هو جوهر المبنى وبالتالي أحياناً ما ينظر إليه على أنه رباط أكثر منه Rabita، ورغم هذا لا يندرج الأمر على الرابطة أو المصلى في سان سباستيان دي غرناطة، وهو المبنى الوحيد الذي لا زال قائماً في إسبانيا، كما لا يندرج على رابطة أخرى استطلعت رؤيتها في بيلونس (سبتة)؛ غير أن الأحياس الغرناطية، في حقيقة الأمر، تقدم لنا صورة للرابطة مصحوبة بمثذنة، وفي ملقة، نجد، طبقاً للمصطلحات العربية، مسجداً كان معروفاً بأنه رابطة Rabitat Gubar، ومنبع الخلط هو الازدواجية في التسمية، المسجد الضريح أو مكان دفن الشخصية

إضافة إلى رباط آخر مطلق هي «خارا دي قمرطاجنة» واستناداً إلى رباط سان سباستيان دي غرناطة وإلى رباط آخر في Alba، لازال قائماً حتى الآن (أ. خيل البراثين) فإن كلاً من محافظة غرناطة وألمرية كانتا تفتقران إلى قباب مرثبة من الخارج. ومن خلال هذا الاستعراض يمكن القول إن بنية الرباط تتنوع في مباني شديدة الشبه فيما بينها ولها وظائف مختلفة، ومع هذا يمكن المجازفة بالقول إن هذا التشابه في البنية إنما مصدره وجود القبة وهي وحدة منتشرة في كافة أرجاء العالم الإسلامي نراها في المقر الملكي (القبة الملكية) والمساجد الجامعة (القبة الكائنة أمام المحراب) وعادة ما كانت تضم أفضل العناصر الزخرفية كما سوف نرى لاحقاً. ولا شك أن الرباط الأكثر تعقيداً الذي نراه اليوم هو ذلك الذي وصفه الأنصاري في سبته ويطلق عليه رباط السد Sid. وهو عبارة عن مخطط مربع معلق له سراي في الوسط يقوم على اثنتي عشرة دعامة، وأربعة أكتاف من الدبش في الزوايا، وثمانية أعمدة من الرخام فيما بينها أو في الأضلاع الأربعة ويتوج كلا الفراغين قبة مشطوفة أو ذات أوتار؛ وعموماً فهو مبنى ذو مخطط مركزي ولا شك أن هذا المخطط يعتمد على ما عليه الحمامات الإسبانية الإسلامية (حمام حارة اليهود في ميورقة)، أو على بعض الأضرحة الملكية مثل القبة الرئيسية «لروضة الحمراء» حيث نجد السراي المركز هنا، أو القبة بالمعنى الحقيقي، لها أربع دعائم في الأركان ويدون الأعمدة التي نجدها في سبته، وفي وسطها كانت توضع ما تسمى بالمقبريات، من الحجر أو الرخام، مثلما هو الحال في قبة ضريح أبي الحسن في شالا بالرباط أو ضريح قصبة مراكش الذي يرجع إلى القرن السادس عشر.

هذا الشكل نفسه نجده في بعض الأضرحة الخاصة بعلية القوم، والكائنة في المقابر العامة، وهي التي نراها بوضوح في المغرب وخاصة في فاس؛ وحول الازدواجية في التسمية «الرباط الضريح»، يلتفت اقتبأهنا رباط

عمروس في ألمرية، حيث دفن هناك أحد القضاة المهمين في المدينة (رشيد النور). ظهرت أيضاً بعض الأربطة التي ربما جرى التفكير فيها لتكون أضرحة في الحفائر التي جرت في بعض البلدات مثل لورقة (مارتث ومونتيرو) وألمرية (كاراباز يوتوبيو)، وكانت هذه قريبة من المقابر، كما ظهرت أخرى مجاورة للمسجد الجامع في غرناطة؛ وفي بعض الأحيان كان يوجد بداخل فراغ القبة المربع ثلاث كوات أو أربع تبدو كأنها على شكل صليب يوناني، وهذا نموذج مأخوذ من ملحقات الحمامات الرومانية ومن الأقباب البيزنطية، كما أنه استقر في عمارة القاهرة والملاحق الإنشائية الملكية في قلعة بني حماد بالجزائر، كما نراه في الأندلس بمسجد الباب المردوم بطليطلة وبعض الأبراج التصيرية الحربية، ونراه شائعاً على ما يبدو في محافظة وبلبة، لكنه بمثابة رباط، ثم نجده مصلى مسيحياً وقلالي في سلسلة من الصنف المرابطي الذي رأيناه في دير سانتا كلارا دي موغير Moguer؛ كما ظهر في القبة الضريح المسماة «سيدة أبو مدين» التي ترجع لعصر بني مرين، وفي تلمسان نراه مصبوحاً بصحن ذي أربع بوائك (رشيد بورقبة). كما أن وجود هذا الصليب اليوناني وغيبة كوة المحراب في مصلى البرج المسمى سان لورنثو دي طليطلة، الذي يفترض أنه محراب لمسجد يرجع إلى القرن الحادي عشر، يدفعنا إلى التفكير في أن هذه الوحدة المعمارية الطليطلية لم تكن رباطاً أو مصلى وليس بها ضريح لأحد الأولياء وبالتالي كان من الممكن أن تضاف إليها ثلاثة أروقة متعامدة عليها مثلما هو الحال في كل من البرتغال وبلبة، ومتجهة إلى الجنوب الشرقي، ولا شك أنها سابقة زمنياً على دار العبادة المسيحية المعاصر المتجهة نحو الشرق. أيضاً في طليطلة مصلى بلين Belen في دير «راهبات سانتياجو» حيث كانت توجد قصور ملوك الطوائف (أسرة المأمون)، وهذا المصلى عبارة عن مبنى خال مربع المساحة من الخارج ومثل من الداخل، على طراز المصلى الملكي في

منطقة الانتقال نفسه الموجود في تونس، نجده في قبة سان كريستوبل دي لوبي (أويلبة)، 14: قبة مغلقة تسمى سان خنيس دي لاخارا (مرسية)، 15: مبنى مدجن، في صحن دير جوادا لوبي (قصرش)، 17: نمط لمنطقة الانتقال المضلعة في تطوان، رباط سان سباستيان دي غرناطة، 18، 19: قباب ومصليات في أويلبة، نويسترا سنيورا دي سنتا، وهو نمط الأريطة البرتغالية.

لوحة مجمعة 1-19: ضريح المقابر النصرية في الروضة بالحمراء (إعادة بناء حيث نجد القبة المركزية ذات مخطط مستطيل)، 2، 3: نمط لقبة مفتوحة مع وجود بقايا لصحن، تلمسان؛ 4: ربما كان نموذجاً لرباط مرابطي أو زاوية ذات مثذنة، القصر الكبير، 5: نافورة ذات حوض، في بلدة بالوس دي موغير، مثلها مثل النواهير التي وصفها الأنصاري في سبته، ويتكرر هذا النموذج في صقلية 6: وفي اللوحة 1-19 نجد قباب للترجية وقت الفراغ: A، في بالهرمو، B: باب الروضة بالحمراء.

9- المنستير Monasterium

عرضنا في السطور السابقة لبعض المنستير (Monastyr-s Almonacid) هي اللفظة الشعبية المسيحية)، وعرفنا أنها تتعلق بأسماء الأعلام الجغرافية، وما هو مسجل منها حتى الآن يبلغ أربعة عشر مكاناً، ولكن لا نعرف عن عمارتها إلا تلك الخاصة بالمنستير الكائن في وبلية الذي أورده البكري كحصن إقليم، أو دائرة في كورة إشبيلية، وبالنسبة لمسجده الذي لا زال قائماً حتى ذلك الحين نرى أنه جرت الإعادة في بنائه من الكتل الحجرية الرومانية والقوطية مثلاً هو الحال بالنسبة للمسجد الجامع في قرطبة، ابتداء من القرن الثامن الميلادي؛ هناك اثنان آخران هما منستير أدا (أليكانتي)، والموناسيد دي طليطلة،

الجعفرية بسرقسطة، وهو مفتوح من الجهات الثلاث وله قبة ذات أوتار رائعة دون أن يظهر منكبها، أسلوبها خلافي، وهي قبة بالمعنى المفهوم، ويرى بعض الباحثين أن المكان ربما كان مصلى عربياً خلال القرن الحادي عشر، اللهم إلا إذا كان قبة ملكية لترجية وقت الفراغ وسط الحديقة وهذا ما أراه، والاحتمال ضئيل في أن تكون هذه القبة التي تضم الكثير من الرموز الإسلامية، قد شيدت أثناء الحكم المسيحي للمدينة، أي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر؛ وينض النظر عما سبق بشأن هذه الوحدات المعمارية المرتبطة بالإسلام نقول إن مبنى الرباط كان نموذجاً لتغطية نواهير أو بحيرات اصطناعية في منطقة العالم الإسلامي، وهي قباب نواهير، أو قباب بحيرات جرت الإشارة إليها في سبته الإسلامية خلال القرن الخامس عشر (الأنصاري)، وهذه أخرى متأخرة نسبياً نجدها في محافظة وبلية، وفي صقلية نجد قبة صغيرة تعلو بحيرة اصطناعية أطلق عليها قبة سبريغنا Ciprigna في فيكاري، وكان هذا النمط تبراساً لما هو عبارة عن سراي لترجية وقت الفراغ في حدائق القصور النورماندية في باليرمو (ق 12).

لوحة مجمعة 18: ملخص للرباط والمقبرة؛ 1، 2، 3: ميان ذات قباب تبدو كأنها أريطة أو مصليات في القاهرة؛ 4، 5، 6: مقابر أو أضرحة صغيرة مفتوحة في شالا بالرباط، 1-6: مبنى منعزل وله قبو مشطوف ويطلق عليه مصلى سان سباستيان، في أبلا Abila (ألمرية)، طبقاً لـ أ. خيل ألبرائين؛ 7: قبة الهاروديين بمراكش وهي مبنى ميسضة في رأي هـ. تراس وكانت قبل ذلك ضريحاً لإحدى الشخصيات من المرابطين، ذلك أن لها أربعة مداخل، 8: نمط عام للمقابر الحانية في تطان - مرابطي أيضاً - 9، 16: من المقابر الملكية في فاس، 10: غرفة منعزلة في بليونس (سبته)، 11: نمط من القبة الكائنة أمام المحراب بالمسجد الجامع بالقيروان ولها مناطق انتقال مضلعة؛ 12، 13: نمط

ذلك في الفصل الثالث من هذا المجلد، وهنا يجدر الحديث عن كنيسة أدير قوطي أدى إلى نشوء المستير العربي، ذلك أن المصادر المسيحية القديمة تشير إلى وجود دور للمبادة قوطية إلى جوار «Castellum» أو «Castella» (حصن) حيث كانت تسكنه راهبات (طبقاً ليويرتاس تريكاس)، إضافة إلى صور سوف أتحدث عنها أيضاً في ذلك الجزء المخصص للكنائس المستيرية في الفصل الثالث. وفي نهاية المطاف هناك «منستير» ويليه، ويضم هذا المبنى مسجداً مكوناً من خمسة أروقة لها محراب ذو طراز قديم شبه مستدير، وهو محراب يضفي على المبنى سمة المسجد الجامع، ويرى أحدث باحث درسه (ألفونسو خيمينث) أنه يرجع إلى القرن العاشر واستخدمت في بناء دعائمه كل ترجع إلى ما قبل العصر العربي، كما أن المبنى محاط بسور ذي أبراج، وتبلغ مساحته 8288 متراً مربعاً، الأمر الذي يدعونا للقول إن الأندلس، خلال الزمن الأول، كانت تضم أربعة - معسكرات وبها مسجد، وتضم أربعة حصوناً، على شاكلة الرباط التونسي في المنستير وسوسة، حيث نلاحظ أن مساجدها الصفراء توجد في الطابق العلوي، ومن المنطقي أن هذه الأربعة التي تعتبر أديرة كانت توجد على الحدود الاستراتيجية، ومنها الطليطلي الذي ورد ذكره عام 1086م، عندما منحه الملك ألفونسو السادس لكنيسة سانتا ماري دي طليطلة، وربما كان حماية لجندول المياه جواداليتي (خوليو جونثاليث) وكان ضمن مجموعة كبيرة من الحصون وأبراج الطلائع: ماسكاراكي، وحصن مورا الذي ورد ذكره في المقتبس (الجزء الخامس) لابن حيان، وبنيامس نجراس وتبليكي وكوزال دي ألماجر.

ورد ذكر اسم علم جغرافياً «المنستير» مرتين في محافظة سرقسطة، وطبقاً للعذري فإن الحصن الذي يحمل ذلك الاسم يقع في دائرة «بالسار» وهما «موناسيد الجبل» وله حصن (1174م) مسيحي مستطيل المخطط، و «المناسيد دي لاس كوياس» التابع لإدارة بلنشيبي

ويهما بمض الأطلال الضئيلة فهي في الأول من أصول رومانية، والعصر المسيحي الأول وكذا البيزنطي مع وجود مذبح شبه مستدير وهي الثانية قوطية، وهذه النماذج الثلاثة سهلت وجود أسماء الأعلام الجغرافية العربية وأصبحت هي المرجع، وجملت هناك مسميات مزدوجة هي Monasterium-Monastir، وهذا ما نراه في المنستير بتونس، وهما لفظتان مرتبطتان فيلولوجياً ببعضهما (أسين بلاثيوس) على أرض مشتركة، ويرى الباحث يويريجات (أليكنتي)، يليه آخر هو أثار، أن المنستير كان مقراً للأسقفية القوطية المسماة، وهي مدينة رومانية ترجع إلى العصر الروماني المتأخر، وربما، يقول المؤلف الثاني، بأن «المنستير» كان «منستير»، قال عنه ياقوت أنه يقع بين أليكنتي وقرطاجنة، أو أنه - طبقاً لاعتراض يويريجات - ربما كان اسم علم، ترجمة لرباط مرابطي زال من الوجود، وإذا ما كان ذلك صحيحاً سيؤدي إلى مزيد من الخلط في مجال تعدد المسميات بالنسبة لمبنى واحد، وهنا أقول إن لفظة «منستير» سواء كانت عربية أو مسيحية، كانت تتجاوز كثيراً، في معناها، مجرد مبنى بسيط.

والشيء الذي نستفربه على هذه الهضبة في أليكنتي هو عدم وجود حصن وقلاع، أما «المناسيد» الطليطلي فهو عبارة عن قرية صغيرة تقع على سفح جبل يملوها حصن ذو طراز مسيحي يرجع إلى القرنين 12، 13، وقد شيد مرة أخرى في تاريخ لاحق، ويوجد وسط ميدانه برج طلائع، طبقاً للنمطية الشديدة التكرار في عالم الحصون الإسبانية الإسلامية، وهي الجزء الأسفل من البلدة، عند منبت الجبل، نجد دار عبادة مدججة ترجع إلى عصر متأخر أضيفت إليها غرفة حفظ المقدسات خلال القرن السادس عشر، حيث عثر في هذه المنطقة خلال السنوات الأخيرة على سبع كتل حجرية بها زخارف قوطية ذات أسلوب شبيه بما عليه الكثير من الكتل الحجرية الأخرى التي ترجع إلى الفترة نفسها والتي تضمها طليطلة، وسوف أتحدث عن

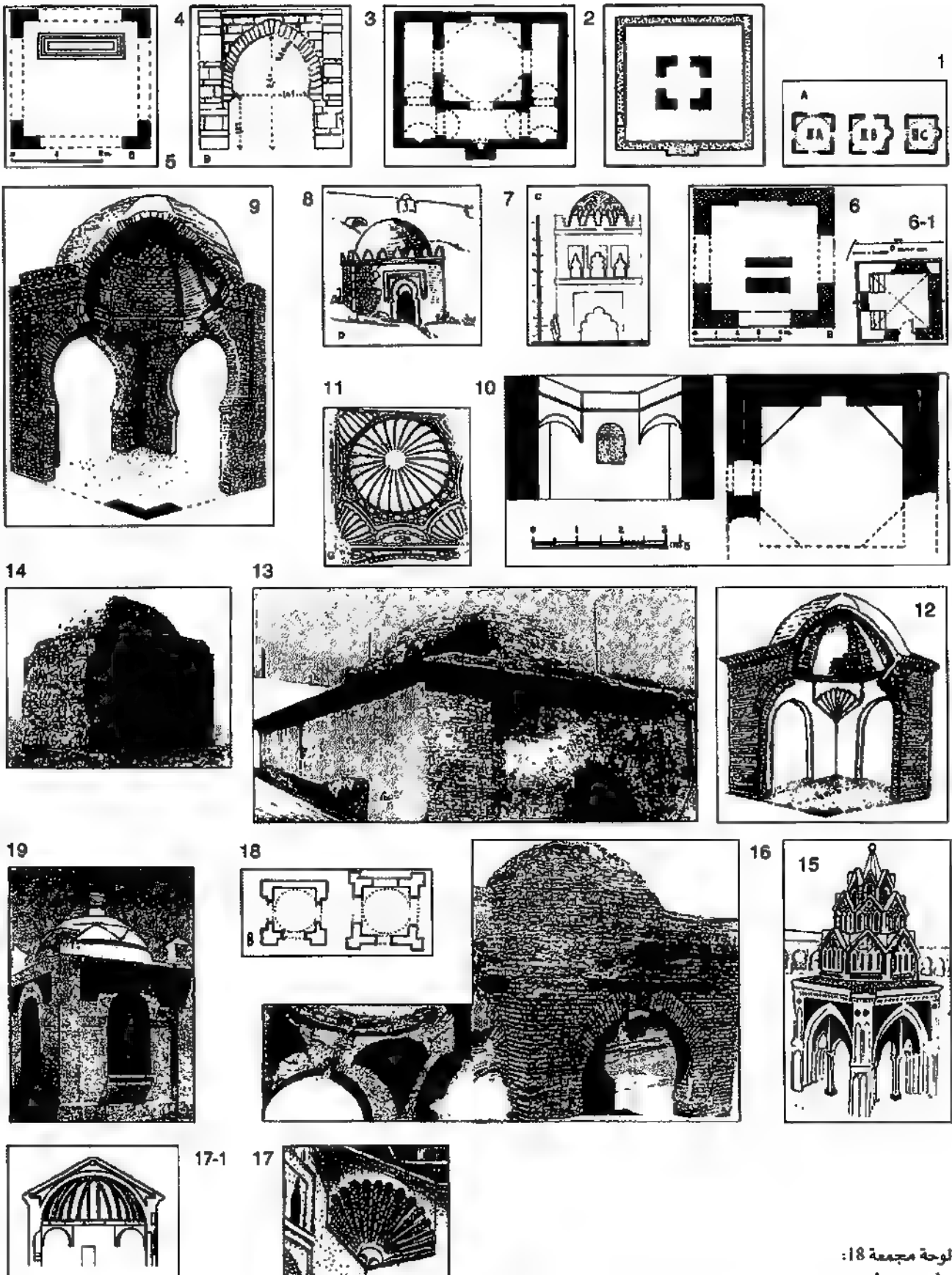
أمر أمير قرطبة محمد الأول؛ وعندما زالت دار العبادة المذكورة انتقل الاسم إلى آخر كان مفتوحاً عام 1066م، ويقع في ظهر مقر الحزام العربي الذي شيده عبد الرحمن الثالث (932م)، وعاد مسمى سانتا ماريا إلى مقره القديم عندما تم تحويل المكان للطقوس المسيحية بعد واحد وعشرين عاماً على بناء المسجد الجامع (خوليو بوزس مارتين - كليتيو). وكان يوجد في قرطبة ما لا يقل عن دير لسانتا ماريا، ومن المعتقد أن الأسقفية في إشبيلية كان مقرها في الكنيسة الكاتدرائية «أورشليم المقدسة»، وفي شريش كانت هناك كنيسة تنسب إلى الزمن الماضي وكانت مكرسة «للغذاء مريم» في بلدة كابرا (قرطبة)، أما في ماردة فهناك كنيسة الرئيسة أو الكاتدرائية وكان اسمها سانتا ماريا وكانت تقع في المكان الذي فيه الكنيسة الحالية التي تحمل الاسم نفسه، أو في مكان غير بعيد عنها؛ في سيجوينثا (وادي الحجارة)، كان هناك في عصر ما قبل دخول الإسلام معبد مكرس لسانتا ماريا يطلق عليه «سانتا ماريا دي مدينة»، أو «القديمة» في أزمنة متأخرة، وخارج حوائط المبنى عثر على أطلال رومانية. في هذه المقدمة الوجيهة من المهم أن نذكر دراسة مهمة عبارة عن كتاب بعنوان «الكنايس الإسبانية» (من ق 6 إلى ق 8) لرفائيل بويرتاس تريكاس.

هناك عدد من المؤلفين الذين أرادوا أن يعطوا لهذا التكريس باسم الغذاء مريم، يمد الغزو المسيحي، رمزاً ومعنى هو الاعتقاد بأنها حلت محل المساجد، ومن هنا فإن إحصاء هذه الأخيرة قد زاد عدده بشكل كبير، وهذه البدهية ليست سدى، إذا ما أخذنا حالة طليطلة في الحسبان، ثم تليها تطيلة، حيث نجد مسمى سانتا ماريا في هذه الأخيرة قائماً ابتداءً من الغزو المسيحي للمدينة عام 1118م؛ وبالنسبة لطليطلة فإن مسمى سانتا ماريا كان تكريساً يتجاوز حدود مبنى بعينه؛ أي الكاتدرائية، وكان بمثابة مسمى يطلق على أنحاء الأبرشية الأسقفية كافة؛ ويرى أ. جاسكون دي جوتور أن المسجد الجامع

Belechite، وله كنيسة تسمى سانتا ماريا لامايور. هناك «موناسيد الماركيسادو» الذي يقع في محافظة قونقة؛ وفي محافظة وادي الحجارة نجد موناسيد آخر على بعد ثلاثة كيلو مترات من «ثورينا دي لوس كانس» حيث لا زال حصنه يحتفظ حتى الآن ببعض الأطلال العربية التي ترجع إلى القرن العاشر، مع بعض الكتل الحجرية التي أعيد استخدامها حيث جرى جلبها من مدينة ريكوبوليس القوطية التي تقع على بعد لا يزيد عن أربعة كيلو مترات، وكانت هذه المنطقة أرضاً حدودية من الطراز الأول؛ وفي محافظة قسطلون دي لابلانا نجد «موناسيد الخيميا» في سوريا، وهو عبارة عن مزرعة تحمل اسم «منسيد» التابعة لداثرة ألتانان Almazan وللوهلة الأولى يمكن القول إن الأندلس شهد ثلاث مراحل من الأريطة - المنستير، أولها وجود دير مسيحي أو مجرد كنيسة قائمة أو ملال عند وصول العرب، أطلقوا عليها مسمى منستير، أما الثانية فهي عبارة عن مكان للعبادة، وهو حربي في الوقت ذاته ومحصن وله مخطط ومعرف بهذه التسمية، أما المرحلة الثالثة فهي أن المكان الذي يعيش فيه المحارب حياة الرباط أمكن أن يكون حصناً به مسجد ويطلق عليه منستير، وفي هذا البلد نجد التنوية التي أشرنا إليها في ويلبه وهي رباط معسكر على شكل منستير.

10- إطلاق اسماء سانتا ماريا وسان سلبادور على مساجد مكرسة للعبادة المسيحية؛

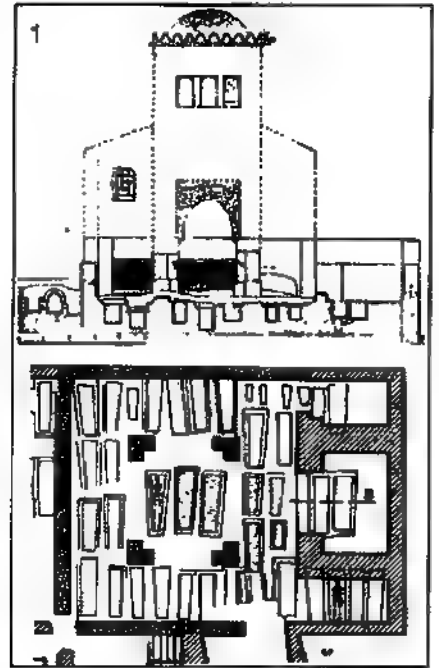
هناك الكثير من دور العبادة الإسبانية التي ترجع إلى العصر المسيحي الأول والقوطية وقد تم تكريسها باسم سانتا ماريا، لكن المسمى الآخر سان سلبادور كان أقل شوباً عن السابق وكان في طليطلة بازيليك قوطية اسمها سانتا ماريا، ربما كانت توجد حيث كان المسجد الجامع للمدينة، وربما كانت خلال الأزمنة الأولى للحكم العربي مركزاً لطائفة مهمة من المستعربين، وهذا ما رآه ابن حيان من أنه كان إلى جوار المسجد الجامع معبد مسيحي جرت مصادرة أروقته لتوسعة المسجد بناء على



لوحة مجمعة 18:
الأريطة والأضرحة



2



1

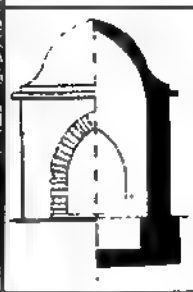
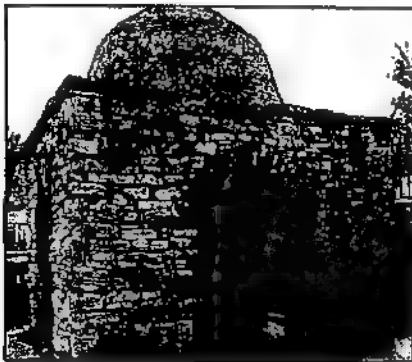
4



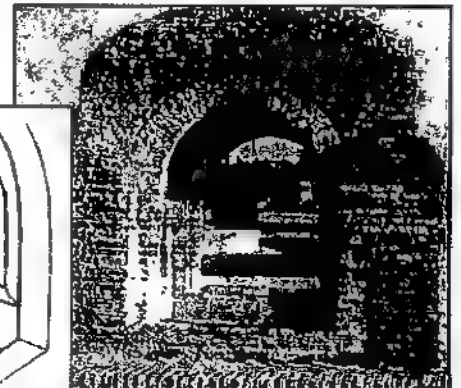
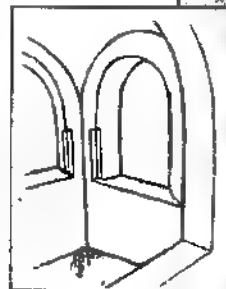
3



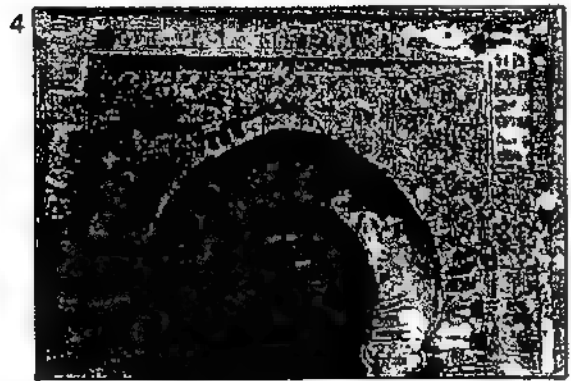
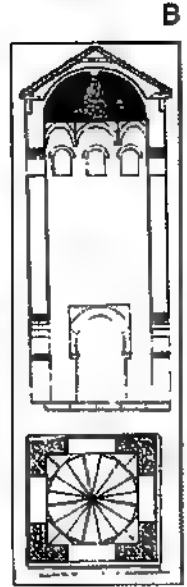
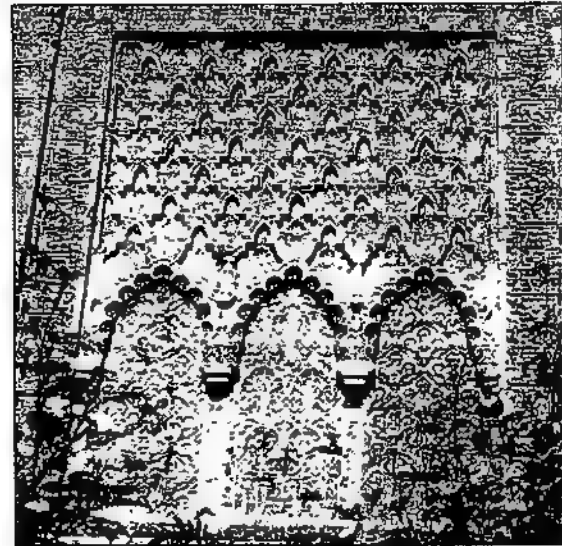
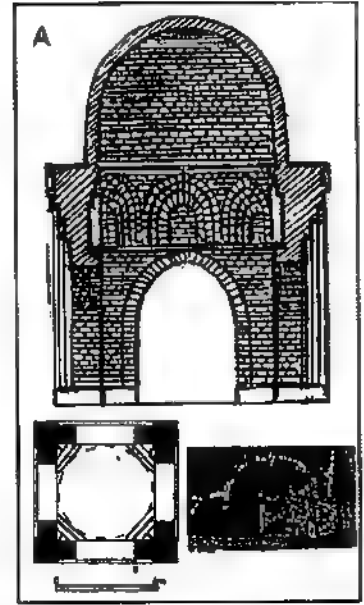
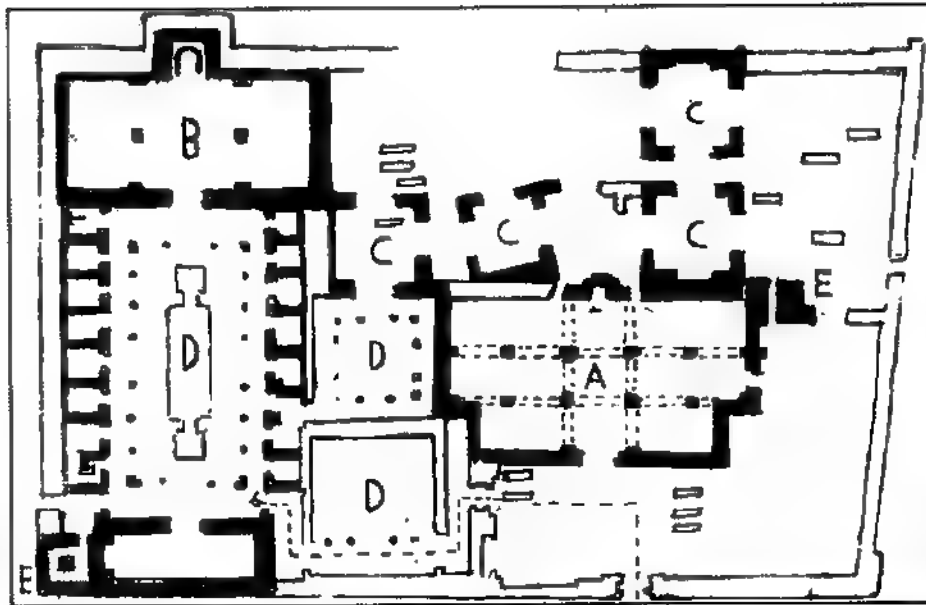
6



5



لوحة مجمعة 19:
الأربطة والأضرحة



لوحة مجمعة 1-19:
شالا بالرباط. جبانة وزاوية بني مرين. A قبة باليرمو، B
قبة أو باب الروضة، الحمراء.

وتيخادا القديمة (قادش) وسانتا ماريا القديمة هي «يسرّو الروح القدس دي بيررا» (ألمرية)، وترخيّو (هصرش)، وأوثيدا (وادي الحجارة) وأقليش (فونقة) (سانتا ماريا دي الكاستيو)، وبليث (ملقة) وسانتا ماريا دي لابنكارناثيون) وثوريتا دي لوس كانس (وادي الحجارة) خارج الأسوار.

وعندما استولى المسيحيون على المدن الإسبانية الإسلامية فإن الحي الخارجي (الريّض) الذي استقر فيه السكان المسلمون، أو ما يسمى بحارة أو حي المورو، قد خصصت له قطعة من الأرض ليُشيد عليها مسجد وبعد ذلك، أي عندما تم تكريسها للطقوس الجديدة أطلق عليها غالباً مسمّى سان خوان أو سانتياجو، ذلك أن المدجنين كانوا يقيمون الاحتفالات تكريماً للقديسين (كارو باروخا)؛ معبد سان خوان في طرثونة، وتطيلة وباجة، وسانتياجو في ألكالا دي إيفارس... إلخ.

11- مكان المسجد والكنيسة في مخططات المدن الإسبانية الإسلامية،

يرجع السبب في إدراج الكنائس ضمن هذا البند ومعمها الكاتدرائيات إلى أن الكثير منها كانت قد حُلت محل مساجد، وكان هذا في أغلب الأحوال دون أية شواهد للتوثيق، فأحياناً نجد في إقليم الأندلس وشرق الأندلس أربطة أصبحت كنائس صغيرة؛ وإذا ما شهدنا في مدن، على شاكلة طليطلة، مصطلحات عربية مثل «الجماعة» و«الكنيسة»، التي أحياناً ما ترافقها لفظة «حومة»، تشير إلى دائرة أو إدارة تابعة للكنيسة المسيحية وظلت كذلك خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر، طبقاً لما تشير إليه الوثائق المستعمرة في طليطلة ذلك العصر، وهذا نموذج للثقافة المسيحية المترعة بما هو إسلامي، فمن المنطقي أن يكون مبنى الكنيسة، الذي أقيم في كثير من الأحيان مكان المسجد، هو المبنى المهم

في الأحياء أو الأرباض التي ترجع أسماؤها في كثير من الأحيان إلى اسم ذلك المبنى أو اسم الشخص الذي كرّس اسمه مثلما هو الحال في الأزمنة الخوالي على عصر الخليفة القرطبي. وهنا علينا أن نلح كثيراً في أن المشهد الحضري للمدن الإسبانية الإسلامية كان لحظة الغزو المسيحي (التي بدأت في طليطلة عام 1085م وفي أرغن 1118م و 1124م في بلنسية و 1236م و 1248م في كل من قرطبة وإشبيلية على التوالي) قد ظل على حاله فهما يُستقبل من الزمان، أي أن المسجد الجامع كان هو العلامة الرئيسية وهو المكان الذي حلت مكانه الكاتدرائية بعد ذلك؛ وكان مبنى هذا أو ذلك عبارة عن مخطط على شكل صليب تفرضه ازدواجية توجّه المؤمنين أثناء أداء الطقوس، أما من الناحية الجغرافية فإن مساحة الكل متساوية، إذا ما استثنينا المذابح الكاتدرائية التي تتسم بكبرها وأنها شبه خالية؛ وحقيقة الأمر هي أن المسجد الجامع كان يمكن أن يكون في مساحة البازليكا، أي أن الغزو المسيحي لم يجلب معه المزيد من السكان المسيحيين؛ وهناك فترة زمنية فاصلة بين إعادة تكريس المسجد وبناء الكنيسة الكاتدرائية تتسم بالتكريس غير الواضح للمبنى دون أن يكون هناك رد فعل واضح من قبل الملوك والأساقفة الذين أذعنوا للموقف القائم ووقفوا غير مباليين بالموقف الجديد، وهذا مخالف للموقف العربي الذي كان يُخضع دار العبادة التابعة «لفير المسلم» ولا يتركها قائمة، غير أن الموقف المسيحي كان يتسم بالعملية مثل الإفادة من المبنى القديم ومن المباني الملحقة به وهي مباني أهداها الملوك، بعد الغزو، إلى الأسقفيات التي كانت هي تلك الفترة كما كانت عليه خلال الفترة المدجّنة، أي أن هذه الأسقفيات كانت على وعي كامل بما عليه تلك المباني من زخارف ونقوش عربية بما في ذلك النقوش الكتابية. وعندما يدخل الملك أمام الأساقفة مسجداً ويتركه على حاله لمدة طويلة فإنه يكون واعياً بأن سلطانه يقوم على موروث ثقافي رفيع كان على الجميع التعايش معه في

إذن نجد الكنيسة ترث المسجد في المخطط الذي عليه في الرقعة العمرانية، وهذا ما نراه في مسمى «الجامع الكاتدرائية» حيث يتدرج ذلك على الأحياء من خلال موجات متراكزة. وهنا نجد أن مكان الكنيسة خلال المصور الوسطى والمحيط بها هو الذي تكون له الأولوية لدينا عند القيام بدراسة المكان الذي كان قبل ذلك عريباً، وبعد ذلك يمر بمرحلة غامضة ومختلطة بالمرحلة الأولى نظراً للتفوق في المكان والمبنى؛ غير أنه أحياناً ما تكون هناك هوة بين المسجد والكنيسة، من حيث الأبعاد، وهذا ما نراه في لاردة، وشقة، وطيطة، وملقة، وغرناطة، ووادي أش، ويتجسد هذا الفارق في وجود منازل عربية تحيط بالمكان وهي منازل جرت مصادرتها وهدمها لإقامة الكاتدرائية، لكن هذا من الناحية الحضرية، لم يغير من طابع المبنى الإسلامي الذي أصبح كأنه جزيرة محاطة بشوارع، وميدان تصب فيه الشوارع وتلتقي عند المبنى؛ وفيما يتعلق بالمخططات التي سأعرضها على التوالي يمكن لكل قارئ أن يخرج بالنتائج التي يراها، ومع هذا يجب ألا ننسى أن الفراغات

المخصصة للعبادة في المدن الإسبانية شهدت تتاباً بين دور العبادة القوطية والعصر المسيحي الأول والمسجد والكنيسة أو الكاتدرائية، مع وجود شواهد لا تُدحض على هذا مثل أبدان الأعمدة وقواعد الأعمدة الرومانية أو القوطية أو العربية التي كانت تتفق بين معبد وآخر، وهذا ما نشهده بوضوح في طليطلة على مدار العصور الوسطى. وقد رأينا نموذجاً واضحاً على ذلك في هذه المدينة، وفي قرطبة في حالة سانتا كلارا.

11 - 1: الثغر الأعلى؛

(اللوحة المجعدة 20، 21، 22)

(أ) سرقسطة (مخطط إيزابيل فالكون): 1، البيلار، سانتا ماريا لامايور، 2: لاسيو، المسجد الجامع، 3: سان نيكولاس، 4: ماجدالينا، 5: سان خوان المجوز، 6: سان بدرو، 7: سان لورنتو، 8: سان أندرس، 9: سان خيل، 10: سان فيليب، 11: سان ميغل، 12: سان بابلو؛ ب) تروال: هي مدينة أسسها ألفونسو الثاني (مخطط إيزابيل فالكون)، لا يوجد مسجد سابق بها وهذا ما نلاحظه بالعين المجردة، وهناك دور العبادة الثانية: سان ميغل، سانتا ماريا لامايور، سان مارتين، سانتياجو، السلبادور، سان خوان، 8-7: سان استبان، (أ) حارة اليهود (ب) حارة المسلمين. (ج) قلعة أيوب: طبقاً للموروث هناك مسجد جامع مكان كنيسة سانتا ماريا 10: 9: سان أندرس، 11: سان بدرو دي لوس فرانكوس، 15: سان بنيتو. (د) دروكة: 1: كاتدرائية يفترض أنها كانت مسجداً جامعاً، 2: سان خوان، 3: سانتو دومنجو، 4: سان باليرون، 5: سان بدرو (زالت من الوجود)، 6: سان أندرس، 7: سانتياجو (زالت من الوجود)

(M) حارة المسلمين، (J) حارة اليهود؛ أما الدوائر باللون الأسود الكائنة في المخطط الأول فتشير إلى أن المكان ربما كان مسجداً. أما تاريخ بناء الكاتدرائية فهو 1300 و 1497م، 1.15 (حول وشقة كاريرو وسانتا ماريا، E: المياني الدينية التابعة لوشقة) (N) لاردة: المخطط M كاتدرائية سانتا ماريا (كالثادا) التي تم تكريسها عام 1234م، 1: الكاتدرائية في السدة العربية، على أطلال مسجد جامع، 2: سان مارتين، 3: كاتدرائية سان بدرو، 4: سان أندرس، 5: سان لورنثو، 6: سان خوان، 7: سانتا كلارا، وربما شيدت دور العبادة هذه مكان مساجد مكرسة للطقوس المسيحية حوالي عام 1149م وهي مباني أهداها رامون بيرنجر التاسع إلى الأسقف جيم دي لاردة؛ ويلاحظ تورس بالباس أن الصحن المربع للكاتدرائية والذي أضيف خلال القرن الرابع عشر ويقع عند مدخل المبنى، ربما ظل يسير على النموذج الذي كانت عليه المساجد، وننصح القارئ، لمزيد من الإطلاع، النظر في إسهام إ. سانتا ماريا (المسجد الجامع سانتا ماريا لا أنتجويو وتاريخ لاسيو بلدة لاردة)، N: أوليت: X السدة أو القصبه، 1: كنيسة سانتا ماريا بدون مساجد موثق وجودها، O) تطيلة: صفر: في وسط المدينة نجد الكاتدرائية مكان المسجد الجامع، وقد جرى الحفر فيها خلال الأعوام الأخيرة وإلى جوارها هناك كنيسة مفترضة، مستعربة تسمى سانتا ماريا، 1: كنيسة لاما جالينا، يفترض أنها دار عبادة مستعربة، 3: سان سلبادور، من المفترض أنها كانت مسجداً، هناك مسجداً مذكوران في الوثائق المسيحية

(X) حارة اليهود، ه) طرثونة: 1: لاما جالينا، 2: سان أتيلانو، 3: حارة المسلمين ومعبد سان خوان، 5: كاتدرائية في الربض، و) بربشترو: 1: سُد، 2: لاسيو (مسجد جامع مفترض يسمى سانتا ماريا)، 3: الربض، 4: ربض سان ميغل، 5: الأحياء المسيحية، وتقول الدكتورة ماريا خيسوس بيجيرا إنه كان هناك مسجد آخر وكنيسة مستعربة عند الغزو (1160م) ويلاحظ أن مخطط الكاتدرائية القديمة في بويشتر (G) هو من رسم ريكاردو دل أركو، (ل) إيخيا Ejea: كنيسة سانتا ماريا، وسان سلبادور، ويفترض أنهما كانا مسجدين، ل-1: طرطوشة: هناك إشارات موثقة لوجود مساجد، إضافة إلى المسجد الجامع (ق 12) (Diplomatari) كاتدرائية طرطوشة (1062 - 1193م. طبعة أ. فيرجيلي)، م) ل: جيرونا مع وجود الكاتدرائية، و) طرثونة: 1- الكاتدرائية (ق 12-13) فوق كنيسة مستعربة كبيرة أو مسجد جامع، هناك نقوش كتابية عربية ترجع لعام 960-961م وتقع اليوم على حائط صحن الكاتدرائية حيث تشير إلى عملية بناء المسجد وتزيينه؛ (A) المسرح الروماني مع وجود أطلال لكنيسة قوطية، L-L: وشقة (مخطط ث. إسكو، وف. سيناك و م.ت. إيرانتو مونيو) مخطط 1، LL: كاتدرائية مكان المسجد الجامع، في السدة العربية (ظهر في صحن الكاتدرائية عقد حدوي)، 2: كنيسة قديمة تسمى سان سلبادور، يفترض أنها كانت مسجداً، 3: سان بدرو المعجوز، يفترض أنه كان كنيسة مستعربة، 4: سان لورنثو، 5: سانتو دومنجو، 6: سان ميغل، 7: سانتا كلارا، Z) السدة Zuda.

نيكولاس، وهو مسجد قريب من حمام كاباليل (Caballiel)، ومسجد سانتا خوستا و روفينا وسان لورنتو، ومسجد مفترض هو Chaval al barid (سان كريستوفل) ومسجدان آخران، ذكرهما ابن بشكوال، أمر بينهما أحد المسلمين وهو فتح بن إبراهيم العميري، ولا يعرف مكانهما، ومع هذا نجد كلارا دلجادو تقول بأن أحدهما في Chaval al barid دي سان كريستوفل، والآخر في حي الدباغين، في كنيسة سان سباستيان. ولن تتمكن أبداً من التأكد من عدد المساجد في المدينة وبما في ذلك المساجد الصغيرة الخاصة حيث بيعت وقضاءاتها إلى المسيحيين وخاصة في تلك المنطقة الواقعة بين الكاتدرائية و «البئر المر» جنوب الكاتدرائية (جونثاليث بالنسيا «الوثائق العربية»).

الكنائس المستعمرة مشار إليها في المخطط بمربعات قائمة - هناك كنيسة إلى جوار المسجد الجامع خلال القرن التاسع طبقاً لابن حيان، ويرى تورس بالباس أن الأسقف خيمنت دي رادا (De Rebus Hispaniae) أمر ببناء تسع كنائس مفتوحة لأداء الشعائر خلال الفترة من 711 - 1085م؛ سانتا خوستا و روفينا، وسانتا إيولاليا، وسان لوكاس، وسان سباستيان، وسان ماركوس، وسان توراكو، وأمنوم سانكتوروم Omnium Sanctorum وسانتا ماريا الحزام (منطقة الحزام) وسان كوسمي إي داميان؛ ثم جاء تورس بالباس، وأضاف إليها كنيسة أخرى مكرسة باسم سانتا ليوكاديا؛ ومع هذا نجد خوليو بورس مارتين - كليتيو، يلاحظ أن خيمنت دي رادا يشير إلى ستة دور للعبادة مستمرة، لكنه لم يحدد أسماءها، وهي ليست التسعة التي ذكرها تورس بالباس، وإذا ما قبلنا بصحة القائمة التي قدمها لنا ذلك المعماري - وحتى نتأكد من مصدر معلوماته - نقول إنه لم يصلنا من هذه القائمة إلا أربعة فقط: سان لوكاس، وسان سباستيان، وسانتا خوستا و روفينا، وسانتا إيولاليا، ومع هذا فإن المباني الباقية، ماعدا سان كوسمي إي داميان،

(لاكارا). (P) أجريدا؛ جرى غزوها على يد سانشيث راميرث عام 1084م، وتم الاستيلاء عليها بشكل نهائي عام 1119م وجرى ضمها إلى مملكة أرغن، 1: قصبة ترجع إلى القرن العاشر مع وجود كنيسة عند المدخل كانت فوق مسجد مفترض، ويحمل اسمه اليوم أحد شوارع المدينة وقد أشرنا إليه باللون القاتم، 2: معبد يهودي مفترض، 3: على الجانب الآخر من كيلس، كنيسة سان خوان.

11-2، الثغر الأوسط، على رأسه كل من طليطلة ووادي الحجارة؛

طليطلة (لوحة مجمعة 33)

المساجد (الدوائر السوداء): المسجد الجامع الذي حلت محله الكاتدرائية (ق 13)، وسط المدينة، (Z) مسجد الباب المردوم، (X) مسجد سلبادور، (Y) مسجد تورنرياس، (C) مسجد سانتا خوستا وسانتا روفينا، 17: المسجد المفترض سان دورنتو، (V) مسجد مفترض، سان سباستيان، 11) مسجد مفترض Chaval al barid (مؤثق في المصادر العربية) وربما كان في سان كريستوفل، وتشير كلارا دلجادو في جردها للمساجد إلى وجود اثني عشر، معتمدة في هذا على المصادر العربية وعلى الدراسات الأثرية وعلى الدراسات الحديثة وهي: المسجد الجامع الكاتدرائية، وهناك علامات استفهام حول المصلّى المسمى بلين في دير سانتا إيولاليا، داخل «الحزام» العربي (رقم 23 في المخطط)، وهناك آخر زال من الوجود في المنطقة نفسها وهو مسجد ابن دوناي القاضى، به نقوش عربية قرأها إلياس تريس، ومسجد سلبادور ومسجد الباب المردوم، وهناك مسجد آخر في حي الدباغين (جنوب المدينة)، ومسجد في درب سان

ديراً ورد ذكرها داخل المدينة أو خارجها، وقد أهداها ألفونسو السادس إلى كاتدرائية طليطلة.

لوحة مجمعة 24: أظهرت الدراسات الجيوفيزيائية أن إعادة تصور المسجد الجامع بطليطلة لازال أمراً مثيراً للجدل (G.C. Von Konradshheim). وعموماً فإن مخطط الكاتدرائية المسيحية (1)، (3)، (4)، (5) يسير على هدى مخطط المصلّى الإسلامي بالشكل الذي نراه في رقم (2)، حيث الصحن داخل الصحن الحالي، في مكان يطلق عليه «ألكانا» خلال المصور الوسطى، وربما كان موقع المذبة في الحائط الشمالي للصحن؛ والمخططان العربي والإسلامي عبارة عن صليب، ويتكرران في تخطيطاً لآخر الدراسات الأثرية؛ وبالمناسبة لمعد قوطي قديم مكرس باسم سانتا ماريا ويقع حيث أقيم المسجد الجامع وهنا أجرى على عرض صورتين (6) من «مخطوطة بيرخيليانوس» دي سانتا ماريا دي أبلدا، نابارًا، والأيملية Emiliamense (994م)، وهما عبارة عن كنيستين لكل بابها وعقدها فوق الباب، وهناك أخرى لها نوافذ في كل جانب من جانبي الباب؛ ويلاحظ أن كلاهما لهما ملاحق مسقوفة يمكن أن تكون المذابج، هاتان هما كنيسة سانتا ماريا المذراء، وسان بدرو.

المسيحي لها عام 1118م. وكانت كومبلوتو، ومهما طليطلة، رقعة عمرانية مهمة في العصر الروماني حيث استشهد الطفلان القديسان خوستو وباستور، ورفاقهما - طبقاً للموروث الشعبي - هو كنيسة ماخيسترال دي لايا الحالية (3A) بعيدة عن دار للعبادة ترجع إلى العصر المسيحي الأول (ق 4) بولها ثلاثة أروقة كما أنها مكرسة للقديسين (5-2)؛ وخلال العصر القوطي اكتسبت مدينة كومبلوتو قوة حيث أصبحت مقراً أسقفياً يحضر أساقفتها الجامع الطليطلية التي تعقد في كنيسة سانتا ماريا وبازليكا سانتا نيوكاديا (أ. مارثا مانو سانشيث)؛ ومع مجيء العرب لابد أنه كان هناك عدد من المستعربين الذين ظلوا يعيشون بالقرب من الكنيسة المكرسة للقديسين؛ والاحتمال كبير في أن خيمنت دي رادا أمر بأن تشيد هناك كنيسة ومصلّى مدجّن على الطريقة الطليطلية، حلت مكانه كنيسة ماخيسترال التي شيدت على يد أسقف كازيو (1497م) وفي قطاع الحي المسلم في ألكالا دي إينارس كان هناك مسجد أطلق عليه فيما بعد سانتياجو، ويشير الرّسمان A و C إلى كنيسة ماخيسترال الحالية وإلى القصر الأسقفي على التوالي، ولا يوجد دليل، ناجم عن أعمال الجسّ الأثري، يشير إلى وجود مسجد في أرباض القلعة العربية تحت جبل «Hece Homo»؟

ألكالا دي إينارس (لوحة مجمعة 25) :

لم يعثر في هذه المدينة على أي أثر لأي مسجد حتى في الجزء العلوي للحصن العربي حيث كان من المفترض أن تكون هناك مدينة حقيقية (1، 2) ثم جاء الأسقف خيمنت دي رادا ونقل المدينة إلى السهل (3) وهي ألكالا دي إينارس الحالية والتي كانت قبل ذلك تضم مباني رومانية ثم قوطية بعد ذلك، وكانت المدينة قبل ذلك مكان بلدة تسمى «الكومبلوتو الروماني» والحصن العربي «حصن أو قلعة عبد السلام (ق 11) حتى الغزو

وادي الحجارة (لوحة مجمعة 1، 26) :

جرى الاستيلاء على هذه المدينة من العرب عام 1086م على يد ألبارفانيث، وكانت بعد طليطلة، عاصمة النثر الأوسط العربي، ولا تحتفظ بأي أثر لمسجد اللهم إلا وثيقة ترجع إلى نهاية القرن الخامس عشر ورد فيها ذكر مكان في حارة المسلمين يسمى Almajil (وهو تحويل غير صحيح للفظه مسجد العربية)، وورد ذكر دارين للعبادة من الطراز المدجّن أحدهما باسم سانتا ماريا لأنتجوا، وهي الكنيسة الحالية سانتو تومي،

نحو الجنوب الشرقي، وربما جاء ذلك جراء احترام توجّه البناء عندما كان مسجداً، وهناك دور للعبادة مسيحية مدجّنة ترجع إلى العصور الوسطى وهي: سان كليمتي (3) سانتياجو (4) سان سلبادور (شبه مدجّن) (5)؛ سان أندرس (6)، سان بدرو (7)، سانتا ليوكاديا (زالت من الوجود وربما كانت كنيسة مستعربة) (8)، مستشفى سانتياجو (9)؛ سان ميغل (10).

قونقة (لوحة مجمعة 4، 26)،

استولى عليها ألفونسو السابع من العرب عام 1177م، وهناك حصنها العربي الذي وصفه الإدريسي (2) ولها أطلال أسوار ترجع إلى عصر الخلافة المتأخر، وفي رقم (1) نجد الكاتدرائية التي بدأت خلال السنوات الأولى من القرن الثالث عشر على الأرض التي كان عليها المسجد الجامع، أما دور العبادة المسيحية الأخرى التي تأسست قديماً (من رقم 3 حتى رقم 11) فهي: 3: سان بدرو، 4: سان ميغل، 5: سان نيكولاس، 6: سانتياجو، 7: سان مارتن، 8: سان خوان، وفي رقم 1-4 نجد الكاتدرائية الحالية طبقاً لـ إ. لامبرت.

تلمنكا (لوحة مجمعة 5، 26)،

تأسست أو تحصنت على يد الأمير محمد الأول (886-852م) وذلك لوقف الزحف المسيحي نحو نهر التاج (تورس بائباس) وفي الوسط، أي في الحصن أو القسبة، أو المدينة، نجد دار العبادة المسيحية سانتا ماريا دي المدينة وربما كان المسجد هناك (3) إضافة إلى دور أخرى مشيد من الآخر، وهي سان بدرو - طراز مُرومن (1)، ومذبح مدجّن لـ «ميلاجرو» (ق 12-13) (2).

والثانية هي سانتا ماريا دي لافوينتي (7). هناك دور أخرى للعبادة مشيدة من الآخر وهي سان خيل (12) وسانتا كلارا (14) وسانتياجو (15).

ماكيدا (طليطلة) (لوحة مجمعة 2، 26)،

هي على ما يبدو حصن أو مدينة تأسست في زمن المنصور بن أبي عامر، وأسسها الطليطلي فتح بن إبراهيم الأموي (ابن بشكوال) وبعد باب الحصن ذي الأسلوب الخلافي (1) نجد أطلال دار للعبادة وبرج منعزل يسمى سانتا ماريا دل كاستيو (2) ومن المعروف أنه كان هناك معبد يهودي في نهاية القرن الخامس عشر. هناك دار أخرى مسيحية للعبادة هي سان ميغل (3)، أما الحصن الحالي أو ما بقي منه (X) فقد شيد في أيام الملوك الكاثوليك.

طليطلة (لوحة مجمعة 3، 26)،

هي مدينة أخرى عبارة عن حصن، تأسست، أو أعيد بناؤها بشكل جذري، في عصر عبد الرحمن الثالث، ولها أسوار رائعة وأبراج من الحجارة تحمل طابع عصر الخلافة (أشرنا إليها بالأسود في مخطط م. تراس)، وفي الداخل نجد القسبة وبها بعض الأطلال العربية (1) وفي رقم (2) نجد كنيسة سانتا ماريا، ترجع إلى النصف الثاني من القرن الرابع عشر، وهي ربما حلت محل مسجد جامع، وقد جرى التبرع بها إلى كنيسة سانتا ماريا دي طليطلة من لدن الملك ألفونسو السادس (خوليو جونتاليث)، ثم استولى عليها الموحّدون وهدموها في إحدى حملاتهم بالأراضي القشتالية، ولدار العبادة الحالية توجّه

مدريد (لوحة مجمعة 6، 26)،

أسسها محمد الأول وحصنها عبد الرحمن الثالث (خ. أوليفر آسين) وأسوارها وأبراجها من الحجارة، ونميز فيها الحصن العربي وهو بمثابة توسعة لما سمي المدينة، كما كانت هناك توسعة مسيحية أخرى خلال القرن الثالث عشر؛ وفي المقر أو الرقعة الثانية نجد مكان الكنيسة «سانتا ماريا» التي يفترض أنها كانت مسجداً (1) وسان سلبادور أيضاً الذي يفترض أنه كان مسجداً (2)، وفي رقم 3 نجد معبد سان نيكولاس، وهو أول كنيسة مدجّنة ربما ترجع إلى القرن الثاني عشر، ولبرجها شكل وزخرفة وعمارة عربية الطابع؛ وفي المقر المسيحي هنالك كنيسة قديمتان بارزتان هما سان أندريس وسان بدرو، 4، 5.

11 - 3، إكستريما دورا،

قورية (لوحة مجمعة 1، 27)،

ربما أعيد بناء أجزاء كثيرة من أسوارها الرومانية أو ترميمها خلال القرن العاشر، وفي القطاع E و H ربما كان هناك الحصن أو القسبة المطلّة على النهر، وهي اليوم كثبان من الرمال، وفي القطاع E نجد الكاتدرائية تحل محل المسجد الجامع وقد كُرست عام 1142م. ويقول ساندوبال في كتاب «حولية ألفونسو السابع، الإمبراطور» أنه عند تسليم المدينة جرى رفع الأعلام الملكية، وعليها شارة الصليب، على مسجد المسلمين وخصص لعبادة الرب وتبجيل العذراء خلال العام نفسه؛ وربما بدأ بناء دار العبادة المسيحية خلال النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ثم أعيد بناؤها على مدار القرون التالية.

القنطرة (لوحة مجمعة 2، 27)،

يذكرها الرازي على أنها مدينة وحصن، ثم يأتي ابن حوقل والحميري والإدرسي وأبو الفدا ليقولوا الشيء نفسه وقد تم الاستيلاء على المكان على يد مملكة ليون عام 1166م، وإلى جوار كنيسة سانتا ماريا هناك دار للعبادة ربما حلت محل مسجد، كما كانت هناك مقابر عربية وهذا ما يدل عليه مصطلح Almocabar الذي كانت تمكن به دار العبادة المذكورة (A).

ترجاللة Trujillo (لوحة مجمعة 3، 27)،

هي البلدة الرومانية ترجاليوم، هناك حصن (A) كان في البداية عربياً وورد ذكره خلال القرنين الثامن والتاسع، ثم أطلق عليها بعد ذلك مدينة Turyiluh وكانت تابعة لماردة، واستخدمها الموحدون ورمموها، ثم استولى عليها المسيحيون نهائياً عام 1232م؛ وهناك شك حول التاريخ المتعلق بالسور المضروب حول البلدة الحالية انطلاقاً من الحصن العربي، المكان الذي كان يضم دوراً للعبادة مكرسة منذ زمن قديم وهي 1: سانتا ماريا؛ 2: سانتياجو، وجب مهم، يسمى ألتاميرانو، وعمارته تجمع بين العمارة العربية والمدجّنة، 3: يقول الإدرسي عن هذا المكان إنه كان كبيراً وشكله حصن وله أسوار قوية وبازارات بها الكثير من المؤن، لكنه لا يذكر مساجداً.

بطلبيوس (لوحة مجمعة 4، 27)،

تأسست خلال القرن التاسع وأمر بذلك عبد الرحمن الثاني، وقام بالتنفيذ عبد الرحمن بن مروان الملقب بالجليقي وبدأ البناء بالمسجد الجامع، هو اليوم كنيسة أو كاتدرائية سانتا ماريا (2)، كما شهد مسجداً خاصاً داخل الحصن أو القسبة (1) حيث حدثنا تورس

11 - 4، إقليم الأندلس؛

قرطبة (لوحة مجمعة 28)،

يشير ليفي بروهتسال إلى أن هذه المدينة التي هي عاصمة الأندلس حتى نهاية القرن العاشر يمكن تخيل ما كانت عليه جزئياً من خلال روايات المؤرخين العرب، ويشارك جارشيا جومث الرأي في هذا، غير أن رفاثيل كاستيخون ومانوئل أوكانيا وأنطونيو أرخونا يمحسون هذه الرؤية، إضافة إلى الإسهامات الأثرية الجديدة التي قدمها ر. إيرالجو ومارفيل رويث، وهنا أقدم مخططين كاملين للمدينة، أحدهما عربي (B) مع وجود المياني السابقة على العصر العربي ومباني العصر نفسه سواء داخل المدينة أو خارجها، رغم أن هناك العديد من المساجد التي ذكرها المؤرخون العرب التي لم يتم التمكن من تحديد سكانها. أما المخطط (C) فهو المدينة المسيحية وبها الكنائس الحالية، ففي المخطط الأول نجد الأرقام داخل الدوائر تشير إلى المدن الخمس التي تحدث عنها الإدريسي، طبقاً لوجهة نظري وهي: (1) المدينة المركزية، (2) قطاع قصر الخلافة، (3) القطاع الذي يقع بين القصر وبوابة إشبيلية، (4) ريبض Anarquía، (5) الريبض الغربي أو مكان قابل للتعدد؛ أما (A) فهو حي Segunda الذي يقع على الشاطئ المقابل لنهر الوادي الكبير. نجد في القطاع (1) المساجد أو أطلالها: 1: المسجد الجامع، 2: مسجد سانتا كلارا الذي يرجع إلى عصر الخلافة والذي شيد على أطلال كنيسة سانتا كاتالينا التي ترجع إلى العصر البيزنطي (مارفيل رويث)، 3: مئذنة سان خوان دي لوس كابايروس وفي القطاع 4 نجد: أطلال مئذنة سان لورنتو، 5: أطلال منارة عند كنيسة سانتياجو، 1-4: كنيسة سان بدرو، والتي ربما كانت مكان البازليكا القوطية المكرسة للقديسين الثلاثة (مارفيل رويث)؛ وفي القطاع 5: حي مسجد حاجب عيسى بن أحمد بن أبي عبده، وكذا حمام البري Ilbiri (7)؛ ريبض مسجد

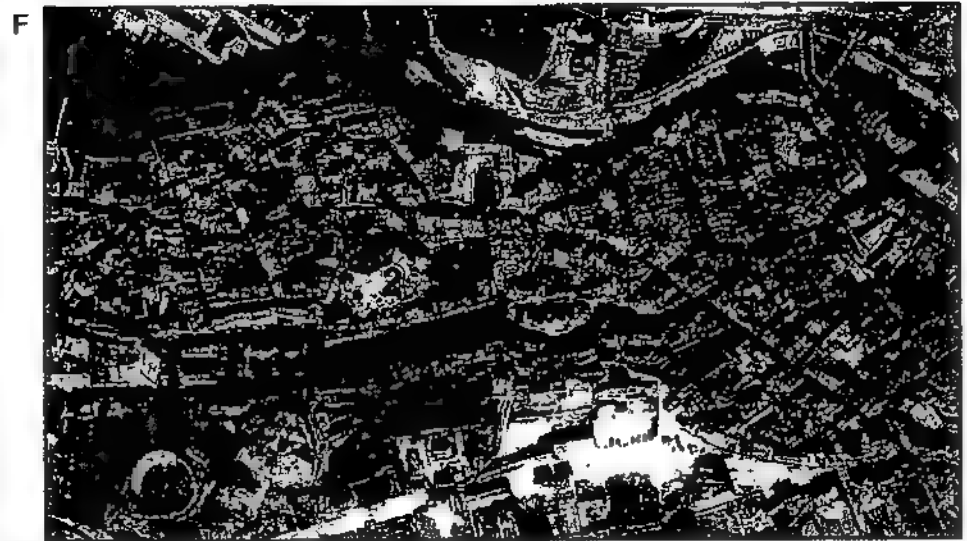
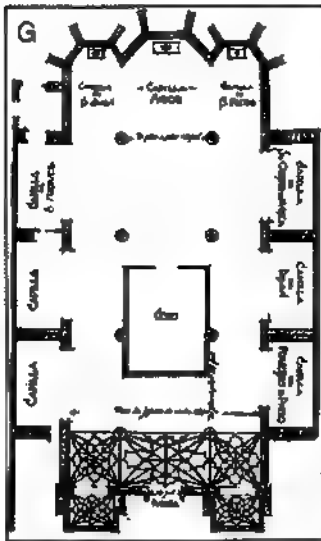
بالباس عن أطلاله، وقد جرت عمليات جسّ أثاري في المكان من جديد لكن لم تنشر أية أبحاث بعد، وربما كان المسجد الصغير المذكور المكان الذي كانت تلقى فيه الخطبة في عصر الموحّدين وتقام فيه صلوات الجمعة مشاركاً في ذلك المسجد الجامع بالمدينة.

ماردة (لوحة مجمعة 6، 27)،

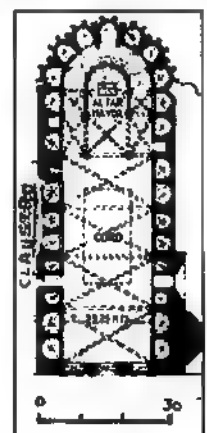
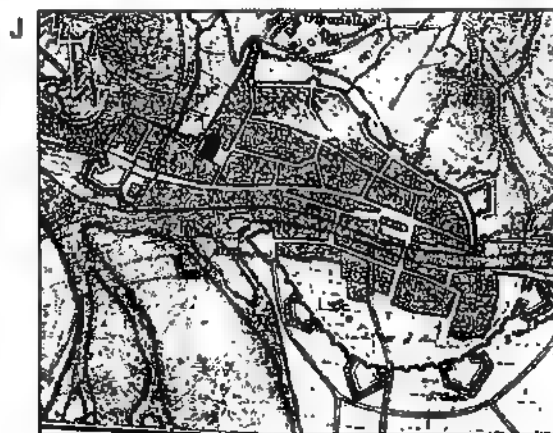
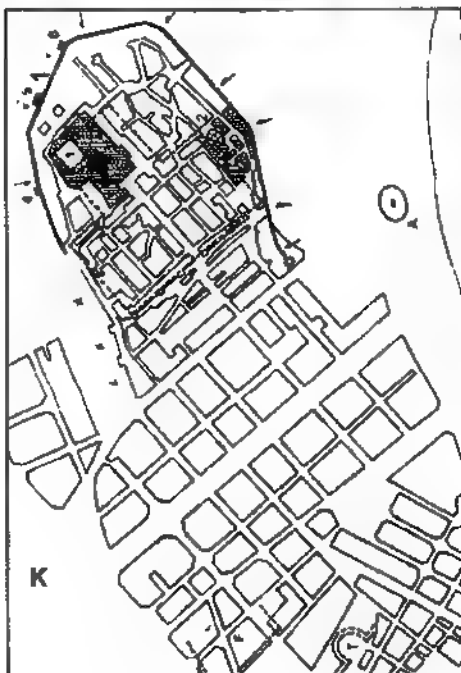
في ماردة الرومانية أقام العرب حول القصب (1) التي أسسها عبد الرحمن الثاني مستخدماً في إقامة أسوارها كتلاً حجرية رومانية ماعداً ذلك القطاع الذي يطل على نهر وادي يانة Guadiana، وكان يوجد في هذه المدينة، خلال عصر القوط بأزليكا تسمى سانتا ماريا، ربما جرى استخدامها مسجداً جامعاً، ثم تحولت إلى دار مسيحية للعبادة تحمل المسمى السابق (2)، وكان هناك أيضاً معبد قوطي أو مبنى جنازتي يطلق عليه سانتا إيولاليا، خارج الأسوار، وعلى ما يبدو كان مهجوراً على عهد العرب.

قصرش (لوحة مجمعة 5، 27)،

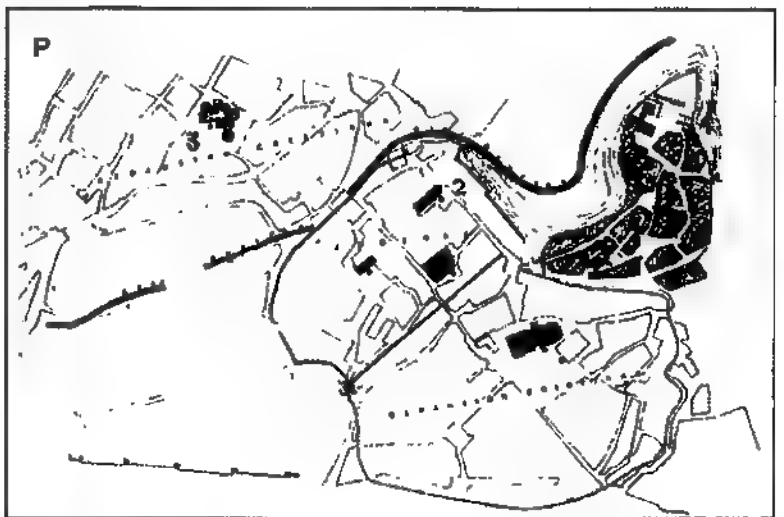
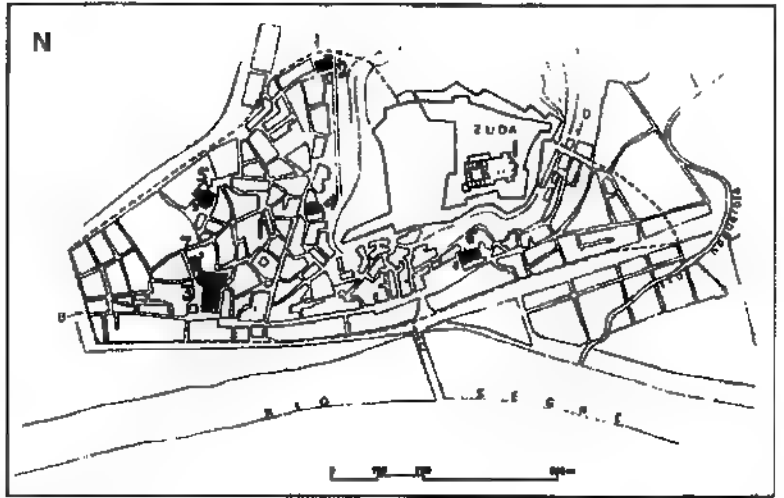
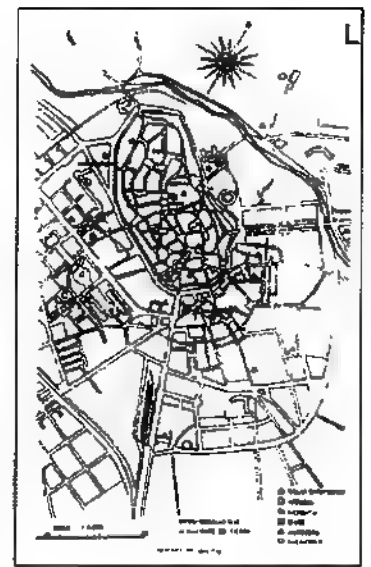
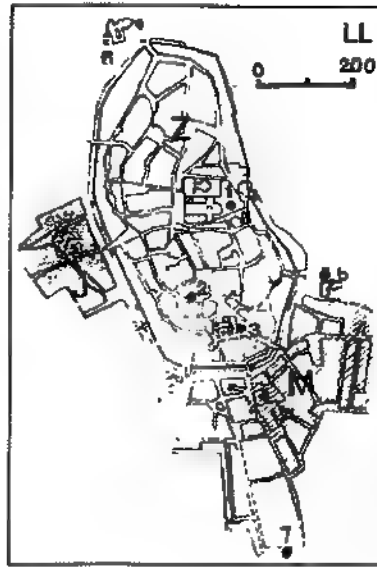
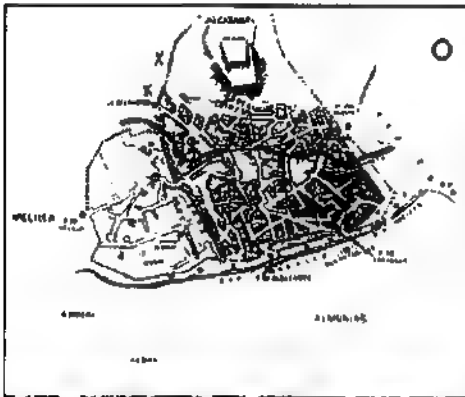
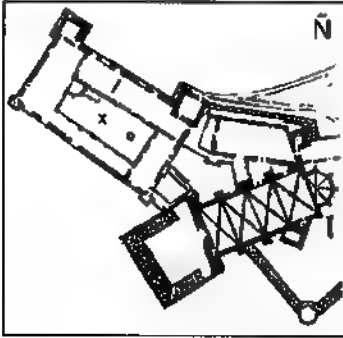
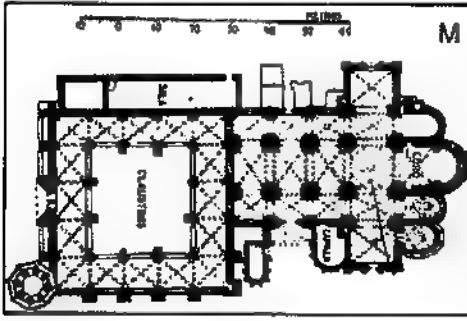
هي المدينة الحصن الرومانية، التي جرى احتلالها وإعادة بنائها على يد الموحّدين، وكانت قصب المدينة في القطاع الجنوبي الشرقي، هي المبنى المسمى بيليتاس (A) حيث نجد هناك جُباً عربياً كبيراً يرجع إلى القرنين الحادي عشر والثاني عشر، وحقيقة الأمر هو أن هذه القصب أخذت تمتد صوب الشرق بما في ذلك القطاع الذي توجد به كنيسة سان ماتيو (C) التي شُيّدت خلال القرن الرابع عشر، طبقاً للموروث الثقافي، وأصبحت فوق أرض مسجد كبير، وليس من المستبعد أن تكون الكاتدرائية الحالية، سانتا ماريا (B)، مسجداً في بداية الأمر، ثم جرى تكريسها بعد ذلك عندما تمت عملية الاسترداد عام 1221م.



H-1



لوحة مجمعة 21 : المساجد والكنائس في المخططات
الحضرية، النقر الأعلى F-G بويشتر، وايجه، وطرطوسة.
أ- ج. خيرونا؛ ك: طركونة.



لوحة مجمعة 22:

المساجد والكنائس في المخططات الحضرية، النقر الأعلى،
LLM وشقة، لاردة N، أولية N، تطيلة O، أجريدا P.

شيئاً منه، فإذا ما كان قد حدث في قرطبة مثل الذي حدث في مدن أخرى مثل غرناطة وملقة وطليلة فإن الكثير من المساجد تتوافق مع دور العبادة المسيحية خلال العصور الوسطى، وبالتالي نجد المدينة وقد كسبت وجود 22 مصلًى إسلامي، ومع هذا فعلى افتراض أن قرطبة كانت تضم خمسين مسجداً فإننا نأسف كثيراً لضياع الكثير منها؛ ويرى بعض الباحثين أن الأرقام الفلكية التي وردت في كتب الحوليات العربية، كانت تضع في اعتبارها المصليات الصغيرة في زمن كانت تجرى فيه عادة إقامة الأربطة، اللهم إلا إذا كان هناك عدد كبير منها مخصص للأغراض الدينية، وعلى ذلك يكاد يكون من المستحيل أن يصل العدد لدينا إلى مائة مسجد، وهنا نتساءل: هل كانت المساجد بهذه الكثرة لدرجة لا تحصى معها وبالتالي وقع كتاب الحوليات في المخطوط وهو ذكر أرقام كبيرة كوسيلة للإعلاء من شأن حاضرة المغرب الإسلامي؟ إننا نشك في هذه الأرقام الخاصة بعدد المساجد التي وردت الإشارة إليها خلال العصر الأموي (400 مسجداً خلال عصر عبد الرحمن الداخل، وثلاثة آلاف بعد ذلك و800 في عصر المنصور وأكثر من 40 خلال العصر الموحدي طبقاً لـ ج. ثانتون)، وهنا أرى أن الرقم المعقول للمساجد المتوسطة والصغيرة ذات بعض الأهمية لا يتجاوز الخمسين مسجداً، وأسأل في هذا المقام لماذا كانت مساحة المسجد الجامع في مدينة الزهراء 1980 متراً بينما كان حجم المدينة مائة هكتار مثل مدينة قرطبة؟ بالنسبة للدراسات المتعلقة بمخطط إشبيلية يرد ذكر 14 مسجداً كانت قائمة حتى عام 1248م في مدينة تكاد تساوي ضعف مساحة مدينة قرطبة، فكيف إذن نفسر هذه الهوة الضخمة التي نتحدث عن ألف مسجد أو ألفين خلال العصر الأموي وهذا العدد من الكنائس في الوقت الحاضر الذي لا يزيد على عشرين؟ هناك احتمال يشير إلى أن إحصاء المساجد القرطبية بالآلاف كان يضع في الحسبان مصليات الإقليم غير المحددة أطرافه، ابتداء من قرطبة حتى مدينة الزهراء أو المدينة الزاهرة، فمن

شفا (6) الذي يرى أرخونا كاسترو أنه يتوافق مع ما جرت فيه الحفائر في حيّ فونتانا: 8: بلاط مغيث: 8-1: حي الرقاقين، حيث هناك كنيسة قوطية تسمى سان أنيسكو (طبقاً لليفي بروقتسال ومانويل أوكانيا وآخرين)، وفي المنطقة الجنوبية الغربية، 9: هناك كنيسة سان ثيلوفي المنطقة الرومانية القوطية المسماة ثركاديا (ر. إيدالجو ومارفيل رويث)، وفي 9-1: ربما كان هناك معبد الاستشهاد المسمى سان أنيسكو؛ 10: لامرثيد، وهو مكان كانت فيه الكنيسة القوطية المسماة سانتا إيولاليا. هناك مساجد وردت في النصوص العربية ولم يتم تحديد مواقعها: في الشمال الغربي (11) هناك مقابر ومسجد المطاع Mut'a، وربما إليه تنسب أطلال عثر عليها تتعلق بعائط القبلة وهو مربع المغطى ويقع في «معلة الحافلات» (أرخونا كاسترو)، وقد تم تحديد مكان ذلك المسجد من خلال مخطط ليبي بروقتسال للمدينة، ويرى ز. إيدالجو ومارفيل رويث أن هناك حيّ وبازليكا مستعمرية، وفي هذه المنطقة نفسها ورد ذكر مسجدين، أحدهما مسجد أم سلامة والآخر هو Diyala، وفي التريض الشرقي، وربما في منطقة كنيسة سان بابلو نجد مسجد رباط أبان Rabat Aban (أرخونا كاسترو). أما داخل المدينة، في القطاع الشمالي فإننا نجد مسجد «أبو عثمان»، وفي الحي الغربي نجد مسجد Al Nuyayala طيقاً لابن بشكوال، وفي المخطط (1)، وعلى بعد سبعة كيلو مترات من قرطبة نجد المسجد الجامع لمدينة الزهراء (17) وفي الطرف المقابل وعلى بعد اثنين من الكيلو مترات من قلب المدينة نجد المسجد الجامع للمدينة الزاهرة، التي أسسها المنصور بن أبي عامر، دون أن تكون هناك أطلال جرت فيها الحفائر.

نرى إذن أن البانوراما العامة لا تضم إلا القليل من المساجد مقابلة بمئات أو آلاف منها ورد ذكرها في المصادر العربية. وربما يساعدنا المخطط (C) الخاص بالعصر المسيحي، والذي يضم كافة الكنائس التي ظهرت بعد حرب الاسترداد (1238م)، على سد هذا الفراغ أو

أخرى في «الشرقية» (لا زالت هناك كنيسة سان أندرس، وربما، مع مرور الزمن، يمكن تحديد أماكن بعض الكنائس التي ورد ذكرها وارتباطها بمساجد سابقة، والأمر الذي يمكن أن يسهم في ذلك هو العثور على حمامات قريبة مثل: سانتا ماريا إلى جوار الكاتدرائية، وسانتا كاتالينا وسان بدرو وسان نيكولاس وسان ميغل... إلخ ويصل الأمر إلى رقم لا يتجاوز الثلاثين (مونيوت بانكيث) - إشبيلية (لوحة مجمعة 1، 29).

مع نهاية المصور الوسطى نجد أن إشبيلية الأموية وبني عبّاد والموحدين والمسيحيين تتراءى أمامنا في صورة فسيفساء من دور العبادة لمختلف الأديان بما في ذلك وجود معبدتين يهوديتين؛ وكان القصر الذي أسسه الأمويون في المكان الذي هو عليه اليوم، أي جنوب المدينة، ولكن لا نعرف بوجود أطلال مؤكدة عن وجود مسجد داخل أسواره، وشمال القصر نجد حارة اليهود، ثم حارة المسلمين ولكن في مكان غير محدد، وربما كانت رداً من الزمن داخل دائرة سان خوان (Collantes deteran)؛ نجد المسجد الجامع الذي يرجع إلى عصر الموحدين في A بالقرب من القصر، والمسجد الأموي ابن عبدس Adabbas (ق 9) وليس هناك المزيد من المساجد المحددة حتى الآن. ويشير ر. بلنسية على وجود مسجد الزبيدي (ق 12) ومصلى ثانوي يطلق عليه مسجد «الرعيّني» ar-Ru'ayini. ولا شك أن تكاثر دور العبادة المسيحية بدأ مع حكم الملك فرناندو الثالث، الذي غزا المدينة عام 1248م وابنه ألفونسو العاشر في المرحلة الأولى، حيث أصبح هناك، على ما يبدو، 24 كنيسة جديدة، وبعد ذلك، وابتداء من عصر بدرو الأول بدأ ترميم الكثير منها وبدأ إنشاء المزيد: 1: Omnium Sanctorum، 2: سان لويس، 3: سان خوليان، 4: سانتا لوثيا، 5: سان ماركوس، 6: سان خوان، 7: سان مارتين، 8: سان لورنثو، 9: سان أندرس، 10: سان بدرو، 11: سان رومان، 12: سانتا كاتالينا، 13: سان باولو، 14: سان بيثنتي، 15: لاماجدالينا، 16: سان

غير المجدي وجود كثرة هائلة من المساجد في مساحة محدودة من الأراضي تحيط بها أسوار أو خنادق؛ وهناك حالة موازية غير مفهومة أيضاً نجدها في وشقة حيث يشير العذري إلى وجود ستين مسجداً، فهل كانت داخل أسوار المدينة التي لا تتعدى مساحتها 22 هكتاراً؟ أليس مبالغاً فيه ذكر ألف مسجد، عند الأنصاري، في مدينة سبتة خلال القرن الخامس عشر؟ هذا ممكن إذا ما كان لكل ساكن مسجده الخاص به في المنزل، طبقاً لشهادة مؤلف عربي؛ وبالنسبة لمدينة فاس نجد البكري يشير إلى أن كل حي يضم مسجداً، ويرى ابن أبي ذرع Zarr أنه كان هناك 785 مسجداً خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر (9) إضافة إلى 93 حماماً، وهي مدينة تونس، مع نهاية القرن السادس عشر، وطبقاً للأدورن، ورد إحصاء مائتي مسجد لكل مائة ألف مواطن، وفي باليرمو ورد ذكر ثلاثمائة ثلاثة آلاف قاطن (ابن حوقل)، فلماذا ينسب إلى قرطبة كل هذا العدد من المساجد في الوقت الذي تشتهر فيه المخططات المحاصرة للمدن الكائنة في إفريقية والمغرب الغربي إلى أرقام معقولة؟ إن حاضرة الجزائر، في زماننا تضم من ستين إلى سبعين مسجداً بما في ذلك المصليات الخاصة.

يضم المخطط C الكنائس والمساجد المكرسة، بما في ذلك الكاتدرائية التي استقرت في المسجد الجامع بعد الاستيلاء على المدينة: 1: سان إيبوليتو، 2: سان نيكولاس، 3: سان ميغل، 4: سان بارتولوميه، 5: (9)، 6: سان خوان، مع وجود مئذنة عربية، 7: لا ترينداد، 8: كنيسة كومبانيا، 9: كنيسة بيكتوريا، 10 (9) 11: دير سانتا كلارا الذي أقيم في المسجد الخلافي، 12: سان باولو، 13: سانتا مارينا، 14: سان أندرس، 15: لاماجدالينا، 16: سان فرانسيسكو، 17: سان بدرو، 18 (9)، 19: سانتياجو، 20: سان لورنثو، 21: سان أغسطين. قام فرناندو الثالث بتقسيم قرطبة إلى أربعة عشر قطاعاً دينياً (كنيسة) منها سبعة بالمدينة ولم يتبق من هذه إلا سان ميغل وسان نيكولاس، إضافة إلى سبعة

(1) في الحي الإسلامي الأعلى، إضافة إلى مسجدين ورد ذكرهما في الرّبط الشرقي، وكانت على ما يبدو، مساجد جامعة قريبة من بعضها وربما كانت في ربط سانتياجو وغير بعيدة عن الحمامات العربية التي ترجع إلى القرن الحادي عشر، 3، 4.

- وادي آش (لوحة مجمعة 3، 31)،

هي مدينة ذات وظيفة خلافة: 1: مسجد جامع مكرس للعبادة المسيحية بعد الغزو (1489م) وهو اليوم كاتدرائية سانتا ماريا، ويرى مُنذر، الرحالة الأثاني، أن المسجد كان يضم 70 عموداً، ومعه عدة مساجد أخرى صغيرة مواقعها غير معروفة، وقد زارها الرحالة المذكور، ويحددها أسنخوسيدانو في الكنائس الحالية هي: 2: كنيسة لاكونثيون وربما كانت المسجد الصغير الوحيدة داخل المدينة، سان فرانثيسكو، لامايدالينا التي تعرف على ما يبدو بأنها مسجد المطرودين، وسان بدرو، ودير وكنيسة سانتياجو (3)، (1-3)، وكنيسة سانتا أنا (5) في الحي الإسلامي، وخارج الأسوار نجد سان ميغل (4) وهو عبارة عن مسجد بالقرب باب باشا، إضافة إلى دور أخرى للعبادة طبقاً لرأي أسنخوسيدانو.

- لوجة (غرناطة) (لوحة مجمعة 4، 31)،

طبقاً للمتوارث الشفاهي نجد 1: المسجد الجامع سانتا ماريا، 2: سان جابيل.

- ملقة (لوحة مجمعة 5، 31)،

أشرنا قبل ذلك إلى وجود ما لا يقل عن 20 مسجداً داخل المدينة وخارجها، إضافة إلى تلك التي أوردتها المصادر العربية (ماريا دولورس أجيلار، وكاليروسيكالن ومارتث إينامورادو)، 1: مسجد جامع

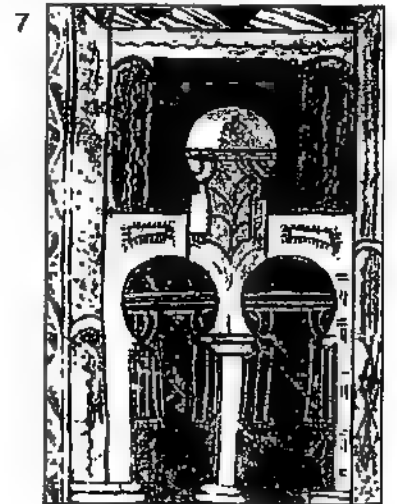
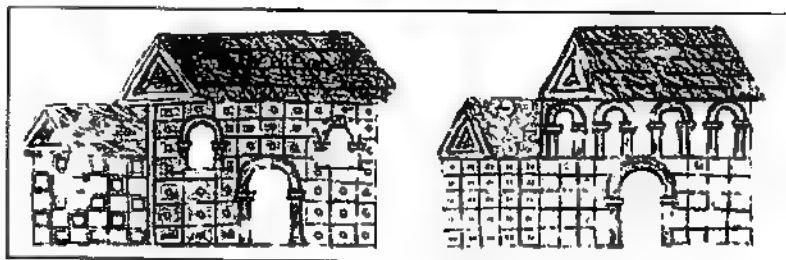
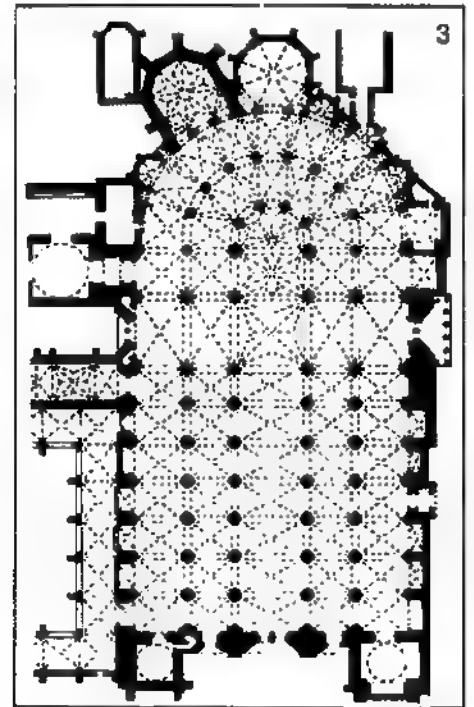
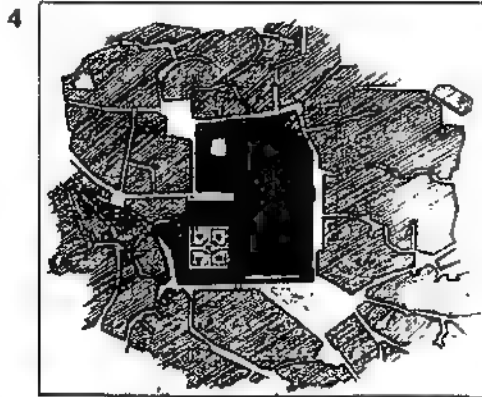
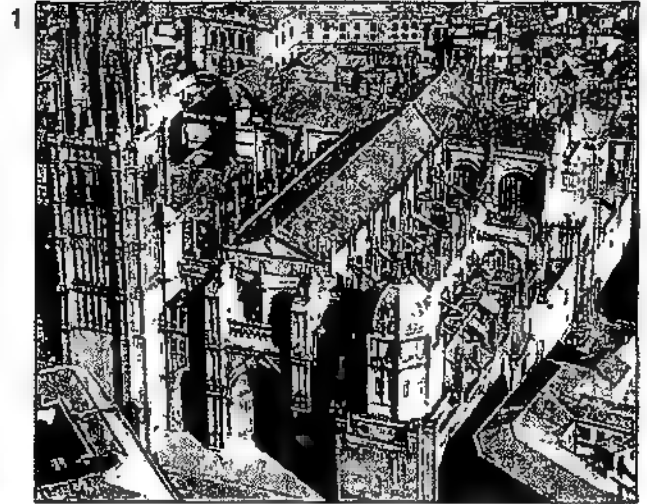
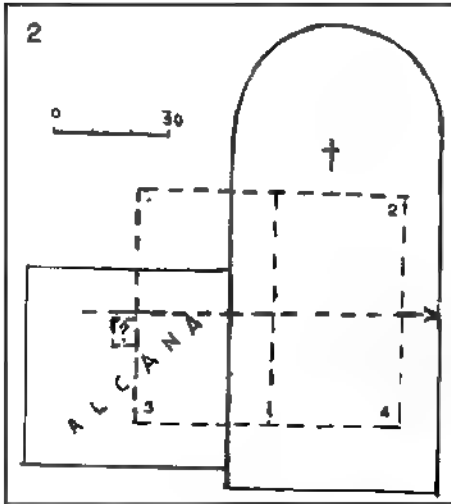
13: كاتدرائية (المسجد الجامع في السجداريو)، 14: مسجد أبي العاص (خ. أليراثين نابارو)، انظر X في الجزء العلوي يسار المخطط، 15: لامايدالينا، 16: سانتا أنا، 17: سان بارتولومية، 18: سانتا إسكولاستيكا، 19: سان ماتياس، 20: بوابة التوابين Bi-Tatauvin، 21: مكان يفترض أنه كان رباط Liyalin (سيكو دي لوثينا)، 22: مكان يفترض أنه كان رباط المحروق Muhruq (سيكو دي لوثينا)، 23: سان ثيوليو، 24: سانتا ماريا دي الحمراء (مسجد جامع)، 25: رباط عربي، سان سباستيان، 26: كنيسة سان أنطوان، 27: (9) كانت أغلب الكنائس السابقة الذكر مساجد استناداً منا إلى الدراسة التي قام بها جومث مورينو في كتابه «دليل غرناطة»، ولما كان الأمر كذلك فإن عدد الثلاثين إضافة إلى بعض الأربطة الأخرى في الأحباس تصل بالإجمال إلى ستين مبنى على أساس أننا في مدينة تعيش حالة ازدهار كبير من حيث المساحة وتعداد السكان بعيداً عن الحدود التي ترسمها أسوار المدينة.

- الحمامة (غرناطة) (لوحة مجمعة 1، 31)،

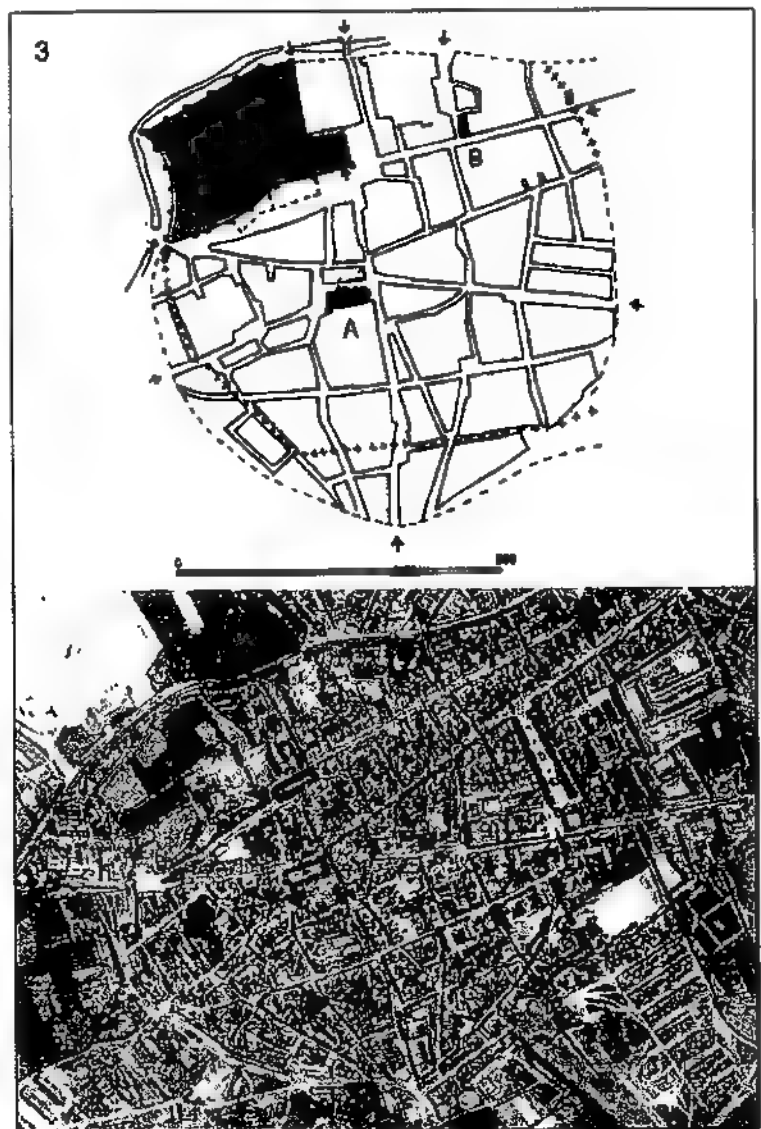
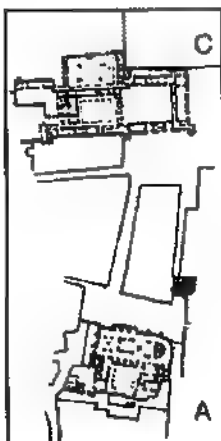
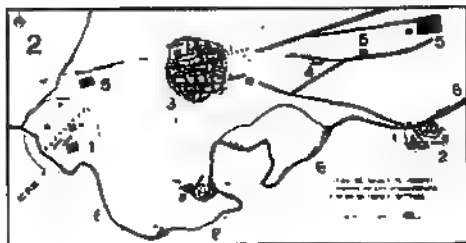
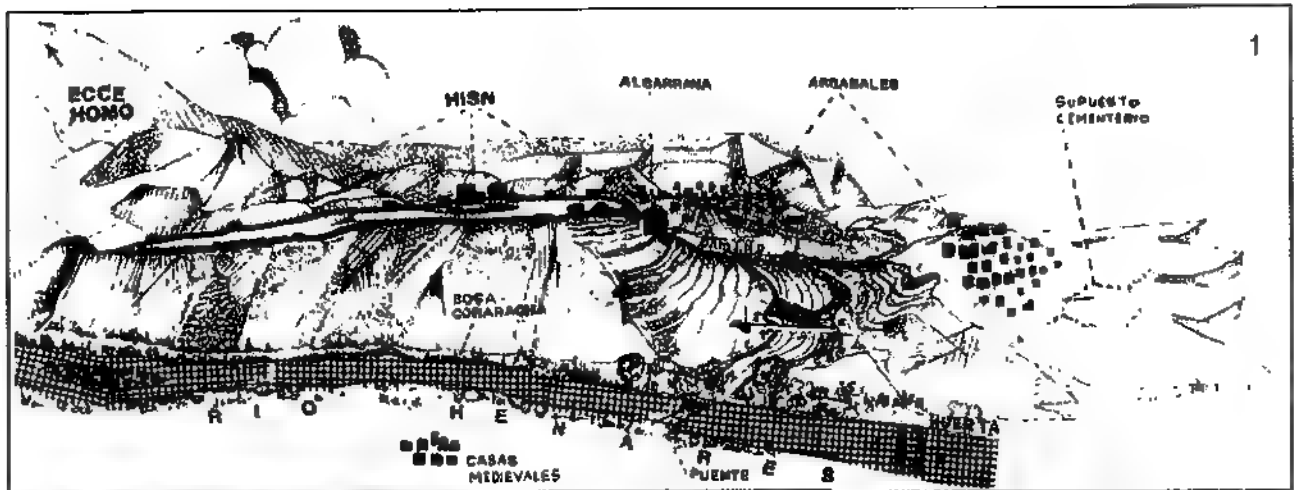
ورد ذكر مسجد فيها عند بوابة غرناطة (3) (موسين ديجودي باليرا) وربما كان المسجد الكبير في المكان الذي توجد فيه الآن كنيسة إنكارناثيون (في مكان الدائرة داخل البلدة).

- باثا Baza (لوحة مجمعة 2، 31)،

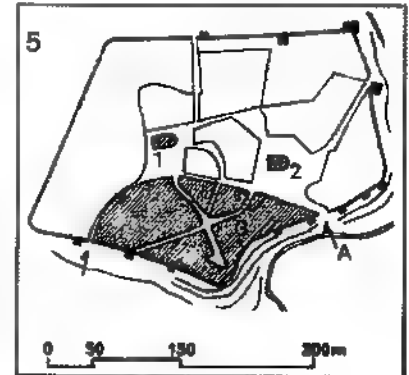
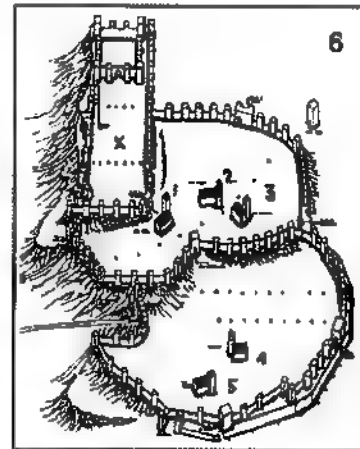
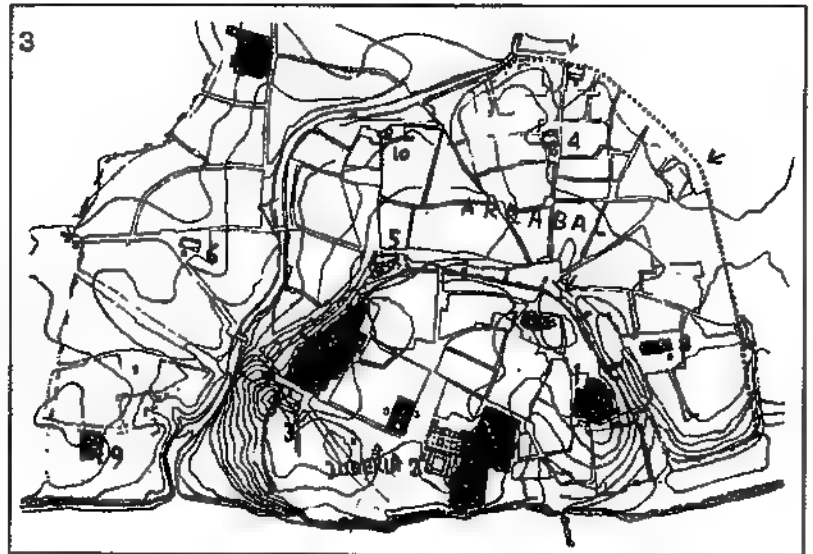
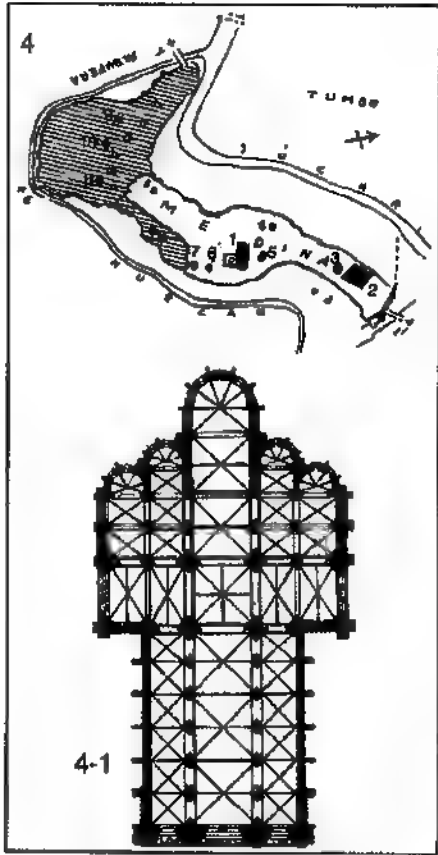
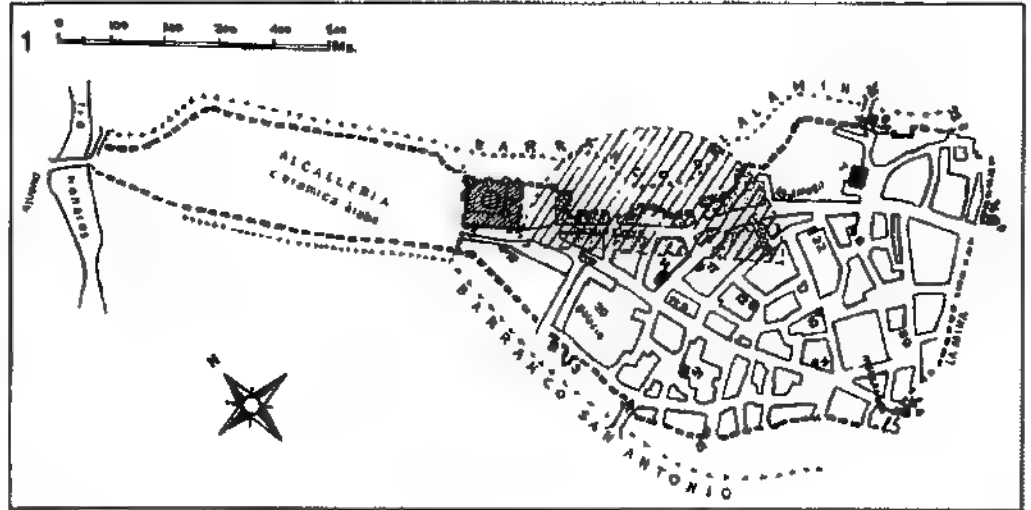
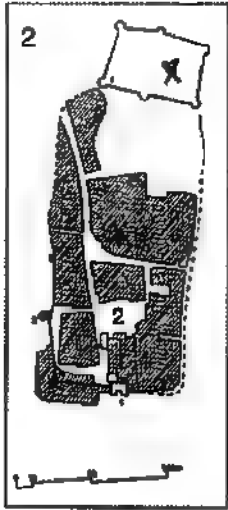
تقع كاتدرائية سانتا ماريا مكان المسجد الجامع (2) وربما كان هناك مسجد مكان كنيسة سان خوان



لوحة مجمعة 24:
المسجد - الكنيسة. المسجد الجامع في طليطلة.



لوحة مجمعة 25:
كنيسة ألكالا دي إينارس (مدريد)



لوحة مجمعة 26:

مساجد وكنائس في المخططات الحضرية. القرن الأوسط،
وادي الحجارة، وماكيدا، وطليبة، وقونقة، وتامكا.

ومريد.

- أندوجار (لوحة مجمعة 4، 32) :

3: كنيسة سانتا ماريا.

- أرخونا (لوحة مجمعة 5، 32) :

1- كنيسة سانتا ماريا في القصبه.

- ألكالا لاريال (لوحة مجمعة 6، 32) :

1- كنيسة سانتا ماريا، ويفترض أنها مسجد داخل القصبه، 2: كنيسة سانتو دومينجو في رينس يعمل الاسم المذكور.

- شقورة الجبل (لوحة مجمعة 7، 32) :

1: حصن به مصلى مدجّن بأسلوب طليطلي (ق 14) (7-1)، 2: كنيسة سانتا ماريا دل كويادو، وكانت مسجداً طبقاً للموروث الشعبي.

- حصن خار Iznajar (لوحة مجمعة 8، 32) :

1- كنيسة سانتا ماريا.

- كيسادا (لوحة مجمعة 9، 32) :

1- كنيسة سانتا ماريا، ربما كانت مسجداً، وقد ظهرت في البلدة لوحتان مسيحيتان درسها خ. دي م. كارياثو ورأى أنها قوطية (A) إضافة إلى كابولي modillon له زخارف ذات طابع أموي قرطبي (B).

- كاثورلا (لوحة مجمعة 10، 32) :

1، 2: حصن يدرا Yedra، وهو حصن عربي أعاد ترميمه الأسقف الطليطلي بدرو تينوريو، 2: كنيسة سانتا ماريا، ربما كانت مسجداً.

- مارتوس (لوحة مجمعة 11، 32) :

A سانتا ماريا دل كاستيو.

- بيخيردي لافرونتيرا (قادش) (لوحة مجمعة 1، 32) :

1- كنيسة سلبادور حيث عثر على أطلال زخرفية مدجّنة.

- طُريف (قادش) (لوحة مجمعة 2، 32) :

1: كنيسة سانتا ماريا، ربما كانت مسجداً، 2: كنيسة سان ماتيو.

- مدينة Sidonia (قادش) (لوحة مجمعة 3، 33) :

A حصن، 1: كنيسة سانتا ماريا (ربما كانت مسجداً تأسس أو أعيد بناؤه في عهد عبد الرحمن الداخل).

- بايينا (قرطبة) (لوحة مجمعة 4، 33) :

1: كنيسة سانتا ماريا (ربما كانت مسجداً أسسه عبد الرحمن الثاني، طبقاً للحوليات المربية)، 2: حارة المسلمين، 3: حارة اليهود.

- الجزيرة الخضراء (قادش) (لوحة مجمعة 5، 33) :

في الجزيرة القديمة نجد 1: المسجد الجامع الذي شُيد على عهد عبد الرحمن الداخل (الحميري) وجرى ترميمه خلال القرون اللاحقة، وهناك مساجد أخرى في Drapaux غير أنها غير محددة المكان، وفي القطاع الأيمن هناك الجزيرة الجديدة التي أسسها بنو مرين، وطبقاً لابن أبي ذر (2) كان لها قصر ومسجد؛ والمخطط الكائن في القطاع الأيمن هو لـ خ. ب. دي بيريون 1726م.

- ألكاودتي (القائد) (جيان) (لوحة مجمعة 6، 33) :

1- حصن عربي جرى ترميمه، 2: كنيسة سانتا ماريا.

أرشيدونة (ملقة) (لوحة مجمعة 7، 33) :

1: حصن، 2: مسجد ما زال قائماً (كنيسة سانتا ماريا).

ألرية (لوحة مجمعة 34) :

9: مسجد يرجع إلى عصر الخلافة وعصر الموحدين، وظل حتى اليوم في شكل كنيسة سان خوان، في مدينة عبد الرحمن الثالث. هناك كنائس شيدت فوق مساجد، 1: الكاتدرائية، 2: سانتو دومينجو، 3: سان بدرو، 8: لاس بوراس. وهناك دور أخرى لممارسة الطقوس المسيحية، 4: سان فرانسيسكو، 5: سانتياجو، 6: سان سباستيان، 10: سان أنطوان.

- لبلة (ويلبه) (لوحة مجمعة 1، 35) :

1: مسجد كنيسة سانتا ماريا دي غرناطة (أطلال قوطية وعربية)، 2: كنيسة سان مارتين، مدجّن (كانت مسجداً طبقاً لألفونسو خيمينث).

- شريش (قادش) (لوحة مجمعة 2، 35) :

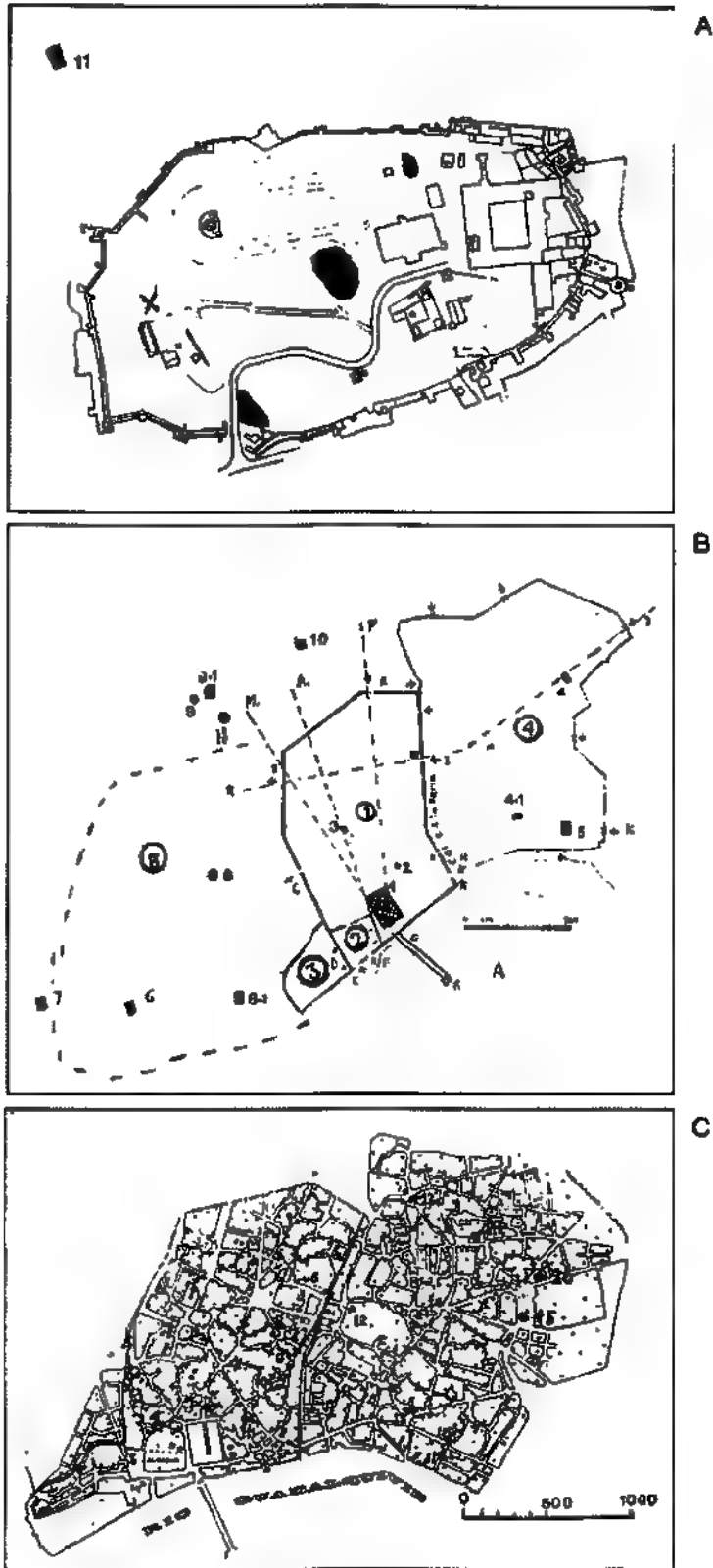
A قصبة موحّدية ومسجد سانتا ماريا (M) في المخطط رقم 3؛ كنائس كانت مساجد طبقاً للوثائق، 2: سان ماثيو، 3: سان لوكاس؛ 4: سان خوان، 5: سان ماركوس، 8: سان ديونيسيوس، 6: سان سلبادور، 7: كاتدرائية سان سلبادور، 4: سان خوان.

- رندة (ملقة) (لوحة مجمعة 4، 35) :

ورد في سجل المدينة (خوان دي لاماتا كاريثو) ذكر واحد وعشرين مسجداً، هناك أطلال مهمة لها هي 1: كنيسة سانتا ماريا، 2: منارة سان سباستيان، وفي ربض المقابر نجد كنيسة الروح القدس (8) التي ربما كانت مسجداً.

- موخاكار (ألرية) (لوحة مجمعة 36) :

في تلك القمة المرتفعة التي نجد منها البلدة، هناك الكنيسة أمام الحصن (1) ومخططها عبارة عن رواق واحد وهذا من سمات العمارة خلال الأزمنة الأولى في منطقة البشّرات، وهو مبنى مشتق من كنائس في شرق الأندلس وله عقد حاجز diaphragma درسه توريس بالباس، وربما كان هناك مسجد جامع للمنطقة بالكامل.



لوحة مجمعة 28:
 قصبة بطليوس: A المسجد والكنيسة في المخطط
 الحضري. قرطبة B, C

- وكانت القصبة هي المكان الذي يضم المسجد (11)،
وسان بارتولوميه وسان نيكولاس وسان بدرو وسانتا
كتالينا.
- قرطاجنة (مرسية) (لوحة مجمعة 2، 39)،
1: حصن لكونثبثيون، 2: الكنيسة الكاتدرائية سانتا
ماريا المجوز أو سانتا ماريا «البشارة»، ويفترض أن
المكان كان مسجداً (المخطط 1-2 هو الخاص بالكنيسة
الحالية المتهمة).
- ثورقة (مرسية) (لوحة مجمعة 3، 39)،
A الحصن القصبة، 1: كنيسة سانتا ماريا
(يفترض أنها كانت مسجداً)، 2: سان بدرو، 3: سان
خوان (يفترض أنها كانت في حارة المسلمين)، 4: ريبض
سان بدرو، 5: سان بدرو، 6: سان ماتيو، 7: كنيسة سان
كريستويل. وتشير النقاط إلى مكان المقابر العربية
وبعض الحمامات طبقاً لآخر نتائج للحفائر الأثرية.
- بالمادي ميورقة (لوحة مجمعة 4، 39)،
A مقر المدينة مع الكاتدرائية (مسجد سانتا
ماريا)، 1: كنيسة سانتا إيولاليا (مسجد أبو
ملك)، 2: كنيسة سان ميغل (مسجد مفترض)،
وهناك مساجد أخرى مؤكدة في كنيسة سانتا
كروث، وسان خايمي، 3، 4، وتشير النقاط السوداء
إلى مكان الحمامات العربية، وهي عادة ما تقع
بالقرب من الكنائس، 7: حمام عربي يرجع إلى
القرن الحادي عشر، لازال باقياً من حارة اليهود.
- أوريولة (أليكانتي) (لوحة مجمعة 1، 40)،
X حصن: مساجد حلت محلها كنائس، 1: سانتياجو،
2: سانتا خوستا و روفينا، 3: مسجد سلبادور الجامع،
في قطاع المسلمين هناك ريبض يحمل اسم سان خوان.
- إثن (أليكانتي) (لوحة مجمعة 2، 40)،
1- حصن قصبة، 3: الكنيسة الكاتدرائية سانتا
ماريا (يفترض أنها كانت مسجداً جامعاً).
- ساجونتو (بلنسية) (لوحة مجمعة 3، 40)،
1، 2، 3، 4، 5، 6، 7: أماكن مختلفة في
الحصن: F: الكنيسة الرئيسية سانتا ماريا التي
ربما حلت محل مسجد جامع خلال عام 1334م؛
H: حارة اليهود. دور عبادة خارج الأسوار: سان
سلبادور، لا ترينداد، سان فرانسيسكو وسانتا آنا.
- ألبويتتي (بلنسية) (لوحة مجمعة 4، 40)،
يقع المعبد الرئيسي للبلدة عند رقم 1 بالقرب من
الباب الغربي للسور.
- إيبايزا (Ibiza) (لوحة مجمعة 1-5، 40)،
A حصن، B المدينة، M مسجد وأطلال تم اكتشافها
في كنيسة سانتا ماريا.
- ألتيرا (بلنسية) (لوحة مجمعة 6، 5، 40)،
يقول خوليان ريبيرا، المتخصص في الدراسات
العربية، أن كلا من كنيسة سانتا ماريا وسانتا كتالينا
ربما كانت مساجد رغم أن ذكرهما لم يرد في تقسيم
المدينة، 1: باب بلنسية، 2: باب شاطبة، 3: ريبض سانتا

ماريا مع كنيسة تحمل الاسم نفسه. 4: كنيسة سانتا كاتالينا، 5: أنكانيثيا، alkanicia، ريش سان خوان (حارة المسلمين)، أما النقاط فهي تشير إلى مواقع الحمامات.

- أليكانتي (لوحة مجمعة 3، 2، 1، 41)،

مخطط 1 (طبقاً لبابلو روسير ليمينيانا): A
حصن، 1: كنيسة سانتا ماريا، هي مسجد جامع موثق
طبقاً لحفائر جرت خلال هذه السنوات قام بها بابلو
روسير، مخطط 3، مخطط 2 (طبقاً لماريو بيفيا)، حيث
القراءة نفسها للمخطط السابق والإضافات الأثرية،
وفي كلا المخططين نجد الرقم (2) يشير إلى كنيسة
سان نيكولاس التي يفترض أنها كانت مسجد الرضى.

- بَيْنَا (أَلِيكَانْتِي) (لوحة مجمعة 4، 41)،

هناك رسم قديم للمدينة. 1: حصن فيه أطلال
عربية ووبرجه الرئيسي (Azuar)، 7: برج كنيسة سانتا
ماريا.

- شاملة (بلنسية) (لوحة مجمعة 5، 41):

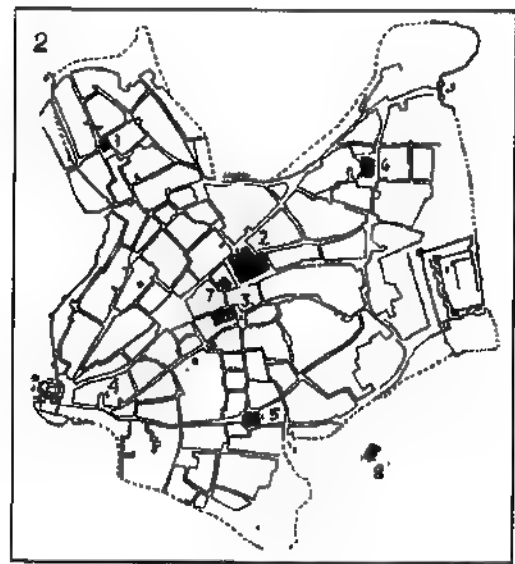
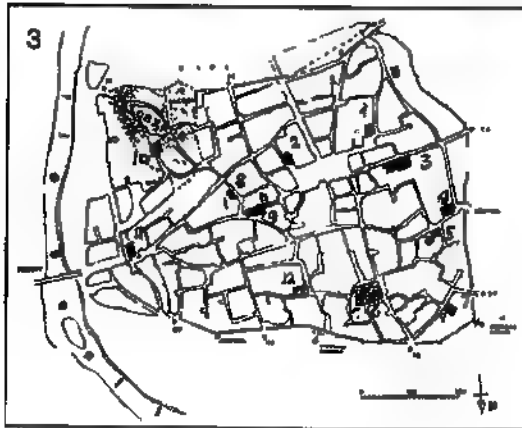
تقع المنطقة العربية بين حصن جبل برنيسا وما يسمى «بريكاني موري»، وهي تشكل مساحة واسعة أو حظيرة بقر في الحصن وتسيطر عليها كنيسة مان فيلكس (Q) التي ترجع إلى العصر المسيحي الأول أو العصر القوطي؛ وإلى الأسفل، أي في المدينة يشار بالحرف m إلى أربعة مساجد محتملة: n سانتا تكلا؛ L: الكنيسة الكاثدرائية في الوسط، وأخرى عند باب concentaina في ميدان لافريا؛ وهناك مسجد رابع في ريبض بازيراس، وربما كان هناك مسجد آخر في ريبض سان خوان. دور عبادة خارج الأسوار: T سان أنطوني

المسجد نحو الجنوب في عصر عبد الرحمن الثاني وابنه محمد، وبعد ذلك جاءت التوسعة التي قام بها عبد الرحمن الثالث للمسجد القديم حيث نجد مثانة جديدة، ثم نشهد توسعة حرم المسجد في عصر الحكم الثاني والمنصور بن أبي عامر.

كل هذا يمثل نموذجاً للمدن الإسلامية الحية التي تنمو بشكل دائم، فكلما زاد حجم المدينة، من خلال ظهور المزيد من الأرباض، زاد حجم المساجد وذلك حتى تتسع للمصلين كافة يوم الجمعة، واستناداً إلى هذه الروح الدينية التقليدية من المعتقد أن تلك المباني، التي جرت إزالتها أو إدخال تعديلات جوهرية عليها، ظلت محتفظة بالنمطية التي عليها، فالتوسعة من الشمال إلى الجنوب أم من الشرق إلى الغرب لحرم المسجد وإضافة شكل حرف T والقبّة أمام المحراب، كانت كلها عناصر عامة، في المغرب الإسلامي، للمساجد الكبرى مثل القيروان (836م) وتونس (856 - 864م) وسوسة (862م)، وهذا بفارق زمني، يزيد عن القرن من الزمان، بينها وبين حرف T والقباب الثلاثة في المسجد الجامع بقرطبة في عصر الحكم الثاني؛ ثم يأتي بعد ذلك مسجد المهديّة وصفافس، ورغم أن موضوع التقاطع وحرف T مقبول في المغرب الإسلامي على أنه من أصول مشرقية، فإن الأمر بالنسبة لصلاح الدين وأحمد فكري يمكن أن يكون منبثقاً من بازليكيات قديمة في الشمال الأفريقي، ويقبل بهذه الطريقة ج. مارسيه. وقد جرت الإشارة إلى أن أصول ذلك هي بازليكا «الميلاد ببيت لحم» Natividad de Belen، دون استبعاد حرف T الذي استقر في البازليكيات البيزنطية، وكذا في تسالونيكا سان ليمتريو (سيريل مانجو)؛ ومؤخراً نجد أ. ليزن، يستند إلى نص عربي وإلى مقاييس رفعتها سوفاجيه، ويرى أن شكل حرف T في مسجد القيروان ذي القبّة التي كانت في بداية الأمر من الخشب يرجع في أصوله إلى مسجد المدينة المنورة في زمن الوليد (ق8) (انظر المخطط رقم 3 من اللوحة

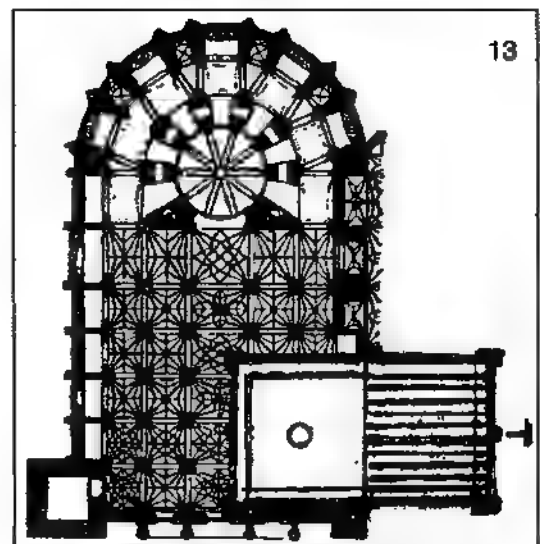
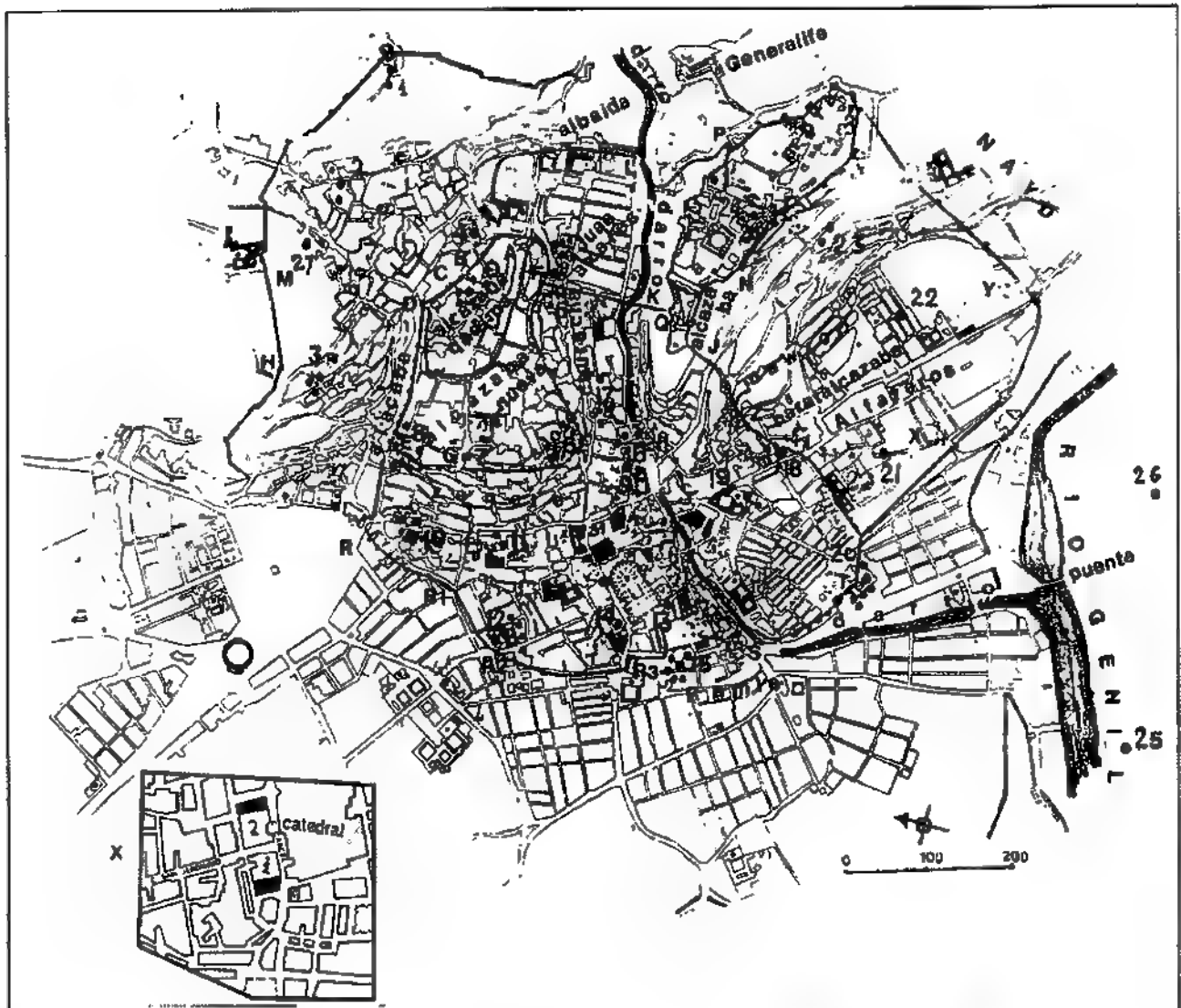
الجمعة 81)؛ وتأتي منطقة التقاطع أمام المحراب لتؤكد موضوع التوجه الذي عليه المسلمون أثناء الصلاة والذي كان محدداً قبل ذلك بالقبلة، وهنا نقول إن حرف T، بغض النظر عن موضوع الاتجاه، أضفى على المسجد قيمة معمارية عالية بإضافة عقود خاصة وقياب في بداية الرواق الرئيسي ونهايته، ومع مرور الزمن أضيفت قباب أخرى على طوال منطقة التقاطع وبذلك نجد أن شكل حرف T يضيف المزيد من الرفعة على المساجد الفاطمية كافة في القاهرة التي اتخذت مسجد المهديّة التونسي نبراساً لها، أما مساجد المغرب الإسلامي خلال القرن الثاني عشر، بما في ذلك المسجد الجامع في إشبيلية، فقد سارت على العناية التي رسمها المسجد الجامع بقرطبة. وإذا ما نظرنا إلى التوسعة التي تمت في عصر الحكم الثاني في المسجد الجامع بقرطبة يمكن أن نوازي بين منطقة التقاطع فيه التي تضم ثلاثة قباب بالصدر ذي الفراغات الثلاثة في منطقة المذبح في دور العبادة المسيحية المستعربة والمعاصرة، رغم أن الخطوط الجوهرية الإسبانية لما هو مستعرب في قرطبة ذلك الزمان لم يكن من الممكن إلا أن تسهم بالقليل في النموذج المماري الذي يقع في صدر المصلّى القرطبي الذي استضاء بكلاشيه المساجد الرئيسية المشار إليها في كل من المشرق وأفريقية، ولم تؤثر هذه التوسعات، في شيء، على مسجد المدينة الملكي، مدينة الزهراء، التي أسسها عبد الرحمن الثالث (941 - 945م) وتمت دفعة واحدة، وقدمت لنا نموذجاً وحيداً كاملاً لمسجد أندلسي أموي، رغم أنه افتقر إلى منطقة التقاطع التي على شكل حرف T، أو المقصورة ذات القبّة في المسجد الجامع بقرطبة خلال القرن العاشر.

نجد في المسجد الملكي، كما هو الحال في مسجد قرطبة، ذلك الحاجز الخشبي للمقصورة أمام المحراب، وهو أداة رئيسية لتعدد المسافات التي نتحدث عنها، وكان من خشب مزخرف، لكنه هنا - خلافاً لما كان عليه الحال في المسجد الجامع بقرطبة - كان يوجد فقط إلى

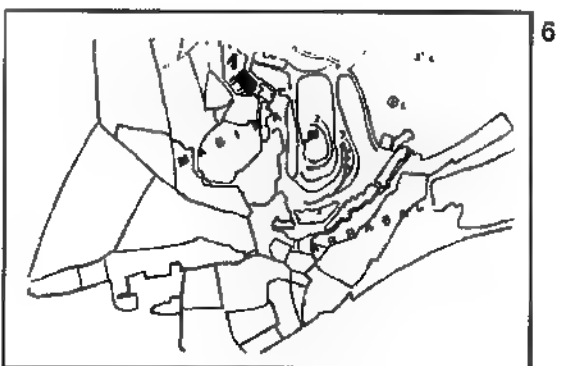
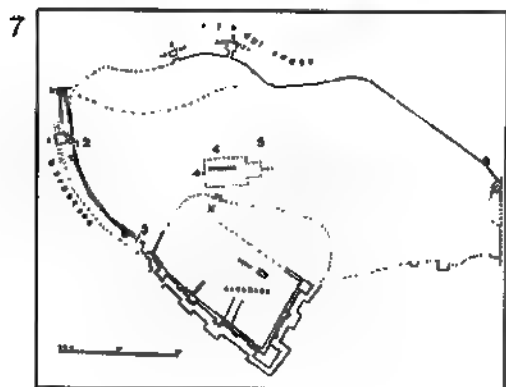
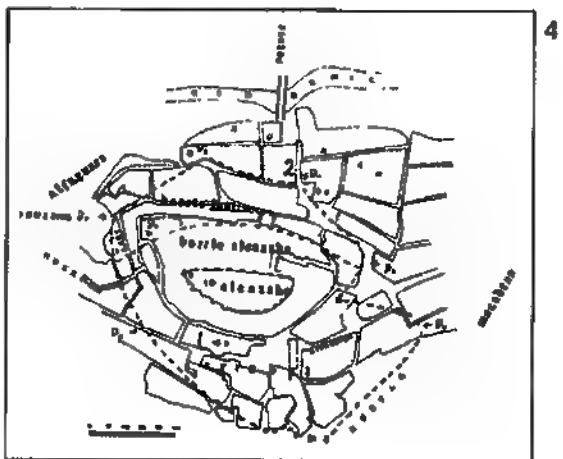
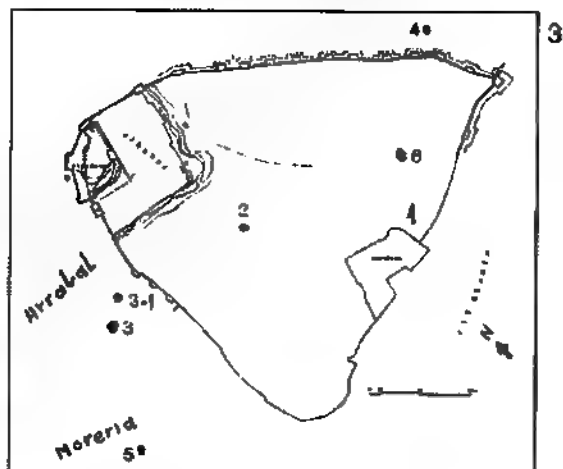
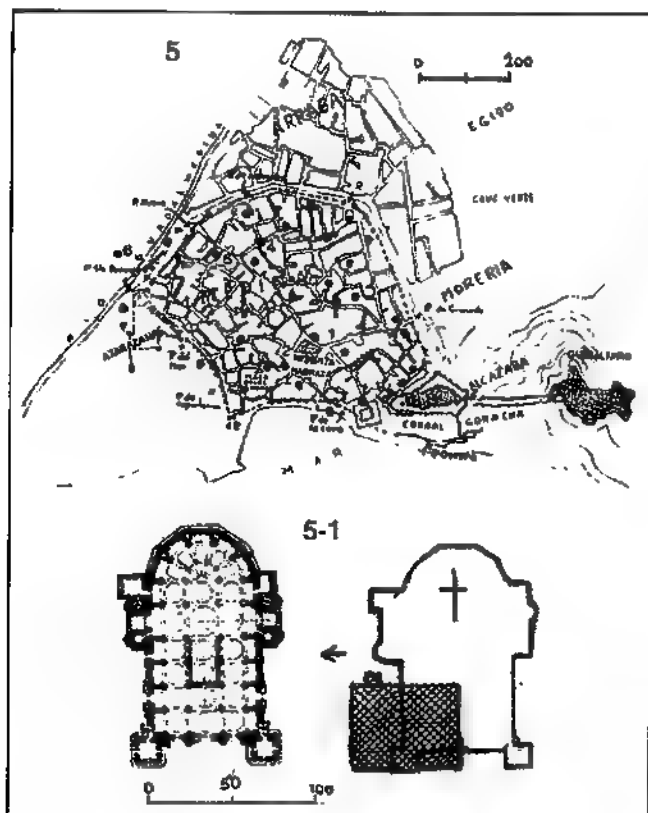
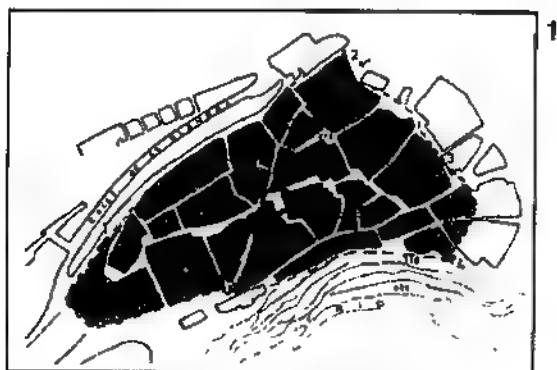
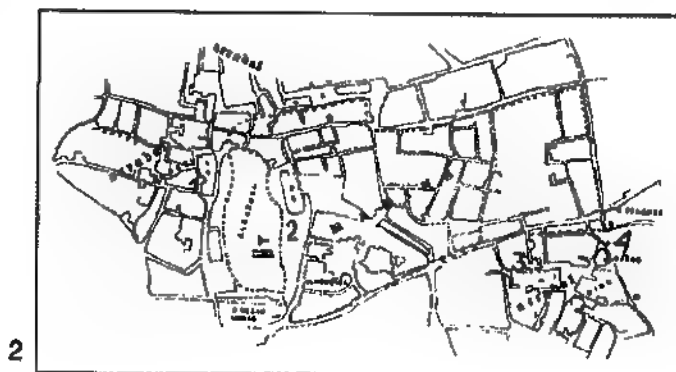


لوحة مجمعة 29:

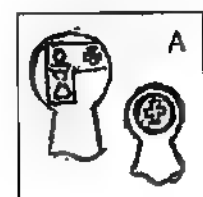
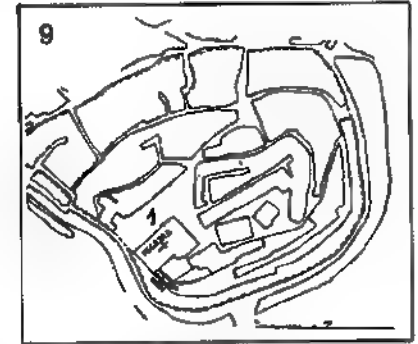
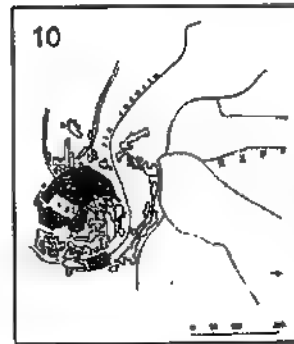
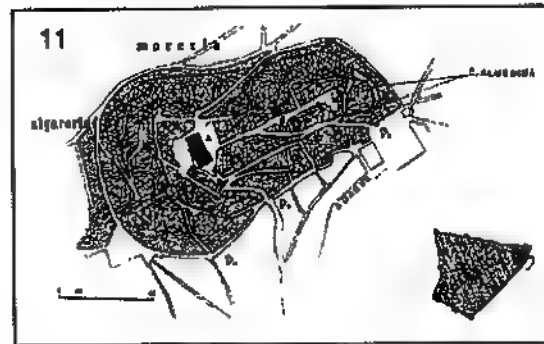
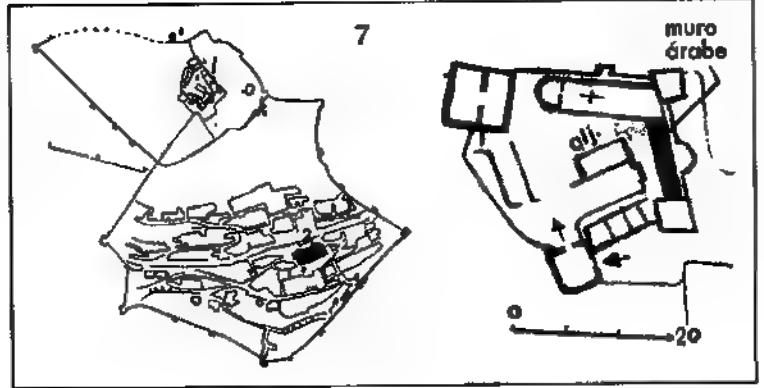
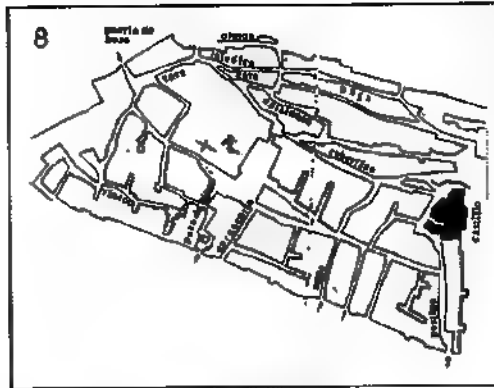
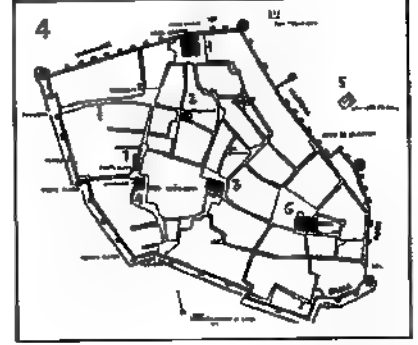
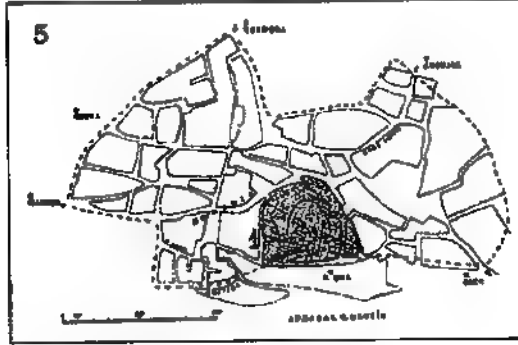
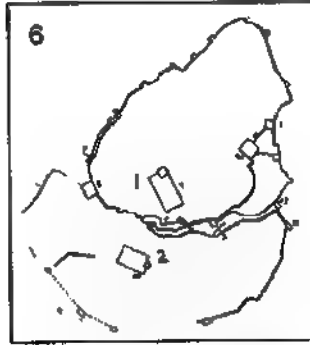
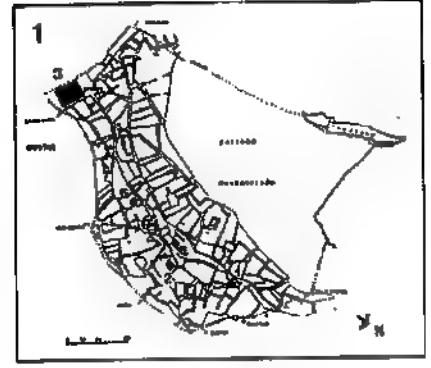
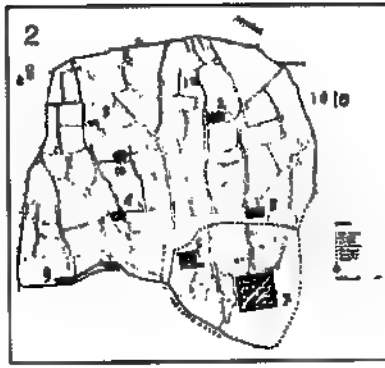
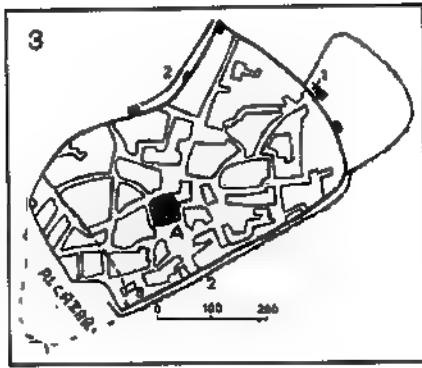
المسجد والكنيسة في المخطط الحضري. النثر
الأدنى. إشبيلية وقرمونة واستجة وقلة جواديرا.



لوحة مجمعة 30:
المساجد والكنائس في المخطط الحضري، غرناطة،
المسجد الجامع، 13؛ مسجد أبي العاصي، X

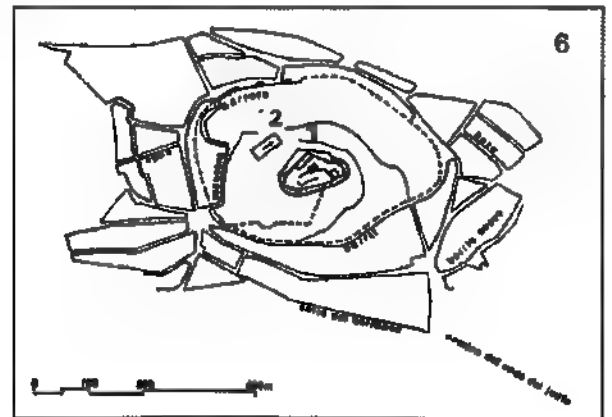
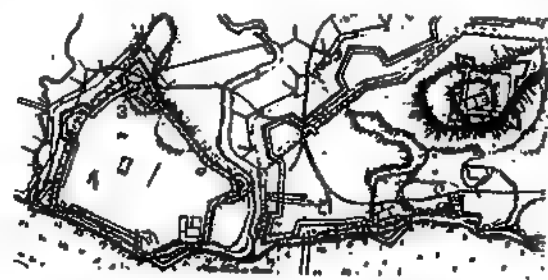
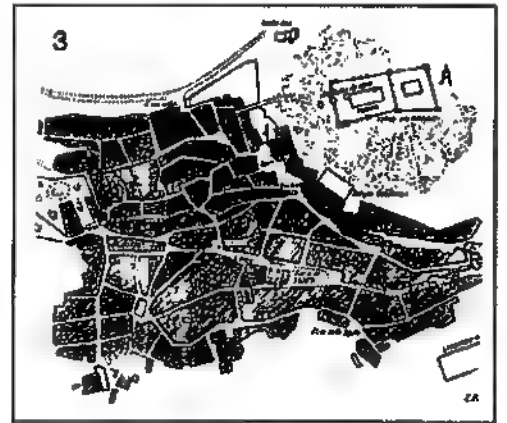
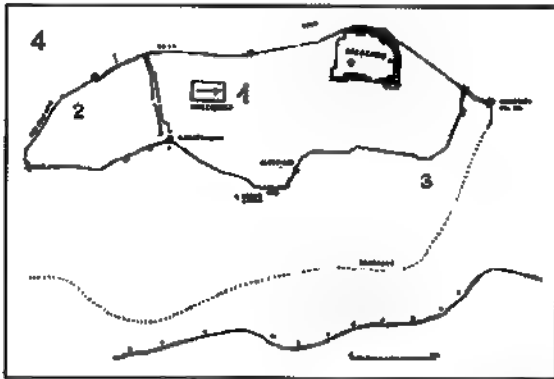
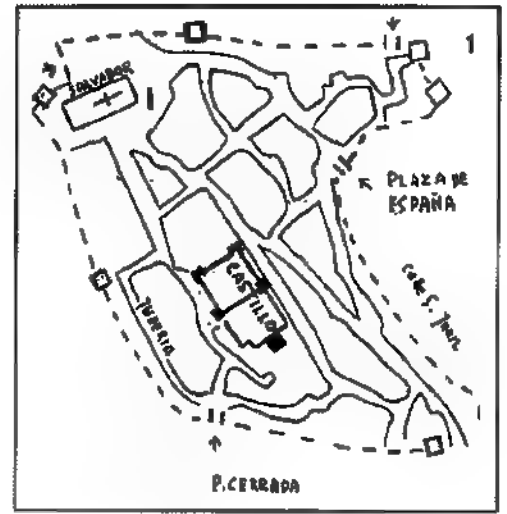
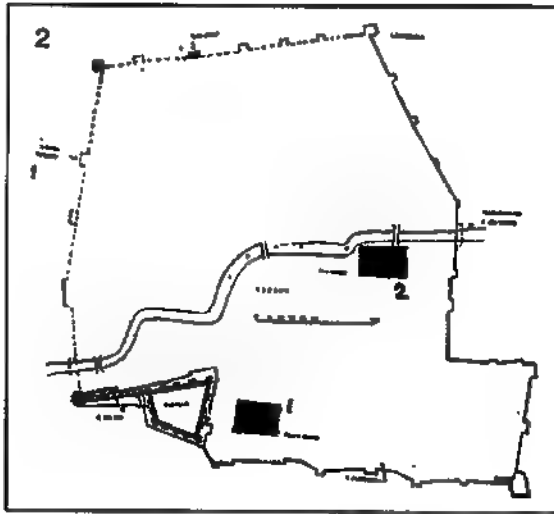


لوحة مجمعة 31:
المساجد والكنائس في المخطط الحضري. الثغر الأدنى،
الحامة، باثا، وادي آش، لوحة، ملقة، بيليث، أنتكيرة.

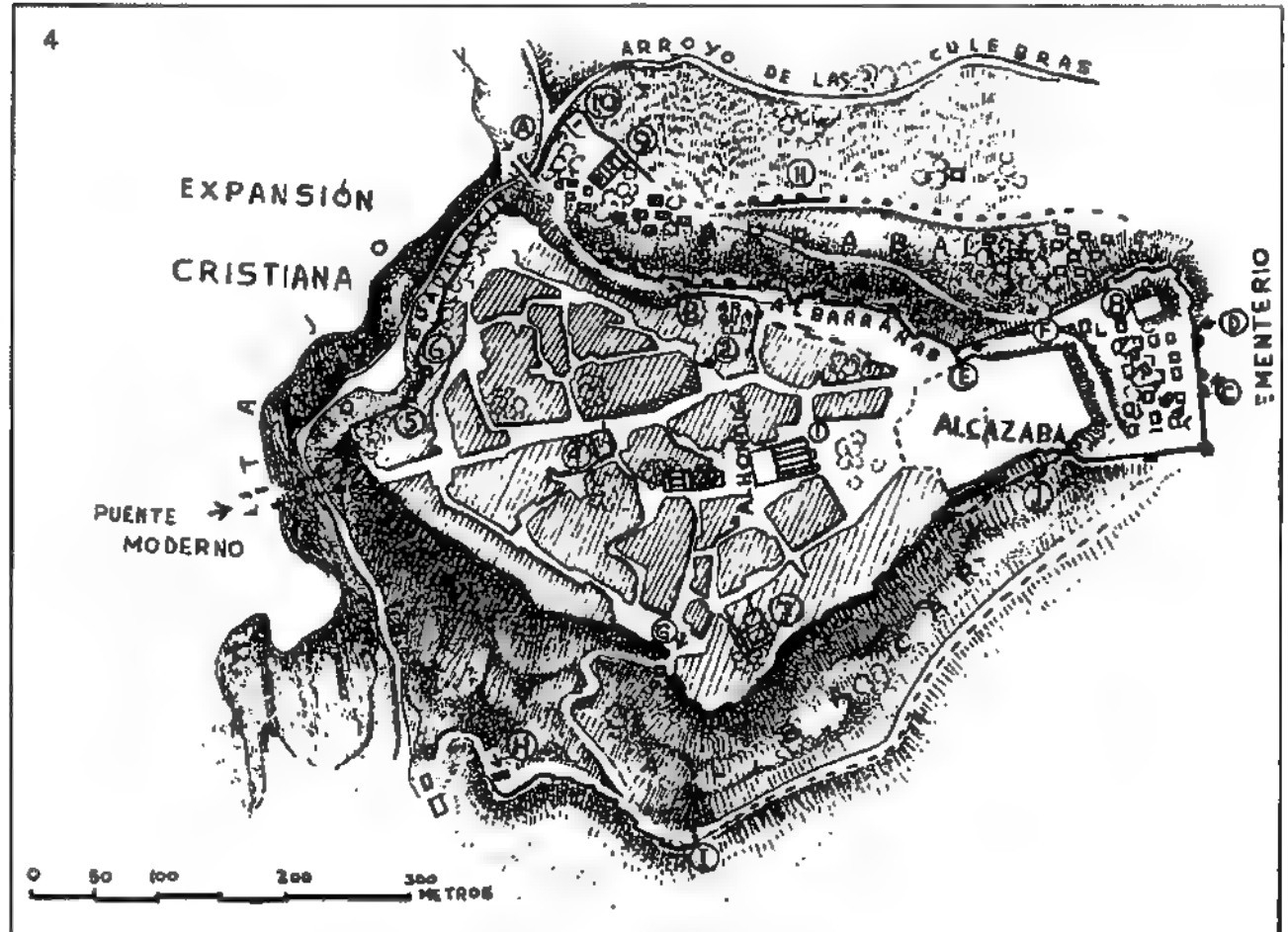
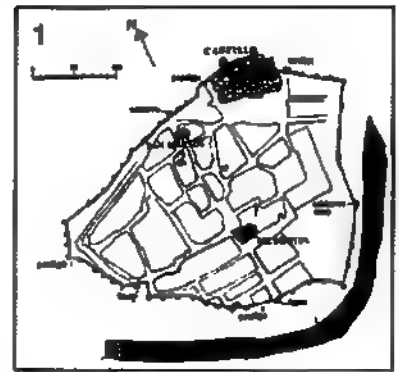
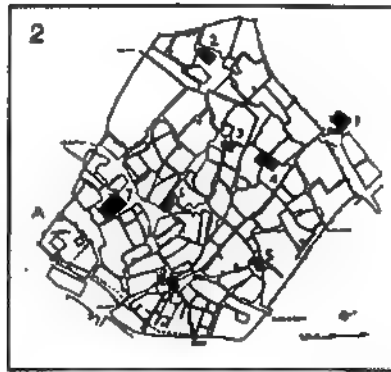
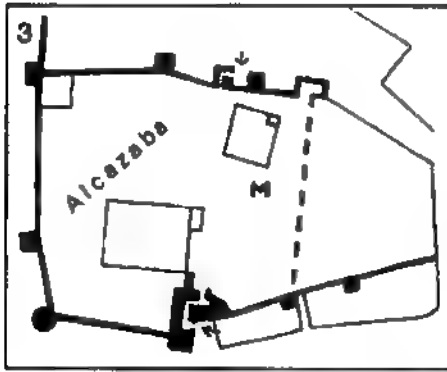


لوحة مجمعة 32:

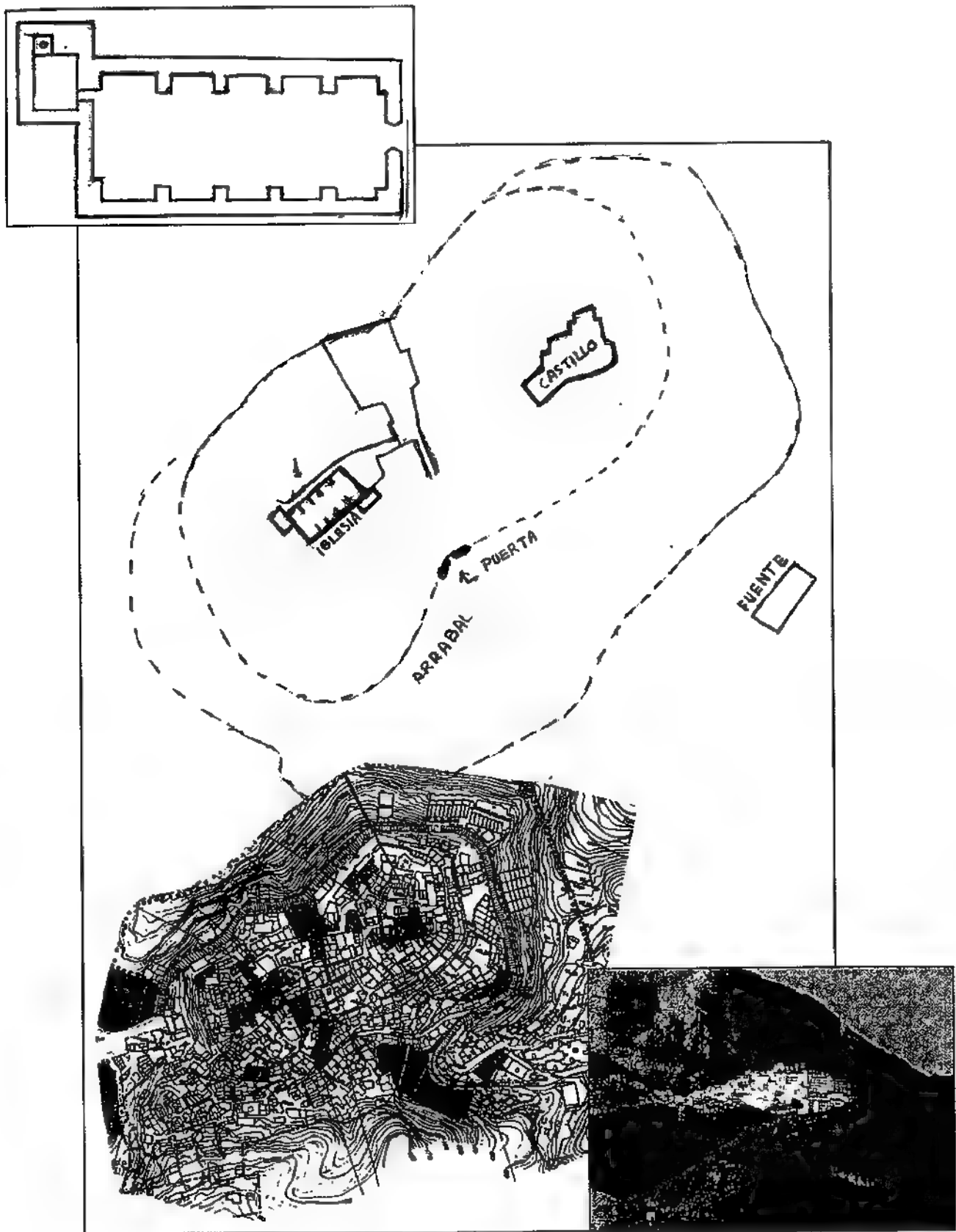
المساجد والكنائس في المخططات الحضرية. النقر الأدنى.
جهان، وبذة، باينا، أندوجار أرجونة، أنكالالا ريان، J.A.B.
Izhajar وكيسادا، كاثورلا، مارتوس.



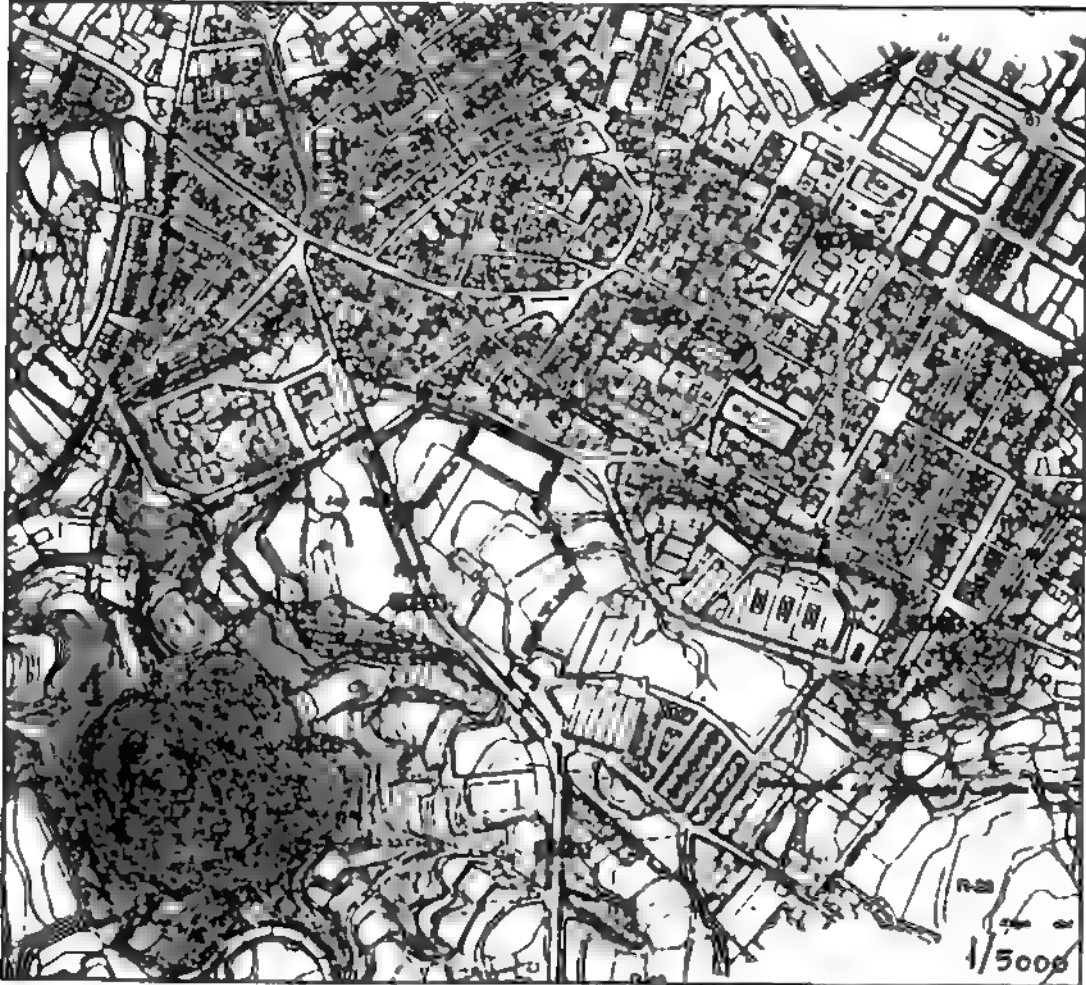
لوحة مجمعة 33: المساجد والكنائس في المخططات
الحضرية. النفر الأدنى: بيجر، طريف، مدينة شبرونة،
باجة، الجزيرة، القائد Alcaudete، أرشدونة.



لوحة مججمة 35 : (1) المسجد والكنيسة في المخطط الحضري، الثغر الأدنى؛ 2، 3 شريش، رنده.



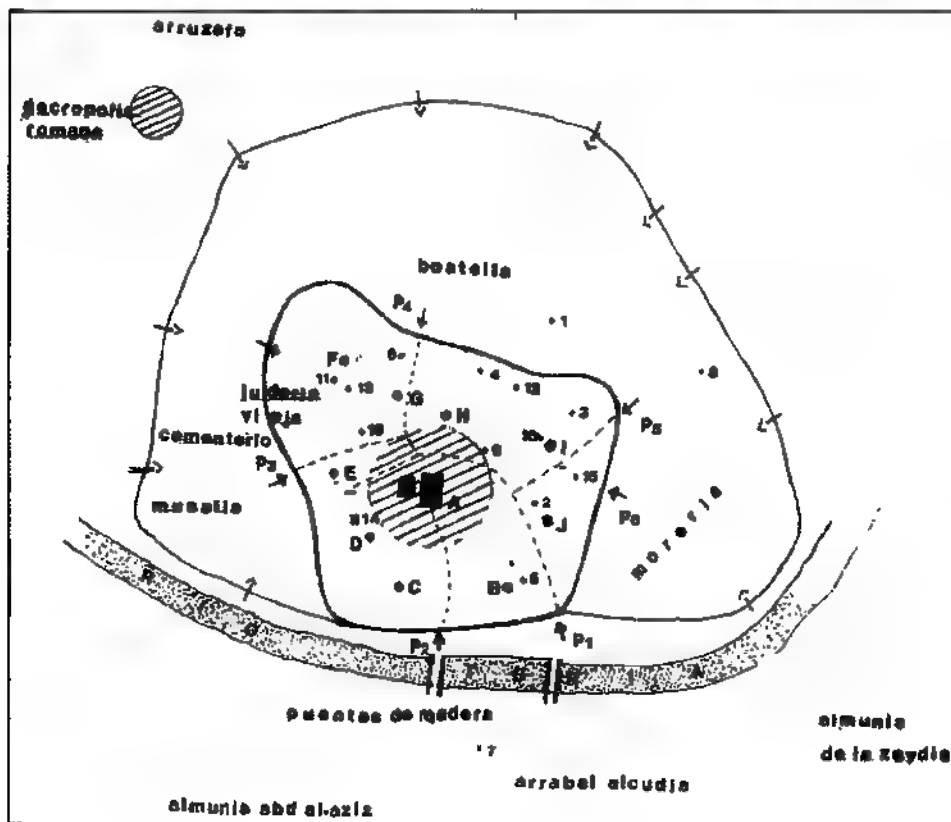
لوحة مجمعة 36:
موخاكار (ألمرية)



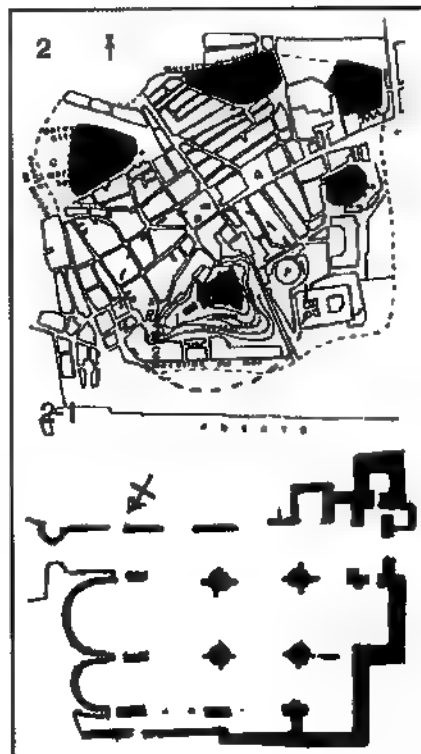
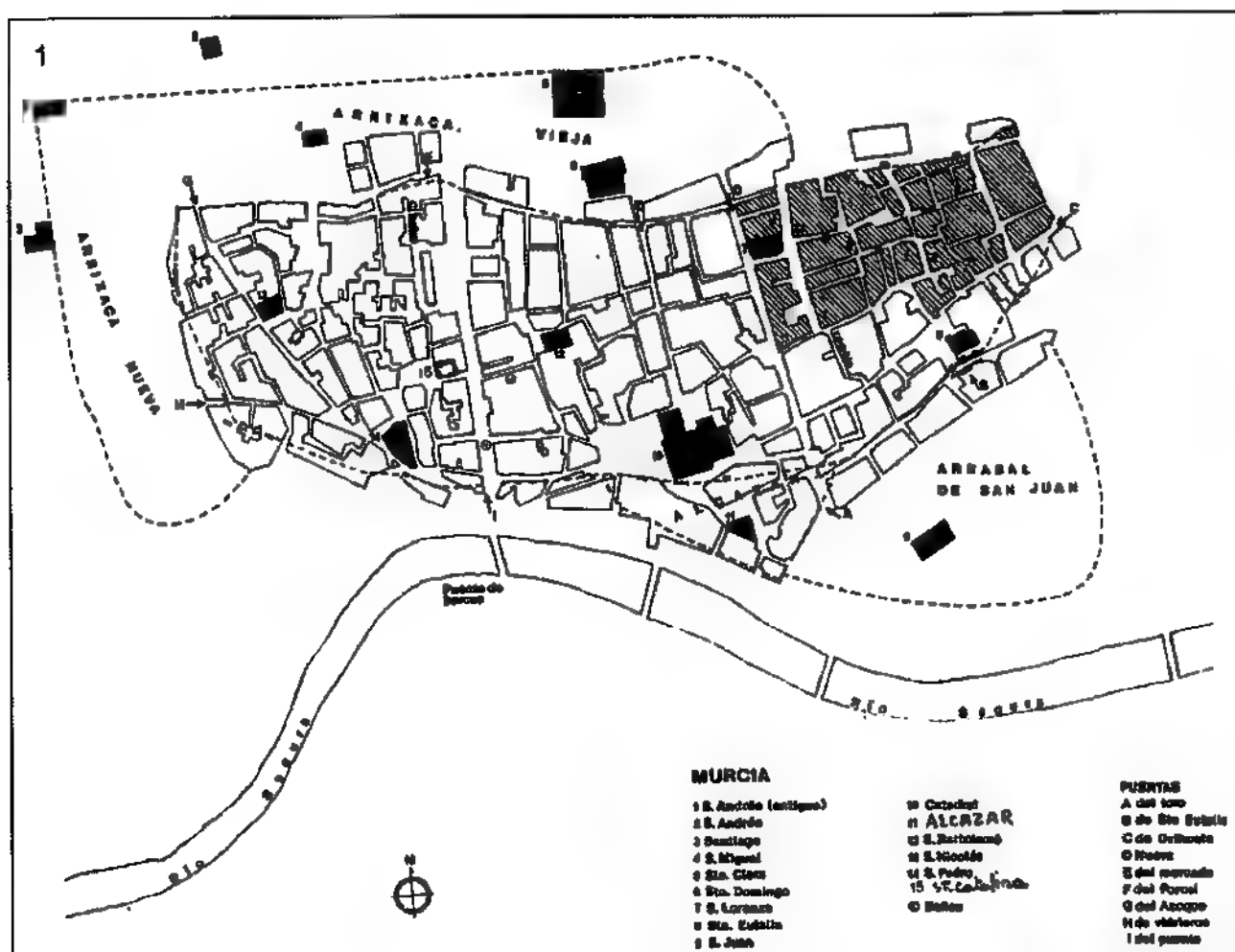
لوحة مجمعة 1-36:
المساجد والكنائس في المخططات الحضرية. النثر الأدنى.
(1) قادش (2) ببرا (ألمرية).



لوحة مجمعة 37:
المساجد والكنايس في المخططات الحضرية. شرق
الأندلس. بلنسية

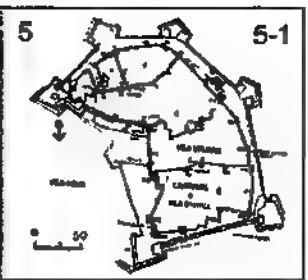
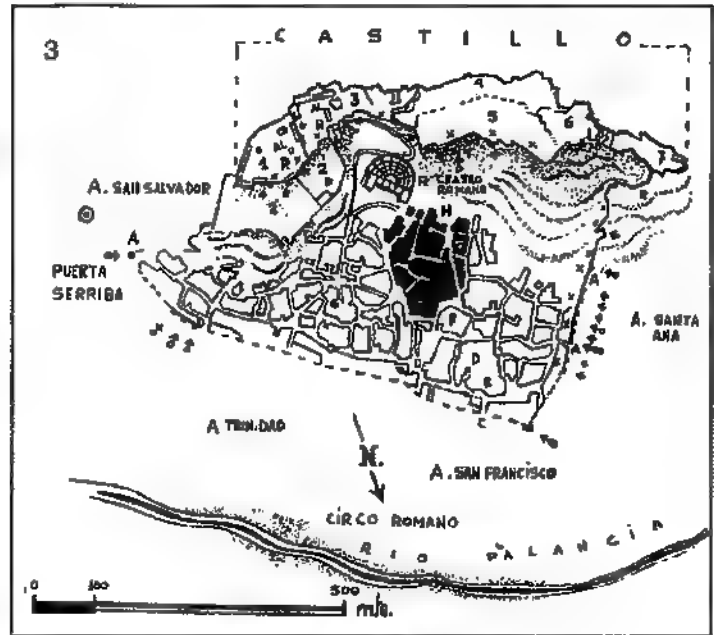
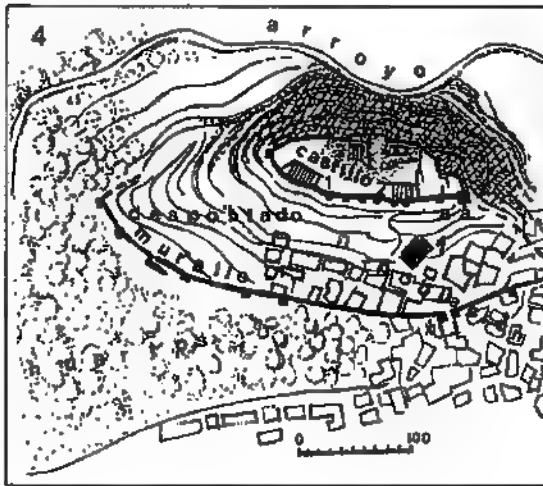
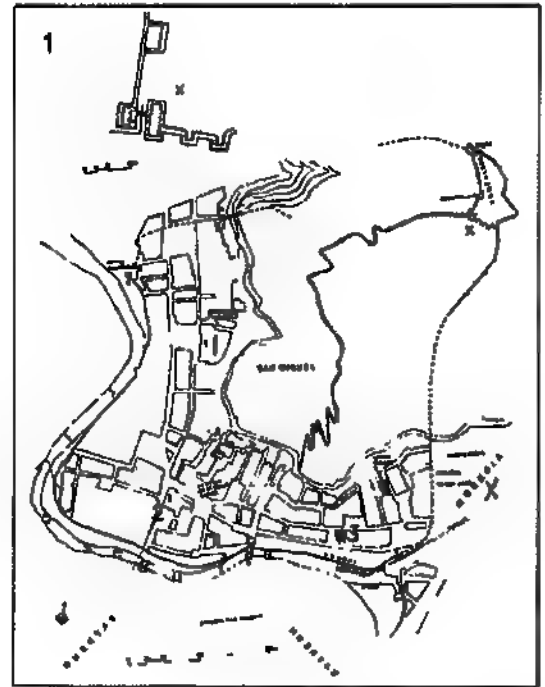
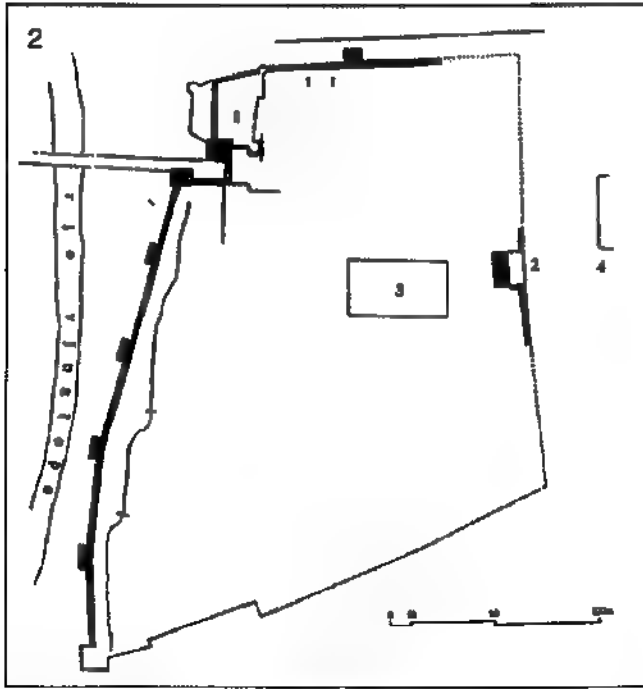


لوحة مجمعة 38:
بانمية



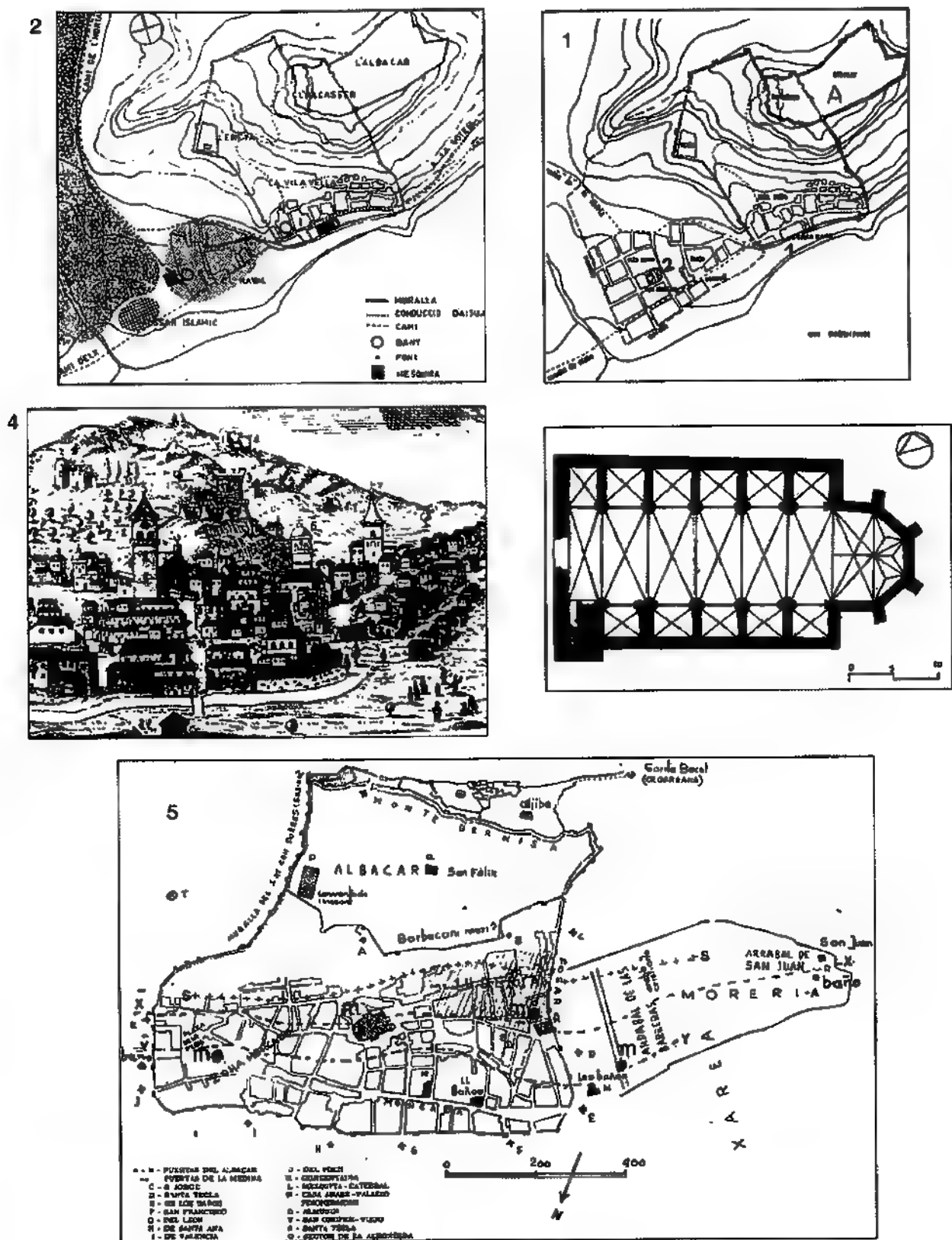
لوحة مجمعة 39:

للساجد والكنائس في المخططات الحضرية. شرق الأندلس،
مرسية، قرطاجنة، لورقة، ميورقة.



لوحة مجمعة 40:

المساجد والكنائس في المعططات الحضرية. شرق الأندلس،
أوروبا، إشب، ساجونتو، البوينتي، أليثرا، بابة (1-5).



لوحة مجمعة 41:

المساجد والكنائس في المخططات الحضرية. شرق الأندلس، أليكانتي، 1، 2، 3. بينا، شاطبة.

الحواجز التي هي الفواصل الأيقونية أمام المذابح في الكنائس البيزنطية، مع وجود حواجز تحت الحاجز الكثير الزخرفة، ومن أمثلة ذلك ما نجده في اليازليكا الأيوهراسية دي لسبوس Lesbos (سيريل مانجو)، وربما نجد المقصورة مشيدة. ففي مسجد الكتبة الأول في مراكش كان المكلف بإقامة هذا الحاجز هو المهندس المعماري أو البناء الملقب الحاج يعيز Hayy Ya'is (ابن صاحب الصلاة). ومع هذا فاستناداً إلى كتلة خشبية منحوتة بشكل رائع نشره تراس دراسة عنها وعشر عليها عام 1930 بين هذا المسجد وبين المسجد الثاني الذي يحمل الاسم نفسه، نجد ذلك الباحث يتساءل فيما إذا كانت هذه القطعة من مقصورة المسجد الملقب، سواء هذا المصلّى أو ذلك، ترجع إلى الفترة من 1130 و 1155م. وهنا، من المهم الإلحاح على أن مقصورة الحكم الثاني في قرطبة كانت تضم عرض الأروقة الخمسة الرئيسية، كما أشار إلى ذلك تورتس بالباس (الفصل الثاني، اللوحة المجمة 5، 3) بغض النظر عن أن الرواق الموازي للقبلة أو منطقة التقاطع على حرف T كانت تضم الأحد عشر رواقاً، وفي هذا المقام نجد ابن عذاري ترك لنا أبعاد المقصورة القرطبية 42X60 ذراعاً، أي أنها بالأمتار 30مX22م عمقاً تقريباً. وهذه المقاسات هي التي نجدها عامة في مخطط المسجد عند إيورت (لوحة مجمعة 1، 83)؛ ومن الشمال إلى اليمين نجد أن الحاجز كان يتجاوز منطقة التقاطع وهذا ما أكدته عدد من دارسي المسجد.

يلاحظ أن عمليات التوسعة قد سارت على أنماط متعددة من الصعب تصنيفها، وباستثناء تلك التي أسفرت عن وجود عمليات إحلال مثل التي شهدناها، أي أن المسجد أحياناً ما تتم إزالته لبناء آخر مساحته أكبر، وكان هذا من الأمور المعتادة في تاريخ العمارة على مرور الأزمنة، وكان هناك ما يطلق عليه الموقف المحيط بالشيء، أي أن دار العبادة القديمة وما طرأ عليها من عمليات توسعة لاحقة في مختلف الاتجاهات

يمين المحراب أو كرسي الإمام (المقرّي)، طبقاً لما نراه في المقصورة، التي أضيفت خلال القرن الحادي عشر على يد المعز، في المسجد الجامع بالقيروان، ومع هذا فإن البكري يرى أنها أضيفت خلال القرن التاسع أو قبل ذلك. وليكن معلوماً منذ البداية أن الخليفة المهدي، في المشرق، (775 - 785م)، طبقاً للديناواري، أمر بأن تضم المساجد الجامعة كافة مقصورة. أما في الأندلس فإن محمد الأول (864م) هو الذي أدخل ذلك الفراغ الخاص بالمقصورة في المسجد الجامع في قرطبة، ثم جرت عملية إعادة ترميمه في الحرم الجديد الذي أضافه الحكم الثاني (965م)، لكن الخشب هذه المرة كان مشغولاً سواء من الداخل أو الخارج مع وجود أبلبيكات من الذهب والفضة والأبنوس، وكان الارتفاع أربعة أمتار، أما المساحة المحددة فهي 42X60 ذراعاً من الشرق إلى الغرب (ابن عذاري) أما الامتداد من ضلع إلى آخر فهو يساوي عرض الأروقة الخمسة المركزية. وطبقاً لابن صاحب الصلاة وابن أبي ذر فإن مقصورة المسجد الجامع الموحدي في إشبيلية كانت من الخشب الجميل وكانت حداً فاصلاً بين السلطان وجمهور المصلّين، وأحياناً ما يحدث أن يتم نقل هذا السور الخشبي من مكانه مثلما حدث - طبقاً لهؤلاء المؤرخين - في المسجد القديم وهو مسجد ابن عديس Adabbas بالمدينة نفسها. ورد أيضاً ذكر المقصورة في المسجد الكائن في بطليوس خلال القرن التاسع وذلك ليستخدمها مؤسس المسجد الذي يدعى الجليقي (البكري). ويحدثنا ابن الأبار عن مقصورة في المسجد الجامع في سبتة لم يتم الانتهاء منها عام 1096م (خ. بايبي)، رغم أن الأنصاري يقول إنها شيدت عام 1037م (خ. بايبي). ومن جانب نجد سوفاجيه يرفض النظرية القديمة والقائلة إن المقصورة كانت وسيلة دفاعية أو حمائية للسلطان أو الخليفة أو الحاكم، ويقارنها بالستارة المفردة أمام المذبح في صالات الاحتفالات في القصور، وذلك لفصل مكان العامل عن باقي الحضور، ويمكن مقارنتها أيضاً بتلك

محمد الأول، سيراً في هذا على نموذج التوسعة التي جرت على المساجد الأموية في قرطبة وسوسة والزيوتونة بتونس. كما جرى أيضاً زخرفة قبلة المصلى لجامع القرويين بفاس خلال العصر المرابطي، وكذلك بالنسبة لمسجد تازا خلال عصر الموحّدين (1293م) وهذا هو ما حدث في المسجد الجامع في حصن سبتة حيث إن مسجدها يرجع إلى القرن العاشر (البكري) ولا شك أن عملية التوسعة كانت مبرمجة تقليداً للمسجد الجامع في مدينة الزهراء، أي أن التوسعة تمت وبقوة في اتجاه الشرق والغرب والجنوب، وبذلك تتضاعف المساحة ثلاث مرات، ولهذا السبب كان من الضروري إضافة صحن آخر، سيراً في هذا على ما هو قائم في مسجد حسان الموحّدي بالرباط، وهي قصبة مراكش. وبالنسبة للبناء الأول لمسجد القرويين بفاس (849 - 863م) الذي أسسه الأدارسة، فقد جرت توسعته في كافة الاتجاهات خلال القرن العاشر، وبعد ذلك، أثناء حكم المرابطين، جرت عملية نقل المحراب القديم. وغير معروفة ماهية عملية التوسعة أو إعادة البناء التي جرت على المسجد الجامع، في أغادير، ومسجد ربض تلمسان الذي أسسه إدريس الأول عام 798م وهذا ما يؤكدته نقش كتابي يوجد على المنبر، وقد أعيد بناؤه خلال عصر إدريس الثاني عام 814م (البكري)، وطبقاً لابن خلدون فإن المنارة، التي لازالت قائمة، قام ببنائها ابن زجين (1236 - 1283م).

كانت عملية توسعة حرم المسجد بإضافة أروقة في الأطراف، أو التوسعة بالمرض تجبر على توسعة الصحن القديم وهذا ما نراه في المساجد الجامعة في قرطبة القرن التاسع ومسجد أميرة (ق 11) (العذري وتورس بالباس). في طليطلة لدينا حالة غير اعتيادية تتمثل في توسعة غير منتظمة: هي مصلى مكوّن، على ما يبدو، من ثلاثة أروقة مع بلاطة أخرى إضافية، وهناك أمثلة لذلك في سانتا خوستا وروفيينا، وفي مسجد السليادور، وذلك طبقاً للوحات التأسيسية المكتوبة بالمرية، رغم أن الدراسات الأثرية لم تؤكد ذلك حتى الآن؛ نجد إذن

أو ثلاثة منها وبذلك يصبح المكان القديم معزولاً في الوسط، وهذه حالة - في رأيي - المسجد الجامع في قرطبة في عصر عبد الرحمن الأول (الفصل الثاني، لوحة مجمعة 3، 3) أو مسجد قلعة بني حماد بالجزائر، عام 1007 - 1008م، طبقاً لابن خلدون - (رشيد بوريبة K(R. Bourouiba وهذا نموذج مهم لأكثر من سبب: من المعتقد أن المصلى القديم الذي هو أساس المسجد كان مربعاً وهذا مساحة صغيرة وله خمسة أروقة أمام المحراب، وطلّرات على المسجد توسعة كبيرة في اتجاهات ثلاثة، وعندما جاء زمن الانحطاط الذي عاشته القلعة خلال القرن الثاني عشر نجد أن العدد القليل من السكان الذين بقوا في المكان عادوا للصلاة في المبنى القديم وأحاطوه بالحوائط وجعلوا له خمسة أبواب، وهذه نظرية يقول بها ل. جولفن ورشيد بوريبة، بينما يرى باحثون آخرون سابقون أن ذلك كان عبارة عن مقصورة رغم أنها كبيرة بشكل يزيد عن الحد في رأي ل. جولفن (لوحة مجمعة 1-83، B)، وترجع أهمية هذا المسجد الحمادي، توازياً مع مسجد مدينة الزهراء، إلى أنه الوحيد في الجزائر ذو المخطط الكامل، ذلك أن المساجد الحالية في القسطنطينية وبونا جرت عليها تعديلات كثيرة (رشيد بوريبة) وأضيفت إليها عناصر أخرى مثل البوائك القائمة على دعائم بدلاً من الأعمدة، وهذا طبقاً للحفائر التي قام بها رشيد بوريبة، وهي حفائر أيضاً جعلت المتدنة في وضع يربطها بالمآذن الأموية في قرطبة كما سنرى لاحقاً. هناك نماذج أخرى من توسعة المساجد، نراها في سرقسطة وتطيلة، حيث جرت توسعة الأول خلال القرنين التاسع والحادي عشر، أما المسجد التطيلي فهو يرجع في البداية إلى عصر الإمارة؛ ربما في عصر عمروس أو بني قسي، مع وجود توسعة أو عملية إصلاح كبيرة، أرى أنها نفذت خلال القرن العاشر، ولكن دون تحريك حائط القبلة القديم من مكانه، وهذا ما حدث في سرقسطة أثناء عملية التوسعة الأولى التي جرت في عصر الأمير

وغرناطة والجزيرة الخضراء الجديدة وطرطوشة وملقة وأرشدونة، كما ورد ذكر بعضها في سبته (الأنصاري)؛ وبالنسبة لأرشدونة فإن المصادر العربية تقول بوجود مصلى في الهواء الطلق ابتداء من الغزو الإسلامي لشبه جزيرة إيبيريا؛ أما مصلى ملقة فكان يقع خارج باب فونتانايا. ويشير تورس بالباس إلى أنه كان في بلنسية مصلى بالقرب من سور المدينة وكان له محراب (9)، ويعتمد في رأيه هذا على وصف لـ ب. تكسيدور Texidor وكان محرابه ذاتية ثم تحول إلى كيسة بمد غزو المدينة، هناك مصلى آخر في شاطية يرجع إلى عصر خايمي الأول واتخذ مسمى هو Sarin (شريعة) على شاكلة ما نرى في غرناطة. وفي ألمرية ورد ذكر المقابر التي تحولت إلى ربض «المصلى» خلال القرن الحادي عشر وفي الوقت ذاته جرت زيادة أروقة المسجد الجامع بالمدينة؛ وفي غرناطة ساد مصطلح الشريعة أي باب الشريعة أو باب Explanada بالحمراء، ويقول تورس بالباس إنه كان هناك مصلى في الهواء الطلق عند باب «الأرضيات السبع»، ومع هذا هناك شك في أن يكون ذلك المصلى داخل أسوار المدينة، أي في المنطقة الممتدة من باب «النبيذ» حتى المسجد الجامع. وربما كان ذلك مصلى بفرناطة وفيه، حسب قول ابن خلدون، تم اغتيال يوسف الأول عام 1354م، وتحت مسمى Xarea (شريعة) يرد ذكر مصلى آخر شمال القصبة القديمة بفرناطة، وقد أطلق المصطلح على مسجد وعلى جُبة في قطاع حي البيازين (جومث مورينو)، وفي شمال أفريقيا كانت مصليات في مراكش وفاس وتازا وسبته، وربما يشير النص العربي الذي يرجع إلى عصر ابن تومرت إلى مصلى، ولو أنه دُكر على أساس أنه محراب مسجد الساحة (أ. الحويثي A. Huici). وأثناء حصار سرقسطة (936م)، على يد عبد الرحمن الثالث، جرى تأسيس مصلى مؤقت في المعسكر الكائن خارج المدينة (ابن حيان). وعادة ما يتم ضرب سور من الطابية حول هذه المساحات حيث نجد الحائط الجنوبي وقد

أن هذا المثال المتكرر الموجود على ما يبدو في المسجد الجامع في لبلة مع وجود عدد مزدوج من الأروقة وهذا ما تكرر في المسجد الجامع في سبته مع نهاية عمليات التوسعة التي جرت عليه حيث بلغ عدد الأروقة اثنان وعشرون (هـ. تراس). ولا شك أن الأمير محمد الأول كان الأمير القرطبي الذي كان مولماً بعمليات إعادة البناء أو توسعة المساجد القديمة، وهذا ما شهدناه في مسجد قرطبة وسرقسطة وملقة وطليلة واستجة ومدينة شذونة ومدينة البيرة. وبالنسبة للمسجد الجامع الخاص بهذه المدينة الأخيرة (البيرة) نجد شاهداً على العصر هو ابن الخطيب الذي يشير إلى أن أبا مروان تحدث عن حالة التهدم التي كان عليه مسجدھا الجامع (ربما كان المسجد الذي أسسه حناش بن عبد الله Hanas I. A.) كانت قد حانت دون الصلاة فيه، وامتدت إليه الأيدي غير الخبيرة بإضافة الجص وغطت سماته وفقد هويته ووصل به الأمر إلى الحالة السيئة التي هو عليها؛ فقام محمد الأول أمير المؤمنين غفر الله له ببنائه، وانتهى العمل فيه بمون الله تحت إشراف عبد الله والي محافظة البيرة عام 250هـ/864م. وقد أشار تورس بالباس، حول هذا الموضوع، إلى أن ما قام به الأمير لم يكن إلا إعادة بناء أو توسعة مسجد سابق.

المصليات

أدت الزيادة في تعداد السكان إلى إقامة مصليات في الهواء الطلق في المدينة، ورغم ذلك لم يجر هذا دوماً خارج أسوار المدينة، وكان الهدف منها الضراعة إلى الله وأداء صلاة الجمعة والخطبة، وكان أول هذه المصليات في العالم الإسلامي ما شهدناه في المدينة المتورة في عهد الرسول محمد. وكان في قرطبة اثنان أحدهما الذي نجده في الربض الكائن على الشاطئ الآخر من نهر الوادي الكبير، أما الآخر فكان موجوداً في المصارة Musara في منطقة السهل صوب بلدة المدور، كما كان منها في بلنسية ومرسية أو إشبيلية

ومساجد أخرى لهذه الغاية، أي استخدامها أثناء أعمال توسعة المسجد الجامع؛ وفي نظري، وكما ستتاح لي الفرصة للبرهنة على ما أقول، أنه لا بد أن كان هناك اتفاق بين الجهات القائمة بالبناء وبين الفقهاء وذلك حتى يتم إيقاف أعمال التوسعة أثناء صلاة الجمعة الأمر الذي أدى إلى أن تستمر أعمال التوسعة مدداً أطول من المتوقع لها، كما أننا لا نستبعد إعطاء المصلين الفرصة للصلاة في المسجد محل التوسعة أو الانتقال إلى مساجد الأحياء القريبة؛ وقد عرضت ذلك، على أي حال، في بعض الصفحات السابقة، فليس من السهل استيعاب آلاف المصلين من الذين يؤمنون بالمسجد الجامع، في مساجد الأحياء التي لا تزيد مساحتها عن أربعمائة م²، ويرجع السبب الرئيسي في توسعة المساجد إلى زيادة تعداد السكان، فقد كانوا من الكثرة بمكان خلال القرن العاشر الميلادي لدرجة أن بعضهم كان يصاب بالإغماء من الزحام أو يتوفي (ابن حيان).

تتطلب العلاقة بين جمهور المصلين واستمرارية أعمال التوسعة بعض الملاحظات؛ غير أن ما يجب أن نسلط عليه الضوء هو ذلك التقسيم الذي عليه المصادر العربية والذي أصاب الممارسين المتخصصين في زماننا بالتخبط بما في ذلك تورس بالباس. فالمسجد الجامع بصفته تعبيراً أو رمزاً للإسلام كان دائماً محط اهتمام العرب بما في ذلك الإطراء والاستحسان لما عليه من سمات قبية، وكان المسجد مكاناً للصلاة وليس مكاناً للإله، وبالتالي فإن المصلين هم المستفيدون الحقيقيون، فمن أجلهم جرت عمليات توسعة حرم المسجد، بحيث يبدو المبنى مع كل عملية من عمليات التوسعة وكأنه مبنى آيل للسقوط أو صغير الحجم، وعلى ذلك فليس هناك أي مسجد قد انتهت الأعمال فيه لدرجة أننا نشهد انتقال الحراب عدة أمتار صوب الجنوب. وكان المسجد الجامع في الفيروان، ومسجد قرطبة، في البداية، يقدمان لنا الصورة الحية نفسها التي عليها المسجد الحرام في مكة والمسجد النبوي والمسجد الأقصى وكذلك مسجد دمشق

حيث إنها تتسم بالبساطة أو ارتجال الفراغات الواقعة بين الحوائط الأربعة التي شيدت بالحد الأدنى من التكلفة وفي غضون زمن قصير، ثم تجرى عليها توسعة مع مرور الزمن طبقاً لاحتياجات السكان. وهنا نجد أن المصادر العربية تتعلق في أن أعمال بناء المسجد الجامع في عصر عبد الرحمن الداخل استمرت لمدة عام (785 - 786م)، وهنا يقول جومث موريفوإن الأعمال استمرت ما لا يقل عن ست سنوات، وهذه أول مسألة للنقاش؛ فإذا ما كان ذلك المسجد قد انتهت أعمال التوسعة فيه خلال عام فلا يمكن أن يكون المصلى الذي ظل حتى أيامنا هذه، أي بهذه المتانة وجودة العمارة والضخامة؛ كما لا نفهم أيضاً أن تلك المنطقة التي أضافها المنصور في التوسعة - هي أقل بعض الشيء من إجمالي مساحة المسجد السابقة - قد شيدت على مدار عامين ونصف العام، كما أنه لم يتم التوصل حتى الآن إلى حل لمسألة الوقت الذي استغرقته أعمال التوسعة في عصر عبد الرحمن الثاني، وعلى ذلك فإن المصادر العربية بالنسبة لهذه الأخيرة تشير إلى 833 - 848م، ويرى ابن عذاري أن التوسعة قد انتهت مع التاريخ الثاني، ويرى لهمي بروقتسال أن التاريخ الأول شهد إضافة الرواق الأول والآخر في أطراف المصلى المكوّن من تسعة أروقة تنسب لعبد الرحمن الأول، واستمرت الأعمال على مدار خمسة عشر عاماً حتى انتهت بحائط القبلة أخذين في الحسين الأعمال التي أضافها محمد الأول الرجل الذي شهد عصره نهاية أعمال التوسعة المذكورة بين 852، 856م، أي أربعة أعوام أخرى، ويلاحظ أن التاريخ الذي ورد في النقش الكتابي عند بوابة سان استيان والخاص بهذا الأمير يشير إلى عام 855م؛ وكان تورس بالباس يرى أنه كان هناك انقطاع عن مواصلة أعمال التوسعة، أو أن الأعمال كانت تتم ببطء يصعب فهمه؛ وأياً كان الموقف فإننا، سيراً على المصادر العربية، سوف نقوم بمقارنة - على المخطط - بين انعام المستغرق في بناء المبنى على عصر عبد الرحمن الأول وبين تسعة عشر

عاماً على أعمال التوسعة التي جرت خلال القرن التاسع، وهي مقارنة لا يمكن تقبلها بأي حال؛ وبالنسبة لمسجد مدينة الزهراء، الذي بدأ العمل فيه عام (941م) واستمر حتى انتهى دفعة واحدة، يقول المقرئ إن الأعمال استمرت 48 يوماً شارك فيها ألف عامل كل يوم منهم ثلاثمائة بناء، رغم أن اللوحة التأسيسية التي عثر عليها في الصحن أثناء عمليات الحفائر التي قام بها أوكانيا خيمينث تشير على ما اعتقد إلى عام 945م، وهذا تاريخ يتوافق أكثر مع الواقع والمعقول. ومن هنا علينا أن نجد تبرير مقولة الثمانية وأربعين يوماً التي أوردتها المقرئ، معتمداً في هذا على النمط القديم الذي كانت عليه المساجد الأولى الجامعة في المشرق، أي إن المسجد كان عبارة عن فراغات محاطة بأربعة حوائط أقيمت بتكلفة زهيدة؛ وهنا يمكن القول إن مدينة الزهراء كانت تتطلب سرعة إقامة دار للعبادة أو شيء من هذا القبيل تنبيه لمطالب الجماهير التي سكنت المدينة الجديدة؛ وربما كان ما جرى هناك عبارة عن مكان للصلاة، هو حرم المسجد، وهذا ما يدل عليه القطع الرأسي الدقيق الذي نجده أثناء الحفائر وخاصة في مناطق التقاء الجدران الجانبية للحرم مع الجدران الخاصة بصحن الجامع؛ ومن جانبه يرى هيلكس إيرنانديث أن موضوع الساباط الكائن خلف مقصورة المسجد الملكي ربما أضيف في عصر الحكم الثاني، واعتمد في هذا الرأي على وجود ساباط مماثل أقامه ذلك الخليفة في التوسعة التي تمت في عهده (966م) بالمسجد الجامع بقرطبة؛ وعلى ذلك فإن موضوع الثمانية وأربعين يوماً ليس إلا نوعاً من التثويه أو الحل الذي كان يتم في بعض المدن الجديدة، وهذا لا يتفق مع ما عليه المسجد الملكي الذي أجريت فيه الحفائر والذي يتسم بالكثير من التفاصيل المعمارية والزخرفية التي تتطلب وقتاً أطول بكثير. يعني هذا أن مسجد مدينة الزهراء إذا لم يكن قد شيد دفعة واحدة، فقد كانت مراحل بنائه متعاقبة ومتوالية على مدار سنوات قليلة واضعين في الحسبان أنه كان جزءاً من مدينة شيدت

على عجل وفي زمن قصير للغاية. وقبل أن نصل إلى توسعة المسجد الجامع بقرطبة في عصر الحكم الثاني نجد أن المصادر العربية تشير إلى أن المسجد الجامع بإشبيلية، «ابن عبدس Adabbas»، تطلب بناؤه، في زمن عبد الرحمن الثاني، عاماً (829 - 830م) وربما كانت مساحة هذا المسجد لا تتجاوز 572م² وهو أقل بكثير مما عليه الحرم في عملية التوسعة القرطبية التي أجراها الأمير نفسه، وماذا تقول عن سكان إشبيلية، وهم في ازدياد، ودخولهم للصلاة في هذه المساحة الضيقة. وبالنسبة للتوسعة التي جرت للمسجد الجامع بقرطبة في عصر الحكم الثاني نجد المصادر العربية تحدثنا عن استمرار هذه الأعمال على مدى خمسة أعوام أو ستة (961 - 966م)؛ فيقول ابن عذاري أن المحراب قد بدأ العمل فيه عام 966م وانتهت أعمال التوسعة، ثم أضيفت المقصورة، عام 969م. ويقول تورس بالباس، إنه علينا أن نضيف إلى السنوات الخمس أو الست السابقة عشر آخر بالنسبة لباقي التفاصيل، وهذا رأي قابل للنقاش في رأينا. ونعود مرة أخرى إلى إشبيلية، وبالتحديد إلى المسجد الجامع الذي يرجع إلى عصر الموحدين والذي شيد دفعة واحدة، رغم وجود فترات انقطاع، لنجد أن البناء استغرق ثلاثة أعوام وأحد عشر شهراً، ابتداء من عام 1172م، وهذا دون أن نضع في الحسبان الزمن الذي استغرقه بناء الخبر الدا، حيث انتهى العمل هناك عام 1195م (ابن صاحب الصلاة)؛ يقول لنا كل ما استمرضناه أننا إن أداء المسلمين لصلاة الجمعة لا يمكن أن يكون موضوعاً حوله مؤجلة بالبحث عن فراغ في المدينة غير مكان المسجد الجامع. أي إنني من أنصار القول إن المسجد الجامع، أثناء عمليات التوسعة، لم يكن يتم إخلاؤه من المصلين وإلا لوجب البحث عن عدة مساجد جامعة تلقى فيها خطبة الجمعة، ولو كان ذلك بشكل مؤقت، وهنا نتساءل عن الدور الذي يقوم به صحن المسجد الذي هو على درجة القداسة نفسها التي عليها الجزء المسقوف.

نحن نعرف أن خطبة الجمعة في إشبيلية التي كانت تلقى في مسجد ابن عدبس Adabbas قد انتقلت إلى المسجد الكبير الجديد الموحدي (ق 12) (ابن أبي ذر) حيث يلاحظ أن ضخامة المساحة حلت بشكل نهائي مشكلة التكديس الذي كان يعاني منه المصلون في المسجد الأميري القديم. ثم نجد أمامنا حالة فاس، حيث نجد بلدين متوازيين ولكل واحدة منهما مسجدا وخطبة الجمعة، وهما مسجد القرويين ومسجد الأندلسيين؛ ومع مرور الزمن، جرى تطبيق هذا النموذج على مدن أخرى لها رقع عمرانية في الأطراف. وقد شهدت تونس، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، نمو مساحة المسجد الذي تلقى فيه الخطبة حتى وصلت إلى الأرياض، فخلال المائة عام الأولى كانت هناك ستة مساجد بالمدينة لأداء شعائر الجمعة (دولاطي)، وظلت هذه العادة ذات الأصول المشرقية (في بغداد والقاهرة كان من المسموح زيادة مساحة مساجدها الكبرى حتى تتسع لمزيد من المصلين) في فاس ابتداء من القرن الرابع عشر حيث نجد أربعة مساجد جامعة - طبقاً له. تراس - (مسجد القرويين ومسجد الأندلسيين في الأزمنة الخوالي والمسجد الموحدي الكائن في قصبة بوجلود في فاس والمسجد الجامع بفاس الجديدة)؛ أخذنا نعرف شيئاً في هذا المقام عما يحدث في الأندلس، بغض النظر عن مسجد المدينة الزاهرة، ومصدر ذلك رسائل حولية لم يتم فهمها فهماً كاملاً، ومن أمثلة ذلك - حسب ما رأينا في الصفحات السابقة - أن المسجد الجامع في قصبة ملقة الذي يرجع إلى القرنين الثامن والتاسع، حيث لا نعرف على وجه اليقين فيما إذا كانت صفته كمسجد رئيسي ترجع إلى ذلك التاريخ، أو بعد ذلك بسنوات طويلة، أي ابتداء من عصر الملك الزييري باديس أو حيوس؛ وعلى أي حال كانت هناك مساجد جامعة في مرحلة لاحقة في قصبة فاس ومرسية والحمراء. وبالنسبة لغرناطة يمكن أن نسلط الضوء على ربح البيازين الذي تشير إليه المصادر العربية على أنه كان له فضائله وكانت له

مساجده وعلى رأسها سان سلبادور الأمر الذي يمنح السكان نوعاً من الاستقلالية بالنسبة للمدينة، وعن هذا الرّبط يحدثنا الحميري بأنه كان حاضرة ضخمة - مستقلة لها مسجدها الجامع وإدارتها المستقلة، وفي ملقة، خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، كانت هناك أربعة مساجد جامعة تقام فيها صلوات الجمعة، ويفسر كاليرو سيكال ومارتث إينامورداو هذا الأمر، استناداً إلى اللغوي، على أن المسجد الذي تقام فيه صلاة الجمعة يمكن أن يكون أكثر من واحد ذلك أن تعداد السكان كان كبيراً ومن هم في الصفوف البعيدة عن الإمام لا يستطيعون أن يؤديوا صلاة الجماعة في ظروف موافقة، وتزداد هذه الأمثلة المتأخرة متوافقة مع زيادة عدد السكان واتساع رقعة المدن من خلال ظهور أحياء جديدة في الأرياض حيث تصبح شديدة البعد عن المسجد الجامع الذي يقع وسط المدينة. وعندما يجري الحديث حول هذه المسألة بالنسبة للمساجد الإسبانية الإسلامية في مدنتنا نجد أن الرقعة العمرانية واتساعها وتعداد السكان والأرياض جعلت المسجد الجامع أو المسجد الرسمي غير قادر على استيعاب هذه الأعداد أيام الجمعة، الأمر الذي يمكن أن نراه، إضافة إلى ما سبق، في مدن أندلسية أخرى مثل المدن الكائنة في النغر الأعلى، والانطباع الذي نخرج به هو أن صلاة الجمعة تجوز في أكثر من مكان بالمدينة الواحدة على سبيل الضرورة، منذ الأزمنة الأولى في الأندلس. ويذكر ابن الخطيب مسجداً جامعاً في الرّبط الشرقي للقة، وكذا حالات مشابهة في لوثينا وباثا Baza (سيكال ومارتث إينامورادو). هناك حالة شديدة الخصوصية وهي المتعلقة بالضبعة التونسية تستور Testour حيث أقيم معظمها على يد الموريسكيين الإسبان، وكان هنا مسجد جامع «رباط الأندلس» (1610م)، وبعد بناء مسجد جامع ثان (1615م) فقد الأول وظيفته كمسجد جامع رغم أنه ظلت تلقى فيه خطبة الجمعة، وهذا نمط قابل للتصدير إلى أي مدينة إسبانية إسلامية.

جارتيا - أرينال)؛ لكن أرباض المدن الكبرى، التي تعتبر واحدة من ضواحي المدينة، كان من المعتاد أن يكون لكل ضيعة مسجدها، فعلى سبيل المثال نجد في كورة قرطبة التي كانت تضم أكثر من خمسمئة ضيعة، وكان لكل واحد منها منبره حيث كان يستخدمه الفقهاء والعلماء في الوعظ والدرس، غير أن هؤلاء الفقهاء والعلماء في دائرة قرطبة كانوا يحضرون إلى العاصمة لأداء صلاة الجمعة مع الخلفاء (ف. كاستيو مونشو).

13- الميضاة:

كان من المعتاد منذ البدايات الأولى لإنشاء المساجد وجود مبنى ملحق بالمسجد مخصص للوضوء (مُطَرَم)، هو الميضاة، أو دار الوضوء، وكان هذا المبنى مجاوراً لحرم المسجد أو الصحن، وقد أقام الأمير هشام الأول ميضاة المسجد الجامع بقرطبة في دار العبادة المفترضة المكونة من أحد عشر رواقاً خلال القرن الثامن، ومع هذا ربما كانت خارج المبنى، إذا ما أخذنا في الحسبان أن هذا المصلى كان في الأساس مكوناً من تسعة أروقة (لامبرت)، وقد عثر في الحفائر الأخيرة (مارفيل رويث) على أطلال هذه الميضاة ملتصقة بأخر رواق في الجهة الشرقية؛ وبالنسبة لمسجد مدينة الزهراء الذي أسسه عبد الرحمن الثالث والمسجد الجامع بقرطبة على زمن المنصور بن أبي عامر نجد الميضاة في مكان بالجوار مع وجود شارع فاصل بينهما رغم القرب من حرم المسجد، طبقاً لاتجاهات المصلين وميولهم، حتى لا يكون هناك جلبة أو ضوضاء أو تسرب الروائح الكريهة إلى المسجد؛ وطبقاً لابن يشكوال وابن عذاري، كان هناك، عام 967م، أربع سرايات أو ميضآت إلى جوار المسجد الجامع بقرطبة، اثنتان صغيرتان للنساء، وأخريان، كبيرتان، للرجال وتقع في الجهتين الشرقية

ويرتبط بشكل جزئي في ما سبق عرضه، هو أننا نلاحظ أن المناطق الإقليمية التي تتركز في القرى (الضياع) Alquerias تضم صورة نمطية عبارة عن وجود مسجدَين بعيدَين عن بعضهما في منطقة واحدة، وتعطي الأولوية لأحدهما، ففي برخا Berja (ألمرية) كان هناك مسجد قديم - في رأي كارابار يونييو - في الضيعة المركزية، إضافة إلى مسجد آخر يسمى «hisana» أو مسجد الحصن، في «بيتابيخا» طبقاً لما ورد في الأحباس. وبالنسبة لشرق الأندلس نجد أن أهالي أكثر من أربع عشرة ضيعة اتفقوا فيما بينهم على بناء مسجد جامع في منطقة وسط غير أنه نظراً لعدم الأمان الذي كان سائداً خلال الثلث الأول من القرن الحادي عشر تم الانتقال إلى حصن وهناك أقاموا مسجداً آخر، وظل البعض منهم يؤدي الصلاة في المسجد الجديد بينما عاد آخرون إلى المسجد القديم، ومعنى هذا أن الحل الذي تم التوصل إليه كان مناسباً لعملية إحلال مسجد مكان آخر (ف. لاجارديو)؛ هناك حالة أخرى في غانديا Gandia (بلنسية): كانت هناك عادة يقوم بها سكان الضيعات الكائنة في هذه الدائرة فلما لم يكن هناك مساجد كافية لإقامة صلاة الجمعة، كانوا يأتون إلى المسجد الكبير الذي كان يوجد في حي المسلمين في غانديا (ك. بارتلو). وخارج مدينة مرسية كان هناك مسجد بني بزيرا (توريس فونتس) وكان مسجداً يؤمه الكثيرون من المورو من الأماكن القريبة. تنتقل إلى مولينا دي أرغن (وادي الحجارة) حيث كان مسجدها الكبير، في حي المسلمين، يمثل عن آخره بالمصلين الذين يأتون من حارات إسلامية أخرى في وادي خلون Jalon (مرتيدس

والقريبة، وكانت منفصلة عن المسجد طبقاً لتورس بالباس؛ وبالنسبة لذلك الربع من القرن العاشر كان من الضروري البحث عن الميضاة التي تم اكتشافها ودراستها (أبرتو خ. مونتيجو قرطبة) وهي تقع في موازاة التوسعة التي جرت في عصر المنصور مع وجود شارع فاصل، وبالتالي ينسبها الباحث إلى ذلك الوزير. وأقول من الضروري ذلك أن طريقة رص كتل بالحجارة هي «أدبية وشناوي» تشير إلى أنها ربما ترجع إلى عصر الحكم الثاني. كانت مهيضة المسجد الموحد الكبير في إشبيلية خارج المسجد لكنها قريبة منه عند المنطقة التي أقيمت فيها الخيراندا، أي أن مكانها الحالي هو ميدان لايرخن دي لوس ريس كما سنرى ذلك لاحقاً. وعلى شاكلة ما كان قائماً في المساجد الكائنة في إفريقية، حيث جرت دراسة أماكن الوضوء على يد ل. جولفن، نجد الأندلس تسجل حالات نقل مكان الميضاة من الخارج إلى الداخل وهذا ما نراه في مسجد عجب Ayab بقرطبة، ولهذا السبب جرى تعديل على أجزاء المصلى كافة؛ وكانت الميضاة والحمام المكان الذي يتم فيه التطهر والوضوء، ومن الشائع وجود ما يطلق عليه البركة أو الحوض وسط صحن الجامع للفرض نفسه، وكانت مياه الأمطار تصل إليه من الأسقف الخاصة بالمسجد، وكانت تغذي أيضاً الصهاريج، أو الأجياب الكائنة في الصحن وذات الأحجام الشديدة التنوع وأحياناً ما تستوعب المكان بالكامل (مسجد القصبة الحفصي بتونس). كان لهذه الصهاريج أفواه آبار مشيدة من الحجارة أو الرخام وأحياناً ما نرى أثر الحبل المستخدم في رفع المياه بالجرادل (هذا ما نشهده في مسجد سيدي القيروان والزيتونة بتونس)؛ وقد ظهرت في مسجد مدينة الزهراء أطلال حوض من الرخام مربع الشكل ويقع وسط الصحن وهو متصل بقناطر التزود بالمياه وصرفها؛ وكانت الميضاة عبارة عن مبنى رئيسي محاط بدورات مياه أو وحدات فردية يصل عددها إلى تسع عشرة وحدة حسبما نرى ذلك في قبة الباروديين

بمراكش، وكذا ميضاة المسجد المراكشي لعلي بن يوسف، ويلاحظ في هذه الحالة بساطة الأجزاء السفلية وجمال قبة المقربصات في الأريفة المركزية أو القبة، الأمر الذي دعا هـ. ترامس إلى التفكير في أنها كانت في بداية الأمر قبة أو مستقراً لرفات إحدى الشخصيات المهمة، ثم جرى استخدامها بعد ذلك كميضاة. ويحدثنا الرحالة منذر بأنه زار الميضاة المجاورة للمسجد الجامع الكائن في سهول غرناطة والتي كانت تستخدم حتى ذلك الحين، ويصفها بصغر الحجم ووجود بركة مياه من الرخام في الوسط وحولها كانت دورات المياه على الطريقة الأفريقية إضافة إلى بئر مياه للشرب. وكان يقوم على أمر المبنى أحد خدم المسجد ويتلقى راتباً من عائد الأوقاف، وكان يقوم بزيارة المكان مرة في اليوم لأغراض النظافة، وفي سبته التي يصفها الأنصاري، خلال القرن الخامس عشر، كانت هناك اثنتا عشرة ميضاة على شاكلة المسجد الغرناطي ودائماً ما نجد البركة في الوسط. ومن المفيد جداً الإطلاع على الميضاة التابعة لكل من مسجد سيدي أبو مدين وسيدي الحلوي Haalwi الذي يرجع إلى عصر بني مرين في تلمسان، فهي تحيط بصالة كبرى مربعة الشكل ولها قبة متعددة الأضلاع سواء كانت ذات منكب أو فوق مناطق انتقال مشطوفة.

14- مسجد الباب المردوم بطليطلة :

يعتبر مسجد الباب المردوم حالة خاصة تختلف عن الصالة التقليدية - صالة الأعمدة - ذات الأروقة العادية المتعامدة على حائط القبلة، فهو مربع المساحة ومكون من تسعة فراغات مربعة متساوية، أي أنه في واقع الأمر عبارة عن مبنى على شكل علامة +، على طريقة دور العبادة البيزنطية، وهي حالة متكررة في مساجد أخرى في المشرق الإسلامي - القاهرة خلال القرن العاشر -، إضافة إلى مسجد بوفتانة بتونس (ق 9)، وهي مساجد درسها كروزويل، وبالتالي فإن المسجد الطليطلي جرى

فإن مسجد الباب المردوم ذا مخطط على شكل علامة + وهو شكل بيزنطي وليس له نماذج مشابهة في الأندلس، لكن نجد ذلك في شمال أفريقيا، في مسجد بوفتانة بسوسة. ويرى بعض الباحثين أن المسجد الطليطلي كان مصلّى أو مكاناً للصلاة في الهواء الطلق، حيث إن له واجهتين، وربما ثلاث في البداية وربما كان ذلك بشكل ثابت منذ البداية، على شاكلة أغلب قباب المقابر أو الأضرحة؛ وأياً كان الموقف فإن الأمر الذي يلفت الانتباه في هذا المسجد الطليطلي هو العناية الشديدة بسقف الفراغات التسعة وهي عبارة عن وردة Capulin ذات طابع زخرفي يسير على إيقاع قباب التقاطع الكائنة أمام محراب المسجد الجامع بقرطبة في عصر الحكم الثاني، الأمر الذي يقودنا إلى اعتبارات ذات منحنى آخر وهي أنه إذا ما كان هذا النمط، المعقد على المستوى الزخرفي، سواء من الداخل أو الخارج، صورة من بعض المساجد القرطبية التي تأسست على يد أفراد من أسرة الأمير أو الخليفة الحاكم؛ إننا، في حقيقة الأمر، نعرف اليوم أن المسجد الجامع في تطيلة يكاد يكون صورة طبق الأصل من مسجد مدينة الزهراء. سواء في المخطط أو العناصر الزخرفية؛ هذا يبرهن على سرعة التحولات التي عليها المسجد وكذا دار العبادة عموماً خلال العصور الوسطى، أي أن لدينا مبنى نموذج تم تقليده في أماكن أخرى؛ وفي تطيلة نفسها نجد صورة طبق الأصل لمسجد الباب المردوم في مسجد تورنرياس، ثم بعد ذلك المعابد اليهودية المتماثلة وهي معبد سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة وشيقوية؛ ومن جانب آخر نرى في بعض المساجد التي شهدت بعد ذلك بوقت طويل، أنه كان من المعتاد تجديد المقصورة أو الفراغ الكائن أمام المحراب من خلال حاجز خاص مشيد، وكأننا نشهد مسجداً صغيراً داخل آخر أكبر منه (مسجد قلعة بني حماد بالجزائر ومسجد المنصورة في تلمسان حيث نجد فيها فراغات مكونة من ثلاثة أروقة وخمسة على

ربطه بتلك، ومع هذا من البدهي أن الفراغات التسعة المربعة توجد في منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط وتقوم بوظيفة الصهرج أو الجب منذ العصر المتأخر في حياة الإمبراطورية الرومانية والبيزنطية وفي الأجيال الإسلامية أيضاً، ربما كان هذا المسجد الطليطلي الذي تأسس عام 999م، بسيطاً يرجع إلى القرن السابق وجرى ترميمه أو تقويته خلال ذلك العام بالعناصر الزخرفية على شاكلة المسجد الجامع بقرطبة على عصر الحكم الثاني؛ كما أن تكريس هذا المسجد جعل بعض الباحثين المعدّين يشكّون فيما إذا كان قد أقيم مكان دار قوطية للعبادة، سانتا كروث، ورد ذكرها في الوثائق الكنسية القديمة، غير أن أعمال الجس الأثاري لم تؤكد شيئاً من ذلك؛ وربما كان هذا النمط من المساجد، الذي يتكرر في مسجد تورنرياس بالمدينة نفسها، قد اتخذ نموذجاً له مخطط الكنيسة القوطية أو المستعربة في المدينة على اعتبار أن مسجد سانتا كلارا بقرطبة، (ق 10)، قد تأسس مكان دار للعبادة مكونة من تسع فراغات، ويرجع إلى العصر المسيحي الأول أو العصر البيزنطي، وقد قام بالحفائر فيه، خلال السنوات الأخيرة، مارثيل رويش؛ وعلى أي حال يمكن أن نتخذ الأجيال كنموذج محتمل للمسجدين الطليطليين، وهذه نظرية معقولة وقابلة للتصديق إذا ما وضعنا في الحساب أن بعض صهاريج الحصون الإسبانية الإسلامية كانت تُصمم وكأنها دور عبادة حقيقية، وتتكون من ثلاثة أروقة أو أكثر (جب منزل بيليتاس في قصرش، وجب حصن خيمينا دي لافرونتييرا)، وبالنسبة لمسجد الباب المردوم في تطيلة فإن مخططة هو نفس مخطط صهرج صحن المسجد الجامع بقرطبة، وصهرج آخر في لاس موراياس، قمارش (ملقة)؛ وللمقارنة بنظام الأعمال الهيدروليكية التي يتم إنشاؤها في مسجد، نذكر الحانة الخاصة بالمسجد القرطبي وعقوده المترابطة، تقليداً لما عليه جسر المياه الرومانية في لوس ميلاجروس (ماردة). وسواء كانت نظرية الأجيال هذه مقبولة أم لا

بالداخل، كما أنهم كانوا يصلون في المناطق المجاورة مباشرة سواء كان الميدان أو الشارع، وهذا ما كان يحدث، طبقاً لابن عبدون، في مسجد ابن عديس Adabbas بإشبيلية؛ ومن هنا، وحتى لا تكون هناك مشاكل عند أداء الصلاة، تذكرنا كارمن بارتلو بالفقيه ابن كُبابَة (ق 9 - 10)، الذي كان يرى أنه من غير المنصوح به إقامة محلات للخلال أو أسواق للمواشي في المناطق المحيطة بالمسجد ذلك، أنها تدنس المسجد والمناطق المحيطة به. ويجب أن تترك الأماكن المحيطة خالية ليستخدمها المصلون في صلوات الجمعة حيث لا يسعهم الجزء المسقوف، وقد أشار المؤرخون العرب إلى العناية التي يحظى بها المسجد الكبير في غرناطة، طبقاً للحميري، (ق 14)، وفي بتشين وجيان (825م)، وكان هذا الأخير محامياً بمدرجات (ابن عذاري)، والشيء نفسه - طبقاً لما أسفرت عنه الحفائر التي جرت 1966م و 1993م - بالنسبة لمسجد مدينة الزهراء ومسجد تطيلة. في إشبيلية نجد ألفونسو العاشر يهدي مسجداً منعزلاً من كافة جوانبه، في ميدان سان فرانسيسكو (خوليو جونثاليث) وقد أدت التقاليد الموروثة الخاصة بإنشاء المساجد (حرم المسجد مع مجموعة من الملحقات المهمة مثل المئذنة والصحن والأروقة والقبلة والمحراب) إلى الحفاظ على نموذج المسقط الرأسي داخل المساجد القرطبية الأولى وخارجها، ففي الداخل نجد صالة الأعمدة وال عقود الحدودية المتجهة من الشمال إلى الجنوب، أما في الخارج فهناك الحوائط المساء وأبوابها المزخرفة ونوافذها ذات التشبيكات بين الأبراج الصغيرة أو الدعامات الفانصو المتوجة بالشُرَافَات المسننة الحادة ذات الطابع المشرقي، ولا شك أن هذه البنية المعمارية، التي تشبه داراً للعبادة محصنة أو حصناً دينياً، لها صلة بالماضي والمفاهيم غير الدينية، وهذه مشكلة لم تحل بعد. وبالنسبة للأندلس فإن هذه الواجهة ذات الأبراج، التي تشبه حصناً، ربما كانت مرتبطة بمفهوم الرباط إذا ما أخذنا في الحسبان المعنى المقابل الذي أصبح عليه هذا

التوالي مُستَجيعة). وفي قرطبة نجد هذه المنطقة، هي عصر الحكم الثاني، مكونة قباب التقاطع الثلاث، وهنا أتساءل فيما إذا كان مسجد الباب المردوم بطليطلة، الذي نراه على شكل قبة ذات تسعة قُبُيبَات صغيرة ومختلفة فيما بينها، صورة من مقصورة أحد المساجد المهمة في قرطبة، التي شيدت خلال الثلث الأخير من القرن العاشر، أو فيما إذا كان المبنى ذا القباب التسع، متقدماً في ذلك على مسجد الباب المردوم، هو الذي نجده في صدر المسجد الجامع الطليطلي الذي زال من الوجود؛ من المعقول أن نأخذ بمبدأ نقل الطابع الرسمي للدعاية للعمارة الأموية في قرطبة، ويجري تطبيقها على مسجد الباب المردوم ثم بعد ذلك مسجد تورنرياس (إيورت). أدت الجهود التي بذلها لك، إيورت إلى الإغلاء من شأن مسجد الباب المردوم، وهو الباحث الذي قام، لأول مرة، برسم المبنى بكافة تفاصيله، ورأى فيه شكل حرف T الذي نراه في المساجد الجامعة، واهتدى في هذا بالأنماط المختلفة للعقود والقباب التي نجدها في الطابقيين العلويين، وهذه نظرية، في رأيي، ذات أهمية كبيرة في إيضاح الصورة، لكنها لا تخلو من بعض الحساس، نظراً لأن القباب الصغيرة ذات الأوتار في عصر الخلافة تنسم بأنها فوضوية فيما يتعلق بموقعها.

15- الوظيفة الحربية لبعض المساجد

يبدو أن المساجد الجامعة البارزة في المدن كانت تقليداً لدور العبادة في العصر القديم، وربما كان العصر القوطي، فكانت تقام منعزلة في ميدان كبير وعلى مرتفع من الأرض مع وجود فراغات مهمة تحيط بالمبنى ويتم الدخول إليها من خلال سلالم ملحقة مثبتة بأرض الميدان أو الشارع. وعندما يضيق المكان بالمصلين في صلاة الجمعة كانوا يؤدون الفريضة في هذه الفراغات المحيطة التي تكاد تتساوى مع الأروقة

المصطلح في إفريقية، وأخذنا في الحسبان أن المسجد، في كثير من الأحيان، كان الملاذ الأخير للسكان في حال حصار المدينة أو تعرضها لحريق، وهناك أمثلة على ذلك نجدها في المسجد الجامع بمدينة الزهراء (1010م)، وطبقاً للجوليات المرتبطة بعصر الفتنة تعرض السكان لمطاردة السافلة في قرطبة، فلم يجدوا ملجأ إلا دار العبادة حيث أزهقت أرواح نساء وأطفال من جراء حريق شب بالمكان. وفي شمال أفريقيا نجد مسجد القرويين بفاس قام يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللامتاني بقتل سبعمئة فرد اعتصموا بدار العبادة؛ وهناك حالة أخرى تتعلق بمسجد لاربيوس الذي زال من الوجود عام 909م (ليزن) ومسجد المهدية، الذي أدى في بعض الحالات القصوى دوره كملاذ. ويذكر الهكري، في شمال أفريقيا، وجود مساجد كانت تقوم بدور الرباط، أو المقر المحصن المخصص للجنود المجاهدين في سبيل الإسلام، ويوجد أحدها في طنجة؛ وبالنظر إلى المسجد الجامع في سوسة ومسجد الزيتونة بتونس لازالت تضم حتى الآن حوائط ذات أبراج (أبراج مستديرة) مثل حوائط الأربطة أو الحصون المجاورة، وأولها يضم مراقب ومزاغل، ووجودها هنا له ما يبرره تماماً، وليس الشيء نفسه في منارة مسجد القيروان الجامع المرتفعة التي تضم هذه المراقب من النوع الدفاعي، وربما جاءت إضافة لاحقة للمبنى الأصلي الذي يرجع إلى القرن التاسع، وعلى أية حال لا يجب أن ننسى أن بعض المآذن كانت تضم مزاغل بدلاً من النواخذ، وخاصة عندما تشيد معزولة عن المعبد، وهذا ما نجده في مئذنة مسجد القباب الأربعة في إشبيلية والمسجد الجامع في القيروان، وهذا ما أشار إليه أ. ليزن، هناك ثلاث من واجهات هذه المئذنة تضم مزاغل؛ وحقيقة الأمر قليلة هي مباني المدينة المحصنة بهذا الشكل وهذه العمارة مثل المسجد الجامع الذي كان يضم، إضافة إلى متانة البناء، منارة تقوم بدور برج الطلائع في زمن الحرب، ونجد هذه الوظيفة مطبقة في مسجد الجزيرة الخضراء القديمة، وقد ظهرت

بعض الحالات التي هُدم فيها المسيحيون بلدات عربية لم يتبق فيها إلا المئذنة والمسجد، حيث كانت الأولى تستخدم كبرج للمراقبة شريطة الموافقة الرسمية. هناك أبراج حربية أخرى مثل برج الذهب الموخدي في إشبيلية، وبرج Espantaperros في قصبة بطليوس، وبعض الأبراج في قصبة وادي آش وهي أبراج مكونة من طابقتين وكأنها منارات. هذه الأبراج كلها تقوم بدور مزدوج. وبالنسبة للأبراج الكائنة في المسجد الجامع بقرطبة ومسجد مدينة الزهراء الذي كان مسجد تطيلة تقليداً أميناً له، وبعد ذلك بقرنين من الزمان في المسجد الموخدي بإشبيلية، يجب أن نأخذ في الحسبان أنه بالنسبة للمساجد الأولى، وخاصة المسجد الجامع بقرطبة، كانت أبعاد أبراجه شديدة القرب من أبراج القصبة الأميرية في ماردة، فهي أبراج صغيرة في هذه الحالة وتلك وليست لها قيمة حربية مهمة، إلا أنها تقوم بوظيفة دعم للحائط، ومع هذا فهي حوائط ذات أبراج شكلها حربي في المساجد المباسية نراها بشكل طفيف في مسجد القيروان، وهي من الأجر في كل هذه الحالات السابقة، وفي حالة المسجد التونسي نجد الأبراج الكائنة في طرف حائط القبلة مقواة؛ وفي هذا المقام لدينا مشكلة لم تحل بشكل كامل وهي أن القطاع الكائن خارج صحن المسجد الجامع بقرطبة لا توجد به الأبراج التي في حرم المسجد، بينما نجدها في المسجد الجامع في كل من مدينة الزهراء وتطيلة. وإذا ما جمعنا الوظائف المتعددة التي يقوم بها مسجد جامع في المدينة (فهو مركز إقامة الصلوات وإقامة صلاة العيد في مسجد قرطبة وإعلان اسم الأمير أو الخليفة الذي سيتولى عرش البلاد ومباركة الأعلام والرايات عند الخروج للجهاد وقراءة الوثائق والرسائل الرسمية للخليفة وتعليم أصول الدين وإدارة العدل والاتصالات المهمة وتعيين الولاة) وإذا وضعنا في الحسبان المباني الملحقة (مثل الميضة والحمام) لوجدنا أن المسجد هو الجسم المعماري الرئيسي والأكثر حيوية في المدينة وبه نجد صراع الأولويات لهذه المسائل أو

16- مساجد الحصون والقصور:

هناك مشكلة غير واضحة المعالم بشكل نهائي، ألا وهي وجود مسجد داخل الحصون أو المدن التي هي قلب إدارة الدولة أو القصباء التي تعتبر امتداداً حقيقياً للمدينة، ويرى تورس بالباس أن المساجد كانت توجد في كل القصباء لأسباب عديدة منها أن المقر السياسي للدولة لا يمكن أن يظل من مكان للعبادة، وهذا ما نحن متأكدون منه، كما رأينا، في ملقة (ق 8) (الحميري) (الذي زال من الوجود) وألمرية (لم يستقر الأمر بعد على مكانه) وشريش، ووادي آش (الخطيب) وإشبيلية (حيث زالت من الوجود القصباء الداخلية ومسجدها الصغير الذي يرجع إلى القرن الثاني عشر، هي المنطقة المجاورة للمسجد الموحد الكبير) وبابسة؛ وفي لاردة، المدينة التي أعاد محمد الأول بناءها، نجد أن المسجد الجامع كان في القصباء أو السدة، وكذا الأمر نفسه هي المدينة في جزيرة بالمنا دي ميورقة. وطبقاً للمسند لابن مرزوق (ماريا خيسوس بيخيرا) فإن الملك أبا الحسن أمر ببناء مسجد، أو مساجد، في قصباء تازا وقصباء تلمسان؛ ولنتأمل المساحة الضخمة التي كانت عليها القصباء، في منطقة الحزام بمدريد وطليلة، والمدينة في ميورقة، ووبذة، ومرسية ودانية وقصر الحمراء، حيث تتراوح المساحة بين 9 هكتارات واثني عشر هكتاراً؛ وتبلغ مساحة قصباء ألمرية وألكالا لاريال (جيان) 3.5 هكتارات. بينما تبلغ 1.50 هكتاراً لكل من ملقة وأنتكيرة وجيان. وداخل حصن الكرز، الذي يحمل بصمات قصباء، وغزاه المسيحيون عام 1213م، كان هناك مسجد، جرى تكريسه بعد ذلك باسم سان إيجناسيو طبقاً للموروث الشعبي؛ وبالنسبة لقلمة الحمراء بفرناطة الذي يعتبر مقرها كأنه قصباء، أو مدينة حكومية أو المقر الدائم للسلطين النصريين يوجد مسجد جامع هو سانتا ماريا، أسسه محمد الثالث؛ وما كان ينظر إليه دائماً على أنه قصباء في القطاع الغربي «للسبيكة»، لم يكن به مسجد، وربما كان ذلك لوجود

ذلك الخاص بالفتوة الاجتماعية، وسوف يقول البعض إن المدينة تظهر وكأنها الإطار أو القطاء للمسجد الجامع وتظل الحياة الحضرية مرتبطة به إن دار العبادة تعيش حالة من الاكتفاء الذاتي وخاصة عندما تكون في المركز الطبوغرافي مثل مدينة صفاقس وتونس وطليلة وتطيلة وبلنسية وأخريات غيرها؛ أما الأهمية التي تمنح لمساجد بعيدة عن المركز وقريبة من أسوار المدينة فلا زالت محل تساؤل حتى الآن، هذا إذا ما استبعدنا صلة هذه الأهمية بإقامتها مكان مبنى آخر يرجع إلى عصر ما قبل الإسلام؛ ومن الحالات التي تلفت الانتباه ما نجده في قرطبة وجيان ووادي آش وشريش، وربما يمكن تفسير ذلك سيراً على ما نراه في أفريقية: أي أن المسجد الجامع يقع إلى جوار الحصن أو الرباط أو بالقرب منه، هذا إذا ما كانت المدن في المناطق السهلية؛ هذا المفهوم المتعلق بدار العبادة محصنة إنما ينبع من موروث ذي أصول غير معروفة، ولمزيد من ذلك يمكن أن نلقي نظرة على «الكنايس الحصن» أو «الحصون الكنائس» خلال مراحل الفن السابق على العصر الروماني وأثناء العصر الروماني نفسه، وهنا نجد أنه نموذج حي سواء في المشرق أو المغرب دون تمييز بين الثقافات أو الحضارات، فإننا ننظر إلى المسجد الجامع بقرطبة كأنه مدينة مقدسة أو نموذج رمزي للمدينة نفسها المكرسة للدين، يبدو شيئاً فيه مبالغة، ومع هذا ألا يمكن اعتبار دار العبادة تتعدد وظائفها والمباني الملحقة بها أو المجاورة كأنها مدينة مصفوفة؟ أياً كان الموضع، فإن المسجد الجامع كان قلب شبكة الطرق سار في هذا على المصطلح العربي «القباء» أو المركز والجزء الرئيسي في المدينة، وهنا يجب أن نتساءل فيما إذا كانت أبواب المسجد الجامع بقرطبة بالشكل الذي نراها عليه اليوم، كانت مثل بوابات أسوار المدائن التي زالت من الوجود، مستخدمين في هذا الإطار، كمرجعية، المدن التي نراها في لوحات المخطوطات الخاصة بالمستعربين.

المكان؛ وهذه النمطية نراها كثيرة في إقليم الأندلس (بيا بيبغا دي برخا في ألمرية = مسجد «حصن» طبقاً لكارا بارثو نوبيو). وفي شرق الأندلس كذلك. وخلال السنوات الأخيرة تم انتشال مصلى بسيط له محرابه، في حصن عمرة Ambra التابع لبلدة بيجو Pego (أليكانتي) (لوحة مجمعة 1، 49 الفصل السادس)، ولا شك أن ذلك تكرر في حصون أخرى ذات شيء من الأهمية، وفي مدينة باسكوس الحصن (مليطلة)، التي تبلغ مساحتها ثمانية هكتارات، أسفرت الحفائر التي قام بها إتيكردو بنيتو عن العثور على مصلى شبيه بالمصلى الذي عثر عليه في منطقة أليكانتي، ولا شك أنه أمر تكرر في هذا المقر. تجدر أيضاً الإشارة إلى مسجد صغير في سيجستا (صقلية) إلى جوار حصن والمسجد لاحق على الاستيلاء العربي على الجزيرة (لوحة مجمعة 10، 86)؛ وفي محافظة مليطلة نجد أيضاً حصن ماكيدا وإلى جوار باب الدخول العربي، داخل الأسوار، هناك كنيسة «سانتا ماريا دي القصور»، فلها برج أجراس منعزل، ولا شك أنها كانت منارة مسجد قديم. ورد في الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ذكر حصن يطلق عليه «القصبات» في بلدة توروس (ملقة) احتله عبد الرحمن الثالث ودمره وأصبح ظللاً بعد عين وتحولت كنيسة إلى مسجد؛ وفي الحولية المذكورة أيضاً نجد إشارة إلى حصن ابن السالم وله مسجد وحمام كبير؛ وتشير «الحولية المجهولة المؤلف للناصر» إلى أن حصن بوريان كان يضم مسجداً؛ وتحديثاً الأحباس عن مسجد في حصن في لانجار Lanjar (ألمرية)، ومن جانبه نرى تورس بالباس يقول بوجود مسجد في الحصن الديني العربي في بويرتو دي سانتا ماريا، وقال إنه مكون من ثلاثة أروقة وله حائط قبلة ومحراب، ثم تحول إلى كنيسة - كنيسة سانتا ماريا - عندما استولى ألفونسو العاشر على المكان.

علينا أن ندرج في هذا السياق الحصون الأربعة الكائنة في الشمال الأفريقي والتي وردت الإشارة إليها،

منطقة أو مصلى في الجوار. وفي شمال أفريقيا نجد قصبة فاس (مسجد بوجلود) (هـ. ترأس) ومسجد عُدية بالرباط، وقصبات مراکش وتلمسان وتازا، والقصبة (ق 13) بتونس، والعسكر في سيجلماسة (المقدسي) وشالا بالرباط، مع وجود مصليين، وحصن سبتة القديم أو حصن أفراج، حيث هناك أكثر من مصلى، هناك حصن قصبة أو رباط في دشيرة (المغرب) وله مسجد ذو منارة. وورد في «الأثير» أن الخليفة الموحدي «المؤمن» أمر، بعد غزو مراکش (1146م)، ببناء مسجد كبير في القلعة. وفي الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ورد ذكر عدة مساجد داخل حصن المتمرد عمر بن حفصون، وخارجه (ق 10) وقد هجرت، ثم قام عبد الرحمن الثالث بإعادة تأهيلها عندما استولى على بويشتر في الوقت الذي كان يقوم فيه بهدم الكنائس القريبة من القصر الحفصوني. وبالنسبة للبرتغال، لا نعرف، على وجه اليقين، ما إذا كانت المساجد الجامعة هي كل من إيفورا ومرتولة داخل حصن كل بلدة أو هي المنطقة المجاورة، وربما كان المسجد الأول يقوم بدور الحصن أو الملجأ، ففيها مات الحاكم الإسلامي للمكان إثر الهجوم الذي قام به الملك أوردونيو الثاني؛ وتحول المسجد إلى كاتدرائية عام 1186م، هي شديدة القرب من تلك الرقعة التي تعتبر قصبة. ويشير ابن الخطيب إلى مسجد في قصر بلدة المنكب (غرناطة) التي كانت مسجداً جامعاً طبقاً لرواية الحميري حيث تأسس في مكان استراتيجي. كان هناك مسجد وحمام في قصبة قصر «ناصر كبير Nassirkibir» بمرسية (تورس فونتس). أيضاً كان هناك مسجد في حصون معينة في السهول صمت عنها المؤرخون العرب. وورد في البهان (الجزء الثاني) ذكر مسجد في حصن بالتيرا في الثغر الأعلى؛ وفي المنطقة نفسها يشير العذري إلى حصن «بيكرا سلي» Bikra Sily على أنه حصن به سكان وله مسجد جامع، ولا شك أنه كان مصلى صالحاً لأداء الصلوات باجتماع أهالي الضيعات أو القرى الموزعة في

وخاصة في كل من المنعثير وسوسة، وهي أماكن درسها كل من ج. مارسيه وأ. ليزن، حيث توجد مساجد صغيرة في الطابق الثاني ليؤدي فيها الجنود شعائرهم، وعندما يمثل المكان بالمصلين كانوا يخرجون إلى شُرَفَات الرباط (ليزن) (لوحة مجمعة 1، 2، 42)؛ ويطلق ابن الخطيب مسمًى رباط على حصن شالا بالرباط الذي يضم، كما رأينا، مسجدَين في مقعر، زاوية وأضرحة، وكان للمساجد مآذنها، وهذا أمر يشبه رباط شبح أبو مدين، القريب من تلمسان، وهو الذي وصفه ابن خلدون على أنه النضريح المسجد والزاوية. ومن بين الأربطة العديدة في طرابلس تبرز رباط مسجد Eschiab، وبين بوصرة وفاس هناك مسجد محصن يقوم بدور الرباط (البكري)؛ وبالقرب من صفافس، هناك محارس Mahares التي يوجد بها مسجد جامع داخل رباط قديم (ليزن)، وتتسم الأربطة المغربية بالوشائج بينها وبين توسع الموحدين، وهناك أمثلة بارزة على ذلك في تازا، وبورغريت Regret في ساليه (الرباط).

عندما تنتقل إلى القصور يبرز قصر الحمراء
بغرناطة كمثال فذ، فإذا ما استثنينا مسجده الجامع
الذي يقع خارج الرقعة العمرانية الملكية، نجد ثلاثة
مباني خاصة، أو مجرد غرف بسيطة لإقامة الصلاة،
وأبرزها ما هو موجود في المَشْوَور والبرطل حيث يعتبران
مباني حقيقية على شاكلة رباط يرجع إلى القرن
الرابع عشر، لكنها مساجد تخلو من منارات ولو أن بها
محاريب غاية في الروعة. هناك مصلًى صغير ملتصق
بصحن ماتشوكا وهو الوحيد الذي يضم منارة، وذلك
لقربه من المامة أكثر من قريه من المنطقة الملكية. رأينا
في الصفحات السابقة أنه يمكن تحديد مكان الساحة
الكبيرة بين باب النبيذ والمسجد الجامع مع وجود مصلًى
أو «شريعة»، غير معروف تاريخه بعد، لكن المؤرخين
العرب أشاروا إليه؛ وعودة إلى الجذور الأندلسية من
المستغرب إن لم يثر في مدينة الزهراء على أي مصلًى
خاص إلى جوار مجلس عبد الرحمن الثالث والحكم

الثاني، اللهم إلا المسجد الجامع الذي يقع خارج الأسوار المضروبة حول هذه المجالس أو القصور، وكان الخلفاء يأتون إلى هذا المسجد الملكي، من الشرفة العليا ذات الحديقة، والتابعة للصائون الكبير، حيث كانوا يسهرون في ممر أو ساباط طويل، يؤدي مباشرة إلى الدهليز الأمامي (الستارة) للقبلة، وهذا ممشى مصطنع للربط بين القصر والجامع، وكان على شاكلة ساباط آخر في المسجد الجامع بقرطبة أقامه الأمير عبد الله، ثم تكرر بعد ذلك في التوسعة التي تمت في عصر الحكم الثاني. واستناداً إلى بعض تيجان الأعمدة ذات النقوش الكتابية والتي ترجع إلى القرن العاشر، نجد أوكانيا خيمينث يشك في أن يكون في قصر قرطبة، على عصر الحكم الثاني، مسجداً خاصاً، الأمر الذي يبدو طبيعياً؛ ومن خلال «الحواليات الملكية لخليفة قرطبة الحكم الثاني» (جارتيا جومث) نعرف أن الخليفة، في رحلته من مدينة الزهراء إلى قرطبة كان يقضي الليل في مئنة الناعورة في قصره هناك، وهناك صلى الظهر. وهنا نتساءل: في أي مسجد لا يعرف إلا مصلى فقط في قصر الجعفرية بسرقسطة يرجع إلى القرن الحادي عشر، حيث كان يصلي فيه الحاكم المؤسس المقتدر، وما عدا ذلك نجد أن الحواليات الأندلسية تضع صوراً نمطية للقصور والمساجد (القصر وبه المسجد) غير حقيقية، دون أن يعرف على وجه اليقين فيما إذا كان المسجد - مثلاً هو الحال في قصر الحمراء - داخل القصر أو كان أحد ملحقاته، وفي هذا المقام نجد أن «الحوالية العامة»، بالنسبة لبلنسية، تشير إلى أنه أثناء حصار المدينة على يد «السيد» كان المسجد والقصبة متجاورين في ميدان واحد، ولا شك أنهما كانا وسط المدينة؛ الحالة نفسها نجدها في يابسة حيث عثر على أطلال مسجد تم انتشالها أثناء الحفائر التي جرت خلال السنوات الأخيرة، ويشير ابن أبي ذر أن السلطان أبا يوسف يعقوب، بني مرين، (توفي 1286م)، مؤسس الجزيرة الخضراء الجديدة، هو الذي شهد فيها قصراً ومسجداً مضروب حولهما سور، كما يذكر

17- المسجد والأسوار والحصن والمدينة :

اتضح لنا من خلال ما سبق فيها إذا كان المسجد عنصراً حاسماً يدل على وجود المدينة، كما بدا الطرح الخاص بالأسبقية التاريخية للمصلى على الأسوار؛ والأمر هنا هو العمل على معرفة الأسباب التي تجعل بلدة ما ترقى إلى مصاف المدينة وهذا المصطلح الأخير نجده منتشراً ومستخدماً من قبل المؤرخين العرب ومطبوعاً على بعض الرقع العمرانية سواء كانت ذات أسوار أم لا خلال الأزمنة الأولى للإسلام؛ هي صفاقس نجد مسجدها الرئيسي الذي يقع وسط المدينة المسورة، وقد شيد تزامناً مع بناء السور (ل. جولفن)؛ الأمر نفسه نجده في سيجلماسة، حيث كان العاهل نفسه هو الذي شيد الأسوار وشيد المسجد؛ وهي أمرية هناك شواهد، ولو ضئيلة، تشير إلى أن هذه المدينة لم تكن ذات أسوار حتى أقامها عبد الرحمن الثالث للدفاع عنها ضد هجمات الفاطميين (السيد عبد العزيز سالم)، وفي كتاب «الحلّ الموزية» Al-Mawsiyya نجد أن الموابطي يوسف بن تاشفين، عام 1126م، بدأ تسوير مدينة مراكش وبناء مسجد ومثدنة واستغرق الأمر ثمانية أشهر، ويرى بعض المؤرخين، استقداً إلى نصوص للرازي، أن المسجد الجامع في مرسية ربما أقام قبل تأسيس المدينة على يد عبد الرحمن الثاني، بثلاث سنوات (825م) (خ. بايبي) وربما كان أمراً مشابهاً لما حدث في أمرية؛ وهنا علينا أن نفهم حالة بلدة لورقة التي كانت ذات مسجد جامع له منبر خلال القرن التاسع إضافة إلى عدد مناسب من العلماء (اليعقوبي، مانويلا مرين، إيزابيل فيرو بيو) فهل كانت مدينة ولها مركز ديني، دون أسوار؟ وماذا نحن قائلون عن قرطبة حيث اتضح أن الأمير عبد الرحمن الداخل بنى مسجداً جامعاً ثم السور الجنوبي بفاصل زمني بينهما لا يقل عن عشر سنوات، أو عن مدينة فاس أثناء حكم الإدريسي يحيى بن محمد (849 - 863م) الرجل الذي شيد مسجد القرويين ومسجد

الأنصاري أن المنصورة بسبتة (حصن أفراج) كانت تضم مسجداً إلى جوار القصر الملكي وقد شيد كلا المبنين على يد أبي سعيد عام 1328م، وهذه أمثلة تمود بنا إلى زمن الأغالبة في إفريقية حيث أسس العاهل إبراهيم الثاني (875 - 902م) رقادة، وهو قصر وبه مسجد (النوهرى وابن عذاري)، غير أن المسجد أصبح من الصعب التعرف عليه؛ يشير ابن الخطيب أن إدريس أسس مدينة فاس عام 808م حيث بنى قصراً وإلى جواره مسجداً (رفائلا كاستريو)؛ وحوالي عام 977م نجد ابن حوقل يقول بأن باليرمو كانت تضم «الخاصة»، وهو مقر محصن كان مقر إقامة الأمير وبلاطه، مع وجود مسجد للاستخدام الخاص؛ أما بالنسبة للعمارة الدينية خلال ذلك القرن في المشرق، نجد مساجد في عين الغار (ق 8) مجاورة للمجالس الملكية، وأصبحت بعد ذلك «خربة المفجر» مع وجود قصر وصهريج ومصلى وكلها كانت عبارة عن وحدة معمارية، وكان للمصلى مدخل خاص إلى المنصورة؛ هناك مصلى آخر داخل قصر الحير الشرقي، وكذلك في مدينة بغداد التي زالت من الوجود طبقاً للحوثيات (كروزيل)؛ واعتماداً على المساجد التي شهدناها في الأربطة التونسية المذكورة، المنستير وسوسة، والواقعة في الطابق العلوي، نجد من المناسب أن نذكر هنا بعض المساجد الصغيرة التي كانت موجودة في الطابق الثاني في بعض المباني الحربية أو الحضرية، ففي طليطلة نجد مسجد تورنرياس وبرج المنارة في قصبة سوسة، وبرج حربي آخر، قلعة حرّة، في سبتة القرن الثاني عشر (طبقاً للأنصاري)؛ ومن العدل والمنطق أن نشير إلى غرابة عدم وجود مصليات خاصة في مدينة الزهراء وألكاثار دي إشبيلية ورقادة وأخريات غيرها من الأطلال الملكية الإسبانية الإسلامية وشمال أفريقيا، وبناء على ما سبق عرضه نجد من السهل تحديد وجود مصليات خاصة في الأماكن المشار إليها من أطلال المباني الملكية، وقد غابت هذه المصليات عنا لأنها ربما كانت في الطابق العلوي.

كان غالباً هو المكان الذي تقام فيه الكنيسة والتي غالباً ما تقام مكان مسجد كان قائماً، رغم أن الدراسات الأثرية لم تأت على ذلك بالبراهين القاطعة. وبالنسبة لموضوع المساجد ووجودها في الحصون أو في السهول، حيث تنتشر بعض الضياع، وجدنا أن المصادر العربية لا تسعفنا بالكثير وبالتالي ليس أمامنا إلا الرجوع إلى وثائق الأحياس التي جرى تحريرها فور الغزو المسيحي وخاصة في مملكة غرناطة (ق 15 - 16)؛ وقد شهدنا أنه أثناء الانتقال من الحكم العربي إلى المسيحي كانت منطقة غرناطة مليئة بمدد ضخم من المساجد والأربطة سواء كانت في المدن أو الريف، وقد انتقلت هذه كلها لتصبح كنائس في أغلب الأحوال، ثم بدأت مرحلة إدخال تعديلات عليها خلال القرن السادس عشر لتكون مهياة لممارسة الشعائر المسيحية. وخلال تلك الآونة كانت لفظة مسجد تعني بازليكا أو داراً للعبادة ذات أروقة وكان من الشائع أن نرى في وثائق الأحياس والتوزيع، عبارة تقول «ابن الكنيسة مثل المسجد» وذلك لتمييزها عن دور العبادة ذات التصميمات الجديدة ذات الرواق الواحد وفي الأصول الضاربة في شرق الأندلس (جومت مورينو كاكيرا).

كان لكل تجمع بشري مسجده أو حصنه أو أسواقه أو بazarاته وحماماته، وكانت هذه هي المباني الأولى أو الوحيدة التي يذكرها المؤرخون، سواء كان ذلك في الأندلس أو الشمال الأفريقي، وهذا يعني أنهم ينسبون مباشرة أمر الأسوار؛ وإذا ما تأملنا الطرح القائل بأن نشر الإسلام في منطقة ما كان يعتمد على المدينة والمسجد وجدنا أنه مجرد لعب بالكلمات في مجال الدراسات الأثرية، ومثل ذلك الإشارة إلى أن وجود المسجد جعل من المدينة مركزاً دينياً وعاصمة سياسية؛ وهنا نقول إنه من حيث المبدأ والبدية يمكن أن يكون جيداً لكنه في حاجة إلى مزيد من الشرح، ففي كثير من الأحيان نجد أن علم التاريخ عندنا ملئ بالكثير من المقولات المستقاة من الحوليات العربية، ومعنى هذا أننا

الأندلسيين؛ ويحدثنا جونتاليث باستو عن أن تأسيس تطوان بدأ ببناء مسجد فيها عام 1147م أثناء عصر الموحدين، ويشير ابن خلدون إلى أن قلعة بني حماد بالجزائر، التي تأسست عام 1007 - 1008م، شهدت أسوار المدينة الصغيرة بعد إقامة عدة مساجد؛ وعلينا أن نشير إلى أن الأرباض التي تضم مساجد لم تضرب حولها أسوار وهذا ما نجده في لوثينا؛ ومعنى هذا أنه منذ زمن قديم كانت الوظائف الدينية والحربية ذات أولوية على الدرجة نفسها في المدينة على أساس أن هذه تمثل مركزاً دينياً ومركزاً للسلطة؛ وفي هذا المقام نجد خواكين بابي يحدثنا عن نظريته في الموضوع مشيراً إلى أن «المدينة» تظهر للوجود إما لأنها تضم كنيسة كاتدرائية ومقرراً أسقفياً مقاماً منذ زمن قديم - استجة - أو حديث - بويشتر - مع الأسقف ابن مكسيم، وإما لأنها كان بها مسجد جامع مؤسس منذ زمن - قرطبة - أو حديث - مدينة الزهراء؛ غير أن هذا الباحث المستعرب يبدو أنه نسي أن الأسوار أو المقر المسيحي هي العنصر الأول والمهم في تحديد ماهية المدينة طبقاً لمؤرخين آخرين، وفي هذا المقام نجد أنه مع مرور الزمن ظهرت مدن كانت في الأصل عبارة عن حصن في تقاطع طرق، أو إلى جوار نهر أو جدول أو كانت رباطاً، ومعنى هذا أن هذه المباني المحصنة كانت تنافس المسجد في تحديد الرقعة العمرانية وصفتها كمدينة؛ نحن نشعر في هذا السياق المتعلق بالمنشآت الحربية، بأن الحصن سابق على المدينة، وأن الحكام العرب شيدوا الحصون قبل أن يضربوا أسواراً ذات أبراج حول المدينة، ومن الأمثلة الدالة على ذلك الحزام أوريض - البقر المسيحي - الذي كان من الأمور المعتادة في الأندلس طوال تاريخه، غير أنه لم يتضح بعد، في هذا المقام، ما إذا كان المكان الملائم للمسجد هو الحصن أو في الرقعة العمرانية المضافة؛ وهنا نجد أن الكلاشيه المعماري المسيحي، في هذا المقام، والمنبثق عن العربي، يشير إلى أن المكان الثاني «البقر»، الذي

لوجمعنا الآراء كافة لوجدنا أن المسجد يتراجع موقعه بالنسبة للمدينة في هذا السياق، وكانت له ثلاثة أروقة أو خمسة أو سبعة ولا يدري أحدكم يعني هذا بالنسبة للمدينة، فالمدن القديمة المهجورة، كانت تضم بقايا من السكان العرب الذين لجأوا إليها أو تمترسوا فيها وقد ارتحلوا مقابر ومساجد بدون قبلة قائمة على أنقاض دور عبادة قديمة وذلك انتظاراً لتأسس بلدة بعيدة عن البلدة القديمة لها أسوارها ومسجدها.

1-17، موضوع المسجد الجنائزي:

لم نثر اليوم على مساجد فيها مقابر ملكية في الأندلس وشمال أفريقيا، ترجع إلى القرن السادس عشر، وبالتالي تحديد المسجد أو الضريح المصحوب بمحراب، وهذا من الأمور المتعادية في مصر منذ فترة طويلة (كروزيل ومحمد حمزة الحداد)، ثم تكررت خلال القرن الثاني عشر وفي مراحل تاريخية لاحقة؛ فهناك أحياناً نجد الضريح وقد ألحق بالمسجد؛ ومن خلال المؤرخين العرب نعرف شيئاً عن بعض الأضرحة ذات المسجد والمئذنة، مثل سبتة، طبقاً للأنصاري: فخلال حكم بني العسلي جرى بناء المئذنة الكبرى للمسجد الكائن في جبانة زكوا Zaku، طبقاً لابن خلدون، وهي قرطبية، داخل القصر، كانت هناك دار الروضة ولها مصلى خاص، وربما كان ضريحاً ملكياً؛ وطبقاً لابن أبي ذر، نجد أن أبا يوسف يعقوب، بنو مرين، قد دفن في الجزيرة الخضراء الجديدة (1286م) في المسجد الجامع بالمدينة المجاور للقصر، لكننا لا ندري فيما إذا كان ضريحاً ملكياً ملحقاً بالمسجد، وهذا هو الاحتمال الأكبر، وقد كان المبنى هو المكان الذي تم فيه دفن عبد المالك بن عبد الحسن (1339م) (أ. تود موتشا، إي. نابازو، خ.ب. سالادو). الشيء نفسه نجده في قصبة وادي آش (الخطيب) وفي الجوار، في أليكانتي، نجد أثينيتا Atzeneta. أما بالنسبة للمقبرة فإن المصادر العربية تحدثنا عن مساجد

أو أربطة استخدمت كمساجد، وجرى فيها دفن بعض الشخصيات (سيكال، وإينامورادو). هناك احتمال في أن بعض الزوايا كانت تضم مكاناً مخصصاً للمدن، وربما كان نوعاً من الضريح ملحقاً بالمصلى ذي المحراب. وفي رباط تيط (المغرب) لازالت هناك حتى الآن زاوية مولاي عبد الله، ولها مئذنتها؛ وتحدثنا وثائق الأحياس في غرناطة عن أربطة تقوم بدور المساجد ولها صحن وكذلك مئذنة. والاحتمال كبير في أن بعض المدارس في الشمال الأفريقي - طبقاً لـ ج. مارسيه - مثل المدرسة القشيفية بتلمسان (ق 14)، كانت تضم ضريحاً رغم أنها في حقيقة الأمر عبارة عن صالة دفن ملحقة بالمصلى ذي المحراب مثل صالة المساجد الجنائزية. وفي آسيا - نجد أن مسجد قصبة شريش يتسم بالتمرد ذلك أن الجزء المستوف فيه، على الشاكلة التي وجدها عليها، هو عبارة عن صالة وحيدة مربعة لها محرابها وبدون أعمدة، وهذا ما يجعل البعض يرى أنه هو المسجد الضريح، رغم أن به الصحن والمئذنة؛ وسوف نرى لاحقاً أن هذه الحالة الخاصة سوف تقودنا إلى التأمل إزاء مبانى أضرحة في تلمسان رغم أنها تقتصر إلى محراب. لم تكن كوة المحراب موجودة أبداً في الأضرحة الملكية، اللهم إلا إذا كان الضريح أحد مكونات المدارس مثل الحالة المصرية؛ أما في الأندلس والمغرب فإن الأضرحة الملكية في روضة الحمراء، وقصبة مراكش ومكناس، (ق 16) وما تلا ذلك من الزمان، كانت ذات بنية مكونة مما لا يقل عن ثلاث صالات أو وحدات على الخط نفسه، وهي صحن وصالة الدفن أو الضريح بالعتى المتعارف عليه، وخاصة أداء الشعائر أو المسجد بمحرابه، وهذا ما لم يتم تحديده في الروضة بالحمراء، فأحياناً ما نجد وحدة ذات كوة أو مصلى صغيرة، وهي كوة ذات طبيعة رمزية ليس إلا؛ ويمكن أن يكون الضريح مبنى منفزلاً أو قبة، بدون محراب، حيث نجد فقط كوة صغيرة، وهذا ما نجده في ضريح أبي الحسن وزوجه في شالا بالرباط، غير أنه هذه المرة به زخارف رائعة سواء في الداخل أو الخارج.

18- مساحة المساجد الجامعة،

الذي يشبه ساحة ضخمة أكثر منه داراً للعبادة. كنت قد أشرت في صفحات سابقة إلى أنه رغم أن المسجد الجامع يتسم بتصميمه بالدقة المعمارية، والشكل المربع، فإنه يظل مبنى مفتوحاً ورغم هذا فلا يمنعه الضوء بقوة من الداخل رغم تعدد الأبواب في الأضلاع المختلفة وكذا فتحات الأبواب - بدون الدلف - في الحائط الفاصل بين الصحن والحرم، وكان عددها يبلغ عدد وحدات الأروقة التي عليها المسجد، الأمر الذي يعطي الانطباع بأن الشعائر الدينية تتم في منطقة أو مساحة حضرية وليس داراً للعبادة، وربما يقال إنه يشبه في هذا مصلى مفتوحاً، في الهواء الطلق. إن ضخامة المساحة التي عليها المسجد مدعاة، بمض الشيء، للتطهر إليه كأنه في مساحة مكشوفة حسب ما نرى اليوم من خلال أطلال مسجد حمان بالرباط أو مسجد قلعة بني حماد بالجزائر أو المسجد الجامع بقرطبة الذي بلغت مساحته، مع نهاية القرن العاشر، هكتارين، ولم يزد عنه، في المساحة، إلا مسجدين في سامراء، حيث المسجد الجامع فيها هو الأكثر، تكاد مساحته تبلغ أربعة هكتارات، أي أنه المساحة الأضخم على الإطلاق للصلاة في العالم العربي.

أمام هذه المساحات الضخمة يتضائل مفهوم الشكل المربع الذي عليه المنطقة القائمة أمام المحراب والمزينة بالقبّة؛ وقد يقال إن المسجد الحقيقي هو تلك المنطقة الخاصة بالمحراب داخل المقصورة، التي هي عبارة عن صالة صغيرة مخصصة للخلفاء وحاشيتهم والإمام، وكذا المنبر الذي يقع دائماً في الجهة اليمنى من الرواق الرئيسي أو القبّة؛ وقد تحدثت سلفاً عن الجدل الذي ثار حول القبّة أو المقصورة وإذا كانتا لأغراض دينية محضة أم أنهما مكان يتميز به الحكماء، وإذا ما أخذنا هذا البعد الأخير لأدركنا السبب في احتواء القصور عليها (أي القبّة)؛ وإذا ما تأملنا الأمر ملياً لوجدناها عبارة عن جزء من قصر وضع في المسجد، فالمحراب الذي يدل على اتجاه القبلة غير مرئي وتحولت هذه

هناك فارق كبير من حيث المساحة بين المسجد الجامع ومسجد الحي أو الربض، ويتسع الفرق بالمقارنة بمسجد الرباط؛ كما أن وجود هذه المساجد في مدينة إسلامية هو من منظور العصر الحديث دلالة على أن هذه المدن كانت تعيش حماساً دينياً كبيراً، إذا ما قورنت بالمدينة المسيحية التي تحتوي على عدد أقل من دور العبادة؛ ويكاد يبلغ حجم المساجد الجامعة، بما في ذلك الصحن، وبعد التوسعة، حجم نادي المدن الرومانية، ويبلغ مساحة ضخمة شبه مربعة، أما الارتفاع فلا يزيد عن تسعة أمتار أو أحد عشر متراً كحد أقصى؛ وإذا ما نظرنا للمسجد الجامع بقرطبة من حيث الضخامة، وعدد الدعائم والأعمدة، لوجدنا أن المبانى الضخمة الموروثة عن العصر القديم تبدو ضئيلة أمامه مثل الصهاريج، في العصور الذهبية، وصالات الأعمدة في القصور؛ إنها ضخامة غير عادية، بما في ذلك المسجد الجامع بقرطبة وعقوده المتراكة في الداخل، أمام الارتفاعات التي عليها الكاندرائيات في الديانة المسيحية، وأحياناً ما يضيق المسجد بالمصلين الذين يترأسون كالبنيان، لا يكاد يتجاوز نصيب الواحد منهم نصف متر مربع أثناء صلوات الجمعة، حيث يصب فيه سكان المدينة كافة؛ وبالنظر من عل، أو كمسقط رأسي لكل من المسجد الجامع بقرطبة ومسجد إشبيلية لوجدنا أن صحنونها ذات البوائك قابلة، وبسهولة، لمقارنتها بساحة رومانية (فهذه الأخيرة أحياناً ما تضم ثلاثة أروقة) أو مقارنتها بالميادين الإسبانية الكبرى ذات البوائك، فهي جميعها تتسم بالسعة والضخامة وتمج بالبشر أوقات الاحتفالات؛ وعند مقارنة المسجد بالكنايس أو الكاندرائيات، التي تقتصر الأنشطة فيها على ما هو ديني فقط، من حيث الطقوس والشعائر، لوجدنا أن الأولى هي عبارة عن ملتقى حضري تجري فيه الأنشطة الدينية والقضائية والتعليمية، وهذه مجموعة من الوظائف المتعددة التي من أجلها جرى تصميم هذا القالب المعماري الخاص

قبة اليهود، وذلك لتكون بمثابة التوجيه للمصلين الذين يؤدون صلواتهم في الصحن، وهذا المسلك التخطيطي هو واحد من القرارات التي تتسم بالديمقراطية إزاء السكان في العالم الإسلامي، وبالتالي يكتسب الصحن كذلك أهمية كبيرة. وكانت وظيفة هذه القبة الثانية، أو القريبة من الصحن، هي الإشارة المتكررة، إلى اتجاه القبلة ومكان الإمام، وهذا ما نجده في مسجد القيروان ومسجد الزيتونة بتونس. وبالنسبة للتوسعة التي جرت على المسجد الجامع بقرطبة في عهد الحكم الثاني نجد أن القبة الكائنة أمام المحراب تقف وحيدة بين هذه التوسعة وتلك التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني، وبالتحديد في المكان الذي كان فيه المحراب في عصر ذلك الأمير، وربما كانت تعويضاً عن إزالته؛ وعلى أي حال فإن ما نراه في هذا المسجد ليس إلا صورة طبق الأصل لما عليه المساجد التونسية الجامعة السابقة الذكر، ودائماً ما نرى حلقة وصل بين القباب والتوسعات.

وعودة إلى المسجد الجامع بقرطبة وما جرى فيه من توسعات ثلاث، نقول إن أماننا القراغات التالية: الحرم: وهو المسجد خلال القرن الثامن والمكون من أحد عشر رواقاً (3334م²)، والتوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول خلال القرن التاسع (2129م²)؛ ثم التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني خلال القرن العاشر (3555م²)، إضافة إلى التوسعة، نحو الشرق، التي جرت في عصر المنصور أبن أبي عامر (4560م²)، أي أن إجمالي المساحة هو 13578م²، وبلغت مساحة الصحن مع نهاية القرن العاشر 7320م²، وبالتالي فإن إجمالي مساحة المسجد يبلغ 22423م²، أي ما يزيد على هكتارين ولا يزيد عليه، من حيث المساحة، في المغرب الإسلامي إلا مسجد حسان بالرباط الذي شيد في عصر الموحدين (25000م²) وهذا الأخير يزيد كثيراً عن المسجد الجامع في إشبيلية، خلال القرن الثاني عشر (16500م²). واستناداً إلى تقديرات تورس بالباس، الباحث الذي

المنطقة المهمة - المحراب - من مجرد كونها فراغاً بسيطاً لتصبح في مسجد قرطبة غرفة حقيقية مكسوة بالرخام الأبيض، ومحارة مقلوبة ضخمة من الجص هي السقف الخاص به، وفي هذا المقام نجد أن المسجد الجامع في قرطبة، منذ أن أسسه عبد الرحمن الداخل، يحمل بذور الرغبة في التوسعة التي نراها اليوم متوجة بهذه القبة شبه المستقلة وذات العمارة المغايرة؛ وبالفعل فإنه قد جرى، على مدى القرنين التاسع والعاشر، توسعة هذا المسجد الأندلسي توسعة أفقية ورأسية، من خلال تراكم الأقواس على طريقة قناطر المياه الرومانية، ولم يشذ المحراب عن ذلك؛ وطبقاً لوجهة النظر المتخذة فإننا نرى نوعاً من العدوان على هذا المكان المقدس بإضافة القبة؛ وعندما نقول إن القصر الحصن الجعفري فيه مصلّى ملكي فإن قبته هي مسجد بكامله يدخله العاهل للمعبادة وليس مجرد محراب؛ ومن البدهي أن القبة في الجعفري مقصورة لا لأغراض دينية وإنما لفرض دينوي يتعلق بالحاكم؛ وعلى أي حال فإن هذه القبة لم تكن بالضرورة ذات طابع ديني محض - هذا في الأندلس على الأقل - ذلك أننا نراها في ذلك القصر المفترض بمدينة الزهراء الذي يتوازى مع ما عليه القصور العباسية في سامراء، كما نراها في زمن لاحق في القصور التصيرية في الحمراء وفي قصر بدر الأول المدجّن في الكاثار دي إشبيلية. وقد تحدثت عن القبة الملكية في الجزء الثالث من هذه السلسلة، «العمارة في الأندلس: عمارة القصور»؛ نجد إذن أن المصلّين في قرطبة القرن العاشر كانوا يتوجهون إلى القبلة أو المقصورة ذات القباب الثلاث دون أن يردوا؛ ولما كان المسجد يتسم بالضخامة وكثرة عدد الأعمدة، فإنه ابتداء من القرن التاسع، بالقيروان، والقرن العاشر، بقرطبة، حدث ازدواج للقبة الكائنة أمام المحراب، كإشارة إلى مكانه، وكذا إقامة قبة في بداية الرواق الرئيسي، أي بالقرب من الصحن، أو هي المنطقة المسماة عند المؤرخين «باب

دمشق 15700م² ومسجد عمرو بن العاص بالفسطاط 12180م²، ومسجد القيروان 9405م² والمسجد الأقصى بالقدس الذي من المفترض أن تصل أروقته إلى خمسة عشر رواقاً، 7700م²، ومسجد القرويين بفاس 6000م²، ومسجد القصبية بمراكش 6400م²، ومسجد المهديّة 4125م²، والكتيبة بمراكش 5000م²، بالنسبة للمبنى الأول الذي زال من الوجود، و 5300 بالنسبة للمبنى القائم، ومسجد الحاكم بالقاهرة 4058م²، والزيتونة بتونس 3850م²، ومسجد تلمسان 3250م²، ومسجد الأندلسيين بفاس 3150م²، ومسجد تازا، مع آخر توسعة له، 3053م²، ومسجد سوسة 3009م²، والجامع الأزهر بالقاهرة 2040م²، ومسجد الجزائر 2000م²، ومسجد شمال 2025م²، والمسجد الكائن في قلعة بني حماد 3000م²، ومسجد صفاقس 1970م²، ومسجد «بوجلود» بقصبية فاس 912م²، وأرجو أن يكون القارئ رحيماً بممي نلاحظ أي خطأ في هذه الأرقام، وبالنسبة لرؤية أفضل للمساجد الأفريقية التي ترجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر، أقدم اللوحة المجمعة رقم 42 حيث نلاحظ مساحاتها الواحد داخل الآخر، من الأكبر إلى الأصغر: 1: مرجعي، المسجد الجامع بقرطبة مع نهاية القرن العاشر، 2: مسجد حسان بالرباط، 3: مرجعي، المسجد الجامع بإشبيلية، 4: مسجد الكتبية بمراكش، 1-4: مسجد القرويين، 5: مسجد قصبية بمراكش، 6: مسجد تلمسان، 7: مسجد الجزائر، 8: مسجد شمال، 9: مسجد تازا.

أما بالنسبة للمساجد الإسبانية الإسلامية، التي سوف تجرى دراسة كل واحد على حدة، في الفصل الأخير من هذا الكتاب، وخاصة تلك التي ظلت قائمة حتى اليوم، نقول من الصعب تقييمهما بشكل مؤكد، نظراً لفقد الصحن التابع إليه ولم يتبق إلا الجزء المسقوف هي كثير من الحالات، حيث وصل الأمر إلى القول إن ما بقي من بعضها ليس إلا المئذنة، حيث نجد اثنتين منها هي غرناطة، وآخر في رندة، ومسجد أرشيث، ومسجد

يقول بأن كل واحد من المصلين في سجوده يحتاج إلى نصف م²، وقدره ليّزن بمساحة أكبر، فإن عدد المصلين خلال يوم الجمعة في المسجد الجامع بقرطبة بعد توسعته خلال القرن الثامن الميلادي يبلغ 6668 مصليناً في الجزء الأصلي، وأربعة آلاف خلال القرن التاسع، ثم 7110 مصلين في عصر الحكم الثاني، و 9120 مصليناً بعد التوسعة التي أدخلها المنصور بن أبي عامر أي أن إجمالي عدد المصلين في المسجد 25898، أما بالنسبة لصحن المسجد، فمع نهاية القرن العاشر فعدد المصلين فيه هو 14000، أي أن إجمالي المصلين في المسجد هو 39000 مصل خلال القرن العاشر، في مدينة تقدر مساحتها بحوالي 80 هكتاراً إضافة إلى الأرباض؛ ومن المؤكد أن توسعة مساجد الأحياء كانت أقل مقارنة بالمسجد الجامع، ومع هذا يمكن القول إن قرطبة كانت تضم مساجد أحياء كانت تتسم بكبر حجمها، وفي هذا المقام، نجد ابن حوقل يسلط الضوء على باليرمو وأن بها حي يسمى حي المسجد الجامع، حيث كان المسجد يتسع لسبعة آلاف مصل؛ واستناداً إلى هذه التقديرات، التي أدخل عليها أ. ليزن بعض التمهيلات بالنسبة لشمال إفريقيا، وخاصة في إفريقية، يمكن أن نعرف الطاقة الاستيعابية التي عليها باقي المساجد الإسبانية الإسلامية التي ظلت حتى يومنا هذا، وبالنسبة لمسجد القرويين بفاس تقدر مساحته بحوالي خمسة - إلى ستة آلاف م² أي أن عدد المصلين فيه يوم الجمعة يبلغ عشرون ألفاً، وهذه مبالغة في الحالة التي بين أيدينا.

عندما نتأمل مساحات المساجد في المشرق والمغرب بالترتيب التي قدمها لنا كل من كروزويل (المساجد المشرقية)، و أ. ليزن (المساجد التونسية) و إيورت (المساجد الموحدية الأفريقية) نجد أنها تأتي على هذا التدرج: يأتي مسجد سامراء على رأسها حيث تبلغ مساحته 38300م²، ثم مسجد أبو دلف 24000م²، ومسجد المدينة المنورة، طبقاً لكل من سوفاجيه وأ. ليزن، 31300م²، وابن طولون بالقاهرة 16240م²، ومسجد

مكون من خمسة أروقة ($25 \times 40 = 1000 \text{ م}^2$). قدمنا في السطور السابقة مساحات المساجد التي يمكن تحديدها، ويلاحظ أن مسجدني طليطلة وطينيانا، والقباب الأربع، وأرشدونة، ومسجد كورتيوخودي تثنينو في لورقة، ومصليات الحمراء، بما في ذلك المسجد الجامع، لا يعرف لها صحن معد.

هناك مساجد ظلت حتى اليوم، لكن ما بقي منها هو الصحن ولو أنه غير مكتمل، وهي: المسجد الجامع ابن عبدس Adabbas في سان سلبادور بإشبيلية ($12.80 \times 22 = 281.60 \text{ م}^2$)، ومسجد تطيلة الجامع (ق) 10 (36 (9) $33 \times 588 = 19344 \text{ م}^2$)، ومسجد سان سلبادور في حي البيازين بفرناطة ($18 \times 32 = 576 \text{ م}^2$)، وصحن شجر البرتقال بالمسجد الموحدي في إشبيلية 5650 م^2 . وهناك مساجد لم يتبق منها إلا الجزء المسقوف فقط وهي: مسجد القصبة في بطليوس ($20 \times 20 = 400 \text{ م}^2$) (طبقاً للدراسات الأثرية الأولية (تورس بالباس)، المسجد الجامع في ألمرية ($35 \times 45 = 1575 \text{ م}^2$)، طبقاً لتقديرات تورس بالباس، والمسجد الجامع بفرناطة ($36 \times 45 = 1620 \text{ م}^2$) (بناء على تقديرات كل من جومث مورينو وتورس بالباس).

قمنا بجمع كافة المساجد الصغرى في لوحة مجمعة واحدة بمقياس واحد وهذه اللوحة هي 43: صفر: مسجد الباب المردوم ومسجد تورنرياس بطليطلة، 1: مسجد طينيانا، 2: مسجد أرشدونة، 3: مسجد قصبة شريش، 4: مسجد قصبة بطليوس، 5: سانتا ماريا في رندة، 5 - 2: ليلة، 6: القباب الأربع، 6 - 1: سان سلبادور بطليطلة، 7: صحن سان سلبادور، في إشبيلية، 8: صحن سان سلبادور، في غرناطة، 9: المسجد الجامع في غرناطة، 10: مقاسان للمسجد الجامع، سان خوان في ألمرية، 11: مسجد مدينة الزهراء، 11 - 1: مسجد مدينة تطيلة، بدون الجزء المسقوف، 11 - 2: مسجد لاسيو، بسرقةسة، 12: لاما جالينا، في جيان، 13: مسجد

سالاريس، في محافظة ملقة، وهذه نماذج قابلة لمقارنتها اليوم بمنارة رباط تطط المغربي أو بمسجد المنصورة في تلمسان وهو مسجد لم ينته العمل فيه، وربما لم يكن البرج الخاص ببلدة بلقي إلا مئذنة فقط، وهو الذي عني بدراسته مؤخراً ب. كريزر. وعودة إلى المساجد التي ظلت، بشكل نسبي، مكتملة المساحة نقول ما يلي: مسجد ليلة: خمسة أروقة، إضافة إلى رواق آخر أضيف في فترة غير محددة ($20 \times 25 = 500 \text{ م}^2$)، مسجد المنستير (ويلبة) خمسة أروقة ($16 \times 15 = 240 \text{ م}^2$)، مسجد طينيانا (ألمرية) ثلاثة أروقة ($9 \times 9 = 81 \text{ م}^2$)، مسجد القباب الأربع (إشبيلية) ثلاثة أروقة (130 م^2)، مسجد أرشدونة (ملقة) خمسة أروقة، وبدون صحن 110 م^2 ، مسجد سلبادور بطليطلة، ثلاثة أروقة بدون صحن يمكن التعرف عليه، ($17 \times 20 = 340 \text{ م}^2$)، والمسجد المفترض سان سباستيان بطليطلة، ثلاثة أروقة ($13 \times 12 = 156 \text{ م}^2$)؛ وفي طليطلة مسجد الباب المردوم ومسجد تورنرياس ($8 \times 8 = 64 \text{ م}^2$)، ومسجد ضيعة كورتيوخودي تثنينو (لورقة) حيث نجد ثلاثة أروقة بدون صحن ($9 \times 12 = 108 \text{ م}^2$)، ومسجد المسيرة (بياخو بوسا) ($12 \times 12 = 144 \text{ م}^2$)، ومسجد سانتا كلارا بقرطبة، حيث نجد ثلاثة أروقة ($33.20 \times 17 = 564 \text{ م}^2$)، ومسجد الحي المسمى فونتانا بقرطبة ثلاثة أروقة ($21.92 \times 49.48 = 1084 \text{ م}^2$)، والمسجد الجامع بمدينة الزهراء خمسة أروقة ($53.70 \times 34 = 1815 \text{ م}^2$)، ومسجد قصبة شريش، يفترض وجود ثلاثة أروقة ($7.25 \times 14.60 = 106 \text{ م}^2$)، ومسجد الحمراء الجامع، حيث نجد ثلاثة أروقة ($13.30 \times 16 = 212 \text{ م}^2$)، ومسجد بويرتو سانتا ماريا (169 م^2)، وربما كان بدون صحن، ومصلى الهرطل بالحمراء، ذو الرواق الواحد ($3 \times 4.16 = 12.48 \text{ م}^2$) ومصلى مشور بالحمراء، ذو رواق واحد ($4 \times 7 = 28 \text{ م}^2$)، ومسجد صحن ماشوكا بالحمراء، مكون من رواق واحد $9 \times 9 = 81 \text{ م}^2$)، والمسجد المفترض لاما جالينا، في جيان

أموي في حي فونتانار بقرطبة، 14: مسجد المنستير (ويلبة)، 15: المسجد الجامع بالحمراء، 16: مسجد ضيعة تلتينو (لورقة)، 17: مسجد خارج بلدة باسكوس (طليلة)، 18: مصلى مشور بالحمراء، 19: مصلى البرطل بالحمراء، 20: مسجد صحن ماتشوكا بالحمراء، 21 (A,B,C,D) إعادة تصور المساجد الكبرى في حي البيّازين بفرناتة وملقة وألمرية وطليلة.

19- ارتفاعات المنارات ومقاساتها،

تضم اللوحة المجمة 44 أنماط الهند A الخاص بالفنارات في العالم القديم، وهي فنارات تتكون من طابق واحد أو اثنين أو أكثر. A: من فسيفساء روماني، B: 1: نظرية تتعلق بما كان عليه فنار الإسكندرية؛ C: فنار زالاكا (أفريقيا) طبقاً ل. ليزن، X: من فسيفساء طليطية. 2، 2 - 1: نظرية تتعلق ببرج هرقل في قادش، 3: تصور فنارة لاكورونا، وفي الجزء العلوي، إلى اليمين، هناك المآذن المفترضة الخاصة بكل من مسجد مدينة الزهراء (المثدنتان الأوليان) وقرطبة (التاليتين)، وإلى اليمين هناك نمط منار المسجد الجامع بالقيروان بالشكل الذي عليه الآن؛ أما القطاع الأسفل فتجد هياكل المآذن الأكثر أهمية في شمال أفريقيا وإسبانيا كل حسب ارتفاعاتها ومقياس الرسم الخاص بها. 4: المسجد الجامع بالقيروان، 5: منارة بها مسجد صغير في الداخل، برج الخائف بقصبة سوسة، 6: مثدنة من عصر الخلافة في المسجد الجامع بقرطبة، 7: مثدنة المسجد الجامع بمدينة الزهراء، 8: مسجد القرويين بفاس، 9: الخيراندا، 10: مسجد الكتبية بمراكش، 11: مثدنة غير مكتملة بمسجد حسان بالرباط، 12: هيكل مثدنة برج الذهب في إشبيلية، 13: مثدنة غير مكتملة في قلعة بني حماد بالجزائر، 14: من مسجد تازا.

أنماط القطاع B: من 1 إلى 9 كلها مآذن إسبانية إسلامية، 1: مثدنة خلافة من عصر الخلافة بقرطبة،

نواصل تأمل اللوحة المجمة نفسها؛ هناك أربطة غرناطية ذات مساحات مربعة أو مستطيلة متنوعة المساحة R-I: أربطة غرناطية: 8X18، 5X10، 6.50X3.50، 4.5X4، 3X60. هناك رباط سان سباستيان بفرناتة (7)، 10X10. R-II: أربطة في ألمرية: 25X25، 25X30، 20X30، 7X7، 3X8، 3X6 رباط بلدة ليبي (14)، 7X7 ورباط نويسترا سنيورا دي ثنتا في ويلبة (15)؛ رباط بلينوس (سبنة) (16)، 4.5X4.5؛ X: رباط جواردمار (أليكانتي). هناك قبة في واجهة سانتا ماريا دي غرناطة برندة، 10X11. R-III: أضرحة بدون محاريب معروفة، 1: ضريح أبي الحسن (شالا) الرباط (1) 6X6؛ هناك آخر في شالا (2) 3X3. وقبة الروضة في الحمراء (3) 11X10، وقبة سيدي إبراهيم، وقبة سيدي أبي مدين (الجزائر) مصعوبة بصحن (4)، 0X5.50X14.70. مصلى سان لورنتو بطليلة؛ واستناداً إلى تلك التقديرات نجد أن الرباط الأكبر تصل مساحته 750م²، أما الأصغر فهو 6م²، وبعضها مزود بصحن وغرفة ملحقة وربما مثدنة أيضاً.

هناك مساجد غير مكتملة ورد ذكرها في المصادر العربية وجرى تصور مخططاتها استناداً إلى معلومات هامشية أو آثارية غير تامة مثل: المسجد الجامع بملقة مع آخر التوسعات الموحديّة أو النّصريّة، فقد كان يضم، طبقاً لرواية الرّخالة المتذر، أربعة عشر ومائة عمود، وكذلك صحن وتبلغ مساحته 40X50=2000م²؛ ومسجد سان

إبروستس (طليطلة). وفي أرغن هناك أبراج مدجّنة: 14: أتيكا، 15: سانتو دومنجو دي دروكة، 17: سانتا ماريا دي تاوستي، 19: البرج الجديد (زال من الوجود) في سرقسطة، وبالنسبة لإشبيلية نجد 18: البرج المدجّن سان ماركوس (4.75م عند القاعدة $22.50 \times$ م ارتفاعاً). المقياس العام لكل من B، C.

20- لوحة خاصة بدور العبادة المسيحية أو المدجّنة (خلال العصور الوسطى مقارنة بمسطحات المساجد الإسبانية الإسلامية التي درسناها)

لوحة مجمعة 45: 1: مسجد الباب المردوم مع وجود مذبح مدجّن أضيف إليه، 2: حجم المصلّى المفترض لمسجد سان لورنتو دي طليطلة، 3: مسجد تورنرياس بطليطلة في وصفه الحالي، 4: مصلّى كريستو دي لايجيا بطليطلة، 5: المسجد المفترض سان سباستيان بطليطلة، 6: سان لوكاس بطليطلة، 7: مسجد السليبادور في وضعه الحالي، 8: سان نيكولاس بمدريد في وضعه الحالي، 9: كنيسة أوكانيا (طليطلة)، 10: كنيسة إبروستس (طليطلة)، 11: كنيسة سان أندرس بطليطلة في وضعها الحالي، 12: المعبد اليهودي سانتا ماريا لابلانكا بطليطلة في وضعه الحالي، 13: سان رومان بطليطلة، 14: سانتياجو دل آرأبال في وضعه الحالي، 15: الهيكل الكنسي لسانتا أورسولا بطليطلة، 16: سانتا ماريا دي لافوينتي في وادي الحجارة، 17: سانتا كلارا بوادي الحجارة، 18: كنيسة بريهوجا (وادي الحجارة)، 18 - 1: سانتياجو طلبيرة (طليطلة)، 19: سان كليمنتي دي طلبيرة، 20: كنيسة أتيكا (سرقسطة)، 21: لاماجدالينا بسرقسطة، 22: مورانا دي خيلوكا، 23: تورألبا دي ريبوتا، 24: كنيسة سان هيلكس دي شاطبة، 25: سانتا ماريا دي أليكانتي في وضعها الحالي، 26: سانتا ماريا دي إشبيلية.

2: مدينة الزهراء، 3: سان خوسيه بقرناطة، 4: سانتياجو دي قرطبة، 5: سانتا كلارا دي قرطبة، 6: سان خوان دي لوس ريس دي غرناطة، 8: سان سباستيان دي رندة، 9: منارة أرشت (ملقة)، 9 - 1: الخيرالدا (13.60م الضلع عبر القاعدة و64م ارتفاعاً (9)، وعندما نستبعد هذه المئذنة الأخيرة فإن المآذن الباقية يمكن أن تدخل في إطار منارة الكتبية بمراكش، رقم 16: وبالنسبة للمنازل الإفريقية الأولى: 10: المسجد الجامع بالقيروان، 11: مسجد صفاقس، 12: منارة برج خالف بقصبة سوسة، 13: مسجد القرويين بفاس، 14: قلعة بني حمّاد بالجزائر، 15: منارة رباط تيط، 15 - 1: منارة قصبة مَدِيّة بالرباط، 16: الكتبية بمراكش، 17: قصبة تونس. وإذا ما استثنينا منارة جامع الكتبية فإنها يمكن أن تدخل في إطار المئذنة رقم 9 - 1 في الخيرالدا، 17 - 1 مسجد تلمسان، 18: مسجد أغادير، 20: المنصورة في تلمسان، 21: أبو الحسن، 22: أولاد الإمام، 23: سيدي إبراهيم، 24: سيدي أبو مدين، 25: سيدي حولي. من 26 إلى 38 كلها مآذن من فاس طبقاً للمصلو Maslow: 27: تازا، 29: من القرويين، وكلها تدخل في إطار مئذنة مسجد الحسن بالرباط: 16 - 2: (طول الضلع 16×12 م) وارتفاع جريت عملية إعادته يبلغ 80م (9).

يضم القطاع C المآذن الحقيقية أو الافتراضية الطليطلية، تليها الأبراج المدجّنة، التي أحياناً ما تحتفظ بنموذج المآذن لكنها تستغني عن الطابق الثاني الخاص بالمؤذن حيث يحل محله مكان وضع الجرس والمنارات المقترضة: 2: السليبادور بطليطلة، 3: سان أندرس بطليطلة، 4: سان بارتولومية بطليطلة، 5: سانتياجو الأربال بطليطلة، يلي ذلك كنائس مدجّنة: 1: في مدريد نجد برج سان نيكولاس، 6: سان رومان دي طليطلة، 7: سانتو تومية بطليطلة، 8: سانتا ليوكاديا بطليطلة، 9: سان ميغل الألتو بطليطلة، 10: كونثبشون فرانثيسكا بطليطلة، 11: سان بدرو دي طليطلة، 12: سانتا ماريا دي إسكاس (طليطلة)، 13: كنيسة

21- مسطحات المدن الإسبانية الإسلامية ذات المساجد الحقيقية أو المساجد المفترضة:

التقدير بعدد الهكتارات: إشبيلية 187، طليطلة: 106، وميورقة عند نهاية القرن الثاني عشر، أكثر من 100، مدينة قرطبة 88، وريش الشرقية 108، مدينة الزهراء 110، قرمونة 88، وألمرية عند نهاية القرن العاشر 79، غرناطة مع نهاية القرن الحادي عشر 75، بطليوس 75، ولاردة 70، وشريش 60، ودروقة 50، وشاطبة 58، وسرقسطة 50، مع نهاية القرن الرابع عشر، 150، استجة 56، وجيان 48، ويلنسية 44، ومع نهاية القرن الرابع عشر 141، ومرسية 42، ووادي آش 42، وويذة 39، وملقة 37، وساجونتو 36، وقلمة أيوب 40، وحتى النهر 83، ومديد مع نهاية القرن الثالث عشر 35، والجزيرة الجديدة 26، وشاطبة 25، وتطيلة 23، ووشة 22، وأتينثا 18، ورندة 17، وطلبييرة 17، وطرثونة 12، والبراثين 12، والحمراء 12، والجزيرة القديمة 12، وأندوجار 10.50، وأوريولة 10 - 11، وطريف 10، والثيرة 9، ولبله 7 - 8، والمنطقة غير المأهولة في باسكوس (طليطلة) 8 - 9، وسلفش 7، وقصرش 7.70، وألكالا لاريال 6.25 مصحوبة بالريش، والش 6، وقورية 6.25، وأنتكيرة 6 - 7، ويفورة Evora 6، وبابينا 6، وبابا 6، ومولينا دي أرغن 5، وجبل طارق 5.60، وأرشيدونة 5 6، والمنكب 4، وقلمة تراب القديمة 4، (حي المسلمين السفلي 3.60)، وقادش من 3 - 4، وطرثونة 3.37، ومدينة شذونة 3، وثوريتا 2، وأوليت 2، وأجريدا، في المباني العربية الأولى 1.75، وماربله 1.70 (الجزء المسوّ).

ومن المستحيل القيام بتقدير مساحة الأحياء ذات المساجد في المدن الإسبانية الإسلامية ذلك أنه زالت الغالبية العظمى من المساجد لكن يمكن الاستفادة في هذا المقام من المصليات أو الكنائس التي ترجع إلى العصور الوسطى، وهي التي حلت محل المساجد، كما

يمكن الاستناد إلى مسطحات بعض الكاتدرائيات التي خلفت المساجد، مثل حالة طليطلة وتطيلة، حيث نجد أن مساحتها ابتداء من الأروقة الثلاثة أو الخمسة وحتى المذبح تصل إلى ما كانت عليه المساجد، أي 2421م²، 1240م² على التوالي، وبالتالي تسع 4842 مصلياً، 2491 فرداً، ويمكننا أن نواصل في طريق هذه التقديرات ونعني نسير على أرض صلبة في حالات بعض المدن مثل طليطلة وإشبيلية وقرمونة، أي المدن التي تضم داخل أسوارها 24، 21، 6 كنيسة من الكنائس التي تم تكريسها قديماً؛ ونستند في التقديرات الأولية على أربعة هكتارات لكل دار عبادة بمعدل واحدة لكل مائتي أسرة = من 700 إلى 800 فرد، وطبقاً للتقديرات التالية: طليطلة 100 هكتار موزعة على 24 مصلياً = حوالي 20 ألف نسمة مع وجود فراغات كبيرة في الجزء الخاص ببيوابة قرطبة. وقرمونة في منتصف القرن الخامس عشر، 18 هكتاراً موزعة على ست كنائس = حوالي 5 آلاف نسمة، مع وجود فراغات في الجزء القريب من قصر مازشينا؛ ويمكن التوصل إلى التوازن بين عدد الهكتارات وتعداد السكان من خلال مصليات تتبعها أربعة هكتارات اعتماداً على التصوير المساحي للمدينة؛ وعموماً فإن هذه التقديرات نسير في خط مواز لتلك التي قام بها تورس بالباس لمدينة تعداد سكانها يبلغ مائة ألف وبها 6666 منزلاً ومساحتها 286 هكتاراً، ابتداء من 58 منزلاً ومعدل كثافة سكانية يبلغ 343 نسمة لكل هكتار، ومن جهة أخرى فإننا إذا ما اتخذنا كنيسة سانتياجو دل أزبال كنموذج أو مثال فإن مساحة دار العبادة تصل إلى 700م² وقادرة على استيعاب 1400 نسمة، ومن الواضح أن المدن الإسبانية الإسلامية أحياناً ما يتضاعف فيها عدد المساجد إذا ما وضعنا في الحسبان الأريطة غير أنها أقل مساحة من الكنائس في هذه الحالة الأخيرة؛ ويمكن أن تقوم بعملية تقديرات جديدة ابتداء من مسطحات المساجد الكبرى في المدن المذكورة مثل طليطلة وإشبيلية



حيث يمكن لنا أن نقرب بشكل معقول لدراسة المسألة؛ والانطباع العام السائد هو أن المساجد كانت تميل إلى الظلمة في الداخل، وهذه صفة تتوافق مع رواية ابن صاحب الصلاة بالنسبة للمسجد الأشبيلي عدبس، والشئ نفسه قابل للتطبيق على كل من مسجد المنستير في ويلة ومسجد Cuatohabitas في إشبيلية ومسجد فينيانا، حيث يكاد ينعدم وصول ضوء النهار إلى منطقة المحراب، كما أنها بدون نوافذ تطل على الخارج أو حتى مزاغل أو ما أشبه، مقارنة بمذابح الكنائس المسيحية، وهنا يصبح من الضروري وجود الإضاءة الصناعية بالنسبة للمعرب، حيث هناك حاجة إلى قتل معلق في السقف طبقاً لرواية عدد من المؤرخين، وفي محاولة منا لإيضاح موضوع الإضاءة الطبيعية للمساجد أثناء النهار فما علينا إلا مقارنة ذلك بالبازليكا المسيحية، وهنا يمكننا الاعتماد على العمارة الخاصة بالمساجد الإسبانية الإسلامية خلال القرن، لكننا في حاجة إلى براهين تتمثل في ميانى ترجع إلى القرون الثلاثة السابقة ذلك أن الصالونات الملكية بمدينة الزهراء لم يصلنا بأسقفها وارتفاعاتها؛ وهنا ليس أمامنا إلا أن نعتد على المساجد الكائنة في الشمال الأفريقي والتي ظلت قائمة إضافة إلى المسجد الحامع بقرطبة.

كان الصحن هو المصدر الأساسي للضوء، ثم يلي ذلك في هذه الوظيفة الأبواب التي توجد على الأنضلاع، وهي أبواب تبادلية أي باب نعم وباب لا (أي حائط)، ومن الأمثلة الدالة على ذلك مسجد قرطبة الجامع، فبالنسبة لما كان عليه المسجد أثناء عصر عبد الرحمن الداخل نجد الأبواب على هذه الوتيرة: لا / نعم / لا، ومع التوسعة التي حدثت خلال عصر عبد الرحمن الثاني أضيفت الوتيرة التالية لا / نعم، وفي عصر الحكم الثاني نجد التالية نعم / نعم / نعم إضافة إلى / نعم / الخاصة بالسباط، وأثناء التوسعة التي جرت في عصر المنصور يلاحظ أن الإضاءة سارت على هذه الوتيرة لا / نعم / نعم / نعم / نعم / نعم / نعم.

حيث نصل في الأولى إلى 3721م² تسع 7442 نسمة، والإشبيلية 15000م² تسع 30 ألف نسمة، وكانت مدينة قرطبة مع نهاية القرن العاشر، تصل إلى 80 هكتاراً ومسجدها الجامع 22423م² يسع 24400 مصل. أما بالنسبة للمدن الصغرى مثل تطيلة فمساحتها 23 هكتاراً ومساحة مسجدها الجامع 1280م² وتسع 2560 مصل. أما سرغطة، 50 هكتاراً، ومسجد جامع 500م² خمسة آلاف مصل، وطبقاً لأستيفو سيدانو جوادكس فإن مساحة 42 هكتاراً بها سبعة آلاف نسمة مع نهاية القرن الخامس عشر. وبالنسبة لعملية عدم الاتساق بين تعداد السكان ومساحات المساجد الجامعة يجب تعديلها أخذين في الحسبان وجود مساجد جامعة أخرى كما سبقت الإشارة إلى ذلك، وهذا يعني تنوع في دور العبادة الأمر الذي يؤدي إلى تقدير أكبر لعدد السكان، غير أن مدينة الزهراء تعتبر حالة فريدة حيث كان مسجدها الجامع يشع لأكثر من 1750 نسمة بالنسبة لمساحة حضرية هي 113 هكتاراً، حيث من المفترض أن تعداد السكان كان يتراوح بين 30 ألفاً إلى 40 ألف نسمة، استناداً إلى مدن ذات مساحات مشابهة، وهنا نتساءل هل كانت هذه المدينة الملكية نصف مأهولة بالسكان؟ وهل تمكن عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني من استكمالها بالسكان خلال الأربعين عاماً التي عاشتها؟ وحقيقة الأمر فإن المرء يفكر في مدينة مناسبة لمساحة المسجد الجامع بها. وهنا علينا القول إن الكميات السابقة الذكر خاضعة للعجز والزيادة ويُنظر إليها بشكل نسبي فقط.

22- إضاءة المساجد :

يعتبر هذا من الموضوعات التي تصعب معالجتها في العمارة الإسبانية الإسلامية، وهنا نتساءل عن المساجد التي تتوافر عليها اليوم حتى نعرف الإضاءة التي عليها؟ الاستثناء هنا هو المسجد الجامع بقرطبة،

نستبعد، في هذا المقام، أن تكون بنية المسجد هي الحل الأكثر ملاءمة كحامل لقنوت الأسقف الجمالونية، كما أنها تقوم بدور المعادل لقوة الدفع من عقد لآخر، وإذا ما كانت العقود المتراكبة تستهدف الوصول إلى سقف أكثر ارتفاعاً فإن من المستغرب ألا يتم اتخاذ الحل الذي جرى اتباعه لهذا الغرض في مسجد دمشق (الصحن) حيث نجد العقود الثلاثية متوجة بالعقود المضاعفة ذات المقياس الأقل والكائنة في النوافذ، حيث تساعد على الوصول إلى ارتفاع يصل إلى ما يزيد على 15م، أو الرجوع إلى الأثر نفسه من خلال الرواق الداخلي الذي تركز فوق بوائكه عقود متشابكة كأنها عقود نوافذ، ولا شك أن هذا كان تقليداً لما كان موجوداً في كنائس بيزنطية (طبقاً لصورة مأخوذة قبل الحريق الذي شب عام 1893م). وهذا الحل الأخير هو في حقيقة الأمر الذي نجده في مسجد الباب المردوم بطليطلة، ثم تنتقل إلى العمارة المدجّنة بهذه المدينة حيث نجد الأروقة المركزية لكل من كنيسة سان رومان وسانتا إيولاليا مع ما يطلق عليه بالنوافذ المجمعمة فوق العقود السفلى؛ والتي يمكن أن تكون قد انبثقت عن كنائس قرطبية، مثل سان خوان دي باتيو (بالنسيا)، أو الكنائس المستعربة في الهضبة العليا. وتبرز في هذه النماذج الأخيرة كنيسة سان ميغل دي إسكالا ذات النوافذ الكبيرة، وهو النمط الذي نراه في الكنائس الطليطلية المدجّنة مثل سان أندرس، وسان لوكاس، وسان خوان إيبانخليستا دي أوكانيا، مع ملاحظة أن النوافذ في هذه الكنائس توجد في الرواق الرئيسي وهي في مكان أعلى من النوافذ الجانبية، ولهذا فهي نوافذ مصممة لأغراض الإضاءة، وإذا ما كان علينا أن نقيم الإضاءة في المساجد بمضاهاتها بكنيسة سان سباستيان بطليطلة، وليس لها مصدر ضوء إلا من خلال الباب الكبير، كما هو الحال في معبد سانتا ماريا لابلانكا بالمدينة نفسها، أي بدون نوافذ في الرواق الرئيسي، فإن تلك المساجد سوف تكون قليلة الإضاءة للغاية، وهذا هو النمط الذي

نعم/ لا؛ ومع نهاية التوسّعات خلال القرن العاشر نجد عدد الأبواب في القطاع المسقوف للمسجد يصل إلى ثلاثة عشر باباً مقابل تسعة عشر مفتوحة بشكل دائم، مثلما هو الحال في الأضرحة أو القباب، وخاصة في الحائط الشمالي الذي يفصله عن الصحن. ويلاحظ أن الأبواب الخارجية كانت مرتبطة أكثر بالخروج والدخول عن مجرد كونها فتحات للإضاءة الداخلية للمسجد، ويلاحظ أن ما طرأ من توسّعات على المسجد الجامع في قرطبة، جرى أمر مشابه له في المساجد الكائنة في الشمال الأفريقي، ماعدا المسجد الجامع بالقيروان حيث نجد الجزء المسقوف يضم باباً واحداً فقط في كل ضلع وبالتالي فإن المسجد كان أكثر إضاءة مقارنة بمسجد سوسة والزيتونة بتونس وصفاقس، حيث يضم هذا المسجد الأخير ستة عشر باباً بما فيها الصحن، وهي أبواب كثيرة مثلما عليه الحال في المسجد الجامع بقرطبة. هناك حالة فريدة ألا وهي الخاصة بمسجد المهديّة، فطبقاً لمخطط ليزن المتعلق بذلك القرن نجد أن المسجد كان مغلقاً بالكامل ماعدا المدخل الكائن في الحائط الشمالي للصحن، وهذه حالة استثنائية يضاف إليها بعض الجوانب الأخرى مثل ضخامة الصحن حيث يضم أربع بوائك أصلية، ولا نجد المثدنة، الأمر الذي يجعل هذا المبنى شديد الخصوصية في العمارة الإسلامية. علينا هنا أن نسلط بعض الضوء بالنسبة للمساجد الصغيرة الخاصة وهي: بابان في مسجد بوفتانة بسوسة، وثلاثة أبواب في مسجد «البوابات الثلاث» بالقيروان، وثلاثة أبواب - بمعدل باب في كل ضلع - في مسجد الباب المردوم بطليطلة رغم صغره وهو واحد من المساجد الأكثر إضاءة في المغرب الإسلامي، كما أن قبابه التسع تضم في الجزء الأسفل منها نوافذ داخلية تساعد على نفاذ الضوء.

ويلاحظ أن تراكب الأقواس في المسجد الجامع بقرطبة أدى إلى ارتفاع السقف، الأمر الذي يمكن أن يشكل حلاً لمشكلة الضوء الطبيعي في الداخل، ولا

تمثل نماذج بنوافذها المفتوحة على الرواق الرئيسي والتي ربما ترجع في جذورها إلى مساجد محلية.

ولا تمثل الفقرات السابقة إلا مقترحاً، أكثر من كونه طرحاً افتراضياً، يجب أن نأخذه في الحسبان حسيماً نراه في اللوحة المجمع 46، ففي الجزء الأسفل هناك مصدر أساسي للمعلومات وهو الشكل A، لكنيسة قوطية هي سان خوان دي يانيوس؛ B: المسجد الأموي بدمشق، 2: قطاع في الرواق الرئيسي لكنيسة سان ميغل دي إسكالادا المستعربة. أما في الإطار المدجّن نجد: 1: كنيسة سان أندرس، نوافذ منصة، منحوتة (أعيدت من خلال عملية ترميم حديثة)، 2: كنيسة سان لوكاس، ونوافذ ذات فتحات، 3: سان رومان، نوافذ منصة tribuna، 4 - 5: سانتا إيولاليا، نوافذ منصة، 6 - 7: سان خوان دي أوكانيا، نوافذ ذات فتحات، 8: كنيسة بريهويجا الأسقفية، نوافذ ذات فتحات، 9-10: سان خوان دي أوكانيا، نوافذ ذات فتحات، 11: الشكل الخارجي لنوافذ في معبد الترانستو بطليطلة حيث نجد داخلها البنية نفسها التي عليها النوافذ المطموسة في معبد سانتا ماريا لابلانكا، لكنها هذه المرة في تبادل مع نوافذ ذات فتحات. وفي إشبيلية (9) نجد كنيسة سانتا ماريا (جوث راموس) التي تعتبر أولى النوافذ الباطقية betica خلال القرن الثالث عشر. ومن الكنيسة المستعربة سان سليادور في بلد ديوس نجد النوافذ ذات التشبيكات (13) و (12) في الكنيسة القوطية سان خوان دي لوس يانيوس.

يبدو إذن أن المماريين الذين أشرفوا على بناء المساجد لم يشغلوا أنفسهم بإضاءةها بالنوافذ، على نهج البازيليكا القديمة، وبذلك فإن وجود النوافذ كمصدر للضوء لم ينفذ، وهنا نبرز ما عليه المسجد الجامع قرطبة، حيث نجد أن واجهاته تضم على جانبي المدخل

عليه المساجد المرابطية والموحدية على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق؛ وعلى أي حال فإن الإضاءة التي تم التوصل إليها من خلال تراكم العقود يمكن أن تدفعنا إلى التفكير فيما إذا كان ذلك الابتكار القديم، الذي تم نقله إلى المسجد، قائماً في معبد لأداء الطقوس المسيحية، وهذا ما تنوه به، من خلال المباني، بعض الكنائس الجزائرية القديمة وهي كنيسة تبسة Tébessa وكنيسة Tiggzir. وعندما يجري وضع هذه العقود المتراكبة في النوافذ فمن البديهي أنها لا توجد في أروقة المسجد الجامع قرطبة ذلك أن النوافذ القائمة في الحوائط الجانبية والتي توجد في الواجهات لم يكن ينفذ من خلالها إلا القليل من الضوء بسبب التشبيكات الحجرية المصاحبة لها؛ ومع اختفاء ارتفاع المسجد الملكي بمدينة الزهراء، وهو ارتفاع لا يعتمد كثيراً عما كان عليه ارتفاع السقف في «الصالون الكبير» بالمدينة نفسها، والذي قام فيليكس إيرنانديث بترميمه (عقود بسيطة في أروقة على النمط البازيليكي)، فإننا لن نعرف أبداً ما إذا كان الرواق الرئيسي لمساجد قرطبة الصغرى كانت تصله الإضاءة عبر النوافذ سيراً على النهج البيزنطي. ويختلف عن هذا السياق ما نراه في الأروقة الثلاثة المركزية من نوافذ مطموسة في معبد سانتا ماريا لابلانكا، وتكرر الشيء نفسه في المعبد اليهودي في شيقوية؛ وبالنسبة للمساجد الإشبيلية نجد أمامنا المسجد الوحيد الباقي، مسجد Cuatrohabitats، حيث تقتصر الأروقة اليوم للنوافذ؛ والشيء نفسه نجده في مسجد فينيانا في ألمرية. ولما لم تتوافر لدينا كنائس قرطبية أقدم، وإشبيلية لاحقة على الغزو، فإن مصدر المعلومات الوحيد حول هذا الموضوع يجب أن يتركز على مدينة طليطلة التي حملت الطابع الإسلامي بقوة، مع تأثيرات ويصمات قرطبية في مستويات مختلفة من عمارتها والتي تمتد لتطال الفترة المدجّنة. نجد إذن أن كنيسة سانتياجو دل آرأبال وكذا كنيسة سان لوكاس وسان خوان دي أوكانيا وسانتياجو الجديد في طليطلة،

ونوافذ من الرخام وذات تشبيكات مخزّمة ذات خطوط زخرفية هندسية، كما أن شكلها مستطيل، وبالتالي فإن الضوء الخارجي كان يدخل بشكل مخفف وخاصة في دار عبادة تتسم بالضخامة، ولهذا فإننا ننظر إلى الرخام في النوافذ على أنه مأخوذ من العمارة القوطية وهو مناسب ربما لإضاءة دور للعبادة صغيرة المساحة، ومع هذا فإن أعمال التوسعة التي تجرى على المساجد الحضرية كثيراً ما تظل متمسكة باستخدام الرخام المخزّم، ودائماً ما نجد نافذتين في كل واجهة إضافة إلى رخام آخر، زال، كان موجوداً في الحوائط المساء (كلوز بريش)، وهي حوائط بوابة سان استبان، التي ربما كانت مأخوذة من دار عبادة قوطية، أما الباقية فقد تم إحداها؛ وأمام هذه التشبيكات ذات الشكل المربع أو المستطيل نجد تلك الخاصة بالمسجد الجامع في دمشق (كروزيل) حيث الخطوط الهندسية المنحنية النصف أسطوانية هي النافذة التي يتم تركيبها فيها، وقد تكرر هذا النموذج في بعض الكنائس القديمة عندنا، وهي الكنيسة القوطية سان خوان دي باتيوس (لوحة مجمعة 46: 12) والكنيسة الأسبورية بلديوس Valdedios (لوحة مجمعة 46: 13)؛ وإجمالاً للقول نجد أن الجزء المستوف من المساجد الإسبانية الإسلامية هو عبارة عن عمارة منطوية على نفسها، حيث الظل وقلة الضوء في الداخل هو القاسم المشترك، أما الصحن فهو مصدر الضوء الذي يبلغ أجزاء من الأروقة من الداخل، وكلما دلّفنا نحو الجنوب كلما حل محل الضوء ظل وظلمة تظل منها مصادر الضوء القادمة من الأبواب الجانبية ولكن دون أن تكون التشبيكات حلاً ناجحاً لإدخال الضوء.

هذه الواجهات القليلة الفتحات والتي تحمل بصمات معمارية ترجع إلى أزمنة قديمة إنما هي خير تعبير عما كان عليه المسجد القرطبي من انكفاء على الذات وبالتالي ليس هناك مصدر آخر لآثاره إلا الثريات، وفي هذا السياق نجد تورس بالباس يحدّثنا عما أسماه بالشخشيخة التي هي رقبة القبة (القبة الإسلامية)

كان المؤرخون يعبرون عن دهشتهم البالغة بما عليه المسجد القرطبي من وجود مئات الثريات المعدنية، التي نجد أبرزها في المنطقة الكائنة أمام المحراب، وكانت تتدلى من السقف ومن عقود الأروقة، غير أن الأرقام التي ورد ذكرها تختلف من مؤرخ لآخر فهناك 280 ثريا (ابن عذاري)، 224 (المقري) و 113 (الإدريسي) وكل ثريا لها عدد كبير من الأذرع أو القناديل، وأهمها هي التي توجد أمام المحراب حيث يبلغ عدد قناديلها 1454 قنديلاً (المقري)، وقد أشار المنذر (رحالة) إلى هذه الثريات عندما زار المسجد الجامع في ألمرية، حيث يقول إن عددها مائة مضاءة أثناء النهار مثلاً عليه الحال في المسجد الجامع بقرناطة؛ وبمناسبة التوسعة التي تمت في المسجد القرطبي في عصر المنصور جرت الإشارة إلى أنه تم استجلاب أجراس من كنائس مسيحية جرت إعادة استخدامها كثرّيات في المسجد، وهذه حالة تكررت - طبقاً لرواية منذر - في مسجد ألمرية، إضافة إلى مسجد القرويين بفاس، وربما شمل الأمر العديد من المساجد؛ وخلال القرن الثالث عشر نجد ابن غالب يكرر الحديث عن هذه الثريات مع تغيير في العدد بالنسبة لما هو في مسجد قرطبة حيث بلغت 280 ثريا صغيرة وكبيرة، ويبلغ إجمالي القناديل بها 7025 منها 2900 قنديلاً كبير، وفي الثريا الكبرى المعلقة أمام المحراب هناك 1020 قنديلاً، وفي إشارة منه إلى الاحتمالية التي تقام ليلة القدر بمناسبة ذكرى اكتمال نزول القرآن الكريم يتحدث عن استهلاك 35

معلقة في ذراع رئيسي، ويتوج ذلك الشكل الجرسى أو الموشوري المكون من أربعة أضلاع مجوفة، ويوجد بها نقوش هي العبارة النصرية «لا غالب إلا الله عز وجل»، كما يضم الشكل الموشوري ثناء على المؤسس محمد الثالث وتاريخ التنفيذ 1305م.

نتقل إلى الحديث عن الأربطة والمساجد الصغيرة أو الزوايا فتجد أنه لم يصلنا منها إلا القليل، ومن الأمثلة الدالة سان سباستيان دي غرناطة، أو سان كريستوبل دي ليبى، حيث إنها كانت مساجد بدون أية مصادر للضوء اللهم إلا من خلال العقد الحدوي المشيد من الأجر عند بوابة المدخل، وهذه حالة مختلفة عن القباب التي توجد في الأضرحة حيث نجدها مفتوحة الأضلاع، سيراً في هذا على تقليد مشرقى، وأحياناً ما نجد بعض الأضلاع مغلقة وبه ما يشبه المحراب؛ وفي غرناطة نجد نموذج «الروضة بالحمر» حيث الضريح على شكل مستطيل وله نوافذ في الأعلى، استناداً إلى بقايا تشكيبات من الخشب خاصة بنافذة نشر تورس بالباس عنها بحثاً؛ هناك فصل آخر يجب أن نضعه في الحسبان ألا وهو الخاص بالقباب الملكية النصرية بغرناطة والحاملة لشخصيات رشيقة ذات نوافذ في الأضلاع الأربعة، وهي، على ما يبدو، خالية من أية مقاصد دينية، ذلك أن المصليات الخاصة في الحمرء ذات المخططات المستطيلة، كانت لا تسير على تلك البنية.

هناك بعض الأمثلة الخاصة بالإضاءة النهارية (أي من خلال ضوء النهار) للمساجد الإسلامية أو المدجّنة، فهناك المسجد الجامع بقرطبة (ق 8 - 9) حيث نجده على شاكلة ما نرى في اللوحة المجمع 2-46، 1، حيث تتلقى الضوء الذي يصل من الصحن، رغم أن الأرضية كانت آنذاك من التراب المدقوق المائل للون البني مثلما نجد في مسجد مدينة الزهراء؛ ويتضاءل ضوء النهار بشكل ملحوظ مع التوسعة التي تمت خلال عصر عبد الرحمن الثاني؛ ولما كان عدد أروقة مسجد القرويين

قطاراً (100 كجم/ قطار) من الوقود و40 قطاراً في باقي أيام الشهر؛ الشيء المثير للدهشة، كما قال تورس بالباس، هو أن جمال المسجد القرطبي لا يبرز بدون الضوء، وهذا فيه نوع من التناقض ذلك أن ضوء الثريات يمكن أن يتممض عنه تقابلاً بين الظلمة والضوء على حساب الجمال الذي عليه العقود والذي لا يرى إلا في ضوء النهار القليل الذي يدخل إلى المسجد من خلال الأبواب. وبالنسبة للمحراب فقد سلط الضوء قبل ذلك على الرخام الأملس وإلى قطعتين هما عضادتان في الواجهة وإلى الوزرات داخل المحراب، وغني عن القول الإشارة إلى أن المساجد الأخرى كانت الثريات فيها من الزجاج أو الطين المعروق المغطى بمادة المينا، ويشير المؤرخون العرب إلى جزيرة صقلية، وإلى طائفة المسلمين هناك، «قصر سعيد»، حيث كان المسجد يضم 40 ثريا من القصدير والزجاج؛ ولدراسة الثريات يجب الاعتماد على ما بقي منها في المساجد الأفريقية حتى الآن، وعلى ثريات أخرى جرى نقلها إلى المتاحف، ومن أبرز تلك الثريات الخاصة بالمساجد الإسبانية الإسلامية، خلال المرحلة المتأخرة من الحكم العربي، نجد تلك الخاصة بالمسجد الجامع في الحمرء الذي أسسه محمد الثالث (لوحة مجمعة 1-47، C) وهي ثريا متأخرة كثيراً عن تلك الأخرى ذات الشكل الجرسى في مسجد القرويين (ق 12 - 13) (لوحة مجمعة 1-46، A, B) حيث نجد الثريا الرئيسية معلقة في إحدى قباب الرواق المركزي. وكان ابن صاحب الصلاة يرى أن الموحدين أخذوا من «ويذة تسعة أجراس، ثم قاموا بتوزيعها على المساجد المغربية بما في ذلك مسجد القرويين، وقد أضيفت إلى الأجراس التي وضعت في هذا المسجد الأخير أشكال أسطوانية متراكبة ذات حوالم توضع فيها القناديل التي تضاء بالزيت، ويلاحظ أن الثريا في المسجد الفرناطلي كانت رائعة تضاهي ما عليه التي نجدها في مدرسة العطارين بفاس، والتي جرت صناعتها - طبقاً لجيومث مورينو - في غرناطة، وهي ثريا من البرونز ولها كرات

أقل من مسجد الإمارة في قرطبة فإن الضوء الكثيف الذي يصل من خلال الصحن (2) ينمر المكان، وهذا ما لم يحدث في المسجد الجامع بسوسة (3) الذي تلقه الظلال الناجمة أيضاً عن ضخامته الأكتاف وكثرتها؛ وبالنسبة لدور العبادة المدجّنة بالمقارنة بالمساجد نجد المعبد اليهودي سانتا ماريا لابلانكا (4) الذي يضم ثمانية مربعات، يضيئها الشعاع الذي يدخل عبر الباب والنوافذ، وهنا يجب أن نأخذ في الحسبان أن المبنى كله به أكتاف وحوائط وخراف جصية بيضاء بالكامل مثلما هو الحال في دور العبادة المدجّنة الأخرى التي تسير على هدي دور العبادة الموحّدية المغربية والإسبانية، الأمر الذي يساعد على مزيد من الضوء في الداخل.

23- الأعمدة والأبدان وقواعد الأعمدة والتيجان والحدائر في المساجد:

يمكننا من خلال دراسة الأعمدة وتطورها أن نعرف مسار العمارة الإسبانية الإسلامية، وربما كان ذلك البعد أو السند أقوى من الانطلاق من العقد الحدودي الذي أصبح بعد إقامته في المسجد الجامع بقرطبة القاسم المشترك لأي مبنى إسباني إسلامي؛ أما العمود، تلك القطعة التي اعتمد عليها العالم القديم في إضفاء الجلال والأبهة على مبانيه الحجرية والتي لازالت حتى الآن، ولو بدرجة أقل، فإنه يمكن أن يكون مقياساً لتصنيف العمارة ودرجاتها من ممتازة إلى جعدة أو متواضعة أو متخلّفة؛ ورؤية العمود جذابة سواء كان في بوائك أو في واجهات أو صحنين أو بازلييكيات، وهو موروث مهم للثقافات المتوالية كافة في حوض البحر الأبيض المتوسط ابتداء من روما؛ وهو حامل للعب والعارضات، وبذلك يصبح النمط الكلاسيكي، غير أن استمرارية العقد حالت دون أهمية هذا الشكل النمطي، وأصبح العمود الذي يتوجه العقد، ابتداء من عمارة القسطنطينية، المحور الحيوي لأصناف العمارة

كافة في حوض البحر الأبيض المتوسط وشاع استخدامه خلال العصر المسيحي في الكنائس والبازلييكات والكنائس القوطية، ثم انتقل بعد ذلك إلى المساجد لاحقاً وبشكل متزامن، وقد حرمت الكنيسة من العمود عندما جرى استخدامه في المساجد، ثم تلا ذلك الاكتفاء بالأبدان التي جرى انتزاعها من المباني الأقدم لتكون مادة مستخدمة في إنشاء مباني جديدة مكرّسة لإقامة الشعائر الإسلامية، وهي المساجد في المشرق والمغرب خلال العصور الأولى بعد مرحلة كانت تتسم بالقموض ويوجد دعائم مرتجلة من الأخشاب، وعندما تنظر إلى المسجد الجامع بقرطبة كمكان يقصده المسلمون لأداء شعائر صلاة الجمعة نجد أنه أصبح مليئاً بالأعمدة وتحول إلى دليل وهاد للمساجد الأخرى في الأحياء والمحافظات الأندلسية، اللهم إلا إذا كان ما حدث هو العكس؛ كانت المساجد تضم، في البداية، أية أعمدة، مهما كان مصدرها أو أسلوبها، وكان ذلك بهدف إقامة مكان للعبادة يتوافق حجمه مع الزيادة في تعداد السكان وعدد المصلّين؛ وقد كتب البعض بأن هذه المساجد، وكذا المساجد الكائنة في الشمال الأفريقي (ق 9) كانت عبارة عن متاحف للأعمدة الموروثة عن العالم القديم، وإذا ما كان العرب قد لجأوا إلى إعداد الأعمدة لمساجدهم لحال ذلك دون تحول المساجد إلى متاحف للأعمدة حسبما نرى ذلك في كل من المسجد الجامع والصالون الكبير في مدينة الزهراء، حيث كان مخطط المبنيين بازلييكياً؛ وكان الانتشار السريع للإسلام أحد العوامل التي أدت إلى الحاجة الشديدة والسريعة إلى إقامة مساجد في كل زمان ومكان، فقد كان المسجد هو العلامة على انتشار الديانة الجديدة؛ وخلال المصور الأولى للإسلام لم تكن هناك أعمدة جرى قطعها لبناء مسجد، بل كانت هناك أعمدة لمساجد، وكان كل شيء مقبولاً طالما أنه يسهم في تحقيق الغرض المطلوب دون أية اعتراضات على مصدر هذه المواد سواء كان أحد دور العبادة الوثنية أو غيرها، وكلما انتشر الإسلام وزاد

وننقل وصفه هذا هنا لأنه يكاد يكون صورة طبق الأصل لما حدث بالنسبة للعمارة الإسبانية الإسلامية.

يقول الباحث إنه «إذا ما اقتضت الضرورة الحصول على اثني عشر بدءاً من أبدان الأعمدة وكذا اثني عشر تاجاً من أجل بناء بازيليكاً مسيحية لم يكن الأمر غاية في السهولة من حيث العثور على قطع متماثلة، وهنا نجد أن أغلب القطع الخاصة بأبدان الأعمدة من الرخام لكنه رخام يختلف من قطعة لأخرى ومن حجم لآخر، كما أن التيجان كانت مختلفة، وما كان قد بدأ كأمر من الضروري قبوله تحول إلى قاعدة هي عدم الانتظام التي تحولت إلى قاعدة جمالية؛ كان من المعتاد إدخال تيجان مختلفة فيما بينها، ويدخل في هذا تلك التيجان التي لم يُعد استخدامها بل كانت من تلك التي جرى نعتها خصيصاً للفرض المطلوب لها، مثلما هو الحال في بازيليك سانت كاترين في جبل سيناء...»، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه في الأندلس «فن الارتجال» الذي ظل لمدة طويلة على هذه الحال، ثم أصبح توجهاً جمالياً أساسياً للمساجد، فهناك أبدان أعمدة غير متجانسة من حيث الطول، حيث تتجاوز القواعد الكلاسيكية وتتم مواءمتها من خلال ارتفاع قاعدة العمود، وإذا ما كانت التيجان كتلاً متساوية هربما كان الأمر لأن المعماري كان قد قام بتخزين هذه المواد القديمة، وهذا واجب، أو أنه كان يقوم عند باب المعبر الخاص بالمبنى القديم وينتقي ما يريد منها، وهذا ما يُستقى أحياناً من بعض عقود المحاريب حيث كان من الضروري أن تكون الأعمدة متماثلة في هذه الحالة؛ ويشير البكري إلى العمودين الشهيرين لإمبراطور القسطنطينية، التي جلبها الحاكم هشام إلى المسجد الجامع بالقيروان ووضعت في المحراب، ولا نقول شيئاً عن الأعمدة الأربعة التي نراها في محراب المسجد الجامع القرطبي أثناء التوسعة التي تمت خلال عصر الحكم الثاني، وفي هذا المسجد (ق 8 - 9) لم يتم نحت قاعدة أو تاج عمود في المكان الذي يرجع إلى توسعة عبد الرحمن الثاني،

العرب وقد تحدثوا عن مساجد جامعة في المحافظات، زالت من الوجود، كانت ذات عمد من الرخام أو الحجارة مثل بتشينا وجيان والجزيرة الخضراء وقرمونة وبيرا واستجة وملقة، وكلها قد أقيمت خلال الفترة من القرن الثامن حتى العاشر مع وجود نموذج حيّ يتمثل في مسجد المنستير (ويلبه)، حيث اجتمعت قطع جاءت من دور عبادة مسيحية قديمة تهدمت، أو من أطلال المباني الرومانية المهجورة، ولا شك أنها كلها كانت غير بعيدة عن المسجد؛ ومن الحالات المشابهة ما نجده في مسجد القناطر أو بويرتو سانتا ماريا حيث أن رواقها الرئيسي المفترض كان يضم ثماني دعائم فيها أنصاف أعمدة من مواد بناء وأسلوب روماني، ومن المؤكد أن حالة المسجد الجامع بقرطبة هي التي نفوس بنا في المتأخرة واليقين والتساؤلات، وتدخل إفريقية في هذا الإطار وعلى رأسها قرطاج ومدن رومانية أخرى من المدن المحيطة حيث كانت تستخدم كمحجر للتزود بالقطع المعمارية، وفي هذه الحالة من المؤكد استخدام هذه المواد في بناء المساجد بما في ذلك المساجد التي شيدت مؤخراً (ق 17) في توزور حيث شيدها المورييسكيون الإسبان من المهاجرين.

من المعروف أن الانتقال من حضارة لأخرى في مدن بعينها، وعلى مدار العصور، محكوم بنقل هذه الأعمدة وهذا دليل على أن السكان الحضريين، العرب في هذه الحالة، ظلوا يعيشون في المدن القديمة دون أن يشكل تغير الديانة أي عقبة أمام تحويل دور العبادة القديمة إلى مساجد، وتقودنا هذه الحالات إلى زمن تغيير الديانة في بيزنطة التي وقعت خلال القرنين الرابع والخامس وأدت إلى ثورة كبيرة في البناء على حساب المباني الضخمة، التي أضحت غير صالحة في ظل الزمن المسيحي الجديد، وأصبحت عبارة عن معبر حقيقي لاستخراج بعض القطع وإعادة استخدامها؛ وبالنسبة لتلك الفترة نجد سيريل مانجو يصف لنا بدقة بدايات العمارة في العصر المسيحي البيزنطي،

ماعدا حالات نادرة، وهنا نتساءل: هل يمكن اعتبار هذه العادات كسبب أو كنتيجة لزوال مبكر لدور العبادة القوطية البارزة في كل قرطبة وطليطلة؟ نجد أن المدينة الثانية تضم نموذجاً موازياً هو مسجد السلبادور حيث يضم كتلاً حجرية رومانية وقوطية ولا توجد أية قطعة صليبية عربية، فكلها قطع أعيد استخدامها ورأى العرب أن هذا مسلك عادي وربما كان من الأمور التي تستحق الإطراء، فهي قطع تنسب لثقافات سابقة أكثر تقدماً يجب الحفاظ عليها بكل السبل بدلاً من تدميرها، وإلا فإننا نصف العرب بأنهم هدامون وبرابرة، أو أنهم كانوا ينظرون إلى الأشياء بمنظور تقني أي استخدام كتلة حجرية نافذة دون أية أغراض أخرى، وكانت عملية التجديد المعماري التي وقعت أثناء الفترة المدجنة تعني عودة إلى الزمن الانتقالي القوطي العربي ولو أن ذلك كان بشكل مختلف، ففي كنيسة سان رومان (1227م) نجد اثني عشر تاجاً قوطياً وبعض الأبدان، وربما كانت لكنائس ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام، والشيء نفسه نجده في كنيسة ياننا إيولاله، فهل كانت من مساجد متاحف كانت مقامة هناك؟ هناك نموذج آخر، ليس أقل أهمية، ألا وهو مسجد المنستير (وילה) الذي يضم كتلاً حجرية قديمة تقوم عليها عقود حدوية من الأجر، سيراً في هذا على ما نجده في مسجد الباب المردوم في طليطلة؛ ومن جانب آخر تلح المصادر العربية على أن المسجد الجامع بقرطبة قد أقيم في المكان نفسه الذي كانت توجد فيه كنيسة سان بيثتي، وهنا نسأل كم عدد الدعامات أو الأعمدة التي جرى إعادة استخدامها في بناء المسجد الجديد؟ وهل جرت ممارسة عادة الإفادة من الكتل الحجرية المزخرفة خلال العصر القوطي وبذلك نجد ملقة أخرى للربط بعصر بداية المسيحية والمصر البيزنطي؟ وتساؤل آخر، هل توحدت الثقافات الثلاث في فجر اتصالها من خلال العمارة المرتجلة؟ فكان أنه عندما لا تكفي قواعد الأعمدة، يكفي استخدام كتلة حجرية مربعة فوق قاعدة العمود دون الاهتمام

كثيراً بإزالة ما تبقى منها بارزاً وأخذ هذا يتحول إلى قاعدة مسنونة أثناء عمليات التوسعة التي جرت خلال القرن العاشر في المسجد الكبير بالمدينة وفي مسجد الباب المردوم بطليطلة، وسبق ذلك ما جرى تطبيقه في المسجد الجامع بالقيروان.

وعلى هذا فخلال عمليات عمليات التوسعة التي جرت أمكن الجمع في تناغم بين الماضي والحاضر في تفاهم عجيب جدير بالثناء عليه، ففوق تاج العمود كانت توضع الحداثر أو الحلية المعمارية المقمرة Cimacio. سواء بشكل فردي أو منفصل عن الذي كان عليه في الحجر الذي خرج منه، ثم تحولت هذه القطعة إلى تنويع العمود وشيئاً فشيئاً إلى منبت العقود الحدودية وأخذت تسير على قاعدة لا تتغير كانت بيزنطية ثم انتقلت إلى القوطية، ويوجد في المسجد الجامع بقرطبة عدد كبير من التيجان والحداثر بالمقارنة بما هو مرتجل من حليات معمارية مقمرة قليلة في المساجد الصغرى؛ واستناداً إلى عمليات الجسّ الأثاري التي جرت خلال السنوات الأخيرة في المسجد القرطبي فإن الأعمدة كانت تقوم على قواعد منعزلة خلال عصر الإمارة، وكانت هذه عادة في البناء موروثه من العصر الروماني، وكان لها طريقان للنفوذ إلى المغرب الإسلامي، وهي: المبانى المسيحية التي كانت لها استمرارياتها في الروماني والقوطي، والمبانى الإسلامية التي نراها في المسجد القرطبي، وهذا ممسك يراه مسجد المهديّة ومسجد المنتسرين في وبلبة حيث كانت الأعمدة - طبقاً لأنفونمو خيمنت - ذات أساسات صغيرة، فالأعمدة كانت تقوم على الكتل الحجرية نفسها، وأخرى تقوم على كتل من الجرانيت حتى تصل إلى الأرض حيث يصل العمق إلى 90 سنمتراً، ثم جرى بعد ذلك اللجوء إلى الأساسات المتصلة مثلما هو الحال في مسجد القيروان ومسجد مدينة الزهراء الجامع والتوسعات التي جرت في المسجد القرطبي خلال القرن العاشر؛ وكان من المعتاد خلال ذلك الزمان السير على النمط الثاني من

وعلى هذا نقف في دائرة العمارة في عصر الخلافة القرطبية المفعمة بالحلول الابتكارية والتي تخلت عن حالة التلمثم التي كانت عليها في الأزمنة الخوالي، ويعتبر كل من مسجد مدينة الزهراء والصالونات الأميرية بهذه المدينة التي تقوم بدور المعادل للعالم البيزنطي الذي تحدثنا عنه المصادر العربية وعن عمليات التبادل معه ابتداء من القرن التاسع، نقول يعتبر إجابة شافية ووافية على ما كان يحدث أيام عصر الإمارة وخاصة - في نظري - في عصر عبد الرحمن الأول؛ ففي المسجد الملكي، أول مسجد معروف في المغرب الإسلامي وقد نعت كل أعمدته في المكان نفسه، نجد أن الأبدان قد جرى نعتها لتكون ذات ارتفاع 2.30م وقطر علوي 0.38م وسفلي 0.42م، كما أن هذه المقاسات نجدها أقل في أعمدة «الصالون الكبير»؛ إننا أمام بدن عمود خفيف في الجزء السفلي وطق في الجزء العلوي، ولم يكن أبداً جزءاً من التاج، وبالتسبة لهذا الأخير ففي الصالونات الملكية - مع بعض التغير في المسجد - نجد القطعة مكعبة ارتفاعها 0.45م و 0.44م عند الطبلية و 0.32 - 0.28م قطراً عند السبّ

أو ذلك الجزء الذي توجد به الواجهات الصغيرة؛ وعند القاعدة التي تستقر فوق الطبلية نجد شكلاً هندسياً سابقاً ذا خط غائر وذلك لتحديد أبعاد القطعة (لوحة مجمعة 1-71)، وهذا النموذج نجده أيضاً في بعض تيجان الأعمدة التي تم انتشالها من المسجد الجامع في سرقسطة (سوتولاصالا)، وبعد تجاوز هذه الفترة التاريخية نجده في تيجان من الرخام، غرناطية، ق 12، 13، 14؛ أما القواعد الأتيكية aticas فهي ملساء، ونادراً ما نراها منحوتة؛ هناك تبادل بين التيجان الكورنثية والمركبة، وسواء بالنسبة للأبدان من حيث الألوان الوردية والمائلة للرمادية، حيث نجد الصنف الأول منها متاغماً مع الحلية المعمارية المقمرة Cimacio، التي عادة ما تكون ذات أوجه ملساء مقطوعة بطريق الشطف، سيراً على الذوق البيزنطي والقوطي إن أمكن. هذه القطع التي جرى تنفيذها في المكان، ولا توجد واحدة منها ذات استخدام ثان، حيث يشير هذا بوضوح بالغ إلى أننا نتحدث عن ميلاد أسلوب جديد رغم أنه يتوافق مع الموروث الكلاسيكي الذي أخذ يطل برأسه، غير أنه الآن قد جرى تنفيذه من خلال تقنيات جديدة. ألا يعتبر ذلك كله نوعاً من النهضة التي يتحدث عنها بعض المتخصصين؟ حقيقة الأمر هي أن إجمالي القطع المشار إليها يتجاوز الأصول الجمالية للقطع القوطية، حيث إنه لا ينصاع إلا قليلاً للقيم والأصول الكلاسيكية، ومن الأمور المهمة والكاشفة في هذا السياق هو أن العمود الخلافة الإسباني الإسلامي يتسم بأنه متخلف أو مُروّمن بالمقارنة بالأعمدة البيزنطية، حيث نجد أن سبّ التيجان تتولى في الزخرفة كنمط المسار الكلاسيكي للسبّ الأسطواني، وكذلك الـ contario (العقد) والحلية المعمارية المحدبة equino والحليات الحلزونية (اللفائف volutas) والطبلية، بالنسبة للتاج المركّب، وهذه لم تتغير في تيجاننا التي ترجع إلى القرن العاشر، وعلى هذا فإن هذا الاتجاه للرؤى يرتبط بالقطع الموروثة من عصر الخلافة وذات التوجه الجديد

تسير على هدي تاج عمود موروث عن عبد الرحمن الثاني، موجود الآن في المتحف الوطني للأثار بمدريد، غير معروف مكانه الأصلي، فربما كان لقصر، وبه هذه العبارة «بسم الله، هذا للأمير عبد الرحمن بن الحكم أعزه الله» (لوحة مجمعة 56، B)؛ وعلى هذا تنتهي مرحلة عدم معرفة اسم المبدع أو صاحب القطعة، خلال عصر الإمارة، حيث نجد الكثير من توقيعات الرخامين (استامبا في شكل مستطيل، وفي طبلينات وحليات escocia في قواعد الأعمدة) الذين قاموا بأعمالهم أثناء عصر عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني؛ وإلى هذا الخليفة الثاني ترجع عبارة «الحكم المنتصر بالله أمير المؤمنين»، كان هذا كله بالنسبة للقصور، لكن لم يكن الأمر كذلك بالنسبة للمسجد الملكي، رغم أن التوقيعات نفسها للرخامين، وغيرها، عادت للظهور في التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني. وعند منطقة التقاء بدن العمود بالتاج تم اتخاذ تقنية قديمة تتمثل في إدخال أسطوانة أو شريحة من الرصاص لامتصاص عملية التمدد والتوصل إلى توزيع صحيح للأحمال، وقد لوحظت هذه التقنية في مسجد مدينة الزهراء وفي توسعة المسجد الجامع بقرطبة التي جرت في عصر المنصور، وأحياناً ما نراها مطبقة على قاعدة العمود، وظلت هذه التقنية مستخدمة في العمارة النصرانية بفرنسا (المسجد الجامع بالحمراء طبقاً لتوريس بالباس)؛ وفي مساجد أخرى مثل السليادور بطليلة تم اللجوء إلى ربط من الخشب جرى تطبيقه أيضاً في الجوانب الخاصة بالربط بين وحدات أبدان الأعمدة التي جرت الإفادة منها ثانية. وبالنسبة لقواعد الأعمدة، يلاحظ أنها قلة في المواد المعاد استخدامها، حيث جرت المادة بالتخلص منها في المساجد، ويقول البعض إن ذلك يحدث لأنها تشكل عقبة في المساحة أمام المصلين الذين يدخلون المساجد حفاة؛ وقد تعرضت أرضية المسجد الجامع بقرطبة لعدة تعديلات فيما يتعلق بالمستوى على مدار تاريخها، وأثناء القيام

في المسجد الجامع بقرطبة التي تقبل نقلاً حرفياً للتهجان القديمة قبل القوطية، ودائماً ما نرى النماذج القديمة عبارة عن تيجان مزخرفة، وبذلك تترك وراءها تلك الملءاء، حتى نصل إلى عصر كل من عبد الرحمن الثالث والحكم الثاني وتتحول إلى استخدام حصري سواء في حرم المسجد أو في صفته وقد سار على هذا النهج المنصور بن أبي عامر في التوسعة التي تمت في عهده، ويمكن أن يكون هناك تفسيران لهذا التوجه الجديد، فمن جانب، نرى البساطة التي يدعو إليها الدين، وهذا رأي غير قوي عندي استناداً إلى وجود زخارف ولو قليلة في المسجد الجامع بالزهراء؛ ومن جانب آخر، كان الدافع توفير الوقت والاقتصاد في العمالة، وهنا علينا ألا ننسى أن العمل في مكان البناء أثناء عمليات التوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني إنما يرجع إلى تفاد القطع القديمة والحاجة لسد النقص القائم من خلال بعض القطع العربية الأصلية (جومت مورينو).

وعلى هذا فإننا عندما نجد في مسجد مدينة الزهراء أو في الصائون الكبير فيها أو قصورها تيجان أعمدة في حوار مقنن بين الكورنيش والتاج المركب (بالنسبة لأبدان الأعمدة نجد هناك حواراً بين الألوان، الوردي والرمادي ذي العرق الأزرق) فإن ذلك يعني أننا نشهد توجهات جمالية جديدة شديدة البعد عن تلك الأولى التي تحدثنا عنها ووصفناها بالارتجال أو الجمع بين الأشكال خلال عصر الإمارة الأول، ولا يفرج عن هذا السياق أمر العقد الحدودي سواء كان المتعلق بمسجد مدينة الزهراء أو بقصورها، حيث يبلغ درجة التضخيم، وهذا ما نستشفه في ابتداء السنجة المزخرفة وما هناك من تبادل مع السنجات الأخرى، وبذلك يحل محل اللونين الموروثين عن بيزنطة اللذين نشهدهما في مسجد عصر الإمارة، حيث اللون الأحمر هنا الذي يسهم به الأجر غير غائب بالمرّة عن مدينة الزهراء. إننا نشهد تيجان الأعمدة وقواعدها في مدينة الزهراء

حدث أيضاً، ولكن في حالات نادرة ومحددة، في بعض المساجد والمنارات في المغرب Magreb خلال القرن الثاني عشر (هـ- تراس) وهي إشبيلية حيث نجده في الخيرالدا.

وبالنسبة للحليات المعمارية المتموجة Cimacio (الإسهام الأساسي القوطي في العمارة الإسلامية)، فلا يوجد في المسجد القرطبي الذي شيد في عصر الإمارة أي قطعة جرت زخرفتها في مكان البناء، باستثناء بعض القطع المساء التي ترى في المكان المسقوف، خلال القرن الثامن، إضافة إلى بعض القطع الأخرى خلال القرن التاسع، ويجب أن نضع في الحسبان الحليات المعمارية المتموجة المساء في مسجد عمر بن عبدس الأشبيلي الذي شيد في عصر عبد الرحمن الثاني، وهي قطع - في الوقت الحاضر - أعيد استخدامها في الصحن الحديث المسمى سان سلبادور؛ وتعتبر أغلب الحليات المعمارية المتموجة، التي نجدها في المسجد الجامع بقرطبة خلال المرحلتين الأولى، من القطع المزخرفة خلال عصر ما قبل الإسلام، وهي قوطية في الأساس وإن كانت بعضها بيزنطية، لكن دون أن نباعد جانباً بعض الدعامات arquitrabes التي ترجع إلى العصر الإمبراطوري المتأخر، وهي قطع تشبه الحليات المعمارية المتموجة التي جرت الإفادة منها بالمسجد الجامع بالقيروان؛ وبالنسبة للتوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني يلاحظ أن تلك الحليات المعمارية ذات القاعدة الهرمية، والمساء دائماً، والتي جرى اتخاذها في الزهراء، أصبحت على شكل صليبي، حيث نجد الأذرع القصيرة تبدو وكأنها كوابيل صغيرة لتكئ عليها الدعامات الخاصة بالطابق الثاني من الأقواس، وبالنسبة لأكتاف الصحن ربما كحامل للشرائح الجانبية للطنف الذي يقوم بدور الترييع للعقد الحدودي؛ وبالنسبة لهذا الشكل من الحليات المعمارية المتموجة، من الملائم أن نلفت انتباهنا قطعتان جرت الإفادة منهما في عقد صحن مدجن في «منزل كامباناس» (منزل الأجراس)

بالتوسعة في عصر الحكم الثاني جرى التخلص من قواعد الأعمدة غير المتماثلة التي كانت في المبنى الذي تأسس قبل ذلك، وسادت هذه الفكرة في التوسعات التي جرت بعد ذلك، وربما تم تطبيق هذه الفكرة مسبقاً في المسجد الجامع بمدينة الزهراء، حيث لم يلاحظ، أثناء الحفائر التي جرت فيه، وجود أية قواعد أعمدة منحوتة، اللهم إلا واحدة عثر عليها في بوائك الصحن، أما في الجزء المسقوف فيبدو أن كتلة حجرية واحدة مربعة تقوم بدور قاعدة العمود مثلما رأيناها في مسجد حي فونتانا بقرطبة وكذلك في المسجد الجامع بطليطلة؛ جرت أيضاً إزالة هذه القواعد من مسجد الباب المردوم بطليطلة ومسجد المستير (ويلبه)، وكان ذلك هو الأمر السائد في إفريقية حي نرى المسجد الجامع بالقيروان كنموذج على ما نقول؛ أصبح من الواضح إذن أن استغلال أعمدة قديمة في قرطبة كان من العادات المتبعة في المساجد التي شيدت خلال القرنين الأولين، واستمرت هذه العادة في الأراضي التونسية حتى ق 16م، وتسببت قلة المواد الخام المعاد استخدامها للجوء إلى صناعة ونحت قطع جديدة من مختلف الأصناف خلال النصف الثاني من القرن العاشر، فظل الأمر على هذا المنوال حتى نهاية القرن التالي، عندما بدأ يظهر نوع من الأكتاف المشيدة من الحجر التي سادت خلال القرن الثاني عشر في المساجد المرابطية والموحّدية، وربما جاء ذلك، طبقاً لبعض الدراسات، على سبيل العدوى من المساجد العباسية في كل من سامراء وإيران؛ وإضافة إلى هذا الموقف يجب أن نأخذ في الحسبان أن المحاجر، أو الأماكن التي كانت تنغذ منها الكتل الحجرية، كان قد نصب ممينها خلال العصرين المرابطي والموحّدي، ومن الأمثلة البارزة على ذلك ما نجده في المسجد الزيري القرناطي في منطقة السهول، وهو مسجد جرت توسعته في بداية القرن الثاني عشر، حيث أن أعمدة حرم المسجد جرى جلبها من مباني أموية كانت قد تهاوت في قرطبة، ترجع إلى أسلوب عصر الخلافة، وهذا ما

نجد في الجزء المسقوف الذي يرجع إلى القرن الثامن بالمسجد الجامع بقرطبة أن الرواق الرئيسي - طبقاً لما لاحظته جومث مورينو، يحفظ عن الأروقة الباقية، حيث إن أبدان الأعمدة كافة هي من الرخام الوردي، وربما كان مصدرها مبنى واحداً؛ وسيراً في هذا الاتجاه تبرز الأكتاف المصحوبة بالأعمدة الملاصقة لها كحاملة للعقود الحدودية الكائنة في الحائط الفاصل بين الحرم والصحن في المسجد الجامع بقرطبة، والتي أقيمت في عصر عبد الرحمن الثالث خلال عام 958م، ومع هذا هتلك الأكتاف ربما بدأت في هذا المكان في ذلك الجزء الذي شيد في عصر عبد الرحمن الثاني ومحمد الأول (فيلكس إيرنانديث)، ثم يتكرر ذلك في مسجد مدينة الزهراء، حيث نراه أيضاً في العقود الطرفية «السقيفة»، أو تلك الدماليز التي يفترض أنها كانت خاصة بالنساء في المسجد القرطبي خلال القرن العاشر الميلادي. هناك مسقط قطاعي لهذا الكتف المصحوب بالأعمدة على شكل حرف T، حيث يلاحظ أن الجزء الرأسي فيه يطل على داخل الحرم، وهذا النمط نجده أيضاً في المساجد الكبرى في إفريقية مثل مسجد المهدي ومسجد صفاقس؛ ومن الأكتاف الفريدة والمستطيلة الشكل والمصحوبة بأعمدة ما نجده في ذلك القطاع الفاصل بين التوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني والحكم الثاني بالمسجد الجامع بقرطبة. غير أن عدد الأعمدة هذه المرة هو ستة بدلاً من ثلاثة، وقد جرى تطبيق ذلك، ولكن باستخدام الأجر، في المسجد الموحد الجامع في إشبيلية (انظر اللوحة المجمة 40 في الفصل الثاني من هذا الكتاب)، وبالنسبة لأصناف الأكتاف المصحوبة بالأعمدة أو بدونها انظر اللوحة المجمة رقم 10 في الفصل الرابع.

ومن المنظور الكمي، نجد أن المسجد الجامع بقرطبة، من خلال عمليات التوسعة التي جرت، به الأعمدة التالية: (ق 8: 110 أعمدة)، 77 خلال القرن التاسع، وفي التوسعة التي جرت خلال عصر الحكم

بقرطبة، حيث تبدو قوطية بشكل واضح؛ ويرى تودس بالباس أن الحلبة المعمارية المتموجة التي على شكل صليب هي إبداع بيزنطي، وكان فيليكس إيرنانديث يعتقد أن بعض التيجان الملساء وكذا الحلقات المعمارية المتموجة التابعة لها - الصليبية الشكل - والتي نراها اليوم في البوائك الحديثة في صحن المسجد الجامع القرطبي، إنما ترجع إلى حرم المسجد، أي تلك الزيادة التي تمت خلال عصر الحكم الثاني، اللهم إلا إذا كانت جزءاً من الصحن الذي شيد على عصر عبد الرحمن الثالث، ثم نقلت بعد ذلك بشكل جزئي إلى البائكة الشرقية في الصحن الذي تمت توسعته خلال عصر المنصور بن أبي عامر، وأياً كان الموقف يبدو من المؤكد أن الصحن الكبير الذي يرجع إلى عصر عبد الرحمن الثالث (951 - 958) كانت به، على سبيل الحصر، تيجان أعمدة مركبة وكورنتية إضافة إلى الحلبة المعمارية المتموجة، وهي كلها قطع ملساء، أقل حجماً مما عليه القطع الأخرى في حرم المسجد؛ وربما كان مأل بعض الحلقات المعمارية المتموجة، الصليبية الشكل والملساء، ما نراه في بعض ملحقات الحمامات القرطبية التي درسها ميجل مونيوث باتيكث، إضافة إلى حالة فريدة نجدها في صحن مصلى سان بارتولوميه بالمدينة نفسها، التي ربما ترجع إلى صحن عربي في المسجد الجامع بقرطبة.

تتضح لنا إذن الأهمية الكبيرة التي يوليها العرب للعمود، إضافة إلى بساطة الفائدة المرجوة منه. وهذا ما نراه معكوساً في الأعمدة الأربعة التي توجد في مدخل معراب المسجد القرطبي، أي أن هذه الأيقونات المقدسة الموروثة عن عصر ما قبل الإسلام أضفت نبلاً على ذلك الجزء الأكثر أهمية في المبنى، وإليها تضاف الأعمدة المزدوجة التي نراها في الرواق الرئيسي في المسجد الجامع بالقيروان، وذلك كوسيلة من وسائل التدرج، ولا شك أن ذلك كان صورة طبق الأصل من الرواق الرئيسي في بازليكا ديرميك Dermech في قرطاج (أ. جرابار) إضافة إلى أخرى بيزنطية؛ وفي هذا المقام،

الثاني نجد العدد 118 عموداً، و 221 عموداً في التوسعة التي جرت في عصر المنصور، وقد جرى إعداد الأعمدة في المكان خلال المرحلتين الأخيرتين، وبذلك يصل عدد الأعمدة إلى 526 عموداً، إضافة ما يزيد على الأربعين عموداً زالت عند إقامة المصلّيات والكاتدرائية المسيحية، وبذلك يبلغ الإجمالي 566 عموداً، إضافة إلى تلك التي توجد في بوائك الصحن والتي ربما تصل إلى 60 عموداً، أي أن الإجمالي الكامل 626 عموداً؛ وبالنظر إلى المساجد الصغرى نجد مسجد مدينة الزهراء وفيه 60 عموداً نحتت خصيصاً، و 14 عموداً في مسجد هونقار بقرطبة، وفي مسجد الباب المردوم بطليطلة نجد 4؛ وكذا 16 و 18 في مسجد المنستير في ويليه وفي أرشيدونة. هناك 20 عموداً مقترضة في مسجد لبلّة؛ ومع هذا فإن المصادر العربية، بالنسبة للمسجد القرطبي، تتحدث عن أرقام تصل إلى 1273 عموداً، طبقاً لابن غالب، و 1409 أعمدة طبقاً للدرك Dirك حيث تضم أعمدة الصحن؛ هناك أرقام أخرى تصل إلى 120 في الجزء المقنوف للمسجد الجامع بقرطبة الذي تأسس في منتصف القرن الحادي عشر، وجرى ترميمه عام 1115م على يد المرابطين، أي عندما جرت إقامة تلك الأكتاف، طبقاً لرؤية تورس بالياس، مستنداً فيها إلى ما قدمه جومث مورينو من بيانات، وإلى حديث الرحالة الألماني المنذر (1494م) الذي قال بوجود 113 عموداً في المسجد الجامع بملقة؛ ومن 80 - 84 في مسجد السليبادور في حيّ البيّازين بقرطبة وفي المسجد الجامع في ألمرية، و 70 عموداً في المسجد الجامع في وادي آش. ويلاحظ تورس بالياس أن مساجد عصر ملوك الطوائف، مثل المساجد في عصر الخلافة، كانت ذات أعمدة وليس أكتافاً مثل تلك التي فرضها المرابطون والموحّدون، وربما كان المسجد الفرناطي الجامع الرابع في الترتيب بعد كل من مسجد مدينة الزهراء وتطيلة وسرقسطة فيه أعمدة عربية بالكامل؛ ويقول تورس بالياس، بالنسبة للمسجد الجامع

بالحمراء في قرطبة، أنه كان فيه ثمانية أعمدة، لا نجد منها في الوقت الحاضر إلا واحداً، وهو المسجد الذي ظهر فيه هذا الصنف من الأعمدة بعد تلك الفترة الطويلة من التفتُّف الذي فرضه المرابطون والموحّدون. وسوف نرى في فصل من الفصول اللاحقة من هذا الكتاب أنه استناداً إلى أعداد الأعمدة يمكننا محاولة تصور ما كانت عليه مسطحات بعض المساجد مثل مسجد ملقة وألمرية ووادي آش. وإذا ما قارنا الوضع بما عليه في إفريقية فإن أعداد الأعمدة هي على النحو التالي: المسجد الجامع بالقيروان (152 عموداً في الحرم والإجمالي 410 أعمدة)، والمسجد الجامع في سوسة 60 عموداً، والزيتونة بتونس 98 عموداً. وهناك شاهد مسيحي يشير إلى أن المسجد الجامع بسبّنة كان فيه 180 عموداً، ومن السهل بعد هذا الاستعراض الخروج بخلاصة تقول بأن المساجد الإفريقية - مثلما جرت الإشارة سابقاً - كانت تستخدم المباني الرومانية والبيزنطية كمعاجر وخاصة في قرطاج؛ أما بالنسبة لقرطبة يتبني البحث عن مصادر مختلفة وربما كانت ماردة وإيطاليا بيلو (بولونيا) والنظر الأعلى هي المناطق التي جلبت منها الأعمدة على سبيل أنها هدايا الانتصار على تلك المدائن، ونظراً للتشابه الأسلوبى الذي لاحظناه على تيجان الأعمدة والحليات المعمارية المتموجة في كل من قرطبة والمسجد الجامع بالقيروان (في هذه الحالة الأخيرة يرتبط الأمر بقرطاج)، المعجر الروماني، وبعض الأماكن التونسية الأخرى حيث لعبت دوراً مهماً في ملاح المسجد الجامع، وهذا ما نستشفه من المصادر العربية، التي نستغرب أنها تتحدث فقط عن مدينة الزهراء، حيث جرى نحت الأعمدة وخاصة التيجان وقواعد الأعمدة في المكان نفسه؛ ومن جانبي أعتقد أن معجر طليطلة وحده كان كافياً لتوريد الأعمدة لمساجد المدينة، حيث يلاحظ أن أغلب الأعمدة قوطية في الأعم الأظب، ثم جرى إقامة الكثير منها بعد ذلك في الكنائس المدجّنة، وفي هذا الإطار تدخل مساجد السليبادور (7)

الكبرى القرطبية التي شيدت في عصر عبد الرحمن الثالث حيث كانت تقوم على أعمدة صغيرة وربما يصل عددها إلى 40 أو 50 عموداً، رغم أن المصادر العربية تتحدث عن المئات، ولا شك أن ذلك يرجع إلى اعتبارها المثانة الفريدة في المغرب الإسلامي، حيث نجد أن مثانة مسجد القيروان تخلو من أية أعمدة؛ ثم تعود المثانة ذات الأعمدة، على الطريقة القرطبية، للظهور من جديد في الخيراندا، وهي مثانة مسجد حسان بالرباط، وقلدتها، بشكل جزئي، المثانة الحجرية لمسجد المنصورة في تلمسان، وغني عن الذكر الإشارة إلى أن المساجد المغربية، ابتداء من القرن الثاني عشر، حل كتف من الآجر محل العمود الحجري، ويستثنى من ذلك حرم مسجد حسان بالرباط، حيث نجد أعمدته عبارة عن كتل حجرية مستديرة، دون قواعد، وتيجانها ملساء، ويزيد عددها على 400 عمود (كاليه)؛ وفي مسجد الكتبية الثاني نجد استثناءً أيضاً يتمثل في تيجان الأعمدة حيث هي من الجص وملتصقة بالأكتاف المشيدة من الآجر.

حالة المسجد الجامع بقرطبة:

يرجع تفوق هذا الأثر وأهميته إلى كثرة الأعمدة، ذلك أن هذه كانت تساعد على سرعة البناء الأمر الذي يساعدنا على فهم الفترة الزمنية القصيرة - عام - في بناء حرم المسجد خلال عصر عبد الرحمن الأول، ورغم هذا فإن فكرة العام يصعب تصورها، لأننا - في المقام الأول - إذا ما ركزنا في الأعمدة التي ترجع إلى القرنين الأولين، من حيث الجمع والانتقاء من معاجر قديمة متنوعة ومتباعدة، لا تضح لنا أن هذه مهمة تتطلب المزيد من الوقت، أو أن هذه المواد جميعها كان مصدرها قرطبة؟ بالنظر إلى المساجد الإفريقية، نجد أن الأمر ليس كذلك؛ ومن الطبيعي أنه مع مرور الزمن، ليس الشيء نفسه فيما يتعلق بالتاج المزخرف والتاج

أعمدة في بائكة واحدة) وكنيسة سان سباستيان (8)، منها أربعة في كل بائكة)، وفي كنيسة سان رومان نجد 12 تاج عمود رائع قوطي الأصل، مزخرفة وملساء، وقد جرت أفلحتها على الوضع الجديد، ونظراً لتشابهها في الحجم والوحدة الأسلوبية قامت بدورها كدعائم في دار العبادة نفسها سواء كانت قوطية أو إسلامية، وهي موزعة على ثلاثة أروقة بمعدل ستة أعمدة في كل بائكة.

وبالنسبة للأعمدة ذات الحجم الصغير والقابلة للتواء مع العقود الزخرفية المرتفعة، وفي حالة اتخاذها كدعامات عند المنبت الخاص بأوتار القباب، نجد ذلك الخاص بالقباب الثلاث الكائنة أمام المحراب في المسجد الجامع بقرطبة التي ترجع إلى عصر الحكم الثاني وهذا من الأمثلة القوية في هذا السياق، كما أن العقود الزخرفية العلوية المصحوبة بأعمدتها الصغيرة تتكرر في الواجهات الخارجية لهذا المسجد، ومن المهم أن نشير إلى أن العقود الخاصة بالداخل لهذه الواجهات لم تكن تتكئ أبداً على أعمدة؛ فهناك أبدان صغيرة لها تيجانها وقد ظهرت بشكل منفرد في مسجد مدينة الزهراء، حيث عثر عليها في منطقة حائط القبلة وإلى جوار حوائط الصحن، ولا شك أنها، في الحالة الأولى، عقود مرتفعة للمحراب؛ أما في الحالة الثانية فهي تنسب إلى القطاع العلوي للواجهة الخارجية (انظر الفصل الثاني، لوحة مجمعة 34.3، وفي هذا المقام نجد أن صالونات أو مجالس المدينة الملكية لم نمثر فيها على مثل هذه الأعمدة الصغيرة. وقد سبق أن أشرت في فقرات سابقة إلى أن من المهود في عقد المحراب أن يكون له عمودان أو أربعة، وهذه عادة متبعة في المساجد الرئيسية المشرقية كافة، وتزداد قوة في المساجد في المغرب الإسلامي؛ وبالنسبة لجامع القيروان، (ق9)، نجد أن العقود التي توجد فوق بوابة المحراب تقوم على عمودين، وربما كان الشيء نفسه في واجهة محراب المسجدين اللذين شهدا في عصر الإمارة، الواحد تلو الآخر، هي قرطبية. أضف إلى ذلك عقود نوافذ المثانة

إلى دراسة التاج الإسباني في الآثار العربية والمدجّنة بصفة عامة، وهي دراسة بدأها جومث مورينو وتورس بالباس وباسيليو بابون، وواصل الطريق مؤخراً ب. كريزر، وقد قام هذا الباحث الأخير بدراسة تفصيلية للقطع القديمة والقوطية التي أعيد استخدامها في المسجد الجامع بقرطبة، وسلط الضوء، بشكل خاص، على القطع حسب مراحل استخدامها، وخاصة في ذلك الجزء الذي شيد في عصر عبد الرحمن الأول وعبد الرحمن الثاني، ثم تلا ذلك إسهام محمد الأول، وقام بتحديد مكان تلك القطع في المسجد، وهذا العمل يتّسم بالأهمية حيث يساعد المتخصصين في الدراسات الرومانية والقوطية على تصنيف التيجان التي تسبب إلى هذا الأسلوب أو ذاك والشائعة في أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية، كما أنها تسهم أيضاً، على المدى الطويل، في تحديد المصادر الأصلية لبعض هذه القطع. أعرّض على سبيل المدخل، لدراسة بعض نماذج التيجان في كل من الآثار الرومانية والإسبانية وفي إفريقية، من تلك النماذج المركبة والكورنتية. لوحة مجمعة 47: 1 من ساجونتو، 2: من قرطبة، حيث أعيد استخدامها في مصلى سان بارتولومية، وهي قطعة أيونية Jonico، كما نعرف أنها لم يكن لها مكان في المسجد الجامع بقرطبة أو في أية مساجد أخرى إسبانية إسلامية معروفة؛ 4، 6 من استجة، 3: من خيمينا (قادش)؛ 5: 7: من سيجو بربيجا (قونقة). لوحة مجمعة 48: إفريقية؛ 8، 9، 10، 11، 12 من قرطاج؛ 4، 13 ربما كان من المصدر المذكور نفسه وجرت الإفادة منها في مسجد قيروان الجامع. لوحة مجمعة 49: هناك تمع قطع (من 15 إلى 21) توجد في صحن كنيسة سان سلبادور بإشبيلية حيث كان هناك مسجد عمر بن عبدس الذي تأسس في عصر عبد الرحمن الثاني، حيث بقي جزء من المئذنة؛ ومن العناصر البارزة نجد أسبنة ذات نبات الأكانتوس ذي الأشواك حيث جرى إعادة استخدام بعضها في المصلى القرطبي الذي ربطه جومث مورينو ببعض القطع في

الأملس، حيث إن هذا الأخير قليل الشيع في المعاجر الأصلية، وهذا هو المؤكد فيما يتعلق بقرطبة ومساجد إفريقية التي ترجع إلى القرون الأولى لظهور الإسلام (نجد في المسجد الجامع بالقيروان ما لا يزيد على 14 تاجاً أملاًساً)؛ وعلى أي حال فإن العرب لا بد وأنهم أعطوا أولوية للتيجان المزخرفة كحاملة لقيم فنية أو أنها تسر الناظرين فنياً، كما أنها قطع فنية تسبب إلى ثقافة أخرى أرقى، أو أن ذلك نوعاً من التعبير عن التقصير عليها، أو سيطرة الطقوس الإسلامية على الطقوس الوثنية. وبالنسبة لتواعد الأعمدة نجد أنها من القطع التي يصعب تحديد مكانها كما أنه من الصعب ربطها بأبدان الأعمدة، والشيء نفسه نجد بالنسبة للحدائر أو الحليات المعمارية المتموجة في تزاوجها مع التيجان أو منابت العقود. وبالنسبة لأبدان الأعمدة من الواضح للعيان كيف أن المعماريين كانوا يختارونها حسب الألوان، فكان منها ذات اللون الأخضر، والوردي، والرمادي، والأحمر، والأبيض، والأزرق، أي تشكيلة كاملة من الألوان، وبالتالي فنجد وضعها في حرم المسجد تتم عملية الانتقاء بشكل دقيق، حيث تعطى الأولوية للأحمر والأخضر والأبيض في المسجد الجامع بالقيروان، وقد وضعت تلك الأبدان بشكل يحدد موضع مسجد داخل المسجد العام، وهذا أمر جديد تماماً عندما نضع في الحسبان بعض النماذج الخاصة بالعمارة البيزنطية؛ ولا أرى أن هذه العادة أو هذا التوجه الذي نراه في القيروان قد انتقل إلى قرطبة، فربما حدث العكس، حيث نجد في ذلك الجزء الذي يرجع إلى عصر عبد الرحمن الأول أبدان أعمدة من اللون نفسه في الرواق المركزي تقابلها تنويعاً أخرى من الألوان في غابة الأعمدة بالمسجد، أما في الرواق الرئيسي الخاص بالتوسعة التي جرت على هذا المبنى (الحكم الثاني) فإننا نجد اللون الوردي والأزرق في تبادل فيما بينهما، وقد بدأ ظهورهما في مسجد مدينة الزهراء وصالوناتها.

تدفعنا دراسة التاج القديم الذي أعيد استخدامه

إيطاليا، وهي قطع محفوظة الآن في متحف الآثار بإشبيلية. لوحة مجمعة 50: هناك تيجان من Volubilis (المغرب)، أرقام 22 حتى 27، وحول هذه القطع تحدث تورس بالباس مؤكداً على وجهة نظر Thouvenot، حيث كان هذا الأخير يرى بوجود علاقة بين تيجان أعمدة Volubilis وبين تيجان أخرى في إشبيلية وإيطاليا وقرطبة. يلاحظ أن رقم 24، 25 من تدميس (الجزائر).

تحدث فيما يلي عن تيجان متفرقة ذات تأثيرات أو أصول قوطية. لوحة مجمعة 51: 28 من مزرعة تورنيولوس (قرطبة) حيث كان المكان الذي فيه قصور الإمارة في الرُصافة (أنطونيو أرخونا ومارخيل رويث)، 29: من متحف الآثار في إشبيلية، إضافة إلى تاج عمود آخر في شارع / الملك بدرو في إشبيلية، 1-29: من مجموعة روميرو دي تورس بقرطبة، 30: تم انتشاله من سان فرانسيسكو، إشبيلية، (خيسستوس)، 31: قطعة أعيد استخدامها في مسجد عصر الإمارة بقرطبة، 32: من صحن مصلى سان بارتولومية بقرطبة، 33: على سبيل المقارنة، قطعة من فاس مصدرها بولوبيلس Volubilis (المغرب)، 34، 35: من متحف الآثار بقرطبة. لوحة مجمعة 52: هناك عدة قطع بين رومانية وقوطية نراها في متحف الآثار بقرطبة من 36 إلى 41؛ 40: من متحف المسجد الجامع بقرطبة. لوحة مجمعة 53: هناك عدة تيجان قديمة ذات مصادر متعددة، 42: من جيان، 43: أربعة تيجان أعمدة قرطبية، 44: من متحف الآثار بقرطبة، 45: من رندة، 46: من مصلى إرميدس دي ثراتو (بلنسية)، 47: عشر عليها في باجة (البرتغال).

هناك تيجان أعمدة قديمة أعيد استخدامها في المسجد الجامع بقرطبة (عصر الإمارة): لوحة مجمعة: 54: في حرم المسجد التابع لعبد الرحمن الأول، من 48 إلى 53، لوحة مجمعة 55 من حرم المسجد الذي شيد في عصر عبد الرحمن الأول، من 54 إلى 62، أما 56 فهي، بالمقارنة، متوافقة مع رقم 57 من متحف الآثار

في بطليوس، وقد صنف على أنه روماني طبقاً لـبازيرا أنطون. لوحة مجمعة 56: تاج عمود من الكاثار دي إشبيلية، (ق 9 طبقاً لجومث مورينو)، رغم أن شكله روماني، وهو يشبه تيجان أعمدة في قرطاج وسوسة (تونس)، و B يحمل اسم عبد الرحمن الثاني، قراءة ليضي بروقتسال، وهي من القطع التي توجد الآن في المتحف الوطني للآثار بمدريد، C: على سبيل المقارنة، قطعة من متحف الآثار في بطليوس (بازيرا أنطون).
لوحة مجمعة 57: تيجان أعمدة يفترض أنها عربية ترجع إلى (ق 9)، طبقاً لجومث مورينو، نجدها في المسجد الجامع بقرطبة من D إلى I؛ أما تيجان بند F فهي في مجموعات من أربعة توجد في محراب المسجد الجامع في عصر الحكم الثاني؛ H: هو من حرم المسجد في عصر الإمارة وهي نموذج للقطع السابقة؛ هناك قطعة شديدة الشبه بالسابقة نراها وقد أعيد استخدامها في الخيراندا بإشبيلية. لوحة مجمعة 58: تيجان أعمدة يفترض أنها ترجع إلى عصر الإمارة، (ق 9)، بالمسجد الجامع بقرطبة، طبقاً لجومث مورينو، حيث يلاحظ ذلك في M، L، J، K تاج عمود يرجع إلى عصر الإمارة، ويرى هـ. ترأس أنه عثر عليه في مراكش؛ L.L: تاج عمود يرجع إلى عصر الإمارة أعيد استخدامه في مبنى قرطبي (أ. أرخونا كاسترو)؛ N: تاج يرجع إلى عصر الإمارة بمتحف الآثار في قرطبة. لوحة مجمعة 59: هناك مجموعة أخرى من التيجان المتفرقة وغير معروفة المصدر، ويفترض أنها ترجع إلى عصر الإمارة، أو إلى عصر الانتقال من القرن التاسع إلى القرن العاشر؛ O: من معهد دي بلنسية للسيد خوان دي مدريد؛ P: من متحف الآثار بقرطبة؛ Q: من دليل طريف؛ R، S: أعيد استخدامها في برج كاربيو الحربي (قرطبة)؛ T، V، W، X: هي تيجان أعيد استخدامها في مسجد القرويين بفاس، ق 12 (هـ. ترأس).

لوحة مجمعة 60: عدة قطع قرطبية من متحف الآثار بقرطبة، يفترض أنها ترجع إلى عصر الامارة.

استخدامها في المسجد الجامع بالقيروان، حيث يلاحظ أن البنية تشبه الجرس أكثر من كونها أسطوانية؛ هناك أيضاً القليل من التيجان ذات النمط الكورنثي وبعض التيجان المركبة التي تشبه أخرى أعيد استخدامها في الجزء الذي شيد في عصر الإمارة بالمسجد الجامع بقرطبة، وربما كان هذا مؤشراً على أن هذه المدينة قد تلقت قطعاً من أفريقية أثناء القرنين الثامن والتاسع، الأمر الذي لا نستتريه بناء على وجود قطع من الرخام التي جرى استيرادها من هذا البلد البعيد لتكون جزءاً من بنية قصور مدينة الزهراء طبقاً لرواية المقرئ. وسوف أقدم على التوالي، بعض اللوحات المجمعة التي تضم عدداً من التيجان الملساء التي ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام في كل من إفريقية وبولوبيليس Volubilis. إضافة إلى لوحات مجمعة بها تيجان ملساء قرطبية ترتبط بالمسجد خلال القرن العاشر.

لوحة مجمعة 62: من 1 إلى 6 من قرطاج؛ 3: أعيد استخدامه في صحن المسجد الجامع بالقيروان، ورقم 7 من بولوبيليس؛ لوحة مجمعة 63: 8: تاج كورنثي من متحف الآثار في بظليوس (بازيرا أنطون)، 9: تاج أعيد استخدامه في مقر مسجد مرتولة (البرتغال)؛ 10: تاج أعيد استخدامه في صحن مسجد سانتا كلارا، ترميم مسيحي، ويمكن أن ترجع التيجان الثلاثة إلى العصر الروماني المتأخر. 11: تاج من مسجد قرطبة، عصر الإمارة، يرتبط بتيجان أخرى في قرطاج أو المسجد الجامع بالقيروان وهذا ما سنراه لاحقاً. لوحة مجمعة 64: 12، 13، 14، 16، 19 من صحن المسجد الجامع بقرطبة؛ ورقم 19 كورنثي وربما كان قديماً أعيد استخدامه؛ 15: من الجزء المشيد خلال القرن العاشر. 17، 18 أعيد استخدامها في منازل معاصرة في قرطبة. لوحة مجمعة 65: 20، 21، 22 من صحن المسجد الجامع بقرطبة، رقم 23 من حرم المسجد، في عصر الحكم الثاني؛ وهناك واحد من الثلاثة الكائنة في الصحن يتسم بكبر حجمه، مثل رقم 23 في حرم

من Y-II حتى Z؛ لوحة مجمعة 61: تيجان أعمدة خلافة، 3: من المسجد الجامع بمدينة الزهراء؛ رقم 1 في متحف الآثار بقرطبة، وقد درسه تورس بالباس، وفيه نلاحظ نوعاً من الحصرية في التقنية المستخدمة وهي السنبلة باستخدام الشطف، طبقاً للموروث القوطي (لوحة مجمعة 1-61 من ماردة) رغم وجود بعض القطع المشابهة في أطلال قرطاج (لوحة 1-61، A)، وهناك تاج له الأسلوب نفسه، تم العثور عليه في ريكوبوليس، 2: نمط عام من تاج يرجع إلى عصر الخلافة القرطبية في قصور أو منارات حيث نرى صوراً طبق الأصل له في بعض التيجان التي نراها في الأجزاء العليا لمقصورة المسجد الجامع بقرطبة في التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني، 4: مجموعة من الأكتاف Pilastras المزخرفة ولكل تاجه الخاص به، طبقاً للابورد، وهي تيجان رومانية وقوطية، الستة الأولى منها، أما السابع فهو من المسجد الجامع بقرطبة، التوسعة التي جرت في عصر الحكم الثاني؛ لوحة مجمعة 1-61: ماعدا A، B، كلها من مسجد مدينة الزهراء، ورقم 8 من متحف الآثار في إشبيلية؛ ولدراسة التيجان المزخرفة من المستحسن مقارنة تلك القرطبية بالقدية التي أعيد استخدامها في مسجد القيروان طبقاً لدراسة ن. الحرّازي.

تركز التيجان الملساء في المسجد الجامع بقرطبة في التوسعات التي جرت خلال القرن العاشر الميلادي والصحن الذي تمت توسعته في عصر عبد الرحمن الثالث، وكذا ما أتى من توسعة في عصر المنصور، وهناك بعضها، من اثنين إلى ثلاثة، تُرى في المسجد الذي شيد في عصر الإمارة أعيد استخدامها خلال القرن العاشر، طبقاً لكريزور ومع هذا فهناك ما لا يقل عن تاج واحد فيه ملامح قديمة، ولكن دون أن ننسى أن بائكة مهمة في بولوبيليس (المغرب) فيها تيجان ملساء من الصنف المركب، وهي شديدة الشبه بما نجده في مسجد قرطبة، في تبادل مع تيجان كورنثية. وفي الوقت نفسه، نخرج على قرطاج حيث هي مصدر الكثير من القطع التي أعيد

المسجد، أما الآخران فهما صغيران مثل أغلب التيجان الباقية التي أعيد استخدامها في بوائك الصحن خلال القرن السادس عشر. وهذه القطع الأربع المشار إليها تضم حليات معمارية متموجة Cimacio ذات شكل صليبي، وهو نموذج فرض نفسه على حرم المسجد الذي يرجع إلى القرن العاشر، لكن الأذرع هنا أصغر أو أنها عبارة عن مستطيلات بارزة كحوامل للأكتاف الحاملة للعقود العلوية، ومن هنا فطبقاً لرؤية فيلكس إيرنانديث لا بد أنه جرى نقل بعض القطع من داخل المبنى الذي شيد في عصر الخلافة عندما جرت عليه تعديلات قام بها المسيحيون ابتداء من القرنين الخامس عشر والسادس عشر، في دهايز الصحن الحالي؛ ومع هذا، فطبقاً لما أشرت إليه سابقاً، يبدو أن الحليات المعمارية المتموجة كانت في بعض الحالات أو أكثرها ذات شكل حرف T وتصبح الكوابيل كأنها مستطيلات تقوم بدور الحامل لأطراف الطنف الذي يقوم بدور التريباع للعقود في الصحن، ق 10، لوحة مجمعة 66: 24، 25، 26، 27؛ تيجان ملساء من حرم المسجد (عصر الإمارة) (قرطبة)، رقم 24؛ شكله قديم وربما كان قطعة ترجع إلى عصر ما قبل الإسلام.

أما باقي القطع فربما جرى نحتها لتكون جزءاً من التوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثاني والتي استكملها ابنه محمد الأول، وهذا يمد بمثابة الإعلان عن تيجان ملساء خلال القرن العاشر، والملمح المميز لها هو الشكل الإسفنجي التي يتوج اللوائف Volutas، في مواجهة التجميدات التي نلاحظها في تيجان القرن العاشر، ورغم هذا ربما أمكن ظهور كلا النموذجين خلال القرنين التاسع والعاشر. لوحة مجمعة 67: 28، 29، 30، 31، 32؛ تيجان كورنثية توجد في الصحن الحالي بالمسجد الجامع بقرطبة، 33، 34 هي قواعد أعمدة ملساء وصغيرة في الصحن المذكور. لوحة مجمعة 68: تيجان من المسجد، (ق 10)، A.a - كتف؛ b,d,e من الحرم، c من الصحن الحالي (رسم فيلكس

إيرنانديث)؛ انظر، على سبيل المقارنة، التاج الأملس رقم 11 في اللوحة المجمعة 63، يرجع إلى ما قبل عصر الإسلام، يوجد في مبنى الجامع في عصر الإمارة (قرطبة)، والتاج رقم 35 من اللوحة التي بين أيدينا من المسجد الجامع بالقيروان، من النمط القرطاجي؛ أما أنماط التيجان في A فقد ربطها فيلكس إيرنانديث بقطع من ورش قرطبية قامت بالعمل في منطقة في قطلونيا، كورنليا وباجس، كما أن بعض سماته التي على شكل ساق للنبات المتعانق نجدها في تاج صغير بالمسجد الجامع في تطيلة. والتاج رقم 36 (سوتو لاسالا) من المسجد الجامع بسرقسطة، لاسيو، ويبلغ الارتفاع على شكل شبيطة والجديد هو الورقة المقلوبة بين اللوائف على شكل ساق نبات، لوحة مجمعة 69: 1؛ الشكل الحالي للبوائك، (ق 16)، من المسجد الجامع بقرطبة، مع وجود تيجان ملساء إسلامية أعيد استخدامها، وبلغت الانتباه العقود الثلاثية المتساوية أو الثلاثي البيزنطي الذي نراه في مداخل قصور مدينة الزهراء؛ هناك بعض الحليات المعمارية المتموجة على شكل صليبي، بينما أخرى لا تسير المتوال نفسه؛ 2، 4؛ عملية إعادة هيكلة للبوائك في مسجد مدينة الزهراء مع المئذنة التي نراها في العمق؛ 5؛ مخطط صحن المسجد نفسه؛ 3؛ قاعدة عمود ومنبت بدن عمود في الزاوية الشمالية الشرقية من الصحن بالمسجد نفسه.

لوحة مجمعة 70؛ حليات معمارية متموجة؛ ودون أي تفرقة بين الحرم الذي يرجع إلى القرن الثامن والتوسعة التي جرت خلال القرن التاسع، يلاحظ أن الحليات هذه عبارة عن قطع قوطية مزخرفة من 1 إلى 14؛ ألحقت بهذه اللوحة أرقام 9، 10، 11 (ق 10) التي جرى نحتها سلفاً من أجل قصور مدينة الزهراء، كما أشرت في صفحات سابقة إلى كافة الحليات المعمارية المتموجة cimacio بالمسجد الجامع بقرطبة، التي ترجع إلى التوسعة التي جرت في عصر عبد الرحمن الثالث - الصحن - والحكم الثاني والمنصور، وأنها كلها ملساء،

لقصور مدينة الزهراء، وفي اللوحة المجمع 71 - 1 نجد المخطط العام يضم خطوطاً غائرة لحليات معمارية متموجة، (ق 10)، بناء على القطع التي عثر عليها في مدينة الزهراء، في المسجد والقصور؛ وبدون الخطوط الغائرة نجد أن النموذج هو رقم 1 (فيلكس إيرنانديث) من النمط الكلاسيكي، ومع نهاية القرن العاشر نجد أن المسجد القرطبي كان يضم ما إجماليه 561 عموداً، منها 355 ملساء ذات نمط عربي جديد.

حالة المسجد الجامع في تطيلة:

يرجع هذا المسجد، من حيث المبدأ، إلى القرن التاسع طبقاً لجومث مورينو، لكن الحفائر التي جرت مؤخراً في الكاتدرائية، حيث كان المسجد، تشير إلى أن صحن هذا المسجد هو صورة طبق الأصل لصحن المسجد الجامع بمدينة الزهراء، الأمر الذي يدفعني إلى التكثير في أن هذا المسجد قد شيد خلال القرن العاشر، وربما كان ذلك إعادة بناء أو توسعة للمسجد الذي كان مشيداً خلال القرن التاسع، وما يؤيد هذا الافتراض وجود الكوابيل Modillones من الحجارة، التي كانت للمسجد السابق، إضافة إلى وجود كتف ذي نمط هندي يشبه ذلك الذي عليه آخر في المسجد القرطبي في عصر الحكم الثاني، ولا تساعدنا تيجان أعمدة مسجد تطيلة كثيراً في حل المشكلة الخاصة بوجود مسجدين في مسجد واحد، من خلال المقارنة بينهما وبين المقرنسات التي تحمل السمات الفنية نفسها، والتي ربما كانت أقل دقة في الإخراج، حيث نشهد بعض السمات القديمة بدءاً بتاج عمود صغير كورنشي (لوحة مجمعة 72 - 2: 5) تصاحبه بعض السيقان النباتية المتعامدة، وربما كان ذلك تقليداً لبعض التيجان الملساء التي درسناها في صحن المسجد الجامع في قرطبة إضافة إلى بعض الأبرشيات الخاصة بالسيقان الغائرة الكثيرة الشيوخ في الكتل الحجرية بمدينة الزهراء،

كما أشرت إلى تلك الخاصة بالمسجد الجامع بالزهراء والمجالس الملكية بهذه المدينة ماعدا القطع الثلاث المشار إليها إضافة إلى قطع أخرى مصدرها قصر الأمير هشام الواقع غرب الشرفة العليا. وعلى القارئ أن يلاحظ في هذه اللوحة المجمع الشبه بين الكورنيش الذي يشبه إحدى الحدائر (7) بالمسجد الجامع بالقيروان، وبين رقم (8) في حرم المسجد (عصر الإمارة) بقرطبة الأمر الذي يمكن أن يقودنا إلى التعرف على حدائر عقد، ربما كان قوطياً، يوجد عند مدخل جسر ماردة (انظر لوحة مجمع 1-4: الفصل الأول). إضافة إلى هذه القطع التي توجد في كنيسة سانتا ماريا دي ملكي (طليطلة) التي يفترض أنها مستعربة. هناك بعض الحليات المعمارية المتموجة التي جرى نحتها لهذا الغرض، الأمر الذي يفسر قلة عدد القطع القديمة المزخرفة، وكان الإيقاع السائد في العمارة البيزنطية بالنسبة للحليات المعمارية المتموجة هو عدم اكتمالها من الناحية الزخرفية، وبالنسبة لبعض الكنائس المستعربة في الشمال نجد بعض البوائك ذات الحليات المتموجة المنحوتة عن قصد، إضافة إلى أخرى ملساء. ويلاحظ أن المساجد المعروفة في طليطلة ليس لها الشكل الهرمي المشطوف الذي يستخدم كحلية معمارية متموجة، ففي كنيسة السلبادور جرى جمع كتل حجرية موشورية جديدة، لها شكل وحجم واحد، بين التاج والعقد، ومع هذا جرت العادة في إحلال الحدائر ذات الحلية المقررة nacela محل الحلية المعمارية المتموجة الكلاسيكية، سيراً في هذا على خمل بدأ مع العقود التي توجد في الأبواب الأموية القرطبية، بدون أعمدة، وبعض العقود المطموسة في حوائط مدينة الزهراء، لكن الأمر لم يكن على هذا المنوال في غرناطة، حيث نجد أن الأعمدة الأموية التي أعيد استخدامها في المسجد الجامع في حاجة إلى حليات معمارية متموجة، مثل تلك المستخدمة في «بانيويلو» المدينة (ق 11).

أضيف في اللوحة المجمع 71 بعض التيجان المزخرفة التي ترجع إلى القرن العاشر، وقد نحتت

الأرضية في عدد غير قليل من المساجد من الجص وبعض قطع الحجارة والأجر وقد ظهرت كلها وكأنها من الجص في مسجد فونتاناو بقرطبة ومسجد تشينو بلورقة (مرسية).

25- مشكلة الأسقف الخشبية في المساجد، وما يوازيها في العمارة المدجّنة،

كانت بلاطات المسجد الجامع في قرطبة التي أنشئت خلال عصر الحكم الثاني ذات أسقف مسطحة ماعدا منطقة القبة أو القباب الثلاث الكائنة أمام المحراب وتلك الرابعة الكائنة عند منبت الرواق الرئيسي لحرم المسجد (مصلّى بيايثيوسا) حيث نرى السقف عبارة عن أقبية ذات أوتار حجرية، وسوف أتحدث عن هذه وتلك في الفصل الثاني؛ ولابد أن السقف المستوي كان هو النغمة المسيطرة قبل ذلك في قصور مدينة الزهراء، طبقاً لعملية إعادة تصوير المكان على يد هيلكس إيرنانديث، أي «الصالون الكبير»، وربما كان الأمر كذلك في المسجد الملكي، ومع هذا فإنها لم تحقق لم يصلنا أي دليل من هذه المباني يتعلق بالأسقف، فقد كان السقف وكل ما هو خشبي غذاء للنيران عندما تعرض المكان للنهب خلال السنوات الأولى من القرن الحادي عشر. نشر أنطونيو فرنانديث بويرتاس بحثاً عن سقف قرطبي ذي بنية مسطحة، وهو يرجع إلى القرن العاشر، على ما يبدو؛ استناداً إلى زخارف بعض كمراته (لوحة مجمعة 73: 1) ولابد أنه سقف صالة قصر، وكانت الكمرات تستند إلى كوابيل modillones ذات شكل حلية معمارية مقعرة nacela، وهنا ينطبق على الأقل، على تلك الملاصقة للأسقف الجمالونية. وفي طليطلة هناك العديد من المعارضات الخشبية المزخرفة على الطراز الأموي القرطبي، وكانت الزخارف نباتية أو هندسية منقولة عن الكتل الحجرية التي كانت في مدينة الزهراء، وهي في أغلب أحوالها عبارة عن مآذر

من رفائيل كاستيخون وتورس بالباس دراسة فنية عن هذه الأرضية، ويشير الباحث الثاني إلى أن الأرضية كانت من التراب المدقوق والمصحوب بالمفرّة، وأنه قد شوهت خلال القرن السادس عشر أجزاء من الأرضية من التراب وأخرى من الأجر؛ وخلال القرن الثامن عشر نجد أن القطاع السابق على المحراب والأجزاء الجانبية كان مبلطاً بالرخام من النوع الرديء، وهنا يتضح أن الأرضية المكونة من التراب المدقوق أو الجص، طبقاً لما نراه حتى الآن في المساجد الكبرى، كانت مغطاة بالحصير أو بعض قطع السجاد؛ وبالنسبة للمسجد القرطبي يلاحظ أن الشاهد على وجود الحصير جاء من مسجد مدينة الزهراء حيث ظهرت آثارها التي طبعت على الرصاص المصهور الذي سأل من الأعمدة بسبب الحريق الذي تعرض له المكان خلال السنوات الأولى من القرن الحادي عشر؛ أضف إلى ذلك أن الرحالة الألماني المتذّر كان واضحاً في وصفه بالنسبة للمسجد الجامع بغرناطة، حيث رأى الأرضية الداخلية مفروشة بالحصير وكذلك الأعمدة ملفوفة بها، وهنا يشير تورس بالباس إلى أن ذلك ربما تعلق بالجزء السفلي منها، وخاصة ذلك الجزء أو الزوايا الخاصة بقواعد الأعمدة، في حال وجودها، والتي أزيلت خلال التوسعة التي جرت في المسجد الجامع بقرطبة، وعلى هذا نرى قطع المحراب وقد تزيّنت أرضيته بالرخام في التوسعة التي تمت في عصر الحكم الثاني، حيث إن هذه المنطقة ومعها المقصورة كانت موازية معمارياً للصالون الكبير في مدينة الزهراء، حيث كان كل شيء في الأرضية من الرخام؛ وطبقاً لابن صاحب الصلاة كانت أرضية المسجد الجامع بإشبيلية من الأجر المرصوص على وجهه، سواء من الداخل أو الخارج، وربما كان في هذا يسير على شاكلة المسجد الجامع في ألمرية، حيث هناك تشابك في رمّ قوالب الأجر في شكل متعرج، أو شكل سنيلي، وهي من الأشكال التي كانت سائدة في الأرضيات الخاصة بمباني مدينة الزهراء. وكانت

جرى تقليدها، خلال القرن التاسع، في المسجد نفسه غير أن البنية كانت هذه المرة مدهونة، وكانت الكوابيل ذات رؤوس بها لفائف، وخطاطيف وعلى شكل حرف SS بشكل متراكب (نوحة مجمعة 74: A طبقاً لرسم لمارسيه)؛ ويشبه ذلك كثيراً السقف المدجّن الذي يرجع إلى القرنين الثاني عشر والثالث عشر في سان ميان في شيقوية، طبقاً لرسم أعدّه جرتيا إي أويوس إي خافر، نشره تورس بالباس (B) وهذا نموذج مهم للغاية نظراً لرخارفه الرائعة التي تتجاوز البنية المسطحة لأروقة المسجد الجامع في قرطبة خلال القرن العاشر، وبالتالي فإن هذا السقف الذي يوجد في شيقوية يدخل في دائرة العناصر الزخرفية الرفيعة في القيروان يغذي فكرة العلاقات الفنية بين هذه المدينة والأندلس؛ وربما كان النموذج الذي نراه في سان ميان نوعاً من التقليد لقصر إسلامي أو مسجد رال من الوجود، كما أن استخدام الأسقف المسطحة من الخشب يرجع إلى العصر التوراتي، ويرتبط الأمر بتوافر الأخشاب في كل منطقة أو إقليم، فالكنايس الأولى خلال العصر المسيحي والبيزنطي كانت ذات أسقف خشبية، وظل هذا العرف سائداً حتى مع ظهور القباب الحجرية التي فرضت نفسها ابتداءً من زمن الإمبراطور جوستيان؛ وطبقاً لما شهدنا في المسجد الجامع بقرطبة، (ق10)، نجدها متوافقة مع وجود القباب ذات الأوتار الحجرية، وكان ذلك الأمر أيضاً في إفريقية؛ ومن المعتقد أن هذا الموروث كان موجوداً في المباني القوطية قبل قرطبة الأموية؛ وتحديثاً المصادر العربية في هذا المقام عن مسجد أفليش الذي زال من الوجود (قونقة) عاصمة كورة سانتابر، فطبقاً للحميري كان يوجد بهذا المسجد خمسة أروقة حيث يبرز الرواق المركزي بسقفه المكون من كمرات خشبية كبيرة، أما في المشرق فإن أول مبنى للمسجد النبوي كان ذا أسقف خشبية، وظلت الأسقف التالية سائدة على هذا النهج في المساجد الأولى كافة في بداية عصر الإسلام بفرض النظر عن الإقليم

مرتبطة ببنى مسطحة (نوحة مجمعة 73: 6، 7، 8، 9)، وتكثر في هذه الزخارف تكوينات من الميديايات المخصصة والمترابطة بالتوريقات المتنوعة التي توجد في الخلفية، وهي كلها متماثلة رغم أن السمة الفنية متطورة بالمقارنة بما نراه في الأفاريز الحجرية بمدينة الزهراء (7) (1-7)، وتشير إلى أن انتقال العنصر الزخرفي من الكتلة الحجرية إلى الخشب أمكن تنفيذه في المدينة الملكية، وهذا ما تؤكد الكوابيل الكثيرة الطليطلية الخشبية التي على شكل مقدمة مركب ذات معارة (3) وتشبه المقرنسات الحجرية التي عثر عليها في شرفة «الصالون الكبير» بمدينة الزهراء، إضافة إلى ألواح طليطلية ربما كانت موجودة فوق الكمرات الخاصة بالسقف المسطح، كما أن زخارفها منقولة أيضاً من الكتل الحجرية بمدينة الزهراء (11)؛ ولتأكيد لهذه التوازيات نجد أن الكوابيل الطليطلية توجي في ذلك الجزء الخاص بالحلية المعمارية المنقورة بها والعليا بوحدة زخرفية ناجمة عن التبادل بين الورقات والسعفات المزدوجة المأخوذة عن الكتل الحجرية الخلافة القرطبية (2)، ونرى في طليطلة، على طول تاريخها المدجّن، بعض الأشرطة تحت رفاف السقف والمرخفة بالميديايات أو العقود المفصصة، حيث نرى أشرطة مزينة بوريدات مكونة من أربع بتلات أو مجرد نقاط أو دوائر صغيرة (6 - 1، 2-6)، وعلى هذا يمكن القول بأن هذه المدينة شهدت شيوع السقف المسطح وخاصة في صالات القصور والمباني الخاصة، وجاء ذلك ابتداءً من النصف الثاني من القرن الحادي عشر، أثناء حكم المأمون، أحد ملوك الطوائف، وقد استخدم هذا في بعض المساجد الرئيسية الحضرية أو الخاصة.

من المؤكد أننا نعرف أنه قبل هذه الأسقف الإسبانية المسطحة كان المسجد الجامع في القيروان يحملها خلال القرن التاسع (ج. مارسيه و ل. جولفن)، وكان السقف من الألواح ذات العتب تستند على الكمرات غير المعدة جيداً والتي تنكس هي الأخرى على كوابيل، ثم

nudillo، وهي مساجد منتشرة في العمارة المدجّنة، رغم أن المتخصصين الفرنسيين (هـ. تراس، ج. مارسيه) سلطاً جلّ جهدهما في دراسة هذا النمط من السقف الذي يغطي واحدة من أروقة مسجد الكتبية الموحدي بمراكش، (لوحة مجمعة 75؛ 1 طبقاً لـ جولفرن)، وكان السقف يغطي الصالة أو الرواق الواسع بشكل نسبي ومع هذا استغنى عن روابط الحملات الخشبية التي هي من سمات العمارة المدجّنة المعروفة، ومع هذا فهي هناك، تحملها الكمرات من الطراز الإسباني الإسلامي، في البلاطة الرئيسية بالمسجد الجامع في تلمسان، وقد رسمها ج. مارسيه (2)؛ وبالنسبة لنمطية السقف الذي نحن بصددته نجد أن السابقة الأولية تتمثل في نمط «زوج Par والبراطيم hilera، وربما كانت أوروبية الأصل، حيث يعتقد «النويري» أنها دخلت إلى الأراضي الإسبانية من خلال العمارة القوطية، ثم انتقلت بعد ذلك إلى الكنائس المستعربة في الشمال، أي تلك التي أمكن لها أن تكون ذات أزواج Pares من الحملات؛ ولابد أن بنية «أدية وشناوي»، بالمعنى التقليدي لها، كانت قائمة في المسجد الموحدي الجامع بإشبيلية، حيث كانت الأسقف، طبقاً لابن صاحب الصلاة، من الخشب، ويؤكد أثرها ألفونسو خيمينث، حيث ظلت في الأسقف الخاصة بالرواق الوحيد، وهو ما يسمى بـ Lagarto (الضّب)، وظلت مستمرة في دار العبادة الإسلامية، وحتى يوضح ذلك المعماري نظريته يستعين بتقرير كتبه ألفونسو دي مورجانو يرجع إلى عام 1586م، حيث كانت قائمة، حتى ذلك الحين، بوائك الصحن؛ يقول التقرير: «إن الأروقة لها أسقف تساعد على التهوية وجيدة الإحكام... أما الحملات والبراطيم فكانت أطرافها مدمجة في الحوائط، وكلها من خشب الزيتون وهو خشب متين لا يفنى بسرعة... وهذا يدفعنا إلى القول، طبقاً لألفونسو خيمينث، إن هذا السقف الذي على شكل مقبّح ربما كان السقف الأقدم في إسبانيا، وهو بداية لمجموعة ضخمة من الأسقف ذات الحملات في العمارة

ويغض النظر عن توفر الأخشاب من عدمه، أما القبة الحجرية أو المشيدة من الدبش فقد كانت مقتصرة على المباني الحربية والقصور. وكان سقف المسجد الجامع بدمشق مسطحاً وبه ألواح من الخشب مقطّاة بطبقة من الرصاص، طبقاً للرحالة الأندلسي ابن جبير، الذي زار المسجد، خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر؛ واستناداً إلى كروزويل نجد أن البنية المسطحة للسقف في سامرا تضم كتلاً من الخشب تقام بشكل رأسي لحمل الكمرات، وهذا مفهوم بينظلي قديم، يبدو أنه لم يكن له مكان في المسجد الجامع بقرطبة. لكن هذا كان قائماً، كما رأينا، في المسجد الجامع بالقيروان وفي كافة الأسقف خلال الفترة المدجّنة؛ ومن الخشب أيضاً كانت الأقبية الأولى أو القباب القائمة في منطقة التقاطع بين الرواق المركزي وذلك الموازي لحائط القبلة، وكان ذلك ابتداء من عصر مسجد المدينة؛ وربما كان مسجد دمشق والمسجد الأقصى والمبنى الأولي لمسجد القيروان يسيرون على الشاكلة نفسها، ولكن دون أن نعرف على وجه اليقين فيما إذا كان هذا الصنف الخاص من الأسقف قائماً في مبنى المسجد القرطبي خلال عصر الإمارة، أو في المبنى الأول لمسجد بتشيّنا (ق 9) الذي وصفه بإيجاز كل من العذري والحميري؛ واستناداً إلى عملية إحلال القباب الحجرية، أو من الدبش، محل هذه الأسقف في تاريخ لاحق (ابتداء من عام 868م في القيروان) يمكن القول إن الشيء نفسه حدث في قرطبة، وبالتالي فإن القباب الحجرية التي ترجع إلى التوسعة في عصر الحكم الثاني كانت محل تلك الخشبية التي زالت من الوجود والتي كانت ترجع لعصر عبد الرحمن الأول والثاني؛ ومن الطبعي أن يبدو أن مسجد مدينة الزهراء لم يكن له قبة مشيدة من الحجارة.

ما ينقصنا هو نماذج من المساجد الأندلسية ذات الأسقف الخشبية من ذلك الصنف المعروف بوحدة الكتل الحجرية على طراز براطيم وجوائز par

تطور علمي طائفة مختلف الأجزاء (لوحة مجمعة 74: 1، 2، 3، 4، 5، 6 و لوحة 75: 7، 8) يمكن أن تكون منبثقة من أسقف المساجد مثل التي سبقت الإشارة إليها في المساجد الموحدية مثل مسجد الكتبية وتلمسان ومسجد إشبيلية، وقد زالت كل هذه الأسقف وحلت محلها أخرى حديثة لها الشكل نفسه بالنسبة للمساجد الصغيرة مثل مسجد Cuatrohabitas في إشبيلية ومسجد فينيانا في ألمرية، وبالنسبة للبني الطليطلية المشار إليها نجد، في الأشرطة المدهونة، وفي الفواصل بين البراطيم (إيجلسيا دي أوكانيا)، أو تحت البنية، ذات الشكل الذي يبدو كأنه حلية مقمرة (مسجد سانتياجو دل أزابال)، نقوشاً كتابية تتحدث عن السعادة والهناء بالخط المائل أو بالكوفية باستخدام اللون الأحمر والأبيض والأصفر، وقد امتدت هذه الموضة لتشمل سقف المعبد اليهودي الترانستو، والنقوش الكتابية نفسها التي رأيناها في «صحن» دير لاس أوليجاس ببرغش ونوافذ كنيسة سان رومان بطليطلة؛ وفي هذا المقام نجد أن دراسة السقف الذي نجده في أوكانيا (طليطلة) يتسم بالأهمية القصوى (لوحة مجمعة 78): نحن إذن في عصر (ق13) كان للفرقاء الطليطليين فيه قصب السبق في نقل كل نوع من النقوش الزخرفية القادمة من إشبيلية الموحدية وغرناطة النصريين في سنوات حكمهم الأولى، وكان الخط الموازي هو النقش الكتابي للأسقف والزخارف الجصية؛ وكشاهد على هذا النقل المبكر للسقف (أدية وشناوي) إلى إسبانيا المسيحية، وكدليل على استخدام الأسقف نفسها في المساجد، نجد بعض الأسقف التي لازالت باقية في تلمسان، نقلناها من صور نشرها رشيد بورقية (لوحة مجمعة 79: 2، 3، 4) إضافة إلى مسجد Hanra (حنرا) بفاس الجديدة، ودور عبادة إسلامية أخرى ترجع إلى فترة متأخرة؛ وفي مراكز نجد سقف مسجد «سواسين» الذي يشبه كثيراً سقف كنيسة دير «الرابعة» في ويليه (ق15 - 16) (لوحة مجمعة 79: 1): هذه العلاقات

المدججة الطليطلية والإشبيلية؛ وكما نرى، ليس هناك المزيد من الأخبار في الحوليات العربية حول الأسقف الخشبية؛ شهدنا أيضاً، أن مدينة تطوان التي تأسست عام 1147م، بدأت ببناء المسجد، وأُرسل إليها من خلال سبنة الكثير من الكمرات الخشبية لسقف المسجد ولصناعة بابين (ح. خونثاليث باستو).

هناك سقف آخر بدون حمالات أو براطيم نجده في ذلك القصر الذي زال من الوجود، المسمى بينو إيرموسو في شاطبة (لوحة مجمعة 75: 3) وربما كان يرجع إلى الثلث الأول من القرن الثالث عشر (تورس بالباس)، ثم يلي ذلك سقف صالة قصر أو منزل «العلاق» برندة (لوحة مجمعة 76: 1، 2، 3)، إضافة إلى آخر في الصالة الرئيسية في قصر الغرفة الملكية لسانتو دومينجو بفرنطة والذي يرجع إلى القرن نفسه، وهنا نجد الشريط مزخرفاً، لأول مرة، بنقوش كتابية وتوريقات محفورة. كانت من طراز البراطيم والجوائز، هي المستخدمة في سقف مصلى البرطل بالحمراء (5) وهو تقليد لبنية أخرى في الغرفات العليا بقصر البرطل (5 - 1)، وهذه كلها تضعنا أمام بُنى من الصنف نفسه الذي عليه دور العبادة المدججة بطليطلة، ويمكن أن نحسبها مرتبة تاريخياً حيث نجد سقف المعبد اليهودي سانتا ماريا لابلانكا (لوحة مجمعة 75: 4) وسقف سانتياجو دل أزابال (لوحة مجمعة 75: 5، و لوحة 77: 1، 2، 3) وسقف سان خوان دو أوكانيا (طليطلة) (لوحة مجمعة 78) وبعد مرور أكثر من نصف القرن الثالث عشر، أو في بداية القرن الرابع عشر، نجد سقف القصر الأسقي بطليطلة، والذي كان مكوناً من صالة مصلى (لوحة مجمعة 76: 4 طبقاً لرسم جونثاليث سيمتكاس). ويرجع السقف الجميل (أدية وشناوي) في معبد الترانستو بطليطلة إلى منتصف القرن الرابع عشر (لوحة مجمعة 77: 6، 7، 8). ولا يوجد ما يمكن الاعتراض عليه من القول بأن المهارة الفنية التي تشهد عليها هذه الأسقف وما لحق بها من

جاء في تلك السنوات محل الذكر حيث حلت بعد ذلك الأخشاب محل الجص وعشنا نوعاً من الخيال الزخرفي المهم (خوسيه ف. رافولس)؛ وكان المعتاد في طليطلة تلك الآونة وجود أعمال زخرفية جصية بالكامل.

26- المدرسة،

من المعروف أن العمارة الدينية في الشمال الأفريقي اتسمت بكثرة المدارس ومراكز تحفيظ القرآن خلال عصر بني مرين (ق 13، 14) (هناك مدن مثل فاس ومراكش وسالية ومكناس وسبتة وتلمسان، وكذلك في تونس خلال عصر الحفصيين)، ورغم أن الأندلس دخل إلى هذا الحقل متأخراً إلا أنه ضم في مدنه مباني مشابهة وربما كان ذلك في شرق الأندلس خلال القرن الثالث عشر، ومن المؤكد وجود مدرستين في إقليم الأندلس، هما مدرسة ملقة (زالت من الوجود) (روبيراماتا)، وهي مدرسة سابقة على مدرسة غرناطة التي تأسست في عصر يوسف الأول (1349م) (توزس بالباس وكابانيلاس رودريجت) والتي لم يصلنا منها إلا مكان الصلاة، وكانت الفنون الزخرفية المتبعة فيها شبيهة بما نجده في المدارس المغربية؛ وبالنسبة لغرناطة ليس من المؤكد وجود مدرسة إلى جوار المسجد الجامع بالحمراء تأسست على عصر محمد الثالث (جومث مورينو)؛ وكان داريو كانيلاس يعتقد أن غرناطة لم تكن فيها مدرسة غير مدرسة يوسف الأول في المدينة، ومع هذا يقول لنا ابن الخطيب أن محمداً الخامس سمح بإقامة مدرسة مهمة لا تدرى عن مكانها شيئاً، وربما كانت تلك التي ورد ذكرها إلى جوار المسجد الجامع في الحمراء؛ ويرى خيسوس برمودس باريزا أن مجموعة الغرف المصحوبة بمسجد صغير ومئذنة عند مداخل الحمراء، كانت مدرسة، إلى جوار صحن ماتشوكا، وبالنسبة للمساجد في المحافظات يمكن الحديث عن غرفة أو ملحق للمسجد مخصص لتعليم

للغاية؛ 1: سقف كنيسة ساجري دي أوندا (هسطلون)، وهي كنيسة ذات رواق واحد من النوع القوطي في شرق الأندلس وعقود ذات أحجبة diafragmados تراها في كنيسة سان فيلكس في شاطبة (5) ونقوشها اللونية، من أصول عربية، مثيرة للفضول، مع إضافة ترس مسيحي، ظهر واضح المعالم، في جوديللا (بلنسية) هناك كنيسة قديمة ذات عمارة مشابهة للسابقة (2) (3)، ولها كانت متعددة هي صرة السقف almizate، كما أن ذلك نجده في سقف كنيسة سانجري دي ليريا (دم الزئبقية) (بلنسية) (4). وختاماً لهذا الطواف والجرد الموجز للأسقف في شرق الأندلس يجب أن نبرز سقفاً من الجص في إتش، وهو عبارة عن وحدات من المعاجن، وقد جرى ترميمه وتركيبه في متحف الآثار والتاريخ في مدينة إتش، ولا شك أنه كان ينسب إلى مسجد أقيم في فترة متأخرة، أي مع نهاية القرن السادس عشر وبداية السابع عشر (لوحة مجمعة 49: 4 الفصل السادس)، ويضم نقوشاً كتابية عربية جرت قراءتها عام 1890م على يد إي. سايدرا، ونشرها روشي تشاباس وهي نقوش مثل «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، صلى على مولانا وسيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم»، ونقوش كتابية أخرى مثل بعض الآيات القرآنية التي تدعو إلى الصلاة وأن الله «مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»؛ ويشير النقش إلى منفذ الأعمال وهو أبو دية جراش ابن كلمة وأنجز العمل عام 912 من الهجرة (1506م)، وهناك نقش كتابي آخر في إحدى كمرات السقف يشير إلى أنه «الله الواحد القهار الرحمن...» وعبارة أخرى «يارب» ويلاحظ أن النصوص التي تدعو إلى الصلاة وأن الله مع الذين اتقوا... إنما هي من خصوصيات المساجد، وهذا ما يتضح من الزخارف الجصية في مصليات البرطل وقشور الحمراء (جومث مورينو)، أما الجديد بالنسبة لهذا السقف فهو التنفيذ باستخدام الجص بدلاً من الخشب الأمر الذي يشير إلى أن ذلك العمل

الفلاحين، وهو نوع من المدرسة المرتجلة خلف المحراب، وربما كان نموذجاً على ذلك مسجد ضيعة ثنتينو (لورقة) مثلما هو الحال في بعض المساجد في شمال أفريقيا؛ وهي سيغالو Cevala (صقلية) تكاد المساجد كلها تقوم بتحفيظ القرآن على شاكلة ما هو متبع في المسجد الجامع بقرطبة (ابن الخطيب)، وبالتالي فإن تحفيظ القرآن كان يدخل في إطار المسجد مثلما كان عليه الحال في الأزمنة الخوالي؛ أي أن المسجد هو مركز للتعليم، وكانت نصيرة التشدد السني، ثم انتقلت إلى مصر (ق 12، 13) وتونس والمغرب الإسلامي وإسبانيا؛ ويضم الفصل السادس من هذا الكتاب دراسة معمارية لمصلى المدرسة الغرناطية ليوسف الأول (لوحة مجمعة 32)، ويمكن لأي من دارسي الحمراء التفكير في أنه كان في هذه المدينة الملكية مدرسة غير أن مكانها لا زال لغزاً حتى الآن، وخلافاً لذلك فإنني سوف أقتصر على تقديم وثائق تصويرية للمدارس التي شهدت في عصر بني مرين في المغرب وكلها مكونة من صحن واسع تلتف حوله ملاحق للمعلمين ومسجد أحياناً ما تكون له مئذنة. ومن المعتاد أن يكون بالصحن - على الجوانب - البوائك المشيدة من أعمدة أو أكتاف، ويحل محل العقود فراغات ذات عتب، ودائماً ما نجد في وسط الصحن بركة أو حوضاً كبيراً للوضوء؛ ولم يدل الباحثون حتى الآن بالكلمة الأخيرة حول نمطية مبنى هذه المدرسة القرآنية في المشرق أو المغرب (ج. سورديل - ثرمين)؛ فهناك من يقول إنها مبنية فيه صحن تحيط به صوامع ومسجد، ونظراً لهذا النمط يمكن أن يكون مدرسة، أو زاوية كما الضح في فقرات سابقة ويمكن أن يكون رباطاً أيضاً. وهذا نوع من الغموض الذي تتسم به العمارة الإسلامية حيث نجد فيها الوظائف الدينية تتلاءم مع هذا البناء أو ذاك؛ رأينا إذاً أن المدرسة القرآنية أخذت، تدريجياً، مكانها في المسجد وبعد ذلك في ملحق له، وانتهى بها الأمر لتكون مبنى مستقلاً تابعاً أو مستقلاً تماماً له صحنه ومسجده الخاص به لكنه مسجد ليس

كبير الحجم، وأحياناً ما يكون للمسجد مئذنة، كما رأينا، وأحياناً ما تضم مقبرة أو ضريحاً؛ وأمام مخطط المسجد الجامع أو مسجد الأحياء، ذي النمطية المعددة (صحن مصحوب بمئذنة وحرم للمسجد له أروقة متعددة في مخطط متسق تماماً) نجد المدرسة وقد أصبحت ذات شكل غير محدد ومتغيرة ودائماً ما نجد الحوض الخاص بالوضوء في الصحن وكوة للمحراب في الصالة الرئيسية ذات فراغ بلا عمد، وبها - بشكل استثنائي - رواق أو اثنين أو ثلاثة موازية لحائط القبلة؛ وهي مدرسة غرناطة نجد المصلى فيها مجرد فراغ مربع يزينه المحراب والزخارف الجصية، وهذان العنصران يدخلان ضمن الجمالية السائدة في المدارس المغربية، أي الوحدة الفنية السائدة في المغرب والجزائر وغرناطة خلال القرنين الثالث عشر والرابع عشر، ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى ربط مبانيها ببعضها، مثلما هو الحال في المسجد الجامع وكذلك المصلين الخاصين في الحمراء. حيث يمكن اعتبار هذه المجموعة صورة طبق الأصل من المساجد المغربية، وبالنسبة للمصر الذي نحن بصددده يلاحظ وجود المدرسة في التطاق الأندلسي، وعليه أن يتواءم مع وجوه الشبه بين المشرق والمغرب، وهي سمات غير واضحة خلال الفترة من القرن الحادي عشر حتى الثالث عشر، مع الفصل، في مراحل متعاقبة، بين موضوع المقصورة وبعض العناصر الزخرفية الأخرى، إضافة إلى النقوش الكتابية. وتضم اللوحة المجمعة 3-80 بعض مخططات المدارس في الشمال الأفريقي، قام برسمها Ch. تراس عام 1927م؛ 1: صهريج فاس (1321م)، 2: بوعنانية (فاس) وهي مدرسة ذات مئذنة (1355م)، 3: المطارين بفاس (125م)، 4: ابن يوسف - مراكش (1665م)، 5: أبو الحسن، ساليه، لها مئذنة (1342م)، والصورة رقم 6: هي للواجهة الخارجية المطلّة على صحن مسجد المدرسة، (4) بمراكش، 7: محراب مدرسة المطارين.

1: المسجد الجامع بقرطبة مع نهاية القرن العاشر (ك. إيورت)، 2: المسجد الجامع بمدينة الزهراء (بابون مالدونادو) (941 - 945)؛ 3: مسجد الباب المردوم بطليطلة (جومت مورينو) (999)؛ 4-B: المسجد الجامع في تطيلة (ناباس كامارا، ل. بيجونيا مارتن أراناث، برنابي كاهانيرو سويثا، كارمن صالا جارثيا) (مع نهاية القرن العاشر)؛ 4-A: المسجد نفسه طبقاً لبابون مالدونادو، 5: مسجد فونتانار بقرطبة (دولورس لونا أوسانا و أ.م. ثامورانو أريناس، القرن العاشر طبقاً لهؤلاء الباحثين)؛ 6: مسجد سانتا كلارا بقرطبة (إسكريبانو أوثيلاي) النصف الثاني من القرن العاشر)؛ 7: المسجد الجامع بسبته مع نهاية العصور الوسطى ووجود النواة الرئيسية مظلمة بالخطوط (ق 10) (إعادة هيكلة قام بها ب. مالدونادو). وسوف تظهر مقطعات مساجد إسبانية أخرى في الفصل السادس.

- لوحة مجمعة 83-1: A المسجد الجامع بمدينة الزهراء، عندما تم الانتهاء من إجراء الحفائر فيها عام 1966م؛ B: المسجد الرئيسي في قلعة بني حماد بالجزائر، عام 1976م، حيث لم تكن قد بدأت به الحفائر بعد؛ وهو مسجد أقيم بين عام 1015م و1152م.

- لوحة مجمعة 84: المساجد في شمال أفريقيا؛ 2: مسجد القرويين بفاس القرنين التاسع والعاشر، 3: القرويون بفاس، مرابطي (1137م) (نشره ه. تراس)؛ 4: مسجد الأندلسيين بفاس (النواة الرئيسية، القرنان التاسع والعاشر، وإصلاحات موحدة 1203 - 1207م)؛ 5: المسجد المرابطي الجامع في تلمسان (ج. مارسيه) (1085 - 1136م)، 6: المسجد الجامع المرابطي بالجزائر، المنارة حديثة (ج. مارسيه) (1096م)؛ 7: المسجد

27- قائمة بمخططات المساجد الرئيسية في المشرق وشمال أفريقيا وإسبانيا التي جرت دراستها في هذا الفصل،

- لوحة 81: مسجد دمشق (705 - 715)، المسجد الأقصى بالقدس وكان في البداية مكوناً من سبعة أروقة (709 - 715) (كروزيل) ومع مرور الزمن (ق 8) بلغ عدد الأروقة 15؛ 3: عملية تخيل لمسجد المدينة المنورة من خلال دراسة سوفاجيه و أ. ليزن (712)؛ 4: مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة، نشرة Rivoira، طبقاً لـ Journal of the Royal Asiatic Society (1890) (أي بداية 642 - 827)؛ 5: المسجد الجامع في سامراء (848 - 852) (كروزيل)، 6: مسجد أبي دلف بـ سامراء (859 - 861) (كروزيل)، 7: مسجد ابن طولون القاهرة (876 - 879).

- لوحة مجمعة 82: المساجد الكبرى خلال القرنين التاسع والعاشر في إفريقية؛ 1: سوسة (كروزيل) (796 - 850)؛ 2: مسجد الزينونة بتونس (732 - 864 و 991 - 992)، 2: مسجد صفاقس (ل. جولفن) (859 إعادة بناء عام 988)؛ 4، 5: مسجد المهدي (أ. ليزن) 921 القرن الحادي عشر)؛ 6: مسجد بوفتاة، سوسة (كروزيل) (838 - 841)؛ 7، 8: المسجد الجامع بالقيروان (كروزيل) (836 وما يليها)؛ 9: المسجد الجامع بالقيروان (أ. ليزن) (836)، 9 - 1: مقترح خاص بالمسجد يزيد الأول بالقيروان لعام 774م طبقاً لـ ليزن (المستطيل العلوي في الجانب الأيمن)، 10: مقترح يتعلق بأصول مساجد في الشمال الأفريقي ابتداء من بازنیکا سان ثيبريانو في قرطاج؛ 11: مخطط رباط منستير مع المسجد على رأس المقر الداخلي.

- لوحة مجمعة 83: المساجد الرئيسية الإسبانية:

الموحدي الجامع في تازا طبقاً لمقترح هـ. تراس
(1142م)؛ 1-7: المسجد الجامع في تازا مع نهاية
القرن الثالث عشر (طبقاً لـ هـ. تراس).

- لوحة مجمعة 85: 1، 2: مسجد تمال الموحدي،
وتشير الأرقام التي نجدها في المخطط رقم 2
إلى 5: القبة، 3: عقود ذات ستائر acortinados
(1154م)؛ 3: المسجد الموحدي الجامع الثاني في
الكتيبة بمراكش (ج. مارسيه) (1158 - 1162م)؛
4: المسجد نفسه ابتداء من أطلال مسجد الكتبية
الأول (1153م) (مارسيه)؛ 5: المسجد الموحدي
بقصبة مراكش (إيورت)؛ 6: المسجد الموحدي
الجامع حسان بالرباط (ج. كاليه) (1191 -
1199م).

- لوحة مجمعة 86: مساجد أخرى؛ 1: المسجد
الموحدي الجامع في إشبيلية، عملية إعادة هيكلة
تقريبية قام بها تورس بالباس (1172 - 1182م)،
2: المسجد الموحدي الجامع في إشبيلية، عملية إعادة
هيكلة (ر. مانتانو مارتوس)، 3: مسجد المنصورة
لبني مرين، تلمسان (ج. مارسيه) (1303 -
1336م)؛ 4: مسجد ذو أصول موحدية في القصر
الصغير (ردّما شي. ل.)، سبقت الإشارة إليه خلال
القرن الرابع عشر (النويري)؛ 5: المسجد الحفصي
بقصبة تونس (1233م) (دولتلي)؛ 6: مسجد
الهواء، حفصي، تونس (1238م) (دولتلي)، 7:
مسجد بوجلود، أصول موحدية، قصبة فاس (طبقاً
لدراسة أعدها هـ. تراس)؛ 8: المسجد المريني
لصلوات الجمعة، فاس الجديدة (ج. مارسيه)
(1276م)؛ 9: مسجد توزور (تونس)، حيث يلاحظ
أن الصحن يقلد صحن الأديرة المدجّنة الإسبانية
(ق 17)، 10: مسجد سيجستا، صغير (صقلية) CB
بابون (ق 12 - 13).

هناك مساجد أخرى مهمة جرت الإشارة إليها

في الفصل الأول والفصول التالية: إسبانيا: مرسية
(الرازي) (2، 8)؛ جهان (ابن عذاري) (825 -
826)، مسجد عمر بن عدس، إشبيلية (829 - 830)؛
سرقسطة، مسجد Hanas (ق 8)؛ جرت توسعة المسجد
عام 856 - 857 (ابن عذاري) وفي عام 1018 -
1021م (ابن أبي الفياض)؛ ملقة (البكري) (852 -
886)؛ مدينة البيرة (ابن حيان) (جري إصلاحها
عام 852 - 886م)، مسجد بطليموس (البكري) (جـ)
عصر محمد الأول وعبد الله)؛ المسجد الجامع في
غرناطة، في عصر حَبُوس وباديس (النصف الأول
من القرن الحادي عشر)، جري إصلاحها في عصر
المرابطين، عام 1115م؛ مصلّى الجعفرية بسرقسطة
(1046 - 1048م)؛ المسجد الجامع في ألمرية، تأسس
خلال القرن العاشر، توسعة خلال القرن الحادي عشر
على يد خيران وزهير (1012 - 1028م) (ابن الخطيب
والمعدي وتورس بالباس).

شمال أفريقيا: تونس: مسجد توزور (مارسيه)
(1194م) مع وجود زخارف جصية ذات أسلوب
مرابطي متأخر. مصر: العصر الفاطمي: مسجد
الجامع الأزهر (970) مسجد الحاكم بأمر الله (990 -
1021م)، مسجد الأقمر (1125م)، مسجد الصالح
ملائح (1160م)؛ وقد ظهرت في هذه المساجد زخارف
هندسية وزخارف جصية ذات طابع أندلسي، ترجع إلى
بداية القرن الثاني عشر. فارس: أصفهان، مسجد
جامع، من حيث البداية، القرن التاسع أو بداية القرن
العاشر، مع إصلاحات لاحقة بما في ذلك قبة من الأجر
(1088 - 1089)، وهناك إصلاحات لاحقة ترجع إلى
بداية القرن الثاني عشر مع وجود أوتار متقاطعة بارزة،
وبالتالي جرى ربطها بقباب الأوتار الحجرية المتقاطعة
في المسجد الجامع بقرطبة، القرن العاشر؛ مسجد ناين
Nayin (بداية القرن العاشر) مع زخارف جصية، حيث
يلاحظ أن الزخارف الأولى ذات طابع عباسي في فارس
(فلوري). أفغانستان: مسجد Balh de Tarih (ليزا)

الأمويون (755 - 1031م).	كولومبيك (القرن التاسع)؛ وقد جرى ربط مخططه
ملوك الطوائف (ق 11).	المكون من تسع وحدات مربعة بالأضربة التي ترجع
المرابطون (1108 - 1147م).	إلى ق 10 في القاهرة، وكذا بمسجد الباب المرسوم في
الموحّدون (1145 - 1240م).	طليطلة.
بنو نصر (1230 - 1492م).	28- ملحق الممالك التي حكمت في البلدان
	العربية،
	المشرق،
العصر الأموي؛ عبد الرحمن الداخل (756 - 788م)، هشام الأول (788 - 796م)، والحكم الأول (796 - 822م)، عبد الرحمن الثاني (822 - 852م)،	العصر الأموي (660 - 750م).
محمد الأول (852 - 886م)، المنذر (886 - 912م)، عصر الخلافة: عبد الرحمن	العصر العباسي (750 - 1280م).
الثالث (921 - 961م) الحكم الثاني (961 - 976م) هشام الثاني (976 - 1009م)، المنصور بن أبي عامر	مصر،
(976 - 1002م).	العصر الطولوني (869 - 905م).
ملوك الطوائف؛ (1031 - 1091) المعتمد	العصر الفاطمي (909 - 1171م) قدم
الإشيلي (1042 - 1069م)، المأمون - طليطلة (1037 - 1074م)،	الفاطميون من شمال أفريقيا.
المؤمن، سرقسطة (1081 - 1085م)، باديس بن	العصر الأيوبي (1171 - 1252م).
حيّوس، غرناطة (1038 - 1073م)، المعتمد، إشبيلية	المماليك (1252 - 1517م).
(1069 - 1091م)، عبد الله بن باديس، غرناطة	الأناضول؛
(1090 - 1053م).	السلاجقة (1075 - 1318م).
المرابطون: يوسف بن تاشفين (1062 - 1107م)؛	العثمانيون (1299 - 1922م).
علي بن يوسف (1107 - 1143م).	فارس؛
الموحّدون؛ عبد المؤمن (1153 - 1163م)، أبو	حكام عيّنهم الخلفاء الأمويون والعباسيون
يعقوب يوسف (1162 - 1184م)، يعقوب بن يوسف،	(661 - 820م).
المنصور (1184 - 1198م)، محمد بن يعقوب الناصر	السامانيون (907 - 1055م).
(1198 - 1213م).	السلاجقة (1037 - 1194م).
بنو نصر؛ محمد الأول (1231 - 1272م)،	إسبانيا

- محمد الثاني (1272 - 1303 م)، محمد الثالث (1303 - 1304 م)، إسماعيل (1313 - 1324 م)، يوسف الأول (1333 - 1354 م)، محمد الخامس (1354 - 1390 م)، غزو غرناطة (1492 م).
- الزيدون (972 - 1152 م).
- الهلاليون (غزو تم عام 1052 م).
- الحفصيون (1228 - 1534 م).

المغرب،

الأندلس (788 - 929 م).

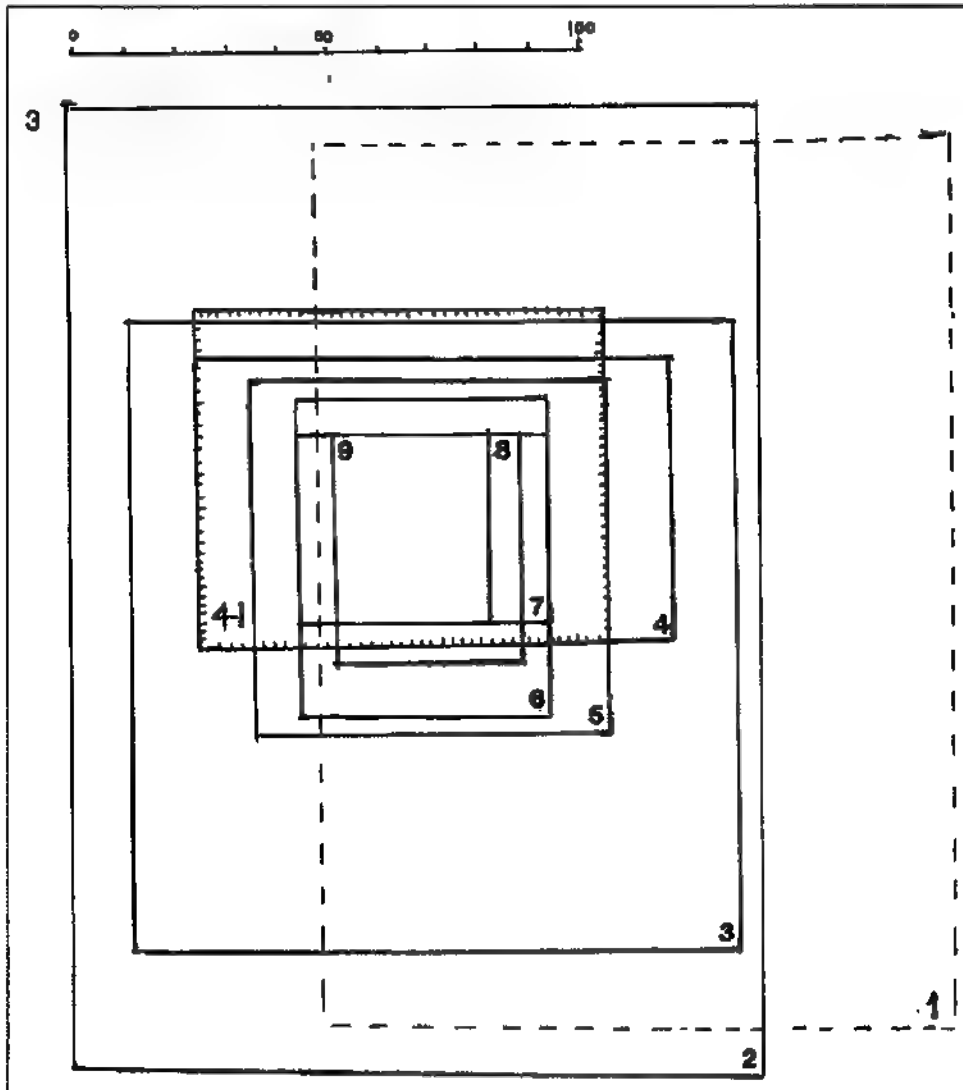
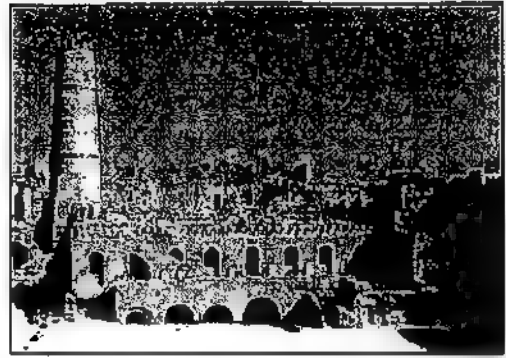
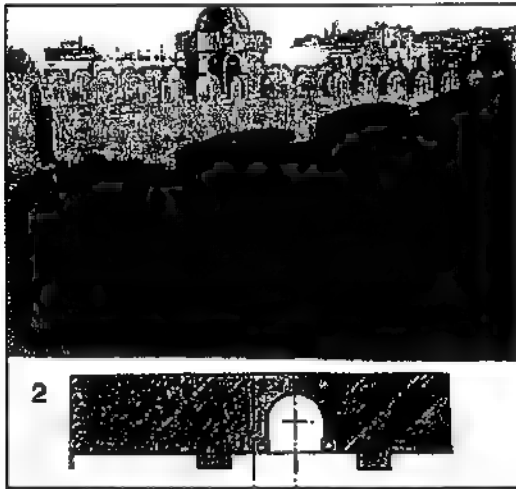
- المرابطون (1056 - 1147 م).
- الموحّدون (1130 - 1269 م).
- بنومرين (1216 - 1471 م).
- الأسر الحاكمة الأخيرة: السعديون (1511 - 1659 م)، والعلويون (1656 حتى يومنا هذا).

الجزائر،

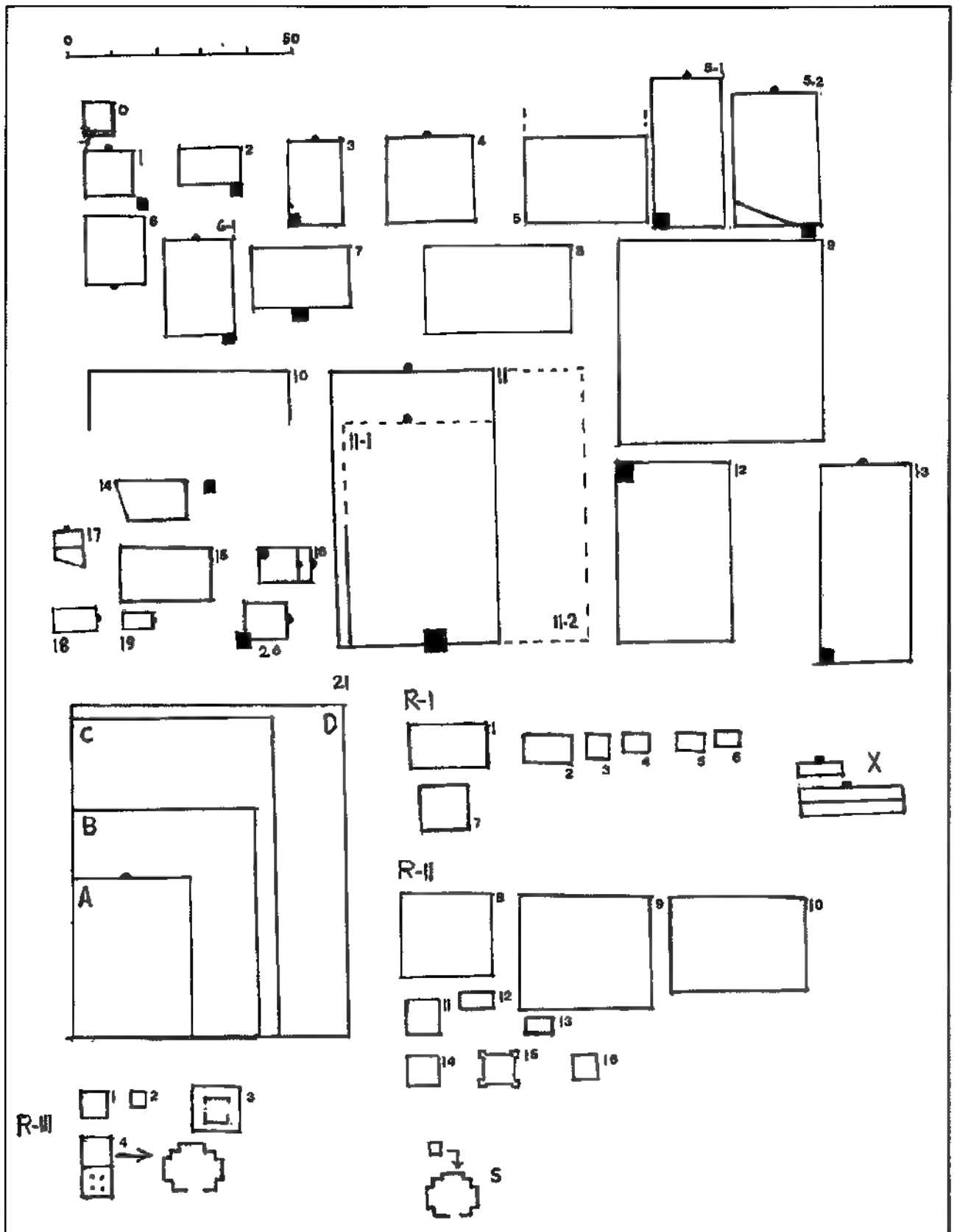
- الأندلس (788 - 974 م).
- الزيدون (936 - 1107 م).
- بنو حماد (1107 - 1152 م).
- المرابطون.
- الموحّدون.
- عبد الوديس (1235 - 1516 م).
- بنومرين (1370 - 1419 م).

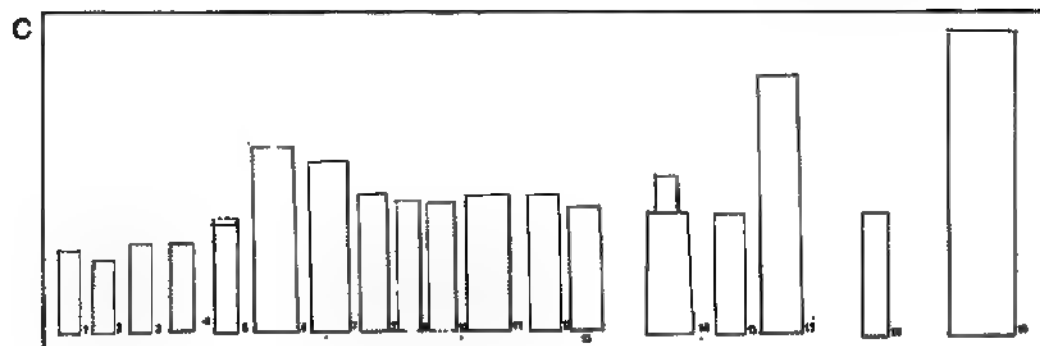
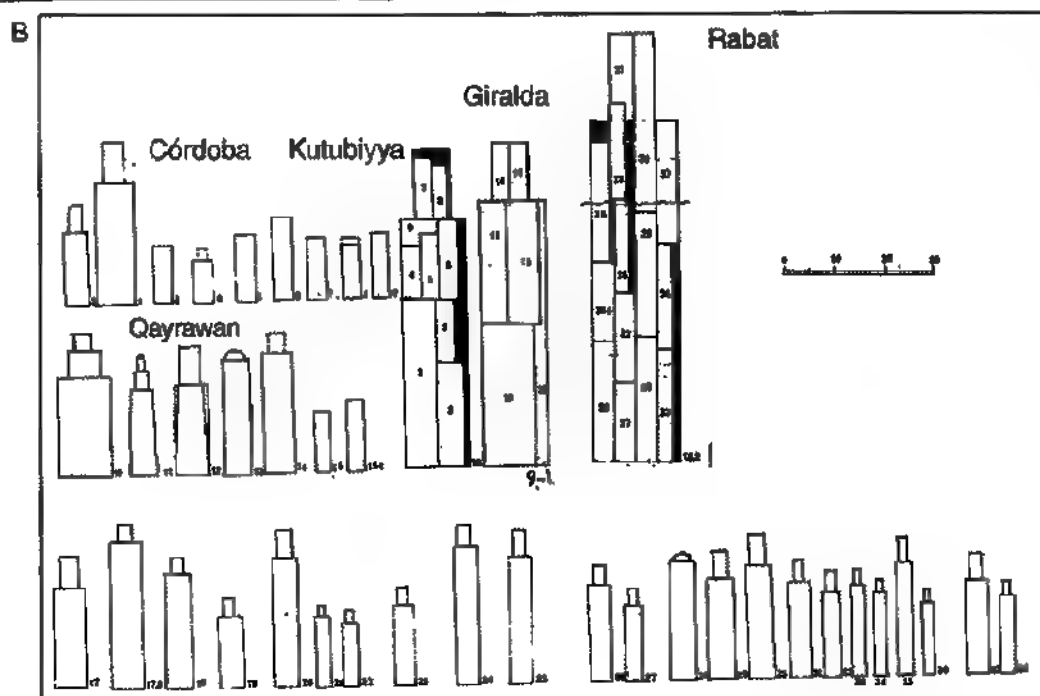
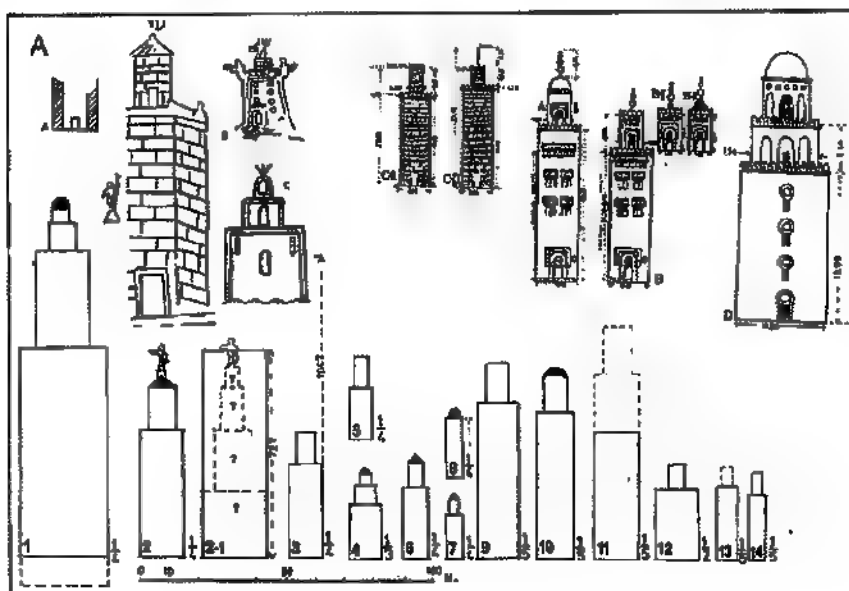
إفريقية (تونس)،

- الأغابة (800 - 909 م).
- الفاطميون (909 - 972 م).

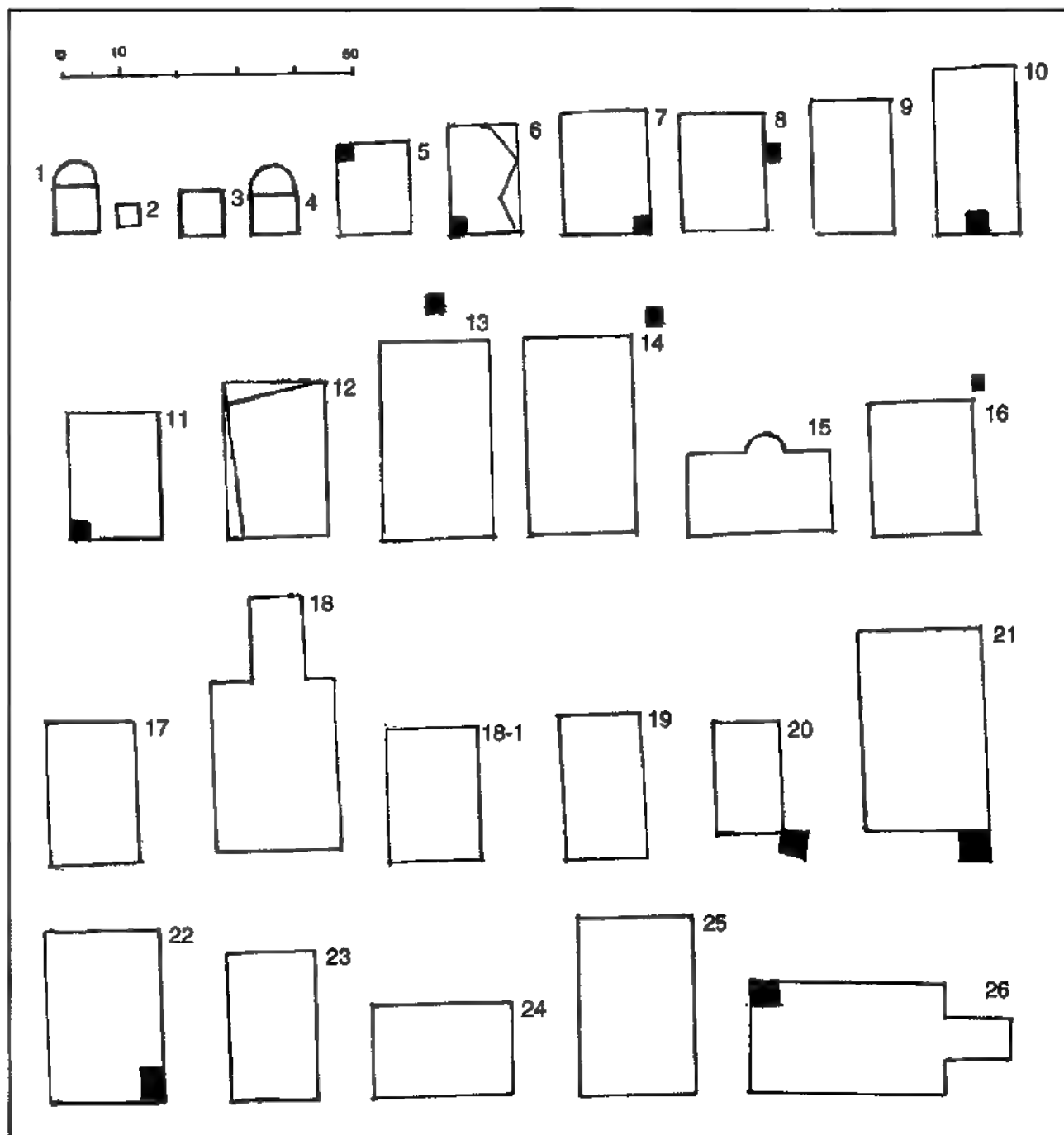


لوحة مجمعة 43:
مساحات المساجد والأريطة في الأندلس.

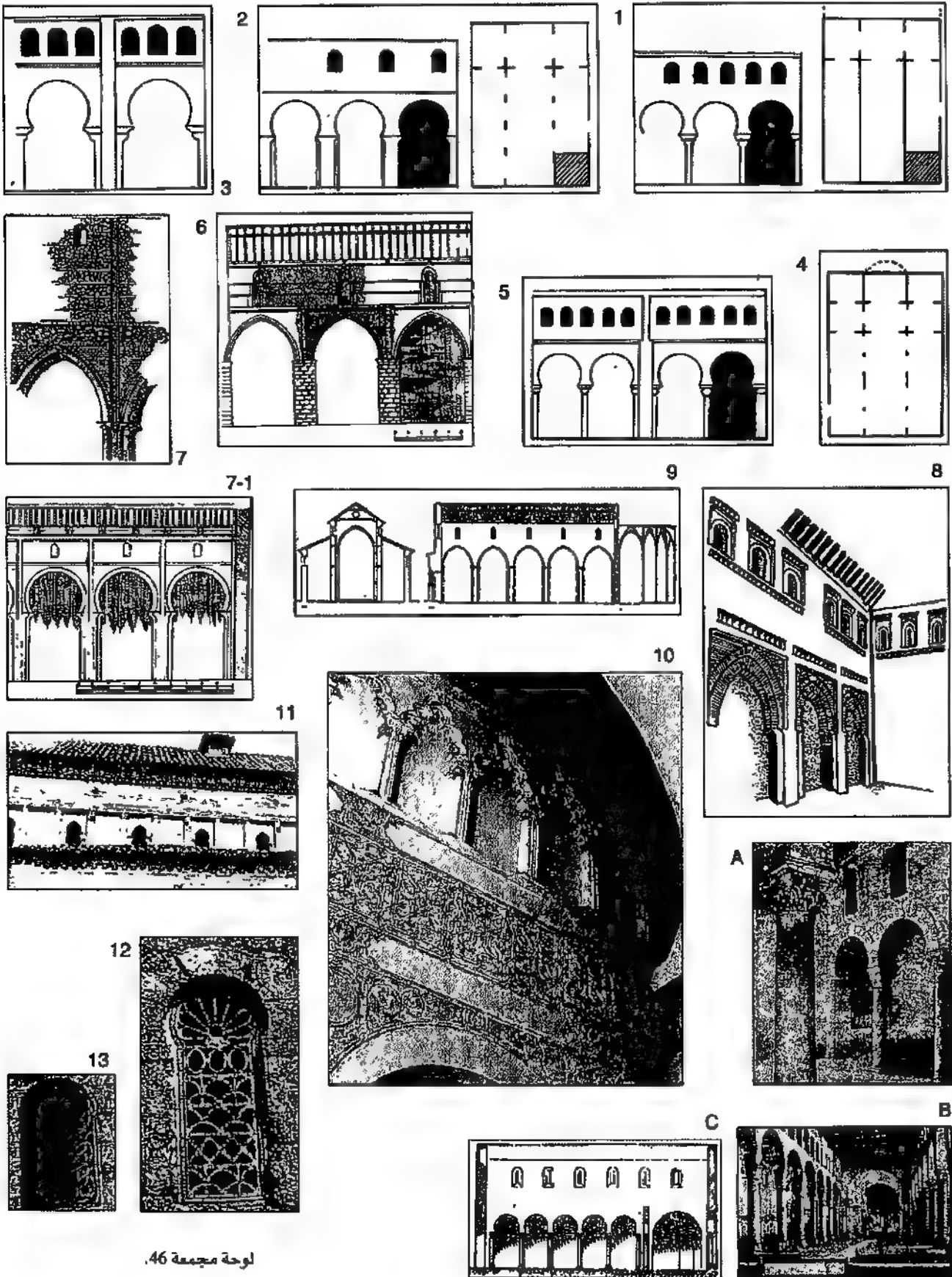




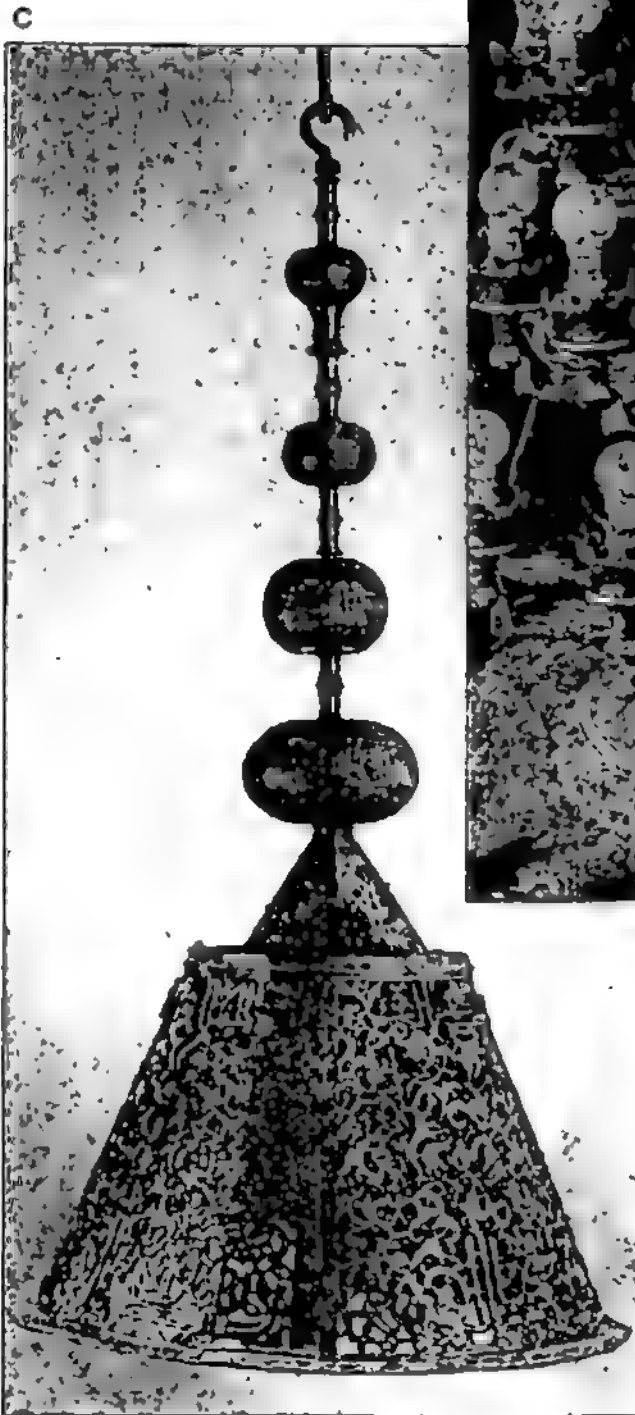
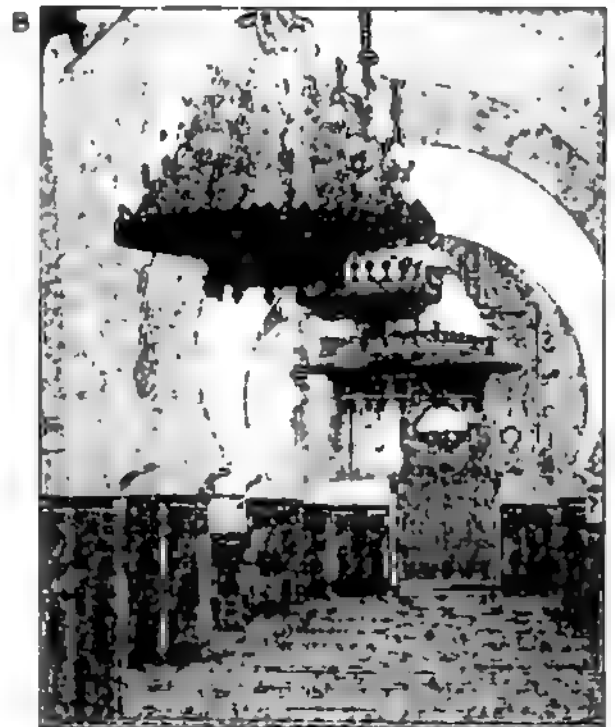
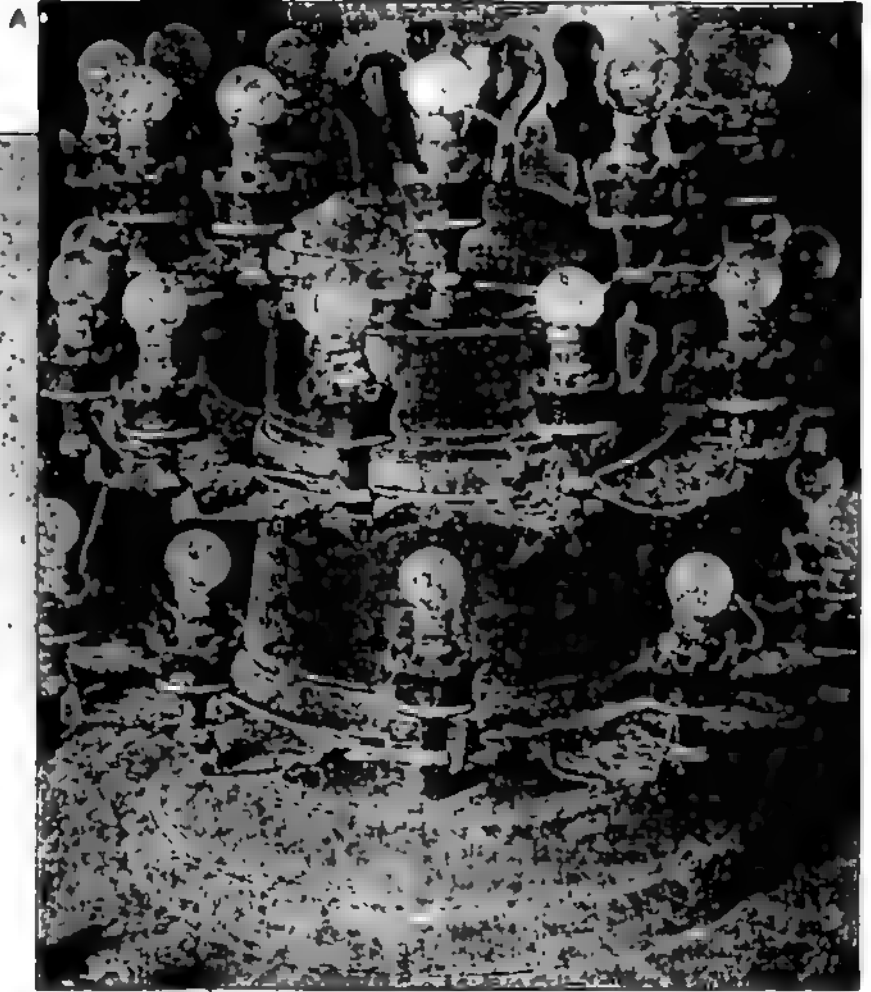
لوحة مجمعة 44:
المنارات الإسلامية والمغربية. الارتفاعات.



لوحة مجمعة 45:
مساحات الكنائس المدمجة.



لوحة مجمعة 46.
إضاءة الكنائس مقارنة بالمساجد.

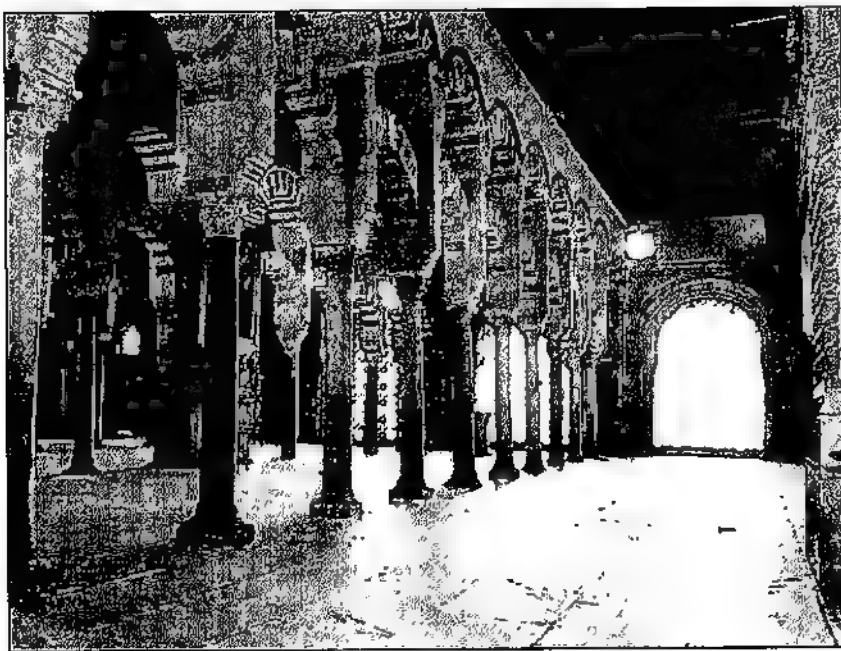


لوحة مجمعة 46 :
إضاءة المساجد

2



1



4



3



لوحة مجمعة 2-46.
إضاءة المساجد



3

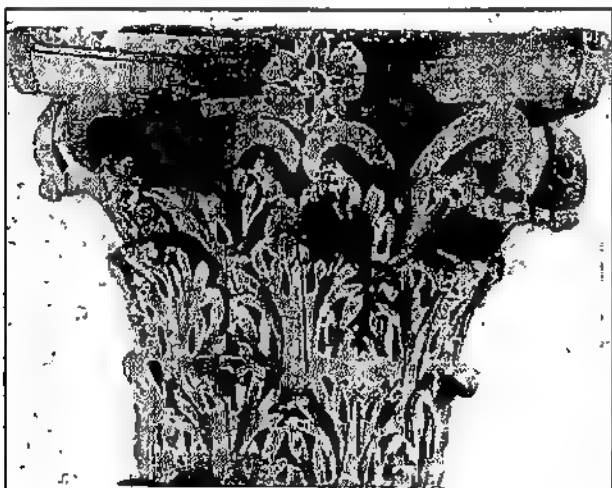


2

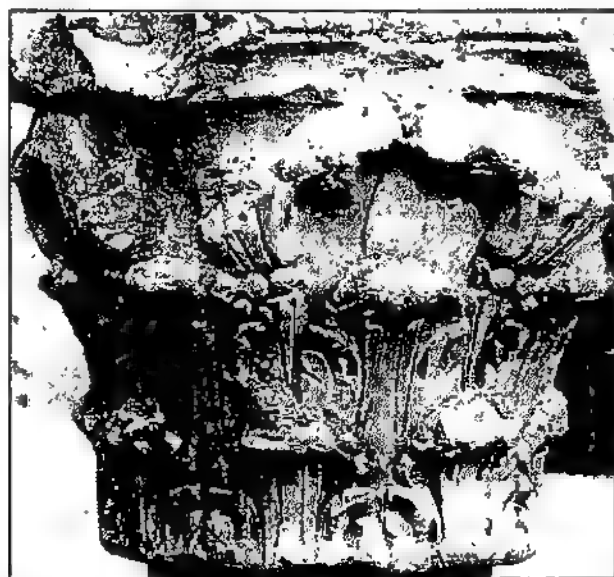


1

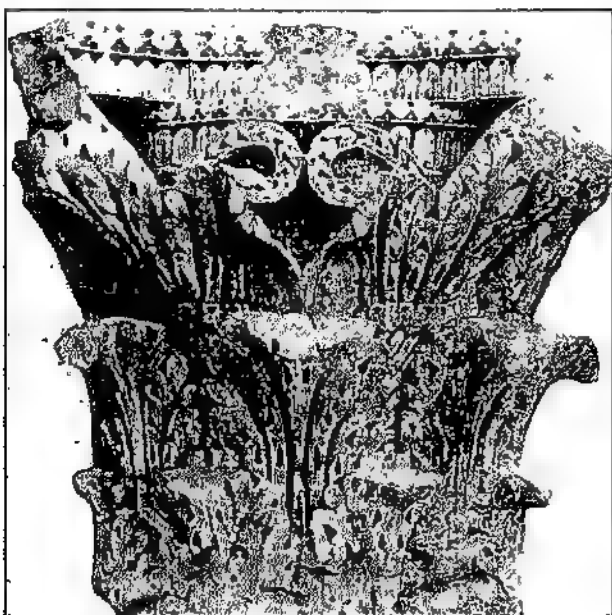
5



4



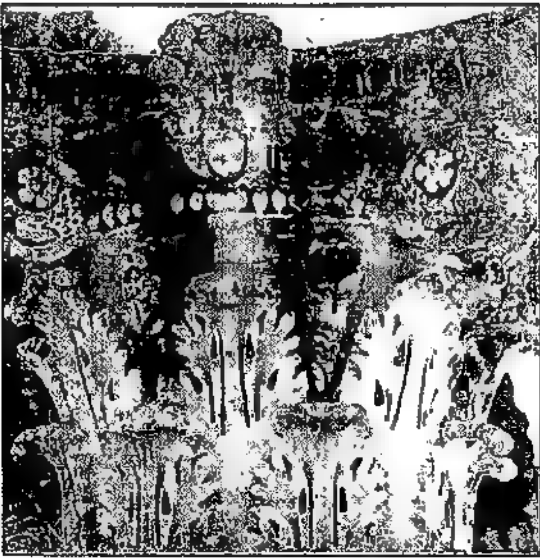
7



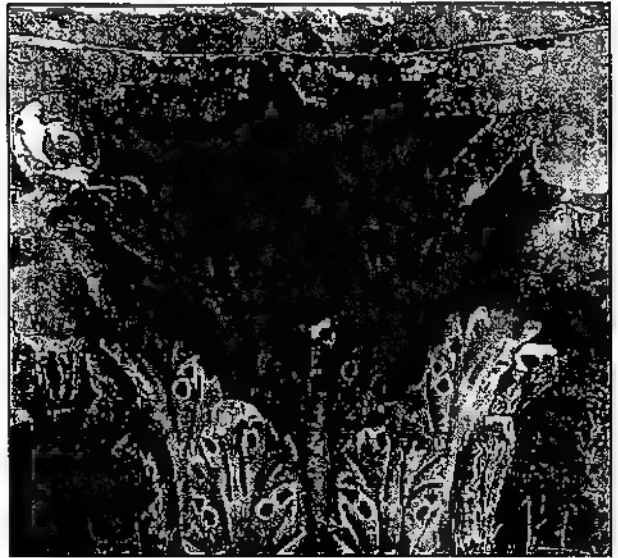
6



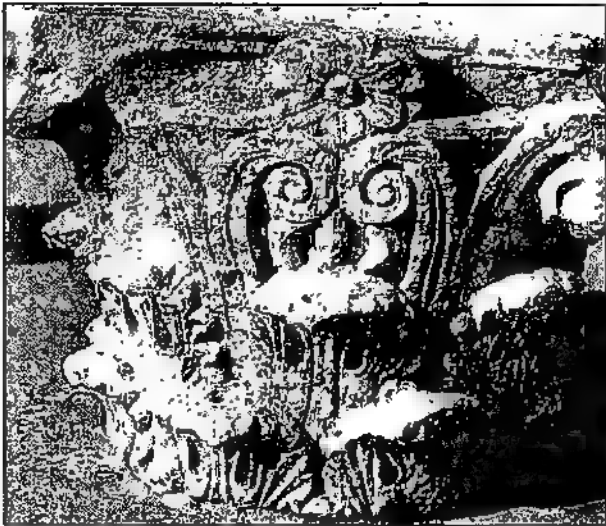
لوحة مجمعة 47:
تيجان أعمدة - العصر القديم



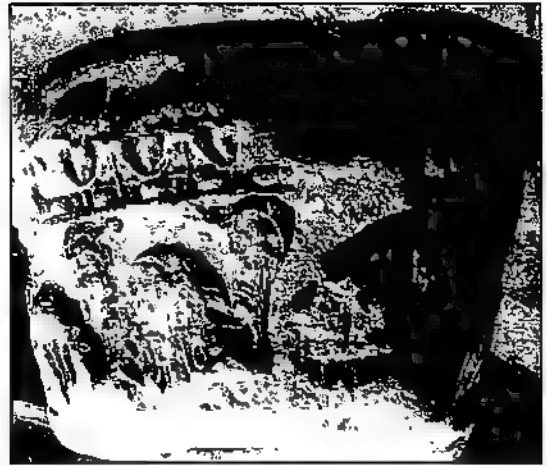
9



8



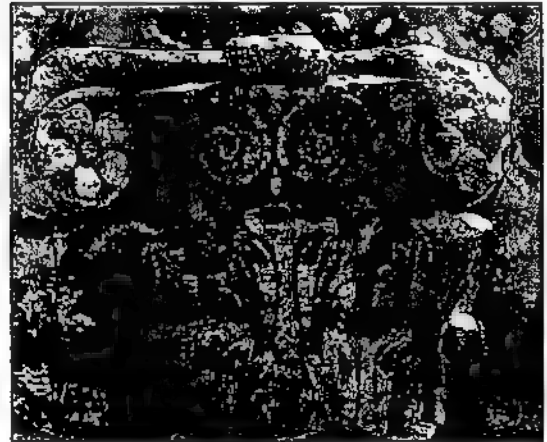
11



10



13

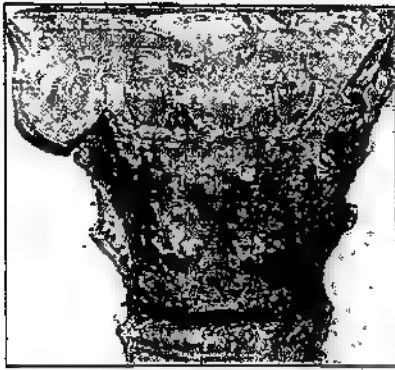


12



14

لوحة مجمعة 48:
تيجان أعمدة - مصر القديم والبيزنطي



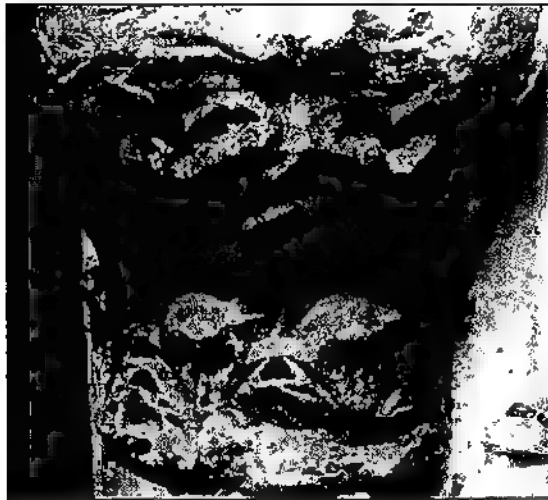
17



16

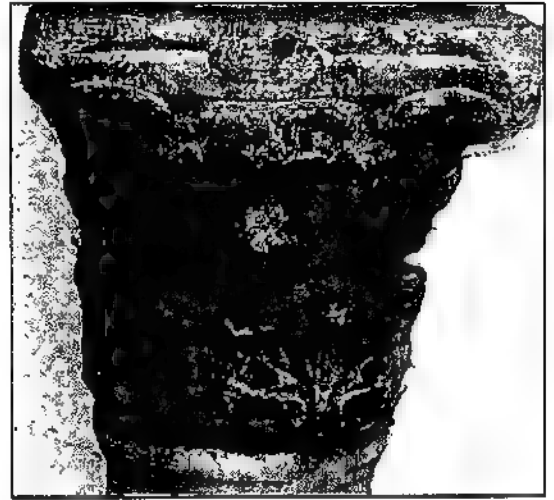


15



19

18



21

20



لوحة مجمعة 49:

تيجان قديمة جرت الإفادة منها في صحن مسجد السلبادور في إشبيلية.

22



25



24



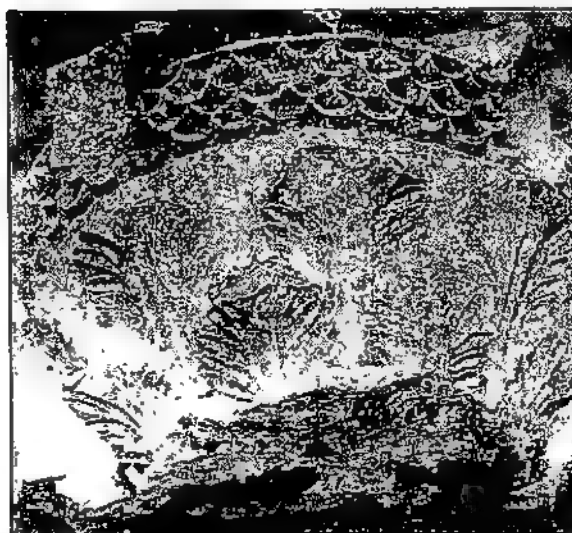
23



27

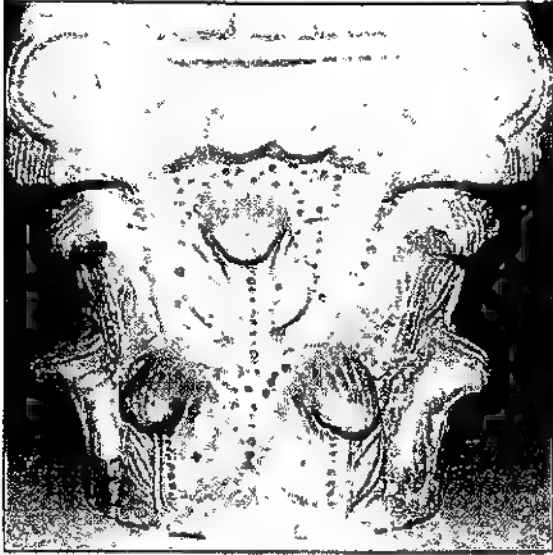


26



لوحة مجمعة 50:
تيجان قديمة من بوليوبولس (المغرب)

29



28

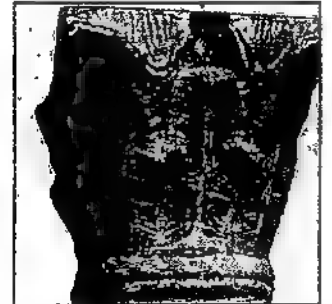


29-1

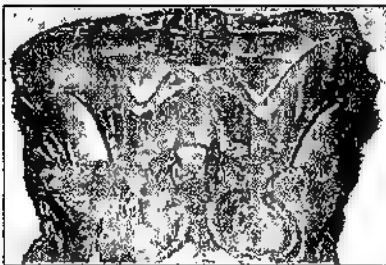
32



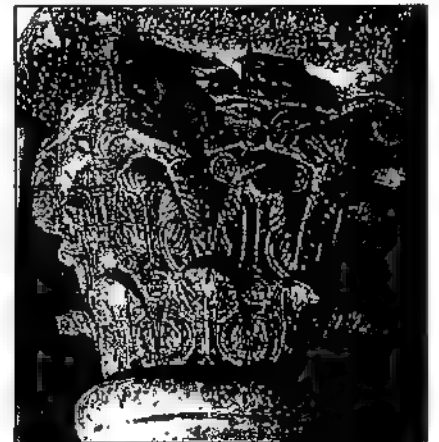
30



34



31



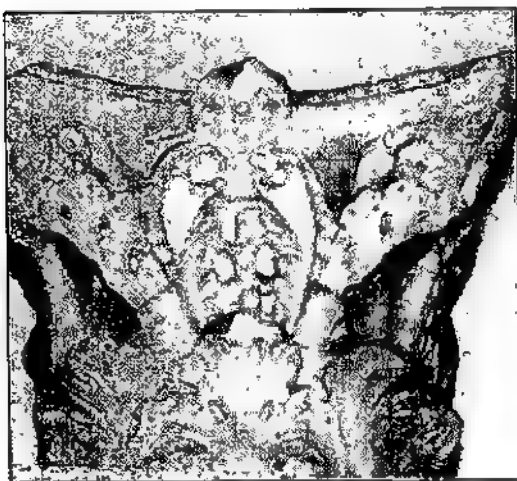
33



35



لوحة مجمعة 51:
تيجان قوطية من قرطبة

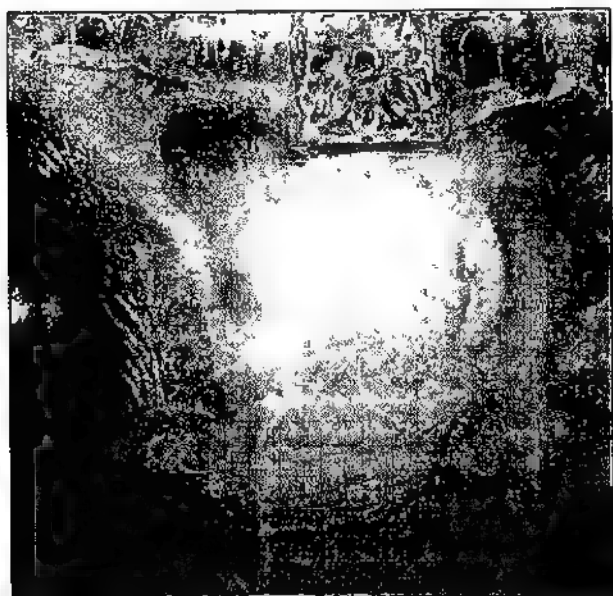


37

36



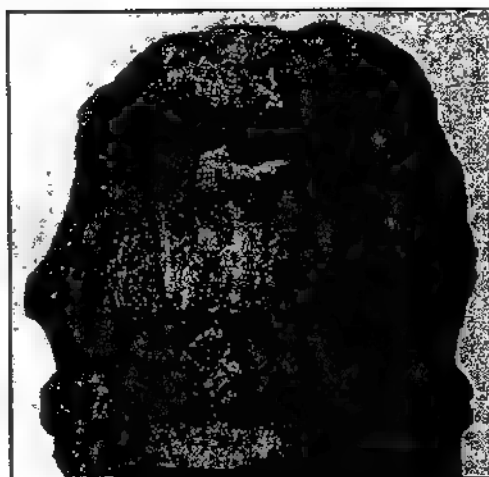
40



41



38



39



لوحة مجمعة 52:

تهجان قديمة وقوطية من قرطبة



43

45



42

44



47

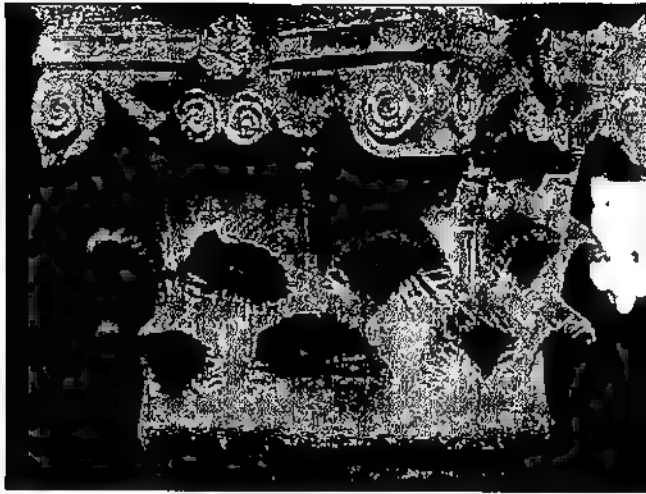


46



لوحة مجمعة 53:

تيجان قرطبية تاريخها غير معروف بدقة من 42 إلى 47



51

48



49

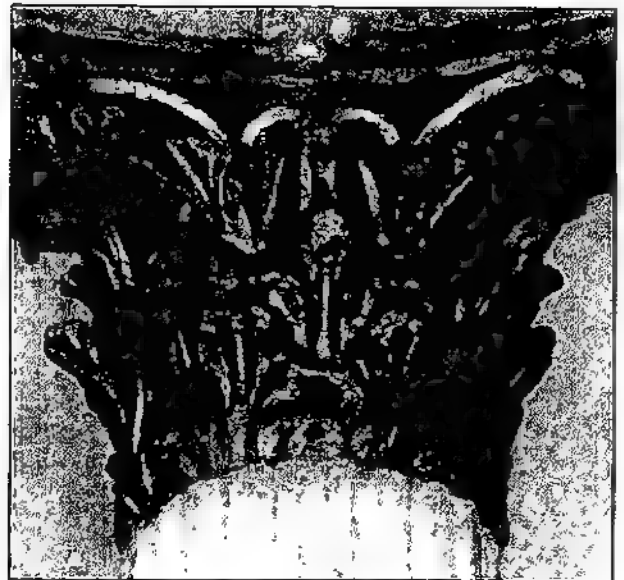


50



53

52



لوحة مجمعة 54:

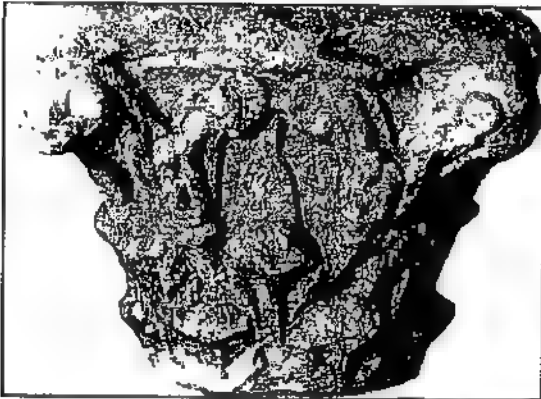
تيجان المسجد الجامع بقرمطية. المنطقة المسقوفة، ق 8



55



54



57



56

59



60

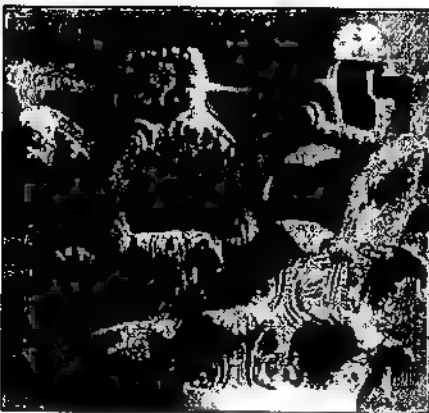


58

61



62

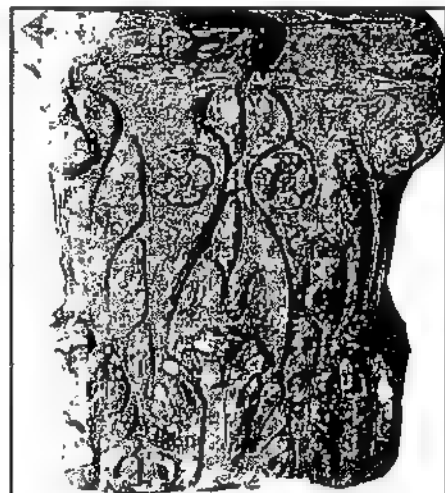
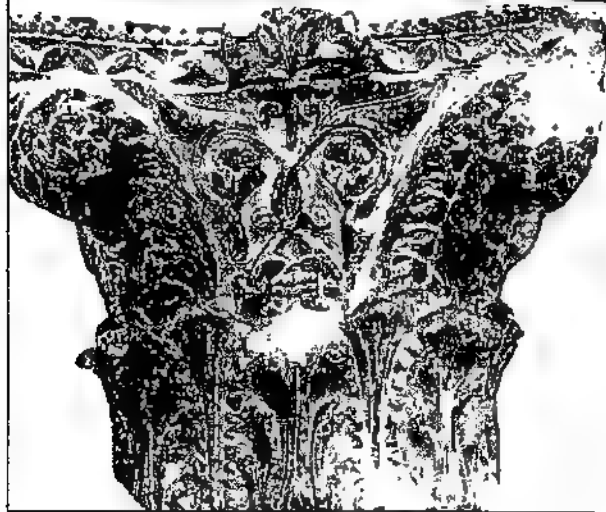
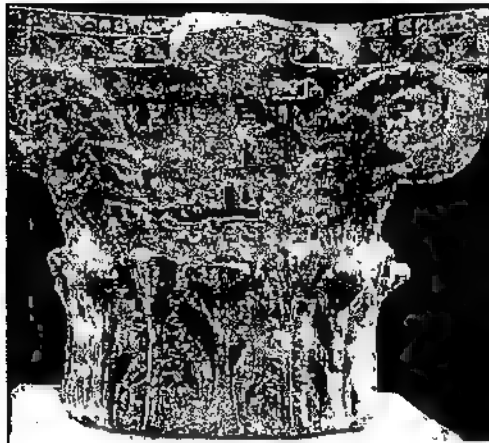


لوحة مجمعة 55:

تيجان المسجد الجامع بقرطبة. المنطقة المسقوفة، ق 8

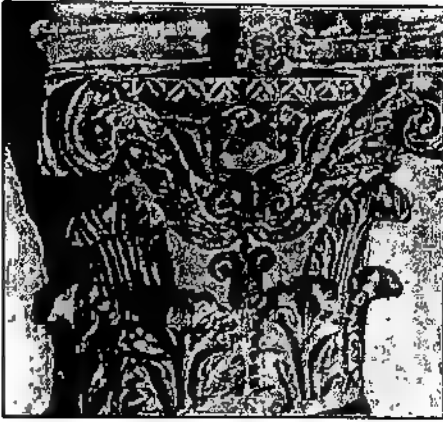


B

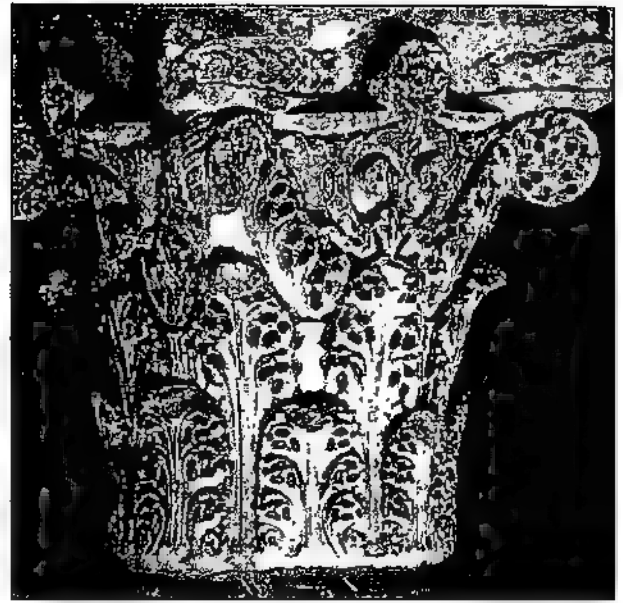


لوحة مجمعة 56:

تيجان عربية في المسجد الجامع بقرطبة. ق 9



E



D



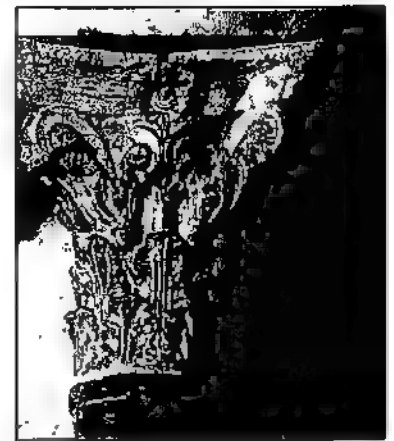
G



F



I



H

لوحة مجمعة 57:

تيجان عربية في المسجد الجامع بقرطبة. ق9



J



K

LL



L



N



M



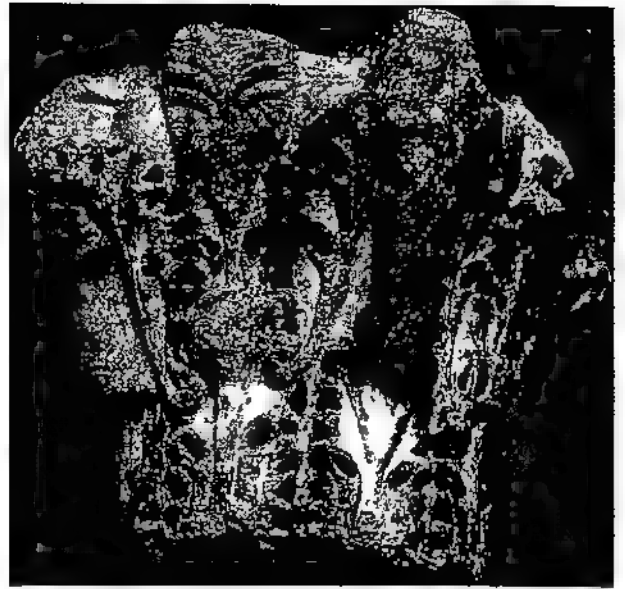
لوحة مجمعة 58:

تيجان عربية في المسجد الجامع بقروية وأخرى ذات

مصادر مختلفة 9



P



O

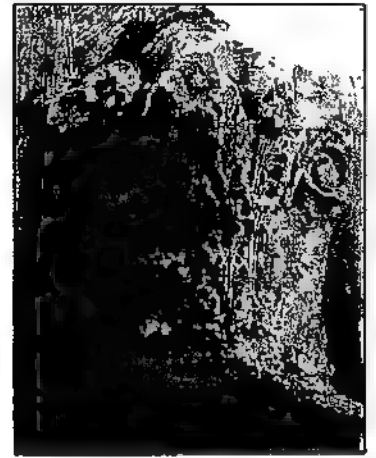
S



R



Q



X



W



V



T



لوحة مجمعة 59:

تيجان إسبانية إسلامية في 9 - 10

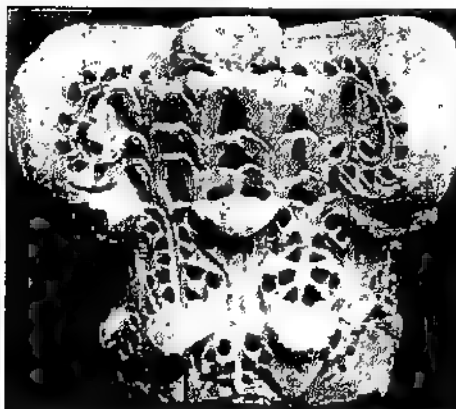
Y



Y-I

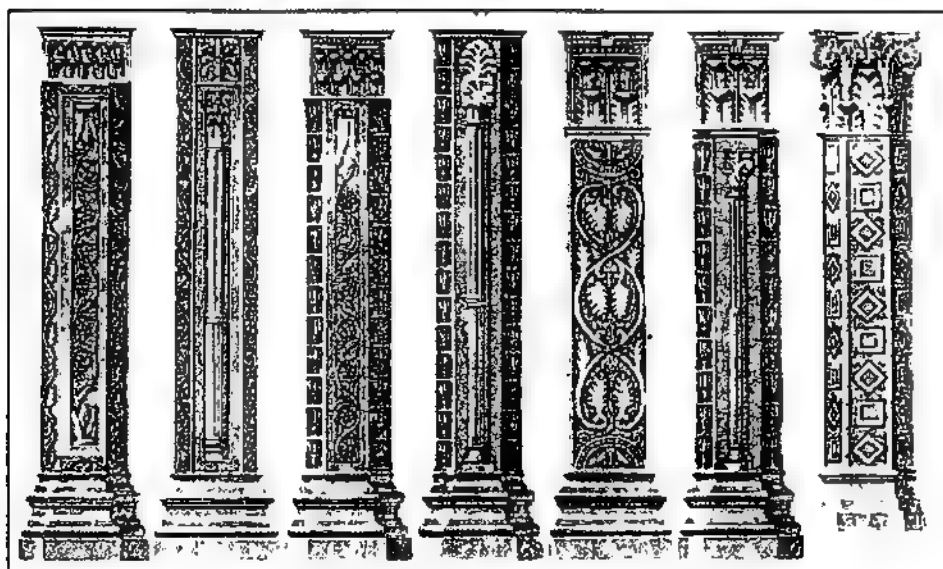
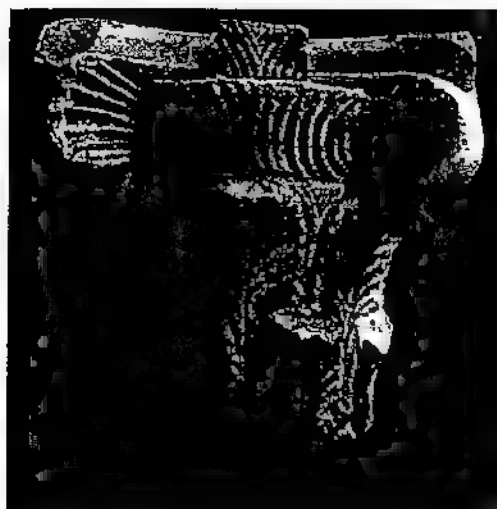
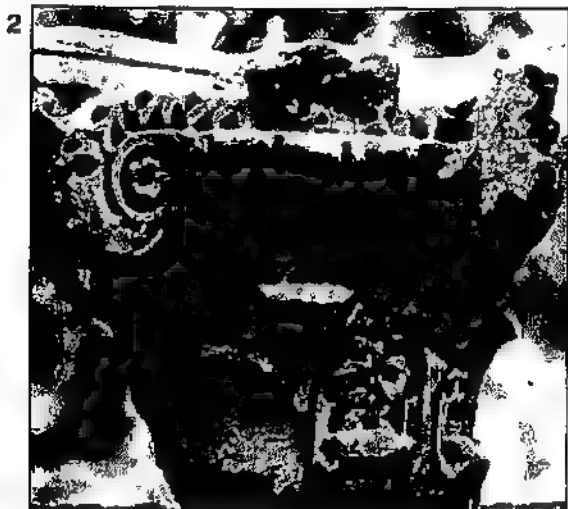


Z



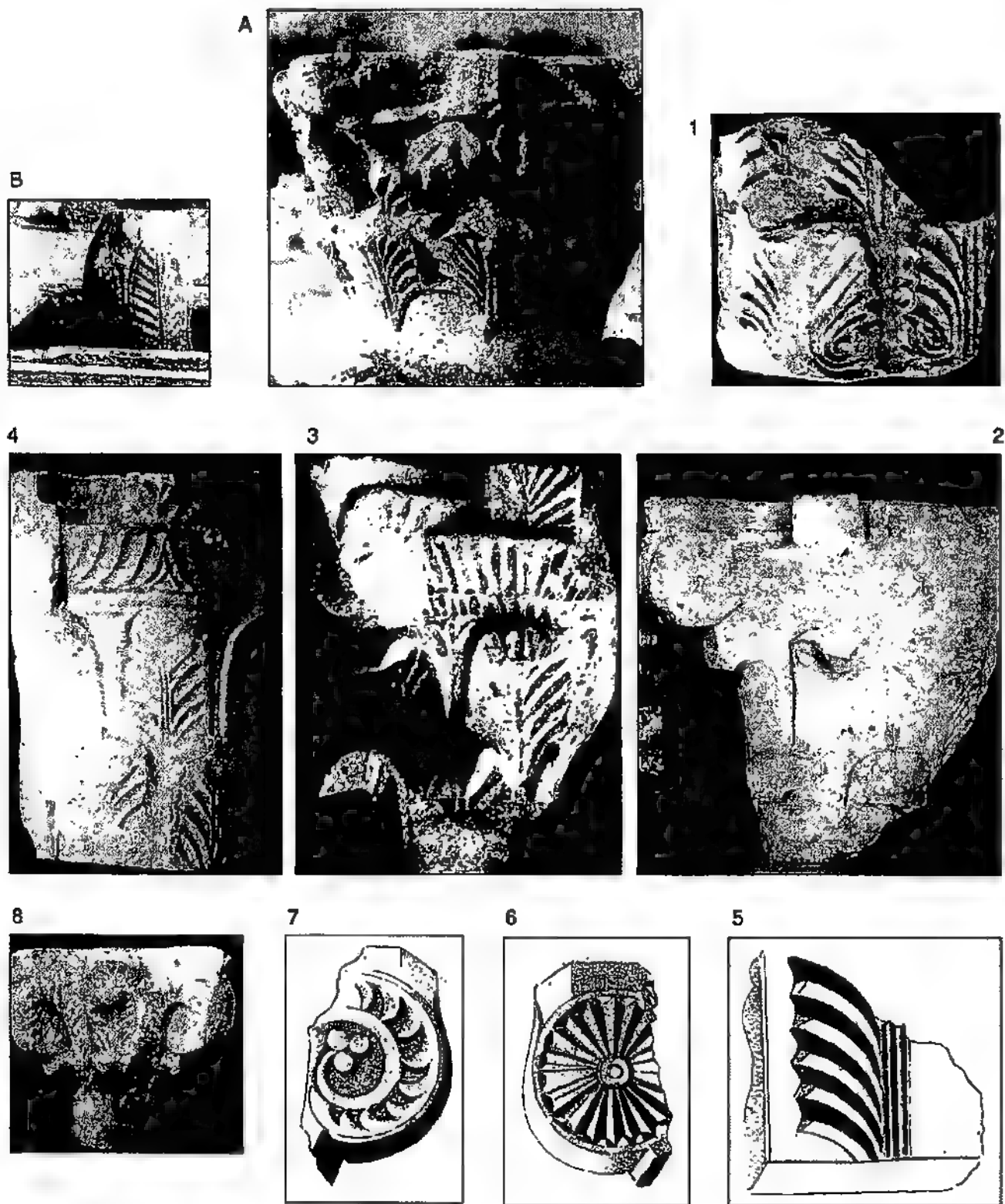
لوحة مجمعة 60:

تيجان مربية بلا قرطبة في 9



لوحة مجمعة 6:

تيجان عربية في قرطبة ق 10 المسجد الجامع بمدينة
الزهراء، 4 أعمدة مربعة قديمة قوطية وآخر عصر
الخلافة، المسجد الجامع بقرطبة.



لوحة مجمعة 1-6 :
 تيجان أعمدة من مدينة الزهراء، من 1 إلى 7، قرطاجنة،
 B: ماردة



3



2



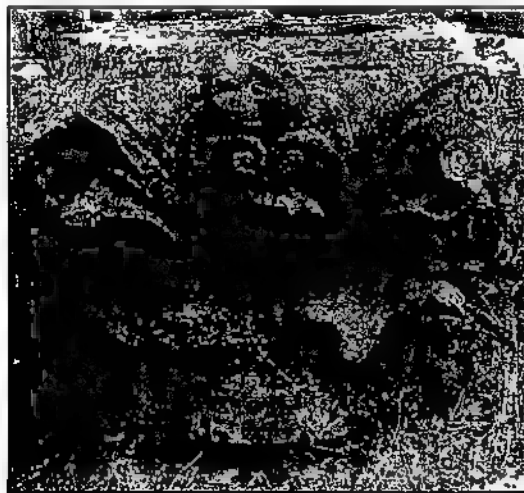
1



5



4



7

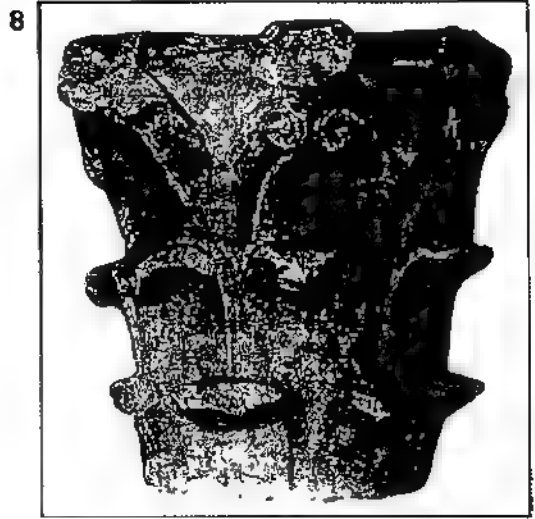


6

لوحة مجمعة 62:
تيجان ملساء قديمة من قرطاجنة ومن المسجد الجامع
بالتيرون

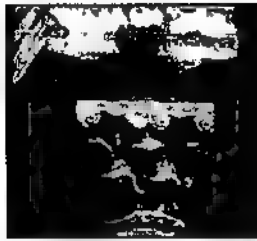


9



8

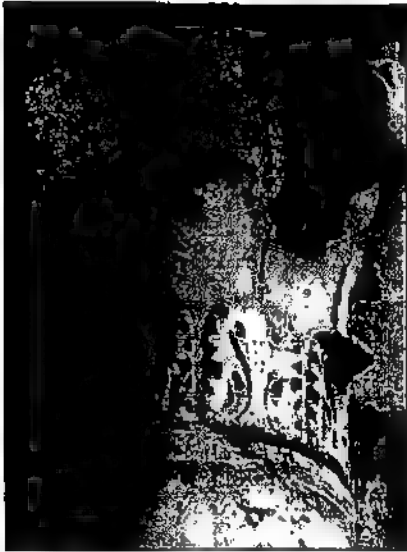
10



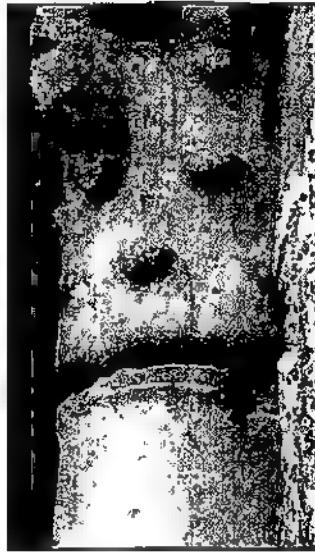
11



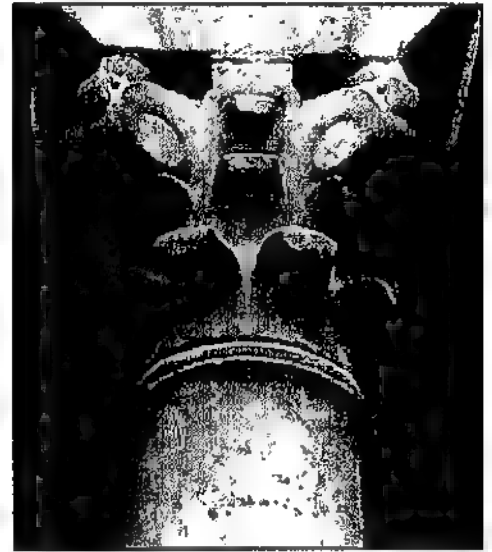
لوحة مجمعة 63:
تيجان ملساء قرطبية 10، 11



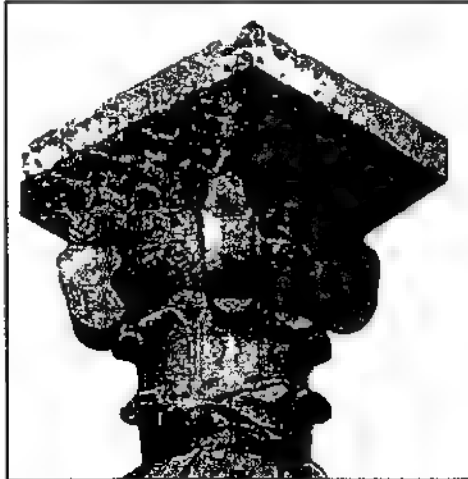
14



13



12



17



16



15

19



18

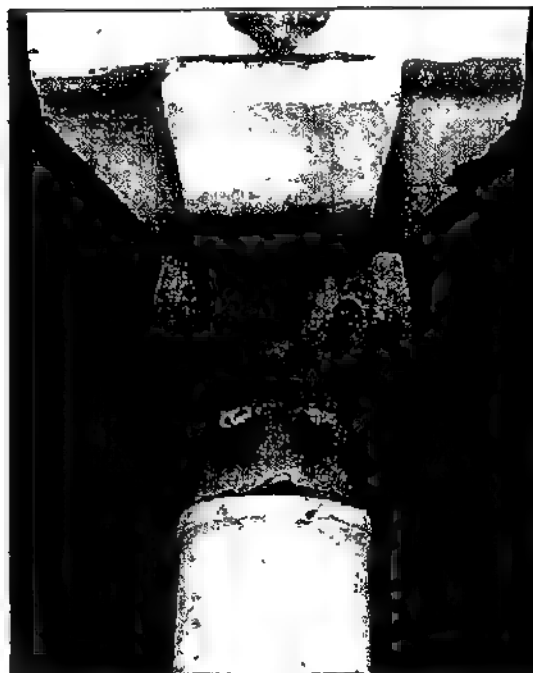


لوحة مجمعة 64:
تيجان ملساء عربية من المسجد الجامع بقرطبة

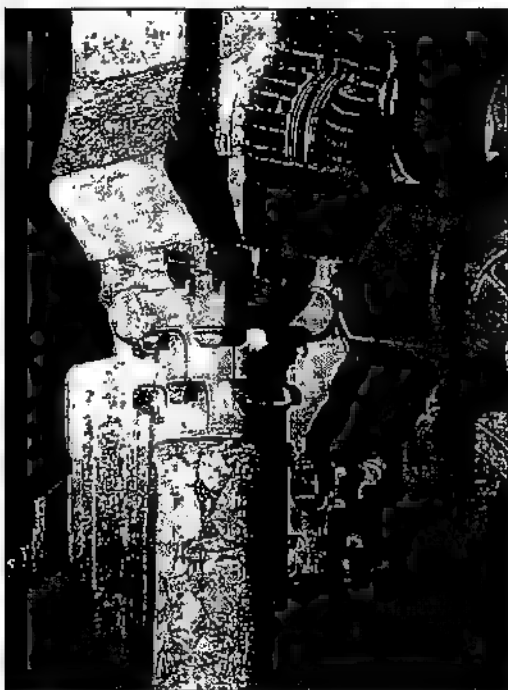
21



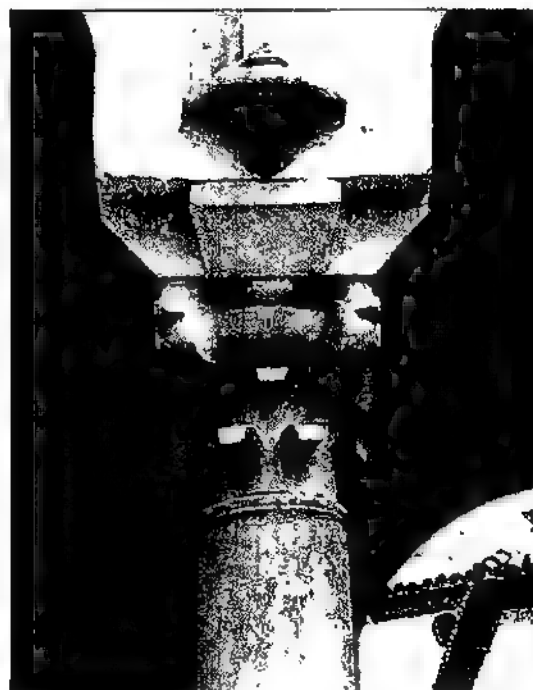
20



23



22



لوحة مجمعة 65:
تهجان ملساء عربية في الصحن، المسجد الجامع بقرمطية،
رقم 23 من حرم المسجد في عصر الحكم الثاني



25



24



27



26

لوحة مجمعة 66:
 اثني عشر أعمدة ملساء عربية من حرم المسجد الجامع
 بقرطبة ق 9 - 10

29



28



31



30



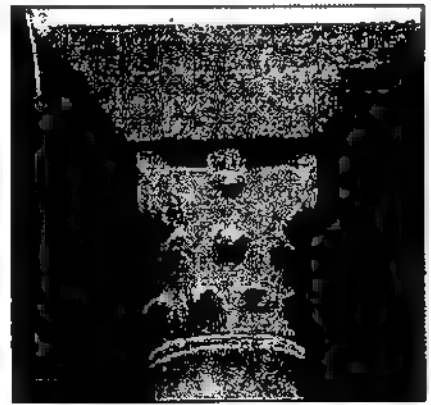
34



33



32



لوحة مجمعة 67:
تيجان أعمدة ملساء في صحن المسجد الجامع بقرطبة



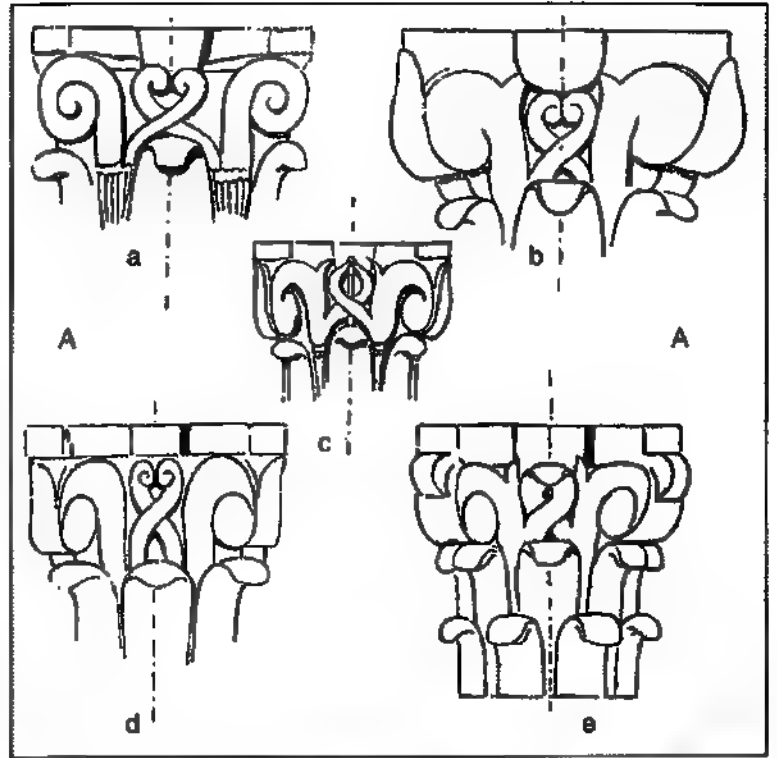
a



c



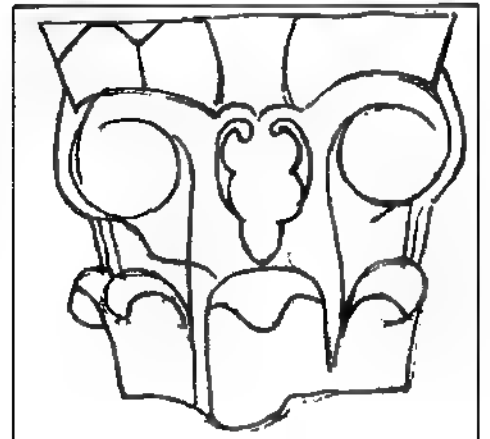
b



35

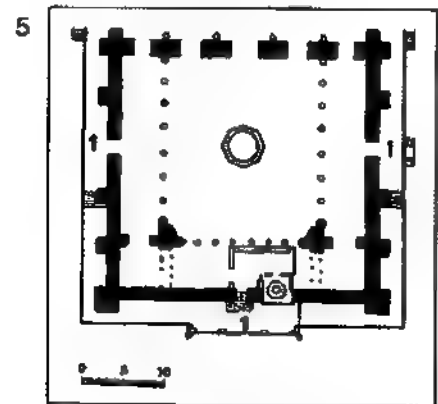
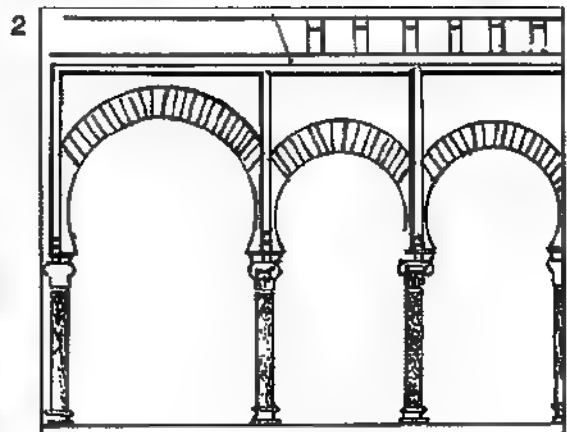
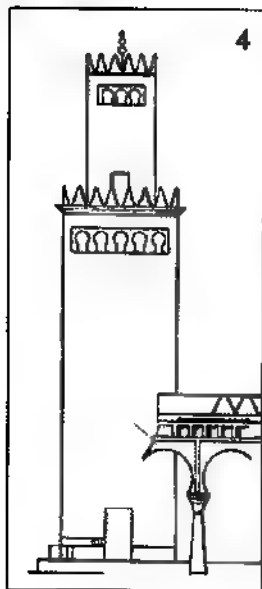


36

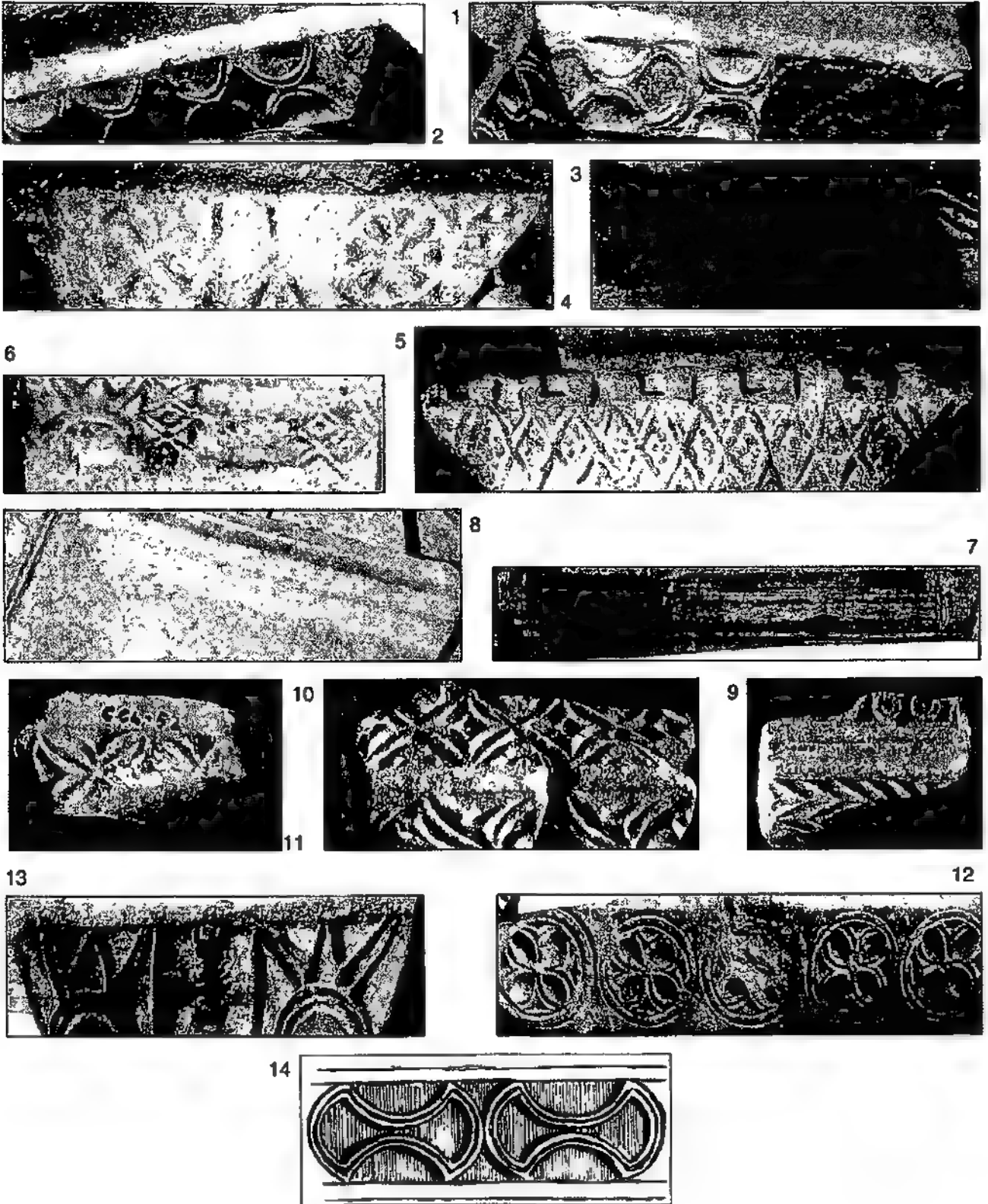


لوحة مجمعة 68:

تيجان أعمدة ملساء في الصحن والحرم، المسجد الجامع
بقرطبة ق10، رقم 35 من المسجد الجامع في القيروان و36
من المسجد الجامع في سرقسطة.

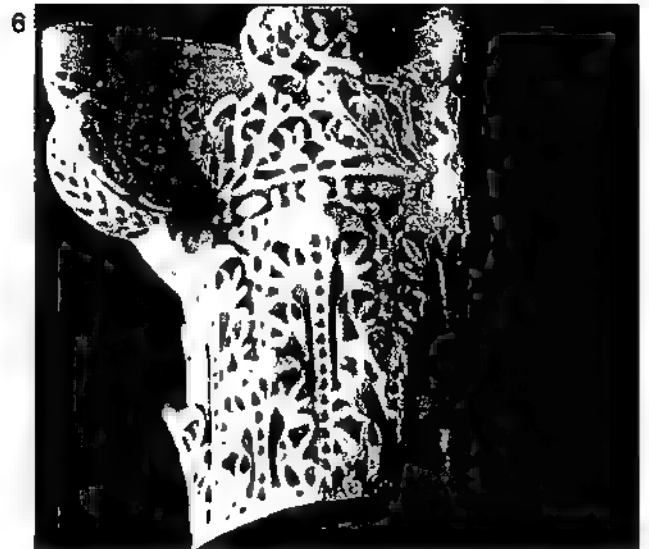
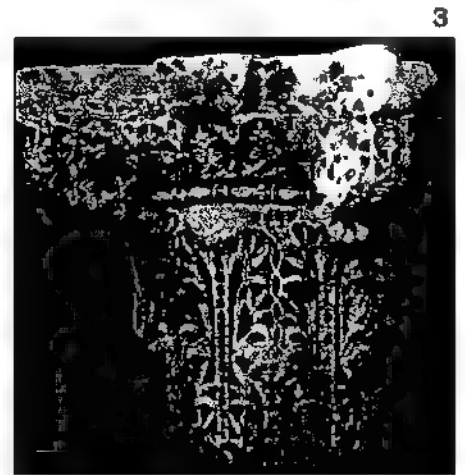
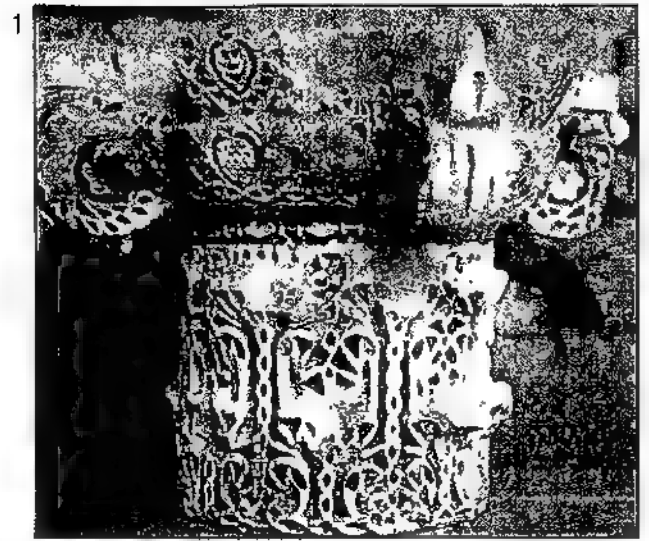
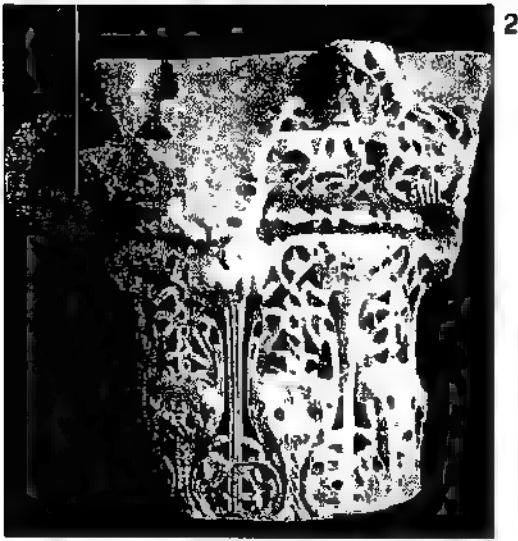


لوحة مجمعة 69
الصحن وأعمدته، المسجد الجامع بقرطبة، في 16، من 2 إلى
5 صحن مسجد مدينة الزهراء.

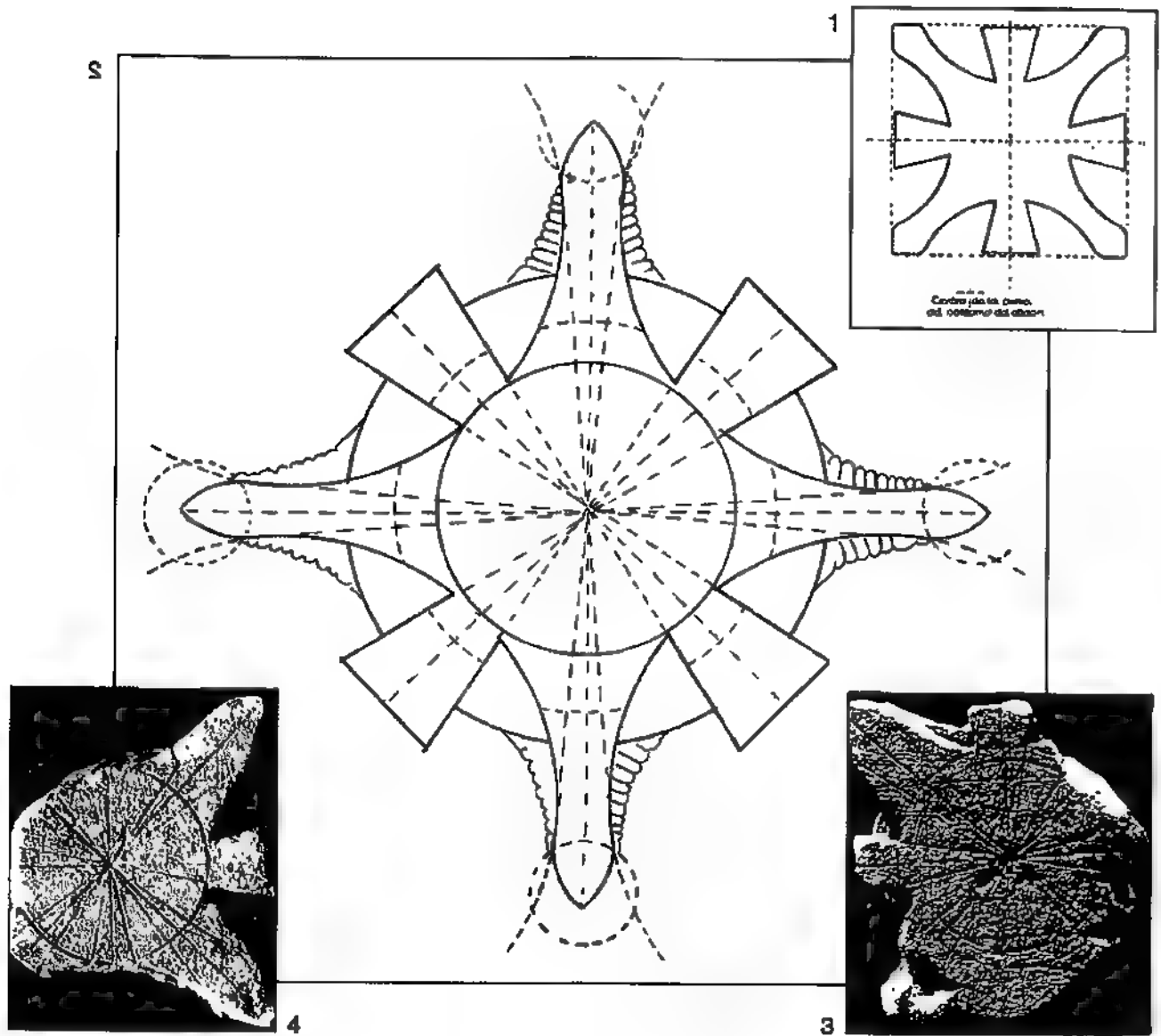


لوحة مجمعة 70:

حدائق، و حلقات معمارية متموجة، قديمة وقوطية في حرم المسجد
(ق 8-9) المسجد الجامع بقرطبة، 9، 10، 11 من مدينة الزهراء.



لوحة مجمعة 71:
تيجان أعمدة عربية مزخرفة في الصالون
الكبير بمدينة الزمراء.



لوحة مجمعة 1-7:
تصميمات لطايات تيجان عربية بمدينة الزهراء، 3، 4، 6
من المسجد.

2



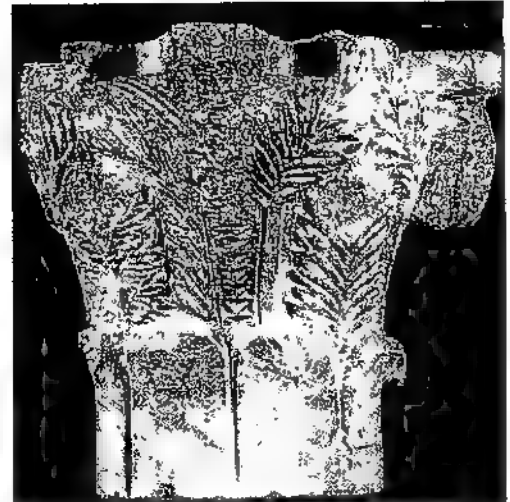
1



4



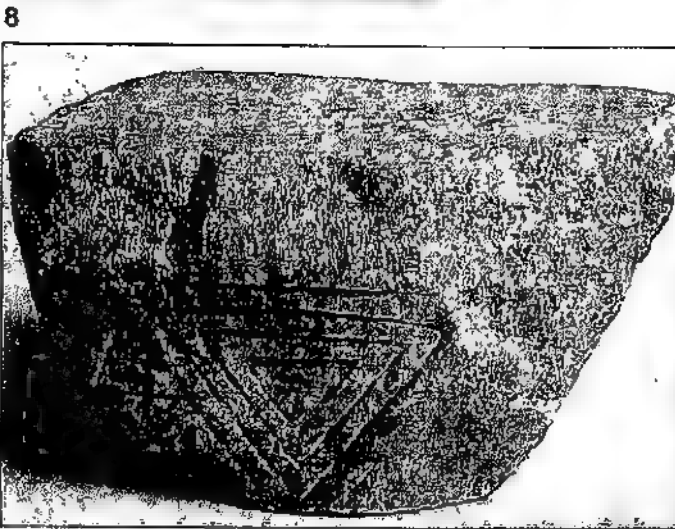
3



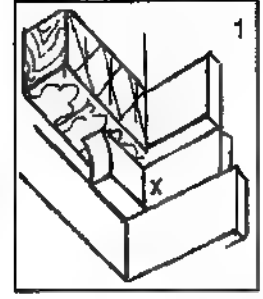
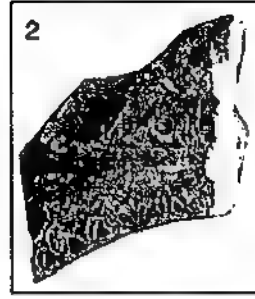
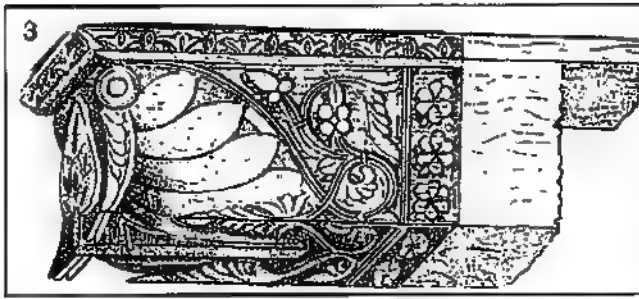
5



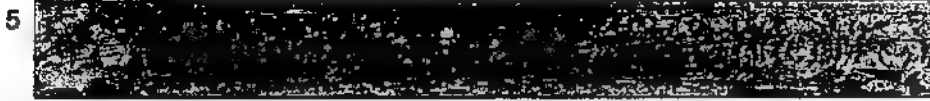
لوحة مجمعة 2-71:
تيجان أعمدة من المسجد الجامع في تطيلة.



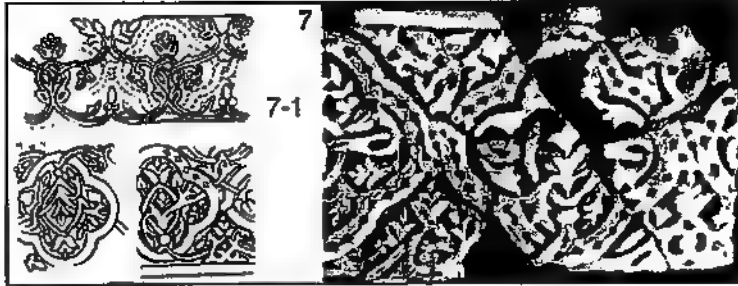
لوحة مجمعة 72.
تيجان أعمدة وربما حليات معمارية متموجة، المسجد
الجامع في تطليلة.



4

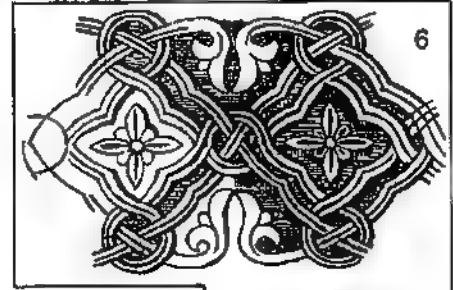


5



7

7-1

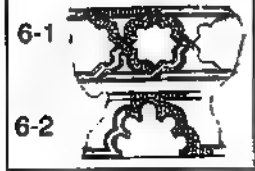


6



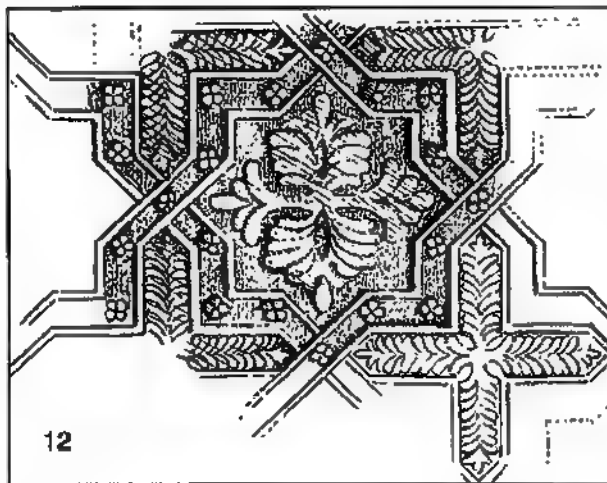
8

9

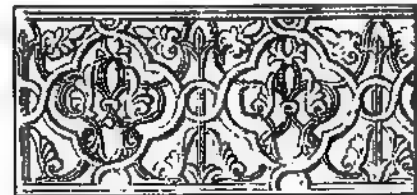


6-1

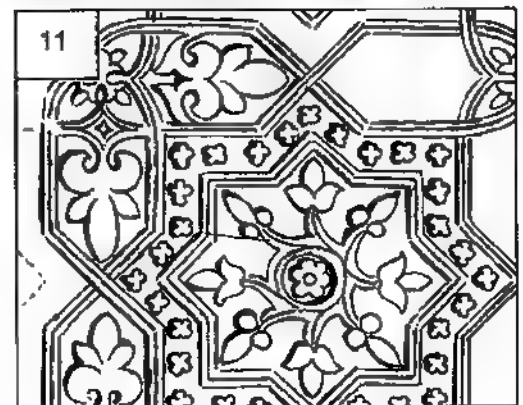
6-2



12

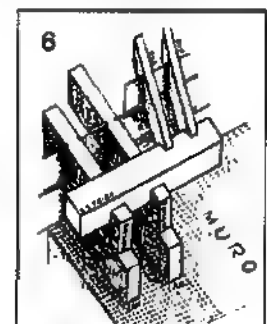
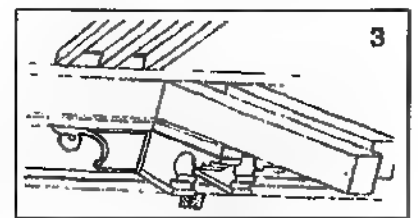
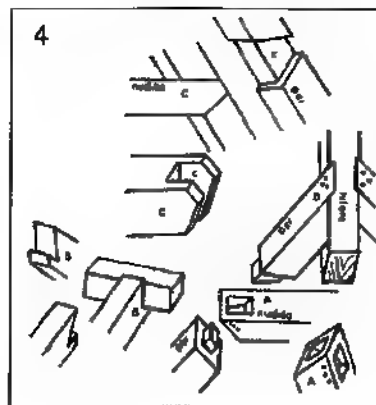
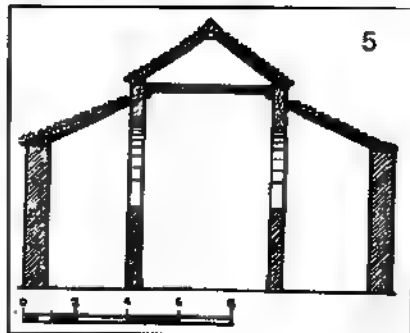
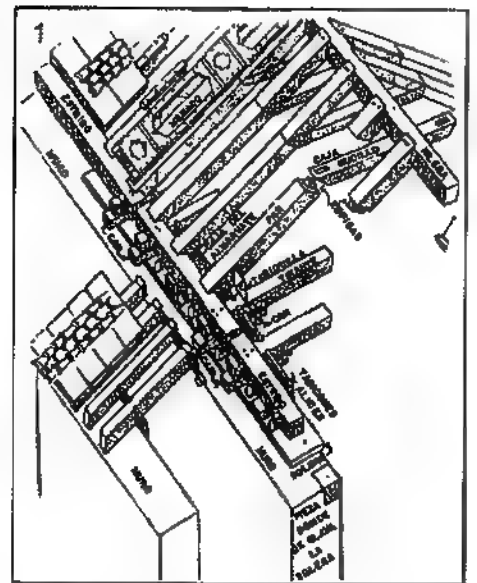
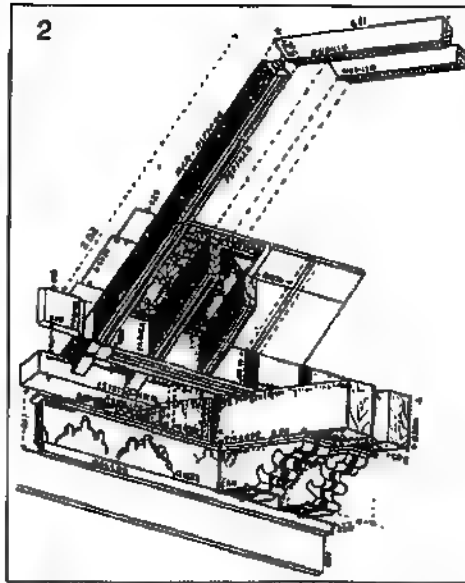
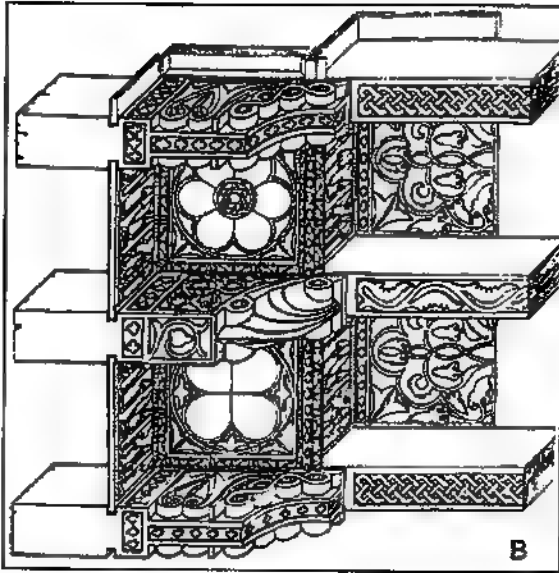


10

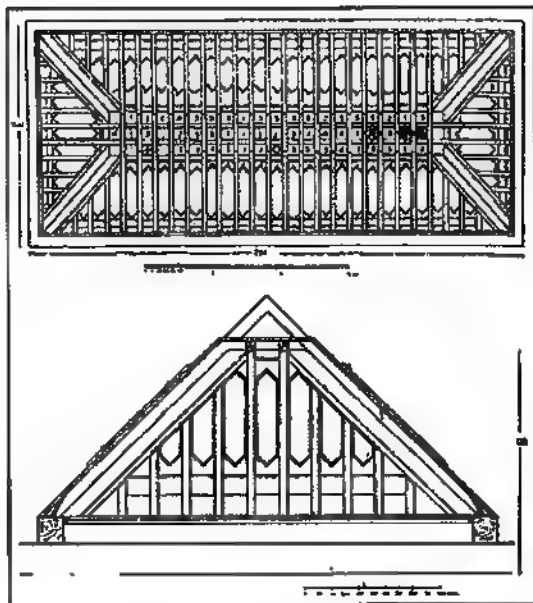


11

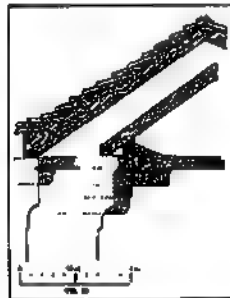
لوحة مججمة 73:
أسقف، مليلة.



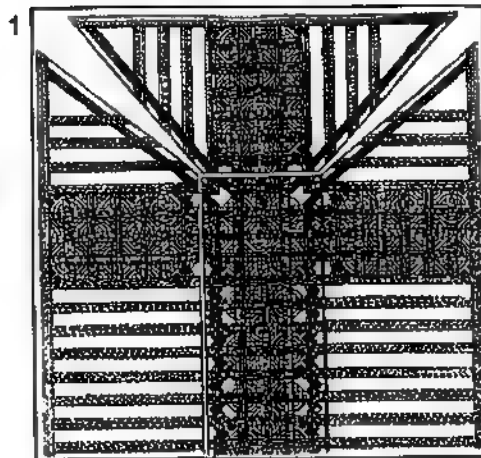
لوحة مجمعة 74:
أسقف عربية ومدجنة



3

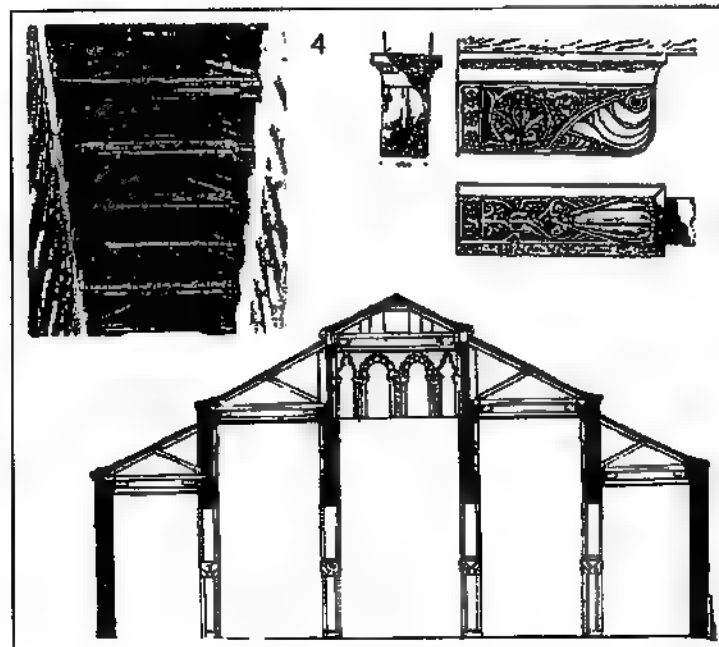
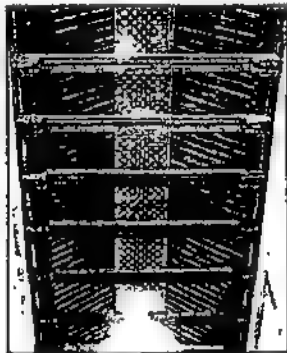


2

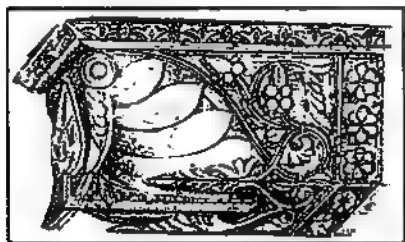


1

5

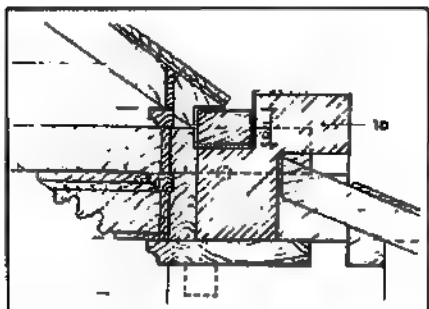


4

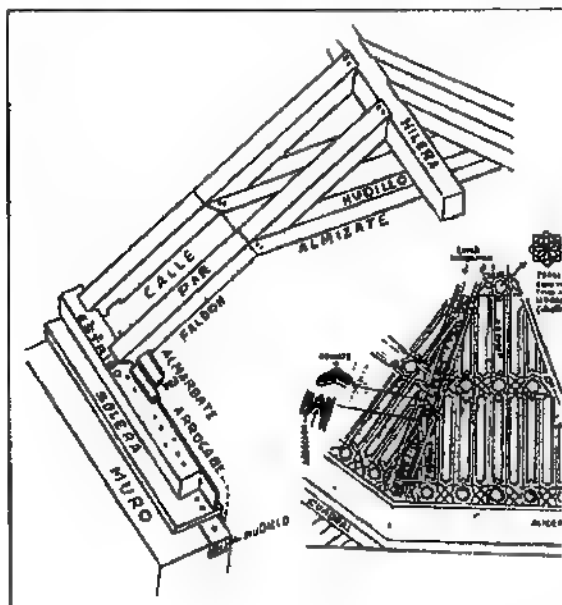


6

7

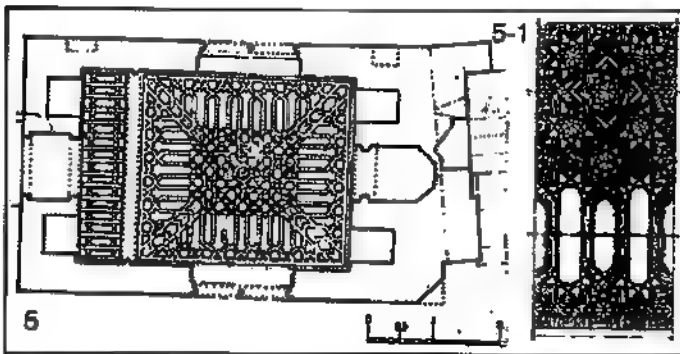
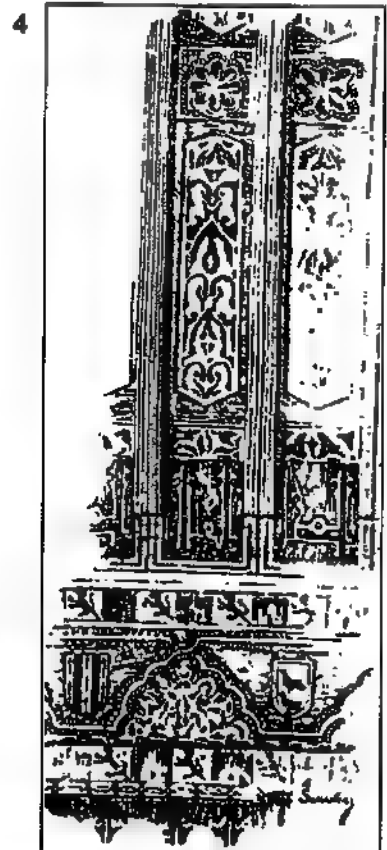
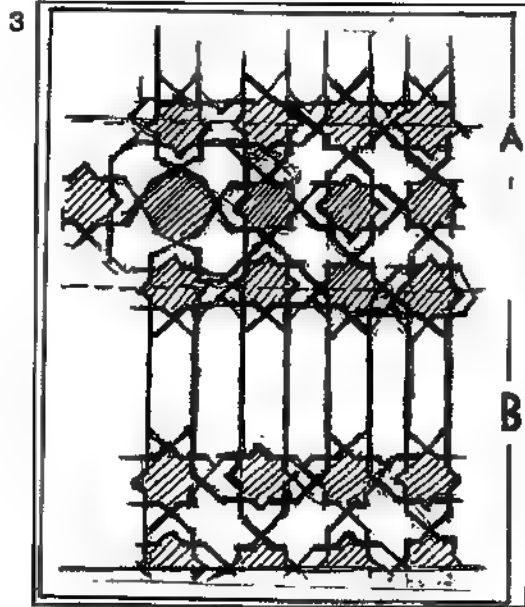
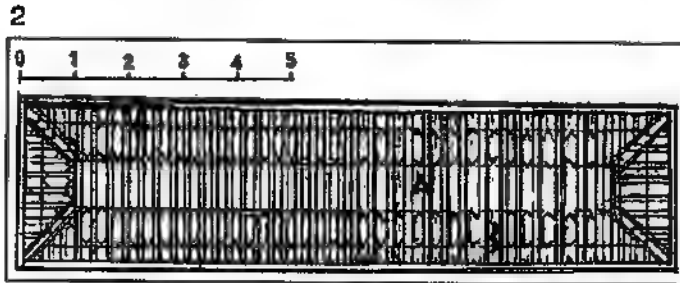
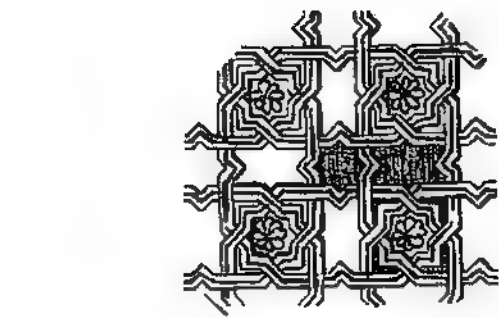
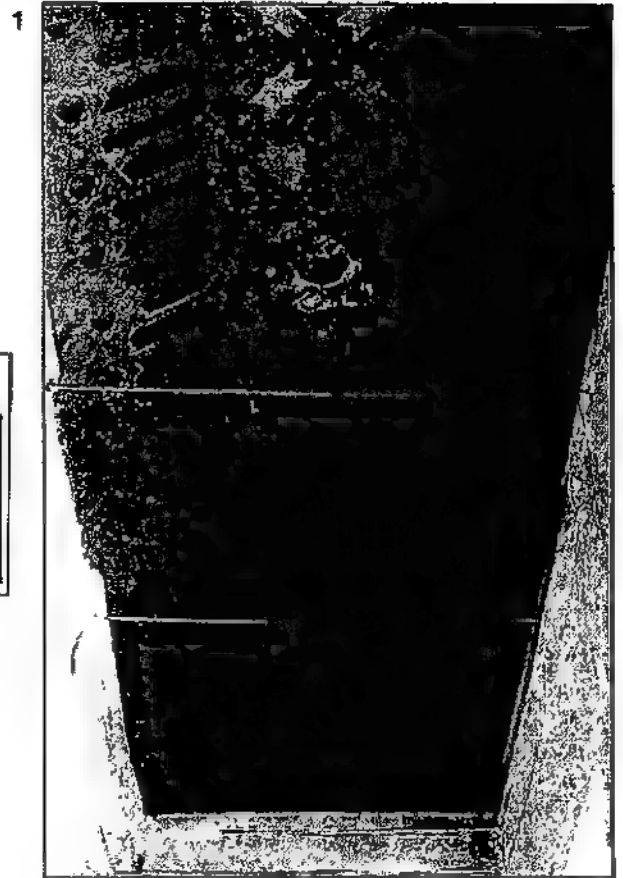


8



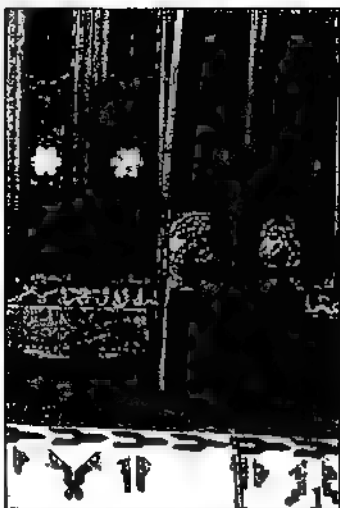
لوحة مجمعة 75:

أسقف طراز البراطيم والجوائز Par y nudillo

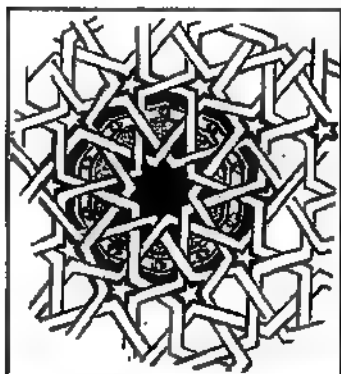
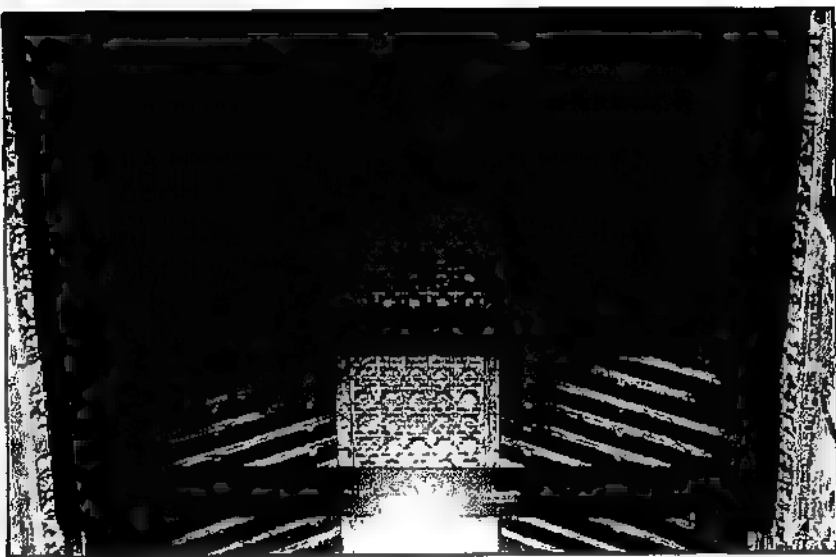


لوحة مجمعة 76:
أسقف منازل ومساجد نصرية 46 مدجن من طليطلة

2

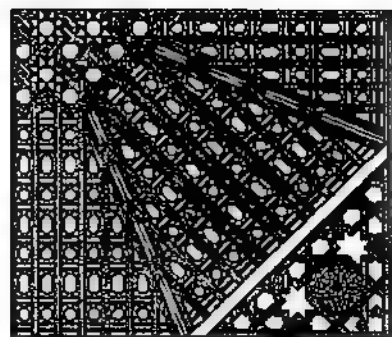
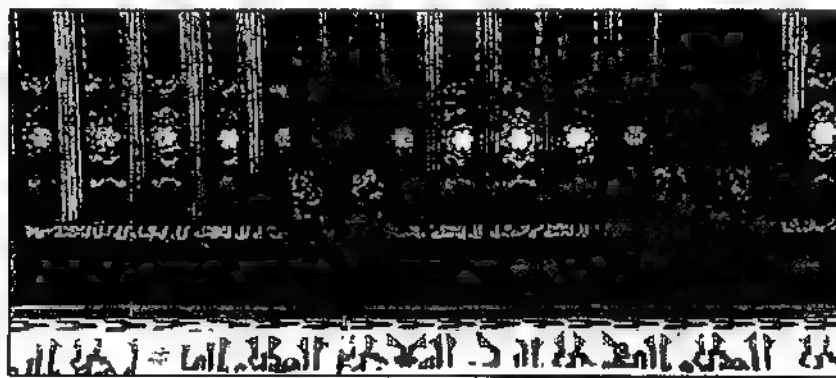


1



4

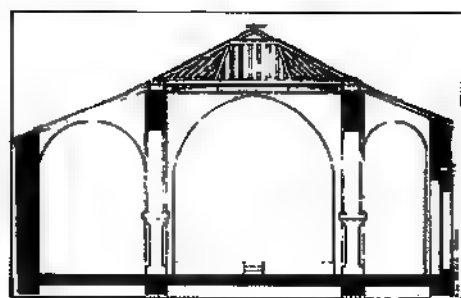
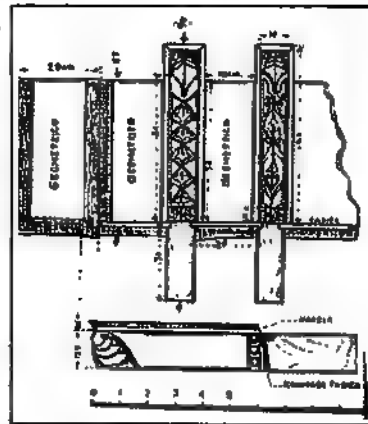
3



6

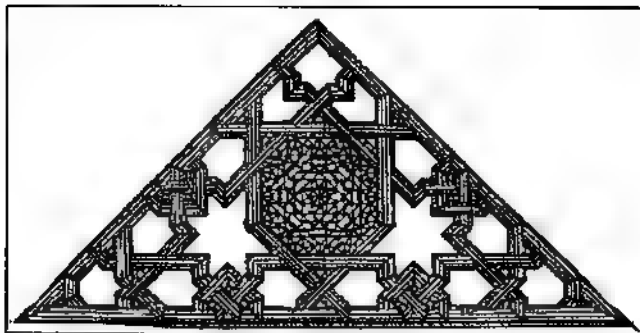


5

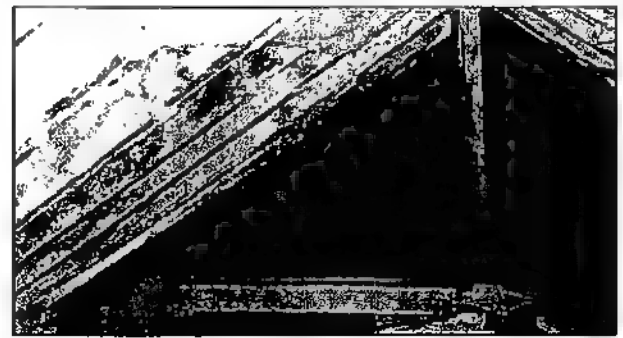
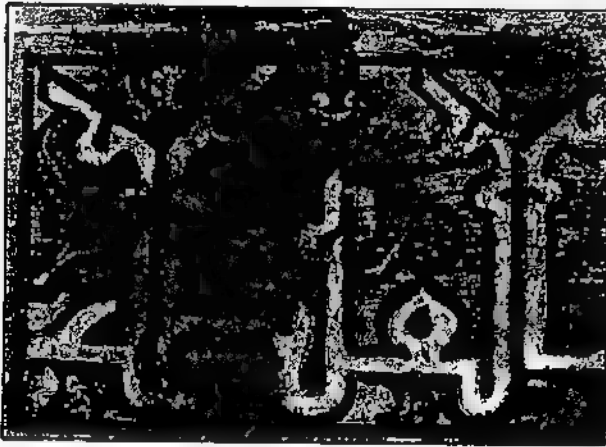
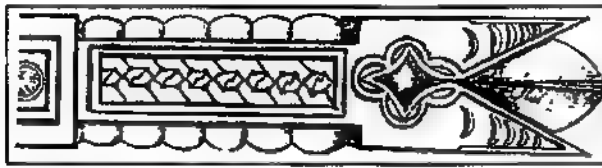
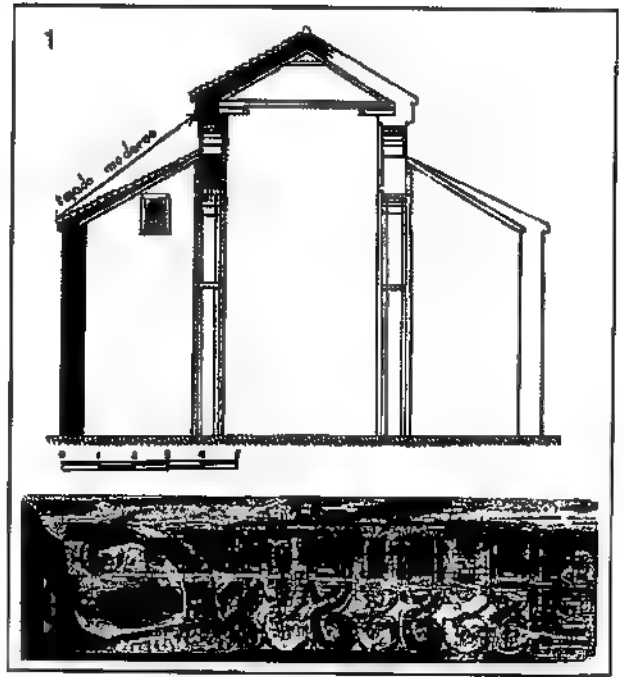
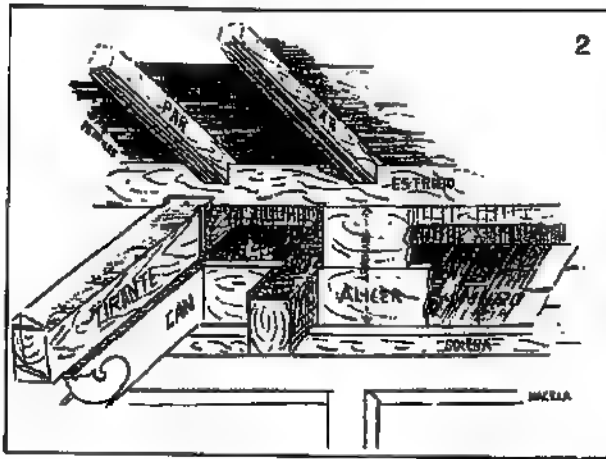


9

8



لوحة مجمعة 77:
أسقف مجمعة من طليطلة

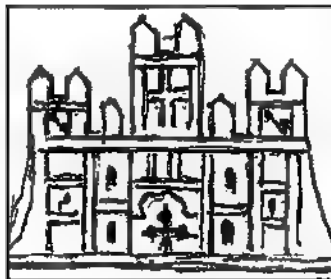


5



6

7-1

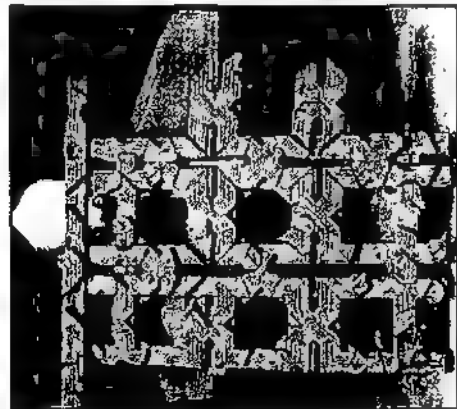
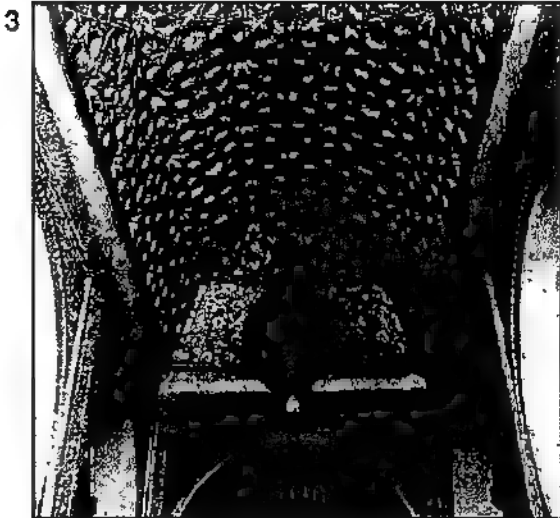
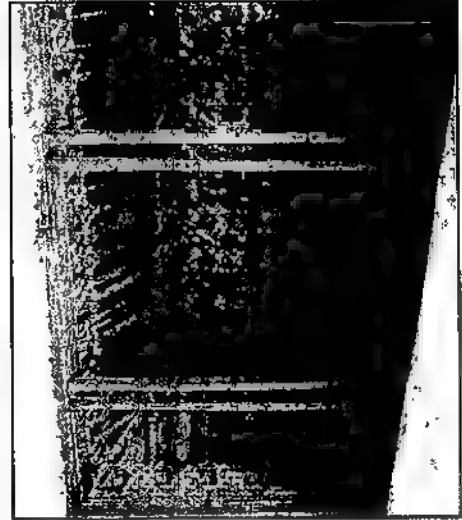
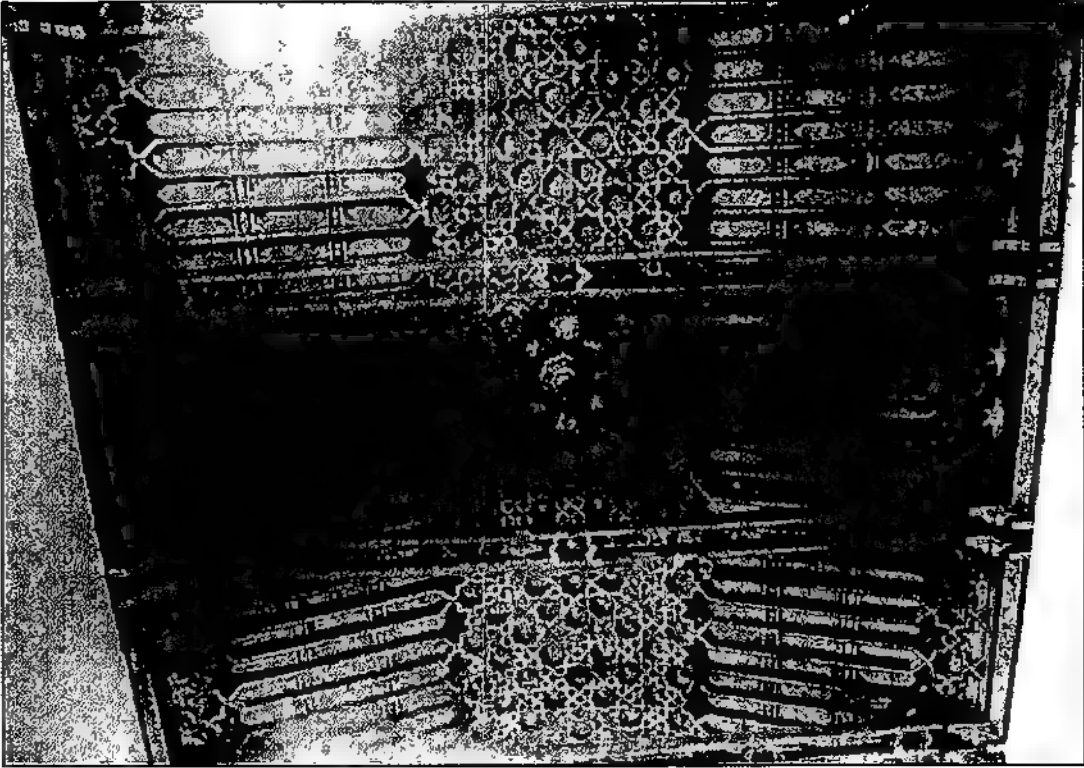


7

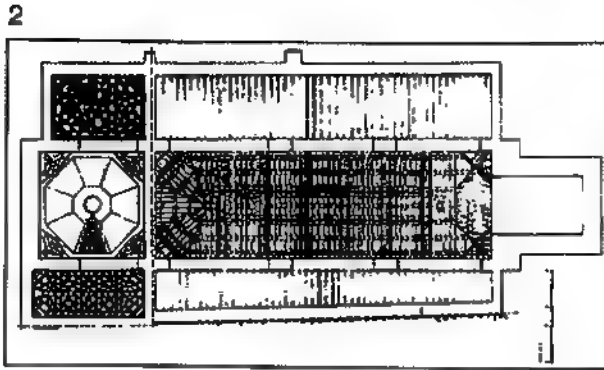
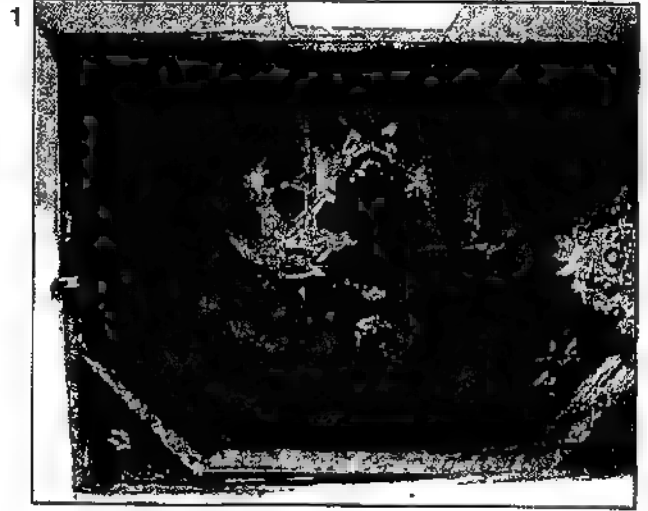


لوحة مجمعة 78:

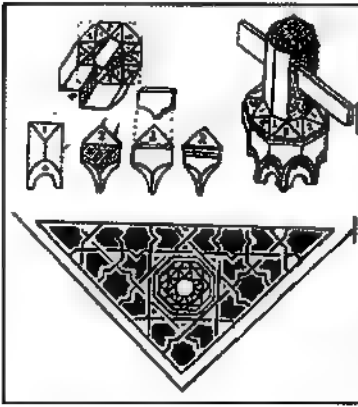
أسقف مدجئة طراز البراطيم والجوائز Par y nudillo.
كنيسة سان خوان إبيانخليستا في أوكانيا (طليطلة)



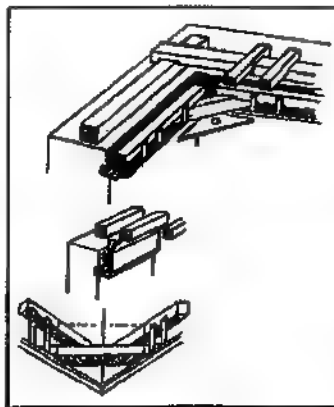
لوحة مجمعة 179
أسقف مساجد مغربية 2، 3، 4



5



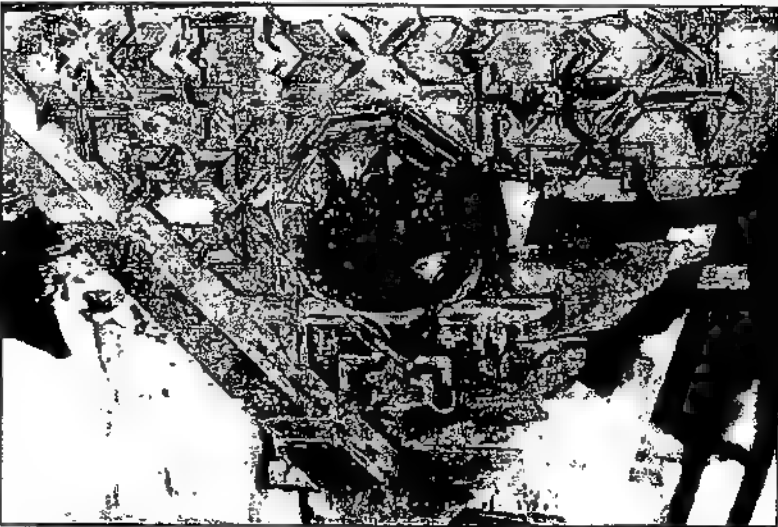
4



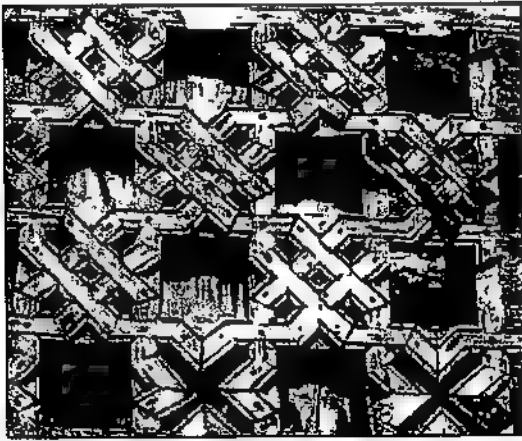
3



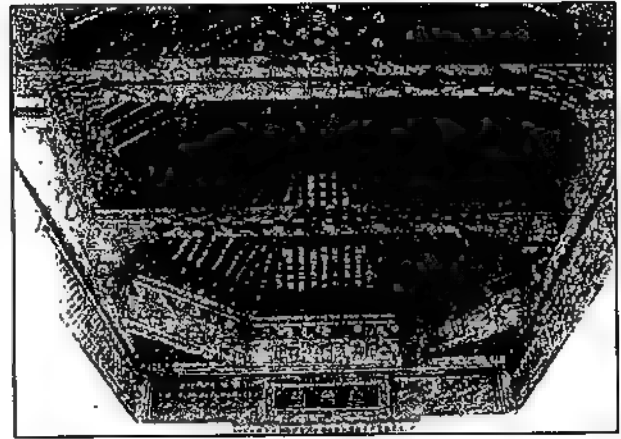
6



لوحة مجمعة 80:
أسقف كنائس مدجنة في إبيروستس (ماليطة)



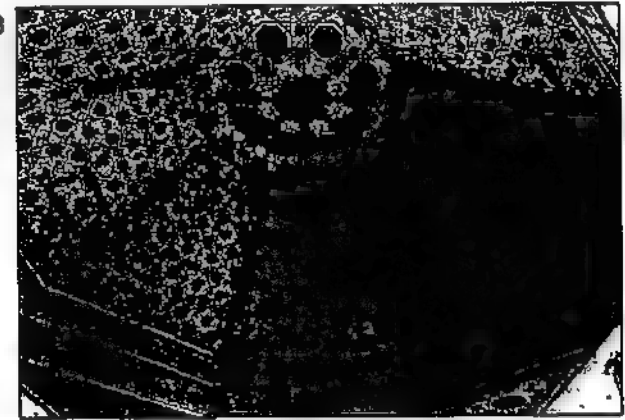
2



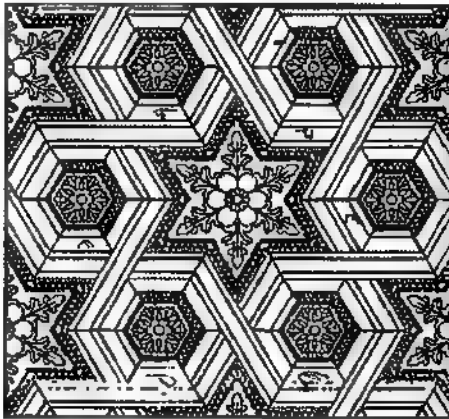
1



4



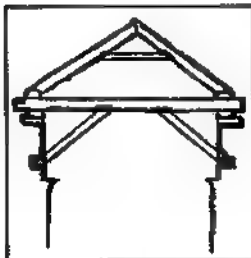
3



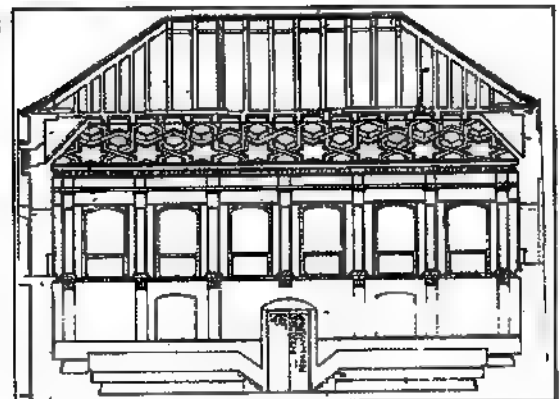
5



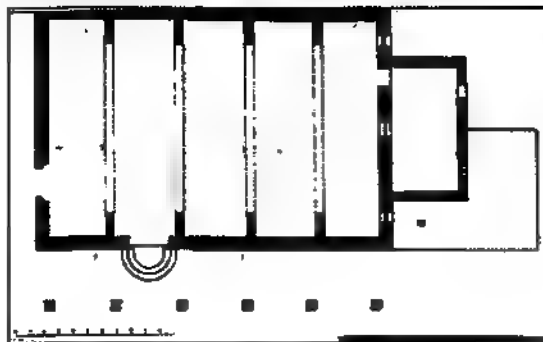
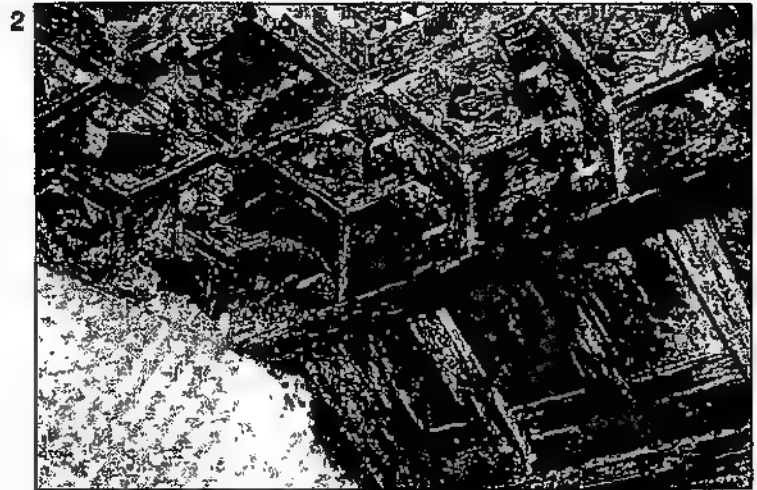
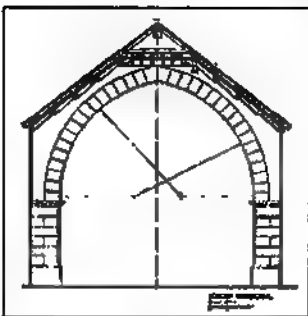
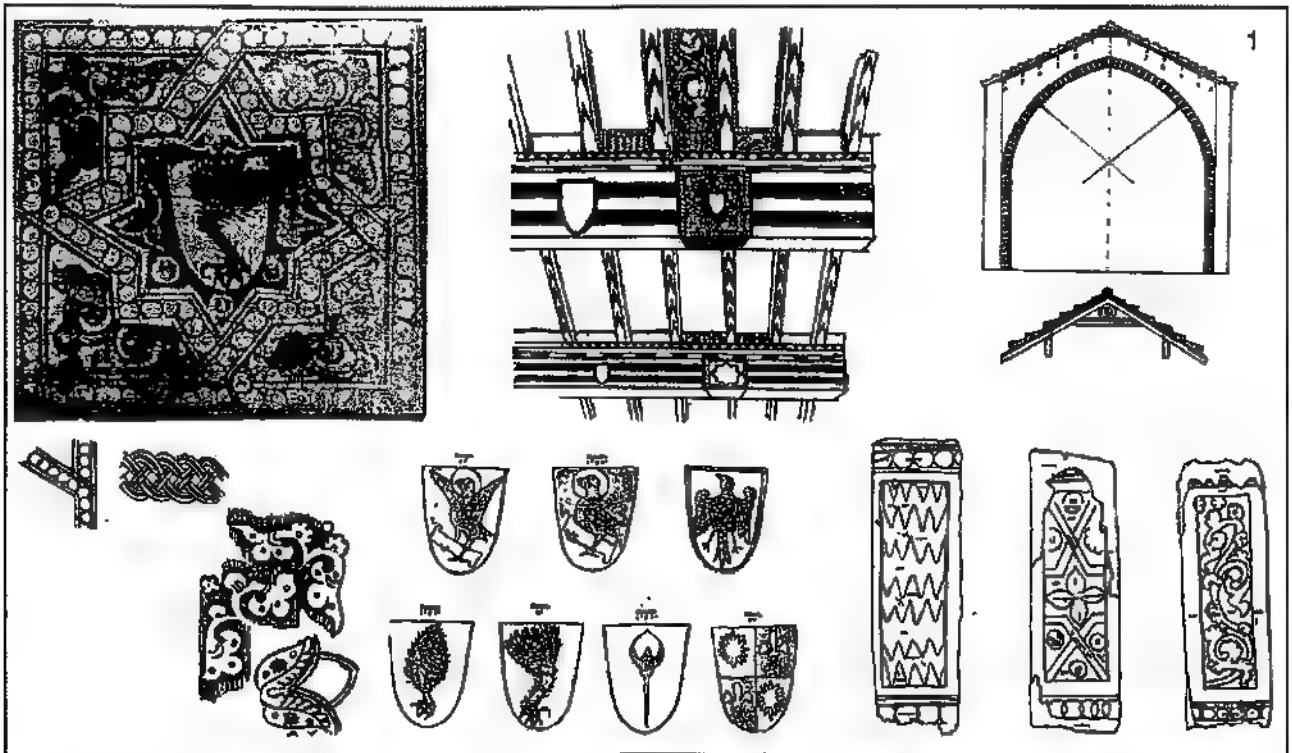
6



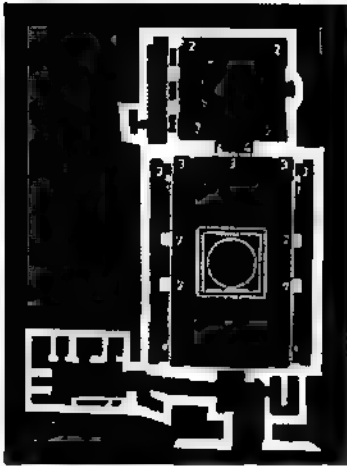
7



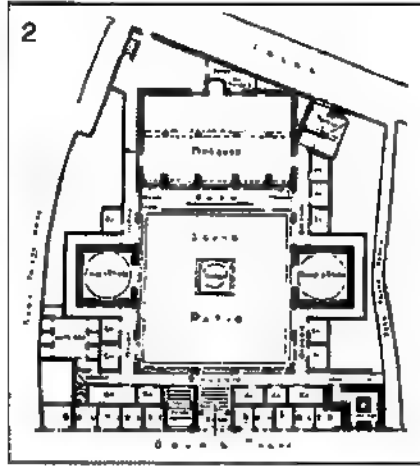
لوحة مجمعة 1-80
أسقف كنائس مدينتي ملابطة وألكالا دي إيناروس



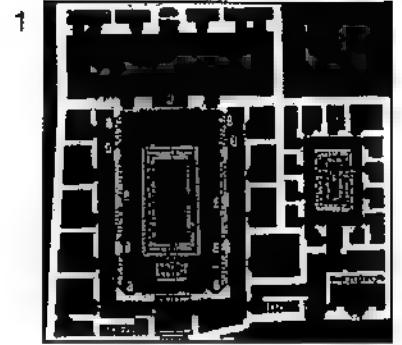
لوحة مجمعة 2-80:
أسقف مدججة في شرق الأندلس



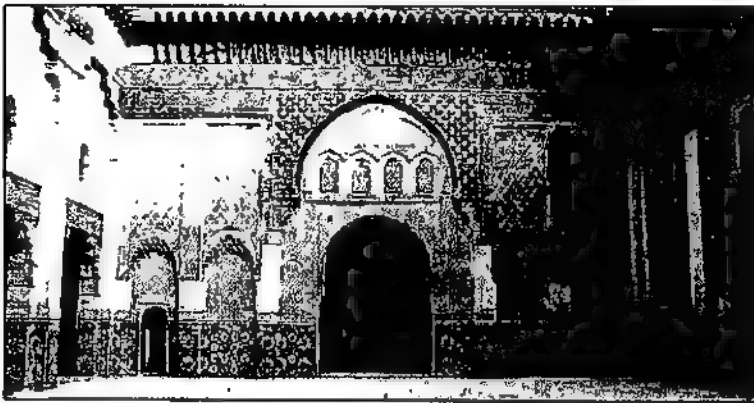
3



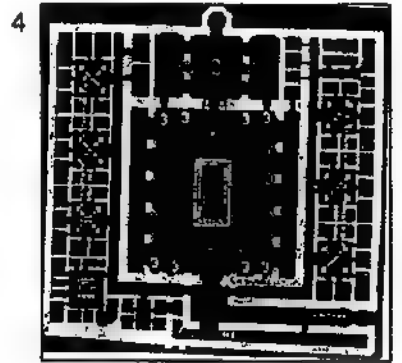
2



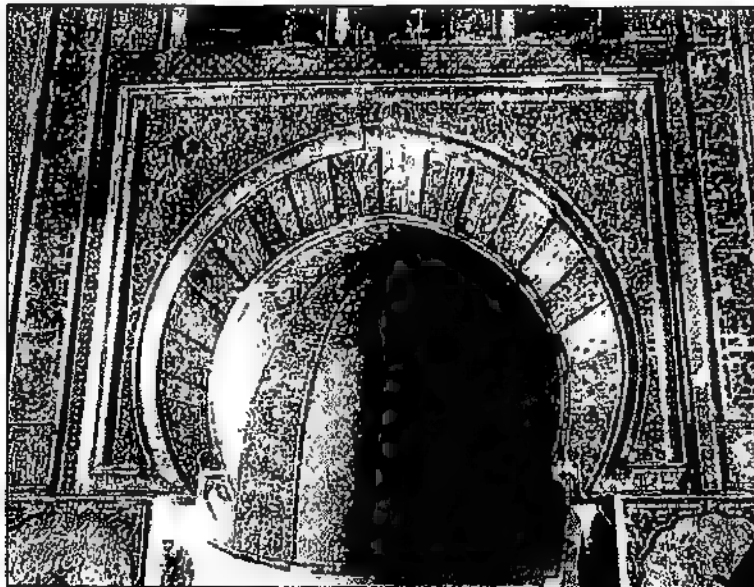
1



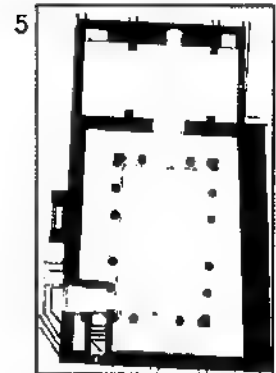
6



4

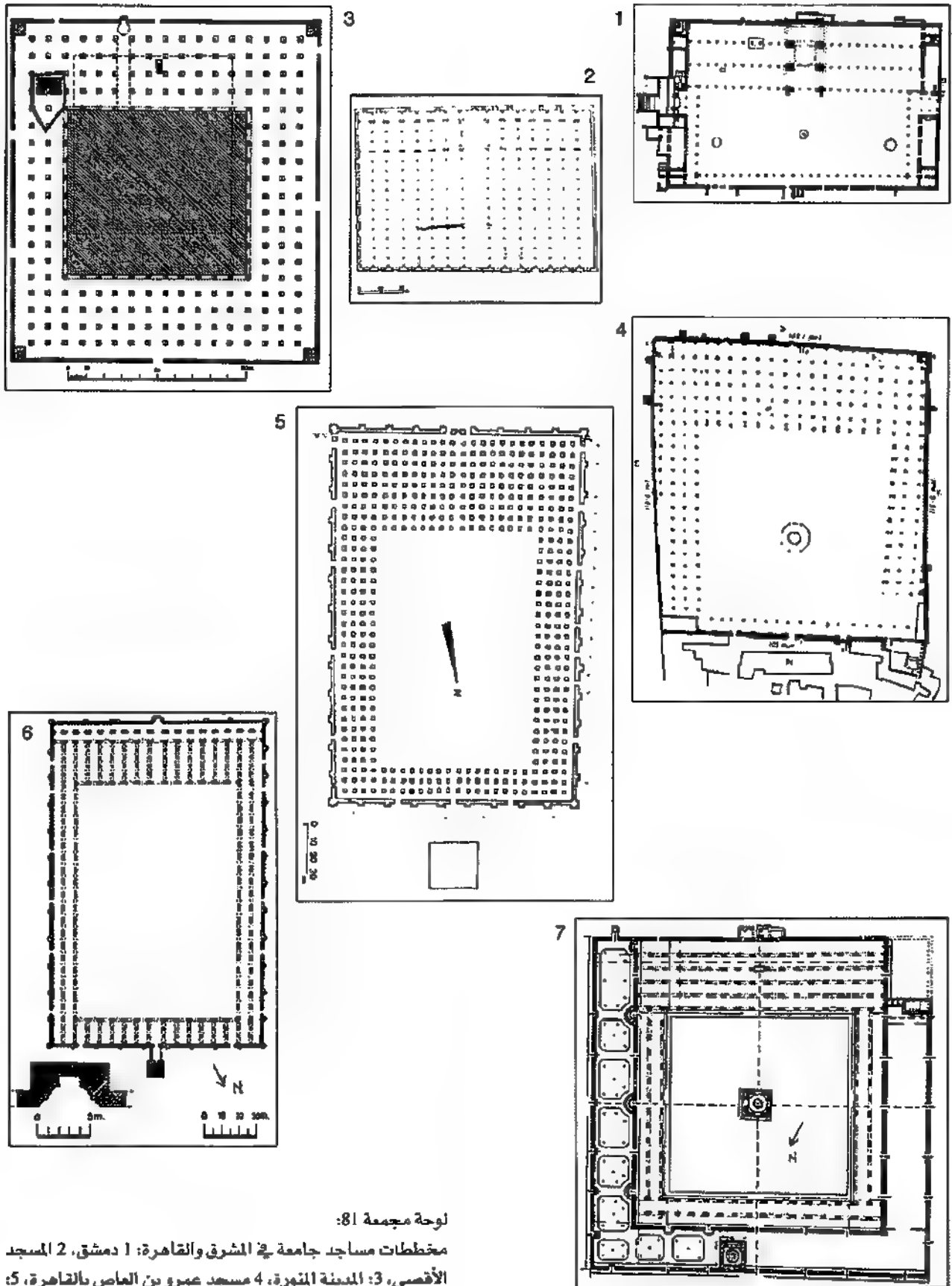


7



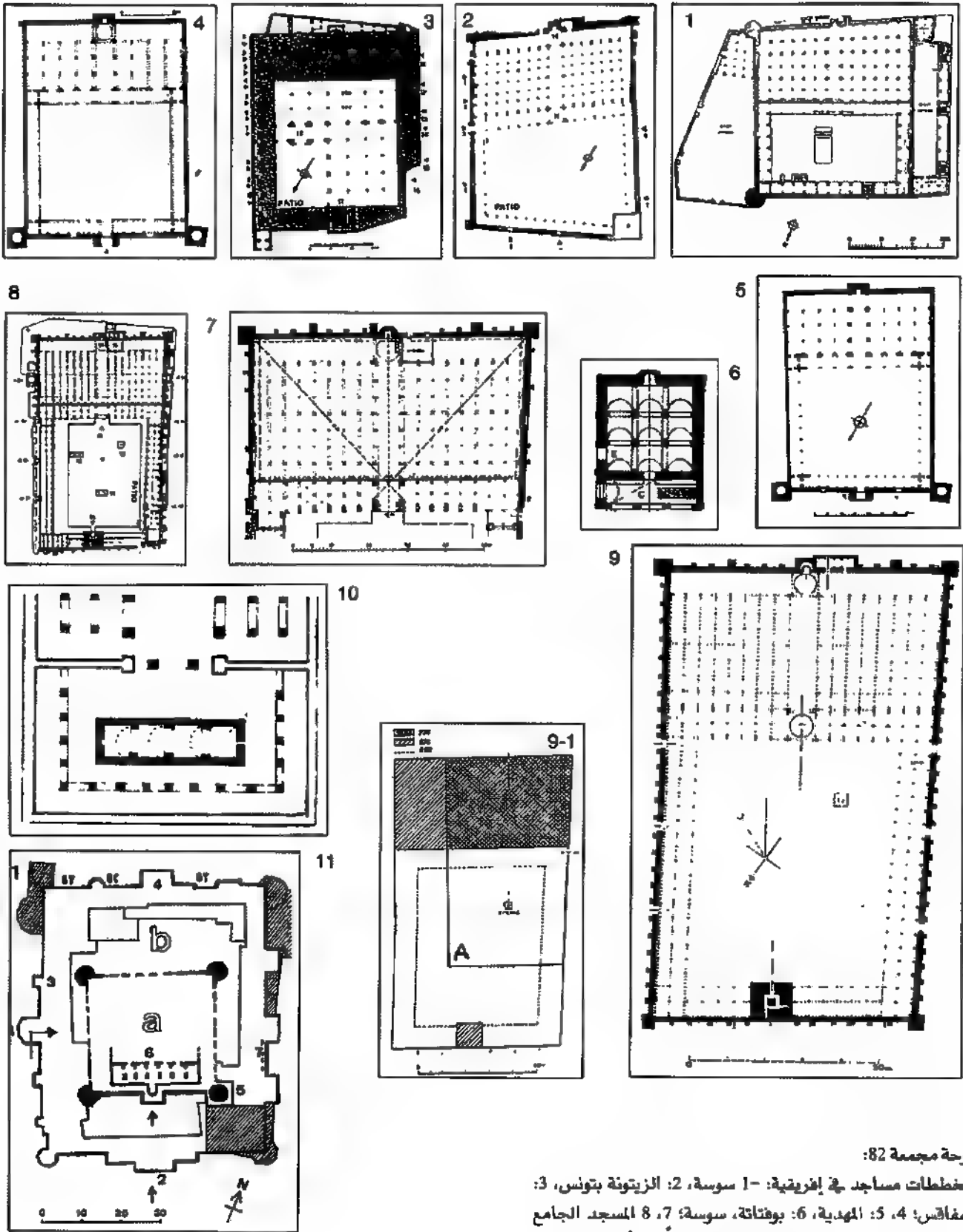
5

لوحة مجمعة 80 :3
مدارس في شمال أفريقيا



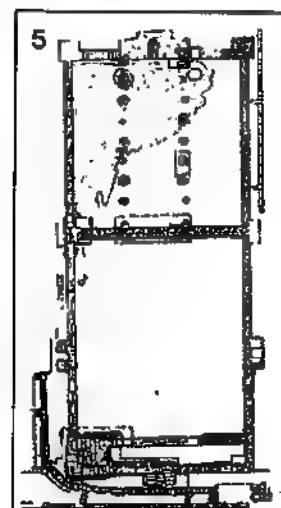
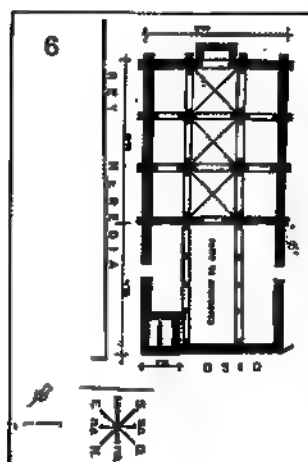
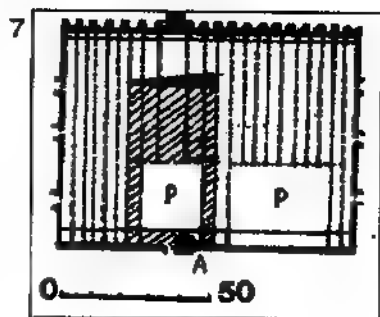
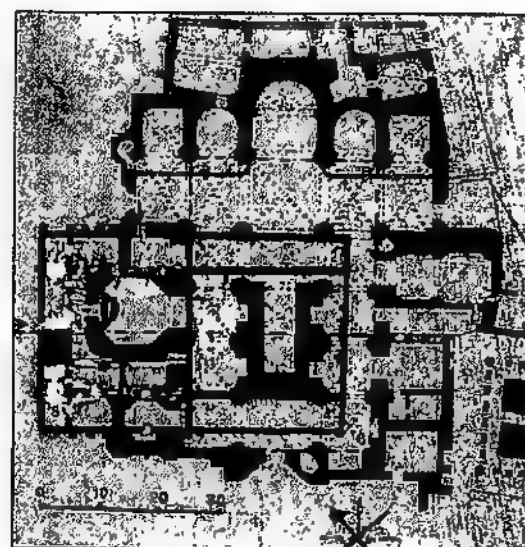
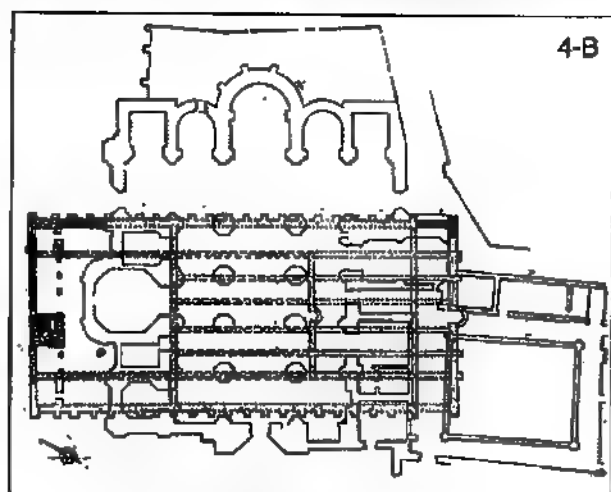
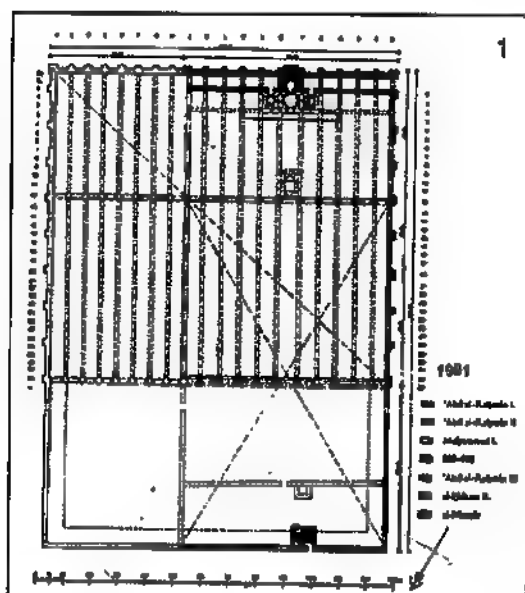
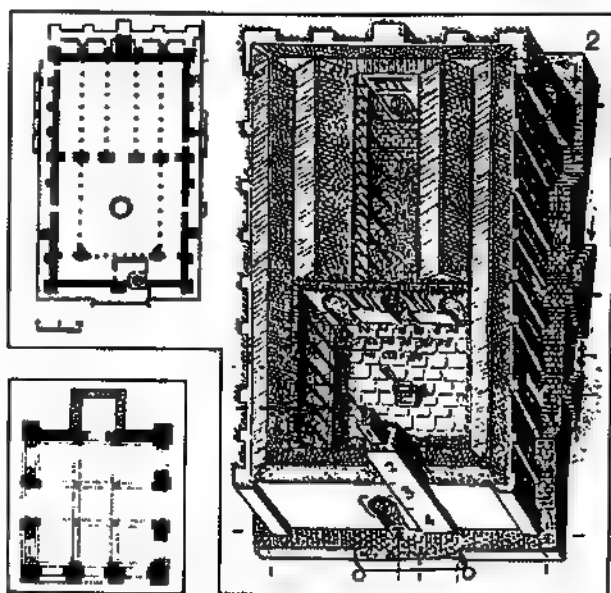
لوحة مجمعة 81:

مخططات مساجد جامعة في المشرق والقاهرة: 1 دمشق، 2 المسجد الأقصى، 3: المدينة المنورة، 4 مسجد عمرو بن العاص بالقاهرة، 5: سامراء، 6: أبو دلف سامراء، 7: ابن طولون بالقاهرة.



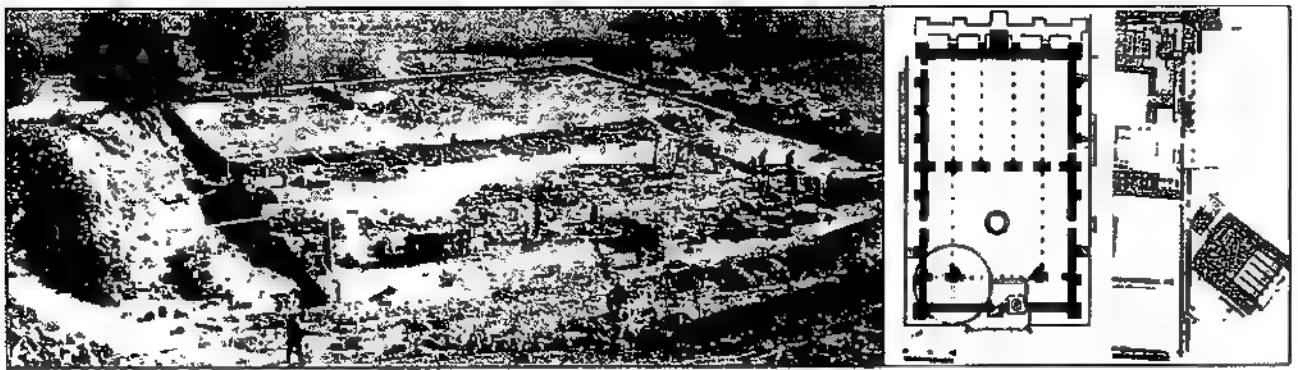
لوحة مجمعة 82:

مخططات مساجد في إفريقية: 1- سوسة، 2: الزيتونة بتونس، 3: صفاقس؛ 4، 5: المهدية، 6: بوقفانة، سوسة؛ 7، 8: المسجد الجامع بالقيروان، 9: المسجد الجامع بالقيروان طبقاً لـ أ. أليزن. 1-9: عملية قصور لمسجد يزيد، القرن الثامن (أ. أليزن)؛ 10: بازلنكا سان شبريانو، قرطاج، 11: رباط متستر (تونس) وفيه المسجد (6).

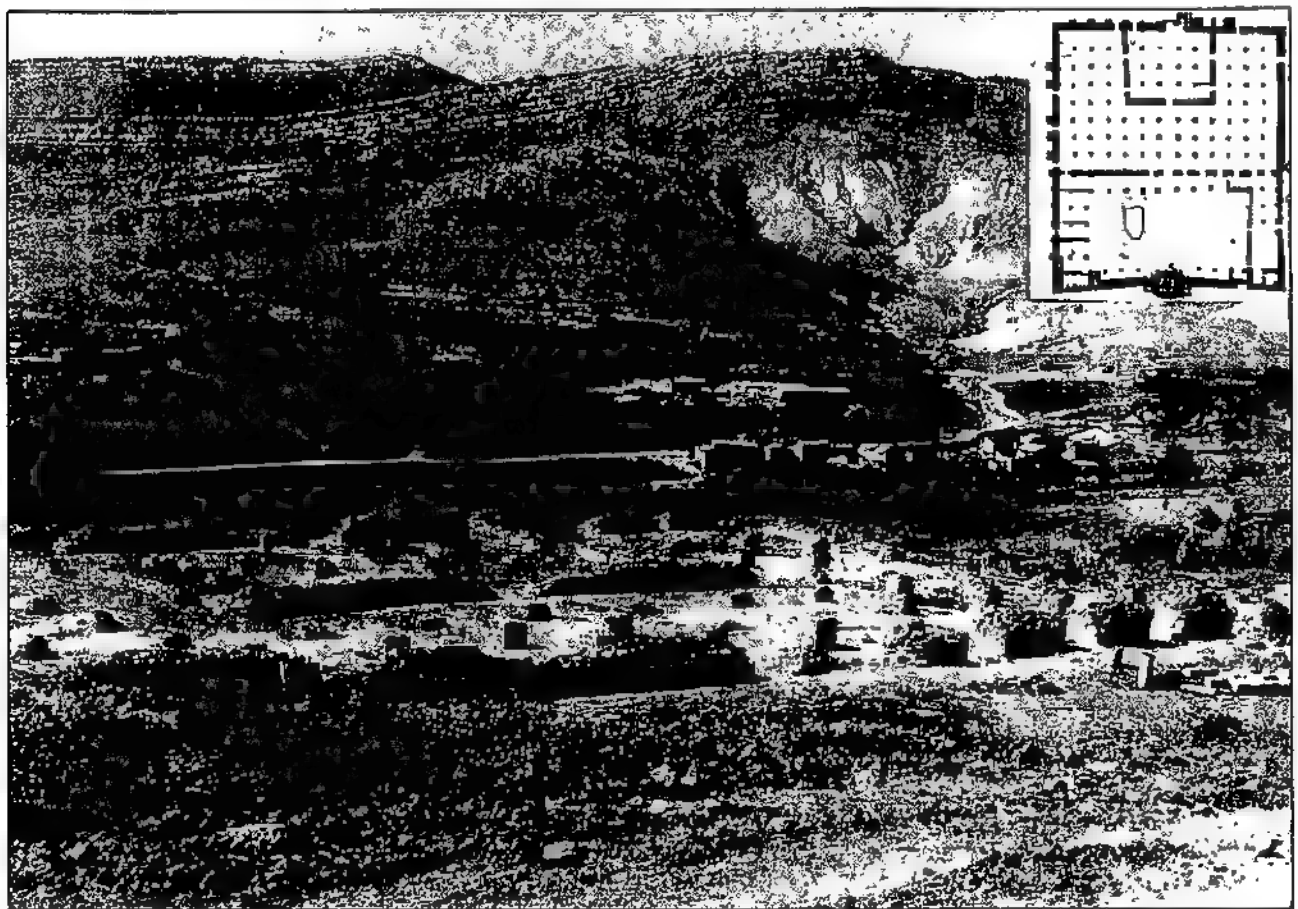


لوحة معجمة 83:

مخططات المساجد الإسبانية الإسلامية الأكثر شهرة: 1: المسجد الجامع بقرطبة مع نهاية القرن العاشر، 2: المسجد الجامع بمدينة الزهراء، 3: مسجد الباب المردوم بطليطلة؛ 4 - A، B: مسجد طليطلة، 5: مسجد فونتشار بقرطبة؛ 6: مسجد سانتا كلارا بقرطبة، 7: إعادة تصور مفترضة للمسجد الجامع في سبتة.

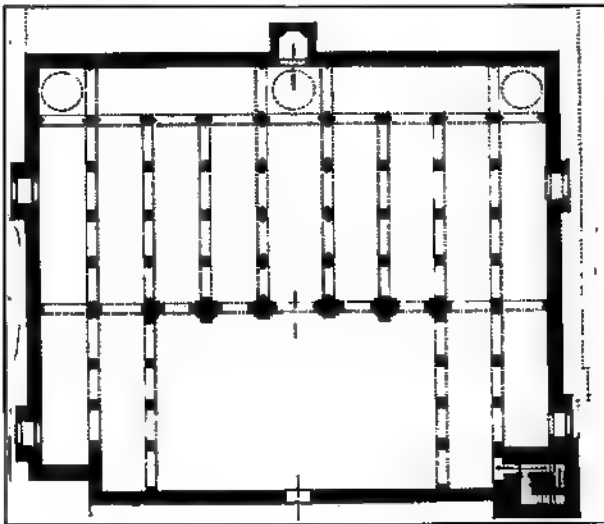
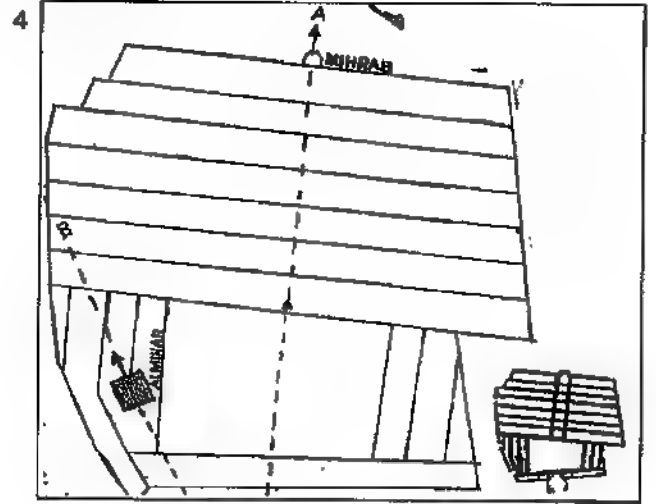
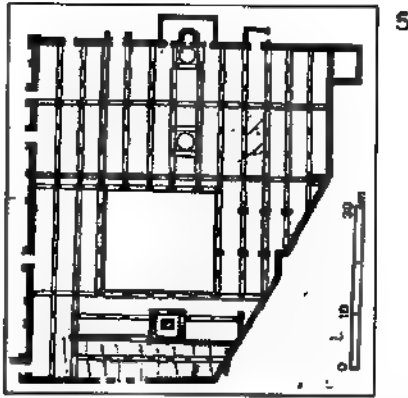
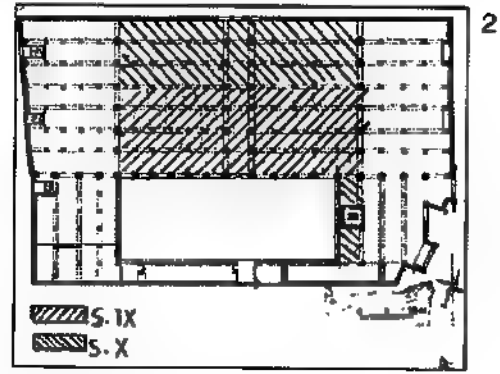
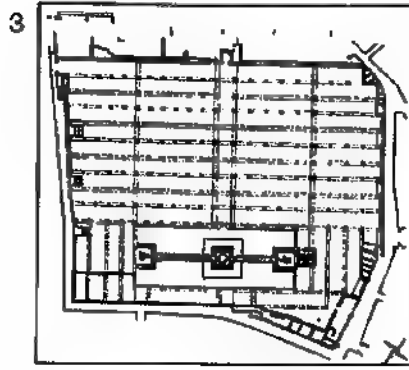


A

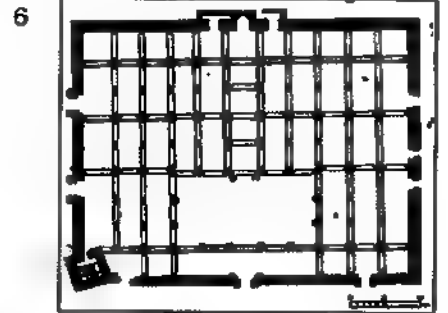


B

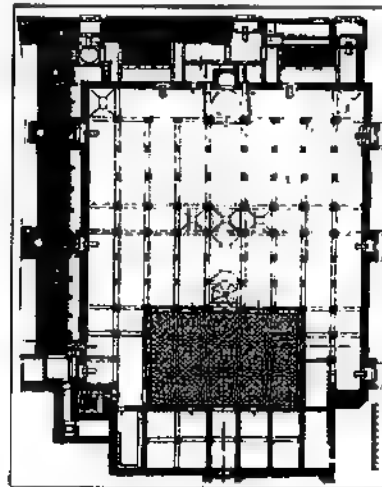
لوحة مجمعة 1-83 :
A مدينة الزهراء بعد الانتهاء من اعمال الحفائر فيها؛ B مسجد
قلعة بني حماد، الجزائر.



7

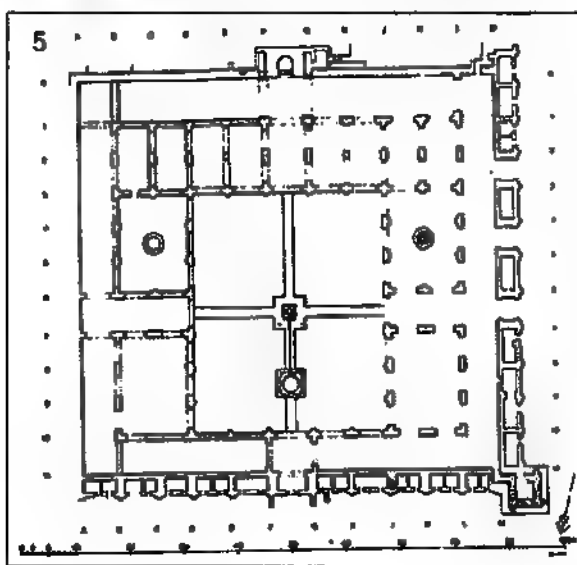
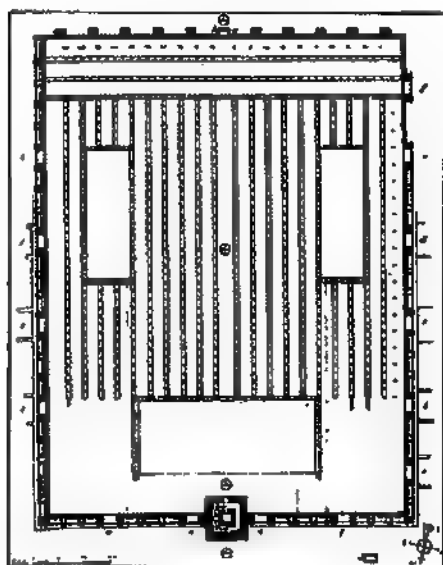
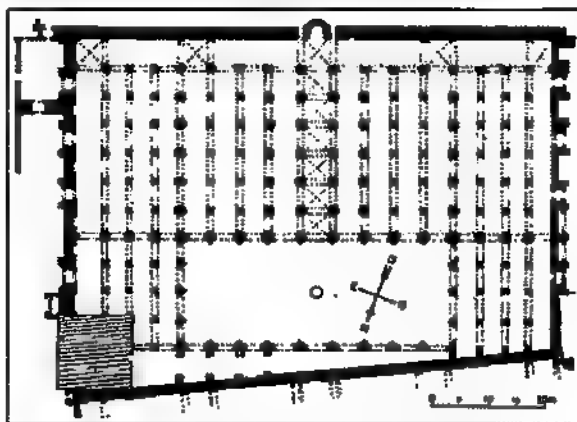
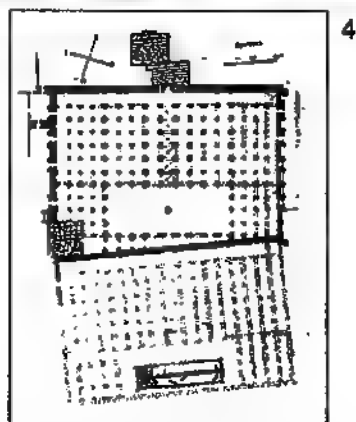
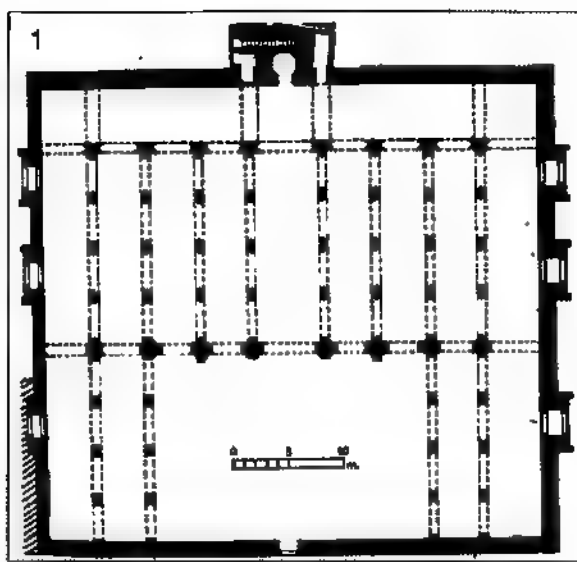
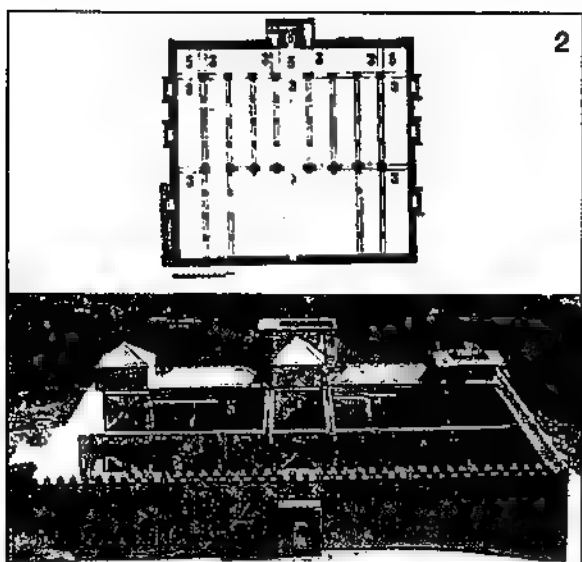


7-1



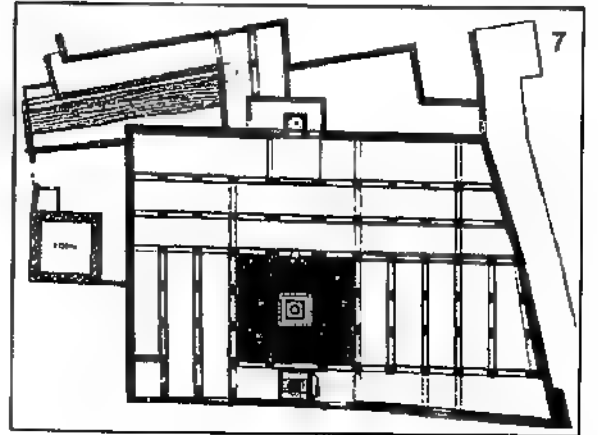
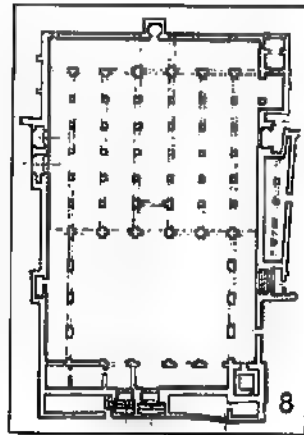
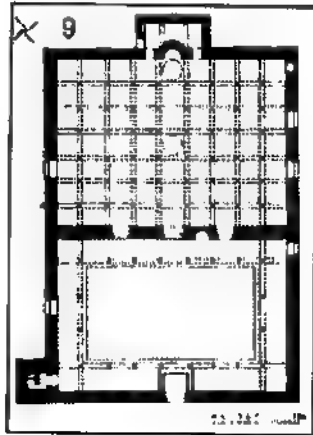
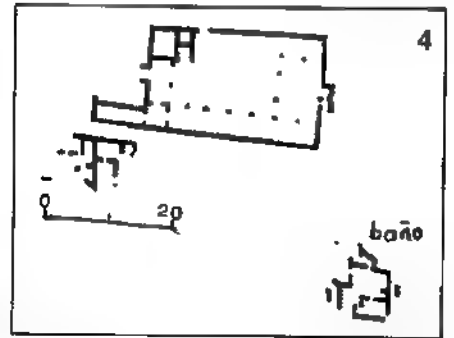
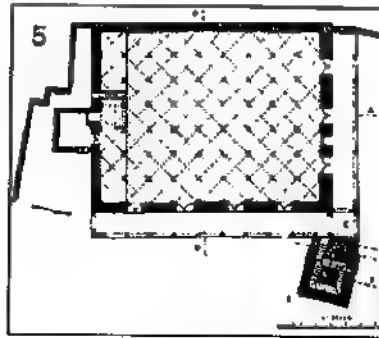
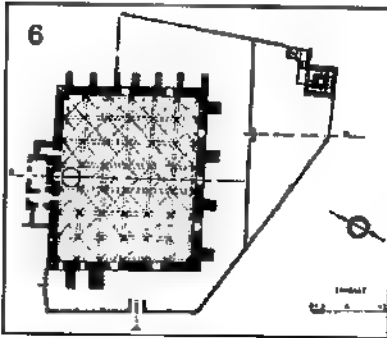
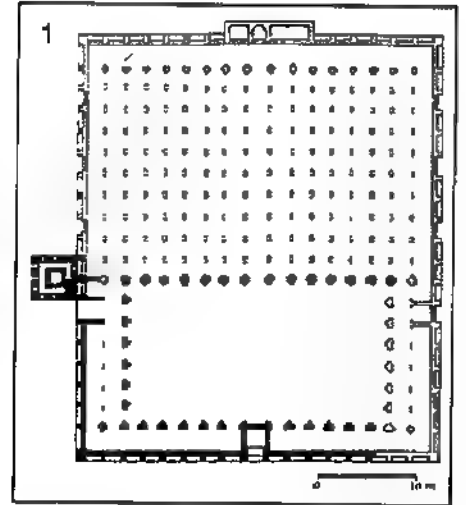
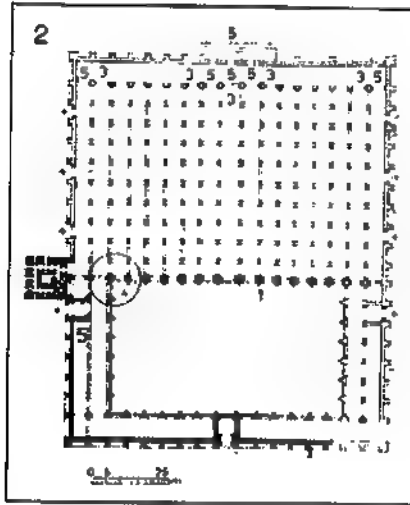
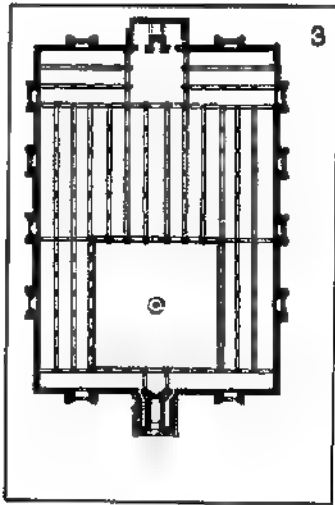
لوحة مجمعة 84:

مخططات مساجد أفريقية من القرن العاشر حتى القرن
الثالث عشر؛ 2، 3: مسجد القرويين بقاس؛ 5: مسجد
تلمسان، 6: مسجد الجزائر، 7، 7-1: مسجد تازا

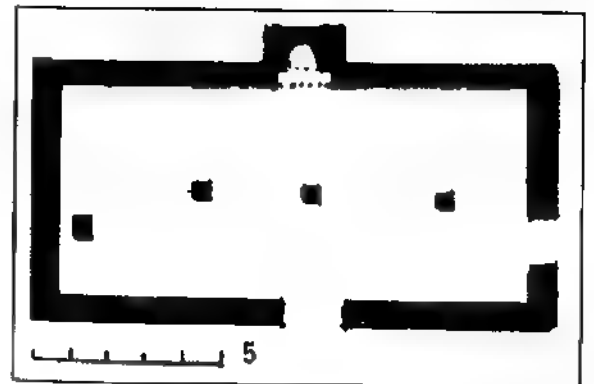


لوحة مجمعة 85:

مخططات مساجد أفريقية القرن الثاني عشر: 1، 2، شمال، 3: الكتبية بمراكش، 4: المسجد السابق والمسجد الذي سبق، زال من الوجود اليوم، 5: من قصبة مراكش، 6: مسجد حسان بالرباط.



10



لوحة مجمعة 86:

مخططات المسجد الجامع الموحدي في إشبيلية: 1، 2، باقي المساحد الأفرقية، 3. مسجد منصور، تلمسان: 4 من القصر الصغير (المغرب): 5، 6 القصبة وقصبة الهوا بتونس: 7. مسجد قصبة فاس، 8. مسجد الجمعة (الجامع) بفاس: 9. مسجد توزور الجامع (تونس) القرن السابع عشر: 10. مسجد سيجستا (صقلية) القرن الثاني عشر والثالث عشر.

مسرد لأهم المصطلحات المعمارية

راعينا أن يكون هذا المسرد الموجز أداة أخرى تساعد على فهم المصطلحات المعمارية والزخرفية. ومن هنا فأتنا سرنا على منعى في الترجمة يساعد على المزيد من الاقتراب من النص حيث وضعنا المقترح «الترجمي» إلى جوار المصطلح المكتوب باللغة الأسبانية وذلك في محاولة لتقادي اللبس، كما أننا مدركون أيضاً أن معاني المصطلحات تختلف من عصر لآخر ومن جغرافية لأخرى.

Abaco	طائفة عمود / فوق التاج
Abrazadera	مفصلة
Aqueducto	قنطرة المياه
Ajedrezados Decorativos	زخرفة شطرنجية
Al Aire Libre Arco	عقب معلق في الهواء
Albanega	بنية المقد / طيلة المقد / الفراغ الكائن بين قوسين
Aleros	زخرفة التيجان (أي الجزء البارز فوق الجناكيا)
Alfarje	سقف مسطح
Alfiz	طابق التاجزة أو العقد. أي الأطار المحيط بها
Almaizar	مئزر: أي الجزء السفلي من الحائط
Almena/Almynilla	زخرفة: أي الجزء العلوي فوق الحائط ويصنع ذو الشكل مختلفة
Almizate	وسط السقوف الخشبية من أعلى / صرة السقف
Almocárabes, O, Mocárabes	مقرنصات / مقرنصات
Altar	المذبح: الجزء المخصص لإجراء الطقوس الكنسية المسيحية
Apaditanum	حرفة النسيج / النسيج / النيراني في النماذج
Apuntado (Ojival)	عقد مدبب (أي ليس نصف دائرة وأعلى الاستدارة مدبب)
Arco Rebajado	عقد منحرج (أي أقل من نصف أسطوانة)

Armadura Independiente A Dos Aguas	سقف جمالوني
Arqueria	بابكة
Arquivolta	شتران العقد: أي الأطار البارز المحيط بالعقد
Arrocahe	الجزء النحسي الذي يقوم عليه جامل السقف الجمالوني // القاعدة الحقيقية للسقف الجمالوني
Atauriques	توريقات
Atizonado (Aparejo)	بناء (وضع القوالب بطريقة أدية وشتاوي)
Barbacana	بريكانة (سور أمامي / خط الدفاع الأول)
Enaagra	منصلة
Bóveda De Crucero	قبو منطقة التقاطع
Bulboso	شكل بصلي
Caldarium	غرفة الحرارة / المغطس / الجواني في الحمامات
Canto Y Fizon / Soga Y Fizon	رأس الكتال الحجرية أو الأجر بالطول والعرض (أدبية وشتاوي)
Ciego	عقد مطموس
Cimacio	خلية معمارية متموجة (توجد في النخطة التي تطوّر الجعد)
Collarín	طوق يوجد في بدن العمود سواء من أعلى أو أسفل
De Herradura	عقد على شكل حدوة
Dovela	سنجة: كتل حجرية هي مكونات العقد وقد تكون من الأجر
Enjarjado	عقد مشوش
Ermita	مصلى (كنيسة صغيرة توجد خارج أسوار المدينة)
Esmalte	ميناء: مادة طلاء لها ألوان مختلفة
Fragmentado	عقد مجزأ

Fuste	بدن العمود
Iglesia	كنيسة
Impostas De Araque De la Cúpula	خداقر يدالة القبة
Intrados	بطن العقد
Jamba	عمليارة: جانبا الباب (كلمة عربية: جنب)
Laceria	تشبيكة
Isadillo Aplandilado	الجر مقبولة طيننا الحباله البزازة
Lima	الخشبة في أعلى السقف الجمالوني
Macho Central	العمود المحوري في المثلثة
Mampostería	الدبش: قطع حجرية غير متناسقة
Medallón	معلق: شكل منبسط
Mensula	حامل: أطراف دعائم السقف البارزة عن الحائط
Modillon	كابرواني (يوجد في واجهة المذبح في العزيم العلوي والحيانا المركزي ما يكون على شكل رأس حيوان)
Mozarabe	مستعرب (أي الذين عاشوا في ظل الحكم الإسلامي في الأندلس)
Nacela	خليفة معمارية منحرفة
Nave Central	البلاطة الوسطى / الرواق I
Pilastra/Pilastion	دعامه / كتيف (التعبير المبني من الحجر أو النكل الحجرية سواء كان مريفا أو مضطبا أو اسطوانيا) بمعنى القلنس كتلة واحدة مثل بدن العمود
Quiciarela	سكرجة (عقب الباب)
Rolpo	طينية طازوية (مناقص)
Rombo	معين: متوازي الأضلاع

Salmier/Impostas	مردعة (هي تلك القطعة من الحجر أو الحجر المطبوعة أو ذات درجة ميل معينة لتتكئ عليها القطع التي هي مثبت العقد
Trados	منكب العقد
Trampa	منطقة الالتصاق
Typidarium	غرفة التدفئة / البيت الأول / الوسطاني في الحمامات
Venera	مخارة (داخل ما يسمى بطلاقة العقد / أو في أي تجويف آخر)
Zapata	القباب / الدعام (هي الكتلة الخشبية، أو الحجرية التي توجد في وضع مستعرض فوق العمود أو الكتف. وقد توجد كتلة حجرية مقدمتها مسننة في قاعدة الأعمدة أو الأكتاف الخاصة بالجسور